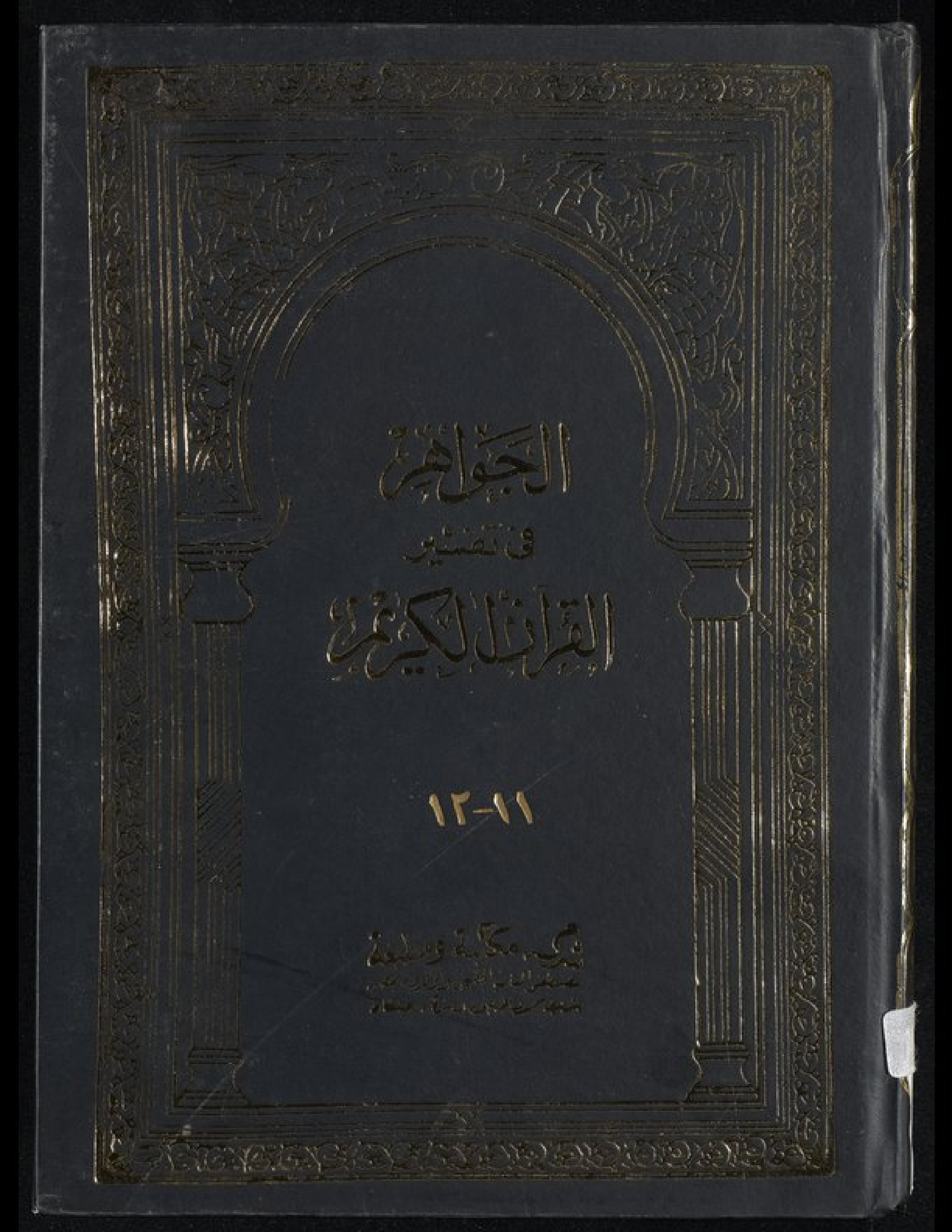

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
١١-١٢
مكتبة ومطبعة

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الحادي عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد أمين عمران

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج مكية غير ست آيات

(من قوله «هذان خصمان» إلى قوله «وهدوا إلى صراط الحميد» وهى ٧٨ آية)

وسنذكر مناسبتها لما قبلها عند الابتداء فى تفسير القسم الثانى من السورة .

وهى ثلاثة أقسام

[القسم الأول] فى البعث والدليل عليه ، وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله تعالى « وهدوا إلى صراط الحميد » .

[القسم الثانى] فى الحج والمسجد الحرام من قوله « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله» إلى قوله « وبشر المحسنين» .

[القسم الثالث] فى أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام هذه الدنيا على خالقها وضرب مثل بالعجز عن خلق الذباب عجزا تاما من قبل الأصنام المعبودة من قوله تعالى « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » إلى آخر السورة .

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ
الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ * وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ
بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *
يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ
أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ
فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ *
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ
وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * هٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ
فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا
فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ
أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *
وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) احذروا عقابه واعملوا بطاعته (إن زلزلة الساعة) قيام الساعة (شىء عظيم) هائل (يوم ترونها) أى الساعة أو الزلزلة (تذهل) الذهول: الذهاب عن الشىء بدهشة (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولدها ترضعه عنه ، والمقصود من هذا تصوير هولها (وتضع كل ذات حمل حملها) جنينها (وترى الناس سكارى) كأنهم سكارى (وما هم بسكارى) فى الواقع (ولكن عذاب الله شديد) فأرهقهم هوله بحيث طارت عقولهم وذهب تمييزهم . ولما كان النضر بن الحارث يكثر الجدال يقول لابعث ولا وحى نزل على النبى صلى الله عليه وسلم وما الملائكة إلا بنات الله نزلت هذه الآيات الآتية فيه وفى غيره ممن على شاكلته إلى يوم القيامة (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع) فى المجادلة وفى غيرها (كل شيطان مريد) متجرد للفساد ، ثم وصفه بأنه (كتب عليه) أى الشيطان (أنه من تولاه) اتبعه وضمير الهاء للشأن والحال (فأنه يضله) الجملة خبر لمن أو جواب له . والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال (ويهديه إلى عذاب السعير) لأنه يحمله على مايؤدى إليه . ثم أخذ يذكر الحجة على ذلك بالبراهين الطبيعية فقال(ياأيها الناس إن كنتم فى ريب) أى شك (من البعث) بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) فان أباكم آدم خلق منه وهكذا أنتم تغذيتم بالنبات وبالحيوان، والحيوان أيضا تغذى بالنبات والنبات غذاؤه من عناصر مختلفة، وهو من التراب فأنتم أيضا من تراب بواسطة (ثم من نطفة) أى المنى، فالانسان يكون جسمه مكونا من الدم الناشىء من الغذاء المنتهى إلى التراب ويتشأ من فضل ذلك الدم النطفة ليخلق بسببها آخر (ثم من علقة) أى دم جامد غليظ (ثم من مضغة) قطعة من اللحم وهى فى الأصل قدر مايمضغ (مخلقة وغير مخلقة) مسواة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسواة أو مصورة وغير مصورة (لنبين لكم) بهذا التدريج حكمتنا وإبداعنا ونظامنا (ونقر فى الأرحام مانشاء) أى نقره (إلى أجل مسمى) هو وقت الوضع من ستة أشهر إلى أربع سنين ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام (ثم نخرجكم) من الرحم (طفلا) صغارا وطفلا حال أجريت على تأويل كل واحد . وقرىء «ونقر ثم نخرج» بالنصب عطفا على نبين ويكون المعنى خلقناكم بالتدريج [لأمرين: الأول] إيقافكم بالتعلم على هيئة تربيتنا فى عملنا وحكمتنا فى نظامنا [والثانى] أننا نقركم فى الأرحام حتى تولدوا وتنشئوا وتبلغوا أمد التكليف . وفى هذا دلالة على أن قراءة علم الأجنة له من الشأن ماليس لنفس الأجنة بل هو مقدم عليها فهو سبحانه يقول إن نظامى المتقن إنما القصد منه أن تدرسوه وماخلقتكم إلا لتبينوه وتعرفوه .

إن معرفتكم لهذا الخلق ونظامه هى المقصودة من خلقكم ولو لم يكن فى القرآن كله سوى هذه الجملة لكفى فى تبيان أن العلوم الطبيعية كلها واجبة دراستها وجوبا عاما . أى أنها فرض كفاية يقوم بها البعض والباقون يستمدون من ذلك البعض ، وكما أن القرآن يقول الله فيه إنه تبيان هكذا يقول فى الطبيعة أو أهم قسم منها إنها للتبيين، فالقرآن تبيان والطبيعة تبيين (ثم) نربيكم (لتبلغوا أشدكم) كمال عقلكم وقوتكم جمع شدة كالنعم جمع نعمة (ومنكم من يتوفى) عند بلوغه الأشد أو قبله (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى ليعود كهيئته الأولى سخيف العقل قليل الفهم ناسيا للعلم .

فهذا دليل على إمكان البعث لأن هذه التغيرات المتتابعة المتناسقة تدل على أن التغير مستمر فاذا مات أمكن أن يحيا .

﴿ عجيبة

﴿ عجيبة من عجائب العلم ﴾

اعلم أن هذه الحجة بعينها هى التى أدلى بها (سقراط) عند موته لما كان تلاميذه حوله وهو يودعهم فى النفس الأخير . فهاك ماترجمه الفيلسوف (ستلانة) الطليانى والقفطى المصرى . ولأكتف لك بما يناسب هذه الآية قال [إنا نشاهد الضد يتولد عن ضده ؛ فالجميل ينشأ من القبيح والعدل من الجور واليقظة من النوم والنوم من اليقظة والقوة من الضعف وبالعكس ، فالأشياء يستحيل بعضها إلى بعض ثم ترجع بصفة دائرة إلى ماكانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان . فالوجود ينشأ من العدم والموت ينشأ من الحياة وعلى ذلك يلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لابد أن يكون للموت مايناقضه وإلا فقد خالفت الطبيعة قاعدتها المطردة فى جميع الأشياء] انتهى المقصود منه .

فانظر كيف كان استدلال (سقراط) على الحياة بعد الموت قبل القرآن بنحو تسعمائة سنة هو الطريق الذى نزل به الوحى . فالقرآن إذن بهذا يقيم للمسلمين الحجج العقلية ويفتح لهم باب الفهم ، فكأنه يقول أنا لم أرد أن أعلمكم ذلك بالوحى مجردا بل إنى أردت أن أفتح لكم باب البراهين العقلية وهذا بعض ماعناه بقوله «لنبين لكم» فهذا من التبيين وهو الاستدلال . ثم ذكر دليلا آخر تسهل مشاهدته للناس فقال سبحانه (وترى الأرض هامدة) ميتة يابسة ، من همدت النار إذا صارت رمادا (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) وانتفخت . وقرئ « وربأت » أى ارتفعت (وأنبتت من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن رائق (ذلك) هذا إشارة إلى ماتقدم من خلق الإنسان فى أطوار مختلفة وإحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره (بأن الله هو الحق) أى ذلك حاصل بسبب أن الله هو الثابت الوجود فيصرف الموجودات فى أطوارها وهو لايتغير ويبقى وجودكم على كل حال وإن تغيرتم فى الأطوار (١) فبقاؤكم سببه أنه هو باق (٢) وتغيركم سببه أنه قادر وحكيم ويكون ذلك لتربيتكم وترقيتكم لتقربوا منه فى مقعد صدق ، وعبر عن المعنى الثانى بقوله (وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) فهذه الجمل الأربع تبين للمعنى الثانى . يقول الله أنا حق ثابت باق فلذلك أبقيكم إلى ما لا يتناهى من الزمان وأنا قادر وحكيم فلذلك خلقتكم أطوارا . هذه هى الحجج التى ذكرها من علوم الطبيعة استدلالا على البعث .

﴿ ذم المعجبين بأنفسهم والمعاندين ﴾

قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) أى بلا علم كالنضر بن الحارث (ولا هدى) أى استدلال يهدى إلى المعرفة (ولا كتاب منير) أى وحى حال كونه (ثانى عطفه) أى لاوى جنبه وعنقه متبخترا متكبرا معرضا عما يدعى إليه من الحق . وقرئ « عطفه » بفتح العين: أى مانعا تعطفه إلى غيره . يقول الله تعالى هو يجادل (ليضل عن سبيل الله) أى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) هوان وذل فانه قتل هو وعقبة بن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) المحرق . هكذا كل من اتبع هواه فطاش سهمه وقل عقله فتكبر عن العلم وأعرض عن الاستدلال تيها وغرورا . ومثل هذا لايعطف على الناس لأنه لايرى أن هناك حياة بعد الموت فتكون همته فى الحياة الدنيا ويقال له (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) بل هو مجاز لهم على أعمالهم ، والمبالغة فى ظلام لكثرة العبيد .

ولما ذكر أن المعجبين بأنفسهم يصدون عن ذكر الله ويعرضون عن الاستدلال أعقبه بذكر من كان أمرهم كالمعلق فى الدين فلا هم آمنوا مطمئنين ولا هم من المتكبرين بل هم كالمذبذبين وهم قوم يعبدون الله على وجه التجربة والشك وانتظار نعمة فان أصابه خير بقى مؤمنا وإن أصابه شر ترك الدين وهو قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أى طرف من الدين فلاثبات له ؛ فمثله كمثل الذى يكون على طرف الجيش ، فإن كانت غنيمة اقتسم ،

وإن كانت هزيمة كان أول من انهزم وهذا قوله (فان أصابه خير اطمأن) سكن واستقر (به) بالخير والدين فعبدالله (وإن أصابته فتنة) شر وبلاء في جسده وضيق في معيشته (انقلب على وجهه) جهته أي ارتد ورجع إلى الكفر حال كونه قد (خسر الدنيا والآخرة ذلك) أي خسران الدارين (هو الخسران المبين) الظاهر فلا يخفى على أحد وذلك منطبق على أعاريب قدموا المدينة فإذا صح بدن أحدهم ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله قال قد أصبت خيرا بالإسلام واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شرا وانقلب عن دينه (يدعو من دون الله) بعد الردة من الأصنام (مالا يضره) إن لم يعبده (وما لا ينفعه) إن عبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الصواب (يدعو لمن ضره) بكونه معبودا عبادة توجب القتل في الدنيا بارتداده عن الإسلام والعذاب في الآخرة (أقرب من نفعه) الذي يتوقع بعبادته وهو الشفاعة (لبئس المولى) الناصر (ولبئس العشير) الصاحب وأي عشير هذا وأي مصاحب إذا كان لاينفع مولاه ولاينصر من يعاشره أما الله فهو ينفع (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلى قوله (إن الله يفعل مايريد) فتبين من هذا أن الأصنام لاتنفع وأن الله ينصر من تولاه فيدخله الجنات، وممن تولاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو ناصره؛ ومن أكبر أسباب العذاب في جهنم والخزي فيها والافتضاح مايداخل الإنسان من الحقد والغيظ على النعم التي يسديها الله لعباده فإن الله خلق الناس ليتعارفوا، فمن داخله الحقد والغيظ من نصر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فليفعل كل مايريد وليمد حبلا إلى سقف بيته فليقطع أي فليختنق لأن المختنق يقطع نفسه بحبس المجاري . والقصد من ذلك أن جهنم تحرق من كفر ومن حنق غيظا على الناس بل الآخرة لمن صفت سرائرهم ولم تخبث نياتهم، وهذا قوله (من كان يظن أن لن ينصره الله) أي محمدا صلى الله عليه وسلم (في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب) بحبل (إلى السماء) سماء بيته (ثم ليقطع) ثم ليختنق (فلينظر) فليتصور في نفسه (هل يذهبن كيده) فعله ذلك الذي سمي كيدا لأنه منتهى مايطيقه المغتاظ من الفعل (مايغيظ) أي غيظه من نصر الله لعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كل من كره النعم التي يعطيها الله لعباده جاهلا أن النوع الإنساني ينفع بعضه بعضا، فمن كره نعمة غيره فقد كره نفسه من حيث لايعلم لأن الناس في الحقيقة جميعا على سطح الأرض كالمتضامنين، وإن لم يعرفوا ذلك فإن أمم الشرق ينفعها أمم الغرب والعكس . فهكذا محمد صلى الله عليه وسلم دينه نافع لهؤلاء الناس وقد صح ذلك فإن أبناء العرب اتبعوه بعد ذلك إلا قليلا ، وقولنا إن من كره نعم الناس فقد كره نفسه قد برهن عليها الحكماء في علم الفلسفة فقد قالوا [إن الناس ينفع بعضهم بعضا فإن كل امرئ محتاج لسواه من سائر الناس يصل إليه خيرهم من حيث لايدري بالمتاجرة والعلم وغيرهما فهؤلاء مكملون له ومن كره غيره فقد كره من يكمل نفسه ومن كره من يكمل نفسه فقد كره كمال نفسه ومن كره كمال نفسه فقد أحب نقصها . ومعلوم أن الإنسان طبعا مغرم بحب كمال نفسه فتكون النتيجة هكذا أحب كمال نفسه وأحب نقص نفسه أو أحب نفسه وكره نفسه وإذا كرهها فقد استحل خنقها] وهذا البرهان العجيب هو الذي كان السر في التعبير بقوله « فليقطع » كأنه يقال أيها الكاره لمحمد الذي جاء لانقاذك إن نعم جميع الناس لاسيما الأنبياء نافعة لك ، فإذا كرهت نعم محمد فكأنك تختنق لأن النتيجة أنك تكره النعم لنفسك فتكره نفسك فتستبيح خنقها من حيث لاتشعر .

لاتفعل ذلك أيها المكذب محمدا صلى الله عليه وسلم ولاتجعل للغيظ محلا من قلبك فان القرآن كله آيات واضحات ولابد من أن يعم فاتبعه فهو خير لك من التمادي في العداوة والغيظ وهذا هو قوله (وكذلك) أي مثل ذلك الإنزال (أنزلناه) أنزلنا القرآن كله (آيات بينات) واضحات (وأن الله يهدي) أي ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى (من يريد) هدايته أو ثباته أنزله كذلك مبينا . وهنا أخذ يجلي حقيقة العالم الإنساني كله بعد ماين حقيقة للمعاندين فقال سبحانه (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا

إن

إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) فيظهر المحق من المبطل ويجازى كلا بما فعل ويضعه فى مقامه اللائق به فليس الله بغائب عن أحد . فالأنبياء وأممهم والطائعون والعاصون كلهم تحت مراقبته (إن الله على كل شىء شهيد) عالم مراقب لأحوالهم جميعا ومن ذلك مراقبة قلوب الحاسدين المتناظين وقلوب المعاندين والكافرين وقلوب جميع المؤمنين بالأنبياء السابقين ، فإن هم استقاموا أدخلهم جناته ، وإن عصوا أو كفروا أدخلهم ناره ومن أشد معصيتهم أن ينكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حين عرفوا حقيقة دينه وهو مطلع على قلوبهم فيعذبهم ، وإن كنتم فى شك من مراقبة الله لجميع العالم فانظروا كيف سجد له كل مافى السموات والأرض من عاقل وغيره وخضع لتسخيره مع النظام الجميل ، فهل يغفل عما نظمه بعلمه وصرفه بقدرته ودبر أحقر الحشرات وأحقر الذرات وجعل لكل حشرة من الكمال ماجعل لكل فيل من كماله بل لكل كوكب وشمس من عنايته. فكيف ترون هذا وتظنون أنه غافل مع أن مراقبته واضحة لمن تأمل فى الأشكال والأحوال والأخلاق والأطوار وإرضاع الأمهات لأولادها وهو قوله مستدلا على أنه على كل شىء شهيد (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) غلب العاقل على غيره وخص بالذكر أعظم ما تراه فعطف ما يأتى فقال (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) قد سجدوا سجود عبادة مع سجود التسخير الذى اشتركوا فيه مع غيرهم من العوالم (وكثير حق عليه العذاب) لأنهم لم يسجدوا سجود عبادة ليطابق سجود التسخير بكفرهم ، ثم أعقبه بأن الفعل له وحده فقال (ومن يهن الله) بالشقاوة (فماله من مكرم) يكرمه بالسعادة، وحينئذ يقال ما سبب هذا التمييز فيجاب (إن الله يفعل مايشاء) لحكم لاتدركونها فى الإهانة لقوم والخفض لآخرين بما استعدوا له ، كما استعدت الدودة لسكنى الطين والهوام لسكنى التراب والسمك لسكنى البحر . فهذا من النظام العام فى العالم الجسمى والعقلى وعقول أكثر الناس قاصرة لاتصل إلى فهم الحقيقة (هذان خصمان) فريقان مختصمان فلفظ خصم وصف لفريق المحذوف وقوله « اختصموا فى ربهم » راجع للمعنى، فالمؤمنون فريق والكافرون فريق آخر (اختصموا فى ربهم) أى جادلوا فى دينه فيقول أهل الكتاب نحن أولى بالله منكم ونحن أقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم . وقال المسلمون لهم نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبكتابنا وأنتم تعرفون نبينا وصدقه ولكن كفرتم حسدا والكلام أعم من هذين الفريقين وهؤلاء قد فصل الله بينهم كما قال « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » ثم قال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) تحيط بهم إحاطة كإحاطة الثياب حال كونهم (يصب من فوق رءوسهم الحميم) الماء الحار حال كون الحميم (يصهر) يذاب (به مافى بطونهم) من فرط الحرارة المؤثرة فى ظواهرهم وجلودهم الممتدة إلى أحشائهم (والجلود) لأنها الملاقية لتلك الحرارة (ولهم مقامع من حديد) سياط منه يجلدون بها جمع مقمعة(كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) أى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم (أعيدوا فيها) أى ردوا إليها بالمقامع . ويقال إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بتلك المقامع فيهوون فيها سبعين خريفا .

العذاب الصغر فى الدنيا مقدمة العذاب فى جهنم

واعلم أن نظائر هذا فى الدنيا والناس يضربون الآن بمقامع معنوية وهم لا يشعرون أنهم يضربون ويزجون فى العذاب . فهاك عادة شرب [التبغ] وهو التدخين وعادة الخمر وعادة شرب الشاى وعادة شرب القهوة وعادة الإسراف فى المآتم والأفراح وعادات كثيرة من هذا القبيل يعلم الناس أنها مهلكة لهم ولكنهم « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » هكذا الدول فى أوروبا شكلت لجنة سمتها [جمعية الأمم] للفصل بينها فى القضايا . ومن أكبر دول الأرض دولة الإنجليز وهى هى التى بطشت ببلادنا المصرية

بطشة الجبارين وقد كانت نزعت السلاح من الفلاحين ومن الأمة من قبل وأخذت منا السودان وأرجعت عسكرنا . والعالم الإنسانى كله يصرخ ونفس عقلائهم يصرخون قائلين [لاسلام لاسلام فى الأرض] والأمم كلها تعلم أنهم لاسعادة لهم إلا بسعادة كل منهم . ولكن مقامع الشره والحرص تردهم إلى أسفل سافلين وهذا هو معنى قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » أى من حيث نظام جسمه وبهجته ونظام عقله « ثم رددناه أسفل سافلين » فجعلناه يرتطم فى أوحال الأكاذيب والشهوات والطمع والحرص فيضر المرء أخاه وتضر الأمة غيرها مع علمها أن الضرر يرجع عليها بنقص الثمرات النافعة التى كانت تجنيها من أخواتها فى الانسانية . ترى الرجل يكثر من الكلام أو الأكل أو يكثر غضبه أو حرصه على المال أو غمه عليه أو عداوته أو كبرياؤه أو عجبه أو كراهته للناس ، أو يكون جبانا أو كثير الكسل أو النوم أو الخوض فى أعراض الناس ثم إذا سمع مثل هذا القول أو عرف الحقائق تمنى لو يرجع عن عادته ولكن سوء الأثر والتربية والعادة تقمعه بمقامع من حديد لا تراها ولكن أثره أشد من آثار المقامع الحديدية فيزج فى جهنم ومعه الأعمال . فهذا عذاب واقع فعلا ولكن الناس لا يفهمون أنه عذاب وهو مقدمة للاختباط والاختلاط والآلام بعد الموت وسيكون للناس هناك حسرات وزفرات وحال مزعجة . فعقولهم هنا هى عقولهم هناك . فالمقامع تكون هناك أتم والعذاب يكون هناك أخزى « إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ويقال لهم فيها (وذوقوا عذاب الحريق) أى النار البالغة فى الإحراق .

ولما فرغ من الكلام على أصحاب النار الذين هم ناقصو النفوس لجهالتهم أخذ يذكر الجنة لكاملى النفوس لصلاحهم فقال (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها) حليا كائنا (من أساور) جمع أسورة جمع سوار . وبين الأساور بأنها (من ذهب) وعطف على الأساور قوله (ولؤلؤا) أى ويؤتون لؤلؤا (ولباسهم فيها حرير) جملة اسمية أفادت أنهم اعتادوا لبس الإبريسم الذى حرم لبسه على الرجال فى الدنيا . وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » انتهى .

فأهل النار منغمسون فى آلام الأهواء والشهوات والخوف والطمع والغضب والبغض ، وأعدى أعداء الإنسانية فى كل حال شيئان : البغض والخوف ومنه الجبن ، وسعادة الإنسانية الحب والشجاعة والعلم فبها يدخلون الجنة . ومن العلم الإيمان الصحيح . ومتى ازدادت الحكمة والعلم وصفت الأخلاق رأى الناس ربهم . وكبرياء الله فى الحديث هى تعاظمه أن يراه الناس إلا إذا صفت النفوس فارتقت إلى العالم الأعلى اللطيف فعرفت وذلك قوله تعالى (وهدوا إلى الطيب من القول) وهو قولهم « الحمد لله الذى صدقنا وعده » و « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » (وهدوا إلى صراط الحميد) أى إلى دين الاسلام أى هدوا إلى دين الله المحمود . فالطيب من القول المذكور إنما هو وقوف النفس على الحقائق إذ يحيط علما بهذه المخلوقات على مقدار طاقته المعبر عنه بانفراد الله بالربوبية وصدور جميع النعم عنه وتنزهه عن الحوادث وذلك لا يكفى فيه علم التوحيد بل لابد من دراسة نظام هذه الدنيا درسا متقنا وهذه الدراسة تفتح باب الحب على مصراعيه لأمرين : الأول جمال الله المنبث فى هذه الدنيا . والثانى : النوع الإنسانى فيتعشق العلم بالأول والإحسان للثانى . فبالأول يرى الله وبالثانى يدخل الجنة لأن الجنة من يدخلها يكون سعيدا بالمحبة وما دامت هناك بغضاء بين أهلها فلا سعادة ولا جنة ؛ فالقلوب المتباغضة متباعدة متفرقة والقلوب المتحابة مقتربة كما أن النار مفرقة والجنة تجمع . ومثاله فى الدنيا نار الحريق تفرق المجتمعات المختلفة كالحطب المركب من عناصر مختلفة وتجمع المؤتلفات كالطين توقد النار عليه فيتحد . فنار الحب

تجمع المؤتلفات ونار البغض تفرق المختلفات ، وهكذا سيكون فى الآخرة نار الحريق لذوى النفوس المبغضة للناس ومنها نفوس الكفار الذين خالفوا طريق الحق فى نفع الإنسانية ونور الحب المشرق فى الجنة فيجمعهم لأن نفوسهم مؤتلفة والائتلاف بالإيمان والعلم ظاهر فى الدنيا فهكذا فى الأخرى . وكلما كان فى الدنيا أمتن وأقوى كان فى الآخرة أمكن فما هناك نهاية ما هنا .

انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة ، وهنا [أربع لطائف] .

[اللطيفة الأولى] فى قوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » .

[اللطيفة الثانية] فى قوله تعالى « ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم » .

[اللطيفة الثالثة] فى قوله تعالى « ثم نخرجكم طفلا » .

[اللطيفة الرابعة] فى قوله تعالى « وترى الأرض هامدة الخ » .

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » .

اعلم أن أول سورة (الحج) يناسب أول سورة (الأنبياء) فهناك يقال « اقترب للناس حسابهم » وهنا يقال « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » فملخص افتتاحى السورتين أنها قريبة وأنها شديدة . وقد ذكرنا شيئاً من أمر قرب الساعة فى أول (الأنبياء) ونذكر هنا قربها بأوضح وجه ، ذلك ليعلم المسلمون بعدنا أن الأمم الإسلامية قد حل بها كتب وآراء وأحلام أدخلت الغفلة على العقول وأحلت بساحتها كثيرا من الأراجيف وأكاذيب أضرت بأخلاق الأمة . ومما يحزننى ويوقع فى نفسى أشد الأسى أن كثيرين من عظماء الأمم الإسلامية ورجالات العلم تجوز عليهم ترهات فيتبعها من بعدهم . وإنى أقول ولا أخشى لومة لائم : إن الضلال الذى استحكم وانتشر فى أمر الساعة وتعيين زمانها قد أثر أسوأ الأثر فى أمم الإسلام ، كما أضر بآبائنا وبنا أمر المهدى وظهوره . وانتشار هذه الآراء فى أقطار الإسلام قد فرقهم وحط من شأنهم . ولأذكر لك الكلام على قرب الساعة هنا وعلى ظهور المهدى فى هذا المقام لتعرف الرأى الصحيح حتى إذا قرأت قوله تعالى فى سورة (المؤمنون) « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون » عرفت أن أمر المهدى فرقهم وقطع أوصالهم وأن ما نذكره هنا بمناسبة أمر الساعة يقوم مقام ذكره هناك فى تفسير هذا المجلد وإنما جمعناهما معا لتشابههما وتقاربهما واتصالهما . فلأجعل الكلام فى فصلين : الفصل الأول : فى الكلام على قرب الساعة الفصل الثانى : فى الكلام على المهدى المنتظر الذى يكون قبل قيام الساعة .

﴿ الفصل الأول: فى الكلام على قرب الساعة ﴾

(١) نقل السهيلى عن الطبرى أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة قال العلامة ابن خلدون ونقص ذلك بظهور كذبه وكان رأى الطبرى مأخوذا بطريق الحدس والتخمين . وقد كان مستنده فى ذلك أنه نقل عن ابن عباس « إن الدنيا جمعة من جمع الآخرة والجمعة سبعة أيام واليوم ألف سنة » وقوله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى » مع قوله صلى الله عليه وسلم « أجلكم فى أجل من قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وصلاة العصر فى بعض المذاهب إذا صار ظل كل شىء مثليه وهذا على وجه التقريب نصف سبع وهو فى هذا المقام ٥٠٠ سنة وبعد هذا التطويل والاستدلال ظهر كذب هذا الرأى . ذلك لأننا الآن فى القرن الرابع عشر ، فالقيامة قد مضى لها إذن تسعة قرون ونحن الآن فى الآخرة لا فى الدنيا وهذه من المضحكات .

(٢) وقال السهيلى أيضا [إن حروف أوائل السور بعد حذف المكرر منها تكون هكذا (ألم يسطع نص حق كره) وهى ١٤ حرفا وجملها ٧٠٣] هذا قوله وقد أخطأ فى ١٠ لأن الجمل ٦٩٣ فاعتقد السهيلى أن القيامة تقوم سنة ٧٠٣ هجرية باعتبار هذا الجمل (بتشديد الميم) وقد ظهر كذبه أيضا .

(٣) وقال شاذان البلخى وهو من المنجمين [إن الملة تنتهى إلى سنة ٣٢٠ هجرية] ومعلوم كذب هذا أيضا .

(٤) وقال يعقوب بن إسحاق الكندى [إن مدة الملة تنتهى إلى سنة ٦٩٣هـ] يريد عدد حروف الجمل المتقدمة على وجه التحقيق كما تقدم وقد عرفت كذبه أيضا .

(٥) وقال نوفيل الرومى المنجم فى أيام بنى أمية [إن ملة الإسلام تبقى ٩٦٠ سنة] وقد كذب أيضا

(٦) قال جراس [اتفقوا على أن خراب العالم بعد ٩٦٠ سنة] وهو كذب أيضاً .

(الفصل الثانى فى الكلام على ظهور المهدى المنتظر)

اعلم أيها الذكى أنى وأنا طالب بالجامع الأزهر فى السنين الأولى كنت مارا يوما صباحا إذ سمعت عالما يقرأ فى الحديث الشريف وهو يقول ما معناه « سيخرج رجل من آل بيتى اسمه على اسمى واسم أبيه على اسم أبى يملأ الدنيا نورا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » فلما سمعته تاقت نفسى لهذا المهدى الذى سيخرج فى الأمم الإسلامية ويهديها . ولما كنت فى الريف أيام العطلة ببلادنا بالشرقية كنت أسمع من العامة فى سمرهم أن المهدى سيظهر ويقسم الأرض بين الناس وتكون سعادة عامة فأصبحت فكرة المهدى عامة فى المسلمين العلماء والجهال . فلما قرأت الكتب وجدت لهذا المهدى احاديث كثيرة وقد قام فى الأمة فعلا رجال بهذا العنوان كالمهدى السودانى وكعبيد الله المهدى الذى كانت له ولذريته دولة الفاطميين بالمغرب ومصر وهكذا غيرهما . ولقد رأيت أعظم عالم بمصر أيام ظهور المهدى السودانى يقول إنه هو هو المهدى فأيقنت بان الأمة الإسلامية تغلغلت فيها هذه الفكرة وثبتت ولم أر عالما فى الأمة أماط اللثام عنها وشرحها شرحا وافيا مثل العلامة ابن خلدون فإنه هو الذى جمع الأحاديث الواردة فى المهدى وأتى بجرحها وقال إن الجرح مقدم على التعديل كما هو معلوم عند علماء مصطلح الحديث وأتى بكلام الصوفية ، وظهر من بيانه أنه لا فرق فى هذه الأمة بين رجال الحديث ورجال التصوف من حيث إن كلا منهما تدخل عليه الغفلة مهما حذق وعلا كعبه فى العلم . وعجبت لهذه الأمة المسكينة كيف ظهر فيها محققون وكيف يبقى هذا التحقيق فى كتب لا تظهر لأهل العلم جميعا .

إن هذا التحقيق فى مقدمة ابن خلدون فكان واجبا على أهل العلم أن يبينوا ذلك وأمثاله فى كتب الحديث وفى مناسبات كثيرة حتى تعرف الأمة الحقائق . ولعل تلخيص هذا المقام فى هذا التفسير مما يعمم الفكرة ويزيل الضلالة والجهالة من بلاد الإسلام . فإذا كنت أنا وأفاضل شيوخى قد سرت فينا الفكرة وسرت فى آفاق الإسلام فلألخص الموضوع تلخيصا تنويرا للأذهان حتى تطرد تلك الفكرة من الأذهان فى بلاد الإسلام فأقول :

(١) روى أبو بكر الإسكاف فى فوائد الأخبار عن مالك بن أنس بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب » وهكذا قال فى طلوع الشمس من مغربها وأبو بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع .

(٢) وروى «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » وهناك روايات أخرى وكلها معتبرة من الأحاديث الحسنة الصحيحة ولكن مع هذه الصحة قد طعن فيها بأن الحديث مروى عن عاصم وعاصم ضعيف الرواية وكثير الخطأ فى حديثه وفى حديثه اضطراب .

(٣) وروى أيضا فى حديث من رواية قطن بن خليفة وهو متهم ، وقال الدارقطنى لا يحتج به ، وقال الجرجانى زائغ غير ثقة .

(٤) نظر على إلى ابنه الحسن وقال إن ابنى هذا سيد ــ كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ سيخرج من صلبه

رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه فى الخلق ولا يشبهه فى الخلق يملأ الأرض عدلا » وفيه روايات أخرى ومن رواته عمر بن أبى قيس وفى حديثه خطأ وله أوهام ومن الرواة له أبو اسحق وقد اختلط فى آخر عمره وهكذا ذكر بقية الروايات وأتى بجرحها تارة وإنكارها أخرى . وليس لى أن أذكر ذلك كله فان ذلك إطالة فى هذا التفسير الذى أردت فيه أن تكون الفائدة قريبة للأخذ وهذه الأحاديث متشابهة ورواتها كثيرا ما يكون الحديث صحيحاً بسبب عدالتهم وشهرتهم ولكن يطعن فيه بسبب غفلة رجل منهم أو خطئه أو نحو ذلك . فماذا تفيدنا الإطالة ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، فلما أتمها قال : فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقل منه ثم روى حديثا بنفى المهدى وتكلم فى جرحه وتعديله . انتهى

(كلام رجال الصوفية)

قال العلامة ابن خلدون [إن المتقدمين منهم لم يخوضوا فى شىء من هذا وإنما كان كلامهم فى المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من المواجيد والأحوال ، وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على رضى الله عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى صلى الله عليه وسلم والتبرى من الشيخين . ثم حدث بعد ذلك القول بالإمام المعصوم . (أقول وقد تقدم هذا فى سورة الكهف عند قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضداً » فاقرأه إن شئت فانه مستوفى هناك) وكثرت التآليف فى مذاهبهم وجاء الإسماعيلية يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، والآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجىء من يقطع بموته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين بأحاديث المهدى التى تقدم بعضها هنا . ثم حصل بعد ذلك عند المتأخرين من الصوفية الكلام فى الكشف وفيما وراء الحس ، وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم وظهر أيضاً منهم القول بالقطب والأبدال ، وكأنه يحكى مذهب الرافضة فى الإمام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة أن عليا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة فى طرق الهدى ، وفى تخصيص هذا بعلى دونهم رائحة من التشيع قوية نفهم منها ومن غيرها دخولهم فى التشيع وانخراطهم فى سلكه وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر وبنوا ذلك على أصول واهية وربما استدلوا بكلام المنجمين فى القرانات] .

قال (وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين فى شأن الفاطمى ابن العربى الحاتمى فى كتاب (عنقاء مغرب) وابن قسى فى كتاب (خلع النعلين) وعبد الحق بن سبعين وابن أبى واطيل تلميذه فى شرحه لكتاب (خلع النعلين) وأكثر كلماتهم فى شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون فى الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم بأن هناك نبوة فخلافة فملكا فيحدث تكبر وتجبر وباطل وهنالك تكون ولاية وخلافة الولاية فملك ثم كفر ، فكما كانت النبوة لها خلافة فملك فتجبر هكذا الولاية خلافة فملك ثم كفر والولاية الفاطمى المنتظر وسماه ابن العربى الحاتمى (خاتم الأولياء) وكنى عنه بلبنة الفضة مشيراً إلى حديث البخارى فى (باب خاتم النبيين) إذ قال صلى الله عليه وسلم « مثلى فيمن قبلى من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة » فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان) .

ويقولون إن الولاية لها مراتب كمراتب النبوة وخاتم الأولياء كخاتم الأنبياء . فخاتم الأنبياء أكمل بنيان الأنبياء وخاتم الأولياء أكمل بنيان الأولياء ، غاية الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لبنته من ذهب وخاتم الأولياء لبنته

من فضة. وقال ابن العربى فيما نقل عنه ابن أبى واطيل : وهذا الإمام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون بعد مضى (خ ف ج) من الهجرة وذلك بالجمل ٦٨٣ سنة وهى فى آخر القرن السابع . ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك مقلدوهم على أن المراد بتلك المدة (مولده) وأن خروجه بعد ٧١٠ يخرج من ناحية المغرب . أقول وأنت تعلم أن ذلك لم يتم . وأطال العلامة ابن خلدون فى نقل كلامهم على هذا النحو ثم قال [والحق الذى ينبغى أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله . قال وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أريناك هنالك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر وهم منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون فى مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة . فان صح ظهور المهدى فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم فى أتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها ، وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمى منهم إلى مثل هذا الأمر فى أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبته فى أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة . ثم أفاض فى ذلك وأبان أن ما يدعيه العامة والأغمار فى ذلك من الدهماء لا يرجع إلى عقل ولا هدى ولا كتاب منير] .

هذا ما أردت تلخيصه من مقدمة العلامة ابن خلدون فى أمر قرب الساعة وفى أمر قيام المهدى لتستبين سبيل الرشاد ويقف المسلمون بعدنا على آراء قد انتشرت قبلنا فى بلاد الاسلام وفرقتهم وزعزعتهم . فاقتراب الساعة بالمعنى المتقدم وظهور المهدى كلاهما قد أضعف عزائم الأمة وأورثها الخور . ومن أعجب العجب أن ينسب هذا للعلامة الكبير ابن العربى . ولقد اطلعت فى الفتوحات المكية على هذا المعنى فى مواضع منه ، فان صح هذا ولم يكن مدسوسا عليه من أهل زمانه كان ذلك دالا على داء فتاك أصاب الأمة كلها وقطع أحشاءها ، فإذا وصل الداء إلى كبار العلماء والأولياء فقد وصل إلى قلب الأمة وهذا هو الموت . يسمع المسلم بقرب قيام الساعة بالمعانى المتقدمة التى قد ظهر كذبها فيقول لم أعمل ولم أجد والناس سيموتون جميعا ويسمع بالمهدى المنتظر فاذا قام داع سارع إليه الجهلاء والتفوا حوله ثم يقوم آخر فيتبعه آخر وهكذا حتى إن مشايخ الصوفية كل منهم قد اتخذ لنفسه أتباعا وأراهم أنهم أحق بالله وبالحقائق وغيرهم من أمم الإسلام جاهلون، ولست أذكر شيخا خاصاً فان هذا التفسير عام للمسلمين ولكنى أقول قولا جامعاً .

أيها المسلمون . ويا أيها العلماء ، اسمعوا ، حم الأمر وقضى الله بالحق . هاهى ذه أمة الإسلام قد تفرقت شيعا وذاق بعضها بأس بعض ، ليس لكم والله ملجأ إلا الرجوع لنفس القرآن وقراءة جميع العلوم ودراسة هذه الدنيا من العلوم الفلكية والطبيعية والسياسية وهكذا . إذا درس المسلم علم الفلك ثم قال يا الله أنت خلقت آلاف آلاف الكواكب وأرضنا بالنسبة لتلك المخلوقات كما تقدم لو صغرت حتى صارت جوهرا فرداً ثم صغرت العوالم على مقتضاها لصارت العوالم كلها ألف مليون أرض كأرضنا هذه على حالها اليوم . هنالك يقول المسلم . فإذا كانت أرضنا هذه حالها فهى أشبه بالعدم . فمن هو هذا الذى يدعى أنه قد حل فيه الله وما الأرض ومن عليها . ثم ينظر المسلم فيرى حكمة وإبداعا وغرائب وعجائب فى أصغر حشرة وورقة فيدهش لإبداع الله ويبتهج بالحكمة وهنالك يقرأ المسلمون العلوم ويعرفون الصناعات . ومتى فعلوا ذلك رضوا أعمهم، أما الاتكال على المهدى وأنه سيجىء فيتبعه الناس ، فمعنى هذا أنهم متكلون عليه فى إسعادهم ولم تشمهم والله

عز وجل هو الذى خلق الناس وأعطاهم عقولا وأمرهم أنهم هم الذين يجدّون ويجتهدون بأنفسهم « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

سيأتى لهذا المقام بقية فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » إلى قوله « كل إلينا راجعون » . وقصارى القول هنا أن الله عز وجل ما أنزل كتابا من السماء ولا علم علما إلا مريداً بذلك إيقاظ الهمم . فإذا قصد المسلمون من الرافضة والشيعة والإمامية ومن تبعهم من الصوفية المتأخرين بالمهدى أن يكون سببا فى إسعادهم وهداهم مرة واحدة فقد أخطئوا . وليعلموا أن الطفل لا يولد إلا بعد نموه فى الرحم بالتدريج . هكذا لا تكون الهداية والرحمة العامة التى تجعل الناس أسرة واحدة إلا بجد واجتهاد من الأمم كلها التى أهمها الأمم الإسلامية المستقبلة التى ستنتشر فيها هذه الآراء وبها يجدون فى الرقى . هنالك يعقل الناس معنى التعاون العام والهداية العامة والعيش بسلام مع الأمم والروح العيسوية التى ورد ذكرها فى الأحاديث الشريفة ، وقد قدمنا فى هذا التفسير فى غير ما موضع أن المدار على هذه الروح العامة بالجد والاجتهاد منا نحن الذين نعيش فى الأرض ، هنالك لا مانع يمنع من نزول المسيح ابن مريم لأنه يجد الناس يقبلون دعوته ، وقلنا هناك إن المدار على هذه الروح فى أهل الأرض لا على رجل واحد أو رجال يسقون الناس الهدى سقيا بلا استعداد ولا هدى . واعلم أن الأمم اليوم أخذت تتقارب فى السياسة وتسعى للسلام كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم »

اعلم أن هذا المقام قد استوفيته فى أول سورة (آل عمران) وتبين لك فيه كيف كان الله مبينا فى علم الطبيعة كما كان مبينا بالكتب السماوية مفهما نوع الإنسان فى سفر الكائنات ما لا يتحمله كتاب من الكتب ولا عقل حكيم من الحكماء . وهناك ترى كيف كان الخلاف بين هيكل الألمانى الفيلسوف وبين بعض علماء ألمانيا فى تكوين الأجنة ، وكيف كانت أدوار الجنين فى بطن أمه دالة على تناسق العوالم الحيوانية وأنها درجات ، وكيف كان هذا الكتاب الذى أودعه الله بطون الأمهات مفصلا تفصيلا بحيث تقرأ أبوابه بابا بابا كما تقرأ كتب الديانات وكتب العلوم من الحساب والهندسة والطب ، وكيف ترى أجسامنا ونحن أجنة تفتح باب العوالم الحية فترى كأنها حيوان الماء تارة وحيوان البر تارة وتنزع عنه صوره مبينا مصير الإنسان بصورة واضحة وأنه سائر إلى طريق الكمال وهذا كله من قوله تعالى « لنبين لكم » .

وهل لك أيها الذكى أن أقص عليك الآن من تفسير هذه الآية ما لم أعرفه وأنا أفسر فى سورة (آل عمران) منذ نحو سنة ونصف ؟ فهناك فسرت قوله تعالى « لنبين لكم » تفسيرا علميا . أما الآن فلأفسرها تفسيرا خلقيا أدبيا لتعجب من هذه الدنيا ونظامها والتبيين واختلافه وأن الله كما بين العلم فى دروس الطبيعة بين الأخلاق فيها ، فاعلم هداك الله إلى طريق الحق وإياك إلى سبيل الرشاد أن المضغة المسواة وغير المسواة اللتين جعلتا لتعليمنا قد شملت مواعظ جمة :

(١) ذلك أن الإنسان يرى أن من الناس من يخلقون صما ، ومنهم العمى أو فاقدو قوة النطق أو معوجو اليدين أو الرجلين أو ضعيفو العقل أو مشوّهو الخلقة ، ومنهم من يخلقون وإنما هما توءمان ملتصقان لا ينفكان حتى يموتا . كل ذلك يكون خلقة أثناء التخلق فى الرحم . وقد يطرأ بعض ما تقدم بعد الولادة وهم فى طريق الحياة . تلك كتب كتبت بحروف كبيرة ، هذا كتاب كتبه الله للناس بحروف كبيرة « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

إن الله وضع النظام على هيئة ثابتة ولكنه هو نفسه يخرق القانون ويغيره ليرشدنا أن هناك نواميس وقوانين أرقى فهناك نظام الأجسام الحيوانية والإنسانية ترى أن المواد الغذائية المستخلصة من أرضنا ومائنا

وهوائنا قد اقتنصت وحبست فى أجسامنا فلم يفلت الهواء إلى أعلى ولا الماء إلى الأنهار ولا المواد الأرضية إلى أرضنا وهى ما اقتنصناها من الحبوب والفواكه والخضر فترى الإنسان والحيوان قد حكما هذه العناصر فى أجسامهما ، فهذا أول برهان على أن النظام الطبيعى فوقه نظام أعلى وأن هناك قوة قاهرة قد حكمت على هذه العناصر أن تغير خلقها وأن الإنسان يقدر أن يبدل العادات السيئة فيه بعادات حسنة كما غيرت طبائع الذرات التى هى فيه .

(٢) نرى أن من الحيوان ما لا حواس له إلا اللمس كدود الفاكهة ، والدود الذى فى باطن الحيوان . ومنه ماله حاستان وثلاث وأربع فقط كبعض الفيران تعيش فى الظلمة فتفقدها حاسة البصر لعدم لزومها ، كل ذلك مخلوق فى الطبيعة والناس يشاهدونه ويشاهدون الدود يعيش بلا حواس ماعدا اللمس ؟ ومعنى هذا التبيين أن الله يقول لنا انظروا الدود إنه حى وقد فقد الحواس الأربعة وأعطيتكوها فانظروا ماذا تصنعون بها إنها شبكات لصيد العلم لترتقوا عن هذا العالم فعليكم أن تفكروا بهذه الحواس فى هذا العالم ، وإنى ما أعطيت نعمة إلا وقد جعلت بجانبها نقمة ، فهمومكم وغمومكم أكثر ألف مرة من غموم وهموم الدود لكثرة حواسكم وإنما فعلت ذلك لأضطركم إلى العمل بها واقتناص الآراء بشبكتها . فالهم الذى أحاط بكم لحثكم على الاهتداء بالعلم لتخرجوا من هذا العالم ؛ كل هذا خلقته بين ظهرانيكم ولكنى أعلم أن هذا الدرس لا يفهمه إلا قليل ؛ لذلك أردت أن يكون الدرس من نفس الإنسان فجعلت المضغة تارة مسواة وتارة غير مسواة لتروا العمى منكم فتعرفون نعمة ربكم وتروا الصم وتروا البكم وتروا الزمنى ومن ضعفت أيديهم ومن فقدوا عقولهم ، كل ذلك لتروا أنى ما جعلت هذا فلتة أو غفلة أو عدم عناية بل جعلت هذا لأبين لكم فتقولون إن أكثر الناس أصحاء العقول والحواس والأعضاء ، وهؤلاء الذين خلقوا ناقصين أو حدث لهم النقص فيما بعد إنما جاءوا لنقرأ دروسنا عليهم ونعرف أن تلك المواهب نعمة يجب أن نقتنصها ونعرف النعمة التى ستزول عنا كما زالت عن غيرنا فنسرع بالاستفادة منها ، وإذا كنا لم نفهم نقص تلك الحواس والأعضاء فى الحيوان فنحن مستعدون لفهم نقصها فى الإنسان لأن الحيوان الذى نقص شيئا من هذا لايؤثر فينا لشيوع ذلك النقص فى نوعه كالدود ولكن النقص والتشويه فى جسم الإنسان أسرع أثرا فى نفوسنا وأبقى علما وأبلغ معنى . هذه القراءة ليس يعرفها الناس جميعا . هى قراءة لايعقلها إلا ذوو العقول الكبيرة لأن حروفها وكلماتها هذه الصور الحيوانية والإنسانية وهى كبيرة وهذه الكبيرة لا يفهمها إلا العقل الكبير ، فاذا قال الله تعالى فى كتبه السماوية إن الناس سيحشرون وكتب ذلك بالحروف الهجائية أو سمعوه بأصوات هوائية فهموه فهما على قدر طاقة عقولهم ولكنه إذا مزق حجب الطبيعة بأن فتك بها وهدم كيانها وجعل عاليها سافلها فى جسم الحيوان وخالف طبعها بجعل الخفيف والثقيل والمتوسط كله فى شكل واحد . وإذا حرم بعض الحيوان حواس . وإذا فرق الأمراض والنقص حسنا وعقلا وأعضاء على الناس لم يفهم هذا إلا القليل ، ولهذا قال الله « لنبين لكم » تبيينا تعقلونه بعقولكم وتدرسونه بأنفسكم .

فها أنت ذا أيها الذكى عرفت حكمة نقص بعض الأعضاء أو الحواس نقصا خلقيا أو عارضا وأن ذلك دروس يدركها الحكماء وأنها مقصودة وإن كان ظاهر الطبيعة يفيد أنه عارض غير مقصود ، وهناك مسألة التوءمين المخلوقين المرتبطين معا برباط تام بحيث يولدان معا ويموتان معا فى عصرنا الحاضر وكيف كانت حياتهما وهذا أيضا من مسألة المضغة غير المخلقة ليبين الله لنا بهذا أمرين : يقول أنعمت عليكم بأن كلا منكم خلق مستقلا فلم يتصل بجنين آخر ، ويقول أيضا إن اتصال اثنين معناه الاتحاد فى أمور الحياة وهذان الاثنان لما اتصلا لم يمنع ذلك كلا منهما عن مزاولة أعماله الخاصة به وهو مع ذلك مرتبط مع الثانى أشبه بارتباط الأمة كلها وأهل الدين الواحد كلهم وأهل الأرض قاطبة ، فهذان التوءمان الملتحمان قد تلازما موتا وحياة وإن

اختلفا

اختلفا صفات كما تختلف الأمة الواحدة فى أحوالها ولـكن التضامن فيما بينهم يجعلهم متحدين ارتقاء وانحطاطا وضعفا وقوة ، وهاك مسألة التوءمين :

(٣) التوءمان المتصلان

اعلم أن العالم الإنسانى الآن أصبح يدرس الغرائب والعجائب أكثر من ذى قبل . أخذ يدرسها لمجرد التعجب وشاع هذا التفرج وكثر ، ولماذا هـذا ؟ ذلك لأن السكك الحديدية والسفن البحرية والطيارات الهوائية قربت المسافات فأخذ أصحاب العجائب يعرضونها على الناس ويتناولون دراهم والناس فرحون بما يشاهدون . وما جعل الله الغرائب إلا للدراسة لأن الناس لا يدرسون ولايتفرجون غالبا إلا على ماكان نادرا وهذا النادر كلما كان أندر كان العلم به أعجب وألذ . علم الله ذلك فى الإنسان.فماذا عمل . خلق العمى والصم الخ كما قلت لك ليدرسها الناس، وجعل أندر من ذلك وأعجب التوءمين ، وقد خلق الله فى هـذا العصر توائم كثيرة منها ماعرفناه ومنها مالم نعرفه لعدم ظهوره :

(١) فمن ذلك (توءمان هنديان : أحدهما) يسمى (راديكا) والآخر (دوديكا) وهما بنتان عملت لهما عملية جراحية ففصلتا بعد سنة ١٩٠٠ ببضع سنين وكانتا لاتبلغان تسع سنين وعاشتا بعدفصلهما . ثم إن اتحاد التوءمين قد يكون فى الصدر أو فى الرأس أو فى البطن أو فى الحوض .

(٢) ومن التوائم التى عاشت (توءمان صينيان) وهما ذكران كانا فى السابعة عشرة من العمر وعاشابعدها وهما قويا البنية وقد اتحدا فى طوق القص أى العظم الصدرى فانه يستطيل قليلا ويخرج من الصدر حتى يلتق برفيقه فيتحدان . وهذان التوءمان لم يظهر عليهما تعب من هذه المشاركة .

(٣) وهناك (توءمان سامِيان) من بلاد (سيام) خلقا متقابلين أحـدهما اسمه (شانغ) والآخر اسمه (انغ) وأبوهما اسمه (بونـكر) ولدا فى قرية (بانـكوك) بسيام سنة ١٨١١ وقداتحدا بعظم القص فى أسفل الصدر بزائدة لحمية ضخمة وفى جهة أخرى وقد حملا إلى أوروبا وهماطفلان وسافرا إلى أمريكا وعرضا نفسيهما للفرجة فجمعا مالا كثيرا وعاشا فى (كارولينا) فى الولايات المتحدة واشترى كل منهما عقارا واتحدا أن يقيم كل منهما مع الآخر فى ملكه ثلاثة أعوام وكان الناس يحترمونهما وتزوجا أختين سنة١٨٤٣ وأحدهما وهو(شانغ) ولد له عشرة أولاد سليمى البنية إلا صبيا وصبية ولدا أصمين . وولد ثانيهما وهو (انغ) ١٢ ولدا كلهم صحيحو البنية . فلما كانت الحرب الأهلية بالممالك المتحدة خسرا كل مالهما فسافرا لأوروبا . وفى سنة ١٨٦٣ مال شانغ إلى الإفراط فى المسكرات وظل أخوه معتدلا فى كل شىء. فاتحدا فى كل شىء واختلفا فى الأخلاق وفى سنة ١٨٧٢ أصاب (شانغ) المذكور ألم عصبى فى العين اليمنى ثم انحلال فى سائر بدنه ثم ضعف جـدا . وفى سنة ١٨٧٤ أصابته نزلة صدرية لم يسرع فى معالجتها وبعد مدة أفاق (انغ) وظل (شانغ) نائما فنادى (انغ) بعض أولاده ليوقظ عمه فناداه الغلام (عماه عماه) وحركه إذا هوميت فصاح (هو ميت) فاضطرب (انغ)وقال بنغمة اليائس الحزين (فاذن أنا مائت أيضا) ثم انقطع بوله وعسر نفـسه ومات بعد أخيه بساعتين وسنهما (٦٣) سنة .

(٤) (توءمان متفاوتان) أحدهما ضامر والآخر تام كامل ويحمل الآخر كأنه طفل . وأغرب وأشهر هذا النوع رجل هندى يسمى (لالو) ولد فى (لـكنو) ببلاد الهند ومعه توءم آخر متصل به فى بطنه كانا فى أول الأمر متساويين فى حجمهما فلما كبرا ظل أحدهما صغيرا ولم ينم إلا قليلا فأصبح كأنه طفل يحمله شاب، ولما كان ذلك أمرا غريبا جعل يطوف المدن يعرض نفسه للفرجة فى الأسواق. وفى آخر ماعرف عنه أنه كان فى الولايات المتحدة فى العقد الثانى من القرن العشرين اه .

هاأنا ذا عرضت عليك ماعرضه الله على الناس فى أسواقهم ومدنهم الـكبيرة . إن الله وضع فى الناس

حب الغرائب لأنها دروسهم . فالعامة للتعجب والخاصة يقولون : كلا ؛ فالتعجب أول العلم بل هو الباعث عليه ويقولون إن هذه التوائم وإن بدت لعين الناظرين إنها رمية من غير رام أو خطل فى الطبيعة، فانا نقول إنها مقصودة للدراسة . يرى الناس التوءمين (شانغ) و (انغ) وقد عاشا معا وماتا معا ولكن أحدهما قتله الخمر والآخر معتدل وقد عاشا فى هناء واشتركا فى السراء والضراء . هكذا الإنسانية كلها أو الأمة كلها أو أهل الدين الواحد يعيشون ويقتسمون الأفراح والأتراح . فإذا طاش فرد أو أفراد من الأمة والتووا ولم يقوموا بواجبهم كان ذلك إضعافا للأمة . فعلى بقية الأمة أن يقوموا المعوجّ منها وإلا سرى الداء من المريض إلى الصحيح جسما وعقلا واقتصادا وسياسة وهكذا الأمم كلها متصلة اتصال التوءمين فأى نقص حصل فى أمة أثر فى الأخرى، فإذا نقص محصول القمح فى أمة أو محصول القطن أو غيرهما أثر فى الأمم الأخرى غلاء الأسعار ونقص التجارة، وأى ضعف فى أمة يتصل بالأخرى فإن هذه الضعيفة لاتستطيع استقبال صناعتها ولا تجارتها . إن العالم الإنسانى كله لم يخرج عن كونه مثل (شانغ) و (انغ) وإن أمم الشرق النائمة سقطت معا ولاتقوم إلا معا فإذا لم يقوّم بعضها بعضا ولم يساعد بعضها بعضا التقمتها أوروبا . إن الأمة الواحدة وأهل الدين الواحد بينهم تضامن حقيقى

إن هذا التوءم نراه بأعيننا مكتوبا بالحروف الكبيرة يفسر لنا قول النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وتمثيل المؤمنين فى الحديث بالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . إن الله بين لنا بهذين الإنسانين وأمثالهما تضامن الناس وأن علماء الشرق ينفعون أهل الغرب بطريق غير مباشر وبالعكس وأنه خلق هذين فى (سيام) وجعل قوتهما بالتفرج عليهما لينشر ذكرهما فى الكرة الأرضية وليكونا درسا للناس وعبرة وتفسيرا لهذه الآية ولولا حبهما المال وجمعهما له ما وصل خبرهما إلى مصر وما جعلتهما درسا لقوله تعالى « لنبين لكم » .

فأهل الدين الواحد ، وأهل القرية الواحدة ، وأهل الأمة الواحدة . وأهل الأرض الواحدة بينهم تضامن وهم يجهلون وتعارف وهم يتغافلون . إن الإنسانية لاتزال طفلة إلى الآن والعقل الإنسانى لايزال أمامه عقبات وعقبات ومفاوز ومفاوز حتى يصل إلى غايته المنشودة وطلبته المرغوبة وأعماله العالية وأغراضه الغالية .

إن كل امرىء كأنه مسئول عن جميع الإنسانية وإن كل الإنسانية كأنها مسئولة عن الفرد وأن الساسة فى أوروبا وزرتهم وقولهم الإنسانية ينطقون بألفاظ هى أصل القصد الإنسانى ولكنهم يفعلون ضدها . ذلك لأن الإنسانية اليوم لفظية وسيجىء يوم للنوع الإنسانى يكون فيه أرقى منه الآن وتحقق هذه المطالب وتذهب عنه تلك المثالب « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »

(اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « ثم نخرجكم طفلا »)

اعلم أن التناسل على قسمين : التناسل بطريق الذكر والأنثى . والتناسل بغير ذلك . أما القسم الثانى فإنه يشمل جميع الأحياء الدنيا كالميكروبات والديدان وبعض أنواع النبات التى لازهر لها وهو على أنواع :

(١) الحى إذا بلغ أشده انقسم إلى قسمين وكل منهما ينقسمان قسمين وهكذا على التعاقب .

(٢) أن ينقسم الحيوان الواحد إلى عدة حيوانات .

(٣) إذا بلغ الحيوان أشده انفجر فخرج منه حيوانات صغيرة تنمو وتتناسل وبموت ، فنفس جسمه يقسم ويذهب ويعدم هو وتخرج حيوانات هى أجزاؤه فى الأصل .

(٤) أن ينبت على جسم الحيوان شىء كأنه أصل غصن لشجرة ثم يبلغ فينفصل فيصير حيوانا مستقلا ، ومن هذه الأنواع ما ذكره اللورد (أفبرى) فى كتابه (جمال الطبيعة) وهو من النوع الأول هنا أن بعض الحيوانات الدنيا يحدث وسطها حزّ ولا يزال هذا الحزّ يدق ويدق حتى ينفصل القسمان المقدم والمؤخر فيصير

كل منهما حيوانا مستقلا . وهنا يرد سؤال فيقال أيهما هو الأول وأيهما هو الثانى ؟ إن هذين الحيوانين كانا واحدا فمن منهما هو الذى كان أبا ومن منهما هو الابن أم الواحد انقسم اثنين؟ وإذا قلنا بالثانى وقد علمنا أن كلا من هذين الاثنين ينقسمان ولا يزال الانقسام إلى ما لا يعلم منتهاه . أفنقول إن هذه الحيوانات خالدة لن تموت . أم ماذا ؟ هذا من عجائب الحكمة والناس على هذه الأرض تائهون متحيرون . فجل الله الذى حيرنا وجل العلم الذى أشرق على القلوب . فليحى الله العلم وليحى الله قلوب المسلمين .

وأما القسم الأول وهو مايكون تناسله بالزواج فانه يكون بواسطة البيض، فالجنين يكون فى البيضة وهو على قسمين : قسم تخرج البيضة منه قبل تكون الجنين كالحشرات والطيور وبعض السمك فإن البيض يخرج منها ويتم الجنين بأعمال أخرى كحضن الطيور له إلى أمد معلوم ثم يخرج من بيضته . وقسم تبقى بيضته فى الرحم حتى تفقس ويخرج الجنين حيا يتحرك كما ترى فى ذوات الثدى ومنها الإنسان الذى كلامنا فيه فى هذه الآية . واعلم أن هناك فى رحم المرأة سائلا فى البيض كمثل البيضة التى نشاهدها الدجاج فلها ما يشبه الزلال فى البيضة الدجاجية وفى داخل ذلك المح وهو الذى تراه أصفر فى بيض الدجاج ، وفى داخل ذلك المح جرثومة صغيرة منها يتكون الجنين ، والبيضة البشرية قطرها من $\frac{1}{100}$ إلى $\frac{1}{120}$ من القيراط والمح الذى فيها قطره $\frac{1}{700}$ من القيراط والبقعة الجرثومية قطرها $\frac{1}{2000}$ من القيراط وهذه هى التى يتكون منها الجنين والجنين يتغذى من دم الأم المنتشر فى جسمها . ودورة الدم فى الجنين تخالف دورته فى الطفل بعد الولادة ، فالشريان فى الجنين يحمل دما وريديا والوريد يحمل دما شريانا فمتى ولد انعكس الأمر . فتعجب من الترتيب المحكم انتهت اللطيفة الثالثة .

(اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء » الخ)

ههنا ترى عجائب النبات مع الحيوان . سترى ما يدهش له لبك لترى بعقلك الحكمة واضحة جلية فى هذه الدنيا الجميلة عند الحكماء ، القبيحة عند الجهلاء . إننا نحيا وإننا نموت ونفرح بأن نبقى ونحزن بأن نموت ولكن إذا تأملنا هذا النظام فرحنا بابداعه وانشرحنا لإتقانه ووجدنا عجبا . لعلك تقول وما العجب ؟ أقول انظر لأمرين غريبين . ثانيهما أغرب من أولهما . أما الأول فإن النبات البالغ عدده ٣٢٠ ألفا كما تقدم عن العلامة (سبنسر) على ظهر كرتنا الأرضية مختلف فى كل شىء قدرا ولونا وطعما ومنفعة الخ وهذا الاختلاف ناشىء من إختلاف الأغذية واختلاف الأغذية ناشىء من تعاطى النبات نفسه بحيث إن كل نوع منه يجتذب من الأرض ما راق له . ألا ترى أن نوع الجير والصودا والبوتاسا وحمض الكبريتيك وحمض الفسفوريك والسلكا والكلور أدخلت فى القطن وفى القمح وفى الفول وفى البطاطس وفى الذرة وفى قصب السكر بمقادير موزونة مختلفة الوزن وباختلاف وزنها صارت ملابس أو أغذية للانسان أو لغيره كما رأيت فى البرسيم وقد تقدم الجدول موضحا فى سورة (البقرة) .

انظر كيف كان اختلاف المقادير الغذائية من الأرض والهواء سببا فى هذه المنافع والعجائب المختلفة . ثم انظر كيف كان هذا . كان هذا باجتذاب النبات لما يناسبه ، وهنا يقال كيف رتبت الفتحات الشعرية . كيف نظمت . كيف قومت بحيث لا تدخل فى النبات إلا ما يناسبه ؟ لا تدخل الصودا فى شعر القطن إلا ٣٫٦ من المائة ولا فى حب القمح إلا ٢٫٦٦ من المائة ولا فى حب الشعير إلا ٤ من المائة ولا فى حب الذرة إلا ٣ من المائة وهكذا . كيف رتبت تلك الفتحات بحيث لا تقبل إلا هذه المقادير . ذلك هو النظام السارى فى جميع النبات لا يمتص إلا ما هو لازم له .

(نبات الكرنب)

قال بعض أطباء الفرنجة فى هذا العصر « إنه نافع غذاء ودواء فإنه يشتمل على عناصر كيمائية ذات قيمة

منها الفوسفور والحديد والمانيزيا، وفيه مادة كبريتية تتضح من تصاعد رائحته عند غليه فى الطبخ . ويقول إنه طعام عسر الهضم يجب المبالغة فى طبخه ليسهل هضمه وإذن يفيد الصابين بالإمساك لأنه يسلك الأوعية الهضمية ومع ذلك ينشأ منه أرياح فالمصابون بالتلبك المعدى يجتنبونه وجوبا ويجب أن يضاف إليه نحو الزيت وهو يصلح للمصابين بالالتهاب المعوى كما لا يصلح لأصحاب التلبك المعدى كما تقدم ، قال وكما أن الأطباء ينصحون باللبن الياغورتى (الزبادى) لإصلاح المعدة وتطهيرها فإن الكرنب يقوم مقامه إذا صنع على طريق مخصوص وعصارة الكرنب إذا تناولها الصبى بمقدار ملعقتين كبيرتين أفادته فائدة عظيمة فى إبادة الدود والجراثيم من المعدة » انتهى .

ألا تنظر رعاك الله كيف دخل فيه الحديد والمانيزيا والكبريت والفوسفور . وكيف التقطت الأنابيب الشعرية ذلك من الأرض وأخذت تبحث حتى جمعت ذلك، ثم بالله قل لى أين هذه المواد الحديدية والفوسفورية والكبريتية والمانيزية وكيف اجتمعت وأين الطفل ليشرب من العصير الكرنبي المجتمع من هذا كله فيقتل دوده وأين الرجل الذى أصيب بالتهاب معوى فيفيده والذى أصيب بتلبك معدى فيضره، وما المناسبة بين الكرنب ومعدة الأطفال والأمعاء التى هى ملتهبة فيخفف التهابها والمعدات المتلبكة فيزيد التهابها ولماذا يكون هذا مناسبا لذاك . هل كانت تلك الفتحات مقدرة بحيث لا تدخل إلا هذه المواد وقد علمت أن دخولها يكسب النبات نماء ثم هذا النبات يكون فيما بعد قاتلا لدود البطن فى الصبى مصلحا للمعدة عند قوم ضارا لها عند آخرين . ذلك هو العجب فى هذه الدنيا التى هى عبارة عن دار للدراسة . هذا هو الأمر الأول الذى هو الغريب . أما الأمر الثانى وهو الأغرب والأعجب فانظر ما يأتى :

(تعاون الحيوان والنبات على الحياة وهما لا يشعران)

من الدلائل الدالة على أننا فى عالم واحد كأنه إنسان واحد أو حيوان واحد وأن ما فيه متواصل متعاون متعاطف متبادل المنافع كما تتبادلها أعضاؤنا وهذا ما تراه فى هذا المقام .

(تنفس الإنسان وتنفس الحيوان)

إن التنفس يكون فى الحيوان وفى النبات . ففى الحيوان ظاهر كما تراه فى تنفس الإنسان وذوات الأربع والطير والزحافات وهكذا السمك وهذا الأخير بالخياشيم . وهكذا الهوام جميعها تتنفس بآلات صغيرة جدا وهكذا النقاعيات . وهكذا ترى الدم الذى يجرى فى عروق الحيوان والإنسان تجرى فيه كرات دموية وهذه الكرات أيضا تتنفس فتأخذ الأوكسوجين من الدم الذى هى فيه سابحة وتفرزه بعد ما يصلحها كما نتنفس نحن فى الهواء . هذا هو تنفس الإنسان والحيوان وكرات الدم فيه . فهناك تنفس الحيوانات العليا (إن الهواء يدخل فى الرئة فيتحد أوكسيجينه ببعض المواد الفاسدة فيه فيتحول إلى حامض الكربونيك وحامض الكربونيك المذكور هو الغاز الذى يصعد بالزفير فما من حيوان إلا وهو آخذ الأوكسوجين ومخرج الحامض الكربونيك وتراه إذا تنفست قد جعل طبقة مغطية وجه المرآة وما هو إلا مادة فحمية مما خرج مع الزفير) .

أما النبات فإنه يتنفس بعكس الحيوان . إنه يمتص الحامض الكربونيك ويخرج الأوكسوجين عكس ما يفعله الحيوان . الحيوان يتعاطى فى تنفسه الأوكسوجين والنبات يتعاطى الكربون المركب مع الأوكسوجين أى يأخذ رجيع الإنسان . فكما لا ينمو النبات إلا بالأقذار التى نبذها الإنسان والقمامات التى رمى بها خارج منازله والمواد البرازية الخارجة من جسمه وقد استقذرها . هكذا فى التنفس لا يأخذ النبات إلا ما خرج فى زفير الإنسان مركبا ضارا بصلاح جسمه فيكون فسادا للانسان حياة للحيوان .

كيفية

(كيفية تنفس النبات)

إن الحيوان يتنفس بالرئة أو بالخيشوم أو بجلده كما ترى فى الحشرات التى يكون جلدها فى الحقيقة كالمنخل أو كالغربال إذا نظرت إليها بالمنظار المعظم . فهذه كلها لا تتنفس إلا بجلدها ولذلك لاتسمع للزنابير ولا للذباب ولا للصراصير صوتا تنفسيا بل كل هـذه الأصوات المسموعة منها أصوات أجنحتها كحركات أوتار العيدان لا كأصوات الحيوانات ذوات الرئة . أما النبات فإنه يتنفس بأوراقه ، إنك ترى على ظهر كل ورقة من الأوراق النباتية إذا نظرتها (بالمكرسكوب المعظم) آلافا وآلافا من الفتحات المستطيلة وهذه الفتحات هى التى تقابل الهواء ومنها يدخل فى تجاويف ومجار أشبه بالتجاويف والمجارى التى فى رئة الحيوان والإنسان وكل تجويف قد سقف بقباب صغيرة مصفوفة صفا منظما بحيث تكون كل واحدة مع الأخرى كالبناء المتناسب المنسق .

(مقادير ما يتنفس الإنسان والحيوان)

إن الإنسان على وجه الأرض يمتص من الأكسوجين فى السنة نحو (١٦٠٫٠٠٠) مليون متر مكعب ويقدر العلماء أيضاً أن الحيوانات الأخرى تمتص أربعة أمثال هذا المقدار والإنسان يخرج فى اليوم ٢٥٠ غراما من غاز حامض الكربونيك وفى ذلك ٧٥ غراما من الكربون الخالص وهو الفحم . وقد حسبوا أن سكان القطر المصرى وحدهم ما عدا الحيوان يخرجون (٤٠٠٫٠٠٠) طن من الفحم فى السنة . فانظر إلى جميع من على الأرض . فأهل القطر المصرى نحو (١٤) مليونا وأهل الأرض نحو (١٥٠٠) مليونا والحساب سهل عليك . فاذا دام الإنسان والحيوان الذى هو أضعافه يخرجان فحما على هذا المنوال فان الجو يمتلىء سيما لأن الحامض الكربونيك مادة سمية وانظر ذلك فى الحمام فان المادة الكربونية إذا حبست فيه وقد تصاعدت من الفحم قتلت من فى المكان . فهكذا الجو كله يصير كالسم بسبب تصاعد الفحم من أفواه كل حيوان فأفواه الحيوان مثل موقد الفحم والجو كالحمام والناس أشبه بمن فى الحمام .

فانظر كيف قضت الحكمة أن يكون (حامض الكربونيك) المذكور هو الذى يصلح لتنفس النبات ويكون صلاحا له كما كان فسادا للانسان فان الكربون المذكور يدخل فى النبات ليغذيه ويقوى أغصانه وفروعه وثماره ، فمتى أخذ الحامض من الهواء فلله فاغتذى بالكربون وأرجع للهواء الأكسوجين كى يرجع للانسان فيصلح دمه .

يا عجبا ! أيها الناس تعجبوا يدخل الحامض الكربونيك جرم النبات فيتقبله ويحله ويأخذ منه الكربون أى الفحم وهو ما به نموت فى الحمام وما به تغطى المرآة بأنفسنا وما يسمم جوننا ثم يخرج من الفتحات الأكسوجين نقيا خالصا لينظف الهواء ويرجع الأكسوجين ثانيا إلى الإنسان فيدخل رئته ويصطاد الكربون أى الفحم المحترق فى أجسامنا لأن عضلاتنا مشتملة على مادة فحمية قد أخذتها من الدم الذى أخذه من النبات فيتحد الأكسوجين بالكربون المذكور ويحمله إلى خارج أجسادنا كما يحمل الزبالون والكناسون القمامة إلى خارج المنازل ومتى حمله الهواء سار به جاريا حتى يوصله إلى داخل الورق والورق يتقبل تلك القمامة والكناسة فينظف هناك ويرجع لنا الأكسجين ثانيا . فالهواء هو المنظف لدمنا من الكربون الحامل ذلك إلى النبات ليتغذى به فهو كالدواب تحمل السماد إلى الزرع . فالهواء والحيوان كلاهما ينظفان أجسامنا ومنازلنا ليصلحا الزرع الذى بصلاحه نعيش . فانظر هذه القضايا العجيبة المتقنة البهجة لذوى العقول .

(جوهرة فى مقال عام فى قوله تعالى « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث » الخ)

لما اطلع على هذه الآيات أحد أصحابى من أهل الفضل قال لى إن هذه الآيات جاءت للاستدلال بظواهر خلق الإنسان على اليوم الآخر ولكن الإنسان إذا نظر لهذه الكائنات التى على الأرض أدهشه أن كل كائن

فيها قد منح كل ما يحتاج إليه ونال من الغرائز والطباع ما يكفل صلاحه . فهل فكرت يوما فى غرائز هذا الإنسان وطباعه . وهل دراستها على حقيقتها تكفل له سعادة الدنيا والآخرة إذا عمل بها . فقلت إن ما تقوله أيها الأخ لقول عام وذو مرام بعيدة وليس لى بتحقيق ما قلته يدان ولا أدرى كيف يصل العقل الإنسانى إلى ما تقول وهل فى قدرته ذلك وهل سيوفق له يوما . أنا لا أدرى . إنما أقص عليك قصصا مما تخيلته سابقا فلعل فيه سدادا من عوز وبصيصا من العلم ومبدأ الحكمة التى تريدها :

فى ذات يوم كنت جالسا خارج القاهرة فى ضواحيها بين الأشجار والزروع ليلا أتأمل النجوم والمجرة وأسرح الطرف فى عجائبها وألمح من خلالها جمالا وحسنا وبهجة وفى أثناء ذلك أسمع غوير الأعشاب وأصوات الحشرات ونغمات الأغصان الراقصات على نغمات أوتارها والرياح تعبث بها وكأن تلك الأغصان فرحات بمداعبة الرياح جذلات طربات بعناقها مغتبطات بعشقها وغرامها ووصالها فحرك ذلك المنظر من قلبى ما سكن وأثار فىّ من الوجدان ما بطن وولّه القلب وله الأغصان وسكرت النفس لجمال النجوم والنور وبهجة الرياض وتمايلها للطربات . هنالك أخذنى ما يشبه السنة وكأنى أرى أمامى نورا بهيا نزل من السماء إلى الأرض وأخذ يجتمع ويتكون قليلا قليلا بهيئة إنسانية حتى رأيته أمام عينى إنسانا سويا ولكنه كان كالملهم بأمر عظيم فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيته قد ظهرت أمامه بلاد واسعة ومدن شاسعة وبحار عظيمة فما كان إلا طرفة عين حتى أمر الوفود من الأقطار فحضروا وأخذ يقلب طرفه فيهم كأنه يمتحنهم بنظراته ويدرسهم بلحظاته فما أسرع أن انتقى أرقاهم عقلا وأرفعهم أدبا وأشرفهم نفسا فكان أولئك خمسة رجال لا يزيدون ثم أمر الوفود الحاضرين الذين لا يحصيهم العد ولا يحصرهم الحساب ولا يمتد إليهم الطرف أن انصرفوا فما كادت الإشارة تبدو منه حتى خلا منهم الفضاء فى أسرع من وميض البرق واختلاج العين ونبضة القلب فلا أدرى أفى الجو طاروا أم فى الأرض غاروا أم رجعت أجسامهم إلى العالم الأثيرى فرجعت إلى أماكنها حالا وظهرت هناك ليقوموا بمهام الملك . ولم يبق من هؤلاء الجموع إلا الخمسة الذين هم أمام ذلك الملك (بكسر اللام) الذى نزل من السماء ملكا (بفتحها) وهؤلاء الخمسة أمامه واقفون خاضعون مطيعون إذا أمرهم ائتمروا وإذا نهاهم انتهوا « وهم من خشيته مشفقون » . عنت له وجوههم وخشعت له أبصارهم وظلوا له قانتين فقال لهم أبنائى أنتم المصطفون الأخيار من مملكتى . نثرت كنانتى فوجدتكم أصلبها مكسرا وأصعبها مراسا وأقواها بأساً . اطلعت على مافى ضمائركم فوجدتكم للحق عاملين وللفضل مجدين وعن الجهل معرضين ولأمرى مطيعين . إن مملكتى واسعة الأطراف بعيدة الأكناف شاسعة للطاف لا يصلح لقيادها إلا أنتم فلا تصلح إلا لكم ولا تصلحون إلا لها ها أنا ذا وليتكم زمامها وأعطيتكم قيادها فاسمعوا قولى وأطيعوا أمرى . فلما سمعوا ذلك قالوا سمعا وطاعة نحن عبيدك الخاضعون وخدامك المطيعون فمرنا نطعك وقل نسمعك فقال إن مملكتى قسمتها (٣٠) مقاطعة وقد وليت كلا من الأول والثانى (١٠) مقاطعات والثالث (٩) مقاطعات والرابع (٥) مقاطعات والخامس مقاطعتين . هلموا إلى ما أمرتكم وتوجهوا إلى ممالككم وليكن عندى علم بكل ما يحدث فيها بحيث أراه وأنظر إليه فقالوا له أتريد منا أن ننبئك بأنباء هذه الدول بالكتب فنشرح الحقائق ونقدمها لك ؟ فقال : كلا . إن هذا عمل الجهال ملوك الأرض . إن العالم الأرضى الذى أنتم فيه عالم متأخر وطرق الافهام والاستفهام عسرة صعبة وليس بين الناس وبين ما يعبرون عنه علاقة . لقد كان أهل هذه الأرض قبل التاريخ يعبرون عما فى نفوسهم برسم صور الأشياء تقريبا ثم نوعوا فى التعبير والرسم واخترعوا الحروف الهجائية المعبرة عن المعانى ولا مناسبة بين حروف (ق ا م) وبين الفعل المخصوص إلا كالنسبة بين أمرين متباينين لا علاقة بينهما كالماء والحديد وإنما الذى تصنعونه لى يناسب مقامى لأنى من الملأ الأعلى وعالم القدس فلتكن اللغة التى تخاطبونى بها نفس صور الأشياء التى هى الحقائق واضحة جلية ظاهرة . فقوموا من فوركم ولتحضروا لى حالا لوحا عظيما

يقبل جميع الصور التي تحضرونها وليكن ذلك اللوح يقبل مالايتناهى من الصور لاتحجب صورة صورة ولاشكل شكلا بحيث إذا رسمتم صورة ثم رسمتم فوقها آلافا غيرها لا تحجب العليا منها السفلى بل تكون كلها حاضرة عندى . فهذه هى الكتابة التى تليق لمقامى ومركزى فى السموات العلى التى كنت فيها قبل تمثلى عندكم فلم يكد ينطق بهذه الجمل حتى رأيت لوحة عظيمة لا منتهى لأمدها قد مدت أمامى وهم حولها ينتظرون الأوامر فقال أحضروا صور ممالككم بهيئة الخيالة (السينما) فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت ما يشبه (السينما) التى أراها فى بلادنا المصرية وعددها خمسة قد نصبت أمامى كاملة تامة وما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت صورا تلوح فى تلك الآلات السينمائية وأنواعها (٣٦) صورة وما كادت تظهر للأعين حتى رسمت الصور على تلك اللوحة ، وهكذا أخذت الصور تترادف وأنا ألاحظ الملك فتشغل بها وكلما رسمت طبقة ظهر جمال فى اللوحة يعقبه جمال آخر برسم طبقة أخرى وهكذا طبقا عن طبق صور فوق صور . كل ذلك لم يتجاوز من الزمان لحظات أو ثوانى كما يرى الإنسان فى عالم الأحلام . هنالك أخذت أفكر وأقول من هذا الملك الذى كان ملكا ومن هؤلاء الخمسة وما هى ممالكهم وما هذه اللوحة ثم ما هذه العجائب كلها وما كاد هذا الخاطر يلوح لى حتى تبدى لى شخص كهيئة إنسان فقال « ولاينبئك مثل خبير » أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أنا ابن بجدتها وأبو عذرتها فاسمع لما ألقيه إليك ولا تعجل من قبل أن أدلى إليك بما عندى . فقلت هذه هدية من ربى أتقبلها بالشكر وآخذها بالقبول، ونعمة أنعم الله بها على ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . فقال إن هذا كله صور أمامك ليلقى إليك علما جما فتعرف معنى كون الإنسان عالما صغيرا ومعنى « من عرف نفسه عرف ربه » ومعنى قول على كرم الله وجهه :

دواؤك منك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فإن هذه الأبيات والجمل الحسان تسمعونها يا أهل العلم ولا تدركون مغزاها بل أكثركم يقول حين يسمعها (أسمع جعجعة ولا أرى طحنا) فهذه ألقيت إليك لتعرف الله واليوم الآخر من نفس صورة الإنسان ويستغنى الناس بما نذكره لك الآن عن البراهين الجدلية والفلسفة الوضعية والتعسفات اللفظية ويقر بما أريه لك العاقل والجاحد والملحدون والشاكون إذا كانوا يعقلون . فقلت فاشرح لى ما وصفت وبين لى ما ذكرت ، فقال أما هذا الملك الذى صار أحد الملوك الأرضية فهو روح الإنسان إذ حكم عليها أن تحبس فى هذا الجسد الأرضى . وأما الوزراء الخمسة فهى الحواس الخمس . وأما الممالك التى توصل أخبارها فهى للعين النور والظلمة والقرب والبعد واللون والشكل والحجم والصغر والكبر والحركة . ولحاسة اللمس (١٠) أيضا وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخشونة والنعومة والثقل والخفة واللين والقساوة . ولقوة الذوق (٩) مثل الحلاوة والحموضة والملوحة والمسوسة والمرارة والعفوصة والحرافة وطعم المز والعذوبة . وللأذن الأصوات الموسيقية الإنسانية وغير الموسيقية وأصوات الآلات للموسيقية وأصوات الحيوان والجماد . ولحاسة الشم نوعان الخبيث من الروائح والطيب منها . فهذه (٣٦) نوعا هى كل هذه العوالم التى سخرت للانسان ولا يضبطها ويحكمها إلا بحواسه الخمس . وأما ما رأيت من اللوحة فهى مخه والقوى التى فى دماغه . وهذه جعلها الله للانسان تقوم مقام الألواح التى يكتب فيها للأطفال للدراسة والألواح الحجرية التى كان يكتب عليها قدماء المصريين والبابليين والآشوريين وأهل الهند فهؤلاء كلهم كانوا يكتبون على ألواح حجرية تبقى آلاف السنين وعشرات الآلاف فتلقن للأبناء ما فعله الآباء، ولذلك لما أرسل موسى عليه السلام ألقيت له الألواح مشاكلة لما كان فى زمانهم من إقامة الألواح والكتابة عليها . فهذه اللوحة التى تراها أمامك تصور لك هيئة لوحة دماغ الإنسان التى ترسم فيها صور الأشياء الآتية من عوالم المادة التى لا تعد مثل الألوان التى هى من عوالم

الأبصار فهى أنواع سبعة أحمر وأصفر وأخضر الخ وكل لون منها يتنوع إلى مالا حصر لها من أنواع الجمال والبهجة واختلاف الأشكال . فهذا عالم واحد من عوالم القوة الإنسانية وعوالم الإنسان كما قلنا لك ٣٦ عالما تحكمها حواسه . فإذا كانت الألوان عالما واحدا يشمل مالا حصر له من الأصباغ والألوان فى الكواكب والماء والأرض والزرع والسهل والجبل والحيوان والإنسان فكيف بما بقى من العوالم المقدرة (٣٦) عالما . فلوح الإنسان أرقى من ألواح أهل الأرض فألواح أهل الأرض الحجرية وغيرها ليست شيئا مذكورا بجانب لوحة الإنسان لأنها تسع مالا يتناهى من العوالم مع صغرها . فلوح الإنسان واحد يشمل عوالم لامنتهى لعددها وهو أشرف من ألواح أهل الأرض وكتبهم وطواميرهم ودفاترهم فهو أشرف الدواوين وأرقاها وأعلاها وهو يدل الانسان على الله وسعة علمه وأنه واحد وعلمه واحد ولوحه المحفوظ واحد يجمع مالايتناهى ، وإذا قال الله « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ـ كل فى كتاب مبين » وقال فإن هذا البيان يعرف الإنسان أن كتاب الله ليس ككتبكم ، وإنما كان لوح عقولكم أشرف من لوح تكتبون فيه بما لا يتناهى وأنتم فى الأرض التى مثلت فى العلم الحديث عندكم بجوهر فرد بينها العالم حولها يمثل بألف مليون أرض فكيف بمن خلق هذه العوالم كلها ونماكم فى هذه الذرة الحقيرة وقال لكم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فلا جرم يكون لوحه المحفوظ وكتابه القديم وعلمه بالنسبة لما لاح لكم فى عقولكم أكبر وأكبر من نسبة العوالم لكم فى أرضكم الحقيرة وبهذا تفهمون قول الإمام الغزالى (إن اللوح المحفوظ كالقوة المخيلة فى الإنسان) فإن هذا القول منه ضرب مثل لاغير . فكما ضرب الله المثل باللوح الذى ترونه أمامكم ضرب الغزالى مثلا بلوح أشرف منه وهو القوة المخيلة فى الإنسان كلاهما ضرب مثل يقرب المعنى . ثم قال لى ذلك الهاتف فهذه أول ثمرة من ثمرات هذا المثال الذى أمامك تعرف به معنى « من عرف نفسه عرف ربه » فملائكة الله مطيعون له طاعة الحواس للانسان ولكن بلا تشبيه ولاتمثيل ، فالملائكة عوالم مستقلة خلقها الله كما خلق الأرواح فإياك أن تظن غير ذلك ، فكما خلق الكواكب والأرض والسماء خلق الملائكة فهم مخلوقون لله كالأجسام وهم له مطيعون.

(الثمرة الثانية) الإيقان باليوم الآخر وهنا بيت القصيد انظر رحمك الله وتعجب من غرائز الإنسان وطبائعه :

(١) إنك لا ترى حيوانا ولا إنسانا إلا وقد خلق فيه دافع يدفعه للتغذية وتناول الطعام والشراب فالطفل بكى للطعام فوجد لبن الأم وغير الطفل أحس بجوع يؤلمه فوجد مقتضى ذلك الألم ومطالبه وهو الطعام أشكالا وألوانا وأنواعا . فهذا عجب كأن الغرائز هى نبراس هذه الدنيا وكأن هذه الأجسام الحيوانية والإنسانية نموذج هذا الوجود أحست بالجوع وأحست بالعرى فوجدت طعاما وملبسا . هذا عجب أن تكون غريزة الجوع والعطش والاحتياج للملبس مقرونة بوجود مايناسبها ، وهذا أعجب العجب أن تكون البواطن والغرائز مخلوقات على نسبة العوالم الخارجية . ومعنى هذا أن القوى التى فيكم لم تخلق إلا ومعها مطالبها وهذه فائدة عظيمة جدا سيكون لها شأن عظيم .

(٢) ثم هنا مسألة ثانية وهى مسألة حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل وهكذا كل ذكر وكل أنثى من كل حيوان فى الأرض فهذه كلها يهوى ذكرها أنثاها وبالعكس أحب الذكر أنثى فوجدها أى أن أعضاءه حيث وغريزته الباطنة خلقت متناسبة مع وجود أنثى تكون معه وهكذا أمر المرأة مع الرجل ، فمن العجب أن كل واحد منهما وجد الآخر فذكور الحيوان والإنسان كونت لتكون مصاحبة لأنثى فحصل ذلك فعلمنا أن شهوة التناسل لما خلقت فى كل منهما لم تعطل كما لم تعطل شهوة الغذاء وهذا عجب ، ثم قال أنا أقول لك هذا عجب ولكنكم أنتم لا تعجبون لأن العجب إنما يكون من الغريب وهذا أمر واقع فيكم فلا تعقلونه .

(٣) ثم إن كلا من ذكران الحيوان والإنسان أحب أن يكون له ولد فحصل ذلك نتيجة لما تقدم .

(٤) ثم إن الإنسان منكم يحب أن يكون له ملك وحشم فتم ذلك لكم قليلا أو كثيرا . وخلق للأسد

أنياب محددة لتأكل اللحم . فخلق له الحيوانات آكلات الحشيش . وخلق فى بنى آدم أناس مغرمون بالعلم وآخرون مغرمون بالملك فكان العلم وكانت الممالك .

(٥) وقد خطر للانسان من أول تاريخه وتمنى أن يطير فى الجو ليسعى إلى حبيبه ويجتمعا حتى قال الشاعر العربى :

بكيت على سرب القطا إذ مررن بى	فقلت ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه	لعلى إلى من قد هويت أطير
فجاوبنى من فوق غصن أراكة	ألا كلنا يا مستعير نعير
وأى قطاة لم تعرك جناحها	فعاشت بذل والجناح كسير

فلم يكن الإنسان فى هذا الخاطر ضالا أو غاويا . كان الشاعر يقول ذلك وما كان ليخطر له أن الإنسان يوما سيطير فى الجو ويشارك الطير . إذن خواطر الإنسان وأمانيه محترمة فلقد طارت فتاة أمريكية من أمريكا إلى أوروبا فى ساعات معدودات فحركت الشركات للسير بين القارتين بالطيارات ، إذن هذا الشاعر كان خاطره حقا فقد صارت الطيارات اليوم تجرى فى الساعة ٣٠٠ كيلو مترا مع أن قطار السكة الحديدية يجرى نحو ٦٠ كيلو فى الساعة ، وقد سار الطيارون فى قارة استراليا واخترقوها فى سائر جهاتها وقطعوا مفازة هناك مسافة ١٥٠٠ ميل بين مدينتى (برث) و (دربى) هناك و ٤٨٠ ميلا من (ادبليد) إلى (ملبورن) و ٥٠٠ ميل من (ملبورن) إلى (سدنى) و ٥٠٠ ميل من (سدنى) إلى (بربسين) وهناك شيخ فى السبعين من عمره قطع بالطيارة فى يوم ١٢٠٠ ميل مع أنه كان يقطع هذه المسافة فى ستة أسابيع على جواده ، وقد سيرت الطيارات إلى مسافات أكثر من أربعة ملايين ميل من غير أن يصيب أى راكب من ركابها أو سائق من سائقيها أو ميكانيكى بها خدش فى أصبعه .

فتبين من هذا أن ما تمناه الإنسان من الطيران حصل فعلا ولابد من أن حال الإنسان وأعماله ستتغير فى القريب العاجل ولا يعلم إلا الله ماذا سيكون غدا وإن غدا لناظره قريب وإلى هنا انتهى الأمر الخامس .

(٦) إن الإنسان فوق ذلك قد أحب البقاء إلى ما لانهاية له وعشق الكواكب وأحب البحث فيها والاطلاع على عجائبها . هذه غريزة من غرائز الإنسان وهى غريزة مقدسة لها قيمة بل هى أرقى مما قبلها واشتهى الطعام فوجده والزوجة فوجدها وهكذا الولد والمال وأن يطير فى الهواء فهكذا هو يشتهى أن يطوف العوالم كلها ويسير بين النجوم ويعيش إلى الأبد . هذه جبل عليها الإنسان ، أحب الإنسان الاطلاع على العوالم . ثم قال هذا الهاتف لى بعد ذلك لقد جاء فى كلامك سابقا فى سورة (الأنعام) وفى سورة (يونس) كلام عن الكواكب والمجرة والسدم (جمع سديم) وهذه كلها عوالم يحب الانسان الاطلاع عليها فكيف تعطل هذه الغريزة ولا تعطل الغرائز التى قبلها ولم تصدق تلك وتكذب هذه . كلا هذه غريزة صادقة لأن ما قبلها صادق كله .

إن هذا القول أقوى الأدلة على بقاء أرواحكم واطلاع الفضلاء منكم على العوالم العلوية والمنكرون منكم بعد الاطلاع على هذا البرهان إنما ينكرون بالاستبعاد لاغير ، فكما استبعد الناس الطيران فى الجو لأنهم لم يروا الناس يطيرون هكذا هم يستبعدون بقاء الأرواح والاطلاع على العوالم العلوية لأنهم لم يروا أرواحا تطير فى الجو وتشاهد الكواكب بعد موتها . أما العقل فقد شهد بهذا البرهان ، فقلت هل تسمح لى أن أناقشك قال قل ماتشاء ، قلت أنت بنيت هذا البرهان على الشوق والحب وأن كل ماأحبته فطرنا العامة لابد من وجوده ، فكما كان الغذاء والنساء والأموال والطيارات وقد طلبتها نفوسنا ، هكذا ستبقى أرواحنا وتطلع على العوالم

العلوية ولكنى أقول إنى إذا خاطبت الناس بما تقول ردوا علىّ قائلين هذه الحجة مردودة لأن الشوق إلى الاطلاع على العوالم العلوية ليس عاما فى الناس بل هو خاص بطبقة ممتازة فكيف أدخلته فى البرهان فردّ علىّ قائلا ليس اختصاص غريزة الاطلاع بطبقة من الناس قادحا فى أنها غريزة . ألست ترى الأطفال لا يفرحون بجمال النساء وإنما يفرحون بالحلواء . فما مثل الحكماء فى الأمم إلا كمثل البالغين العارفين بقيمة النساء فالناس جميعا بالنسبة لهذه الطائفة الممتازة أشبه (بالعنين) بكسر العين الذى لا يرى وجها لمصاحبة النساء وزواجهن ، فقلت قد فهمت ، فقال ودونك عالم السموات ، هذا العالم البهيج . انظر ماذا ترى . إنه يظهر فيه كل يوم كشف جديد عندكم ، فقد ظهر لكم فى هذه الأيام أن هناك (سدما لولبية) وهذه السدم ظهر أنها عوالم مستقلة كنظام مجرتكم وكل سديم منها سعته كسعة مجرتكم ومجرتكم قرص عدسى الشكل طول قطره نحو مائة ألف سنة نورية وعرضه ٢٠ ألف سنة نورية ، ومعنى هذا أن النور الذى يجرى من الشمس إلى الأرض فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية ، وما بين الشمس والأرض يقطعه القطار فى أكثر من ٣٥٠ سنة وتقطعه قلة المدفع فى ١٢ سنة . فهذا النور لا يقطع طول مجرتكم إلا فى مائة ألف سنة إلى آخر ماتقدم .

ومن هذه السدم التى تعادل مجرتكم ما يقال له (غيوم مجلان) ومنها مايقال له (سديم المرأة المسلسلة) ومنها مايقال له (الشلياق الحلق) ومنها مايقال له (سديم السلاق اللولبى) ومنها مايقال له (سديم الجبار غير المنتظم) . ولقد وجدوا أن (سديم المرأة المسلسلة) يبعد عنكم نحو (٩٠٠) ألف سنة نورية ، وهناك (سدم لولبية) تبعد عنكم أضعاف ماتقدم ، وهناك سدم تبعد عنكم مائة مليون سنة من سنى النور ، ثم إن (سديم المرأة المسلسلة) يجرى نحو مجرتكم بسرعة (٣٠٠) كيلو متر فى الثانية وأكثر السدم اللولبية تبعد بسرعة (٦٠٠) كيلو متر فى الثانية ، ثم إن جرم (سديم المرأة المسلسلة) يساوى جرم شمسكم ألفى مليون ضعفا وأن هذا السديم يستغرق (١٧) مليون سنة للدوران على نفسه مرة واحدة وأرضكم تدور على نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة (انظر صور هذه السدم فى الصفحتين التاليتين) .

ثم قال لى : هل تذكرت شيئا عند اطلاعك على هذا ؟ قلت نعم تذكرت قوله تعالى «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» وقوله «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فهو إنما حدد هذه المدد على قدر عقولنا وإلا فعند الله أيام كل يوم منها مائة ألف سنة أو مليون سنة وهذا يوم مقداره (١٧) مليون سنة لا كالسنين عندنا بل هى سنة نورية والسنة النورية تعد سنوها المعتادة عندنا بالملايين ، فقال أحسنت إذ فهمت ، فقلت الحمد لله رب العالمين . فقال إن ولوعكم بهذه العجائب دليل على بقائكم بعد الموت كما كان ولوعكم بالطعام وبالنساء وبالطيران دليلا على حصولها وقد جاءت فى الوجود .

تم البرهان على «اليوم الآخر» والحمد لله رب العالمين ، كتب فى ليلة الثلاثاء ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٨ م .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا » ﴾

اعلم أن هذا لمن أهمل قواه ونفسه . أما ذلك الذى جعل حياته كلها نافعة علما وعملا فانه إذا كبرت سنه فان عقله يزيد لا ينقص ، ولقد أحصوا المخترعين فى أوروبا فوجدوا أكثرهم ممن زادوا على الستين . ولقد رأيت المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر سابقا قد عاش نحو ١١٥ سنة وهو قوى العقل يدير الجامع الأزهر كله بعقل منير وفكر حاضر ، ومن أعجب العجب أن يكون رجال من أوروبا مثل (كلنصو) الوزير الفرنسى يحس فى نفسه فى زمن الشيخوخة بأنه شاب إذ بلغ الثمانين وهو نشط كالشباب قد أتم الصلح مع ألمانيا وذهب إلى بيته فى الريف يفكر لمنفعة بلاده وهو لا يصدق أنه شيخ . جاء له الدكتور (فورنوف) ليجرى له عملية جراحية ترجع له الشباب ، فقال لست شيخا ، يقرأ كتب الإغريق ليعرف علم

المتقدمين ويكتب مقالات فى الصحف ويقول [يجب أن نلقى مرساتنا ونستقر على صخر المعرفة] ويقول [كل يوم يمر بى هو برهان لى على أنى أجدد نفسى بنشاط عقلى ولست اعرف شيئاً كثيراً ولكنى أتقبل ماأعرفه بكبرياء، كما أتقبل نتيجة معرفتى] ويقول للشاب [يجب أن تسمو إلى آ كثر ما تستطيع حتى تحصل على أقل مما ترمى إليه] ويلعب الألعاب الرياضية فى الشيخوخة كأنه شاب ولا يشرب الخمر والتبغ ويقول إنهما دون رجوليق . هذا رجل أفرنجى، والله يقول لنا فى القرآن « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .



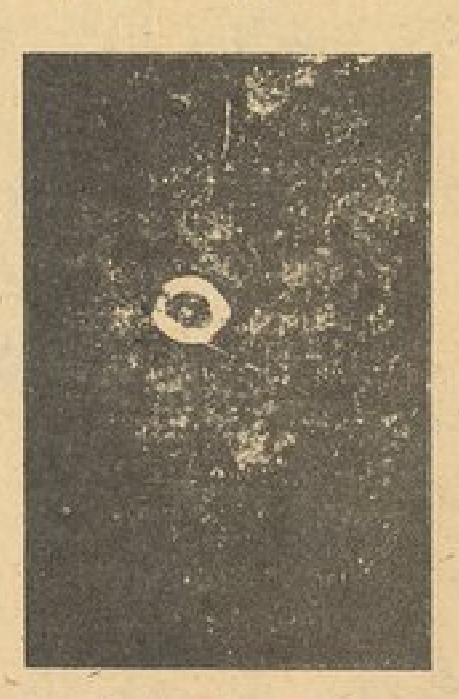
(شكل ١ سديم السلاقى اللولبى)



(شكل ٢ سديم الجبار غير المنتظم)



(شكل ٣ سديم المرأة المسلسلة اللولبى)



(شكل ٤ سديم الشلياق الحلقى)

ويقول بعض العلماء عندنا [إن العالم يكون أطول عمرا من غيره] وهذا حق فقد ثبت بالإحصاء أن رجال الدين أطول أعمارا ، وأن النابغين العبقريين أطول أعمارا من الجميع ، فاذا كان أهل أوروبا الذين حاد مجموعهم عن الفضائل النفسية قد ظهر فيهم أمثال هؤلاء فأولى ثم أولى نحن المسلمين، فان ديننا يأمرنا بكل ماهو جميل اه .

إيضاح الكلام على النبوغ (العبقرية) وبيان أنه يدخل فى قوله تعالى:

«وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض»

قد شاعت فى أوروبا فكرة أن النابغين العبقريين مجانين وأنهم يموتون ناقصى العمر وألف (لومبروزد) كتابا كبيرا فى هذا المعنى، وتلميذه (ماكس نوردو) له كتاب أكبر منه ؛ وقد رأيت فى كتب (جوستاف لوبون) المترجمة مايفيد أن النابغين نصف مجانين ، والحقيقة التى لامراء فيها أن النابغين لهم صفات منها :

(١) أنهم فى زمن الصبا يحسون بنقص وشين يلحقهم فيجعلون حياتهم وقفا على العمل كى يرفعوا أنفسهم من الخزى والعار .

(٢) ثبت بالاختبار أنهم يعنون بصحتهم أشد العناية ، ودليلك على ذلك ماجاء فى التوراة من عناية كثير من العظماء المذكورين فيها بصحتهم ، وترى الصحابة والتابعين يتجنبون اللذات ويحقرونها زهدا فى الدنيا وكان ذلك صحة لهم وكانوا يحافظون على النظافة وعلى السواك ، والسواك اليوم القدح المعلى وكانوا يأكلون الخبز غير منخول الدقيق زهدا وظهر اليوم أنه أعظم وأفيد للصحة وظهر الآن بعض سر قوله تعالى «ولتسألن يومئذ عن النعيم» وبعض سر قوله تعالى «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» الخ ، وأن الإكثار من أكل الحلوى وأنواع اللحوم . كل ذلك مقصر للأعمار مخرب للأمم مذل للنفوس ، (اقرأ هذا المقام فى سورة طه عند قصة آدم وإبليس فى آخر السورة) .

وكان (أفلاطون) يقول (الجسم السليم يرقى بالنفس كما أن النفس السليمة ترقى بالجسم) إذن النابغة يحس بنقص فى الشرف وفى الجسم فهو أبدا يجتهد فى إكمال نفسه فيهما .

(٣) وقد ثبت بالإحصاء أن هذه الطائفة تعيش طويلا ؛ فقد أحصى أحد الأمريكان عدد الذين بلغوا السبعين بين العبقريين فوجدوا أنهم خمسة أضعاف نسبتهم بين سائر الناس فقد بلغ (تيتيان) الرسام الطليانى المائة من عمره ومات بالطاعون ، ولكن كان موته أمرا مستغربا عند أصحابه لما كانوا يعرفون فيه من القوة .

وكان (كارليل) ممعودا فبلغ ٨٢ سنة وكان يسير فى هذه السن خمسة أميال فى اليوم ، وكان (فاجنر) ضعيف الجسم فعاش إلى السبعين ، وكان (نابليون) مزاجه أشبه بمزاج الأنثى فقاوم نفسه حتى صار يدوس الدول دوسا اه .

إذن تبين من هذا كله أن قول بعض أساتذتنا فى قوله تعالى « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » له شاهد من الواقع الحاصل فى الأمم، وأن حصول الخرف والجهل بعد العلم يتأخر فى هذه الطبقة أولا يكون وإنما قلت هذا ليكون نموذجا لأناس يظهرهم الله فى أمة الإسلام ويرون فى أنفسهم همة عالية فليعلموا أن الله مع المحسنين وأن هذه القاعدة التى وضعها الناس فى أنه يجعلهم مخرفين تتأخر فى هذه الطائفة النافعة للناس لأنه خصصهم لنفع عباده، وخير الناس أنفعهم للناس، والحمد لله رب العالمين .

(القسم

(القسم الثانى)

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *

(١) اعلم أن هذه السورة متصلة بما قبلها فإن آخر سورة (الأنبياء) كان فى أمر القيامة كقوله تعالى «يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب» وما قبلها من الآيات كقوله «واقترب الوعد الحق» الخ. وأول هذه الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية.

(٢) أن السورة المتقدمة قد أقيمت فيها الحجج الطبيعية والنبوية على الألوهية غالبا. أما فى هذه السورة فقد جعل العلم الطبيعى من براهين البعث كما أنه من براهين وجود الله. لقد جاء ذكر العلوم الطبيعية فى

(سورة الحجر) على مقتضى ترتيب المواليد . وهكذا تكرر ذلك فى السور بعدها . وها هى ذه هذه السورة قد جيء فيها بعلم الأجنة استدلالا على البعث وكذا بنظام المواليد الثلاثة استدلالا عاما فى قوله « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض » الخ فههنا سلسلة المواليد منتظمة تماما وكواكب للاضاءة عليها وجبال وشجر ودواب والناس ثم حشرهم ، وهذه هى المواليد من أولها إلى آخرها عناية بالعلوم الطبيعية .

(٣) تقدم فى السورة السابقة وما قبلها ذكر الأنبياء وبراهينهم لقومهم . أما فى هذه السورة فالخطاب من الله رأسا للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو على سبيل فرض الكفاية تفصيلا وفرض العين إجمالا أن نعرف جميع ماصنع الله فى أرضه وسمائه وما دبر فى خلق الأجنة والنبات والحيوان .

(٤) ولما تم الكلام على الاستدلال على البعث وما لحق به شرع سبحانه يذكرنا بما يناسبه وهو أماكن الحج وأعماله فإن الحج انتقال من حال إلى حال جديدة . ففيه يترك الإنسان وطنه وملابسه المعتادة ويصرف ماله ويلبى دعوة ربه رافعا صوته بالتلبية تاركا لبس المخيط مهرولا مابين جبلين طائفا حول بيت الله واقفا والشمس فوق رأسه وهو مخبت خاشع والناس معه كذلك ملبين لربهم خاضعين له واقفين معا فلا أهل ولا مال ولا ولد راجعين إلى منازلهم تائبين من الخطايا منتظرين الموت . كل هذا أشبه بالحشر فى أكثر صفاته لذلك ذكر الله الحج بعد البعث فقال (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) أى وهم يصدون (و) عن (المسجد الحرام) أى الدخول فيه (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه) أى المقيم (والباد) الطارئ أى جعلنا المسجد الحرام للناس مستويا فيه العاكف والباد فهما مرفوعان بسواء الذى هو منصوب عند حفص وقرئ « العاكف » بالجر على البدل من الناس (ومن يرد فيه) فى المسجد الحرام أى مراد (بإلحاد بظلم) حالان مترادفان أى عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب أليم) فى الآخرة وخبر إن فى قوله « إن الذين كفروا » مقدر تقديره نذيقهم من عذاب أليم (و) اذكر (إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أى حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعا ليعبد فيه ويعمره إذ رفع البيت أيام الطوفان . وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم وأوحينا إليه (أن لا تشرك بى شيئا) من الأصنام (وطهر بيتى) من الشرك والأوثان وكل قذر (للطائفين) أى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أى المقيمين فيه (والركع السجود) أى المصلين (وأذن فى الناس) ناد فيهم وأعلم . والأذان فى اللغة الإعلام والناس أهل القبلة (بالحج) بدعوة الحج (يأتوك رجالا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وعلى كل ضامر) أى ركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله (يأتين) صفة لضامر أى جماعة الإبل . وقرئ « يأتون » صفة لرجال (من كل فج عميق) طريق بعيد (ليشهدوا) ليحضروا (منافع لهم) دينية ودنيوية كالمغفرة والتجارة (ويذكروا اسم الله) عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها (فى أيام معلومات) هى عشر ذى الحجة عند أبى حنيفة وآخرها يوم النحر وعند ابن عباس أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل إنها أيام النحر وثلاثة أيام بعده (على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها) أمر إباحة (١) إذا كان الهدى تطوعا وكذلك الأضحية . وأما الواجب فلا يأكل منه عند الشافعى (٢) ولا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك عند ابن عمر وأحمد وإسحاق (٣) وقال مالك مثل ذلك وزاد فى التحريم فدية الأذى . (٤) وأصحاب الرأى حرموا الأكل من كل واجب إلا دم التمتع والقران وإنما يأكله الزمن الذى لاشىء له وهو قوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم) أى ليزيلوا أدرانهم أى ليخرجوا من الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب . والحاج أشعث أغبر مادام لم يزل هذه الأوساخ (وليوفوا نذورهم) ما ينذرون من البر فى حجهم (وليطوفوا) طواف الركن الذى به تمام التحلل أو طواف الوداع (بالبيت العتيق) القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، أو الذى أعتقه الله من تسلط الجبابرة .

الأمر

الأمر (ذلك ومن يعظم حرمات الله) أحكامه وكل ما لا يحل استباحته ومنه الحرم وتكاليف الحج والكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام فكل هذه من حرمات الله التى لا يحل انتهاكها (فهو) أى فالتعظيم (خير له عند ربه) ثوابا (وأحلت لكم الأنعام) أى أحل لكم أن تأكلوها بعد الذبح وهى الإبل والبقر والغنم (إلا ما يتلى عليكم) تحريمه فيما تقدم فى سورة [المائدة] وهو « حرمت عليكم الميتة والدم » الخ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) أى اتركوا الرجس الذى هو الأوثان فهى نجاسة معنوية أقبح من النجاسة الحسية (واجتنبوا قول الزور) وهو أعم من عبادة الأوثان كتحريم السوائب والبحائر وغيرها وكشهادة الزور، روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاثا وتلا هذه الآية » والزور من الزور وهو الانحراف (حنفاء لله) مخلصين له (غير مشركين به) وهذا وما قبله حالان من الواو فى اجتنبوا (ومن يشرك بالله فكأنما خر) سقط (من السماء) إلى الأرض (فتخطفه الطير) أى تسلبه وتذهب بسرعة (أو تهوى به الريح) أى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) بعيد. هذا تشبيه مركب وهو أبلغ التشبيهات يقول من أشرك فى فقد أهلك نفسه هلاكا ليس وراءه هلاك بأن صورت حاله بصورة حال من خر من السماء فتخطفته الطير ففرقت أجزاءه فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة. الأمر (ذلك ومن يعظم شعائر الله) أى دين الله ومنه فرائض الحج ومواضع نسكه والهدايا وتعظيم هذه اختيارها غالية الثمن حسانا سمانا (فإنها من تقوى القلوب) أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب . ولا ريب أن القلب منشأ كل فجور وكل تقوى (لكم فيها منافع) من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة (إلى أجل مسمى) أى إلى أن تنحر (ثم محلها) أى وقت وجوب نحرها منتهية (إلى البيت العتيق) والمراد أنها تنحر فى الحرم والحرم فى حكم البيت إذ الحرم حريم البيت . تقول بلغت بلد العدو وأنت إنما اتصل مسيرك بحدوده . وأولى من هذا أن تجعل الشعائر عامة كما تقدم وتعظيمها إتمامها . والمنافع التى للناس فيها تكون بالتجارة إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة (ولكل أمة) ولكل أهل دين (جعلنا منسكا) متعبداً كما جعلنا لكم هذا النسك لأنا هكذا نجمع قلوب الناس باجتماعهم فى مكان العبادة (ليذكروا اسم الله) وحده ويجعلوا نسيكهم لوجهه إذ لا غرض من النسك إلا تذكر المعبود (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) عند ذبحها (فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أخلصوا التقرب (وبشر المخبتين) المتواضعين المخلصين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) هيبة منه لإشراق نور جلاله عليها (والصابرين على ما أصابهم) من البلاء والمرض والمصايب التى لا يقدرون على إزالتها (والمقيمى الصلاة) فى أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) يتصدقون (والبدن) جمع بدنة وسميت بذلك لضخامتها (جعلناها لكم من شعائر الله) من أعلام دينه (لكم فيها خير) منافع دينية ودنيوية (فاذكروا اسم الله عليها صواف) قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . وكيفية الذكر أن تقولوا عند ذبحها « الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك » . (فإذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض أى ماتت (فكلوا منها) أمر إباحة (وأطعموا القانع) الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسألة (والمعتر) والمعترض بالسؤال . وقرئ « والمعترى » (كذلك) مثل ما وصفنا من نحرها قياما (سخرنا لكم) مع عظمها وقوتها حتى تأخذوها وهى منقادة (لعلكم تشكرون) إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص (لن ينال الله) لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) المتصدق بها (ولا دماؤها) المهراقة بالنحر من حيث إنها دماء ولحوم (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله ، ثم كررها ثانيا تذكيرا للنعمة فقال (كذلك سخرها لكم لتكبروا الله) لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره (على ما هداكم) أى أرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجه فتقولوا الله أكبر على

ما هدانا والحمد لله على ما أولانا (وبشر المحسنين) المخلصين فيما يأتونه ويذرونه . انتهى التفسير اللفظى .
وهنا (خمس لطائف) :
(١) فى قوله تعالى « والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ».
(٢) فى قوله تعالى « فكلوا منها ».
(٣) فى قوله تعالى « لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » .
(٤) فى قوله تعالى « ولكل أمة جعلنا منسكا » .
(٥) فى قوله تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ».

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « والمسجد الحرام الذى جعلناه » الخ ﴾

اعلم أن هذا المقام وهو مقام الحج قد استوفيته فى سورة (البقرة) فارجع إليه إن شئت ولنخص الكلام الآن بما فى هذه الآية . واعلم أن الله عز وجل لم يخلق الخلق سدى ولم يطلقهم فى أرضه سبهللا بل أحاطهم بضروب الحوافظ التى تحفظهم وهى المعقبات التى تمنع عنهم الأذى كما تقدم فى قوله تعالى « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » وأن الله يعامل الناس معاملة الرحمة واللطف والعطف ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك جهلا تاما لما أنهم مشغولون بأمور المعاش والأخلاق القاطعة للمرء عن التذكر والتفكر . ولقد تقدم لك فى هذه السورة أنه جعل الهواء صلة بين النبات والحيوان بحيث يكون موصلا لمادة الفحم من نفس الحيوان إلى النبات وبه ينمو النبات ويتخلص الأكسوجين فيذهب إلى الحيوان . أما الكربون الذى بقى فى النبات فإنه يدوم فيه حتى يأكله الإنسان . والمقصد من هذه الجملة أن الناس والحيوان والنبات على الأرض أشبه بأعضاء جسم واحد، فالنبات يغتذى بكربون خرج من الإنسان والإنسان يغتذى بنفس النبات وفيه الكربون ثم هذا الكربون يذهب إلى النبات ثانيا وهكذا . وإنما ذكرت لك هذا اتكالا على فهمك ما تقدم قريبا فى هذه السورة وليكون مقدمة إلى ما سيأتى فى هذه الآية . فانظر كيف كان كل من الحيوان والنبات يرسل إلى الآخر منافع ولا يعلم كل منهما بذلك بل هم جميعا غافلون فالنبات والحيوان والإنسان كل هؤلاء غافلون إلا بعض ذوى العقول الكبيرة . فانظر كيف أحاط الله الإنسان بصنوف النعم ودفع عنه النقم وهو لا يشعر . ومن دفعه النقم عنه أن خلق فى الأرض جبالا لتفصل بين الأمم ليصفو فيها الهواء لئلا يكون التعفن فيفسد الجو لتلاصق العمران ولئلا يتعدى المرض والعدوى والوباء بلدة إلى أخرى وأيضاً ليتحصن بها من هربوا من الظلم والجور فى المدن الظالمة فيهرعوا إلى جوار ربهم فى أعلى الجبال ويعيشوا مع الوحوش التى فرت من ظلم الإنسان . فالجبال إذن أمان للناس من هذا القبيل . هذا هو الأمان الطبيعى والديانات نزلت مصداقا لما فى الطبيعة وإقراراً لما هو نافع وتحريما لما هو ضار . فمن أبدع المنافع وأجمل المفاخر الدينية أن جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وجعل الحرم للناس سواء العاكف فيه والباد وجعله حرماً آمنا لا يصاد صيده ولا يقتل فيه أحد ومن دخله فهو آمن . إليه يهرب كل مظلوم ويلجأ كل مضطهد فقام فى الدين مقام الجبال الشاهقات يكون حصنا يأوى إليه الخائفون وهذا مقامه رفيع وفضله عظيم فيه يعبد الله وتشرق النفوس وتبتهل إلى ربها . وهاك آراء العلماء فى الآية :

(١) يستوى فى البيت العاكف فيه والبادى فى تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه وفضل الصلاة فيه وهو قول مجاهد والحسن .

(٢) أو المراد من المسجد الحرام جميع الحرم والتسوية فيه أن المقيم والبادى سواء فى النزول فيه ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير أنه لا يزعج أحد أحدا إذا كان قد سبق إلى منزل وهو قول ابن عباس

وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل . ويقال إن الحجاج كانوا إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة أحق بمنزله منهم وأمر عمر أن لا تغلق أبوابهم فى الموسم . وعلى هذا لايجوز بيع دور مكة وإجارتها والأرض إذن لا تملك ، ولو ملكت لم يستو فيها العاكف والبادى . فلما استويا كان حكمها حكم المساجد وهو قول أبى حنيفة . وعلى القول الأول يجوز بيع دور مكة وإجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار ، وهو مذهب الشافعى وقد قال الله «الذين أخرجوا من ديارهم» فنسبها إليهم، واشترى عمر ابن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم اه .

فانظر كيف حرّم إبراهيم الحرم ودام تحريمه فى الإسلام ليكون ذلك أمنا للناس وموطنا للعبادة وموضعا لاجتماع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وقد امتن الله بذلك فقال فى آية أخرى « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم »

يقول الله إنى جعلت البيت الحرام قياما للناس الخ لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض أى لتنظروا أولا فى حكمة كون الحرم قياما للناس ثم تفكروا فى بقية حكمه فى السموات والأرض التى هى من قبيل العناية والحفظ من الآفات الطارئة عليكم من السماء والأرض فأنا أحفظكم منها ولن تقدروا على معرفتها إلا بالدراسة والعلوم ولن يقدر الناس أن يدركوا شيئا من عنايتنا بهم إلا بدراستها فإذا أمنتهم فى الكعبة بطريق الدين . فياحسرة على العباد لجهلهم . فكم من مصيبة عنهم رفعناها . وكم من نازلة دفعناها . وكم من قاصمة كسرناها . وكم من داهية أزلناها . فنحن نكلؤكم بالليل والنهار وأنتم لا تشعرون . فأنا حرمت الحرم ليفكر العقلاء فيه ويقولوا إن ربنا حرمه لنأمن فيه وهل له أفعال غير هذه وإذن يدرسون نظام هذا الوجود ويقولون نعم تحيط بالإنسان الرزايا من كل ناحية ولكن هناك عطف ولطف بمنع المصائب عنه ومنه المسألة المتقدمة فى الكربون المتواصل بين الحيوان كله والنبات . هذا هو معنى قوله تعالى فى سورة (المائدة) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام » إلى قوله « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » . فهذه المسألة التى يظنها الناس سهلة وهى تحريم الحرم فتح باب لدراسة نظام الله فى حفظنا فى السموات والأرض .

ولقد ألهم الله أهل أوروبا أن يجعلوا (سويسرا) ملجأ للذين يفرون من الظلم أو المجرمين السياسيين وقد اصطلحوا على ذلك . فتعجب كيف ألهم الله الناس أن يعملوا عملا قد أنزله الله على إبراهيم بطريق الوحى . فهنا ملجأ سياسى اختاره الناس وهناك ملجأ دينى اختاره الله . ذلك ليعلم الناس أن ربنا هو الذى يلاحظ عباده ويرحمهم فى هذه الدنيا . فلما لم تكف الجبال للفارين من الظلم ألهم قوما أن يلجئوا إلى مكان يصطلحون عليه ليأمنوا فيه . فالجبال مأمن طبيعى إلهى، وسويسرا ملجأ سياسى، والحرم ملجأ إلهى دينى ، والله يقدر الليل والنهار .

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « فكلوا منها » الخ واللطيفة الثالثة فى قوله تعالى
« لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » ﴾

أما اللطيفة الثانية فقد اتضحت فى تفسير الكلمات فلا نعيد ما ذكرناه وإنما نبين أن أهل الجاهلية كانوا لايأكلون من لحوم هداياهم شيئا فأمر الله بمخالفتهم . وأما اللطيفة الثالثة فاعلم أن المنافع المذكورة فى الآية كدرّها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها . فهذه المنافع قد اختلف فيها العلماء :

(١) إذا جعلها الإنسان هديا وسماها لذلك لم يكن له بعد ذلك شىء من منافعها عند مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس ومنافعها له قبل ذلك التعيين .

(٢) للمهدى تلك المنافع بعد التعيين للهدى فيركبها ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى : أى إلى أن تنحر عند عطاء .

(٣) يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها عند مالك والشافعى وأحمد وإسحاق ، ويجوز كذلك أن يشرب من لبنها بعد ما يفضل عن رىّ ولدها .

(٤) لا يركبها إلا أن يضطر إليه وهذا لأصحاب الرأى .

(٥) والشعائر غير ذلك من المناسك منافعها بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمى أى إلى الخروج من مكة وبالأجر والثواب الأخروى فى أعمال مناسك الحج إلى انقضاء أيام الحج .

مسامرة فى قوله تعالى « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون »

حادثنى رجلان قد حجا فى هذا العام سنة ١٣٤٤ هجرية أحدهما ممن يجوبون الأقطار ويتبوءون الأمصار ويعاشرون الكبراء والأمراء وأهل الحل والعقد . والثانى من العامة وأهل الصناعة فاتحدت آراؤهما على ما يأتى :

إن الحجاج إذا حلوا (منى) ونصبوا خيامهم بعد الإفاضة من عرفات يتقربون إلى الله عزوجل بالهدايا والضحايا من الابل والغنم ويتركون أكثر تلك الهدايا على الجبال المحيطة بهم صباحا فلا تجىء الضحوة الكبرى إلا وقد انتشرت الروائح المنتنة الخبيثة فملكت الهواء ، ودخلت الأنوف واحتلت كل رئة من رئات الحجاج الذين هاجروا إلى ربهم . وهذا التغير السريع وفساده بسبب الحرارة الشديدة من الشمس والآن هذا الزمان يكون الحج فيه صيفا والصيف قوى الحرارة لاسيما فى الأقطار الحجازية المحرقة بالحرارة الكاوية القاتلة ، فلا عجب إذا امتلأ الجو بالعفونة فى بضع ساعات فلا ترى القوم إلا أناسا مالت رءوسهم وتقلصت شفاههم وحانت منيتهم وأودعوا حفرا . ولا سبب لهذا إلا فساد الجو بما خالطه من تلك الروائح الكريهة القاتلة من الهدايا والضحايا فى العيد وفى أيام التشريق . فلما سمعت ذلك منهما فى حديث طويل . قلت لهما : أليس هناك فقراء يتناولون هذه اللحوم ؟ قالوا : كلا . ثم كلا . قلت إن هذا أمر منكر كيف يغفل المسلمون عن هذه الأمور المحزنة ثم سألتهما كم عدد الذين يموتون ؟ فقالا ما من عشرة أو ثمانية إلا مات منهم واحد أو اثنان . فقلت كم عدد الحجاج فى هذه السنة . فقالوا يقربون من ثلثمائة ألف . فقلت وبكم تبلغ الهدايا التى يتقربون بها ؟ فقالوا تقدر بمبلغ (٥٠٠) ألف جنيه أو أقل قليلا . فقلت يا عجبا : إن صح هذا تكون هنا مصيبتان : بل مصيبتان وهما هلاك أنفسنا وهلاك أموالنا . أما الأموال فهى تلك الضحايا التى جعلها الله لأهل مكة وسكان حرمه الشريف حلالا يأكلون منها كما قال تعالى على لسان إبراهيم « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

اللهم إنك قد استجبت دعوة إبراهيم عليه السلام . وها هى ذه القلوب تهوى إليهم ، وها هى ذه الثمرات قد رزقوها ولكنهم لم يتعاطوها . فياعجبا لأمتنا الإسلامية . يقول الله تعالى « لعلهم يشكرون » فهل شكر أهل الحرم على هدايا تقدم لتعطى الجو عفونة ورائحة خبيثة . هذا ما كان من أمر الهدى . أما الأنفس وهلاكها فإن هذه الضحايا والهدايا بدل أن كانت نعمة لبقاء النفوس وحياة المسلمين من أهل الحرم أصبحت وبالا وهلاكا للحجاج القادمين من الأقطار . فكأن هذه النعم انقلبت نقما على أولئك الحجاج بهلاكهم وعلى نفس أهل الحرم لأن الناس إذا عرفوا أن الوباء يحل بساحتهم فى منى بسبب الضحايا وشاع ذلك وذاع ينفر العقلاء وأهل العلم عن الحج ولا يحج بعد ذلك إلا الجهلاء ، فإذا فرضنا أن (٣٠٠) ألف حاج يموت منهم فى (منى)

عشرة آلاف أوعشرون ألف فهذا عدد لايستهان به وهذه مصيبة كبرى لايحتملها دين الإسلام فما كدت أنطق بهذا حتى ابتدرنى أحد أهل العلم وكان حاضرا فى المجلس فقال ما هذه الضجة وما هذه المخاوف ومن أين أتيت بهذه الأقوال ومن قال لك إن رائحة الذبائح والهدايا والضحايا تورث الموت والطاعون . قلت أسمعك كلام المؤرخين والأطباء، فتبسم قليلا وقال قل . فقلت : قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان [فصل فى وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات] مانصه :

[وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرنا أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء . وسببه فى الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة مايخالطه من العفونات والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيوانى وملابسه دائما فيسرى الفساد إلى مزاجه ، فإن كان الفساد قويا وقع المرض فى الرئة وهذه هى الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة ، وإن كان الفساد دون القوى والكثير يكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات فى الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك ، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة فى هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة] انتهى المقصود منه .

هذا كلام (ابن خلدون) وهو من أجلّ علماء الإسلام المطلعين على العمران بل يقلّ نظيره فى الأمم المتأخرة الإسلامية . وقدجاء فى كتاب (كنوز الصحة) المؤلف حديثا أيام عصر محمد على باشا الكبير بمصر مانصه (فى صفحة ١٧١ عند الكلام على الطاعون) :

[إن مرض الوباء يكون فى الغالب قاتلا ومن أصيب به يموت سريعا بعد ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة وذكر العلاج ولا محل لذكره هنا . ثم قال أغلب الأطباء يقولون بعدوى هذا الداء وأنه ينتقل من شخص لآخر بالملامسة لاسيما أطباء أوروبا فلذا اخترعوا (الكرنتينا) وهى كلمة معناها (أربعون) أعنى أن الأشخاص المظنون فيهم ذلك يمكثون مدة أربعين يوما فى محل واحد لايخالطهم أحد معرضين للهواء] انتهى .

فلما سمع جليسنا العالم ذلك ضحك واستغرق فى الضحك وصار يضرب كفا على كف وقال « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » . أبهذا تجيبنا . أتقول فى دين الله وتستدل عليه بكلام مؤرخ تارة وطبيب تارة أخرى . مالنا ولابن خلدون ، ومالنا ولكتاب [كنوز الصحة] ؟ أنت تقول إن ترك الضحايا على الجبال أورث الموت لبعض الحجاج فطلبت منك أن تبرهن على أن هذا الترك منكر فلم تشف غليلا . ترك الناس هداياهم التى أمرهم الله بها على الجبال منى والشرع لم يحرم ذلك . هذه سنة متبعة لايسأل الله أحدا عن ذلك ، ذبحنا الضحايا وتركناها أما تعفن الجو وما أدراك ماتعفن الجو فهذا أمر لادخل له فى الدين فمن مات من الحجاج مات بأجله وسواء أكان سببه مازعمته من الروائح الكريهة أو غيره فهذا شئ والهدايا والضحايا شئ آخر . المسلم لا يلزمه أكثر من ذلك ولم نسمع من علمائنا مثل ما تقوله وقد قال الله تعالى « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » . ذبحنا الهدايا وتركناها ونحن لسنا مسئولين عن شئ غير هذا . أما قولك فى الهواء الطاعون والكرنتينا فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . فدعنا من هذه الأراجيف واتق الله ولا تضيع وقتك فيما لايفيد . فلما أتم صاحبى مقالته صدق عليه الحاجان اللذان ألقيا إلى هذا الحديث وأمنا على كلامه وقالا بلسان واحد إن بعض المتنورين هناك سألوا بعض العلماء فقالوا لهم هذا أمر الشرع فلم نفهم أما الآن فقد عرفنا الحقيقة . فتح الله عليك أيها الشيخ فلقد أنرت بصائرنا وشرحت صدورنا وقد كان الشيخ طنطاوى يكاد يضلنا عما وجدنا عليه علماءنا ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . فلما أتموا مقالتهم قلت لهم جميعا هذا بيت بنيتموه على غير أساس فلأسمعنكم مايهدمه من أساسه ولتعلمن نبأه الآن . فقالوا ليس فى الإمكان أبدع مما كان وإلا فأت ببرهان . فقلت قد ذكرت فى (سورة

الكهف) فى التفسير ماقاله ابن القيم وهذا نصه تحت عنوان [تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والعرف]
قال هذا فصل عظيم النفع جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه وما يعلم أن الشريعة الباهرة لا تأتى به فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم والصالح وهى عدل كلها ورحمة كلها وحكمة كلها وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. وقد ذكر لذلك أمثال منها أنه شرع لهذه الأمة وجوب إنكار المنكر وتغييره ولكن إذا كان إنكار المنكر يستدعى منكرا أشد منه فإنه لايسوغ الإنكار فى هذه الحالة الخ . انتهى المقصود من كلام ابن القيم الذى نقلته فى سورة الكهف وهو صريح فى أن المفسدة تجتنب فى الإسلام . فبالله أى مفسدة أكبر من ضياع ٥٠٠ ألف جنيه بلا فائدة لأهل الحرم وهلاك آلاف من حجاج بيت الله الحرام ، فقالوا بلسان واحد أيها الأستاذ إذن أنت تريد أن تهدم نفس الاسلام فإن الهدايا التى ورد بها صريح القرآن تريد أنت تحريمها . إن تلك الضحايا والهدايا منها الواجب ومنها المندوب فأنت بهذا التقرير قد جعلت الواجب أو المندوب حراما . فقلت حاشا لله فإن هذا كفر وإنى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، وإنما الذى أبتغيه أن نسير على سنن القرآن والقرآن لم ينزل لما يضرنا بل نزل لما ينفعنا . وهذه الهدايا إذا صح ماقلتموه لى انقلب خيرها شرا وهذا لايرضاه جاهل فضلا عن عالم ، وهذا قول إمام من أئمة المسلمين عرف حقيقة الإسلام وفهم قوله تعالى « لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » فالله أمرنا بالتفكر فى الدنيا قبل الآخرة . فابن القيم رحمه الله تفكر وصرح بالحقيقة ، ومن لم يحكم أمر الدنيا فليس له فى الآخرة من نصيب . إن الهدايا فى (منى) مصلحة ولكن ترتبت عليها مضرة ضياع الأنفس والأموال وهى إنما كانت لبقاء الأنفس لا لهلاكها . فليجد المسلمون للتخلص من هذا المرض والجهل العظيم والعار على أمة الإسلام . اللهم إن هذه غفلة وعلى المسلمين أن يتخلصوا منها . فقالوا فهل أنت عندك مخرج لذلك . فقلت أنا لاأقول شيئا فربما يوافق مذهبا ويخالف مذاهب ولكنى أترك الأمر لمجلس يجتمع فيقرر ذلك من علماء الأمة فيكون إجماعيا . فقالوا إن ماذكرته عن ابن القيم حسن وأقرب إلينا من كلام المؤرخين والأطباء ولكنه قول عام ونحن الآن فى أمر دينى عظيم فنحن نرفض الاكتفاء به فان كان عندك علم فائتنا به وإلا فأرحنا من مقالك الذى أطلت به فى هذا المقام . فقلت أليس دين الإسلام يجرى على مقتضى سنن الله عز وجل والعقل . فقالوا يظهر أنك ليس عندك فوق ماتقدم لأن هذا القول داخل فى قول ابن القيم فدعنا منه وائتنا ببرهان وإلافسلام عليك . فقلت هاكم ماورد فى السنة جاء فى الربع الرابع من [الإحياء] فى باب التوكل (صفحة ٢٦٠) مانصه :

[فإن قيل إن من شرط التوكل أن يترك الإنسان الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فانه يجب أيضا أن يكون من شرط التوكل قياسا على ذلك أن من تلدغه عقرب أوحية لاينحيها عن نفسه إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ فان قال قائل وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغى أن لايزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به ولافرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولا نفر من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله فيهم « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » فرجعوا إلى عمر فسألوه فقال

نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون فى رأيه أنفر من قدر الله تعالى؟ فقال عمر نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن عوف يسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال عندى فيه يا أمير المؤمنين شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه» ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله إذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس . فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل] اهـ .

ثم إن صاحب الإحياء بعد ذلك أخذ يبين الحكمة فى نهى الناس عن الخروج من أرض الوباء فعللها بأنهم لو خرجوا من أرض الوباء وتركوا المرضى بها لم يجد هؤلاء المساكين من يعول أحياءهم أو يدفن موتاهم وضرر الباقين بالمرض بخروج الأصحاء محقق وضرر الأصحاء غير محقق بالبقاء . فإذن فى الخروج الاحتراس من ضرر مظنون والوقوع فى ضرر محقق هذا ملخصه . انتهى ماقصدته من الإحياء، ولكنى أقول إن هذا السر أظهره الله تعالى فى عصرنا الحاضر، فقد أجمع أطباء الأمم أن انتقال الموبوئين من الأماكن التى بها الوباء ينشر جراثيم المرض فى العالم وهذا قام عليه البرهان وصار محققا من غير شك . إذن سر النبوة ظهر الآن وأن الدخول بأرض الوباء قاتل لنفس الداخلين والخروج منها قاتل للناس فى الأقطار الأخرى . وهذا السر من الأسرار التى أتى بها الإسلام وظهرت حديثا . فقالوا لقد شفيت صدورنا وشرحت قلوبنا وأنرت بصائرنا بحسن بيانك وإنا لمسرورون ولكن القول يحتاج إلى مزيد بيان وإيضاح . الله ذكر هذه الهدايا فى نفس القرآن وأنت أتيت بكلام عمر فى أمر الوباء وأنه يفر من قدر الله إلى قدر الله . أتريد بذلك أن يفر الحجاج من (منى) أى أنهم لا يحجون . إن المسألة مشكلة تحتاج إلى بيان. ماذا تريد بقولك هذا. أتريد أن الناس لا يذبحون فى (منى) لأجل هذه المفسدة ، قلت لقد قلت لكم سابقا إن هذا لا يقول به مسلم جاهل أو عالم ، فقالوا ماذا تريد إذن ؟ فقلت أنا أترك المسألة لأهل الحل والعقد من علماء الإسلام فهذا شأنهم ، فقال أحدهم لماذا لا يتحد المسلمون على حل هذه المشكلة فينتفع أهل مكة الفقراء بالهدى ويمتنع الهلاك عن أرواح حجاج بيت الله . فقلت إن الله علم هذه الحيرة قبل أن يخلق مكة والحرم وحل هذه المشكلة حلا إجماليا ، فقالوا كلهم بلسان واحد فتح الله عليك فأسمعنا كلام ربنا ، فقلت قال الله تعالى فى (سورة الحج) « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات» (وهى أيام النحر) على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» ثم قال أيضا «ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام » أى عند ذبحها ، وقال بعد ذلك «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها » أى سقطت على الأرض «فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » أى الراضى والسائل «كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون» ثم قال بعد ذلك« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم» أى إلى تسخيرها والتقرب بها :

(١) فههنا ذكر أنهم يذكرون اسم الله عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها « على مارزقهم من بهيمة الأنعام» فعبر الله بأنه رازقنا وما ذبح وترك على الجبل ليس رزقا لنا بل هو رزق الحيوانات التى لا ترى وتخرج فى الهواء، وتدخل أجسام الأحياء فيموت الحجاج .

(٢) ثم قال «فكلوا منها» أى من لحوم الهدايا والأضحية إذا كانت للتطوع وهكذا من الهدى الواجب

بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد على خلاف فى ذلك لانطيل به .

(٣) ثم قال « وأطعموا البائس الفقير » والأمر هنا للوجوب . أوجب الله علينا أن نطعم البائس الفقير أما ذبح الهدى على الجبل وتركه ليقتل المسلمين فهو مضاد لكتاب الله تعالى والله هو الذى قال ذلك .

(٤) وقوله تعالى « ليذكروا اسم الله فى مارزقهم من بهيمة الأنعام » فالتعبير برزقهم يدل على أنه يراد أن تكون تلك الذبائح رزقا لنا لا رزقا للحيوانات الذرية التى تقتل المسلمين بالوباء .

(٥) وقوله تعالى « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » تأكيد لما تقدم فى هذا المقام .

(٦) وقوله « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » أى تشكرون إنعامنا عليكم كما قاله المفسرون وأى إنعام فى ترك الذبائح فى الجو لتكون هلاكا للحجاج ووباء يقتلهم ، فهذه ليست نعما لنا نشكر عليها بل هى نقم توجب الرضا والصبر وفرق بين الشكر والصبر فالشكر على نعمة والصبر على نقمة، فلو جعل الله هذه الأنعام نقمة لنا بحيث تكون سببا فى الوباء لقال غير هذا فكان يقول سخرناها لهلاك بعضكم وابتليناكم بها لعلكم تصبرون فنكفر عنكم سيئاتكم .

فلما سمعوا ذلك قالوا والله إن العيون مقفلة والجهل عمّ أكثر الناس ويظهر أن العقلاء فى الأمم الإسلامية لايريدون أن يتفكروا فى هذا والله إن هذا هو الحق المبين والله لتنشرن هذه الفكرة بين المسلمين فليس بعد هذا بيان فهل عندك بعد هذا بيان ؟ فقلت « وليس وراء الله للمرء مطلب » هذا كلام الله وهذا كلام رسول الله وهذا كلام العلماء ، فماذا يقول المسلمون بعد هذا ؟ فقالوا نظن أن الوهابية يعارضونك ، فقلت أشهد الله أن هذا الكلام إذا وقع فى أيديهم وبلغتموهم ماقلته الآن وكانت الحال هناك كما وصفت فانهم لايخالفونه ، إنهم ينصرون السنة ومتى وجدوا حقا اتبعوه ، فقالوا وكيف تحل المشكلة ؟ ليس فى (منى) أحد يأخذ تلك الذبائح . فقلت كم لهذه المسألة من حلول فاذا اتفق علماء الاسلام على أن تجعل تلك الذبائح فى (منى) فى يد قوم عقلاء من أمم الاسلام وتصنع صناعة لحفظ تلك الأجسام من التعفن ثم توزع على المحتاجين فيأكلونها فان هذا حل سهل إن أقره العلماء ووافق مذاهبهم فانى واثق أن علماء كل مذهب لايتحولون عنه فليحلوا هذه المشكلة بحل يوافق الجميع وأما ماقلته فانما هو ضرب مثل لاحل لأنى لا أريد أن أدخل فى التفصيل كما تقدم وإنما أختم قولى بأن أذكركم وأذكر المسلمين جميعا بقول الله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام ، والهدى والقلائد » فالكعبة والبيت الحرام قيام للناس بالأمان من القتل مكانا وزمانا وما يهدى إلى الحرم يكون قياما للناس من حيث الثواب للهدى باطعام الفقراء وهذا فى (سورة المائدة) فمن نصب مائدة أمن أضيافه زمانا ومكانا وقدم لهم الطعام ، ويقول فى سورة (النساء) « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » أى لا تعطى نحو الأطفال مثلا المال لئلا يضيعونه فى غير موضعه ، والمال عليه مدار حياتنا ، فكيف نسلمه لمن لا يحفظه ، فالمال قيام لنا أمرنا بالمحافظة عليه من سفهائنا والهدى والقلائد قيام لنا فاذا نحن حافظنا على المال فلا ندعه فى أيدى السفهاء لأنه قيام لنا فمن باب أولى نحافظ على ماهو قيام لنا من الأنعام فلا ندعه يطيح منا فوق رءوس الجبال ويهدينا طاعونا وموتا زؤاما أى لانجعل ماهو قيام لنا هلاكا لأجسامنا ، وإذا لم ندع أحد القيامين للسفهاء فهل ندع القيام الآخر يهلكنا بدل أن يكون حياة لنا .

هذا خارج عن العقل وعن الدين ، فالدين يرفضه والعقل ينبذه ، ألا فليفكر علماء الإسلام فوالله إن الله يحاسب كل من اطلع على هذا ولم يفكر فيه « إن الله عزيز ذو انتقام » .

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى «ولكل أمة جعلنا منسكا» متعبدا ﴾

اعلم أنه مامن أمة خلت إلا ولها أماكن للعبادة وذلك ليجمع الناس على رأى واحد ومكان واحد لتتحد القلوب وتجتمع المختلفات وتتفق المشارب .

إن من اطلع على هذا التفسير وأمعن فيه النظر واطلع على ما اقتطفنا فيه من ثمرات العلوم وجمال الثمرات وبهجة الحكمة يوقن أن العالم الذى نحن فيه خلق للتضامن والاتحاد . وإذا تبين لك فى هذه السورة كيف كان تعاون مملكة النبات ومملكة الحيوان على الحياة وهما لايعلمان وكيف كان الهواء جاريا بينهما ناقلا مادة الفحم من نفس الحيوان معطيها إلى النبات وهو يغتذى بها معدا نفسه لتغذية الحيوان ثم يدور الدور . ثم إذا نظرت فى سورة (الحجر) وفى سور غيرها ترى هناك كيف كان النحل والحشرات الأخرى رسلا بين الأزهار ملقحة الإناث من الذكران شاربة العسل ؛ وترى فى سورة (الرعد) كيف كانت كل ورقة فيها قوة تمنع الصواعق ولولا الورق والشجر لأهلكت الصواعق كثيرا من الحيوان، وترى فى سورة (البقرة) وغيرها كيف كان السحاب فى بعد مخصوص فلا هو بالقريب جدا ولا هو بالبعيد جدا وإلا لبلّ الثياب فى الأول وعطل الحركات ولفاجأ الناس المطر فى الحال الثانية من غير إنذار فاذا رأى الناس السحاب حسبوا له ألف حساب وكانوا منه على حذر خيفة ألا يبقى ولا يذر ، وإذا نظرت فى سورة (الرعد) أيضا عند قوله تعالى : «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» تعلم أن كل ما حولنا من غاز وسائل وجامد يؤدى الينا منافع على شرائط مخصوصة ولولاها لكان كل نافع ضرا علينا : إذا عرفت هذا أيقنت أن الاتحاد سار فى هذا الكون وأن كل جزء مرتبط ببقية الأجزاء بطريق مخصوص .

إذا كان هذا فى العالم كله فانظر فى نوع الإنسان الذى نحن بصدده فقد جعل الله له فى كل أمة مكانا يتعبدون فيه ومنسكا يجمعهم ليكون الاجتماع رابطة بينهم ارتباطا عقليا روحيا لا ارتباطا طبيعيا كارتباط الانسان بالحيوان والنحل بالزهر والذكور بالإناث والمطر والسحاب والبرق بالمخلوقات الحية . إن ذلك رابط طبيعى ولكن الله عز وجل يريد ترقية الإنسان ترقية روحية لحثه على العبادة ليتصل بربه وحثه على الاجتماع ليرتبط بأبناء جنسه ارتباطا قلبيا روحيا حتى إذا عرفهم فى الدنيا كانوا معه بعد الموت فى صفاء وهناء ، فهنا مدرستنا وهناك محل عملنا والنهايات على مقتضى البدايات والأعمى هنا أعمى هناك والمهتدى هنا مهتد هناك والله لم يجعل الرزق بسعينا ولا الحج والعمرة والجهاد بجدنا إلا لإثارة الحمية والنخوة وإظهار الثمرات العقلية لتكون لنا هناك نورا مبينا ، قال تعالى « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » والدين الواحد يجمع الأمم المختلفة فى الأخلاق والأعمال والعادات فكأن الأرواح المختلفة كرة كوكبية ذات عناصر مختلفة وصور متقنة صنعها الخالق لمنافع هناك سنعرفها ، ومن يعش يرها .

اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»

هذه الآية وأمثالها أخرى فى هذا القسم أبانت مقاصد الحج فليست ظواهر الأعمال مقصودة لذاتها .

إن ظواهر العبادات والمناسك والطواف والسعى ورمى الجمرات والوقوف بعرفات والتجرد من المخيط وغير ذلك كلها يراد بها مايقوله الحاج [لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك] .

يراد بهذا كله خلوص القلوب من علائقها بهذه المادة الأرضية وحنينها إلى العالم الأعلى على شريطة أن يكون الناس إخوانا لأن الهناء هناك على مقدار التحاب والارتباط وشعور الإنسان بالأخوة العامة والصداقة التامة بين الإخوان .

واعلم أن الله قد جعل بين الناس روابط طبيعية كاللغة وكالجنس وكالوطن وكالملك الجامع لأمم مختلفة وذلك

كله جعله بالصفة التى خلقها وأهداها للناس، والدين جاء لأعم من ذلك . جاء ليجمعهم كلهم على رأى واحد وهو التعاون بالمودة للخلاص من هذه الأرض ونبذ العلائق الدنيوية .

إن المدار على ماذكرناه فلاصلاة بنافعة إن لم يكن الله فى ذكر العبد كأنه يخاطبه ويكلمه ويشافهه فى الصلاة إن الحج لا ثمرة له ما لم يكن نتيجته اطراح هذه الحياة . إن الزكاة إن الصيام إن الصدقات ، كل ذلك للتخلص من ربقة هذه الحياة ، فالجوع وبذل الصدقات للتبرى من العادات والصلاة للعروج إلى عالم الجمال وخطاب الله المطلع المشرق نوره فى القلوب . انتهت اللطيفة الخامسة .

(القِسمُ الثالثُ)

إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ * الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ * الَّذينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ * وَإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإلَيَّ المَصِيرُ * قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنَّما أَنا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ * وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلاَّ إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ

فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ
آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ
عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ
اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ *
لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ
لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ
ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا
وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ
فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا
النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ

اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز * الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور * يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير *

التفسير اللفظى

قال تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) أى يدافع غائلة المشركين عن المؤمنين . ومن هذا القبيل « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » وإنما يدافع عنهم لأنه يحب من يؤدون الأمانات والشاكرين للنعماء ويبغض غيرهم (إن الله لا يحب كل خوان كفور) أى خوان لأمانة الله كفور لنعمه وبهذه الآية فلتستمسك أيها الذكى ولتعلم أنك إذا نشرت ما نكتب فى هذا التفسير من الحقائق العلمية وأذعتها فى الأمة الإسلامية بالطريق الذى سلكناه والنهج الذى أثبتناه والسبيل الذى اتبعناه فاعلم أنك منصور والله يدافع عنك ، لأن الأمة اليوم فى حاجة إلى التطور فى أعمالها والترقى فى أخلاقها والخروج من سقطاتها . وإذا قمت بما أشرت إليك فان الله معك . ولتعلم أن أمثالك فى الأقطار الاسلامية يسلكون هذه السبيل ويجددون مجد الإسلام وينشرون نحو ما أقول فى هذا التفسير فثق بوعد الله كما وثقت به وإنى لولا إيقانى بأن هذا اليوم له ما بعده وأن الأمة اليوم غيرها بالأمس وأن المسلمين سينقلون إلى أطوار أخرى وأحوال أعلى ومقام أسمى ما سطرت حرفا . ولتعلم أن هذه السبيل وحدها هى المسرعة إلى ذلك الرقى فان دينا فيه عناصر الرقى وقد تركت جواهرها فها أنت ذا بشر الناس وعلمهم وقم فيهم خطيبا ، والله معك واقرأ « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » ، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى بسبب كونهم مظلومين . وذلك أن مشركى مكة كانوا يؤذون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أذى شديداً جدا حتى طفح الكيل وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم صبراً فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية ، وهى أول آية نزلت بالإذن بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية (وإن الله على نصرهم لقدير) وهذا وعد لهم بالنصر كما وعدهم بدفع أذى الكفار عنهم . فانظر كيف وعد الله مريدى الإصلاح بدفع الأذى عنهم ووعدهم أيضاً بالنصر عند الحرب . فاعلم أنك أيها الذكى منصور فى حربك العلمى وجهادك الإسلامى كما نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جهاده هو وأصحابه الحربى .

ولقد رأيت كيف نصر الله الأنبياء فى سورة (الأنبياء) السابقة ثم أتبعها بهذه السورة لتستبين

السبيل فيقول الله ها أنا ذا نصرت الأنبياء ، وأنت يا محمد تكون مثلهم فلأنصرنك على الكفار كما نصرت الأنبياء .

إن الله جمع الحج والجهاد والبعث فى سورة واحدة لأنها من قبيل واحد . فالحج للخروج من المألوفات والولوع برب البريات والجهاد لخلاص النفس من أسر العادات والانطلاق إلى عالم الشهادات أو الرجوع بالحرية والاستقلال والبعث مكمل لهما لأنه انطلاق من عالمنا الأرضى إلى العالم السماوى . فالجهاد والحج بعث مصغر يتلوهما البعث المكبر ، ولذلك قدم أكبرها وألحقا به .

(نصر الله الأنبياء المذكورين فى السور السابقة ولنصر سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه)

واعلم أن الجهاد فى هذه العصور هو الجهاد العلمى فإنه لاحرب ولا ضرب ولا سيف ولا مدفع إلا بالعلم ، والعلم يفعل اليوم ما لا تفعله أعظم المدمرات فهو ينبه الشعوب ويغرس فى القلوب حبّ الكرامة والبحث والاتحاد والجهاد . فإذا نشرت ما يكتب فى أمثال هذا التفسير فأنت قائم بالجهاد بل هو الجهاد فى مستقبل الزمان .

إن العقائد فى مستقبل الزمان هى الملجأ الوحيد للأمم فانشر ما كتبناه وما يكتبه سوانا ، فسترى آثار العمل ظاهرة فى الإسلام ولقد وعد الله بالنصر .

(برهان دينى)

واعلم أنك كما قال الإمام الغزالى رحمه الله [إذا أردت أن تصدق دينا فاعمل بما فيه فان كانت النتيجة كما جاء فيه فذلك دليل على صدقه] . وأنا أقول بين للناس ما فى هذا وما فى أمثاله مما يجب الناس فى العلوم ، وانظر ماذا يفعل الله وهو القائل « إن تنصروا الله ينصركم » والقائل « وإن الله على نصرهم لقدير » .

إن الذى يهمك من هذه الآيات أن تتخذها نبراساً لك وإياك أن تتوهم أن هذا خاص بنبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنه لنا الآن وهو يتلى علينا فنحن المبشرون (بفتح الشين) به فاذا متنا بشر به من بعدنا ووعدوا بثمراته . فجاهد ثم جاهد وإنى موقن برقى الإسلام فى القريب العاجل ، ثم أبدل من الذين قوله (الذين أخرجوا من ديارهم) بمكة (بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أى ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم ، ومحل « أن يقولوا » جر بدلا من حق (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بالجهاد وإقامة الحدود (لهدمت صوامع) هى معابد الرهبان المتخذة فى الصحراء (وبيع) هى معابد النصارى فى البلاد (وصلوات) هى كنائس اليهود وهى بالعبرانية صلوتا (ومساجد) هى مساجد المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعنى فى المساجد أى فلولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض لهدمت فى شريعة كل نبى معابد أمته كالصلوات لليهود الخ (ولينصرن الله من ينصره) من ينصر دينه وقد تم ذلك فعلا ، فقد سلط الله المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم . أقول وسيدور الزمان دورته على نحو غير الذى مضى فينصر الله دين الإسلام ويكون ما فى هذا التفسير وأمثاله مما ألقاه الله على أفئدة المصلحين من أجلّ الأسباب التى بها ينبغ فى أمة الإسلام رجال فى العلوم الطبيعية والفلكية والاقتصادية بها تفتح المدارك وتقوم الدول وتنظم الشؤون ويكون العالم السياسى المسلم داهية فى السياسة وقد كان بالليل متهجداً ذاكراً لربه مصلياً مستغفراً . هذا الذى سيكون فى المستقبل القريب . وستشيع فى أمتنا العلوم التى امتازت بها أوروبا علينا وسيصير الفحم والكهرباء والطيارات وأمثالها من أقل الأشياء علما

عندالمسلمين وتصبح كلمة إسلام وكلمة شرق أرقى من كلمة غرب وكلمة أوروبيين ويرجع المجد كما كان أولا وقد وعدنا الله بالنصر وقد وعدت أنا بذلك من أيام الشباب بأنى سألقى هذا التفسير وليس المقام مقام شرح كيف كان هذا الوعد فذلك ليس مجاله ولكن الذى يدهشنى جد الدهش أنى أبشر به تبشيرا فى الصغر ثم إنى أعيش إلى هذه السن وأجد الخاصة والعامة من الأمة الإسلامية تود أن أتم هذا التفسير ، هذا مصداق لهذه الآية ولينصرن الله هذا الدين بل هذا الأسلوب من الدين وهو اجتماع العلم والدين الذى قد أنزل القرآن لأجله وقد خبىء فى القدر وبرز اليوم ظاهرا جليا واضحا يتلألأ فى سماء الجمال وبهاء الكمال فى بحبوحة المجد العلمى والشرف الإنسانى . سينصر الله هذا الأسلوب من الدين . سينصرك الله أيها الذكى فقم فى المسلمين بشرهم بمستقبلهم أثر العزمات والقوى الكامنة . إن فى الشرق لقوى كمنت وعقولا نامت فأيقظها بقلمك وجاهدها بلسانك فالأسماع أذن الله أن تكون واعية والقلوب أذن الله أن تكون عاقلة ولينصرنك الله وهو خير الناصرين كما نصر المسلمين فى القرون الأولى (إن الله لقوى) على نصرهم (عزيز) لا يمانعه شىء . ثم بين السبب الذى من أجله ضمن النصر لهم بأنهم مصلحون ، وبأنهم هم فى أنفسهم صالحون ، وهذه الطائفة جديرة بالمساعدة الإلهية فقال مبدلا من الموصول وهو لفظ « من » (الذين إن مكناهم فى الأرض) كملت نفوسهم بإقامة الصلوات ومناجاة الله فى أكثر الأوقات وهذه المناجاة توصل لهم روحانية خاصة بها يهتدون فى دياجير الحياة وهذا لايعرف إلا بالتجربة ، وهو قوله (أقاموا الصلاة) ولا معنى للصلاة ولا فضل فيها إلا باستحضار المعبود والتوجه إليه فيها على قدر الطاقة بحيث يجعل العبد نفسه كأنه انسلخ من البشرية وانطلق إلى حال الملكية . فهذه الصلاة هى المعبر عنها بأنها أقيمت ، من قومت العود إذا عدلته ولا معنى لاعتدال الصلاة إلا باتمام أركانها ولا معنى لأركانها إلا استحضار المعبود وحضور القلب عند نطق اللسان . هذه هى الصلاة التى جعلها الله من صفات من ينصرهم ويكونون خلفاءه فى الأرض وهو حين مناجاته يلهمهم الخيرات فيما بين الصلاة والصلاة . وقوله (وآتوا الزكاة) ليكونوا عونا لأممهم ولا يتقيدوا بالقيود الثقيلة المالية التى تقعد النفس عن أشرف الأمور (وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فهم بعد أن كملت نفوسهم بالأمور العلمية والروحية الدال عليها مناجاة الله فى الصلوات وبذلوا الأموال ليخلصوا الأنفس من شحها والعقول من عقالها ولينعموا على من حولهم أخذوا يكملون غيرهم كما كملوا هم فيفيضون على الناس من علومهم كالنهر يفيض بالماء ، وكالشمس تشرق على الآفاق ويمنعون المفاسد الناشئة فى الأمم لنزول من طريق كمالهم . هذه هى الصفات التى جعلها الله لمن تولى نصرهم وهذا هو الذى تم فعلا زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فقد قلبوا الأرض قلبا وزينوا وجهها بالعلم والعمل أيام الأمويين والعباسيين ، فنعم العلم ونعم العلماء ونعم الدين . ونحن إن شاء الله سنخلفهم وستخلفهم أنت أيها الذكى فإذا كانوا قد زينوا آسيا وأفريقيا وبعض أوروبا بالعلوم ثم خمدوا وركدت ريحهم وأخذت أوروبا علومهم وطردتهم من بلادهم فإن الدور سيدور وسنأخذ دورنا فى الإصلاح وسنقيم الصلاة كما أقاموها ونؤتى الزكاة كما أدوها ونملأ الأرض عدلا كما ملئوها ولا نتكل على أحد ، فإن الهداية ستعم ربوع الإسلام ويكون الناس إخوانا ، وإياك أن تقول إن زمانه بعيد بل هذا هو زمانه والعلم هو المرشد الأمين ولابد أن يكون العلم هو أول السعادة وهو آخرها . فلتسكن الهداية حالة فى سائر القلوب وليعم العلم الربوع وليلهج بجمال هذا الوجود الأطفال والنساء والصبيان والشيوخ الركع وليقم بالأمر القائمون ولتعلمن نبأه بعد حين (ولله عاقبة الأمور) فهى إلى حكمته راجعة . ولما كان هذا القول ربما استبعدته العقول ونفرت منه النفوس أيام النبوة قبل حصول النصر ، وهكذا أيضا الآن عند كتابة هذا التفسير فيقول المسلم ويك من أين لنا النصر وأكثر بلاد الإسلام فى يد الفرنجة وهم لنا غالبون؟ . أقول : على رسلك هكذا كانت بلاد العرب أيام نزول

هذا القرآن فكانت بلاد العرب مرسحا للدولة الفارسية والدولة القياصرة وكان لهم فيها نفوذ وأى نفوذ ، فلم يمنع ذلك من تحقيق هذا الوعد بعد نزول هذه الآيات . أقول : لما كان الأمر كذلك وهذا يدعو قوما للتكذيب وآخرين للشك أردفه الله بقوله (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين) أى أمهلتهم حتى مضى زمن آجالهم المقدرة (ثم أخذتهم فكيف كان نكير؟) أى فكيف كان إنكارى عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكا والعمارة خرابا؟ هذا ما قاله الله ونزل فى زمن لم يكن للمسلمين فيه نصر ، وقد ضرب لهم أمثال الأمم السالفة المذكورة فى سور تقدمت . فهؤلاء الأنبياء مضت قصصهم فذكرهم لأن قصصهم معلوم للسامعين فلم يبق إلا الاعتبار بهم . أما نحن فى هذا التفسير فإنا نقول إذا نصر الله المسلمين بالصفات الأربعة المذكورة فإنه الآن أسرع إلينا نصرا لأن العبرة عندنا بنفس المسلمين لأنه وعدهم ثم نصرهم كما قرأت الآن . فالمثال عندنا محسوس ، فهم اعتبروا بعاد وثمود ، وأن أتباع الأنبياء نصروا ، وأن غيرهم خذلوا . وكانت أقرب أمة إليهم أمة اليهود فلذلك كثر ذكرها فى القرآن . أما نحن فأقرب الأمم إلينا أمة الإسلام أسلافنا . وأسلافنا توالت عليهم النعم أولا والنقم آخرا فهم فى القرون الأولى كانوا يعقلون ، فلما انقضى أجل النصر انقلبوا جاهلين فحق عليهم القول : فى الهند فى الشام فى مصر فى شمال أفريقيا ، وها نحن الآن نعيد الكرة ونقول إن شاهدنا من نفس أمتنا فليكن الله أسرع نصرا لنا لأننا لسنا مكذبين ولكننا غافلون نائمون . فإيقاظ الأمم أسهل من إحيائها وإيقاظ أهل الكهف أسهل من إحياء الأموات . إن الله ضرب المثل لآبائنا بالأمم وضرب المثل لنا بآبائنا الأولين فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون . ثم أخذ يفصل ما أجمله من حال هذه الأمم مبينا مناظرها بعد هلاكها ليعتبر المسلمون وليزيلوا الظلم من الأمم شرقا وغربا فقال (فكأين من قرية أهلكناها) بإهلاك أهلها (وهى ظالمة) أى أهلها (فهى خاوية على عروشها) ساقطة حيطانها على سقوفها بأن سقطت السقوف وخرت من فوقها الحيطان أو خاوية خالية معطلة على عروشها التى سقطت بينها والحيطان مائلة مشرفة عليها (وبئر معطلة) أى وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها كانت عامرة فى البوادى فهى اليوم متروكة لا يستقى منها لهلاكهم (وقصر مشيد) أى مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه . ومن الآثار المذكورة والقصور بئر فى سفح جبل بحضرموت وقصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن صالح لما نجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح فمات فى حضرموت فبنوا مدينة حاضوراء ، وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فأرسل لهم حنظلة المذكور وكان حمالا فقتلوه فى السوق فكان ما تقدم . ويقال إن حضرموت سميت بذلك لموت صالح فيها لما استقر بها . وكأين منصوب بمقدر يفسره المذكور . ولما كانت أحوال الأمم مكشوفة فى خرائبها مسطرة فى قصورها الخربة وآبارها المعطلة وقراها المهدمة والعقول لاتفهمها والناس لا تذكرها أردفه موبخا الأمم مقرعا لهم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض) ليروا مصارع الجاهلين ومصير الظالمين (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ما حل بتلك الأمم إذ نسيت عقولها فأهملتها وعاشت فى دعة فى قصورها فخربت عليها ، وإن سنة الوجود أن لا يقوم إلا بالعلم والعمل فأما الظلم فإن مرتعه وخيم (أو آذان يسمعون بها) ما يتلى عليهم من الوحى الذى يحضهم على التشمير لدراسة حال الدول ونظام الأمم دارسها وقائمها غائبها وحاضرها حيها وميتها ليقتبسوا من الأحياء ويعتبروا بالأموات . فالوحى هذا دأبه وهذه وجهته فهلا سمعوه بآذانهم فقاموا بالأعمال حق القيام .

ولما كان الناس جميعا بأبصار وبآذان ، قال الله ليس كل مبصر مبصرا ولا كل حامل سيف بشجاع ولا كل

راكب جواد بفارس أردفه بقوله (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) عن الاعتبار فالقلب قد يعقل وإن عميت الأبصار ، ويعمى وإن سلمت الأبصار . وذكر الصدر للتأكيد ونفي التجوّز والتذكير بأن العمى الحقيق ليس هو المتعارف (ويستعجلونك بالعذاب) المتوعد به استهزاء ، وقد شاهدوا الأمم الهالكة ولكنهم عمي عن الاعتبار بها (ولن يخلف الله وعده) فهو على صراط مستقيم ونظام ثابت فكما فعل فيمن قبلكم يفعل فيكم (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون) لأن السنن واحدة فسيكون ما سيحل بكم مضاهيا لما حل بمن كان قبلكم ، وإذا قلتم قد طال العهد ولم يحلّ العذاب فأين العذاب ؟ فان الله حليم وألف سنة عنده كيوم عندكم بل ليس عند ربك صباح ولا مساء ، بل الصباح والمساء تحت أمره وعلى ذلك ينفذ وعده بعد أمد طويل عندكم قريب عنده كما قال « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » لأن كل ماهو آت قريب ، وذلك إشارة لعذاب الآخرة فاذا تأخر عشرين ألف سنة مثلا فهي كعشرين يوما عندكم وهذا شيء قليل ولا يكون ذلك إخلافا للوعد . هكذا خراب الأمم فان الأمة العربية حل بها الانحلال بعد أزمان النبوة بنحو ستمائة سنة فهو كنصف يوم ، ونصف اليوم شيء قليل جدا ، فالله تعالى يقول سنتي لابد من إتمامها ولابد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين أمما وأفرادا في الدنيا والآخرة أو أعذبهم في الآخرة فقط مع الأكدار في الدنيا وهم لا يشعرون . ثم تمم ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإن طال الأمد ، فأبان أنه كم من أمم أمهلت فطال عليها الأمم ، وهذا قوله (وكأين من قرية) وكم من أهل قرية (أمليت لها) أمهلتهم كما أمهلتكم (وهي ظالمة) مثلكم (ثم أخذتها) بالعذاب (وإلى المصير) وإلى حكمي يرجع الجميع .

﴿ لطيفة لتبيان ماتقدم ﴾

هل تحب أن تسمع أيها الذكي نفس هذا في أممنا الإسلامية ؟ . انظر كيف قام أسلافنا بالعلم والحكمة واشتغل الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين في الشرق والغرب بالعلم وقد نقلوا العلم عن الأمم ومنهم اليونان ، وهناك أزهرت في الشرق علوم هي الفلسفة العربية وهكذا امتدت الحكمة والعلم إلى أوروبا في دولة إسلامية هي الدولة العربية الأندلسية التي جمعت الحجازيين والعراقيين واليمنيين والمصريين وأمما أخرى واستمرت على ذلك أمدا طويلا ونبغ من بينهم ابن رشد الفيلسوف المشهور فأهانه المسلمون وأذلوه وطردوه إلى مراكش وشتتوا شمل تلاميذه ، وأكثرهم من اليهود وقد كانت للرجل في العالم صولة فاقرأ كتابه أيها الذكي وانظر كيف يقول إن علم التوحيد اليوم بين المسلمين نظريات وقواعد أصعب جدا من معرفة الله وإنما معرفة الله بما نشاهد من الطبيعة ، وسرد على ذلك أدلة ومنها ماسيأتي في سورة (النبأ) فذكر كيف جعل الله الأرض مهادا والجبال أوتادا . وبالجملة دعا في مؤلفه الصغير إلى ماندعو إليه الآن هو وأمثاله في ذلك الوقت كأن الله يريد أن يجري على سنته أي أنه يعزّ قوما بعد ذلهم ويذل قوما بعد عزهم على مقتضى سنة الوجود ، فلم يرض المسلمون هذا العالم ونفوه وشتتوا تلاميذه فذهبوا إلى أوروبا وتركوا التكلم بالعربية ، ونقلوا علم ابن رشد إلى العبرية ومن هؤلاء انتقل العلم إلى أوروبا فان مؤلفات ابن رشد التي هي شروح على كتب (أرسطو) ترجمت إلى اللغة اللاتينية ودرست بالجامعات الأوروبية وظلت الفلسفة العربية قائمة مقام كتب (أرسطاطاليس) في البيئات الفلسفية إلى آخر القرون الوسطى بل عاشت إلى النصف الأول من القرن السابع عشر . قال (فولتير) : إن اللاهوت المسيحي قد اتخذ (أرسطاطاليس) أستاذه الوحيد ، أما في الجامعات فان العلوم حين بدأت تدب فيها الحياة في آخر القرن السادس عشر لم يزد أهل العلم على أن رجعوا إلى مبادئ (أرسطو) واتخذوها قاعدة لأعمالهم ثم زادوا عليها إلى أن وصلت إلى الحال العجيبة الآن ومازالت تدرس بالجامعات الأوروبية والأمريكية إلى اليوم باللغات المختلفة .

هذا مجمل العلم في العالم الإنساني ، وأنت ترى من هذا أن ابن رشد في الأمة الإسلامية كان السبب في انتشار

علم الفلسفة إلى نصف القرن السابع عشر أي منذ قرنين ونصف تقريبا من تأليف هذا التفسير ، فانظر يارعاك الله . انظر وتعجب من أمة طال الأمد عليها فقست قلوبها فطردت علماءها وعصت كبراؤها . طلب القرآن البحث فى كل شىء ، فى البئر المعطلة وفى القصر الشيد ، طلب السفر فى الأرض للنظر والاعتبار ، وقد قال علماؤنا إن السفر (سفران) سفر جسمى يتبعه سفر عقلى ، فبعد أن يطوف الإنسان الأرض ويشاهد ما فيها من عامر وخراب يرجع فيفكر ويجعل لذلك فكرة علمية ينفع بها الناس هذا هو القصد . فالسفر الجسمى أشار له بقوله « أفلم يسيروا » والسفر العقلى أشار له بقوله « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » ولكن المسلمين إذ ذاك كانت قد خضدت شوكتهم وآنت جهالتهم فاستمرءوا مرعى الجهالات وأبغضوا العلماء .

(نظر المسلمين فى المستقبل)

نظر المسلمين فى المستقبل القريب سيكون فى [أمرين] فى أمر الأمم المعاصرة لنا والأمم الفانية الهالكة فاذا رأوا أمة العرب فى الأيام الأولى قد أهلكها التتار من ناحية المشرق لما استمرءوا مرعى الجهالة ، وأمم أوروبا من جهة الغرب فانهم ينظرون إلى قصر الحمراء وقصور الخلفاء فى الأندلس وآثارهم المشهورة وأعمالهم العظيمة وينظرون إلى آثار الفراعنة فى مصر وآثار الدولة العباسية فى العراق والأموية فى الشام ليرجعوا المجد الذى فقدوه وليدرسوا العلم الذى هجروه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يدرسون أمم أوروبا وأمم أمريكا وأمم اليابان ويكوّنون من هذا كله دروسا نافعة ويكوّنون لهم دروسا من ذلك فى نظام مدنهم وحياتهم ويعتبرون بما ولده الجهل من هلاك أهل استراليا وأهل أمريكا الأصليين وقصورهم المشيدة المهدمة وآبارهم المعطلة ، ولقد وجدوا فى أمريكا أهراما كأهرام مصر ، ولقد قرأت فى الجرائد العربية منذ ١٥ سنة أنهم كشفوا هناك مدينة قديمة تحت الردم وتلك المدينة مسورة بسور من حجر شكله على شكل ثعبان عظيم .

هذا هو النظر اللائق بالمسلمين الذى يدعو إليه القرآن ، فليقرأ المسلمون آيات الله فى الشرق والغرب وإنما القرآن مرآة تريك أعمال الأمم ، فإذا قال الله : سيروا فى الأرض فانظروا فهذا هو المقصود من السفر ومن النظر ، ثم قوله « وهى ظالمة » إشارة إلى ظلم الجهل وظلم الأحكام والإغارة على الناس وغير ذلك فليس الظلم خاصا بالمعاصى بل إن تعطيل الأرض والقعود عما فيها من الثمرات وعما فى باطنها من المعادن وأمثال ذلك أيضا من الظلم ، وإذا كان فى الأرض منافع وليس لنا فيها فائدة فلنأذن لمن يهمهم أمرها باستخراجها لمنفعة الناس ونشاركهم فى الثمرات .

(علوم الحكمة أيضا فى الأمم)

وقد أصاب اليونان قبل العرب ماأصاب العرب فى العلم فأول مانعق ناعق الخراب بديارهم كان بالتبرم من فلسفة (أرسطو) فأعقب ذلك قانون صدر بنفى الفلاسفة جميعا سنة ٣١٦ ق م . ثم عفت آثار الفلسفة من اليونان كلها ففقدوا استقلالهم باستيلاء الرومان عليهم فهذا يماثل ماحل بأمة العرب بعد ذلك بنحو ١٥٠٠ سنة فان الفلسفة والعلم والحكمة طردت من بلادهم وأصبحت ديارهم مأوى للأجانب يقيمون فيها وهم ظالمون ولا قاعدة لاستقلال البلاد سوى علوم وحكمة ونظر ، وهل هذا سوى قوله تعالى « أفلم يسيروا فى الأرض » الخ ؟ وهل التعقل شىء سوى علوم الحكمة والفلسفة ؟ . إن هذا الدين دين الفلسفة والحكمة . ولما جهل بعض الناس العلوم الحكمية أبعدها عن القرآن لحق القول على أكثرهم لأنهم لايعلمون . وقد تقدم ملخص رقىّ العلم وانحطاطه فى الإسلام عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس » الخ فى سورة الأنعام . تم الكلام على اللطيفة التى أردناها فلنشرع فى تفسير بقية القسم (قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أى أوضح لكم ماأنذركم به (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) فى الجنة (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين)

مسابقين مشاقين للساعين فى نشرها، والمعاجزة مغالبة تقول عاجزه فأعجزه وعجزه: إذا سابقه فسبقه فى التعجيز لأن كلا منهما يطلب إعجاز الآخر عن اللحوق به (أولئك أصحاب الجحيم) النار الموقدة، ولما كان أولئك الساعون فى المعاجزة يكذبون بالدين إما عنادا وإما جهلا لشبهات طرأت عليهم وأمور فى الدين جعلتهم يشكون فيه فأخذوا يبنون على ذلك الشك أقوالهم ومساعيهم للحط من قيمة الدين أفاد سبحانه أن ذلك هو ديدن الدنيا وما يزل فيها من العلوم والديانات فقال (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) فالرسول من جاء بشرع جديد والنبى يعم ذلك ويعم من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ومثلهم علماء الاسلام، فهو كهؤلاء الأنبياء فكل عالم مفكر فى الاسلام فهو كنبى لهذه الأمة. ولقد قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الأنبياء ١٢٤ ألفا وأن الرسل ٣٣٣ » وقوله (إلا إذا تمنى) أى قرأ كما قال حسان بن ثابت فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقوله (ألقى الشيطان فى أمنيته) أى ألقى الشيطان على سامعيه ومتبعى دينه الشبهات فى معانى قراءته فيقول قوم: إنه سحر، وقوم إنه كهانة وهكذا. ويقول آخرون بعد عهد النبوة إن هذا الدين لا يصلح للعلوم وإنما هو للعبادات، وقارئ العلوم رجل طبيعى وهكذا. أو يقول قوم إن محمدا صلى الله عليه وسلم يعلمه بعض الناس وذلك قول الذين كانوا فى زمانه صلى الله عليه وسلم (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) بأن يقيض للأمة من يزيل الخرافات أو الأحاديث المكذوبة، ومن ذلك أن هذه الآية نفسها قد جاء فيها أحاديث لم ترد فى كتاب من الكتب الصحيحة كالموطأ لمالك وصحيحى البخارى ومسلم وجامع الترمذى والسنن لأبى داود والنسائى فهذه الكتب الستة لم يرد فيها هذا الحديث الآتى الذى شغل المفسرين وجعل لهذه الآية معنى غير ما كتبناه فإن كتاب [تيسير الوصول لجامع الأصول] الذى جمع ما فى هذه الكتب الستة لم يذكر هذا الحديث فى تفسير هذه السورة. فإذن هو حديث ليس مما يستحق أن يذكر فضلا عن أن يرد عليه أو يجاب عنه، وهو أن الشيطان وسوس إلى النبى صلى الله عليه وسلم عندما قرأ قوله تعالى « ومناة الثالثة الأخرى » فجرى على لسانه أن قال [تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى] ثم نبهه جبريل بعد ذلك فاغتم فعزاه الله بهذه الآية، وهذا كذب صراح. وفى هذه الكلمة لفظ الغرانيق عبارة عن الأصنام شبهت ببعض طيور الماء. (ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) ثم قال الله تعالى مبينا سبب تمكين الشيطان من إلقاء الشبهات (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) شك (والقاسية قلوبهم) المشركين (وإن الظالمين) أى الفريقين (لفى شقاق بعيد) عن الحق (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) بالقرآن (فتخبت له قلوبهم) بالانقياد والخشية (وإن الله لهاد الذين آمنوا) فيما أشكل عليهم (إلى صراط مستقيم) وهو النظر الصحيح الموصل إلى الحق (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) أى فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم عند قراءة القرآن عليهم (حتى تأتيهم الساعة) القيامة أو أشراطها أو الموت لأنه القيامة الصغرى أو الساعة الصغرى (بغتة) فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر وهو يوم عقيم لا خير فيه ولا ريع (الملك يومئذ لله) أى يوم القيامة (يحكم بينهم) بالمجازاة للكافرين والمؤمنين (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين . والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا) فى الجهاد (أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) الجنة ونعيمها (وإن الله لهو خير الرازقين) فإنه يرزق بغير حساب (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) وهو الجنة (وإن الله لعليم) بأحوالهم (حليم) لا يعجل بالعقوبة .

(فصل فى تفصيل الكلام على قوله تعالى « إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته »)

اعلم أن الله عز وجل جعل نظامه فى الدين كنظامه البديع فى الطبيعة . تأمل فيما فعله الله فى الحقول وانظر . ألست ترى أنه خلق القمح والذرة والقطن وسائر النباتات التى يحتاج إليها الناس ومع ذلك تراه خلق بجانبها نباتات أخرى تخلق فى الأرض معها وتقتات من الأرض فترى الحشائش مخضرة مع الذرة ومع القطن ومع سائر البقول والأشجار وترى أن الفلاح لا ينام ولا يسكن حتى يزيل تلك الحشائش فيتوفر الغذاء لنفس الشجر ولنفس النبات . هذا هو الأمر الذى حصل فى نفس القرآن . ترى أن الله أنزل القرآن فيقرؤه الرسول وترى أن العرب قالوا : ساحر كاهن وهكذا فاستبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين مصداقا لمئات الآيات التى يقول فيها إنه منصور . هكذا فى زماننا ترى أمم أوروبا ترسل جيوشا من القسيسين يفتحون المدارس فى الشرق وقد طردوهم من بلادهم لإضرارهم بسياساتهم فيقولون للمسلمين : إن دينكم مملوء ومحشو بالخرافات والأكاذيب فيشككون المسلمين فى الدين . وترى المسلمين أنفسهم دخل عليهم الغش والخداع من جهلة الوعاظ وصغار العلماء ، إن هذا الدين لا يعيش مع العلوم فجعلوه دين خمول . وكما نسخ الله وساوس الشيطان أيام النبوة هاهو ذا ينسخها اليوم بالعلم والعمل . أما العلم فانظر فيما يكتبه المسلمون اليوم فى أقطار الأرض وانظر فى هذا التفسير ألست تجد أن هذا الدين هو دين المدنية العالية ؟ . أفليس هذا ناسخا لما ألقاه الشيطان فى القلوب . وأما العمل فتعجب كيف ألهم أمة الترك أيام هذا التفسير أن تطرد القسيسين من بلادها مع أنها أعلنت أن صبغة حكومتها ليست دينية ، بل هى صبغة دنيوية . أليس هذا نسخا لما ألقاه الشيطان على ألسنة القسيسين من أن هذا الدين دين تأخر ، ثم هم يعلنون دياناتهم فى بلاد الاسلام . أو لست ترى أن هذا معجزة ومصداق لهذا الوعد . ألم تر أن الله نسخ ما ألقى الشيطان . نعم إن الله نسخه وسينسخه أكثر . فلتقم أيها الذكى بنشر أمثال هذه المسائل بين الأمة المسكينة . هذا والله من معجزات القرآن . ها هو ذا نسخ ما ألقى الشيطان فى العقول لما تقهقرت الأمم الإسلامية وأصبح كل من ارتقى منصبا فى أمم الشرق من المسلمين إنما يكون من المتعلمين فى مدارس المسيحيين الذين جعلهم الله فتنة واختبارا لعقول الأمة « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » .

إن حشائش الوساوس الشيطانية حول المعانى القرآنية فى العقول الإسلامية أخذت تحصدها مناجل البراهين فى أمثال هذا التفسير ويزيلها من أرض الإسلام أمثال الترك والأفغان « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » .

(جوهرة فى إيضاح تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول » الخ)

وذلك فيما أورده السيد أحمد بن المبارك مؤلف كتاب « الإبريز » ذلك العالم المحقق المطلع على كتب الدين وعلى كتب الحكمة المعروفة فى بلاد الإسلام منذ قرنين من الزمان إذ سأل الشيخ عبد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأمى الذى كان يسمع (بضم الياء) ذلك العالم من العلم ما يجهله جميع علماء الإسلام قاطبة ، فقد سأله ابن المبارك المذكور عن مسألة الغرانيق وقال له : هل الصواب مع عياض ومن تبعه فى نفيها أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها وقال بعد أن ذكر أسانيده عن سعيد بن جبير قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » فألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا » . قال ثم ذكر تخريج البزار فى القصة وكلامه عليها وما يتبع ذلك واعترض على أبى بكر بن العربى الذى رد هذه الرواية ، وعلى عياض كذلك إذ جعل روايات الحديث مضطربة

ضعيفة . ثم قال أحمد بن المبارك المذكور للشيخ الدباغ بعد ذلك فما هو الصحيح عندكم فى هذا وما الذى نأخذه عنكم ؟ فقال رضى الله عنه: الصواب فى القصة مع ابن العربى وعياض ومن وافقهما، لا مع ابن حجر وما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم شىء من مسألة الغرانيق، وإنى لأعجب أحيانا من كلام بعض العلماء، كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه فانه لو وقع شىء من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم لارتفعت الثقة بالشريعة وبطل حكم العصمة وصار الرسول كغيره من آحاد الناس حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلى كلامه حتى يزيد فيه ما لا يريده الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يحبه ولا يرضاه، فأى ثقة تبقى فى الرسالة مع هذا الأمر العظيم ولا يغنى فى الجواب أن الله ينسخ مايلقى الشيطان ويحكم آياته لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضاً لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحى فى مسألة الغرانيق بالزيادة كذلك يجوز أن يتسلط على الوحى بزيادة هذه الآية برمتها فيه وحينئذ يتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن، والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب فى الدين وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط وأن يعتقدوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجب له من كمال العصمة وارتفاع درجته صلى الله عليه وسلم إلى غاية ليس فوقها غاية ثم على ماذكروه فى تفسير قوله تعالى «وما أرسلناك من قبلك من رسول ولا نبى» الآية يقتضى أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول رسول وكل نبى نبى زيادة على تسليطه على القرآن العزيز لقوله تعالى «من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته» فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه، ولا ريب فى بطلان ذلك .

هذا ما قاله الشيخ عبد العزيز الدباغ . ثم قال الشيخ أحمد بن المبارك بعد ذلك [ما أدق نظر الشيخ – يريد الشيخ عبد العزيز – مع كونه أميا] ثم أورد كلام البيضاوى الذى يفيد مايقرب من المعنى المتقدم ثم قال ابن المبارك أيضا [إن العصمة من العقائد هى التى يطلب فيها اليقين . وقد عد الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الخبر الذى يجب القطع بكذبه] ورد على ابن حجر الذى يدعى صحة الحديث بأن ذلك فى الأمور العملية التى يكفى فيها الظن من الحلال والحرام . أما الأمور العلمية الاعتقادية فلا يفيد خبر الواحد فى ثبوتها فكيف يفيد فى نفيها وهدمها . ثم قال ابن المبارك المذكور (ثم قلت للشيخ رحمه الله: ما الصحيح عندكم فى تفسير قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وما هو نور الآية الذى تشير إليه؟ فقال رضى الله عنه: نورها الذى تشير إليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبيا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه لهم ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص ويعالجهم عليه أشد المعالجة ومن جملتهم فى ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال له الرب سبحانه وتعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وقال تعالى أيضا « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقال « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى ثم الأمة تختلف كما قال الله تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة الموجبة لكفره ، وكذا المؤمن أيضا لايخلو من وساوس لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة وبحسب التعلقات . إذا تقرر هذا فمعنى تمنى أنه يتمنى الإيمان لأمته ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح . فهذه أمنية كل رسول وكل نبى، وإلقاء الشيطان فيها يكون بمايلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك الله عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به فخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معا غير أنها لاتدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين) .

وبعد

وبعد ماذكر هذا الشيخ ابن المبارك عن الشيخ الدباغ قال إن هذا التفسير من أبدع مايسمع وأخذ يورد الطرق التى فسرت بها فوجدها كلها ضعيفة أومخالفة للعقيدة . ولما كتبت هذا واطلع عليه أحد الإخوان الفضلاء قال إن هذا الشيخ قد نقلت أنت عنه فى (سورة الكهف) عجائب عن العلم لم نسمعها من أكثر العلماء إذ قال هناك [إن المسلم يعبد الله لذاته بدون نظر إلى جزاء فى الدنيا ولا فى الآخرة وهذا مقام عال جدا] فهل تسمعنا شيئا من تفسيره لبعض الأحاديث حتى نرى وجهته . فقلت نحن الآن فى تفسير القرآن . فقال هذه مسألة عجيبة رجل أمى يفسر القرآن ويعترض على رجال الحديث ولا تعجبه آراء ابن حجر ويصوب كلام عياض ثم بعد البحث يرى الشيخ ابن المبارك العالم العظيم أن هذا حق من حيث الحديث ومن حيث علم مصطلح الحديث ومن حيث علم الأصول ومن حيث المنطق . فرجل مثل هذا نريد أن نشم رائحة تفسيره لأى حديث من الأحاديث أو بعض آيات أخرى . فقلت له : لقد سأله الشيخ ابن المبارك عن قوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فأجابه الشيخ الدباغ بجواب استغرق ما كتبه منه ٤٠ صفحة فى النسخة المطبوعة وجمع فيها ما بين القراءات المشهورة وما بين الأخلاق النفسية . وهنا زاد عجبى حين قرأت هذه المعانى التى ذكرها الشيخ الدباغ فإنها ترجع إلى علم النفس وتنتهى إلى إسعادها إسعادا تاما بحيث يصبح الإنسان وهو فى هذه الدنيا كأنه فى أعلى عليين فى الجنة . فهذه المعانى التى ذكرها ذلك الشيخ الأمى لو اتصف بها إنسان أصبح كأنه روح طاهرة سعيدة فى الدنيا قبل الآخرة . فقال صاحبى فأرجو ذكر بعض هذه المعانى التى ذكرها . فقلت : ذكر فى معنى نزول القرآن على سبعة أحرف سبعة أصناف من العلم وهى :

(١) الآيات الآمرة بالصبر والدالة على الحق والزهدة فى الدنيا .

(٢) الآيات الدالة على الدار الآخرة .

(٣) النور الذى وضعه الله فى بنى آدم وأقدرهم به على الكلام ، وخص النبى صلى الله عليه وسلم بخصائص فيه .

(٤) الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى .

(٥) الآيات الدالة على أحوال الخلق الماضين وهى القصص .

(٦) الآيات التى فيها الكلام على الكفار .

(٧) الآيات التى ذكر الله فيها نعمه الفائضة على خلقه .

وسمى هذه السبعة هكذا بالترتيب [حرف النبوة . وحرف الرسالة . وحرف الآدمية . وحرف الروح . وحرف العلم . وحرف القبض . وحرف البسط]

فقال صاحبى هذه أشياء لافائدة منها فأين العجائب التى فيها وأين البواطن . الرجل قسم القرآن أقساما وجعل لكل قسم اسما صفات الله وأخبار الماضين وهكذا أعطى كل واحد منها اسما وكنى فأين الأسرار وما هذه إلا أشياء مكررة لما عرفه الناس فى القرآن ، فما هذا الذى تذكر أنه يأتى بغرائب . فقلت أنا ذكرت لك أنه أتى بالمعنى فى ٤٠ صفحة فهل هذه الكلمات هى كل ماقاله . فقال ما الذى أدهشك من كلامه . فقلت الذى أدهشنى من كلامه أنه دخل من هذه الأصول السبعة إلى غوامض النفس الإنسانية . فقال : أريد أن تذكر نبذة منها . فقلت قد قسم كل واحد من هذه السبعة إلى سبعة أخرى فجعلها (٤٩) . مثلا تجده فى البسط الذى جعله دالا على ذكر نعم الله على عباده فيما تقدم قد قسمه إلى سبعة أقسام : (فالأول) منها الفرح الكامل وهو نور فى الباطن ينفى عن صاحبه الحقد والحسد والكبر والبخل والعداوة مع الناس لأن هذه

الأوصاف ونحوها منافية للفرح، وإذا وجد نور الإيمان مع هذا الفرح فى الذات نزل عليه نزول مجانسة وموافقة وتمكن من الذات على ماينبغى وكان بمثابة المطر النازل على الأرض الطيبة فتتولد من ذلك أخلاق طيبة .

(والثانى) منها سكون الخير فى الذات دون الشر وهو نور يوجب لصاحبه أن يكون الخير سجية له وطبيعة فترى صاحبه يحب الخير ويحب أهله ولا يجول فكره إلا فى الأمور الموصلة إليه ومن فعل معه خيرا لاينساه أبدا، وأما من فعل معه سوءا ووصله بأذية فإن مضى وقته ينساه ولا يبقى فى فكره حتى إنك إذا اختبرته بعد ذلك وجدت قلبه فارغا من ذلك وهو مطمئن مستبشر بمثابة من لم يقع له شىء يؤذيه فهذا من كمال البسط

(الثالث) منها فتح الحواس الظاهرة وهو عبارة عن لذة تحصل فى الحواس الظاهرة وذلك بفتح العروق التى فيها فتتكيف تلك العروق بما أدركته الحواس وبهذه اللذة يكمل البسط . فنى البصر لذة بها يحصل الميل إلى الصور الحسنة ، وفى السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغات الشجية وهكذا بقية الحواس . فنى كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الإدراك والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذى هو من أجزاء البسط وبين كمال الحواس الذى هو من أجزاء الآدمية التى هى أحد الأحرف السبعة المتقدمة أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق السابقة فإن فتح العروق زائد على الإدراك الذى فى كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل فى العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع إلى المدرك فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة إلى كل مايراه وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع، بخلاف مطلق الإدراك فإنه لايحصل معه هذا الانقطاع ، وكم من شخص يرى أمورا حسنة ولا يتأثر بها ، وكم من آخر يسمع أصواتا حسنة ولا تقع منه على بال، وبهذا الفتح والتكيف يحصل كمال البسط انتهى ما أردت منه .

فقال صاحبى ولماذا اقتصرت فى الاختيار على هذه المسائل الثلاث دون باقيها البالغة (٤٩) مسألة مكتوبة فى (٤٠) صفحة وهل من هذا دهشك ؟ فقلت نعم . قال ولماذا ؟ قلت لأنها تناسب آية «وما أرسلنا من قبلك من رسول» الخ وتناسب هذا التفسير عموما ، قال فأوضح لى ماقلت ؟ فقلت إن هذا التفسير قد شرح الله صدرى فيه إلى جمال هذا العالم ونظامه وبهائه وحسنه ولولا انشراح صدرى ماأمكننى أن أكتب مما كتبت حرفا واحدا . ألا ترى أن عجائب هذه الدنيا وبدائعها ومحاسن النجم والشمس والقمر والنهر والجبل والشجر والزهر مبذولة كلها لكل إنسان وحيوان ولكن إدراك بنى آدم أكثرهم لهذا الجمال وإدراك الحيوان ليس يعطيهم لذة بل أكثر الناس وجميع الحيوان يدركون هذا الجمال ولكنهم لايحسون بالجمال فيما يشاهدون والمختص بادراك هذا الجمال طوائف اختصهم الله بذلك فطروا على هذا الذوق والإحساس بالجمال ، وبهذا الإحساس بالجمال يثبت الإيمان الناشئ من الاطلاع على العجائب فى العالم وهؤلاء هم الذين نسخ الله ماألقى الشيطان فى قلوبهم كما تقدم فى قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول» الخ ، أليس هذا هو الأمر الثالث فى مقام البسط الذى هو من الأحرف السبعة التى أنزل لها القرآن . إن هذا المعنى الدقيق والفكرة التى لا تخطر ببال أكثر الناس قد أوضحه هذا الأمى لنا إيضاحا شفى الصدور وهو عجيب جدا . هو أمر حاضر عند النفوس ولكنها لا تعبر عنه فعبر عنه هذا الأمى الذى فتح الله عليه ، وهذا الجمال وإدراكه هو الذى قاله علماء التربية .

إن علامة النبوغ إنما هو الإعجاب فاذا رأينا صبيا مغرما بالمشاهد العجيبة فهذا الغرام دليل على رقيه وقبوله للعلم وعلى قدر جمود العقل عن إدراك الجمال وذوقه يكون ضعف ذلك المدرك ، أفلا تعجب أن يكون تعبير هذا الصالح أعجب مايصفه الواصفون فى هذا المقام ، ثم إن كل ماجاء فى هذا التفسير وغيره من جمال هذه الدنيا مهما أطربنا حين قراءته ومهما أدهشنا جماله . أفليس مقصود ذلك كله إسعاد النفس وحليتها بالعلم

والحكمة أولا والعمل بما يمكن العمل فيه ثانيا ، قال بلى . قلت فاذا كانت النفس مشغولة بالحسد بحيث يحل في القلب الحزن لما يرى من نعمة أسبغها الله على أحد أقاربه أو أصحابه مثلا أو كانت مغتاظة حاقدة على من أساء اليها . أفليس ذلك الحقد وذلك الحسد ينغصان على النفس حياتها ويحجبانها عن الاقتداء بما انطوت عليه جوانحها من الصور العلمية الجميلة التي أدركت جمالها وأحست بهائها . وكيف ينسخ الله مايلقى الشيطان من قلب معمور بالرذائل والعداوات والوساوس .

إن النور والظلام لا يجتمعان ، وأى سعادة أعظم من سعادة امرئ أصبحت نفسه مشرقة بهجة بهية في نفسها ثم ازينت بالصور العلمية «نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء» فأنا أيها الأخ اخترت هذه المسائل الثلاث لهذه الحكم . ثم قلت إذن هذا الصالح الأمى يريد بأحرف القرآن في النهاية أن تكون الروح خالصة من الشوائب بحيث تكون قريبة من ربها ، والقرب كل القرب . بما يكون بأمثال هذه الصفات . فما التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا الفرقان ولا كتب الحكمة اليونانية والرومانية والاسلامية والأوروبية إلا طرق لإسعاد النفس ، وأجل سعادة لها أن تكون هذه بعض صفاتها وأن الذى نكتبه في هذا التفسير مما يفتح أبواب السعادة لها ، وسيأتى بعدنا أناس يشرحون هذه المعانى إذ تكون الأمة قد استعدت لها ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال صاحبى أما ماذكرته فحسن جدا لأنك ربطت الكلام الذى استطردت به في حديث نزول القرآن على سبعة أحرف بالمعانى التى في آية الفرائض حتى لا يتوهم القارئ أنه ابتعد عن الموضوع ولكن أين الثريا وأين الثرى فأين سبعة الأحرف التى جعلها معانى وأذواقا وأخلاقا شريفة وسبعة الأحرف اللفظية ، إن هذا الكلام بعيد عن ظاهر الحديث . فقلت : إن هذا قاله نفس الشيخ ابن المبارك للشيخ عبد العزيز ، إذ قال له ما نصه :

[إن المراد بالأحرف السبعة ما يرجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن كقول عمر رضى الله عنه : سمعت هشام بن حكيم يقرأ القرآن على حروف لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله مصوبا لكل من حروف عمر وحروف هشام إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه] وهذه الأحرف التى ذكرتم أوصاف باطنية وأنوار ربانية في ذاته صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يختلف عمر وهشام فيها حتى يجيبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن القرآن أنزل عليهما . فقال رضى الله عنه اختلاف التلفظات التى في أحاديث الباب فرع عن اختلاف الأنوار الباطنية فتسكين الحروف ورفعها ينشأ عن القبض ، والنصب ينشأ عن حروف الرسالة ، والخفض ينشأ عن حروف الآدمية ولكل آية فتح خاص وذوق معلوم ، فلما سمعت هذا الكلام النور بادرت فقرأت عليه الفاتحة وصدرا من سورة البقرة فسمعت منه في بيان ذلك التفريع مايبهرني ثم أعدت القراءة وقرأت بسبع روايات قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو بن العلاء البصرى وأبى عامر وعاصم وحمزة والكسائى فسمعت في ذلك العجب العجاب ورأيت القراآت السبع تختلف باختلاف الأنوار الباطنية فظهر لى والحمد لله وله المنة ما كنت أطلبه منذ نيف وعشرين سنة في معنى الحديث ، وقد طلبه قبلى الحافظ ابن الجوزى نيفا وثلاثين سنة فظهر له وجه في معنى الحديث ، ثم ذكر أنه وقف عليه لغيره ولكنه قاصر على التلفظات واختلافها فذلك الوجه وغيره مما قيل في الحديث [إنما تعلقوا فيه بظل الشجرة الخ] وقال الشيخ ابن المبارك قبل ذلك ، إن جلال الدين السيوطى نوع الأقوال فيه إلى أربعين قولا ، ومع وقوفى على كل ذلك لم يحصل عندى ظن بمراده صلى الله عليه وسلم بل بقيت على الشك حتى عرفت الحقيقة من شيخنا ذلك الأمى انتهى ملخصا .

فلما سمع صاحبي ذلك قال إذن الشيخ الدباغ ربط ظواهر الألفاظ بمواطن الأنوار واختلاف العلماء رجع إلى الألفاظ مع الجهل بتلك الأنوار . قلت نعم ، قال : عجبا كيف يكون فى العالم عقول ونفوس مشرقة إلى هذا الحد . أليست هذه النفوس أرقى من نفوسنا نحن ؟ فقلت نعم إن هذه النفوس التى تتصف بالصفات التى ذكرها الشيخ الدباغ عجيبة فهى صفاء لا كدر معه وعلم لا جهل معه ونور لاظلمة معه . وإذا كانت نفس الشيخ الدباغ على هذا النمط فهى من عالم أسمى من مستوانا الذى نعيش فيه ، واعجب لما ذكره هو ونقلته فى سورة (الكهف) من وصفه لطبقات الصوفية فى الأمم الإسلامية وشرحه مسألة ذكر الأسماء والأوراد وأن أكثر هؤلاء لاينالون من الفتوح قليلا ولا كثيرا وشرح طرق الصوفية فى أدوارها الثلاثة وكيف يقول هناك : [إن أكثرهم طلاب دنيا لاطلاب آخرة] ، فقال : وما الحكمة فى ظهور أمثال هؤلاء فى أمة الإسلام؟ قلت يظهر لى أن هؤلاء يخلقون فى الأرض لأمور منها :

(١) أن الإنسان إذا فتح الله عليه بشىء فألف فى العلوم يعلم أن علمه بالنسبة لغيره كالعدم وأن هذه الظواهر ليست شيئا بالنسبة للحقائق .

(٢) ومنها أن المسلمين اليوم أصبحوا أجهل الأمم بسبب الشيوخ الجهلاء الذين يوهمونهم أنهم عندهم علوم مكتومة عندهم ، فيقال لهم أيها الشيوخ الجهلاء انظروا لهذا الشيخ هل أفضتم علوما على تلاميذكم كعلوم هذا الشيخ الأمى مع أنكم تجهلون ظواهر القرآن والعلوم ، إذن هذه الدعاوى كاذبة ، ولقد أحسن مصطفى كمال باشا فى إخراجه أولئك الشيوخ من زواياهم وجعلهم مع الناس يعملون كما يعملون لأنهم لم يفيدوا الأمة شيئا .

(٣) أن مجد العلماء فى العلم لأنه لاساحل له ، وإذا جهل علماء الإسلام ظواهر العلوم فكيف يصلون لبواطنها فعليهم أن يقرءوا سائر العلوم ، والله هو الذى يصطفى للحقائق من يشاء .

(٤) أن هذا الشيخ قد اطلع على بعض العلوم قبل ظهورها كما سيأتى فى سورة (النور) فأنقل عنه هناك أنه رأى جبال الثلج فى الجو مريدا بذلك تفسير قوله تعالى «وينزل من السماء من جبال فيها من برد» ، فقال إننى شاهدت جبال الثلج فى الجو ، والبرد يصنع من ذلك الثلج بفعل الله تعالى وهذا حقا قد كشف بالطيارات فى عصرنا الحاضر وستراه مرسوما فهذا عجب بل معجزة للقرآن فكيف ينزل القرآن بذلك ولم يكن معلوما ؟ ثم كيف يأتى رجل أمى فيخبر به قبل حصوله ، والمسلمون وأهل أوروبا جميعا كانوا يجهلون ذلك ثم يظهر فى هذه الأيام فقط وقد رسم فعلا . أفليس هذا عجبا وهذا فى زماننا ليس بدعا ، فإذا اطلعت على كتابى المسمى (الأرواح) رأيت عجبا فإن الصبى الجاهل وقت التنويم ينطق بما يجهله أكبر فيلسوف فى أرضنا وهذه (لورا) بنت الحاكم الأمريكى نطقت بعشر لغات لم تكن لتعرفها من قبل . ولقد تقدم بعض هذه المسائل فى هذا التفسير كالذى جاء فى سورة البقرة عند مسألة السحر وبابل وهاروت وماروت وفى مواضع أخرى فيها وفى غيرها :

(٥) أن ذلك يوجب على المسلمين أن يكونوا أعلم الأمم بهذه العلوم الجوية والسماوية والأرضية .

(٦) أن هذه تحل لنا مشاكل كثيرة ، فإن العقلاء فى هذه الأرض يدهشون إذ يرون كواكب مشرقة وأنوارا متلألئة وحسابا منظما وسحابا ماطرا وأنهارا وجبالا وحيوانا وجمادا ونباتا . فهل كل ذلك لأجل خدمة هذا الإنسان فى الشرق والغرب ونفوسهم على ما هى عليه من الضعف والجهل والحقد والحسد . ووجه الحل أن يقال إن هناك أرواحا عالية أرقى من هذه وإن هذه الأرواح الأرضية الإنسانية اليوم لاتزال فى حال الطفولة ولا ضير فى ذلك ، فالرجل العاقل والحكيم الفيلسوف يربون الصبيان الذين لا يدركون إلا قليلا .

إذن نفوسنا فى هذه الأرض اليوم تربى بالنعم والنقم والبأساء والضراء وهى تتخبط حتى تموت وترتقى فى عوالم حتى تصير فى عالم أعلى وهى فيه متحدة مع اختلافها أشبه باتحاد أضواء الشمس السبعة مع اختلافها فإن الزرقة تخالف الحمرة وهى معها متحدة اتحادا تاما وهذه الألوان اجتمعت واتحدت لرقىّ العوالم الأرضية . فإذن تزول الحيرة من نفوسنا أو تقل فى هذا النوع الإنسانى المصنوع أبدع صنع ثم هو فى الرذائل مدفون . فإننا نقول إذا كنا نحن الآن على هذه الحال فلا عجب فنحن يربينا الله ويعطينا من العلم والأخلاق على مقدار طاقتنا وبه نفهم قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين » فالأرواح فى أحسن تقويم على حسب جبلتها كما ظهر من أحوال وأقوال (الشيخ الدباغ) فهو يصف لنا صفاء النفوس وجمالها وبهاءها ولعله من الأرواح العالية التى أنزلها الله من عالم الأرواح لتعطينا حكمة وعلما وليست من درجتنا ولا من جبلتنا التى قد غمست فى حمأة هذه الأرض . ومن عجب أنه فى تفسير هذا الحديث وهو حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أتى بزبدة الرذائل والفضائل التى أدرجها (الغزالى) فى الجزء الثالث والرابع من (الإحياء) وسماها المهلكات والمنجيات فهذه كلها تضمنها الحديث عند هذا الشيخ العظيم الذى لم يتعلم . ومن عجب أنه لما سأله ابن المبارك العلامة المتقدم ذكره عن الحديث المذكور أجابه بقوله : اصبر الليلة حتى أسأل النبى صلى الله عليه وسلم ثم أخبره فى اليوم الثانى بما سمعت بعضه هنا . إذن هذه روح كبيرة أشرقت فى أرضنا لتدلنا على نقصنا أولا ولتربنا أن هذا القرآن ليس القصد منه هذه الظواهر وحدها فالألفاظ والمعانى المتعارفة مقدمات لأمور وراءها وهذه العلوم وهذه المعارف وراءها علوم ومعارف « فليرتقوا فى الأسباب » وهذا يفسر لنا ما جاء فى (علم الأرواح) حديثا . إن بعض الأرواح لما سئلت لماذا نرى الكاملين عندنا تكذب عليهم الأرواح ؟ أجابت لا كامل فى أرضكم ، فالأولى أن تقولوا صالحين ولو كنتم كاملين ماحشرتم فى هذه الأرض . إذن نحن هنا فى الأرض ناقصون ، ونحن يربينا الله الآن ولم يصل أكثرنا للكمال ولا قاربه وإذا كان هناك بعض الكاملين أمثال الدباغ المذكور فإننا لا نعرفهم ولا نخالطهم لعدم الملاءمة بيننا وبينهم وغاية الأمر أن أهل الأرض الآن يتشبهون بالأرواح الكاملة فى أمور : منها أن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى هذه السنة ، أى سنة ١٩٢٨ السلام العام بين الأمم وقد وافقه كتابة أكثر الدول على ذلك كما ستراه موضحا فى سورة (المؤمنون) عند قوله تعالى « وإن هذه أمتكم أمة واحدة » ومعلوم أن هذا كله اتحاد لفظى الآن ، فهم جميعا متحدون لفظا ولكنهم يصنعون السلاح ليلا ونهارا . إذن ليسوا كألوان الشمس السبعة بل هم كالذئاب العاويات وقد لبسوا ثوب الملائكة وعسى أن تكون هذه الظواهر مقدمات لحقائق فى مستقبل الزمان . ومنها أن عمال كل حكومة يعملون لمصلحة واحدة وهم متحدون ولكن هذا اتحاد صناعىّ وإنما هذا كله يفهمنا أن هذه النفوس تفعل ظواهر ما خلقت له وإن لم تصل إليه فعلا كما ترى الصبيان يركبون أعوادا كأنهم ركاب خيل إذ يفعلون ماخلقوا له وهم لايعلمون فأهل الأرض الآن يفعلون فى سياساتهم ما ظواهره تنبئ عن الحقائق وأن هذه النفوس الإنسانية لن تنال سعادتها إلا بعد قطع عقبات فى عوالم أخرى بعد الموت وترك قيودا وقيودا من الأخلاق الشائنة والأكاذيب والنفاق ، وما دامت لم تصل لهذه الدرجات فهى فى سجين الجهالة معذبة مضطربة فى جهنم البرزخ .

ويظهر لى أن قراء هذا التفسير من الأمم الإسلامية سيكونون على رأى واحد وعلى مشرب واحد فى الشرق والغرب . ذلك لأن الدين الإسلامى فيه ليس متشعبا ، بل هو دين واحد ورأى واحد وفكرة واحدة ففيه ظهر أن هذه العلوم التى تدرسها الأمم كلها هى أصول دين الإسلام . فأمم الإسلام بعدنا هم الذين سيقرءون كل علم وكل فن . إذن سيتحدون مشارب وآراء ولا يختلفون ولا يكونون كالذين تقدمونا من

أمم الإسلام المتأخرين فى الزمان الذين ظنوا أن الاختلاف فى فروض الوضوء أو فى مدة الحيض أوفى ركعات الوتر أمر عظيم، فقراء هذا التفسير يعلمون حق العلم أن اختلاف الأئمة فى الفروع لا يوجب التفريق . فإذن هؤلاء القارئون لهذا التفسير وأمثاله فى عصرنا سيكونون هم الذين عليهم نظام جمهور المسلمين يقودونهم إلى إصلاحهم وسعادتهم واتحاد ممالكهم ودولهم ونظامها ، والله خير حافظا وهو الهادى إلى سواء الصراط .

هذا ما عنّ لى فى تفسير قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وما تبع ذلك من تفسير حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » وماشاكل ذلك والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : إذا كان الله قد خلق أناسا بيننا قد امتازوا امتيازا عظيما بحيث أصبحت معارفنا بالنسبة لمعارفهم شيئا قليلا . فاذا صح هذا كان ذلك موجبا لأمرين : أولا حزننا على جهلنا بالنسبة لهم. ثانيا أن النفس تشرئب إلى هذه المرتبة وتبقى طول حياتها مؤملة أن تنالها . ولا يخلص الإنسان من هذين الأمرين إلا إذا كان غير مطلع على مثل هذا أو اطلع عليه ونبذه وكذبه وأراح نفسه وليس كل امرىء قرأ هذا يستطيع التكذيب فان الآراء التى تقال فى تفسير آية أو حديث مثل ماتقدم هنا لاتدع عاقلا يشك فى تفوق قائلها . فقلت اعلم أن المراتب التى نحن عليها والسير الذى نسيره فى حياتنا هو الذى سنه الله عز وجل وهو الأقرب لسعادة نفوسنا ورقيها فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو القانون العدل والصدق والنور الإلهى . فأما مايكون بالمصادفات والأمور النادرة فهو الذى لايلائم حالتنا ولا يصلح لنا نظامنا الذى فى هذه الدنيا . ألا ترى رعاك الله أن الجنين لا يتكوّن إلا تدريجا، ولم تجر عادة الله أن يجعل النطفة رجلا سويا فى يوم أو بعض يوم. ولو أن الله ألقى علينا العلوم دفعة واحدة وازدحمت فى أفئدتنا وشاهدنا فى هذه الدنيا ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فان ذلك لاتحتمله عقولنا ونحن فى هذه الأجسام الأرضية . فاذا حجبه الله الآن فليس هذا لإذلالنا ، كلا والله بل هو لسعادتنا لأننا لو تحملنا ذلك لأعطاه لنا كما أتاح للجنين أن يقتحم المشيمة والرحم ويشق له طريقا ويخرج من سجن الرحم إلى هذه الدنيا الواسعة وينظر كواكبها وشموسها وأقمارها . فاذا كان مدبر هذا العالم لم يحجب الجنين عن مشاهدة عوالم لاحصر لعدها بعد أن استكمل مدة النمو فى الرحم وهو لايشاهد هناك شيئا إلا أنه مسجون فى الظلمة . هكذا لايحجب صانع هذا العالم ومدبره أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية عن الاطلاع على ماوراء الحجب لأنه لو أطلعنا عليها قبل أوانها لكان ذلك وبالا علينا وذهابا لعقولنا وإهلاكا لنفوسنا ، هنالك قال صاحبى هذا القول مقبول والبرهان حق وصدق ولكن لو أردفته بآراء من كلام هؤلاء المفتوح عليهم لنرى ماذا يقولون فانهم إن أيدوا رأيك وطابق مقالهم برهانك هنالك تطمئن النفوس وتهدأ القلوب وتنشرح الصدور ويقول كل امرىء منا: رضيت رضيت ، وإذن يكون قارىء هذا التفسير وأمثاله منشرح الصدر لا يحزن على ما حرم من مراتب عالية علية ولا يندم على ماذهب منه من تلك الثمرات العلية . فقلت نعم هم الذين قرروا هذه الحقائق بأوضح مما ذكرت وأبين مما شرحت . قال إنى لفى شوق لسماعه . فقلت لقد نقل الشيخ أحمد بن المبارك المذكور عن شيخه الدباغ أنه ذكر ما يشاهده المفتوح عليهم من السموات والأرضين وأعمال العباد فى خلواتهم ويشاهدون نار البرزخ وهى الممتدة بين السماء والأرض وهى التى تذهب إليها الأرواح بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وهناك الأرواح الناقصة فيها وهى هناك فى منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش وأهلها فى صعود ونزول دائما لا يكاملك الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوى به هاويته وقال إن هذه النار غير نار جهنم فجهنم وراء هذه العوالم . وهناك ذكر أن هذا المفتوح عليه يشاهد الأفلاك والنجوم وهكذا ثم قال ويجب عليه أن لا يستعظم شيئا من هذه الأمور وأن يستصغر كل ما يرى وإلا وقف به الحال وصار أمره إلى الانتكاس لأن الذات فى زمن الفتح شفافة تشف كل ماتستحسنه وهذه الأشياء المشاهدة كلها ظلام فإذا ركن إلى شىء منها وقف فى الظلام وانقطع عن الله عز وجل ولذلك كان

غير المفترح عليه فى ساحة الأمن ، وكان المفتوح عليه فى غاية الخطر إلا من عصمه الله . وإذا كانت الذات قبل الفتح مشغولة عن الله عز وجل بنحو اللوز والزبيب والحمص فضلا عن الدرهم والدينار والنساء والأولاد فكيف لا يفتتن بعد الفتح بمشاهدة العالم العلوى والسفلى ومساعدة الشياطين له على ما يريد ولا عصمة إلا بالله . قال ومن وقف مع شىء من هذه الأمور السابقة كانت الشياطين معه يداً بيد وصار من جملة السحرة والكهان . ثم ذكر المقام الثانى وهو الكشف النورانى فذكر أنه مقام مشاهد الأنبياء والملائكة على حقيقتهم ومع ذلك يحتاج أيضاً إلى عناية وضبط نفس انتهى .

(رأى الشيخ الخواص والشيخ الشعرانى فى هذا المقام)

ولقد قال مثل ما تقدم الشيخ الخواص لتلميذه الشعرانى إذ قال له [أكمل الأولياء من دخل الدنيا وعمل فيها بالأعمال الصالحة ولم يشعر بكمال نفسه ولا شعر به أحد من الخلق حتى يخرج من الدنيا وأجره وافر لم ينقص منه ذرة ، قال فقلت له وهل ينقص الولى بمعرفة الناس بكماله ؟ فقال نعم أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم «خص بالبلاء من عرفه الناس»] فلا يزال الود يقوم له فى قلوب المعتقدين إلى أن يستوفى جزاء أعماله الصالحة كلها لأن الود والمحبة ما قاما فى باطن الخلق إلا من ظهور كماله لهم فأحسن أحوال من ظهر كماله للخلق أن يخرج من الدنيا مفلساً بالأعمال الصالحة سواء بسواء . قال فقلت له فهل يدخل الفتوح الإلهى استدراج ومكر فقال نعم يدخله المكر والاستدراج ولذلك ذكر الله الفتح فى القرآن على نوعين (بركات وعذاب) حتى لا يفرح العاقل بالفتح قال تعالى «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» وقال تعالى فى حق قوم آخرين « فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد » وتأمل قول قوم عاد « هذا عارض ممطرنا » لما حجبتهم العادة . قيل لهم « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها » قلت له فما علامة فتح الخير وفتح الشر ؟ فقال كل فتح أعطاك أدبا وترقيا وذل نفس فليس هو بمكر بل عناية من الله لك وكل فتح أعطاك أحوالا وكشفا وإقبالا من الخلق فاحذر منه نتيجة عجلت فى غير موطنها فتنقاد إلى الآخرة صفر اليدين مع إساءتك فى الأدب إذ طلبت ذلك فإن كل من طلب تعجيل نتائج أعماله وأحواله فى هذه الدار فقد عامل الموطن بما لا يقتضيه حقيقته ، قال فقلت له فإذا حفظ الله العبد واستقام فى عبوديته وعجل له الحق نتيجة ما أو كرامة فهل من الأدب قبولها أو ردها ؟ فقال الأدب قبولها إن كانت مطهرة من شوائب الحظوظ النفسانية . ثم ذكر أن الكمال أن يقابل الإنسان جميع العوالم بما يناسبها ويعطى كل ذى حق حقه ويأخذ الأشياء بالحق ويردها بالحق انتهى .

وبعد أن سمع صاحبى هذا قلت له : أفلست ترى أن كلام هذين الصالحين هو عين ما قلته لك ؟ أن استعجال الاطلاع على العوالم فى الحياة الدنيا يشابه من كل وجه استعجال الأم إسقاط جنينها قبل موعد مولده . فانظر لهذا التحذير والتخويف وأن المطلع على هذه العوالم معرض للخطر العظيم . ولتعلم أنى أنا كنت أحب أن أقف على هذه الحقيقة من كلامهم فاستقرت نفسى الآن وانشرح صدرى ورضيت رضاء تاما بما نحن عليه الآن من هذه الحال فلنسر فى التفسير ولينشرح صدر من يقرؤه فلا يحزن ، على أنه لم يطلع على عوالم جميلة فان هذه قد عدوها شهوة نفسية توجب الانقطاع عن الله وجعلنا نحن أشبه بالسقط إذا سقط من الرحم قبل تمام المدة . ثم قلت له وإنى أيها الأخ لم أكن لأجاريك فيما سألتنى عنه فى هذا المقام مع خروجه عن موضوع تفسير قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » الخ إلا لما أرقبه من توالى الحسرات والوساوس فى قلوب الذين يقرءون التفسير ، إذ يقولون لماذا يفتح الله على أمثال الدباغ ويتركنا وهذا الحزن يضر بالقارىء ضرراً بليغا ويعطل رقى الأمم الإسلامية كما أنه فعل ذلك مع آبائنا وقرءوا فى كتب المتقدمين أمثال ما ذكرناه

هنا فتقطعت نفوسهم حسرات وأضاعوا الزمان فى التلهف على درجة الكشف وهم فى بحر لجى ، أما الآن فقد حصحص الحق واستبان السبيل واستوفينا هذا المقام عقلا ونقلا بحيث لا يبقى فى نفس الأذكياء من قراء هذا التفسير وأمثاله حسرة أولوعة بل يقرءون ويعلمون الأمة ويسيرون فى رقيها محبين للعلوم مرقين للشعوب الإسلامية خصوصا والإنسانية عموما مريدين بذلك وجه الله .

فيا أيها الأذكياء اعملوا فى هذه الدنيا كما تعمل الكواكب والشموس والأقمار تسير مطيعة لربها لاتبغى جزاء ولا شكوراً . وإياكم وأن تطلبوا حظوظ نفوسكم بل كونوا عبادا لله مخلصين . هذا ما أرجوه لنفسى وسيكون هذا رجاء من يقرءون هذا التفسير .

هذا ولكن أيها الذكى مفكرا فى أهل زمانك فإن الأمم الإسلامية اليوم على ما كانت عليه منذ قرون فإنك ترى فى كل قرية شيوخا لهم مريدون ، والنادر فيهم من فتح عليه وهم جميعاً يتغنون بهذا القول يوهمون الناس أنهم وارثون هؤلاء الأعلام فيجب تحذير الناس منهم فأكثرهم خطراً على الأمة الإسلامية إذ يقولون لهم إن علم الغيب هو العلم الحق والناس محجوبون ويبغضونهم فى العلوم المشهورة وهذا ضلال فلقد تحقق أن تلك العلوم لا تحصل إلا للنادر منهم وهى فى غير أوانها وأن أكثر من فتح عليهم يصبحون سحرة وكهانا . وبناء عليه إذا وجد المسلمون منهم من يخبر بالغيب فهذا ليس ولاية بل قد أصبح هذا الرجل كاهنا أو ساحرا فأما الولى الاسلامى فهو غير هذا ولذلك يجب تطهير البلاد الإسلامية ممن يدّعون الإخبار بالغيب ولو صدقوا أو من تظهر على أيديهم الخوارق ليظهروها للناس فإن هؤلاء غالبا ضارون بالأمم الإسلامية ولذلك أحسن مصطفى كمال باشا فى طردهم من البلاد . فما أكثر هؤلاء إلا قوم عاطلون يأكلون من أموال الأمة ولا يعملون لها شيئا . هذا ولما أتممت هذا واطلع عليه صاحبى قال والله لقد أخرجتنى من مأزق صعب . ذلك أنى كنت أقرأ اسمين من أسماء الله تعالى قد حسبتهما بالجمل ليطابقا اسمى فى حساب الجمل فكنت أقرؤهما كل صباح وكل مساء بمقدار عددهما ظانا أن الله سيفتح علىّ بهذه القراءة ويرينى العجائب فى الدنيا ولكن تبين لى الآن أنى مخدوع لأن هذا الذكر ليس لوجه الله ، وأيضا لو فرض أنى فتح علىّ وشاهدت ما فى قلوب الناس لم يكن لذلك فائدة وإنى أتلهى بما أشاهده من أحوال الناس وبما فى قلوبهم وأعتقد أنى وصلت إلى الله ولم أصل فى الحقيقة إلا إلى شهوتى وإلى موافقة الشيطان فإن نتيجة ذلك على فرض حصوله أن يعتقد الناس فىّ ويقبلوا يدىّ ويأتونى بالخيرات من عرق جبينهم . وأى شيطان أضل من شيطانى حينئذ وهنالك لا يكون للناس منى فائدة إلا أنى أوهمتهم بأنى وقفت على علوم تقطع دونها الأعناق فيقفون متحسرين ويحقرون علوم المسلمين من تفسير القرآن وعجائب المخلوقات التى ستظهر فيهم وتنشر بعد ظهور أمثال هذا التفسير ويبقى المسلمون فى درجة الذل والانحطاط ، وأوروبا تسبقهم هى وأمريكا والصين واليابان ويحيطون ببلادهم من كل جانب وذلك كله بسر وصولى واطلاعى على المغيبات التى لا تفيد المسلمين إلا أن يعظمونى . أنا أقول هذ وأنا موقن أن الشيوخ فى بلاد الإسلام هذا شأنهم قد أضلوا المسلمين وأبعدوهم عن العلوم فساءت الحال واعتقدوا فى شيوخهم أنهم أعظم العظماء حتى إنى سمعت عن بعض المسلمين فى بلاد الغرب أنه قال هل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم شرفا من شيخنا فلان وأنا لا أحب أن أذكر اسمه هنا لأن تلاميذه يملأون الأقطار وإعاقال ذلك لأنهم يسمعون أنه يطير فى الجوّ ويحيى الموتى ويعمل أعمالا لم تسمع لنبى من الأنبياء . هذا قولى وأستغفر الله لى وللمسلمين والمسلمات . ثم قلت إن ما شرحته الآن هو الذى كان يجيش بنفسى لاسيما أنى لما قرأت كتاب (راجا يوقا) المترجم من الهندية حديثا إلى الانجليزية وجدت هذ الكتاب يجعل السعادة خاصة بمن يصلون إلى ماوراء الحس ويكشف لهم عن عوالم الغيب مع أنهم وثنيون ولهم ذكر خاص ورياضة خاصة بأن

يحبسوا التنفس داخل الرئة أو خارج الفم وإنما يفعلون ذلك كله لأجل الكشف والظاهر أن هذا نقل كله إلى متصوفة المسلمين المتأخرين ونوّعوا فيه بدليل أن النقشبندية عندهم هذا التنفس عينه ويمزجونه بذكر الله أما أولئك فيمزجونه بلفظ (اوم) وهي حروف ثلاثة تدل على الآلهة الثلاثة عندهم التي هي ثلاثة وهم واحد فهو كدين النصارى سواء بسواء . ولما قرأت هذا المذهب عجبت كل العجب كيف يقول هؤلاء إنهم قد كشفت لهم العلوم وكيف يتبعهم قوم عندنا من المسلمين وهذه حال محيرة جدا ولعل الله ألهم الشيخ المطلع والشيخ الخواص الذين عرفا هذه الحقائق ودوّناها حتى نستأنس بها الآن في هذا التفسير فتكون أشبه بنبراس لمن بعدنا إذيعلمون أن هذا الكشف هو الكشف الظلماني وأنه نوع من السحر أوالكهانة . ولقد كنت أحير في أمري وأقول إذاكان أرباب الكشف قد ملئوا بلاد الإسلام فلماذا نرى هذه البلاد متأخرة كما أن الهند كذلك وهل هذا الكشف قد سلخ المكشوف عليهم من الإنسانية حتى تركوا إخوانهم في الذلة ولا يساعدونهم فأما الآن فقد عرفنا أن ذلك ليس مقصود الإنسانية وأن هذه شهوات نفسية وإننا نستعيذ بالله منها وإنها كالمال والولد والذكر والصيت قد تغرّ الإنسان وقد يضل بها أقوام وقد يصيرون مشعوذين مشعبذين . فهذه الحال لاتدل على رقي نفس فهي كالرجل المنوم (بفتح الواو) تنويما مغناطيسيا فليس حضور الروح به دالا على سمو المنزلة بالأخلاق العالية والمنزلة الشريفة في العلم والحكمة والفضيلة ومنفعة العموم . وأنا أرجو أن يكون قراء هذا التفسير هم الذين يبعثون في نفوس المسلمين الحية ويفهمونهم بما يفتح الله به عليهم . وإني أحمد الله عز وجل إذ علمنا مالم نكن نعلم وفهمنا هذه المسألة التي لم أكن آمل أن أقف على حقيقتها فإني كنت أقول أنا لا أقدر أن أحكم هذا الحكم إلا إذا كنت مطلعا على ماوراء الحجب ، أما الآن فقد علمت أنا وعلم كل من قرأ هذا التفسير حقيقة الحال من غير أن نقع في خطر كشف الحجاب الذي كنا نظن أنه لابد منه لمعرفة هذه الحقيقة ، وإذن نقول ماقاله بعض كرام الصحابة (لو كشف عني الحجاب ماازددت يقينا) انتهى .

اللهم إن المسلمين الذين أحاطت بهم الدول من كل جانب وقفوا حيارى بين مادرسوه في كتب السادة الصوفية وبين مايشاهدونه حولهم من أعمال الأمم النافعة لهم ولغيرهم فهم أصبحوا عالة على الأمم ولا يبدون حراكا وسكت علماؤهم لأن نفس العلماء متحيرون . فيرى المسلمون الكهرباء والمغناطيس والبخار وغيرها قد انتفع الناس جميعا بها وهم لم ينفعوا الأمم اليوم بشيء مطلقا فهم يقرءون كتاب [الفتوحات المكية] لابن العربي . وفي [الإحياء] للامام الغزالي عن الفتح الرباني ، وفي رسالة أيها الولد للغزالي أن هناك فتحا ربانيا به يرى الإنسان ماوراء الحجب والمسلمين بين ذلك متحيرون هل ينقطعون عن العالم للذكر حتى يصلوا لهذا المقام أو يغمضوا الأعين عن كتب أسلافهم مرة واحدة كما فعل مصطفى كمال في أمة الترك أمماذا يصنعون والله لقد حرم المسلمون من أمثال (توماس الفا اديصن) الذي بلغ سن الثمانين في (١١ فبراير سنة ١٩٢٧) والذي اخترع المصباح الكهربائي والآلة الحاكية (الفونوغراف) وآلة الصور المتحركة (السينما) وغيرها .

حرم المسلمون من رجال العمل ، وقد كان آباؤهم هداة العالم قاطبة . فلولاهم لم يكن أولئك المخترعون والمستنبطون كما تقدم في سورة (التوبة) وغيرها ، إذن فليكن ما كتبناه في هذا التفسير وما كتبه العقلاء في أمم الإسلام نبراسا . فليعلم المسلمون في أقطار الأرض علما ليس بالظن أن محاولة كشف الحجاب قد خاف منها رجال الصوفية وجعلوها أشد إبعادا عن الله من المال والولد والله يقول « واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا » فالخسار هناك يكون أكثر كما تقدم . فليقم المسلم الآن بخدمة المجموع الإنساني كله إن أمكن وإلا فأي مجموع يقدر عليه وإذن يكون خليفة لله خالق الشموس والأقمار الطالعات لرب العالمين والحمد لله رب العالمين .

﴿ النبات والديانات ﴾

إن الله أنزلنا في هذه الأرض لإسعادنا وليس إسعادنا أن يعطينا العلم أو الرزق ونحن ساكنون، إن الرزق إذا أعطى بلا اجتهاد، والمال إذا أعطى بلا عمل، وكذا العلم إذا ألقى بلا كد ذهن، والدين إذا نزل إلى الأرض ولم يكن هناك فيه شبه تعترض العقول وتقف الشبهات المذكورة في طريق فهم الديانات أصبحت الأجسام معطلة والعقول كاسدة فإن الرزق لو عم الناس أجمعهم بلا تعب لأصبحوا نباتا فإن النبات يحيا ويعيش على العناصر المحيطة به والناس هم الذين يأتون له بالسماد . لذلك جعل الله رزق الناس موقوفا على عملهم لتقوم بذلك أجسامهم وتجرى دماؤهم وتصلح أحوالهم وتقوى عضلاتهم، وأكثر الناس جهال لا يفهمون أن العمل الشاق لابد منه لصلاح أجسامهم . لذلك حرم عليهم الكسل وألزمهم العمل لتحصيل القوت كي تقوى أجسامهم وتصلح حالهم وسلط الحشائش على زرعهم وتلك الحشائش تضعفه وتقلل ثماره . فعل ذلك كرما منه ليكثر مادة الحيوان من تلك الحشائش والحيوان لاقدرة له على الزرع ويحوج الإنسان لإزالته فتزيد قوته الجسمية وإدراكه العقلي في استنباط الحيل لإبادة ذلك .

﴿ حياة الحيوان والديانات ﴾

هكذا ترى الحشرات والهوام والحيوانات الصغيرة المسماة بالمكروبات قد سلطها الله على الحيوانات النافعة في ديارنا من الطيور التي تربى ومن حيوانات الحرث والسقي كل ذلك ليبتلينا بالعمل لإصلاح حيواننا . فحيوانات الله التي أنزلها لاهلاك زرعنا وقتل حيواننا وكذا نباتاته التي سلطها على زرعنا وملأ به أرضنا جعلهما معا يملآن السهل والجبل وملأ بهما الجو وأحاطنا بها من كل جانب وسلطها علينا ولم يؤثر الجوفيها كما يؤثر فينا وفي أنعامنا فجعلها أقدر على الزمهرير في الشتاء والحرور في الصيف ونحن وحيواننا ونباتنا ضعاف أمام كل شيء . هذا من الله ليبتلينا مريدا بذلك تقوية أجسامنا بالعمل وعقولنا بالحيل . ولولا هذا لكنا مترفين منعمين منغمسين في الملاهي فيكون الفناء العاجل. هكذا الديانات لو أن الدين نزل إلى الأرض ولم يكن شبهات ولا خيالات كالدين الإسلامي وقبل الإنسان القضايا ولم يبحث فيها ولم يكن بحث ولا تنقيب . لو كان كذلك لماتت العقول ولضاعت الأمم وأصبحت الأمة كلها من العامة الجهلاء ، فان الناس (ثلاثة أقسام) : عامة مقلدون . وحكماء محققون . وأوساط متشككون . فالعامة تابعون العلماء والحكماء وقفوا على الحقائق . أما الشاكون فانما هم الشبان الذين ارتقت عقولهم عن طبقة العوام ولم يصلوا إلى طبقة الخواص. فهؤلاء هم الذين يبتلون بالبحث حتى يصلوا ، فمن وصل إلى مرتبة الحكماء وعرف الحقائق فهم الذين قال الله فيهم « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » وهو البرهان بعلم الحكمة كما تقدم . وأما القاسية قلوبهم فهم الذين حين شكوا تركوا النظر وحقروا كل شيء وناموا .

فالعامة ليس عليهم ملام إنما اللوم على الذين امتازوا عن العامة فعرفوا أن هناك شبهات لابد من تمحيصها فأعرضوا عنها وما هذه الشبه إلا باب الحكمة والعلم فإذا تركوها بقيت في عقولهم وتراكمت عليهم .

واعلم أن هذا المقال الذي ذكرته قد رمي طيرين بحجر واحد ، فان الشبه القائمة في الديانات على نفس الأنبياء وما نزلوا به تقوم على نظام الكون وجماله ، فكيف يكون الكون جميلا منظما وخالقه هكذا يفعل إذ يوقع الناس في مشاكل في حقولهم وزروعهم ودياناتهم وأعمالهم ، فالجواب قد عرفته في الأمرين : الدين ونظام الطبيعة ؛ فالشيطان يوسوس ليشك الإنسان في النبوة قائلا إن القرآن ليس منزلا لما فيه من كذا وكذا ، ويوسوس قائلا إن هذا العالم ليس منظما فاذن ليس له خالق فيجاب بما أجبنا به مؤقتا وأن هذا باب من أبواب الحكمة فاجتهد أن يفتح عليك وسترى من آيات الله العجب فتوجه إلى الله وهو يعلمك .

« واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

(فصل فى أن العقاب يجب أن يكون على قدر الذنب وتمثيل ذلك بايلاج كل من الليل والنهار فى الآخر)

قال تعالى (ذلك) أى الأمر ذلك ، وقد استأنف سبحانه بعده فقال (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) ولم يزد فى الاقتصاص (ثم بغى عليه) بالمعاودة إلى العقوبة ، يقول الله إن من جازى بمثل مافعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره سواء أكان ذلك من الأمم أم من الأفراد (لينصرنه الله إن الله لعفو) يمحو آثار الذنوب (غفور) يستر أنواع العيوب . وإنما ذكر هذين الوصفين لأن من بغى عليه قد كان الأولى له أن يصبر ولا يعاقب الباغى لما جاء فى القرآن من طلب العفو كقوله تعالى «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» وقوله « وأن تعفو أقرب للتقوى » وقوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » فالمنتقم قد ترك الأفضل والله قد تكفل بنصره إذا بغى عليه كرة ثانية أيضا إذا عاقب بمثل ماعوقب به فهو عفوّ له غفور لتركه الأفضل وهو العفوّ عن الباغى منبها على أن العفو خير وأبقى (ذلك) النصر (بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على مايشاء ومن عجائب قدرته أنه يدخل ساعات الليل فى النهار فيأخذ الليل فى القصر والنهار فى الطول وذلك فى فصلى الشتاء والربيع، ويدخل ساعات النهار فى الليل فيجعلها فى الليل ويأخذ النهار فى النقص والليل فى الزيادة وذلك فى فصلى الصيف والخريف ولا يأخذ أحدهما من الآخر إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه ، وذلك فى بلاد مصر لايعدو أربع ساعات فأقصر نهار عندنا عشر ساعات وأطوله ١٤ وهكذا العكس فلا يأخذ النهار من الليل ولا يأخذ الليل من النهار إلا بحساب واحد فلذلك جعلت الانتقام من الباغى على مقدار جرمه لا يزيد ولا ينقص كما جعلت كل ليل لايأخذ من كل نهار إلا ما أخذه الآخر منه :

(١) فاذا كان ذلك فى مصر أربع ساعات أى أن كلا منهما ينقص فى النهاية ويزيد فى النهاية عن الآخر أربع ساعات .

(٢) ففى أطراف الهند والصين يكون ساعتين .

(٣) وفى بلاد السند وبعض البلاد الفارسية أربع ساعات كالقاهرة .

(٤) وفى البحر الأسود وقرب القسطنطينية ست ساعات .

(٥) وفيما يقرب من باريس وبرلين ونحو ذلك ثمان ساعات .

(٦) وفيما يقرب من بحر الشمال وماوالاه (١٠) ساعات .

(٧) وفيما وراء ذلك ١٢ ساعة و ١٤ و ١٦ و ١٨ ساعة شمالى بحر البلطيق وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما عن الآخر فى النهاية إلى (٢٠) و (٢٢) و (٢٤) ساعة ثم تكون الزيادة بالأشهر ويكون أطول نهار يصل إلى ستة أشهر وأطول ليل يكون ستة أشهر وهنا يتساوى الليل والنهار كما تساويا فى خط الاستواء ، ففى خط الاستواء كل منهما (١٢) ساعة دائما وفى القطبين كل منهما ستة أشهر دائما فيما بعد جزائر (جرولنده) .

هذا معنى الآية . يقول الله إن الليل لايأخذ من النهار ولا النهار يأخذ من الليل إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه فانظروا حسابى فى الفلك وافعلوا مثل مافعلت ولا تنتقموا إلا على قدر الذنب لأن هذا هو العدل وأنا العدل وإنى أسست السموات على العدل وملكى قام على العدل، هذا هو العدل وهو المساواة والانصاف فى كل شىء، فإياكم أن تنتقموا فوق مارسمته لكم لأنكم قد خالفتم القواعد التى رسمتها . وإياكم والحقد على من عاقبتموه ودوام الغضب بل ارجعوا بعد ذلك للمصافاة وإلا خالفتم عدلى ونظامى فليكن كل شىء فى أعمالكم

وأخلاقكم بميزان وعدل إنى قد جعلت المساواة فى كل شئ، نموذجا للعدل عندكم ورسمت لكم الخطة فاتبعوها وأنا القائل «والسماء رفعها ووضع الميزان» فهذا هو الميزان «أن لاتطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» فكما وزنت الزيادة والنقص فى الليل والنهار بحسابى فزنوا أعمالكم فى الانتقام كما وزنت أنا ، وإنى لن يرانى إلا الذين يسيرون على صراطى وهذا صراطى فإياكم أن تحيدوا عنه ، فأنا نصرت الذى بغى عليه كرة أخرى إذا كان عقابه الأول بمثل ماعوقب به لأنه فعل مافعلته فى الليل والنهار من الحكمة والمساواة (وأن الله سميع) يسمع قول المعاقب والعاقب (بصير) يرى أفعالهما فلايهمل مثقال ذرة (ذلك) الوصف بكمال القدرة والعلم (بأن الله هو الحق) الثابت فى نفسه الذى هو مبدأ لكل موجود فاذا اختلف الليل والنهار وتقاص المتعاديان من الناس فهو مصدر هذه الخلائق المتداخلة وهى تزيد وتنقص وهو ثابت لادارة شئونها فالمتحركات لابد لها من محرك فان لم يكن ثابتا فلا بقاء لها (وأن مايدعون من دونه هو الباطل) لأن الأصنام وكل مايعتقد فيه الألوهية غير ثابت إذ هو متغير تنتابه الأعراض كسائر المخلوقات (وأن الله هو العلى) على الأشياء (الكبير) عن أن يكون له شريك .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار» أيضا ﴾

لما كان القول المتقدم فى شأن المحاربة والقتال وأن ذلك لازم لبقاء المساجد والكنائس وما أشبهها وقد طال المقام فى منازعات أهل الأرض ومنازعهم أراد الله سبحانه أن يفرح العقول ويخرجها من انحصارها فى الأمور الجزئية الأرضية إلى باحات الجمال وساحات الجلال ويقول ارفعوا رءوسكم إلى أعلى . إن قتالكم مع الكفار ونصركم عليهم وعقابكم للباغين عليكم ونصرى لكم ليس هو المقصود من الدين ولا من الحياة ، هب أنكم نصرتم على الباغين وعلى الكافرين . فهل هذا هو المقصود من وجودكم ؟ كلا هذه أمور أخلاقية والأخلاق اعتدالها صراط مستقيم والصراط المستقيم لايقصد لذاته بل هو موصل لغيره ، الصراط فى الآخرة فوق جهنم يتوصل به إلى الجنة ولايمكن ذلكم لكم إلا بانتهاج الصراط السوى فى الدنيا بالأخلاق الفاضلة كالعفو أو كالانتقام على قدر البغى ، وهذا كله ليس مقصودا لذاته بل المقصود أن نفوسكم بعد هذا تتفرغ إلى ماهو أعلى؛ فالأخلاق فى الدنيا بعدها الفتح بالعلوم فيها ثم يكون صراط الآخرة فالجنة على مقتضى الأخلاق فى الدنيا والعلوم فيها بل إن أولى الألباب من الناس فى الدنيا يرون أن العلم فى الدنيا والابتهاج به جنة حقيقية تجلت لهم ويفرحون بالموت إذا أتموا ماوجب عليهم على قدر طاقتهم لعباد الله ويقولون إنا إذا متنا زدنا علما ويقرءون «وقل رب زدنى علما» ويقرءون «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم» وذلك النور هو العلم الذى كسبوه فى الدنيا ويقولون معنى ماورد «وعليون لأولى الألباب» أى إن أعلى لذة للنوع الإنسانى الوقوف على الحقائق .

ويقولون إن لذة الطفل بالغرائب حوله وازدياد الفرح بكل جديد عند سائر الناس مبادئ يعرف منها أن فطرنا لاسعادة لها إلا بالعلم . فاذا ذكر الله الليل والنهار فى معرض القتال والانتقام وأبان كيف يكون العدل مع أن الناس لايشعرون عادة بالمناسبة بينهما فما ذاك إلالأن الأمر عظيم وأن الحياة ظلمات والحكمة والوقوف على الحقائق نور ، فاذا حاربنا فلتكن النهاية نصب أعيننا وهى الاغتباط بالعلم ، واذا عفونا فليكن كذلك ولتكن وجهة الانسانية العلم وقدأصبح هذاالعصر عصر العلم فلا دنيا إلابالعلم ولامال إلا بالعلم ولاثار إلابالجهل ولا فقر ولا ذل إلا بالجهل هذا هو السبب فى ذكر الليل والنهار فى هذا المقام . أفليس ذلك بعجيب فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون وبمثل هذا فلتعرف بلاغة القرآن . هنا تتضاءل الفصاحة والبلاغة المجردة من الحكمة والعرفان . هنا يذوب علم البلاغة المعروف . إن عالم البلاغة الذى لم يذق من علوم الحكمة حظا ولامن علوم العجائب السماوية والأرضية كفلا خلق ليكون مقدمة لمن ينظر فى العوالم فهو أشبه بصراط مستقيم

يتوصل

يتوصل عليه إلى جنة العرفان . فالبلاغة التي يدرسها الناس في المدارس أشبه إذن بعلم الأخلاق الذي لا علم بالحقائق إلا بعد الاتصاف بمضمونه . وإذا كان علم الأخلاق النفسي لا بد منه للوصول إلى الحقائق العلمية في السموات والأرض هكذا يكون علم الأدب اللفظي من البلاغة وما تحتاج إليه من العلوم كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والاشتقاق والتاريخ وما أشبه ذلك فهي كطريق مستقيم يتوصل به المطلعون على عجائب هذا العالم إلى فهم تلك الحقائق من القرآن . فإذا سمعت قول المبتدئين في العلم القائلين إن القرآن لا يعرف إلا بالبلاغة بالعربية فاعلم أن تلك المعرفة هي الصراط الموصل لغيره وليست هي نفس علم القرآن والمقصود منه كلا، بل هي طريق يوصل لما هو المقصود وهو إدراك الحقائق مثل ما أكتب لك الآن بعضها . فبلاغة القرآن شيء ومعرفة معاني القرآن وعلومه شيء آخر فالمقدمات غير المقاصد والمقدمات بلا مقاصد شجر بلا ثمر ولفظ بلا معنى والقانع بها مغرور ، والله هو الولي الحميد اهـ .

(فصل في ذكر عجائب الأرض بعد العجائب السماوية)

قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استفهام تقرير (فتصبح الأرض مخضرة) بالنبات (إن الله لطيف) باستخراج النبات فيصل علمه ولطفه إلى كل ما جلّ ودق (خبير) بكل تدبير ظاهر وباطن (له ما في السموات وما في الأرض) ملكا وخلقا (وإن الله لهو الغني) في ذاته (الحميد) المستوجب الحمد بصفاته وأفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض) جعلها مذللة لكم معدة لمنافعكم (والفلك تجري في البحر بأمره) الجملة حال (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) إلا بمشيئته « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » فترجع الأرض والسموات رتقا كما كانتا رتقا وقد تقدم إيضاحه في [سورة الأنبياء] إذ تصير كرة الشمس وجميع السيارات حولها في حال كالحال الأولى مشتتة مفرقة ثم تصير كرة نارية وهكذا (إن الله بالناس لرءوف رحيم) إذ جعل هذه العوالم بنظامها الحالي ولم يرجعها إلى الحال الأولى فيفنى ما عليها وتكون هي كرة نارية غازية (وهو الذي أحياكم) بعد أن كنتم جمادا مما سبب لكم من بقاء العالم على هذه الحال ولم يعتره فتصطك الأرض بالسموات (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بالبعث (إن الإنسان لكفور) لجحود لنعم الله لأنه محفوظ محوط بأنواع النعم وهو لا يشكر عليها .

(لطيفة في قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة »)

نرجع إلى مسألة الحرب كرة أخرى ولننظر كيف ذكر الله إنزال الماء من السماء في حيز الكلام على الانتقام بعد أن ذكر أولا إيلاج الليل في النهار ، يقول الله إن الانتقام من الباغي يكون بالعدل كما عدلت وأنا خلقتكم للعلم فلتكونوا علماء ، فهكذا هنا يقول : أفلم تنظروا إلى الأرض كيف أنزلنا عليها الماء من السماء فاخضرّ النبات .

اعلم أن الأمم إن لم تهذبها الحوادث ولم تؤدبها الكوارث ولم توقظها النوازل ولم تعلمها التجارب بقيت بلهاء نائمة تائهة ، فالأمم كالأفراد لا يقومون من غفلاتهم ولا يستيقظون من نومتهم إلا بموقظات الأيام ومزعجات الليالي، ولعمرك لم يبعث الحرب الكبرى في أمم الغرب والشرق (سنة ١٩١٤) إلا تلك الكتب التي أبرزها علماء الألمان قائلين (الأمة بلا حرب ميتة) فإذا رأينا أمة قد غفل أبناؤها وجهل شبانها وتنعموا وانغمسوا في اللذات فليترل عليها مطر الحرب وليصب لها أمطار القنابل ونيران الصواعق المرسلات من الطيارات ولتزعجها الجيوش الجرارة والجحافل الكرارة في حنادس الظلم وفي حمارة القيظ . هنالك ينبت يبسها ويخضر شجرها وتزهر حدائقها بأفانين الحكمة وأزاهير العلم ، هنالك يستيقظ الشبان من سباتهم . هنالك الأفراح والمسرات ، هنالك تبتهج البلاد .

إن البلايا والمنايا رافعات الأعلام فى الأمم مثيرات كوامن الأخلاق والمواهب والسجايا ، لن تظهر كوامن الأخلاق وعجائب الغرائز وصنوف الفضائل إلا بإنزال ماء المحن عليها فهنالك تهتز النفوس وتنبت من كل زوج بهيج من المكارم والسجايا والفضائل والمزايا »

هذا ملخص ماقاله علماء الألمان حتى أثاروا ثائرة الحرب الكبرى ؛ وقد قال ذلك من قبلهم (سقراط) فى كتابه إلى الاسكندر ، وقد تقدم فى هذا التفسير ، وهو أن الأمم لاتطيق النعم والراحة والدعة فان ذلك يميت العزائم ويخمد الهمم وانما يرفعها إلى العلا إدامة الأعمال وإثارة العزائم ، أقول فما الرصاص المتهاطل ولا القذائف من القنابل إلا كالطل والوابل أصاب أرض النفوس فأنبت ريحان الهمم وأشجار الحكم فأزهرت وأثمرت وأغنت الواردين والصادرين .

ولقد جاء فى علم الأرواح أنهم سئلوا عن الحروب ،فأجابت إحداها قائلة «إن الحوادث العظمى فى الأرض والحرب الطامة تكون لغرض إحداث تبدل عام فى نظام أرضكم وتكون فيها أرواح قد حلت الأجسام الأرضية غير صالحة للارتقاء فيحل بها الفناء وتسكن أخرى أعلى منها أرضكم بحيث يخلق الله فى بطون الأمهات أرواحا أرقى عزيمة من أرواح الموجودين فتحل محل الذاهبين ولذلك يكون الاختراع والتقدم دائما بعد النوازل العظيمة كالحروب الطامة والزلازل والوباء» اه

فانظر قول علماء الألمان وقول (سقراط) وقول الأرواح ، أليس هذا عين ما فى القرآن ، أليس ذكر اخضرار الأرض بعد إنزال الماء عليها هو عين ارتقاء النوع الانسانى بعد الحروب والرصاص والوباء والزلازل والإهلاك العام فى بقعة أو جهات متحدة ، لعمرك إن هذا من أسرار القرآن ، إن من يسمع القرآن وهو لم يدرس الحكمة واكتفى باللغة العربية وتوابعها وبلاغتها يظن أن ذلك تكرار وتكرار . فالله ذكر فى أول السورة أنه ينزل الماء على الأرض فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج يستدل به على البعث ، وهنا ليس لذلك ولا لغيره ، بل ليدلنا على ماذكرناه وأن الأمم يتجدد شبابها بالحروب ويقاس عليها النوازل الكبرى كالزلازل والوباء العام . إن من يسمع القرآن وهو لم يدرس العلوم لأشبه بمن يسمع لغة أجنبية وهو لايفهمها ، فانه يظن أن كلماتها عبارة عن نغمة واحدة ليست مفصلة ولا مختلفة كمن يرى الشبح من بعيد فانه لايعرف أعضاءه ولاماهو .

هكذا نحن نرى الكواكب وهى لبعدها عنا لانرى فيها إلا قطعا لماعة كالماس ولانرى مافوق ذلك هكذا كل علم وكل فن نجهله ، ومن ذلك القرآن . فذكر اخضرار النبات مرة بعد أخرى وذكر إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل فى مواضع مختلفة يجعل أكثر الناس لايعلمون ماالقصد من هذا التكرار والعلم هو الذى يجلى الحقائق . إن القرآن لايعرف إلا بقراءة علوم طبيعية ورياضية وفلكية وسياسية واجتماعية وروحية ، والله الهادى إلى سواء الصراط . اه .

﴿ بهجة العلم فى قوله تعالى أيضا « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك على ماعلمت وعلى مانشرت من الحكمة فى الشرق والغرب وعلى ماألهمتنى فألفت كتاب [أين الإنسان] فى نحوسنة ١٩١٠ أى قبل كتابة هذه الأسطر بنحو ١٨ سنة وأحمدك على أنك شرحت صدرى لهذا التفسير وأنى ذكرت فيه كثيرا من الحقائق العلمية والسياسية وقلت إن الشرق والغرب يجب أن يكون عقلاؤهما وعلماؤهما متحدين لارتقاء نوع الإنسان وأنهم الآن لجهلهم قد تركوا مواهب العقول مبعثرة هنا وهناك ومنافع الأرض والهواء والأضواء متروكة منبوذة

وهم هائمون فى ضلالهم جادون فى غواياتهم وحروبهم يأخذ زيد ما فى يد عمرو من المال جهالة ونذالة وقد ترك أضعافه وأضعاف أمثاله فى خبايا الأرض وخفيات الطبيعة ونسى السوّاس وعظماء الأمم فى كل أمة من الأمم أرضا منبوذة لاتزرع ومنافع مهجورة لاتعرف ذلك للجهل العام فى هذا العالم ، فالأرض الصالحة للزرع فى الأمم المنبوذة المهجورة تنادى بلسان فصيح قارئة قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » . الماء ينزل من السماء ويملأ الأنهار ، والأنهار تجرى على اليابسة وتمر والناس غافلون عن إتمام نظامها . هذا نهر النيل ببلادنا يجرى إلى البحر الأبيض المتوسط ويقولون : إن البلاد بها نحو مليون وسبعمائة ألف فدان تصلح للزرع ويريدون أن يدبروا الماء الواجب لها حتى تخرج للناس رزقا . هذا مثل واحد من أمثال كثيرة . فالناس لشرههم فى الشرق والغرب يتركون أمثال هذا أضعافا مضاعفة فى كل أمة وتمتد أعينهم إلى ما فى أيدى إخوانهم جهالة قديمة العهد توارثتها الأمم كابرا عن كابر لأن العقول لم تكن مهيأة لأن تعقل « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » فليس الرزق خاصا باتهاب ما فى أيدى الناس قاصرا عليه بل هنا رزق أوسع وهو أن الأرض تخضر بإنزال الماء عليها . إن الأمم لم تكن عندها مواصلات كما فى عصرنا ولم تكن العقول وصلت إلى هذا النحو وعلى قدر اختلاط الأمم واتصالها يكون التفاهم والتعقل وسيعرف الناس قيمة الأرض وزرعها ومنفعتها ومنافع الاشتراك العام فى الثمرات .

إن الأرض لله ، والناس كلهم أمة واحدة كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) وكل أمة قصرت فى تعليم أبنائها أو فى نظام أرضها أو فى استخراج منافعها العامة فالأمم كلها يجب عليها أن تشاركها فى استخراج تلك المنافع طوعا أو كرها وتلزمها بذلك وتأمرها بتعليم جميع من فيها إن فى كل أرض من المنافع ما ليس فى غيرها وفيها من الخواص ما ينفع المجموع فى الكرة كلها وتفويت خواص أرض فى أمة من أمم الأرض أو خواص عقل من عقول أبنائها حرمان لأهل الأرض كلهم من تلك الخواص فى الحالين . فلكل الأمم الحق فى مطالبة كل أمة بإبراز ما لديها من المواهب العقلية والخواص الأرضية وغير الأرضية . هذا هو الذى كتبت معناه فى كتاب [أين الإنسان] وعرفه أهل أوروبا وكتبوا فيه . وأنا أزيد عليه الآن ما لم أكن أعلمه إذ ذاك من العلم « وفوق كل ذى علم عليم » .

هل كان يخطر لأهل العلم أن النبات كالإنسان سواء بسواء . هل كان يخيل لنا ونحن ندرس فى الفلسفة القديمة ونقرأ فيها أن النبات يحس بالضوء وبالجهات بدليل أنه يميل إلى جهة النور إذا نفذ من نافذة وينحرف عن الظلمة وأنه يسير على حبل نصب له بين حائطين ولا يميل عنه وأنه يميل إلى الرطوبة ويتجافى عن اليبوسة بعروقه الضاربة فى الأرض وبالجملة له إحساس بما يلائمه إحساسا مبهما . أقول هل كان يخطر لنا ونحن نقرأ تلك الفلسفة ثم نكتبها فى هذا التفسير فى سورة (الرعد) ونحن نوازن هناك بين القديم والحديث . إذ رسمنا هناك بالتصوير الشمسى أنواعا من النبات الذى يصطاد الحشرات ويهضمها وقد رسم بعضه وهو قابض على الحشرة ليبتلعها وقد زود وقوى بالعسل وبالشكل الجميل وبالدهاليز المسواة المنمقة الملساء التى تغرى الذباب بالولوج حتى إذا دخل المكان فرحا بعسله وجماله ونعومته انقض النبات عليه فافترسه افتراس الآساد للغزلان والنمور للبقر الوحشى . أقول هل كان يخطر لنا إذ ذاك أن عالما نباتيا يظهر فى الهند فى أيامنا هذه ويقابل الوزير المصرى أثناء طبع هذه السورة تقريبا فى أوروبا ويدعوه الوزير المصرى إلى مصر ويحضر إليها ويلقى محاضرة فى دار (الجمعية الجغرافية) يوم الاثنين ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٨ .

إن هذا العالم المسمى (جاجاديس بوز) الهندى قد برع فى هذا العلم حتى اخترع ما لم يخترعه أحد فى أوروبا ولا فى اليابان ولا فى أمريكا إذ وصل علمه إلى أن النبات كالإنسان سواء بسواء ، فهو يحس وهو يتحرك

وله دورة عصارية (أى عصارة النبات) كالدورة الدموية للانسان وله إحساس بألياف جعلته يحس أسرع من إحساس الإنسان وهو يمرض ويتأثر بالسم ويشفى من المرض بعقاقير طبية . وبالجملة أصبح النبات كالإنسان سواء بسواء فى كل أحواله وكأنه نطق بقوله تعالى « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فاعجب كيف جعل الله الإنسان نباتا وهذا العالم (جاجاديس بوز) يقول كذلك بل إنك سترى فى نص خطبته وتجربته أن الشرارة الكهربائية أثرت فى النبات قبل أن تؤثر فى الإنسان كما ستراه قريبا ، أفلا ترى أن هذه نعمة أنعم الله بها علينا إذ أرسل هذا العالم الخطيب إلى مصر أثناء طبع هذه السورة لنجعلها درسا وشرحا لما فى هذا التفسير من العلم ومن نظام الأمم العام ، ومن عجب أن القرآن أكثر من التمثيل بالنبات فى أطوار كثيرة فإن زهد فى الدنيا قال «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض» الخ وإن استدل على البعث قال «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت» وهكذا والعلماء يقولون : إن الإنسان نبات مقلوب أغصانه يداه ورجلاه ورأسه هى جذر النبات .

إذا عرفت هذا فلأذكر لك خطبة هذا العالم الذى قام دليلا على ماقلته فى كتاب [أين الإنسان] من أن عالم الشرق ينفع الغرب وبالعكس ، وأن جهل الأمم بمنع العلم عن بعض أمم الشرق إضعاف للأمم كلها ومنها تلك الأمم المستعمرة لغيرها لأن ثمرات العقول فى الأمم المغلوبة قد ضاعت على الناس جميعا وعلى هذه الأمة القاهرة ، ذلك العالم الذى أدخلته النمسا فى المجمع العلمى لديها وزاره ملك (بلجيكا) فى معهده العلمى (بكلكتا) ، ذلك العالم الذى أدهش نوع الإنسان باختراعه فقد كان الناس قد اخترعوا (الميكرسكوب) الذى يجسم الأشياء ألفى مرة ولكنه هو اخترع (كرسيكوغراف) يكبر الأحجام خمسين مليون مرة وهذا أمر عظيم وبهذا أظهر لنا سر النبات الذى يحس أكثر من الإنسان ، وقبل أن أنقل اليك الخطبة بحذافيرها أضرب لك مثلا فى إحساس الإنسان وحركاته لأن إحساس الإنسان وإن كنا نعرف ظواهره فيه خفايا وغرائب تحتاج إلى ضرب الأمثال ،

﴿ طرق البريد وطرق المواصلات فى يد الإنسان ﴾

سترى فى سورة (المؤمنون) فى نفس هذا المجلد عند ذكر الإنسان ونموه أنى سأشرح لك نظام اليد الإنسانية مقتصرا عليها لتكون نموذجا لمعرفة غرائب جسم الإنسان . فسترى هناك أن اليد الواحدة من يدى الإنسان قد وجدوا لها (١٢) طبقة . ولما كان هذا الشرح ستراه هناك عدلت هنا إلى ضرب مثل ليكون تنويعا فى الشرح مع سهولة فى التعبير لمناسبة ماهنا حتى تقيس عليه عجائب النبات حتى إذا قرأت خطبة العالم الهندى فهمت معنى ألياف الحس وقوة الحركة فى النبات فلأمثل لك اليد بمدينة عظيمة وهذه المدينة عليها سور من الخارج يحفظها ومتى دخلنا من باب السور وجدنا (إدارة البريد البرق) أى التلغراف الذى له سلك والذى وراءها (إدارة الطرق والمواصلات) ووراء هذين (أنابيب المياه) لسقى أهل المدينة .

هذا كله حاصل فى يد الإنسان من جهة ظاهرها وحاصل نظيره فيها من جهة باطنها وتفصيله كما ستراه هناك موضحا بعضه بالتصوير الشمسى . إن ظهر يد الإنسان عليها جلد فهو أشبه بسور المدينة وتحت الجلد مباشرة أعصاب الحس ، أى التى توصل ما يقع على الجلد من إحساس بمكروه ومحبوب إلى المخ ولولا هذه الأعصاب الموصلات لم يحس الإنسان بحرق يده أو بقطعها فيضرب أو يحرق وهو لا يحس بألم . فهذا الاحساس مركزه فى الدماغ وفى داخل الفقار أى فى الجهاز العصبى ، فهذه الأعصاب عليها مدار الحياة إذ لولم تكن لهلك الناس والحيوان عن آخرهم وهم لايشعرون ، ثم وراء هذه الطبقة طبقة أخرى يشرحها علماء الطب بأيديهم مستقلة فيها أعصاب الحركة ، ومعنى هذا أن أعصاب الحس حينما توصل الخبر بالضار أو النافع وبالمؤلم أو السار

من

من الجلد إلى المخ تأمر القوة الحاكمة فى المخ بأسرع من لمح البصر أعصاب الحركة أى التى فى الطبقة التى تحت هذه الأعصاب التى سميناها (إدارة المواصلات) كالطرق الحديدية والطيارات وأنواع السيارات . فهذه الأعصاب أى أعصاب الحركة تقبض اليد مثلا أو تبسطها أو نحو ذلك من الأعمال المختلفة ، فإن كانت تلك الأعصاب من جهة ظاهر اليد بسطت ، وبالعكس إن كانت فى باطنها فإن أمرت القوة العاقلة فى المخ أعصاب الحركة بقبض اليد مثلا هيأت أعصاب الحركة التى فى جهة باطن اليد فقبضت اليد وإن أمرتها بالبسط هيأت أعصاب الحركة التى فى جهة ظاهر اليد فبسطت اليد . فللبسط أعصاب وللقبض أعصاب والمخ هو الآمر لكل حال بما يناسبها .

إذا فهمنا هذا فى أمر اليد فهمنا ما معنى الإحساس فى الحيوان وما معنى الحركة . وإذا عرفنا أن وراء أعصاب الحس فى اليد وأعصاب الحركة الأوردة والشرايين التى تغذى الجسم بالدم فهمنا معنى قول هذا العالم الهندى إن فى النبات عصارة تفعل فعل الدورة الدموية فى الإنسان .

فملخص ما يأتى فى أمر اليد أن هناك سورا يحيط باليد ووراء السور طرق البريد بجميع أنواعه ووراء البريد طرق الحركة والأعمال بجميع أنواعها ووراء هذه الطبقة الأنهار والترع والخلجان وهذا الترتيب عجيب فإن وضع الطرق البريدية والبرق (التلغراف الذى له سلك أولا سلك له) وراء الجلد الذى سميناه سور المدينة لأجل أن تصل الأخبار حالا إلى المخ ولو لم يكن هذا الوضع على هذا النظام لاختل أمر الحياة لأن الجلد إذن لا يحس بما ينتابه من قطع أو حرق فيهلك الإنسان لعدم الإحساس لأن الإحساس قد وضع بعيدا عن هذه الطبقة وهذا سر عجيب وحكمة منظمة غريبة . ومعلوم أنه ما بعد العلم إلا العمل والعلم مقدم على العمل والعلم هنا يكون بأعصاب الحس فوجب أن تكون أعصاب الحركة تالية لها ليكون العمل . لذلك كانت أعصاب الحركة تحت أعصاب الحس كما نرى سلوك التلغراف فى بلادنا المصرية فوق الأعمدة المنصوبة . ونرى القصب المنصوبة أسفل منها على الجسور وعليها القطرات تمر . ولا جرم أن هذه تقابل أعصاب الحركة فى اليد ؛ ثم إننا نشاهد على جوانب الجسور التى عليها قضبان السكة الحديدية ترعا جانبية تسق الحقول . فهنا أسلاك التلغراف تحتها قطار السير فى الأرض وتحتهما الأنهار تسق الأرض وهنا كذلك سواء بسواء ؛ فأعصاب الحس فى مقابلة أسلاك التلغراف وأعصاب الحركة تحتها فى مقابلة قطار السكة الحديدية والشرايين تحت ذلك فى مقابلة الترع التى بجانب الجسر الذى عليه تجرى القطرات . فجل الله الذى شرح لنا ما فى أجسامنا بإظهار نظيره فى الخارج وأصبحنا نرى الأعمال فى المدن تضارع أعماله هو فى أجسامنا وأجسام حيواننا وأجسام نباتنا . اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وعلى نعمة الإيضاح ونعمة الفهم إذ فسرت لنا بهذه الأعمال قوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

يقدم الله الآيات التى فى الأرض على الآيات التى فى الجسم . لماذا ؟ لأننا لا نفهم الآيات والعجائب التى فى نفوسنا إلا بعد أن ندرس العجائب التى فى الأرض كما رأيت الآن إذ صارت طرق سكة الحديد والترع بجوانبها والتلغراف من فوقها هى عينها نفس ما فى أيدينا وما فى أجسامنا وما فى حيواننا وما فى نباتنا من الترتيب والنظام البديع . هذا ما أردت أن أقدمه لفهم محاضرة الأستاذ (جاجاديس بوز) الهندى فهاك نصها :

قام السر (جاجاديس) فصفق له الحاضرون وبدأ بالكلام على الرابطة بين الشرق وبعضه وقال إن العلم لا وطن له ولا دخل للدين فى البحث العلمى . وقد قوبلت هذه الكلمات بالارتياح والاستحسان ، وعمل السر (جاجاديس) تجربة دلل بها على أن النبات يحس أكثر من الإنسان . فقد أوصل شرارة كهربائية إلى بعض الأشخاص ثم أوصلها للنبات ولم تحدث الشرارة تأثيرا فى الشخص ولكنها على العكس أحدثت اهتزازا فى النبات ثم سلط بعد ذلك شرارة قوية على النبات فأماتته ثم امتحن النبات على أثر الحادث بجهاز يميز

الحياة من عدمها ، فأثبت أن النبات قد مات . وأجرى تجربة أخرى فوضع مقدارا كبيرا من السم على النبات فحدثت به اهتزازات تدل على الفناء . ثم أخذ المحاضر مقدارا من مستخرج نباتى خاص وألقاه على النبات فعادت إليه الحياة . وكانت كل هذه الأعمال موضع الاهتمام من الحاضرين واستخدم الفانوس السحرى أثناء إلقائه المحاضرة وقد ظل يلقيها ساعة ونصف ساعة وهذا تعريبها :

ليس فى تاريخ الجنس البشرى حوادث ذات مغزى مثل قيام المدنيتين العظيمتين على ضفاف نهرى النيل والكنج . وقد كان هناك اتصال فكرى منذ (٢٢) قرنا مضت بين البلدين العظيمين (مصر والهند) عند ما أرسل ملكنا العظيم (اسوكا) رسله إلى هذا القطر وأوصاهم أن يقدموا معارفهم وأن يتحدوا بالشعب ويرتبطوا به برابطة الإخاء . فلما جاءتنى الدعوة التى وجهتموها إلىّ أحيت فى نفسى ذكرى الماضى . ولقد لقيت من الوزراء دعوة الشرق الحارة ورأيت من الشعب ماجعلنى أشعر بأنى واحد منكم فقبلت ما اقترحتموه علىّ وهو أن آخذ بعض الطلبة منكم تلاميذا لى لأطلعهم على الطرق الحديثة التى تميط اللثام عن السر العظيم الذى تكنه الحياة . ومع أن العلم ليس متاعا خاصا بالشرق أو بالغرب وهو عام يشمل جميع الأمم والشعوب فإن الشرق يصلح لتقديم مساعدات كبيرة لترقية العلم بفضل عقليته ومواهبه الموروثة التى تلقاها من جيل إلى جيل . أما التصورات الشرقية المتقدة التى تستطيع أن تستخلص من مجموعة الحقائق المتناقضة فى الظاهر نظاما جديدا ففى الوسع ضبطها وكبح جماحها بقوة التركيز والعادة التى جرينا عليها فى حصر الفكر . وهذا الضابط هو الذى يمنحنا القوة التى تساعدنا على استقصاء الحقيقة بصبر لا حد له . ولما كان العالم أجمع يعتمد بعضه على بعض فقد زاد تراث الجنس البشرى ونما بفضل المجرى الفكرى المستمر الذى يفيض علينا جيلا بعد جيل . ولا ريب أن الاعتراف بهذا الاعتماد المتبادل هو الذى ربط الشعوب البشرية العظيمة وقيدها مما ضمن استمرار المدنية ودوامها .

(حياة النبات والحيوان)

إن الرأى المتفق عليه إجمالا هو أن حركة الحياة الميكانيكية تختلف فى الحيوان عنها فى النبات اختلافا كبيرا . فالحيوان يحس ويتأثر بهزة كهربائية سريعة . أما النبات فيعد إجمالا بأنه لا يحس بضربات متوالية وللحيوان أنسجة نابضة لدورة الدم المغذى بخلاف النبات فإن المزعوم أنه لا يشتمل على أنسجة نابضة وأعضاء الحواس فى الحيوان تلتقط رسائل الحوادث الخارجية وتنقل اختلاجاتها بواسطة الأعصاب فتحدث حركات عكسية أما النبات فالمزعوم أنه خلو من مثل هذه الأنسجة الناقلة . وعلى هذا فالمظنون أن هناك مجريين للحياة يجريان جنبا إلى جنب دون أن تكون لأحدهما علاقة بالآخر ولكن هذا الرأى خطأ فى خطأ ، وكان من جراء النظريات الفاسدة وما أحدثته من أثر أن عرقل تقدم العلوم والمعارف . والعقبة الحقيقية التى عرقلت سير البحث فى حياة النبات هى الحقيقة الواقعة وهى أن تفاعل الحياة يقع داخل الشجر المظلم الذى لا تستطيع عيوننا اختراقه والوصول إليه فكان لابد لنا والحالة هذه من اختراع آلات غاية فى الدقة والحساسية تستطيع الوصول إلى أصغر وحدة من وحدات الحياة لتدوين نبضها وهزاتها . وقد كان اختراع (الميكرسكوب) الذى يجسم الأشياء ألف مرة عهدا جديدا فى تقدم علم الحياة . أما جهازى المعروف باسم (كرسيكوغراف) الذى يكبر الأحجام تكبيرا هائلا يبلغ خمسين مليون مرة فقد أخذ الآن يميط اللثام عن غرائب عالم جديد فبدأ النبات نفسه يكشف عن أسرار حياته الخفية . وقد صنع هذا الجهاز هنود ميكانيكيون تدربوا فى معهدى . ومعلوم أن التقدم الاقتصادى فى أية بلاد يتوقف على التقدم فى الاكتشاف والاختراع . ومن هذه الوجهة يستطيع العقل الشرقى إظهار ما فيه من قوى كامنة . وقد كانت النتائج الجديدة التى حصلنا عليها

فى

فى معهدى فيما يتعلق بتأثير العقاقير الطبية فى الحيوان والنباتات ذات شأن عظيم فى ترقية الطب . وقد كان لمراقبات النمو التى سجلها جهازى المجهر الفائق فضل فى جعل تفاعيل النمو من المرئيات وتسنى بواسطته تحديد ناموس النمو ومعرفة هذا الناموس من الأمور الجوهرية للتقدم فى الزراعة العملية التى يتوقف عليها إعداد المواد الغذائية للعالم .

(النبات أشد إحساسا من الناس)

ما كان الناس يظنون أن النباتات العادية حساسة أما الآن فقد عرف ذلك بالاختبار العجيب بواسطة الجهاز الذى يسجل أدنى حركات التقلص .

(نزع الموت فى النبات)

وضعت نباتة فى الكرسى الكهربائى بعد بلها قليلا لتسهيل سير الكهرباء فيها وقد ظلت النباتة هادئة هنيهة كما تبين ذلك من ثبات خط الضوء المنعكس من الجهاز المجسم ثم أدير مفتاح كهربائى فسمع دوى كالرعد فى الجهاز فأحدث ذلك تقلصا من النباتة واندفع خط الضوء بعنف إلى اليسار ولكن النباتة لم تكن قد ماتت بعد ثم سمعت دمدمة التيار الكهربائى المهلك أعقبه تقلص آخر شديد وانحرف خط الضوء مباشرة نحو إشارة الموت الذى لا رجوع بعده إلى الحياة وقد سلط تيار آخر على النباتة ذاتها فلم تتأثر بل سكنت سكون الموت .

(دورة العصارة)

إن الدورة الدموية فى الحيوان يسببها دفعات الأنسجة النابضة التى تتخذ فى الحيوانات الدنيا شكل أنبوبة مستطيلة وهذه الدفعات تسير إلى اتجاه خاص بواسطة حركة دودية فى النبات أيضا وبها تقوم الدورة العصارية فى النبات . وأعجب من ذلك ما للعقاقير من التأثير نفسه فى ضربات النبض فى الحيوان والنبات سواء . وقد بلغت دهشة الحاضرين أشدها عند ما عرض (السرجاجديس بوز) أمامهم تأثير السم وترياقه فى ضربات بعض النبات فإن استعمال السم جعل النبض يضعف شيئا فشيئا ، على حين كان ضغط العصارة الذى هو بمثابة ضغط الدم فى الحيوان ينخفض باطراد حتى كاد يتلاشى وكانت النباتة فى هذه اللحظة تختلج بحيث لو مالت قليلا شطر الموت لوقف دولاب حياتها ثم استعملت كمية من خلاصة نبات هندى فشاهد الحاضرون إذ ذاك النضال بين الحياة والموت إلى أن تغلب فعل الترياق فى النهاية فاستطاعت النباتة الإفلات من مخالب الموت وعلى هذا المنوال اكتشف تأثير عدد كبير من النباتات الهندية وخاصياتها الطبية التى لم تكن معروفة قبلا ، وفائدة بعض هذه النبات هى أعظم جدا من أية عقاقير أخرى معروفة فى عالم الطب ، وقد وقع فعلا أن استعملت خلاصة إحدى هذه النباتات فى ضفدع سكن قلبه كلية فعادت إليه الحياة . ولا ريب أن هذا البحث سيؤدى إلى وضع (فرما كوبيا) جديدة تضاف إليها من العقاقير لتخفيف الآلام الإنسانية وأوصابها .

(تدرج الحياة من النبات إلى الحيوان)

يمكننا أن نتتبع مدارج سلم الحياة الطويل ونرى أن النبات هو أقرب إلينا كثيرا مما كنا نظن وندرك أنه ليس نموا نباتيا فحسب بل إن أليافه الدقيقة كلها إحساس ، وقد تبين لنا أن النبات يتأثر بالصدمات الخارجية بحركة تقلص تبدو منه وأن جسم النباتة يرتبط بعضه إلى بعض بخيوط موصلة حتى إن الهياج الذى يحدث فى أى جزء منه يسرى فيه كله ، وقد تسنى لنا أن نسجل ضربات نبض حياة النبات ونجد أنها تقوى وتضعف بحسب درجة قوة الحياة فيه وأنها تسكن عند موت النباتة ونرى من هذه الحال وغيرها من الأحوال الكثيرة

أن تفاعيل الحياة فى النبات والإنسان متشابهة وأنه بالاختبارات التى يمكن أن نجريها فى النبات يتسنى لنا أن نخفف آلام الناس وأوجاعهم] انتهت الخطبة .

هذه هى الخطبة التى خطبها ذلك الشيخ الهندى النابغة فى علم الحيوان وبه صح ماطالما قلته فى هذا التفسير كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) عند قوله تعالى «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» وإن الناس جميعا يساعد بعضهم بعضا فى العلم وإن الإنسانية اليوم لا تزال طفلة جاهلة فما العلماء فى الأمم إلا كالملائكة وما السواس فى الأمم إلا كالملائكة ظاهرا وكذئاب ووحوش باطنا ، فهم ذئاب يلبسون لباس الملائكة هذا هو العالم الأرضى الآن وربما يأتى زمان يصبح الناس فى هذه الأرض كلهم متساوين فهم إذن يسعدون سعادة لم يحلم بها نوع الإنسان ، ولكن إياك أن تظن أن أهل الأرض مهما نالوا من الاتحاد والعلوم يصلون إلى منتهى السعادة فى هذه الأرض بل ينالون سعادة نسبية ، ألا ترى أن أهل الأرض اليوم محبوسون فيها لايستطيعون الصعود لعالم الأفلاك وهم فى هذه الأرض ولا يقدرون على الصعود فى جو أرضنا إلا بطيارة لها شرائط مخصوصة فاذا اختل شرط منها أحرقتها النار وأحرقت من فيها كما قال تعالى «يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » وإنما لم يكن لهم سلطان على ذلك لأن الأرض اليوم تجذبنا إليها بشىء يقال له الجاذبية وما هذه الجاذبية إلا نوع من المقامع المذكورة فى أول السورة لأن أرضنا من عالم المادة الغليظة فلها بجهنم نوع شبه فعندنا مقامع يقعدنا فى الأرض ويبعدنا عن الجو ومقامع يؤلمنا بالجوع وآخر يؤلمنا بالعطش ثم بالشبق ثم بالغضب ثم بالطمع ثم بالحسد الخ فعندنا الآن مقامع تعد بالعشرات كلها تؤذينا وتقهرنا على الأعمال للضر والنفع والجاب والدفع فهى كالمقامع الحديدية فى جهنم ، فها نحن أولاء نحس بدافع يدفعنا عن الارتفاع فى الجو نسميه الجاذبية والهواء الجوى يضغط على أجسامنا بعشرات القناطير لحفظها كما تقدم فى (سورة النحل) عند قوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل» الخ .

نحن هنا أجسامنا غليظة لاتقدر أن نطالع الأفلاك ولا أن نسبح فى المشترى أو المريخ فضلا عن الشمس والجوزاء وماأشبه ذلك ، أهل الأرض جميعا محبوسون فيها قد منعوا من أقطار السموات العلى لغلظ أجسامهم لأن أرواحهم لاتزال طفلة فاذا ارتفعت وخفت ساحوا فى أقطارها وعرفوا أخبارها ، إن الله حبسنا هنا وجعل حبسنا مرقيا للمحبوسين بدليل أنه جعل محل الحبس دار أعمال فأتى لهم بجميع مايحتاجون إليه فى أعمالهم من أعمال الكسوة والغذاء والزينة ، فها هو ذا زرع الأرض وشق أنهارها وزانها بكل جمال وكمال وقال لهم هذه أرضى فهى وإن كانت سجنا لم أجعلها محل عقاب بل دار تعليم فمن لم يتعلم أو لم يتهذب فأنا له بالمرصاد وعلى ذلك تكون هذه الدنيا مهما ارتقى أصحابها لاينالون الكمال المطلق لأن الكمال المطلق فى عوالم الجنات والحمد لله رب العالمين .

﴿ فصل فى ذكر أن كل أمة لها شريعة ونحو ذلك ﴾

قال تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) أى لكل أهل دين جعلنا شريعة تعبدوا بها (هم ناسكوه) عاملون به (فلا ينازعنك فى الأمر) فى أمر الدين (وادع إلى ربك) إلى توحيده (إنك لعلى هدى مستقيم) طريق إلى الحق سوى (وإن جادلوك) وقد ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله أعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة (الله يحكم بينكم يوم القيامة) يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بالثواب والعقاب كما يفصل بينهم فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين (ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض) فلا يخفى عليه شىء (إن ذلك فى كتاب) هو اللوح المحفوظ (إن ذلك) أى إن الإحاطة وإثباته فى اللوح المحفوظ

(على الله يسير) لأن علمه مقتضى ذاته (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) حجة على جواز عبادته (وماليس لهم به علم) حصل لهم بالاستدلال (وما للظالمين) الذين ارتكبوا هـذا الظلم (من نصير) يدفع العذاب عنهم (وإذا تتلى عليهم آياتنا) من القرآن (بينات) لأن القرآن يبين مايحتاج إليه فى الدين، وفيه دلائل العقائد الحقة (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) الانكار لغيظهم ولما جمدوا عليه من المذاهب الباطلة (يكادون يسطون) يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم هو (النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) النار .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «لكل أمة جعلنا منسكا» ﴾

لما جاء قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » وبين به كيف تتجدد الأمم بأهوال الحروب وصلح الناس وتنشأ شعوب أرقى مما قبلها كما ينشأ فى الأرض بسبب ماهطل من المطر فيها نبات على آثار النبات الهشيم الذى كان فوق الأرض أعقبه بتبيان بعض ذلك كأنه مثال له فقال ها نحن أولاء أرسلنا أنبياء وخلقنا أمما وقد طال الأمد عليها فقست القلوب فأردنا أن نجدد منسكا ونحيى مادرس من درس الإصلاح الأخلاقى والعلمى فأرسلناك وأمرناك أن تمزق الأغشية التى غشت على العيون والأباطيل التى ربطت على القلوب والحجب التى نصبت بين الخلق وبين الحق تارة بالقول وتلاوة القرآن وتارة بالحرب وسجال الطعان حتى تخرج أمة للناس وشريعة جديدة تجدد ما اندرس وتمحو ما مات من فضائلنا فى خلقنا وإصلاحنا لشئونهم فجعلنا لك شريعة غير شرائعهم حديثة النشأة أوجبنا الجهاد العلمى والحربى كما ينبت نبات جديد أثر المطر فتخضر الأرض لما النامى اللطف فى الجليل والصغير . فكما وصلنا إلى دقائق النبات وجليل الشجر مواهب ومحاسن وجليناهما للناظرين هكذا أبدعنا شريعتك وجعلناها قائمة مقام الشرائع الدارسة والديانات المائتة لنحيى الآمال ونجدد الأمم كما نجدد النبات بعد النبات والشجر بعد الشجر فكيف يجادلونك فى أمر نحن قدرناه أو ينازعونك فيما اخترناه . إنا نحن قدرنا أن نجعل هذا العالم فى ارتقاء كما نجدد ما اندرس ونحيى الموات فهكذا نحيى الأمم . إن الأمم من الأرض فلهم شأنها فإنا نحن المنزلون مطراً والموحون علما نحن المزجون السحب المرسلون الرسل والزارعون النبات والمجددون الأمم بشرائعها إذ لانبات لأمة إلا بشريعتها ولاشريعة باقية ولا كتاب إلا مع رسول فكيف يجادلونك وقد ظهر الحق وأصبح البرهان واضحا على مقتضى سنن الكون الشاهد لهم وهم لا يفقهون فأجبهم إن جادلوك بأن الله بأعمالهم عليم وهل يخلف وعده ويخرم سننه ويقف حركة الأمم الأرضية المستقبلة لأناس لا يعقلون . إن الحق غالب والباطل زاهق فلتغلبن فى الدنيا وليحكمن عليكم بالعقاب فى الآخرة فإن الله يعلم ماتفعلون وكيف لا يكون ذلك وهو يعلم ما فى السموات والأرض قد كتبه فى اللوح المحفوظ .

بدائع القرآن

من تأمل فى هذه الآيات عجب من أسلوب الكتاب العزيز فبينما نحن فى حرب وجدال مع أعداء الدين، إذا نحن بين الكواكب المشرقات وبدائع السموات وأضوائها المشرقات والأنوار والظلمات ثم انتقلنا إلى الرياض النضرات والمزارع الخضرات والأزهار الجميلات والأثمار النضرات ثم انتقلنا إلى فلك فى البحر جاريات ونظرة سامية إلى السموات وابتهاج بحفظها وهى سائرات .

فهذا معرض تجلت فيه صور جميع (المواليد الثلاث) والإنسان والنبات والحيوان ، فالحيوان مما سخر لنا فى الأرض . ففى هذه السورة ذكرت للمواليد مرتين مرة فى أولها ومرة فى أواخرها حثا على النظر فى الموجودات وتنبيها أن الحرب والقتال ممهد لدرس العلوم، فطرد العدو من البلاد وحفظ الثغور وإقامة الحدود

سبيل لإقامة الأمن وحفظ البلاد من الاضطراب . هنالك يتفرغ العقلاء للنظر فى هذه البدعات والتحلى بهذه المكرمات . وإنى أحمد الله عز وجل إذ جعل أول حياتى فى الحقول فدرستها درسا سطحيا قبل أن أعرف تفسير القرآن وعجبت من بديع الإتقان وصنع الرحمن، ولما اطلعت على العلوم الحديثة ودرست الفلسفة القديمة رأيت أن القرآن ينحو نحو الحكمة ودراستها والحقول وفهمها والجنات وعلمها والأشجار وأنوارها والأزهار ولقاحها والثمرات ومنافعها والعيون وجريانها فلتكن الحقول درس المسلمين ولتكن السموات منار المتعلمين ودرس المفكرين والشموس والكواكب محور تعليم المتعلمين « لمثل هذا فليعمل العاملون ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

﴿ بهجة العلم ومسامرة فى قوله تعالى « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾

إن الله عز وجل جعل المناسك مختلفات ولكنها تصبح كأنها عادات عند الأمم ودين الإسلام هو الهادى إلى خير المناسك . إن من ينظر ديانات الأمم وعاداتها يجد اختلافا كاختلاف الألوان واللغات والأطعمة وهكذا تذكر ما تقدم فى أول سورة (طه) إذ ذكرت لك هناك قوما من السودان عند ساحل الذهب بأفريقيا فى مملكة (إشانق) وكيف كان دينهم وعاداتهم من أشق العادات والديانات وترقب ما يأتى فى أول (سورة الفرقان) عند قوله تعالى « ليكون للعالمين نذيراً » إذ ترى هناك قوما على نهر (نيجر) قد أسلموا وتبدلت عاداتهم بالنظافة والصلاة والعدل بعد أكل الرمم والظلم وقبيح العادات . فالله يقول أيها الناس أنتم مختلفون فى أحوالكم وهذا الدين هو الهدى فاتبعوه . فهل لك أن أحادثك بما جاء به المستر (سمسون) العالم الأمريكى الرحالة الشهير ذكره حين رجوعه من رحلة فى أواسط أفريقيا حيث قضى خمسة أعوام مقيما بين القبائل هناك . وقد نشر بعض الأخبار عما شاهده فى هذه الأقاليم وإلى القارىء تعريب إحداها وهى خاصة بالمرأة .

﴿ الزواج ﴾

قال « مررت بقبائل عديدة من العبيد منهم رحالة يتنقلون من جهة إلى أخرى كما يفعل العربان فى البادية ومنهم مقيم فى قرى صغيرة يبنون بيوتها من القش والطين . والمرأة عند جميعهم تقوم بأعمال شاقة قلما يقدم عليها رجل حتى إنى مررت بقبيلة لا عمل للرجل فيها إلا إعداد الطعام والقيام بالأعمال البسيطة ، فالمرأة هى التى تخرج إلى الصيد والقنص فتعود بالطيور والحيوانات إلى زوجها وتلقيها بين يديه ليعدها للأكل بينما تستمر هى فى الغناء والتصبى . أما إذا هوجمت القبيلة واعتدى عليها عدو ما فإن الرجال تهب حينذاك مع النساء للدفاع عن الوطن المشترك فيتناول كل واحد قوسه ونباله . على أن النساء يتولين بأنفسهن القيادة . ورأيت قبيلة أخرى تعيش فيها المرأة بعكس ما ذكرت فهى لا تعد إنسانا فى نظر الرجال بل حيوانا داجنا ترسله الأرواح العالية كما يسمون آلهتهم لخدمة الرجال فاذا ما وضعت المرأة طفلا يدخل الوالد عليها ويسأل من يحيط بها من النساء (ذكر أم أنثى) فإذا أجابوه (ذكر) هلل ورقص وتقدم من زوجته ووضع على عنقها قبلة والقبلة فى عرفهم أن يعض بأسنانه عنق زوجته ثم يأخذها بيده ويوقفها ويخرج بها إلى الهواء الطلق حيث ينادى جيرانه من أبناء القبيلة ويطلعهم على الخبر السار مفاخراً بزوجته . أما إذا أجابوه (أنثى) فإنه يغطى وجهه بيديه ويلعن امرأته وساعة زواجه بها ويخرج غاضبا ولا يعود إلى مواجهتها إلا بعد أن يكبر الطفل ويستطيع السير على قدميه . هذه هى العادة المرعية عندهم . ومن أفظع ما رأيت أن الأخ يتزوج بأخته وأن الرجل الواحد كثيراً ما يتعاقد مع رجل آخر على أن يزوجه بيناته جميعهن أيا كان عددهن » أما الزواج

فيتم عند تلك القبيلة بالطريقة الآتية « يوجد على مقربة منهم فى إحدى الغابات الكثيفة حيوان صغير نادر الوجود جداً يسمى (غوى) وهو من نوع من الغزلان لا تزيد حجم جسمه على جسم الخروف الصغير فيجب على الرجل الذى يرغب الزواج من إحدى الفتيات أن يقدم لها هدية غزالا من تلك الغزلان فيخرج الرجل بعد الاتفاق مع والد الفتاة ولا يعود إلى القبيلة إلا حاملا الحيوان المطلوب . أما إذا لم يوفق إلى صيده وحمله إلى عروسه فإنه لا يعود إلى القبيلة بل يرحل عن تلك البقعة ويبحث عن مكان آخر يعيش فيه . وإذا ساعده الحظ وعاد بفريسته فإنه يقدمها إلى الفتاة التى تصبح بعد ذلك ملكا له يفعل بها ما يشاء ويملك عليها حق الموت والحياة . ومررت بقبيلة أخرى من عادة النساء فيها أن ينزعن عنهن الشعر سواء كان من الرأس أو من الجسم فإذا نظرت إلى امرأة منهن لا تجد على جسمها كله من رأسها إلى قدمها شعرة واحدة . أما الرجل فإنه يترك شعره ينمو وكثيرا ما يلجأ إلى دهن جسمه بمركب نباتى يستعمله القوم لإنماء الشعر ، فترى الرجل وهو أشبه بالقرود كثير الشعر كثيفه والمرأة هناك تمتاز عن أخواتها بكبر شفتيها وضخامتها فالمرأة الجميلة هى التى تكون شفتاها أضخم من شفتى غيرها من نساء القبيلة فتراها والحالة هذه تستعمل طرقا غريبة وتستنبط الحيل لتضخيم شفتيها كما يستعمل الرجل طرقا أخرى لإنماء شعره . ومن أغرب ما رأيت قبيلة لا يطلب فيها رجل امرأة للزواج بل المرأة هى التى تختار زوجها وتطلبه من أمه فإذا رضيت الأم تم العقد بين الفريقين ولا رأى للرجل فى ذلك وإذا كان لا يرضى بالمرأة التى طلبته لزواجه فإن الزواج يعقد بالرغم منه وليس عليه إلا الطاعة العمياء . ورأيت أيضا قبيلة من العار فيها أن تكون المرأة نحيلة الجسم ، كما أنه من العار فيها أن يكون الرجل ضخم الجسم بل يجب أن تكون المرأة ضخمة والرجل نحيلا والمرأة النحيلة الجسم لا تجد من يرضى بها زوجة ، كما أن الرجل الضخم لا يجد من ترضى به زوجا ولله فى خلقه شئون » .

هذه بعض ما يختلف الناس فيه من العادات والأديان والله يقول « فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » اهـ .

(كيف كان مبدأ اشتغالى بالعلم)

لقد ساقنى لذكر هذا الموضوع تكرار الآيات القرآنية للعلوم الفلكية والطبيعية فآثرت أن أذكر لك أيها الذكى ما شاقنى إلى هذا وما أثر فى النفس فى أول حياتى لترى كيف أنعم الله عليك وساق لك العلم سهلا شهيا حلوا جنيا فأقول إيضاحا لما رمزت إليه آنفا ما يأتى :

لقد كتبت هذا الموضوع فى أول كتاب [التاج المرصع] الذى نشر منذ (٢٠) سنة فلأذكر هنا ما أذكره فى النفس من تلك الأحوال فأقول :

كنت فى أول أمرى مجاورا بالجامع الأزهر ثم قامت الحوادث العرابية ودخل الإنجليز بلادنا فانقطعت ثلاث سنين عن العلم وكنت فى أثناء ذلك أزاول الأعمال الزراعية بيدى مع من يزرعون وقد اعترانى مرض طويل فى المعدة لازمنى وقد كان والدى فى مرض أيضا وفوق ذلك كله كنت أفكر فى هذه الدنيا وأقول ياليت شعرى ألها خالق . وهل الأنبياء كلهم إنى لا أصدق إلا إذا عرفت أنا بنفسى ولا أتكل على أحد . إن هذه الطرق الحديدية تجرى عليها القطرات وليست من صنع المسلمين . فياليت شعرى ماذا يقول الفرنجة الذين صنعوها. هل لهذا العالم إله؟ أنا لا أصدق إلا إذا عرف عقلى . إن هذا العالم ليس فيه شىء من النظام . إنه مبعثر . إنه مختل معتل . إنى أرى هذه البقرات وهؤلاء الرجال والنساء وهذه الحبات من الذرة توضع فى الأرض وهذا الماء الجارى فيها وهذه المحاريث التى تشق الأرض كل ذلك غير متناسب ولا منتظم ، فالمرأة واقفة والرجل كذلك والمحراث ممتد مستطيل من الأرض إلى أعلى كأنه زاوية والثوران رءوسهما إلى الأمام

والرجال والنساء رءوسهم إلى أعلى وللسماء يجرى على الأرض لا يرفع رأسه مثلهما . فهذه الدنيا مضطربة مرتبكة مختلة لا أرى فيها نظاما ولا إحكاما، وإذا فقد النظام والأحكام فلا إله خالق إن هى إلا أحوال متغيرة وأمور مبعثرة ولدها الاتفاق وأظهرتها المصادفات . فلما أحسست بهذه الخواطر رجعت إلى نفسى وقلت إن العلماء فى الدين يقولون إننا ننظر للعالم العلوى والسفلى فها أنا ذا نظرت فلم أجد إلا خللا ولم أزدد إلا شكا فلم يبق عندى أمل إلا فى أمر واحد وهو أن أوجه قلبى إلى من صنعنى فإن كان موجودا أجابنى وهذا هو الأمر الذى أجعله نصب عينى، حينئذ شمرت عن ساعد الجد وأخذت أصوم بعض الأيام وأصلى بعض الليالى فكنت أجد فى ذلك لذة وسرورا وتوجهت إليه سائلا بقلب محترق . ولكم قلت يا خالق هذه الدنيا . أنا لم أخلق نفسى بل وجدت أنى هكذا وإنى أوجه قلبى إلى ذلك الوجود الذى خلقنى وإذا كان خالقا لى فهو عظيم وكبير ورحيم وأن لى جسما وروحا فلتتوجه الروح إليه ولتسأله أن أقف على الحقيقة . يا الله أنت خلقتنى فدلنى . أواه . ومن لى بأن أقف على هذا الوجود وسره فأكتب ما أقف عليه لمن بعدنا حتى إذا وجد فى الدنيا من احترق فؤاده لمعرفة هذه الدنيا رأى أمامه ما جربت من الأعمال وما قاسيت من الأحوال فيهتدى ولا يجد هذا العناء . وصرت أطلب ذلك فى الحقول وعلى شطوط الأنهار . ولكم دعوت فى الخلوات وناجيت فى الصلوات فى المنزل وعلى شطوط الأنهار . وتارة أحضر تفسير القرآن للجلالين وأقرأ تفسير الألفاظ الذى كتب هناك فأقول يارب هذه الظواهر لم أقف على سرها أما اللفظ ففهمته فأين عجائب الدنيا . وبينما أنا كذلك إذ وقع فى يدى كتاب جاء فيه حديث « لقد أنزلت علىّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له . ثم قرأ صلى الله عليه وسلم « إن فى خلق السموات والأرض » الخ » فقلت هذا حسن أمن هذا الباب كان دخول الأنبياء فصرت أقف على شواطئ الأنهار وفى الحقول وأنظر إلى السحاب وأفكر فيه وهذا ابتداء العجب . وتارة كنت أجلس على شاطئ نهر يسمى (أبا الأخضر) ومعى كتاب (الجلالين) وكتاب ابن عقيل فى النحو وأطالع فى هذا وفى هذا وأقول يا سبحان الله إن القوم حولى فى الحقول لا يسمعون لابن عقيل ولا لغيره فكيف أقرأ هذه الأشياء ، ولا شأن لها فى بلاد الفلاحين ولكن كان الوجدان يسوقنى والفكر يشوقنى . وتارة أبحث على حشرات بين الأعشاب عسى أن أجد فيها ما يشم منه رائحة النظام والإحكام . وأذكر أنى مرة عثرت على حشرة صغيرة مستطيلة الشكل قد خطت عليها خطوط بيض ناصعات وأخرى حمر قانيات وقد كان منظر الخطوط جميلا بهيا وقد رسمت الخطوط بهيئة نظامية وإن لم أكن أعرف إذ ذاك شيئا من الهندسة فقلت إن صانع هذا الكون قد جعل فى هذه الحشرات نظاما فلأبحث عن النظام وعن الأحكام فعسى أن أوفق وتذكرت ما كنت أسمعه من الأشياخ أن العلم كله أصله فارسى لأن الأزهر إذ ذاك لم يكن كهيئته اليوم وما كنت لأظن أن أحدا فى الدنيا يعرف شيئا من هذه الكائنات وأن الذين عرفوها قد ماتوا أيام تدهور المسلمين مع أن المدارس فى مصر كانت زاخرة بتلك العلوم وأوروبا مشحونة بها ولكن التلميذ يتبع ما يلقى إليه اتباع الولد لأمه والمسيحى للقسيس والمسلم للشيخ والولد لأبيه والناس جميعا محبوسون فيما يعلمون يجهلون ما وراءه بل ينكرونه ثم أخذت أطالع تفسير القرآن كل يوم ربعا وكان الجزء يتم فى ثمانية أيام وكنت أحفظ التفسير عن ظهر قلب حفظا عقليا ظنا منى أن فهمه حرام كما كان يقال إلا بتوقيف من الشيخ ثم أخذت أدرس ذلك أشهرا قليلة وأنا أدعو الله فاستجاب الدعاء ووصلت إلى الأزهر ثانيا وزال خطر الانقطاع منه وأتممت العلوم التى كانت فيه على وجه التقريب ثم دخلت إلى مدرسة (دار العلوم) وكانت زاخرة بكل ما أريده ووجدت فيها كل ما كنت أصبو إليه وأنا فى الحقول وكنت أعجب أن يكون هذا فى بلادنا وأنا عنه محجوب فوجدت أن النفوس الإنسانية قد بحثت وفكرت ، ولقد كنت أعتقد أن الدروس التى أقرؤها عبادات وأنها خير العبادات حتى فن الرسم فكنت أرسم فى الدرس

وأنا

وأنا معتقد أنه عبادة لأنه مشحذ للذهن مقو للعلم معلم النظام الذى كنت أبحث عنه فى الحقل فلا أجده . كل ذلك بعد ما درست القرآن فى الأزهر الشريف على جلة الشيوخ الكبار ثم صرت مدرسا فى المدارس المصرية الابتدائية والتجهيزية والعالية وكذا (الجامعة المصرية) أيضا فى قليل من الزمن . وفى أثناء ذلك كنت أختلس من الوقت ما أقدر عليه وأؤلف كتبا فبلغت الرسائل والكتب ما يقرب من أربعين ونشرت بين المسلمين وذلك لأنى جهدى الذى عاهدت الله عليه ولم يكن فى شىء من ذلك منى تكلف بل كان الوجدان هو الذى يسوقنى وهناك تجلت فى النفس أحوال تدعو إلى النشر بين المسلمين لامحل لذكرها الآن . وها أناذا أكتب فى هذا التفسير ما يفتح به على . أقول وإنى الآن أحمد الله عز وجل إذ وصلت فى التفسير إلى هذه السورة وما كان ذلك من الميسور ولا بعضه ولكن الله هو الذى أعانى وهو الذى سهل ذلك لى وإن أقصى ما أردته فى هذه الحياة أن أتم هذا التفسير وأن ينشر وعند ذلك أعتقد أنى أديت ما أعتقد أنه واجب على دينا ووجدانا، وهناك هناك أشعر بإتمام المطلوب وأن ولوعى بنشر هذه الآراء كولوعى بمعرفتها فأنا اليوم كنفسى من قبل يوم أن كنت صغيرا هنالك الاهتمام بالتعلم، وهنا الاهتمام بالنشر وهما فى النفس سواء، بل إنى أجد القلب شديد الاهتمام بثانيهما أكثر منه بأولهما . وها هو ذا أمانة فى يديك أيها الذكى وستقرأ فيما كتبه الكاتبون من الأمة الإسلامية فى الشرق والغرب فاجعل نصب عينيك هداية المسلمين «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» .

(أمة الإسلام والعلوم)

هذا هو الدين الإسلامى وها هو ذا القرآن يذكر المواليد الثلاثة فى سورة (الحجر) وما بعدها إلى هذه السورة نحو ست مرات منها مرتان فى النحل وما بعدها إلى هنا وهذه أوروبا المسيحية فإنى لما قرأت اللغة الإنجليزية واطلعت فيها وفيما ترجم من لغات أخرى ألفيت العلوم هنالك زاخرة وألفيت صلاتهم ليس فيها شىء إلا ما يقرب من قولهم: «ربنا آتنا خبزنا يوما بيوم الخ» ووجدت أمة الإسلام هذا شأنها ودينها غنى بالمباحث فى العالم كله وهى غافلة نائمة . ومن عجب أن المسلم لم يدعه إلى العلوم كلها القرآن فحسب بل ترى أنه فى صلاته يقرأ كل صباح ومساء «الحمد لله رب العالمين» والحمد هنا على التربية العامة للعالم كله ويكون الحمد على مقدار ما عرف الإنسان من النعم ولا معرفة للنعم إلا بالعلم . وترى المسلم فى ركوعه يقول مخاطبا لربه «خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين» فكيف يقرأ السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وهو يجهلها وربما مات المسلم وهو لايدرى ما عصبه ولا ما هى وظيفته . والأقرب من ذلك قول المسلم فى السجود «سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين» فكيف يعرف أنه أحسن الخالقين وهو يجهل تشريح العين وطبقاتها السبع ورطوباتها الثلاث ويجهل طبلات الأذن وما فيها من العجائب . أما العامة فهم مشغولون فكيف ينام الخاصة . وكيف ينام الأذكياء . وكيف تكون صلاة المسلم حائمة له على علم التشريح وعلى علم وظائف الأعضاء، وعلى علم الحس والمحسوس وهو لايحس بهذا كله . أنا لا أقول : إن الجهل بهذا يخرج عن الدين . كلا . فإن رحمة الله واسعة وليست تسع المسلم وحده بل تسع جميع الناس والحيوان وكل مخلوق ولكن المقام مقام ارتقاء العقول والشعوب بقدر الإمكان . يقول المسلم عند الرفع من السجود «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد» وهذا هو كل العلوم ، فالعالم كله ليس شيئا سوى هذه الأربعة فهذا حث على تعليم هذه الدنيا .

إن الدين الإسلامى دين حكمة وشريعة . دين يأمر بجميع العلوم . وها أنا ذا أديت ما على من النصح

وتركت الأمر لمن بعدنا وسنفارق الدنيا وسيقوم بهذا رجال ذوو عقول كبيرة ونفوذ وشوكة بين المسلمين وسيقلبون نظام الدنيا ويملئونها حكما وعدلا « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

فصل فى ضرب المثل بالذباب والأصنام

قال تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل) بين لكم حال مستغربة أو قصة رائقة (فاستمعوا له) لبيانه وأنتم متفكرون فيه (إن الذين تدعون من دون الله) من الأصنام (لن يخلقوا ذبابا) لا يقدرون على خلقه مع صغره وضعفه (ولو اجتمعوا له) أى لخلقته وإذا كانت هذه الأصنام تعجز مع اجتماعها عن خلق أضعف المخلوقات فكيف تعبد وهل يعبد إلا الخالق (وإن يسلبهم الذباب شيئا) من الطيب الذى كان العرب يضعونه على الأصنام أو الطعام الذى يضعونه بين يدى الأصنام فيقع الذباب عليه فيأكل منه ويسلبه (لا يستنقذوه منه) لا يستنقذوا ما يختطفه من طيبها ومن الطعام الذى بين أيديها ، فهى لم تعجز عن خلق الذباب فحسب بل الذباب سطا عليها فسلب ما تجملت به فعجزت عن دفع أضعف مخلوق (ضعف الطالب والمطلوب) الذباب والأصنام، فالذباب طالب لما سلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم للاستلاب منه وهو عاجز (ما قدروا الله حق قدره) إذ أشركوا به مالا يمتنع من الذباب الذى هو أضعف الخلق ونظير هذا قول الشاعر :

فلو أنى بليت بهاشمى خؤولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

ثم قال تعالى (إن الله لقوى) على خلق كل ممكن (عزيز) لا يغلبه شىء ، أما الأصنام فإنها لا تقدر على خلق أضعف الأشياء، وهى من الذلة بحيث يغلبها أضعف المخلوقات فلا قوة لها إن الله قوى عزيز فلم يكن لمخلوق أن يكلمه وكيف يتسنى للمخلوق التكلم مع الخالق عظيم القوة رفيع الجانب إلا إذا تحلى بالفضائل وتناهى فى الكمالات فهناك يستعد للأخذ عنه والتلقى منه كالملائكة والأنبياء ، فالأولون رسل للآخرين لأن العلم لله وهو منزه عن المادة وهو يلقيه إلى الملائكة والملائكة يوصلونه إلى الناس بإذن الله تعالى . فهذا تقرير لقدر الله وعظمته وأن الكفار ما قدروه حق قدره لذلك قال تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا و من الناس) ليدعوا سائر الناس إلى الحق والاستقامة والارتقاء وهؤلاء يقتدى بهم الناس ليخرجوا من الجهالة إلى أعلى الدرجات فى العلم لا هذه الأصنام التى زعمتم أنها شافعة لهم عند الله . فالأصنام حجرية والملائكة أجسام نورانية أقرب إلى الله من أكثر البشر وهم يعلمون الأنبياء الذين هم صفوة الخلق وبهذه الوسيلة ينتشر الدين وهناك تكون الشفاعة بعد انتهاج خطة العلم فأين الثريا وأين الثرى وأين الأجسام الكثيفة من الأرواح الشريفة ؟ (إن الله سميع بصير) يدرك سائر الأشياء (يعلم ما بين أيديهم) ما قدموا (وما خلفهم) وما خلفوا وما عملوا وما هم عاملون (وإلى الله ترجع الأمور) فى الآخرة (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى صلوا (واعبدوا ربكم) وحدوه وأخلصوا له (وافعلوا الخير) صلوا الأرحام ، وتحلوا بمكارم الأخلاق (لعلكم تفلحون) لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة (وجاهدوا فى الله) أى من أجله أعداء دينه ممن يسطون على المؤمنين من الأمم ومن الشهوات الكامنة فى النفوس والجهالة التى تحصر الدين فيما لا يؤدى إلى سعادة المؤمنين (حق جهاده) أى استفراغ الطاقة فيه . قال ابن عباس : لا تخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد، وقال أكثر المفسرين أن يكون بنية صادقة خالصة ولتكون كلمة الله هى العليا واستدلوا بحديث الصحيحين « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» . ولما كان جهاد النفس أحد الجهادين بل هو الجهاد الأكبر لأنه لا جهاد لعدو ممن لم يتصف بصفة الشجاعة والشهامة وهذه لا تكون إلا بأخلاق راقية ولذلك

قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »
ثم قال تعالى (هو اجتباكم) اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته ولنصرته (وما جعل عليكم فى الدين
من حرج) أى ضيق ففتح باب التوبة لمن أذنب برد المظالم للمظلومين والاستغفار ، ورخص فى المضائق لهم
وشرع الكفارات والديات فى حقوق العباد إن الله وسع دينكم توسعة (ملة أبيكم إبراهيم) وإنما كان
أبانا لأنه أبو نبينا صلى الله عليه وسلم والنبى أب لأمته لأنه أحياهم حياة روحية (هو سماكم المسلمين من
قبل) من قبل القرآن فى أيامه (وفى هذا) القرآن لأنه جاء فيه قول إبراهيم « ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك » فهذه التسمية التى ذكرها من قبل جاءت فى نفس القرآن بسبب تسميته قديما وقوله تعالى
(ليكون الرسول شهيداً عليكم) بأنه قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) متعلق بقوله « وجاهدوا فى
الله » الخ وما بينهما اعتراض . وقد تقدم فى سورة البقرة أن ذلك يلزم المسلمين أن يكونوا أمة أرقى الأمم
أخلاقا ومعارف وعلوما وحكمة وعدلا ونظاما حتى يكونوا شهداء على الناس والشاهد عالم بما عند المشهود عليه
مطلع على أحواله حتى يفصح عن شهادته ويقدمها . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورا مهما من تلك الشهادة
وسيرجع لها دورها أوفر مما كان ويقوم فيها حكماء وعلماء يدرسون الأمم ويعرفون دخائلها ويكونون مصلحين
لما اعوج من أخلاقها سواء دخلت تلك الأمم الاسلام أم لا وشهادتهم عند الله يوم القيامة يسبقها العلم فى الدنيا
بالمشهود عليه والعلم لابد أن يكون عن حقيقة فنحن شهداء على الأمم والنبى شهيد علينا ، ليكون شهيدا على
الأمم طبعا ، والله شهيد على النبى وعلينا وعلى الأمم . فالله شهيد والنبى شهيد ونحن شهداء ، فانظر إلى هذه
الصفة العجيبة . وصف الله فى القرآن أنه شهيد فالله شهيد على مايفعل جميع الناس مطلع عليهم والنبى صلى الله عليه
وسلم شهيد على أعمالنا ونحن على أعمال الأمم . هذا هو الذى ينتج من جهاد المسلمين فهم يجاهدون جهاداً علميا
وجهادا عمليا وجهادا خلقيا ليكونوا متخلقين بأخلاق الله أى مرشدين للأمم نافعين للعباد ليرشدوهم إذا
رأوا منهم تقصيراً كالأنبياء للأمم وكما يفعل الله مع الأنبياء . ولقد كان المسلمون فيما مضى سبب انتشار العلوم
العقلية فى الأمم وهم السبب فى إسقاط هيبة وسلطان رؤساء الدين على الأمم حتى أذلوهم فلهذا نشطت المدنية
فهذا مما جاء من لوازم الشهادة لأن الشهادة عن علم . ولما علم المسلمون سابقا أحوال الأمم فى دينها أخذوا
يذكرون لهم بطلان تقاليدهم فزال كثير منها وعسى أن يكون فى الأمة بعد حين أمم أعلى من معاصريها
فيكون درسهم لأحوال تلك الأمم ونقدهم لعقائدها ونظاماتها ومعاملاتها مع بعضها بمثابة تحمل الشهادة الذى
يسبق أداؤها عادة ، وبهذا ينمو فى تلك الأمم شرف المقاصد وجلال الأعمال ، ثم قال تعالى (فأقيموا الصلاة
وآتوا الزكاة) لما خصكم به من أنواع الفضل والشرف، فمن حق من أشرف على قوم أن يكون خيرهم وأنتم
جعلكم الله أشرف الأمم فليس من اللائق أن تكون أوروبا المسيحية هى المشرفة على العالم الإنسانى ،
كلا بل يجب أن تكون الأمم الإسلامية فى الأرض هى التى تشرف على العالم الإنسانى بالحكمة والعلم
والأخلاق والعناية بالأمم تكميلها وإرشادها وإسعادها والوصاية عليها فان الرسول شفيق بأمته التى هو شهيد
عليها فلتكن أمته التى هى شهيدة على الناس ذات علم وشفقة على العالم الإنسانى تعلمه وتحمى الأمم المظلومة
سواء أكانت على دينها أم على غير دينها لأن رسولنا شهيد علينا وهو بنا شفيق رحيم فلنكن نحن شهداء على
الناس ونحن لهم مصلحون معلمون مرقون مهذبون أكثر مما فعل آباؤنا الأولون . ولما كان ذلك قد يكون
فيه ريب فيقال كيف نكون شهداء على الناس وقد مر على المسلمين زمان ضعفت فيه شوكتهم ذكر مايزيل
ذلك الشك فقال (واعتصموا بالله) وثقوا به فى مجامع أموركم (هو مولاكم) ناصركم (فنعم المولى ونعم النصير)
فلا مثل له فى الولاية والنصر بل لامولى ولا ناصر سواه ، وفى ذكر إبراهيم فى هذا المقام وأنه سمانا المسلمين
وأنا نكون شهداء على الناس تذكير بما جاء فى سورة البقرة إذ جاء فيها « ولتكونوا شهداء على الناس »
وإذا قرأت ما كتبناه هناك علمت كيف كان عليه الصلاة والسلام مشغوفا بالعلوم الفلكية والطبيعية، ففى ذكر إبراهيم

هنا إشعار بذلك فهو سمانا مسلمين وهو نفسه كان مغرما بالعلوم الطبيعية والفلكية فاذا سرنا على منواله سعدت بنا الأمم وكنا شهداء عليها (انظره فى سورة البقرة) .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له» الخ ﴾

ربما يظن المسلمون أن هذا المثل للكفار وحدهم وأن الله يقول لهم أنتم عبدتم الأصنام والأصنام فى غاية الضعف وأحقر مخلوقاتى كالذباب سلب منها طيبها وطعامها والصنم لا يقدر على دفعها عنه وعلى ذلك أنتم تعبدون أضعف شىء فليس بقادر على أن يخلق أضعف مخلوق بل أضعف خلق يسلبه وهو لا حراك له بل لا يحس ولا يعقل. يقرأ المسلم هذه الآية ويظن أنه خرج منها لا له ولا عليه . كلا إن المسلم واقع فى شرك هذه الآية مخاطب بها كما خوطب الكافر بالله ، يقول الله هذا الذباب أضعف مخلوقاتى وقد اختطف من الأصنام طيبها ومآكلها وهى ضعيفة والعاقل يفكر فيجد هذا المثل فتح باب علم الحيوان ، فتح باب الحكمة . ألم تر كيف كان الذباب مسلطا علينا كما هو مسلط على الأصنام ، أليس الذباب يسلبنا بعض ما نملك كما يفعل بالأصنام ألسنا نحن ضعافا أمام هذا الذباب ، أليس هذا الذباب إذا أحس فينا بقذر فى أعيننا أو رأى رطوبة فى منازلنا أو طعاما بين أيدينا انقض على أعيننا فوضع فيها بيضه فأفرخ البيض دودا والدود يعمى العيون أو يضعفها ؟!.

أليس الذباب ينقض على طعامنا فيضع فيه بيضه فيكون أذى للآكلين وفيه مادة سمية من ذلك الذباب لأن الله خلقه من المواد القذرة التى تراكمت فى المدن ليصلح الهواء . أليس ذلك داعيا لدراسة علم الذباب وعلم الحشرات وعلم الحيوان لنعرف ما فيه من الضار والنافع لنحترس من الضار ونأخذ النافع ، إن الله لم يذكر هذا المثل اعتباطا بل ضربه لتعليم المسلمين .

إن القرآن يقرأ لنا الآن ونحن نسمعه فلسنا مشركين بالله كلا . ولكنا جاهلون بنعمته والجاهل بالشىء محروم منه مبعد عنه وأوروبا سبقتنا بهذه العلوم فسلطها الله علينا فلندرس تلك العلوم .

﴿ درس من كتاب إنجليزى مترجم عن الفرنسية على الذباب ﴾

هذا هو الدرس الذى يلقيه المعلمون فى العالم الغربى على تلاميذهم وبعض المسلمين لاهون ساهون نائمون لا يعلمون أن ديننا يأمرنا بدرس هذه المواليد من كتاب [العلوم الطبيعية] تأليف (بول بيرت) المطبوع سنة ١٥٩٠ م . يشرع الأستاذ معلما لتلاميذه صفحة (٩) من الكتاب وما بعدها ، خاطب الأستاذ تلميذا قائلا له « أى فرق بين الذبابة والحصان ؟ فأجابه الحصان كبير والذبابة صغيرة ، فقال الأستاذ حسن . ولكن ليس المدار على الحجم صغرا وكبرا ، فقد ترى الحصان صغيرا والذباب كبيرا عند الاستعانة بالمناظير المكبرة وتسليطها على الذباب فيرى أنه أكبر من الحصان وأمثاله ، فأجاب تلميذ آخر ، كلا إن الذبابة لها جناحان والحصان لا جناح له ؟ فقال الأستاذ لو قطع الجناحان والذبابة حية أفليس الحصان إذن كالذبابة ؟ فما الفرق ؟ فقال تلميذ آخر : كلا بل الذباب لا شعر له والحصان له شعر ، فقال الأستاذ أواثق أنت بما تقول ؟ أمسك بالذبابة وانظر إليها بهذه الزجاجة ، انظر الشعر عليها فلها شعر كما للحصان ، فقال آخر إن الذبابة لها ستة أرجل والحصان له أربع أرجل ، فقال الأستاذ هذه ملاحظة مهمة ، ولكن أليس يجوز أن تكون الذبابة قد فقدت رجلين كما فقدت الجناحين ، فأى فرق إذن بينها وبين الحصان ؟ حينئذ جاء دور الأستاذ فقال اضغطوا على الذبابة فضغطوا عليها فلم يبق إلا الجلد والأرجل والجناحان ، قال لهم فأما الحصان فانه لو وقع البيت عليه فهشم فانا نجد أن الحصان فيه مواد باقية صلبة فأما الذبابة فلم نجد من هذه شيئا فيها وهذه المواد الصلبة هى العظام إذن يكون الحصان وأمثاله حيوانات ذات عظام ولها هيكل عظمى يحفظ البدن ولها مادة ملونة وهو الدم ذلك لأن الذبابة لم نجد فيها تلك المادة الملونة ، فتكون النتيجة هكذا : إما أن تكون

الحيوانات

الحيوانات فقرية لها هيكل عظمى ، وإما أن لاتكون كذلك ، فذات العظام يلاحظ أن لها دما والتى لاعظام لها لادم لها ، ومن هذا الدرس السهل قسم جميع الحيوانات أى من تشريح الذبابة وتشريح الحصان ، واستمر الأستاذ يلقى الدروس حتى شرح الحيوانات كلها ، ولألخص لك الكتاب كله فى موجز من اللفظ لترى عجائب القرآن « ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا » من الجاهلين الذين لااستعداد عندهم « ويهدى به كثيرا » من العلماء المفكرين .

﴿ أقسام الحيوان أربعة ﴾

[القسم الأول : الحيوانات الفقرية] وهى التى ذكرناها الآن وهذه تشمل :

(١) الإنسان (٢) وذوات الأربع (٣) والطيور (٤) والزواحف (٥) والسمك .

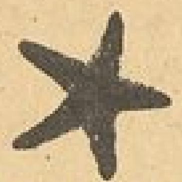
فهذه الخمس هى أقسام الحيوان الذى اشتمل على هيكل عظمى وفقرات ودم ؛ فالإنسان والبهائم من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الإبل والبقر والغنم والسباع كالذئب والكلب والطيور الجارحة وغير الجارحة والزواحف كالحيات والعقارب والسمك فى البحر وهو معروف . كل هذه لها عظام ودم ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة . [القسم الثانى : الحيوانات الحلقية] أى التى تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان . وهذا القسم أنواع وهى :

(١) الحشرات (٢) والعناكب (٣) وذوات الأرجل الكثيرة (٤) والحيوانات القشرية (٥) والدود .

أما الحشرات فهى ما كان لها ستة أرجل ولها إما جناحان كالذباب الذى هو أصل الدرس وإما أربعة أجنحة كأبى دقيق الذى يعيش فى بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذى يفسد شجر القطن وهذا سلبنا قطننا فلذلك يدرسه الناس الآن فى مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الافرنجى (دراكوفلاى) . وأما العناكب جمع عنكبوت فهى مالها ثمانية أرجل ضعف مالذوات الأربع وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهى ماقد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرون رجلا ويقال لها فى بلادنا المصرية (أم أربعة وأربعين) . وأما الحيوانات القشرية فهى تشمل قرّاض الخشب وحيوانا يسمى (كرايفش) باللسان الإفرنجى وهو مركب من حلقات مدمجة قوية ، وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق وهذان رءوسهما متصلة بجسمهما وليس لهما أرجل وليس جلدهما صلبا قشريا كجلد (كرايفش) .

[القسم الثالث] من الحيوانات الهلامية التى جسمها أشبه بالفالوذج الذى هو نوع من الأطعمة ومن هذا حيوان يسمى (القوقعة) وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام . وقد أعطى وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات وهى معدة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الافرنجى (ميوزل) وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لا عظم له فليس من ذوات الفقرات ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات فهو إذن حيوان هلامى [القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية] وهذه منها ماهو على شواطىء البحار المسمى (سمك النجم) ومنها ماهو فى البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية وقد تتكون منها جزائر ، فترى هذين النوعين يختصان [بأمرين : الأول] أن لها فما مركزيا يشاهد فى الوسط [الثانى] أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات منوئية تحيط بذلك الفم أو المدخل ، ثم إن مشاهدة صورتها تدخل فى النفس عجبا فان (سمك النجم) تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان وذلك الوسط كالكف وكل أصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تغطيه ، وفى أصول تلك الأهداب تشاهد نقطا

مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع وهذه صورته (شكل ٥).



(شكل ٥ صورة السمك النجمى)

وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الافرنجى (بوليبا) فانك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعا كما فى سمك النجم بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لاحصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل وهذه صورته (شكل ٦).



(شكل ٦ – بوليبا)

أما الحيوانات التى تكون كهيئة مستعمرات وتكون فى وسط البحار فهى حيوانات جسمها مكون من كتلة هلامية ليس لها أعضاء متميزة وتفرز رواسب حجرية تأخذ شكل نباتات ولذا تسمى (الحيوانات النباتية) وتسكن قاع البحار وأشكالها مختلفة ، وبعضها يستعمل فى الصنائع وذلك كالمرجان والإسفنج ، فالمرجان حيوان معروف يستعمل حليا وتفرزه حيوانات أخطبوطية لتسكن فيه وهو يشبه شجرة عديمة الأوراق وهو كثير الوجود فى البحر الأبيض والأحمر مثبتا على الصخور وتكون الحيوانات على المرجان كأزهار وهذا هو الذى حمل العلماء قديما أن يعتبروه نباتا زمنا طويلا وهذه صورته (شكل ٧).



(شكل ٧ ـ رسم المرجان)

هذه أقسام الحيوانات التى خلقها الله وبثها فى الأرض وجعلها درسا لنا ، وقد نقلت لك عن الفيلسوف (اسبنسر) أنها تبلغ نحو مليونين أعنى ألفى ألف وهذا العدد هو المقسم على هذه الأنواع، فمنه ذوات الهيكل العظمى وهى الحيوانات الفقرية ولها دم وهى الإنسان وذوات الأربع والطيور والزواحف والأسماك ، ومنه ذوات الحلقات وهى الحشرات والعناكب وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود ، ومنه الحيوان الهلامى كالقواقع التى على شواطىء البحار ، ومنه الحيوان الشعاعى الذى ترى أطرافه لامعة حتى سمى (سمك النجم) ، فهذا مجمل هذه المخلوقات .

انظر كيف ذكر الله هذا المثل ونادى الناس جميعا والمسلمون من الناس طبعا فنحن من الناس وإذن هذا النداء لنا . يقول الله « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » يا عجبا ! هل الله يقول استمعوا له إلا إذا كان المثل عجيبا وفيه علم كثير ، قال الله فى هذا المثل « فاستمعوا له » وقال فى القرآن : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » فكأن الله أمرنا باستماع القرآن كله وأمرنا باستماع هذا المثل على الخصوص ثم أورد هذا المثل . نحن نسمع القرآن لنقرأ فيه علما ، وها نحن أولاء قد سمعناه وسمعه آباؤنا فكونوا ممالك عظيمة وهى الدولة العباسية والأموية وغيرهما قديما وهكذا الدولة الأفغانية والفارسية حديثا وعسى أن يلحق بهما بقية الإسلام ، ومن استماع القرآن كان علم الفقه الذى تشعبت مذاهبه ، فاذا استمعنا لهذا

للثل فماذا نصنع به ؟ ندرس الحشرات ودرس الحشرات يستلزم دراسة الحيوان كله ودراسة الحيوان فيها سر الربوبية وعجائبها وحكمها والمواهب التى أسديت إليها وبها ارتقاء العقول وبها ارتقاء الدولة .

كل ذلك من دراسة الذباب ، الذباب الذى ألف كتاب الحيوان كله على التمثيل به والله مثل به ليقول انظروا خلق ، فكأنه لما ذكر المواليد مرارا وكررها فى هذه السورة مرتين أتى هنا للحيوان بمثال وهو الذباب النشط ذو الأرجل الستة والجناحين .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى «وإن يسلبهم الذباب شيئا» أيضا ﴾

كيف يسلب الذباب منا ومن الأصنام طعامنا كالعسل وغيره وهو صغير . وكيف ترى عيناه تلك الدقائق فتخطفها لأن الخطف لا يكون إلا بعد العلم وعلمها بنظرها فهل تقدر على ذلك النظر ، ثم إن الذبابة شديدة الحرص فمن أين أقبلنا عليها لنذبها عنا طارت حالا فكيف كان ذلك مع الإنسان منا لايرى إلا ما أمامه وستأتى الإجابة على هذا السؤال قريبا هنا ، وذكر الذبابة هنا وهى من نوع الحشرات مقدمة لذكر أمثالها كالنمل الذى سيأتى ذكره قريبا والعنكبوت الذى سيذكر بعده، فالنحل والذباب والنمل المذكورة فى القرآن من الحشرات وقد عرفتها، والعنكبوت نوع آخر ليس من الحشرات بل هو مستقل ولذلك ذكر بعد ذكرها مستقلا . أما بقية الحيوان فأكثرها مذكور فى القرآن إجمالا وما لم يذكر فهو فى قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون» . ثم أمرنا باقتفاء آثار العقلاء لنعلم الأشياء فقال « وقل رب زدنى علما » وقال «وفوق كل ذى علم عليم » .

﴿روضات الجنات ومناهج الحكمة فى قوله تعالى أيضا «وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب المطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » ﴾

اللهم أنت المحمود على نعمة العلم والحكمة التى عشقناها وتمتعنا بها فى هذه الأرض إذ هى رياض غناء لأولى الألباب ، أينما أدرنا العين ووجهنا وجوهنا نرى إحكاما وهندسة وبهجة وجمالا ، اللهم لست أقول هذا تقليدا ولا تزويقا . ولكنى أقول الآن والفؤاد مفعم بالبهجة والحكمة . يرى أكثر الناس الجمال فى الورد والزهر والثمر وأنواع الحدائق الغناء ولا يتعدى نظرهم الجمال الظاهرى وهانحن أولاء نراه فى كل مكان «فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » نراه فى المواضع التى يأنف الانسان أن ينظر اليها وفى الذباب والحشرات الطائرات . تلك الحشرات التى خلقتها لتطهير الأرض من الرطوبات وأنواع العفونات حتى لايعم الطاعون والوباء والأمراض القتالة، فخلقت تلك الحشرات وجعلتها ملطفة للجو مبعدة للمرض، إذ تستحيل تلك المواد العفنة إلى أجسامها الحية فينقلب الضرر نفعا والموت حياة ولكن جاء فى الحديث « كل أم يتبعها ولدها» فهذه العفونات والرطوبات مع أنها استحالت إلى أجسام تلك الحشرات حفظت ماكانت عليه من الأضرار إذ لا معطل فى الوجود فتحول ضررها العام ووباؤها فى تلك الحشرات إلى ما فطرت عليه تلك الحشرات من أنها تنقل المرض من زيد إلى عمرو فتعمى الأبصار وتورث الوباء والطاعون وأنواع الأمراض المختلفة الأخرى . ذلك شأن الحشرات كالذباب المذكور فى الآية، فهى نعمة تدفع الأذى ولكنها تكون رسلا بين المريض والصحيح وسفراء بين الأحياء فتنقل الأمراض وتعطى العدوى وتعممها . هذه وظيفة الحشرات فإذا كانت هى مخلوقة من القاذورات متغذية بها عاكفة عليها. فهى صالحة لحفظ خواصها وهى الإهلاك والإبادة والشىء من معدنه لا يستغرب وهى من عناصر اختصت بالإهلاك وإحداث المرض فهى تكون قيمة على ماخلقت منه قائمة بشأنه مساعدة لإبادة الأحياء فوق هذه الأرض، وتشارك الحيات ونحوها الحشرات

فى أنها مخلوقة من القاذورات والرطوبات فهى تكون سامة إذا كانت أمكنتها قذرة ضارة وتكون غير سامة إذا كانت أمكنتها التى تعيش فيها غير قذرة ولا رطوبة فيها ، وهذا عجب فإنها إن تغذت بأصول نظيفة زال منها السم وإن تغذت بأغذية قذرة منتنة تضر بالصحة كان فى جسمها السم وأضرت بالناس . إذن ليست كل حية سامة . فالسم نتيجة الأغذية ، إذن الأغذية هى التى تنتج النتائج التى تضر والتى تنفع ، فلما كان الذباب كله ضارا كان سببه أن غذاءه كله من العفونات والرطوبات كالحيات السامة لا غير .

(بيان أوصاف الذباب والحشرات وكيف كثرت وكيف سلط الله عليها مهلكاتها)

الحشرات كلها لها ستة أرجل وأجنحة وأنبوبتان ممتدتان عند رأسها بها تتفاهم مع غيرها ولكل من هذه الحشرات رأس وبطن وصندوق وهى تبيض كما يبيض الطير ولكن الفرق بينهما أمور منها :

(١) أن الطير تحضن بيضها وتعتنى بأطفالها . أما هذه الحشرات ومنها الذباب الذى نحن بصدد الكلام عليه منه ما يعتنى ببيضه كالطيور وذلك كالنحل والنمل ومنها مالا يعتنى ببيضه بل يتركه ولا يعرف أين تنقس ذريته كالذباب وكالجراد . فهذان النوعان وأمثالهما يتركان بيضهما ولا يلزمان بحفظه بل تقوم بحفظه العناية الإلهية فى البر والبحر .

(٢) ومن الفرق بين الطيور والحشرات أن الطيور يخرج جنينها من البيضة مباشرة تام الخلقة والأعضاء مثل ما ترى فى الدجاج والحمام والعصافير فهذه تخرج ذريتها من البيضة تامة كما كانت آباؤها .

أما الحشرات كالزنابير والذباب والنحل والنمل فهى على غير هذا النمط . وذلك أنها تخرج من البيض أشبه بدود صغير جدا وهذا الدود يتنحى من جلده مرات متعددة ويكون ذا أطوار فى خلقه ويأكل أكلا بشراهة وينتهى ذلك بأن ينسج على نفسه نسجا حريريا قليلا كأكثر الحشرات أو كثيرا كدود القز وتنام تلك الدودة مدة ثم تخترق تلك الكرة التى نسجتها على نفسها وتخرج حشرة تامة كأمها . هذه هى الحشرات وهذه درجاتها فى خلق ذريتها .

(ادخار الحشرات وعدم ادخارها)

وهنالك تخرج الذرية فى الجو ومنها ذرية الذباب فتأكل من هذه المائدة التى نصبها الله لها وهى المواد الرطبة كما قدمنا والعفونات فى كل مكان . فالرزق لها موفر والغذاء حاضر لا يكلفها نصبا ولا مشقة . وليس للذباب عناية بخزن أرزاقها ولا تحمل مؤنة لها ولا تفعل ما يفعله النحل والنمل فهذان فطرهما الله على حب الادخار كالإنسان . ذلك أن الذبابة والجرادة والناموسة وأمثالها لا تعيش للعام المقبل فلم يضع الله فى فطرتها الادخار . أما النحل والنمل والناموس فإنها تعيش للعام المقبل فإنها إن سلمت من المهلكات لها الآكلات لأجسامها لم تسلم من برد الشتاء المهلك لأجسامها المريح لأهل الأرض من إيذائها وحملها الأمراض وتوزيعها على الناس ومساعدتها على إهلاك الإحياء على هذه الأرض . ثم إن الذباب والجراد والناموس وأمثالها قد امتلأت الأرض بأرزاقها فلا حاجة للادخار . فهذان سببان من أسباب عدم ادخار الذباب وأمثاله القوت .

تباركت يا الله . إنك لم تعط إلا بقدر . أعطيت النمل غريزة الادخار ولم تعطها الذباب . فالإعطاء بحكمة والمنع بحكمة ولكنك ملأت بهذه الحشرات البر والبحر والسهل والجبل « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

﴿ العنكبوت والطيور والنبات الحيوانى ﴾

تباركت يا ألله . أكثرت من الذباب وأمثاله من الحشرات وجعلته ملطفا للرطوبات مقللا لها ، ثم إنك لم تذره يفسد فى الأرض بما بقى فى طبعه مما استمد من غذائه بل خلقت الطيور وأنواع العنكبوت والنبات الحيوانى وأمرتهن أن يتغذين من هذه الحشرات الطائرات تخفيفا للمرض وتقليلا للألم . عجبا يا ألله خلقت العنكبوت كما سيأتى شرحه قريبا عند قوله تعالى « وخلق كل شئ فقدره تقديرا » فى (سورة الفرقان) وأمرتها أن تنصب خيامها وتنسج نسيجها وقلت لها أيتها العنكبوت اصطادى من الذباب ما تشائين وكليه فى بيوتك إنك ذات صناعة ، والذباب لا صناعة له ولا حيلة فكليه هنيئا مريئا ، ولقد خلقت أيضا النبات الحيوانى المتقدم شرحه ورسم صوره المتعددة العجيبة فى (سورة الرعد) عند قوله تعالى « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » فهناك أنواع من النبات مرسومة مشروحة مبين فى شرحها أنها لا تخلق إلا فى المستنقعات والبرك والأماكن القذرة وقد جعلت مهيأة لصيد الذباب . ذلك الذباب الطائر القوى الذى أعطى الله كل واحد منه أربعة آلاف عين صغيرة كل عين منها مستقلة بحيث لو نظرها الإنسان بالمنظار المعظم لرآها كهيئة عيون الغربال كثيرة تبلغ هذه الآلاف فالعين الواحدة مقسمة عيونا على هذا النمط . فهذه الحشرة مع قوتها وعيونها وأجنحتها يصطادها العنكبوت التى لا أجنحة لها والنبات الصياد الذى لا حول له ولا قوة وإنما أمده الله بالعسل فى داخله وفتح فيه نوافذ أشبه بالمقاصير والقصور وجعلها مسواة مهندمة مصقولة تزلق الأرجل إذا لامستها وفيها من الداخل مواد سامة حتى إذا جاءت الذبابة وقد رأت ظواهر النبات جميلة الأشكال حسنة بهية ذات رائحة جميلة تقدمت إليها ودخلت فى دهاليزها لتشرب عسلها الذى رأت منه بعضه على أبواب تلك الحجرات فلا تمشى بعض خطوات حتى تزلق أرجلها وتغمس فى سائل يغمر جسمها فيقتنصها النبات ويهشمها ويهضمها بالمادة الهاضمة التى وجدوها فيه تشبه المادة الهاضمة فى معدة الإنسان .

فيا عجبا . نبات ثابت فى مكانه يصطاد ذبابا سميعا بصيرا طائرا فى الجو ، وعنكبوت لا جناح له جعل طعامه من الذباب الطائر رحمة بالبلاد والعباد . هذه قصة الذباب المذكور فى الآية إذ يقول الله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » أما الطالب فهو الذباب ، وأما ضعفه فهو مع ما أعطى من الأعين ومن القوة والأجنحة ووفرة الرزق فى الدنيا ورغد العيش قد التقطه الطير وأكله العنكبوت التى بيتها أوهن البيوت . فالعنكبوت ذات الثمانية الأرجل أكلت الذباب ذا الستة الأرجل والأجنحة فهو أخف حركة من العنكبوت ، ومع ذلك صار طعاما لها وهكذا النبات الحيوانى الذى جعله الله خاصا بأكل الحشرات لتنظيف الأرض من الذباب وأمثاله ، فالذباب ضعيف لأن الذى بيته أوهن البيوت اصطاده والنبات الذى لا قوة له اصطاده ، وأى ضعف بعد ذلك ؟ فهذا الذباب مع هـذا الضعف كله غلب الأصنام فأكل ما عليها من الطيب وذلك بحدة بصره ونفوذه . فالله يقول من ذا يقدر أن يخلق هذا الذباب الضعيف ومن ذا الذى يقدر أن يحكم النظام فيجعل تلك الحشرات مخلوقة بقدر بحيث تكون لغاية وهى تقليل الرطوبات ثم هو يصير طعاما للغير ويكون بيضه بقدر وقد أعطى غريزة هو وأمثاله كالناموس والجراد أنه لا يضع البيض إلا فى مكان يصلح لأن تعيش فيه ذريته متى فقست فهو وإن لم يرب الذرية قد حرص عليها قبل وجودها فوضع البيض فى الأماكن التى منها تغتذى بعد فقسها ، فمن هـذا الذى يقدر أن يعلم هـذا كله ويخلق هذه الخلائق ويعطيها آلاف العيون التى لا تدركها الأبصار وهى تدرك ما دق من المواد الصغار ؟ فهل تخلقها هذه الأصنام التى لا سمع لها ولا بصر ولا أجنحة ولا حياة ؟ .

هــذه يا أمة عجائب الذباب الذى خلقته ونشرته فى الأرض « ليهلك من هلك » بالأمراض منه «عن بينة ، ويحيا » بالعلم والمعرفة والدرس « من حى عن بينة » . فالأول بتقصيره والثانى بتشميره وجده والله هو السميع العليم .

خلقت يا أمة هذا الذباب منذ خلقت الدنيا وأعطيته هذه القوة وزوقته بالأجنحة والأعين ولكن أكثر أهل الأرض ما كانوا يعلمون، وإنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن العلوم والحكمة غافلون . ذلك أرسلت لهم أنبياء فعلموهم وقالوا لهم إلهكم إله واحد فانظروا فى عجائب الخلق فى البر والبحر فسمع ذلك أقوام وضل آخرون، وبتوالى الزمان ضل أكثرهم . فماذا يفعل الكهنة ورجال الدين ؟ نصبوا لهم الأصنام والمعابد وشرحوا لهم أوصاف تلك المعبودات وأعظموها لأنها أقرب لعقولهم وأدنى من متناولهم ولم يقدر أكثر الناس على فهم هذه العجائب التى ذكرناها فى خلق الله، فترى الأصنام شاخصة فى كل مكان فى مصر فى العراق فى الهند فى الصين . وسترى وصف آلهة الصين فى أول سورة (الفرقان) وأنهم وضعوها فوق الجبال الشاهقة المرتفعة فوق سطح البحر (٥٠٠٠) درجة ، والدرجات التى توصل إليها عددها (٧٠٠٠) قدم والذاهب إليها يحجها يجد نصبا وتعبا فيحمله قوم إلى المعبد فوق الجبل ، ذلك فعل الناس من قديم الزمان . إن كهانهم لما رأوا قصور عقولهم مثلوا لهم القدرة الإلهية والدوام والثبات والحكمة والرفعة والعلو بأصنام هائلة صخرية ثابتة مصنوعة صنعا متقنا مرتفعة فوق الجبال يراها الابن كما يراها الأب جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن فتحدث بها الأب ويلقى أحاديثه للابن لأنها ثابتة موطدة فوق الجبل ، كما أن الله العلى ثابت لا يموت رفيع على عظيم حكيم .

فهذه الأصنام وضعها الناس قديما لتكون مثالا لجلال الله وعظمته أو مثالا للنجوم الزاهرات كزحل والمشترى التى كانوا يعتبرونها آلهة عند كثير من الأمم وهى الكواكب السيارة التى تديرها الملائكة، والملائكة عباد الله المكرمون . هذه عبادة المتقدمين . هذه يا أمة عبادة الأمم القديمة ، وديننا لم يقل إن قوما يعبدون الأصنام ولم يرسل لهم نبى قبل الاسلام يدخلون النار . كلا . بل هم محاسبون على حسب اعتقادهم « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

هذه هى الأصنام وهذا سبب عبادتها، وهذا هو الذباب ، وهذا المتقدم عند الكلام عليه سبب ضعفه ومع ضعفه غلب الأصنام وسرق ما عليها . إذن لتكن الأمم الحاضرة أطول باعا وأرقى همة من الأمم السابقة . سبحانك اللهم فلتكن عبادة الأمم الحاضرة فى الشرق والغرب لخالق الذباب المبدع العجيب الصنع الحكيم الفعل . فلئن عجز السابقون عن فهم هذا الوجود وجهلوا بدائع الإتقان فى أصغر المخلوقات كالذباب لن يقصر باع الأمم الحاضرة عن معرفة عجائب الحكمة فليرتقوا فى العلم وليدخلوا حظائر الحكمة وليدرسوا كل شىء ومنه الحشرات والذباب الذى غلب الأصنام . إن الأمم فى مستقبل الزمان حين يطلع فجر الحكمة وتشرق شمس العلم فى الأرض لن يقدروا أن يعبدوا الأصنام بل هم يدرسون ما هو أعجب من الأصنام وذلك هو هذه الدنيا والمواليد الثلاثة التى رمز لها هنا بالذباب . إن هذه الحشرات وأمثالها لها شأن عظيم فى العالم لذلك خصها الله بالذكر ولم يقتصر على أنه قال « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وقوله « وفى الأرض آيات للموقنين » . كلا . بل قال « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » رادا على المشركين إذ لم يعجبهم ذكر الذباب وذكر العنكبوت فى القرآن . إن الله مهد بالإسلام للأمم دراسة العلوم ، وأشار إلى أن العقول اليوم ستفقه هذا الوجود وتستبدل معرفة الصانع فى الحيوان والحشرات بالأصنام والشيوخ والمقابر ومن يحش يره ، والسلام .

﴿ اعتراض على المؤلف فى مسألة أعين الذبابة التى تعد بالآلاف وذكر مادار بينه وبين مدرسى المعارف ﴾

ههنا لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه بعض الفضلاء قال لقد ظهرهنا عجائب الذباب والعنكبوت وأن الثانى يصطاد الأول الذى هو ضعيف وأن الطيوروالعنكبوت تطارد الذباب وأن الأضعف طعمة للأقوى وأن العيش الرغد للذباب ليس دالا على رفعة القدر ، بل عيشة النصب عند العنكبوت أكسبته شرفا وجاها .
وههنا سؤالان أبديهما (أولهما) إذا كانت العنكبوت نافعة بأكل الحشرات وكذلك الطيور إذن يجب المحافظة عليهما فى الحقول والحدائق . فقلت نعم، قال العلماء فى عصرنا الحاضر « يجب على صاحب البستان وعلى الفلاح أن يحافظا على العنكبوت لأنها تأكل آلافا من الحشرات فهى نعمة على الفلاح . وعلى الطير كذلك » ولقد تقدم هذا الثانى فى (سورة يوسف) وهناك صور الطيور الممنوع صيدها بمصر وهناك فى (سورة طه) طيور أخرى وجدوها نافعة للزرع وجب حفظها . فقال : هذا عجب أن تكون العنكبوت مما تجب المحافظة عليها كأن الله سماها فى القرآن مشيرا للمحافظة عليها . فقلت : إن هذه الحقائق غيرمنتشرة اليوم فى بلاد الشرق انتشارا تاما، فقال كيف لاتكون منتشرة وهذه المعارف تدرس لصغار الطلبة . فقلت له ولكنها تدرس بغير تشويق وإنما يقرأ الأساتذة الدروس فى أمثال هذا فى التعليم الابتدائى والثانوى لمجرد المطالعة اللفظية والاعراب وتحليل الجمل وصرفها، ويصدون التلاميذ عن معانيها لعلمهم أنهم لايمتحنون فيها . ومما كان يؤلمنى أنى وجدت رؤساء المدارس بمصر أيام اشتغالى بالتعليم فيها لايأبهون لمثل هذه الأمور وقد كنت يوما فى بهو مدرسة (دارالعلوم) وأنا واقف أمام دوحة صغيرة فيها نسيج عنكبوت وذلك النسيج واضح جدا، حين ذاك ناظر المدرسة فرأى منى التفاتا إلى ذلك النسيج وهو بيت العنكبوت . فقال : وماذا أعجبك منه . قلت إن شكله محفوظ على حاله والأولى بقاؤه لينظر إليه التلاميذ فيعرفوا شكله للدراسة وتوجيه النظر . فقال هذا أمر لا قيمة له ولولا أنه بعيد عن الأنظار لأزلته وما فائدة هذا، وأى علم فيه أو حكمة ؟ هذا أمر لاقيمة له ، فعجبت كل العجب وعرفت ماانشتهر عن أهل أوروبا أنهم إذا احتلوا أمة من أمم الشرق شرعوا يميتون النفوس المتطلعة فيلقون العلم إليهم قشورا ولا يحببونهم فيه خيفة أن تنبعث النفوس إلى الحكمة فيفلتون من أيديهم .

اللهم إنى أحمدك إنك ألهمتنى أن أؤلف هذا التفسير حتى يكون نموذجا تقرؤه الأمم الإسلامية التى حكم عليها بالاستعمار فلا تحرم مما يحببها فى العلم على الوجه الصحيح فيكون ذلك سبيلا لرقيهم واستقلالهم ويقرؤه الذين هم مستقلون فى بلادهم فيزيدهم شوقا إلى العلم والحكمة ويجدونه موافقا لما يدرسون من علوم هذه الدنيا التى هى علوم القرآن الذى هو كلام الله ، والعالم فعله والفعل والقول متلازمان . فقال صاحبى : هذا هو السؤال الأول قد استوفيناه (السؤال الثانى) إنك قلت : إن الذبابة لها أربعة آلاف عين فهل هذا القول تقبله العقول؟ اللهم لا ، ومن ذا الذى يظن أن للذبابة ثلاثة عيون فضلا عن ١٠ فضلا عن الألف بل الآلاف إن هذا خارج عن المعقول والمنطق ، فأى منطق هذا وأى عقل يقبله ، والله إن كتاب [ألف ليلة وليلة] وكتب الخرافات لم تجرؤ أن تقول مثل هذا القول بل كتب الخرافات لأصحابها عذر فيها فإن الناس لعلمهم أن صاحبها وضعها على سبيل الرواية لايزدرون كلامه ، أما هنا فان جملة مثل هذه يسمعها القارئ لهذا التفسير فينصرف قلبه ويقول يظهر أن هذا المؤلف ينقل الكلام بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فما هو إلا أن يقرأ كتابا افرنجيا مثلا فيعتقد أنه كتنزيل من حكيم حميد ، والافرنج فيهم المخرفون كغيرهم . فإذا قلت لنا إن الذبابة لها أربعة آلاف عين فمعناه أننا قوم لاعقول لنا . فقلت : أتم كلامك . قال نعم . فقلت أذكرك بما مضى فى هذا التفسير وأن قطرة الماء فيها مئات الألوف من الحشرات وكل حشرة لها عينان وسمع فكيف وسعت هذا كله ، وأذكرك أيضا بأن قطرة الماء تحتوى على ذرات بحيث تعد بعدد (٥) وعلى يمينه (١٨) صفرا .

وأذكرك بأن كل جسم من الأجسام فيه مسام وهذه المسام بينها فتحات عظيمة جدا بالنسبة للذرات المتلاصقة فهل تستبعد أن يكون للذبابة أربعة آلاف عين ، وماذا تقول إذا أخبرتك أن هناك حشرة تعيش على العليق كبيرة الحجم تكون عيناها مشتملة على عيون صغيرة تبلغ (٢٧) ألف عين. فقال هذا كله زيادة في الاستغراب وأن ماذكرته لايفيد إلا إمكان الحصول ، وفرق بين الممكن حصوله وبين الموجود الحاصل فعلا . فقلت هل لك أن أقص عليك قصصا يناسب حديثي معك الآن، ومنه يتضح المقام ويصير الغائب عنا الآن كالعيان . فقال: حبا وكرامة . فقلت :

(محاورات بين المؤلف وبين بعض المدرسين بوزارة المعارف أيام الامتحان)

لقد كنت يوما جالسا مع بعض الرفاق بعد العصر أيام الامتحان بقصر درب الجماميز وذلك كان في امتحان آخر السنة لإعطاء التلاميذ الشهادة الابتدائية والثانوية كالمعتاد كل سنة، فقال لي قائل منهم وذلك في سنة ١٩١٥ تقريبا : انظر إلى هذا الغصن وأوراقه البديعة المنمقة الحسنة الشكل . إن بعض الإخوان يقول إن نظامه أجمل من نظام النمل الفارسي لحسن الاتقان . أقول ولقد كنت قبل ذلك ألفت كتبا وكتبت في بعضها أن عين النحلة مركبة من مائتي عين لأني كنت رأيتها في كتاب صغير من الكتب الإنجليزية التي يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية . ولقد كان هو وبعض الإخوان اطلعوا عليه فأرسلوا هذا ليحادثني هذا الحديث حتى أذكر ذلك فيكون سببا في الأخذ والرد والقدح فيما أقول كما هي العادة في كل الأمم في أمثال هذا الشأن . فلما قال ذلك أجبته . كلا ياصاح . فقال : وما البرهان . فقلت : أولا إن الحيوان أرقى من النبات ، ثانيا إن عين النحلة مركبة من مائتي عين . فقال أيها الإخوان من منكم يعرف أن عين النحلة مركبة من مائتي عين ؟ فقالوا جميعا : كلا لانعرف ذلك . فقلت أنا قرأتها في كتاب إنجليزي . فقال يافلان يا فلان هل قرأتها وأنت في انكلترا . فقال : كلا ثم كلا ، وهذا غير معقول وصارت هذه حديث القوم في ناديهم وسمرهم وطاروا بها فرحا يتغنون بها ويفخرون ويفرحون إذ أظهروا خطأ في بعض هذه الكتب . فقلت لهم: يقول الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر » فتوجهت إلى أكبر مدرس في (مدرسة الزراعة) بحلوان فأحضر عين النحلة ووضعها تحت النظار ورأيت بعيني رأى تلك العين عبارة عن أعين أشبه بأعين الغربال أقل عدد لها مئتا عين ثم قرأ أمامي ما كتبه علماء النمسا والألمان في القرن العشرين وأنهم حللوا كل عين تحليلا تاما وشرحوها فوجدوها عيونا مستقلة تامة الاستقلال . إذن تكون النحلة لها (٤٠٠) عين على الأقل ، فلما تم ذلك ألفته في رسالة اسمها (رسالة عين النحلة) ومستقرها في (سورة النحل) مع قصتها المذكورة بهيئة أدبية وترى هناك شرحا لها وافيا ونشرت هذه الرسالة في الجرائد وقرئت أمام محفل للمدرسين فسكتوا الحقيقة أجمعين . وأذكر أن أرفعهم مقاما وعلماء وقد تعلم في ألمانيا قد كان خاطبني قبل ذلك منكرا هذا الرأى، فقلت له هو في الكتب الألمانية والنمساوية والإنجليزية فقال كذب الأوروبيون، فقلت هلم معي إلى (حلوان) فإن مدرس العلم مستعد لمقابلتنا هناك ، وهو يريك عين النحلة فهنالك سكت واعتذر وبعد ذلك ألفت الرسالة وقرأها واحد منهم عليهم أجمعين كما تقدم .

فقال صاحبي: هذا عجب ولكني أريد أن أعرف في أى كتاب رأيت أن عين الذبابة مركبة من أربعة آلاف عين فقلت هي تقرأ الآن في مدارس الشرق والغرب لاجدال فيها، وهي الآن تدرس في مدارسنا في الكتب المنشورة بين أيدى تلاميذ المدارس باللغة الإنجليزية في (كتاب الانشاء) . فقال: ياعجبا كل العجب وكيف يعرفها التلاميذ ويجهلها المدرسون . فقلت إن المدرسين صرفت أبصارهم عن أمثال هذا ، فهي في الكتاب أمامهم ولكنهم يحقرون النظر إليها والتفكر فيها . ألم تر أن السلفين يقرءون صباح مساء

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وهكذا حتى إن شيوخ الصوفية قد أمروا تلاميذهم بقراءة آيات دالة على أمثال هذا النظر مثل قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك » الخ ، ونحو « شهد الله أنه لا إله إلا هو » ومثل قوله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » الخ . ثم يأمرون تلاميذهم بذلك ومع ذلك لاهم ولا تلاميذهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض . فقراءة الكتاب وحفظه غير حب العلم وعشقه . ألم تر إلى ماتقدم فى قول الشيخ المنباغ [ليس المدار على أن ترى الجمال وإنما المدار على أن تؤتك الادراكية تذوق الجمال] فالنظر للجمال شىء ، وذوق الجمال شىء آخر ، فكثير من أمم الشرق اليوم حجبوا عن إدراك الجمال أى ذوقه ، وذلك لأسباب طارئة وعوارض حاجبة قال تعالى « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » فهذا حجاب مستور مسدول على هذه العقول ، وهى متى أزيلت حجبها المسدولة عليها أدركت الجمال وارتقت إلى حال الكمال . فقال : إذن كأنك تقول إن هذه الآية وهى قوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » تدخل فيها هذه المعانى كلها ، وأن الله أنزلها ليوقظ الأمم لقراءة الذباب والحشرات وكل حيوان ونبات . فقلت : نعم ، أنا أقول ذلك والله عز وجل لما أنزل الآية أراد هذه المعانى وأراد معانى لم تصل نحن إليها الآن وهذا فتح باب لرقى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المقدس لأنهم متى علموا أن عناية الله بذكر هذه الحشرة موجهة لهم هم أخذوا يتنافسون ويجدون فى العلوم والحكمة ويستفيدون بقراءتها ويفرحون بدراستها وأن الأمم التى حولنا فى الشرق والغرب جميعا يقولون [إن الرجل لايكون رجلا نافعا لأمته كاملا إلا إذا درس هذه العوالم وأشرب قلبه حب حكمها وأدرك بدائعها . فهنالك يسمو بفكره إلى النظام العام فى العالم ويرقى أمته لأن عقله قد أشرب النظام والجمال فصار الجمال من طبعه بما اكتسبه من النظر فى العجائب ، هنالك يشرق من قلبه ولسانه ويده نور العرفان والعدل وإسعاد أمته] . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال صاحبى : ومامناسبة قوله تعالى « ما قدروا الله حق قدره » فى مسألة الذباب والأصنام ؟ . فقلت : هذا ظاهر واضح لأن قدر الله إنما يعرف بصنعه لا بصنع البشر أصناما وليس الذباب أعجب شىء فى صنعه وإذا كان الأدنى من صنعه فيه عجائب كثيرة فكيف بالأعلى ؟ . فاذن الناس لايعرفون قدر الله ولا عظمته ماداموا يجهلون صنعه وإبداع نظامه . انتهى .

(الدود والجنادب والذباب والحشرات والأصنام)

لقد اعتاد الناس فى القرى ببلادنا المصرية أن يضعوا على اللبن ملحا ويسمونه (مش) ويبقونه فى القدور أسابيع وقد سدوها سدا محكما وقد وضعوا مع هذا المش جبنا فإذا فتحوها وجدوا هناك ذبابا كبيرا فى جو القدر ودودا فى نفس المش فلا يفكرون فى ذلك الدود ولا فى الذباب من أين جاء ؟ وإذا سألتهم من أين جاء الدود قالوا لك بلسان واحد (دود المش منه فيه) وهذا مثل جرى على ألسنتهم وهو خرافة لاحقيقة لها وهكذا يجد الناس اللحم المنتن فيه دود فيظنون أنه كالمش أيضا ودوده منه وهكذا .

واعلم أن الله عز وجل أكثر من هذا الذباب وجعله كأنه سياط يضرب به أهل الأرض ليستيقظوا من الجهالة لاسيما المسلمين . إن هـذا الدود هو الذى فقس من البيض الذى وضعه الذباب فى المش المذكور وفى اللحم وفى كل منتن من الطعام ثم يصير هذا الدود جندبا أو (شرنقة) ثم تصير ذبابة تامة (انظر صورتها فى الصفحة التالية . شكل ٨) .



(شكل ٨)

(١) الحشرة التامة (٢) والشرنقة التي تراها كأنها محنطة ملفوفة فى كفنها (٣) الدودة تتغذى وتنمو لعل المصريين القدماء اقتبسوا تحنيط الجثث من هذه الحشرات .

إن الله عز وجل أرسل هذه الحشرات بين أيدينا ومن خلفنا تنغص علينا العيش وتذيقنا الأمراض الوبيلة لندرس هذه الدنيا كأنه يقول لنا : أيها الناس هذه الحشرات خلقتها فى الرمم وألهمتها أن تضع بيضها فى طعامكم وشرابكم تشاهدونها كل حين فتظنون أن القاذورات التى تعافونها وتأبون النظر إليها قد خلقت منها حشرات طائفات عليكم تعطيكم الدروس وهى ذات ألوان زهية باهرة : مابين أزرق زاهر وأبيض يقق وأخضر ناضر وأصفر فاقع وأحمر قان وذهبي اللون وعقيقية وبنفسجية . أفلا يبهر عقولكم أيها الناس هذا الجمال ؟ أنا اشتققته من الرمم البالية والقاذورات المنبوذة الكريهة الرائحة والطعم واللون وهذه الحشرات عوالم أعداد أنواعها أكثر من مجموع أنواع الحيوان ، وأنتم لم تعرفوا منها الآن إلا نحو (٢٠٠٠٠٠) وربما تكشفون فى المستقبل ألف ألف نوع ، وكلها تتقلب فى الأدوار الثلاثة السابقة . فبينما ترونها دودة لدنة الملمس تنسل بين التراب والأعشاب إذا هى جندب صلب القشر يثب وثبا فاذا هى فراشة ذات أجنحة ذات لون بهيج والدود قد يأكل التراب ويهضمه ، ولكن الجندب والحشرات لا تهضم إلا الأعشاب ، ومثل الذباب فى نشأته بين القاذورات الجعلان والعناكب والخنافس والنحل وقد قدروا أنواع الخنافس وحدها (٨٠٠٠٠) نوع .

ولما كان أمر هذه المخلوقات عجيبا بديعا رأى قدماء المصريين تقديس الجعلان (جمع جعل) لهذا ولما لها من مزايا أخرى كأن تضع بيضها فى كرة وتدحرجها مرات حتى تكمل العمل فيها ومنها يخرج صغارها وقد جعلوها رمزا للخصب ورسموها فى كتاباتهم على (البابيروس) ونقشوها على الهياكل وصنعوا لها التماثيل وكانوا يصلون لها . إذن كان المصريون أولا يجعلونها دلالة على جمال الحكيم المبدع وقدرته ثم تناسوا ذلك وعبدوها هى ، إذن هناك مناسبة بين ذكر الذباب الذى يعيش فى الرمم البالية وبين الجعل الذى هذا وصفه فكلاهما دلالة على مبدع هذا الوجود حتى عبده قوم ، ولا جرم أن الحشرات ومنها الذباب المذكور فى الآية أبدع من الأصنام وأرقى منها ، وكلاهما بالضعف موصوف ولكن أحدهما أضعف من الآخر فكيف عبدوا أضعف الضعيفين ، إذن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أكثر سخافة ممن عبدوا الجعلان ، وهؤلاء وهؤلاء فى الجهالات سيان ، فلتقرأ الأمم جميعها نظام الخليقة وبدائع الخلقة ليعرفوا الصانع بصنعه والحكيم بفعله

«وفى ذلك فليتنافس المتنافسون» . ولقد اطلعت على جملة فى عجائب الحشرات فرأيتها توضح ما نحن بصدده أيضا من كتاب [علم الدين] فأحببت ذكرها لجمالها وحسن نسقها، وهاهى ذه :

إن الحيوان يخلق أولا فى صورة ثم يتغير وينقلب إلى صورة ثانية ثم إلى ثالثة وليس التغير خاصا بالصورة بل يعترى الطباع والأحوال أيضا حتى لا يبقى فيه شىء من أحواله وطباعه الأولى فتراه يكون فى أول مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسبة فى قاع البحر مستورة بما فى قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة وأراد الانخراط فى سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعند ذلك ينخلع عن ثوب الديدان ويتحلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الألوان ذات أجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها فى الهواء إلى حيث يشاء . فانظر كيف خرجت هذه الدودة الثانية عن ذاتها الأولية إلى صفة الحيوانات الهوائية ، وبتغير صورتها كما ذكر تتغير جميع طباعها وأحوال معيشتها واحتياجاتها وسائر حالاتها، وبعد أن كان غذاؤها مما فى قاع البحر من الحشيش ترعاه دائما ولا تمله ولا تستغنى عنه صارت لا تهواه ولا تقربه ، كما أنها بعد أن قضت مدة حياتها الأولية تحت الماء فى الطين صارت لا تحب إلا فضاء الجو ونسيم الهواء تمرح فيه وتعيش به ولا تألف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلفت أن تقيم تحته لحظة لهلكت فى الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الأولية وكذلك أمثالها من الحيوانات التى تتغير طباعها وأشكالها، فإن الحيوان ذا الأجنحة الزمرذية الذى تسميه العوام (بالجعران) وكان المصريون يعظمونه أصله من دودة تدب فى بطن الأرض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه، وكان الأقدمون يجهلون ذلك إلى زمن (أرسطو) وهو أول من فتح باب البحث فى هذه المسألة إلا أنه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الأمر على ذلك إلى هذه القرون الأخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر أن الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردا عن الأجنحة فى هيئة دودة صغيرة ثم يأخذ فى الكبر وازدياد الحجم يأكل بعض الحشيش وغيره من المواد الأرضية حتى إذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار فى مقره كأنه قد مات ودفن فى قبره فيبقى كذلك مدة تنعدم فيها جميع الأحوال الدودية بتدبير إلهى لا علم لأحد به ثم يظهر بعد ذلك فى صورة أخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة (بفرقع لوز) وقد شوهد أن الدودة فى حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ملتفة فى مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرمم الموتى التى ترى فى قبور الأقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا الكفن وخرجت منه وصارت فى الصورة الجديدة ، ومن الغريب أن هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذى صار قبراله من غير أن يحصل لأعضائه الدقيقة أدنى خلل ، وكثيرا مايكون هذا القبر مركبا من [ثلاث طبقات : الأولى] مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزلق المطر من فوقها [والثانية] من مواد ألطف من الأولى شديدة الامتزاج ببعضها وهى لوقاية الجسم من العوارض الجوية [والثالثة] هى الثوب أو الكفن الذى تقدم ذكره . ومن نظر فى الحيوان المعروف بأبى دقيق وتتبع أحواله وأشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها إلى ثلاث حالات ليس بين واحدة منها وبين الأخرى مشابهة البتة حتى يظن أنه يموت ويحيا ثلاث مرات مع أنه فى الواقع ونفس الأمر ليس كذلك وإنما يعتريه سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلاتها الخفية بالانتقال من الصورة الحالية إلى الصورة الجديدة فالدودة من أصل خلقتها مشتملة على جميع مايلزم للصور التى تتحول لها وتنقلب اليها فكأنما هى فى ثلاثة أثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ماتحته فتبقى فيه ماشاء الله ثم تخرج منه وهكذا حتى تظهر فى الهيئة الأخيرة فتبقى عليها إلى أن تموت بها، وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغير صورته ماقدمنا

ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغيرات والتبديلات وإنما ينتقل من صورة إلى غيرها بتمدد أعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها ينتقل إلى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير أن تظهر عليه حالة السكون المذكورة، وإنما تتم صورته الدودية بعدم وجود الأجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق.
ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورمم الأسماك فإذا تحول إلى الصورة الأخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش إلا زمنا قليلا لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد أن تبيض الأنثى منه بيضها، فمن تأمل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها أو رآها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد أشكالها وألوانها وصورها واختلافها في كبرها وصغرها وأنعم النظر فيما تظهر به وتتجلى فيه من المنظر البهيج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالألوان العجيبة، أذعن بالربوبية لخالقها ومبدعها القادر المعظم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه وحوله وقوته، فما معلومات الإنسان ولو امتد به الزمان بالنسبة لمعلومات الله سبحانه إلا كنسبة المعدوم إلى الموجود، فكيف يطلع على كنه هذه الأسرار أو يستخرج جوهر هاتيك البحار؟ إلا إن أمده الله بإعانته وشمله بحسن عنايته. انتهى ما نقلته من كتاب [علم الدين].

﴿ محاضرة على هذه السورة في قوله تعالى «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له» الخ ﴾

في هذا اليوم وهو الثالث من جمادى الثانية سنة ١٣٤٣ هجرية أي بعد إتمام السورة بيوم واحد قابلني أحد علماء الأزهر فسمع بعض هذه الأقوال في قوله تعالى «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له» فقال إني أريد مناسبة بين المثل وبين ما ذكرته من العلم وكأنك جعلت ذكر الذبابة موضوعا وكتبت عليه، وإلا فالآية ليس فيها إلا شيء واحد، وهو احتقار الأصنام التي كان أحقر المخلوقات يسلبها، وكانت تلك المحاضرة بجوار الجامع الأزهر بحضور الطلبة الجاويين، فقلت له: إن فيما كتبته ما يقنع بأن ذلك مناسب للآية، وإن أردت إلا الزيادة عليه فهاك ما به يتضح المقام:

(١) قد قدمت هنا أن الله قال «فاستمعوا له» فاستمعنا وقلنا لابد أن تكون هناك أمور وراء المثل المشهور، وهذا كاف في البحث في الذبابة وما تبعها.

(٢) أننا إذا سمعنا المثل فلنبحث في جميع أطرافه وهي هنا الأصنام والذباب، وصفت الأصنام بالقوة والذباب بالضعف فلما بحثنا عن الذباب الذي وصفه الله بقوله «وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه» دعانا ذلك إلى البحث في تشريح الذباب وقوته وعيونه التي سيأتي ذكرها في (سورة النمل) وفي مهارتها في ذلك ثم في مضارها للإنسانية ومناقصها وليس ذلك بدعا فإنا نقول إن عادة العرب أن يسترسلوا في موضوع كهذا، ألم تر إلى امرئ القيس في معلقته كيف وصف القفر الذي قطعه بأن فيه ذئبا وذكر في الذئب بيتين ونصف بيت فقال إنه يعوى وإنه لما عوى قال له امرؤ القيس أنا وأنت شأننا قليل الغنى وكل منا إذا نال شيئا أفاته ثم ذكر الحصان ووصفه بصفات بلغت نحو ١٧ بيتا، وترى طرفة بن العبد وصف ناقته في ٢٩ بيتا في معلقته، وما هي الناقة؟ يقول إني أمضي الهم عند احتضاره بركوبها ثم استمر يصفها، وترى لبيد بن ربيعة العامري في معلقته يصف الناقة التي يركبها بنحو ١٤ بيتا. ثم يوازن ما بينها وبين البقرة الوحشية بنحو ١٧ بيتا فهذه كلها (٣١) بيتا كلها مذكورة لأجل الناقة، وعمرو بن كلثوم يصف محبوبته في نحو عشرة أبيات وهكذا مما لا حصر له، فإذا كنا نرى العربي القح صاحب اللسان الفصيح يذكر الذئب في عرض الكلام فيصفه ويذكر الناقة وهي ليست محبوبته ولا مقصوده فيصفها وصفا عجيبا وأكثره خيالي مبالغ فيه، ووصف

البقرة الوحشية التى جعل ناقته أفضل منها جريا وأكثر فى شرحها لماذا ؟ لأن لها علاقة بناقته من حيث إن الناقة أفضل منها ومتى كان المفضل عليه أشرف كان المفضل أكثر شرفا وهكذا ، فاذا كنا نجد اللسان على هذا المنوال وقد وصفوا ماجاء فى عرض الكلام وأطنبوا وصفا ليس له فائدة إلا تسلية العقول وحسن القول وإذاعة الفصاحة وأن يقال إن الشاعر بارع وبراعته فى اختراع المعانى الدالة على اطلاعه على أمور كثيرة أفلا يسوغ لنا أن نصف الدبابة التى ذكرها الله وصفا لامبالغة فيه وهو حقائق صادقة وليس المقام مقام بلاغة فحسب بل المقام مقام أمم ترتقى وتعيش وتأخذ حظها من الوجود ، فاذا كان أهل اللسان وهم أجدادنا هكذا يفعلون لمجرد التسلية ووصف الشاعر بالبلاغة وتحدث الناس فى مجالسهم ليكون تسلية لهم ومضيعة لوقتهم فوالله لنحن أحق بأن نعطر المجالس بعبير الرحمة الإلهية التى تفيض على من يقرأ هذا الكتاب وينظر فيرى آثار رحمة الله وليس يكون ذلك تسلية لمجالسهم فحسب . كلا بل هو إنعاش لمدنيتهم وترقية لأممهم وإخراجهم من الذل إلى العز .

علم الله قبل نزول القرآن أن أمم العرب من شأنهم فى قولهم هكذا فأنزل القرآن وضرب الأمثال وهو «ثم إن علينا بيانه» فلعمرك إن هذا من بيان القرآن فلنصف الدبابة كما وصف امرؤ القيس ، ومن على شاكلته دوابهم لأدنى مناسبة ، ثم قلت بعد ذلك على أنه لو لم يكن ذلك فرضا فليكن من الفكرة العامة فى القرآن وهو التفكر فى كل شىء كما قدمنا فى هذا التفسير فالدبابة لم تخرج عن كونها مما أمر الله بالنظر فيه . أليست مما فى الأرض . لهذا ننظر ونفكر .

﴿ نمط آخر فى المحاضرة ﴾

ثم قلت وإذا كنا نرى الدبابة تستلبنا ماعلينا ومابين أيدينا وتجعل الطعام الذى أمامنا قذرا وتضع بيوضها فى عيون أبنائنا وفى لبننا الذى نضعه فى الجرار وهذا اللبن إذا غطيناه مدة أشهر ورفعنا الغطاء عنه لنأكله كما هى عادة بعض الفلاحين فى مصرنا ويسمونه (مش) فانا إذ ذاك نجد ذبابا كبيرا يعيش فى جو هذه الجرة وهو لم يسمع عن الدنيا ولا نظرها وما هذا الذباب إلا الذى أفرخ فى هذا اللبن وأصله كان دودا والدود كان أصله بيضا والبيض كان من الذباب والذباب كان ينزل على اللبن لتفريط الناس فى متاعهم ، وإنما أنزل على اللبن أو على أعين أولادنا لأن الله هو الذى علمه . علمه أنه لايضع البيض إلا فى مكان صالح والمكان الصالح هو الذى فيه غذاء له فتخرج أولاده فى اطمئنان وسلام فى بيوتنا ومنازلنا أكثر من اطمئناننا نحن على أبنائنا فانا لاندرى ماذا تعمل الفرنجة فيهم غدا ولا ندرى ماذا يراد بهم ولم نعمل ماعملته الدبابة ولم نحافظ عليهم .

هذه هى القراءة التى يقرؤها المسلم فى الذباب ويقرأ المسلم أيضا فوق ذلك فيقول إن (أبا دقيق) المتقدم ذكره والنمل والنحل والزنابير لها صفات ولها منافع ولها أحوال وهكذا بقية الحيوانات وكذلك الحيوانات الدقيقة المسماة (بالمكروب) التى تسطو علينا فتقتلنا وتمرضنا وتمرض أبناءنا بالحمى والجدرى وهى التى لم يعرفها الناس إلا فى هذا الزمان ، فكل هذه حكمها حكم الذباب لها منافع ولها مضار ، فيالله ويالله ويالعجب يارسول الله انظر أمتك . انظر أمتك يارسول الله بعد ألف وثلثمائة سنة من الذى ينظر فى شئونهم . تنظر فى شئونهم أهل أوروبا فهم والله الذين يدرسون (علم المكروبات) وعلوم الأمراض ويقولون الطاعون له دواء كذا . ويحللون تلك الأمراض . ولقد جاء رجل ألمانى إلى مصر قبل الحرب وهو الذى نشر هذه العلوم فيها انتشارا مضيقا عليه لسيطرة الأجانب على البلاد ، فهل يجوز فى شرعة الإنصاف أن يجهل المسلمون هذه المضار . أليس الذباب وغير الذباب يعبث بحياتنا ويقتل المكروب أى الحيوانات الدقيقة التى لانرى إلا بالمكرسكوب آلافا وآلافا من أبنائنا ونحن لا نعرف بل لا نصدق أن العلم ينفع وأوروبا تفوقنا وبالله ما الفرق بين

الأصنام وبين الأمم النائمة التى سلطت عليها الهوام والحيوانات الدنيئة ، لم يسلط علينا الذباب فقط بل سلط ماهو أنقص من الذباب ونحن لاندرى أن الله خلق شيئا من ذلك . لالا بل سلط علينا الحيوان ونوع الإنسان فنحن تحت تأثير الحيوانات ولا ندرى أنها تؤذينا بل لاندرى أنها خلقت ، ولا ندرى أن الجدرى والحصباء والطاعون والحمى كل ذلك بجنود يرسلها الله من الحيوانات التى عرفها الناس والمسلمون نائمون . حيوانات حية تعيش وتلد وتموت ويا ليتها تسلبنا الطيب كما سلبت الأصنام ولكنها تسلبنا أبناءنا وزرعنا ولما ضعفنا وجهلنا سلط الله علينا أوروبا لتقوم بأمرنا وتأخذ الثمن أن تستعبدنا ، فهذا هو مافهمته فى قوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله » وحاشا لله أن أقول إن معنى الآية هذا ولكن أقول إن هذه المعانى رمزية ولا غضاضة فى ذلك . فالكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه فالمعنى فى الآية على حاله ولكن يجاء بالمعنى الآخر تبعا ويكون هو المقصود ، والحمد لله الذى جعل فى الأمة علم البيان ليرجع إليه من لم يكفه ما نقول :

فإذا بقى المسلمون مستسلمين لليأس وقعدوا عن العلم والعمل فهم ـ والعياذ بالله ـ باقون على التقليد وتكون آراؤهم العتيقة المحصورة كأنها معبودة لهم لعدم انحرافهم عنها . ولعمرى ما ذمت الأصنام إلا لأنها قيد للأفكار ، ولقد تقدم القول أن عبادة غير الله عبادة للأهواء ، فتكون النتيجة أن من اتبع هواه فكأنه عابد له . فعبادة الأصنام ترجع لعبادة الهوى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

فإذن المسلمون هم الذين قيدوا الدين وهم إذا سمعوا قوله تعالى « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » قالوا هذا حق ، وإذا قيل لهم انظروا فى بقية المنافع فإن الله سخر لكم وما فى الأرض جميعا ولما علم أن علمنا قليل قال « ويخلق مالا تعلمون » يريد بذلك أن نعلم ما نجهل ويدل عليه « وقل رب زدنى علما » . إذا قيل لهم ذلك يقولون لا لا هذا حرام هذا خارج عن الدين لا يبحث القرآن عنه وأشياخنا وكتبنا لم تقل ذلك . فلنقل لهؤلاء : أيها الناس إن الأمم إذا طال عليها الأمد قست قلوبها والأمة الإسلامية المسكينة حصل لها اليوم ما حصل للأمم السالفة . إن القسيسين فى أوروبا كانوا يتحكمون تحكما أدى إلى التهلكة والقرآن ضربهم ضربة دوخت رؤساء الدين وشتتت شمل تلك العقائد والتحكم فى الأعراض والأشخاص والملوك كما تقدم فى قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وأمتنا المسكينة محبة لدينها ولكن طرأ عليها ملوك وأمم أذلوها من بنيها ومن خارجها وذلك فى نحو سبعمائة سنة وها هى ذه تريد أن ترجع مجدها ورجوع مجدها بالإسلام أسرع من رجوع مجد أوروبا الذى ظهر فى نحو ثلثمائة سنة ونحن لا يجوزنا هذا الزمن كله وسيكون رقى المسلمين فى نفس هذا القرن لأنهم أقرب إلى الرقى . فقال أحد الحاضرين أوضح ما ذكرته من علم الحيوان فى أواخر السورة بمناسبة الذباب . فقلت إنى قد ظهر لى العجب فى هذه الآيات بعد تمام تفسير الآية . فقالوا وما هو العجب ؟ قلت أرأيتم قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق » . قالوا هذه أول آية نزلت . قلت انظروا وتعجبوا . ألستم تعلمون فيما ذكرته أن العلقة إحدى الحيوانات التى تقدم شرحها ؟ قالوا بلى . قلت أو لستم تعلمون أن الله يقول « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . قالوا بلى . قلت أو لستم تعلمون أن العلم الحديث جاء فيه أن جميع حيوانات البر على مايظنون كانت فى البحر ثم انتقلت إلى البر وإن كانوا لايحسنون أن يعللوا كيفية ذلك . قالوا بلى قد فهمناها الآن . قلت نعم إن الضفادع تخلق فى الماء وتعيش فيه فى صغرها فإذا كبرت خلق الله لها رئة وجعلها من ذوات الدم البارد وأخرجها إلى البر وتنزل الماء فى بعض الأوقات إذا أحست بأدنى خطر وربما اختفت فيه نحو ساعة لاغير ولا تتحمل أكثر من ذلك وقد تكون فيه أمدا طويلا إذا صارت خامدة فى زمن الشتاء شبه الميتة فإذا جاء الربيع حييت .

قالوا وما تقصد بهذا ؟ قلت أقصد أن حيوان البر على مايقوله الطبيعيون كان فى البحر فيكون قوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شىء حى» أى أنه كله كان من الماء وهو أشبه بالضفادع والضفادع تكون لنا مثلا ضربه الله لنا ليعرفنا أنها كلها كانت فى الماء ولكن هناك نواميس لا نعلمها قد عملها لتلك الدواب فأخرجها إلى البر كما أخرج الضفدعة . قالوا حسن هذا ولكن ماذا تريد بهذا القول الآن ؟ قلت أريد أن أقول إن العلق من الحيوانات الأرضية الطينية وقد خلق الله الإنسان من علق ، فهو فى أول نشأته يشابه نشأة الحيوانات فى البحر فى قديم الزمان لأن جميع الأرحام مائية كأنها حفظت أصل الخلق وأنه كان من ماء . قالوا ثم ماذا بعد ذلك ؟ قلت قال العلامة (فون باير) حفظت جنينين صغيرين فى الكحول ونسيت أن أكتب اسم كل واحد منهما عليه واليوم يتعذر على أن أعرف من أى صنف هما أمن القواضم أم الطيور أم ذوات الثدى ؟ ثم إن أطرافهما لم تكن تكونت وهب أنها كانت فوجودها فى أول تكونها لا يفيد شيئا لأن أطراف القواضم وذوات الثدى وأجنحة الطيور وأرجلها متشابهة حينئذ ولا تختلف إلا بعد ذلك كما ترى فى مقابلة صور جنين الإنسان والكلب والدجاجة والسلحفاة . ويقول علماء العصر الحاضر [إن كل جنين صادر أولا من بيضة أو بزرة لا تختلف بناؤها الجوهرى ولا تختلف بعضها عن بعض إلا فى الحجم والشكل وهذه الخلية تنمو بالانقسام وأجنة الحيوان التى تنشأ من هذه البيضة تكون متشابهة فى الأطوار الأولى يصعب تمييز أجنة ذوات الثدى من أجنة الطيور وسائر أجنة الحيوان الفقرية] .

ويقولون أيضا [إن أصل الماهية العضوية فى نشؤ الإنسان علقة نووية مستديرة الشكل يبلغ قطرها ١ من ١٢٥ من القيراط فإذا ألقيت عليها نظرة بعين مجردة رأيتها نقطة صغيرة جدا وإنما تكون الخلية الأولى فى حال نتاج البيضة أو فى حال اختلاطها بمنى الذكورة] الخ .

فانظر رعاك الله إلى قول علماء العصر الحاضر إن الإنسان فى أصله علقة صغيرة وهذه العلقة تطورت أطوارا شتى فانتقلت من حال العلق إلى حال ذوات الفقار متنقلا فى أحواله من حال إلى حال أرقى حتى يصل إلى حال الإنسانية . وقد تقدم فى سورة (آل عمران) أن الفيلسوف (هيكل الألمانى) حاول جمع جميع الصور الحيوانية المتتابعة من أدناها إلى أعلاها كما قدمناها لك فوجد أكثرها فى صور الجنين ولم يجد باقيها وادّعى أنه وجدها كلها فأسقطه القوم . والمقام الآن هو أن الجنين يتطور فى بطن أمه من أدنى حيوان كالعلق متنقلا فى صور حيوانات أعلى من العلق إلى أن يصل إلى الإنسان وإن كان هذا لم يتم كشفه وهذا هو قوله تعالى « خلق الإنسان من علق » فما ذكره الله منذ ألف وثلثمائة سنة ذكر اليوم بنصه وفصه ، وقد علمت أن العلق يكون مبدأ لذوات الحلقات وتلك هى الحشرات وذوات الأرجل الكثيرة والعنكبوت . وهذا الخلق وارتقاء الصورة عن أصلها العلق إلى الصورة الإنسانية هو الذى سماه الله كرما إذ قال « يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذى خلقك . فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركّبك » .

عجبا للقرآن . يقول إن ربك أيها الإنسان كريم لماذا ؟ لأنه خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك ، فالتسوية وتنظيم الهيكل الجسمى كرم من الله ، فالله كريم ، لماذا ؟ لأنه سوّى صورنا لما خلقها فى الرحم وجعلها متناسبة وقاسها بمقياس عجيب كما تقدم فى هذا التفسير فهذا هو الكرم . ثم نرجع إلى سورة (العلق) فنراه يقول فيها بعد أن ذكر خلق الإنسان من علق « اقرأ وربك الأكرم » :

عجب ، هو هناك كريم . كريم لأنه خلق الإنسان من علق فسواه فعدله فى أى صورة ماشاء ركبه ولكنه هو أكرم . لماذا ؟ لأنه « علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » فالله كريم لأنه خلق الصورة الإنسانية

وخلصنا من الحيوانية التي مرّت عليها العلقة التي لا تصل إلى الإنسانية إلا بعد مرورها على صور شتى من الحيوانات وهو أكرم لأنه يعلمنا ويفتح المدارس ويفهمنا نظام الكون ويرفعنا إلى أفق الملائكة . فهذا معنى قوله تعالى « الأكرم » فهو كريم لاخراجنا من الصورة الحيوانية ، وهو أكرم لاخراجنا إلى الصورة الملكية بالعلوم والكتب .

(ملخص المحاضرة)

(١) سؤال من أحد علماء الأزهر [ما مناسبة علم الحيوان لمسألة الذباب] ؟

(٢) الإجابة [إن المناسبة تقدمت في السورة وافية] .

(٣) وأيضاً أن ذكر المثل يستلزم البحث في صفات الممثل به فلنبحث في صفات الذبابة ومنها أعضاؤها وقواها وعيونها .

(٤) ونذكر ما يناسبها من الحيوان كما فعل شعراء الجاهلية في معلقاتهم .

(٥) بل نحن أولى لأنهم كانوا يصفون لمجرد الخيال واللهو بالقول والتفاخر به ولا ينفعهم في سعادتهم .

(٦) وأيضاً الذبابة تسلبنا هي وحيوانات أخرى ما عندنا من الصحة وتورثنا أمراضاً كالجدري والحصبة وذلك بالمكروب . فهل نكون معها كالأصنام ونحن عقلاء .

(٧) إن ذلك يقصد بطريق الكناية والكناية من علم البيان وهو يدرس في جميع المدارس في مصر وغيرها .

(٨) والمسلمون إذا امتنعوا عن البحث في هذا فقد قيدوا الدين .

(٩) والتقييد بالتقليد أشبه بعبادة الهوى، وحاشا لله أن أقول إننا كفار ولكن أقول إننا نتبع الأهواء، وكفى بهذا ضلالا فاننا عبدنا أهواءنا وذلك فيه على الأقل كفر النعمة .

(١٠) وكفر النعمة قبيح جداً من المسلم .

(١١) إن في مسألة تشريح الذبابة واستخراج أنواع الحيوان منها سراً وذلك السر أن علماء الطبيعة يقولون إن الإنسان خلق من علقة وتلك العلقة التي نطقوا بها وكشفوها تساوي $\frac{١}{١٢٠}$ من القيراط وليس من المعقول أن أحداً من البشر شاهد هذه العلقة وكونه عدلها وسواها في أي صورة هو انتقالها إلى الإنسانية في الرحم .

(١٢) إن التعبير بالكرم في جانب تسوية الجسم . وبالإكرام في جانب الإنعام بالتعليم بالقلم باب واسع لارتقاء الأمة المحمدية وغيرها . يقول الله خلقتكم في صور مختلفة مرتقية في الرحم فلأرفعكم في صور روحية مختلفة في حال الحياة الدنيا بالعلم والمعرفة لتخرجوا من هذه الأرض كاملين وهذا أشرف .

ولما أتممت هذا القول سأل أحد طلبة بلاد الجاوة قائلا [فهل ترى أن العلم في الإسلام اليوم لايكفي وهل علم الفقه لايكفي للمسلمين وعلم التوحيد] ؟ قلت اعلم أن علم الفقه قد نفع الإسلام وحفظه للآن ولولا البيوع والميراث والهبة والدعاوى وما أشبهها وكذا الصلاة والزكاة الخ لم يكن للمسلمين جامعة ولكن هذه محافظة على الموجود . فقال مامعنى هذا ؟ قلت يسمع الفقيه قوله تعالى « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » الخ فيؤلف فيه علم الميراث وقد أحسنوا صنعا . ويسمع آية الدين فيؤلف فيه ويستوفيه . ويسمع « وأحل الله البيع » الخ فيؤلف في الربا والبيع . ويسمع « الطلاق مرتان » فيؤلف . ويسمع قوله تعالى « حافظوا على الصلوات » الخ فيؤلف . حسن كل هذا ولكن هذا محافظة على الموجود . ومعنى هذا أن المال الذي تصادف أن الناس جمعوه تحلون عليه القضايا ومنه قسم التركات ومنه الصدقات ومنه بناء المساجد

ومنه الدفاع عن البلاد الخ . ولكن إذا قيل لبعض العلماء لا كلهم لأن علماء الإسلام اليوم غيرهم بالأمس بل لم يبق من تلك الطبقة إلا القليل اقرأ « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » أو قيل له « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون » وإذا قيل له « وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون » الخ وإذا قيل له « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » وإذا قيل له « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » أى أن الله علم داود عليه السلام صنعة الدروع وهو يأمرنا بالشكر عليها لأنها تحصننا من الحرب وهذا يلزمنا أن نبحث فى كل مايحصننا من بأسنا . إذا صح هذا قال هذه أمور ليست فى علم الفقه ولا تدخل فى أحكامه وهذه ليس فيها شىء فهى تقرأ للتعبد وبها نعرف الله ومعرفة الله حاصلة عندنا . ونسى هؤلاء أن هذه الآيات تحتاج إلى علوم تشرحها ويعمل بها . وبالبحث فى العالم المشاهد تزيد ثروة المسلمين وبزيادة الثروة تكون التركات والصدقات والزكاة وما أشبه ذلك . فالذى يحكم فى الشىء وهو قليل هو الذى يحكم فيه وهو كثير والحكم على الشىء فرع عن وجوده . فالمتعلمون فى الإسلام أيام سقوط الدول الإسلامية أذلهم الملوك حتى ألزموا علوما خاصة واكتفوا بالفقه والتوحيد وتركوا الأمة حبلها على غاربها فحفظوا مائة وخمسين آية لأجل الأحكام ونسوا بقية القرآن الذى به العبرة لازدياد الثروة وارتقاء الشعوب وحفظ الأمم الإسلامية . فليكن بعض علماء الدين علماء نبات وبعضهم علماء حيوان وبعضهم أطباء وبعضهم علماء السياسة وبعضهم علماء اقتصاد مع إلمام كل واحد بالعلوم التى فى الدنيا الآن ومنها علوم الدين . وليجعل العلماء الأبحاث العميقة فى هذه المقاصد لا فى المقدمات كالعلوم العربية فإنه من العار أن يضيع التلميذ زهرة حياته فى مباحث وفى علل لا تنفع ويترك المسلمين أذلاء بين الأمم . هذا هو الذى سيخلقه الله فى الأمم الإسلامية فى المستقبل ، والله هو الولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فقال أحد التلاميذ إنى أريد أن أعرف إيضاح عبادة الهوى بطريق مختصر فإنى لم أفهمها . فقلت الأصنام عبدت بالهوى والنبى صلى الله عليه وسلم قال لما قيل له حين قرأ « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » يارسول الله ما كنا نعبدهم إنهم كانوا يشرعون لكم فتتبعون شرعهم فجعل اتباعهم عبادة لهم ، وهذا بطريق المجاز فالمعبود على كل حال الهوى . والمسلم إذا اتبع هواه وقد دله هذا الهوى على ترك مافى البحار من اللؤلؤ والمرجان وما على سطحها من السفن العظيمة وما على ظهر الأرض من المواليد الثلاثة وما فى باطنها من المعادن وقد أحاطت به نذر الأمراض بصغار الحيوان فكان الطاعون والتيفوس والتيفود الخ . وفوق ذلك الأمم القوية تفتك بالمسلم وهواه يقول له لايهم ذلك .

أفليس المسلم إذ ذاك كأنه عبد الهوى ؟ فالهوى كالصنم والذباب وغير الذباب من العاقل وغير العاقل المؤذيات له كالذباب فى مسألة الأصنام وما عنده من الأغذية والأموال كالطعام والطيب عند الأصنام . فهذا المثل منطبق تمام الانطباق . فالهوى فى أنفسنا لايدفع مايطرأ علينا من المصائب . فكل مايؤذينا فهو ذبابنا . وكل ما يقعد بنا عن المنافع فهو معبودنا والهوى مطلع على مانزل بنا وهو لايبدى حراكا كالأصنام فصار معبودنا العملى لأننا مؤمنون بالله ورسوله وندخل الجنة إذا كنا صالحين وهو الهوى . يرى الحرب فى ديارنا فيوحى إلينا أن توكلوا . ويرى خسارتنا فيقول لايهم ذلك فلايستحق الهوى الاتباع بل العبادة تكون لله وهو الذى يلهم العقول فتدفع الأذى عن الناس بالعلم . فكما أمر الكفار بنبذ الأصنام أمرنا بنبذ الهوى والتقليد الأعمى . وكما أن الأصنام لاتقدر على دفع الأذى فهكذا آراؤنا التقليدية لاتدفع عنا الأذى . وكما أن الكفار يجب أن يؤمنوا بالله ورسوله هكذا نحن يجب أن نوجه عقولنا للفهم من القرآن والقرآن يقول الله فيه « قل أعوذ برب الفلق » الخ فنستعيذ بالله من شر خلقه ، وإذا استعذنا به واتجهنا إلى فهم القرآن بعقولنا علمنا العلوم ومتى علمنا عملنا فأزال الله عنا شرا وباد شر الحيوان وشر أنفسنا كما بيناه .

فبهذا انطبق المثل تمام الانطباق من حيث جوهر المعنى وهذا هو المعنى المهم الذى نزل له هذا المثل وهو وأمثاله السبب فى قوله تعالى « فاستمعوا له » فالهوى عندنا يقول بامسلمون لا يهمكم شىء ، وعلماء الفرنجة يقولون يهمنا كل شىء . ألم تر إلى العالم الفرنسى (بول برت) المذكور سابقا فى كتابه المسمى (العلوم الطبيعية) الذى ترجمته زوجته إلى اللغة الانجليزية حيث قال فى أوله [إنك أيها القارئ سيسرك هذا التاريخ الطبيعى وستعلم بأى طريق تفيدنا تلك الحيوانات وبأى طريق تضرنا وتحدث فينا خطرا وليس الأمر قاصرا على المضار والمنافع بل إنك تعلم أننا نحن باعتبارات كثيرة نشبه الحيوانات لاسيما إذا لاحظنا تركيبنا الداخلى فاننا نعلم أن لنا قلبا له ضربات فى صدورنا ورئتين بهما نتنفس ومعدة وحواس كالأعين التى بها نبصر والآذان التى بها نسمع . وإذا صادف أنك نظرت إلى مشرحة الجزار أو رأيت مصادفة أرنبا مذبوحا مثلا فانك ترى أن الثور والخروف والخنزير والأرنب فى نظامها وترتيبها الداخلى بينها وبين الانسان مشابهة قليلة وكثيرة . وعلى ذلك إذا نحن درسنا الحيوان بتتابع ونظام فما درسنا إلا أنفسنا وكلكم تعلمون كيف يكون ذلك لذيذا وسارا] انتهى .

هذا كلام العالم (بول برت) فقال بعض التلاميذ هذا كلام إفرنجى وزوجته المترجمة للكتاب بالانجليزية قلت نعم . قال فمتى يكون المسلمون على هذا النمط . قلت فلينتشر فى الاسلام أمثال مايكتب فى هذا التفسير وغيره بطرق مناسبة ، فقال آخر : هذا القول هو عين قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وكأن قوله تعالى « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع » الخ إذا درسناه فقد درسنا أنفسنا ، قلت نعم فدراسة هذه العلوم لدفع المضار ولجلب المنافع ولدراسة علم التشريح لأجسامنا . هذا ملخص مامضى حتى إن دراسة الذبابة المتقدمة دراسة لأنفسنا ؛ وأنا بصفتى مسلما أقول وهناك أمر رابع وهو حب الله والارتقاء والوصول إليه بالطريق العلمى وعلم التوحيد فيكون لنا أربع منافع بل خمس ، والخامس أن ترقى العقول الإسلامية كما ترقى عقول البشر بهذه العلوم ولذلك لما دخل الفرنجة بلادنا المصرية منذ (٤٥) سنة منعوا هذه العلوم عن المصريين ليحصروها فى الجهالة ، وقد كانت قبل ذلك فى مدارسنا حين كنا مستقلين لأن علماءهم أفهموهم أن تعليم الأمم المحكومة يجعلها مدركة الحقائق فتطرد المستعمرين وهذا شأن الغاصب مع صاحب البلاد ، وإنى أنصح المسلمين جميعا أن يعرفوا هذه العلوم ويقرءوها لينفعوا أممهم ويطردوا عدوهم ويرضوا ربهم والحمد لله رب العالمين ، انتهت المحاضرة وبها تم تفسير (سورة الحج) .

﴿ تذكرة ﴾

قد اطلع بعض الفضلاء على جملة فى هذه السورة تحت عنوان [مسامرة فى قوله تعالى « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها » الخ ، فقال إن القول فيها قد طال جدا وكثر الأخذ والرد فماذا تقصد ، فقلت إن القول هناك تام . قال ولكن فى الاعتراض عليك أظهرت الحماسة وفى رد الاعتراض لم تظهر مثلها . قلت إن ملخصها أن بعض الحجاج أخبرنى أنهم فى أيام (منى) يذبحون القربان ولا يعطونه للفقراء وبهذا يكون المرض فالموت فقلت لهم ماملخصه إن هذا حرام فى ديننا بدليل أن الله يقول « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » . إذن المقصود من القربان الإطعام لا أنه يرمى فوق الجبل ويعفن الجو ، وبدليل قوله تعالى « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » وكيف يكون الشكر على رمم تؤذينا وسماها الله رزقا فهل الرزق هو الرمم للقمامة ، وقال أيضا « وأطعموا البائس الفقير » فأمر سبحانه مرتين بالإطعام والأمر للوجوب ، إذن تركه على الجبل بدون إطعام الفقير منه حرام بنص الآية ، فقال الآن فهمت اهـ .

وقد بلغنا من بعض حجاج سنة ١٣٤٦ أن الحكومة الحجازية منعت هذا الضرر فالحمد لله .

﴿ وبهذا تم الكلام على سورة الحج ﴾

سورة المؤمنون مكية وهى مائة وثمانى عشرة آية

سنذكر مناسبتها لما قبلها فى لطائف المقصد الثانى منها وهى [ثلاثة مقاصد] :

[المقصد الأول] من أول السورة إلى قوله « وعليها وعلى الفلك تحملون» وهو فى خلق الإنسان ونظام هيكله والنبات والحيوان .

[المقصد الثانى] من قوله تعالى «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه» إلى قوله «إلى ربوة ذات قرار ومعين» وهو قصص بعض الأنبياء .

[المقصد الثالث] من قوله تعالى « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات » إلى آخر السورة وهو خطاب عام للرسل ونتائج الرسالة وأدلة ونصائح مختلفة .

(المَقصِدُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ • فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ • أُولٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ • الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ • ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ • وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ • وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ • فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ • وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ •

(التفسير اللفظى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« قد أفلح المؤمنون » أى قد نجا وفاز وسعد الموحدون المصدقون (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) مخبتون متواضعون لا يلتفتون يمينا ولا شمالا ولا يرفعون أيديهم فى الصلاة وهم يجمعون الهمة ويعرضون عما سوى الله بقلوبهم ويتدبرون فيما يجرى على ألسنتهم من القراءة والذكر ، فهم على ذلك لايفرقعون أصابعهم ولا يعبثون فيها . ومن لوازم جمع الهمة وتدبر القراءة أن لايعرف من على يمينه ولا من على شماله (والذين هم عن اللغو معرضون) عن الباطل والحلف وعن كل مالا يعنيهم وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل منصرفون . ذلك لأن لهؤلاء من الجد ما يشغلهم فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شىء إلا عن الخالق وفى خارج الصلاة معرضون عن كل مالا فائدة فيه متجهون للجد والعمل الصالح فكأنهم أخذوا من جمع همتهم فى الصلاة درساً بعدها وتخلقوا بأخلاق الله فى النفع العام والآداب العامة التى هى تخلق باسمه تعالى القدّوس (والذين هم للزكاة فاعلون) مؤدون مداومون (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة ، وحفظه التعفف عن الحرام ، فهم لا يبذلونها وهم يلامون على كل مباشرة (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) أى إلا على ما أجيز لهم (فإنهم غير ملومين) عليه . وقال الفراء إلا من أزواجهم أى زوجاتهم أو سرّياتهم فتكون على متعلقة بحافظين (فمن ابتغى وراء ذلك) المستثنى (فأولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق عليه (راعون) حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه ويفون بالعقود التى عاقدوا الناس عليها . فالأمانات إما للحق كالعبادات وإما للخلق كالودائع (والذين هم على صلواتهم يحافظون) تفسيرها ظاهر (أولئك) أى أهل هذه الصفة (هم الوارثون) فهم يرثون الأرض فى الدنيا ويرثون الجنة فى الآخرة . أما إرثهم الأرض فى الدنيا فلصلاحهم لها كما تقدم فى (سورة الأنبياء) أن الله كتب فى جنس الكتب السماوية بعد كتابة اللوح المحفوظ « أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » لها . فالدنيا بقيامهم بما يوجب حفظها ونموّ خيراتها والقيام بنظامها إلى آخر ما تقدم . ولا جرم أن هذه الصفات من رعاية الأمانة وما معها من أهم صفات الأمم التى يثبت سلطانها وتعمر مدنها . ولما كانت الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا ذكرها هنا فقال (الذين يرثون الفردوس) أى البستان وهو هنا أعلى الجنة وهى مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش العظيم هكذا ورد فى حديث الترمذى (هم فيها خالدون) لايخرجون ولا يموتون . ولما كانت الصفات المتقدمة صفات خلقية بها يتحلى المرء فيصلح لما يلقى إليه من الأعمال صدرت بها السورة التى عنوانها الفلاح . فالفلاح للمؤمنين متوقف على هذه الصفات وهذه الصفات جليلة القدر عظيمة الأثر . ألا ترى إلى ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوىّ كدوى النحل فأنزل الله عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه » فقرأ « قد أفلح المؤمنون » إلى عشر آيات من أولها وقال من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا . اللهم أرضنا وارض عنا » . ولقد كان ذكر الآيات الآتية من العلوم النفسية والتشريحية والمواليد والجمال السماوى من الزيادة التى طلبها النبى صلى الله عليه وسلم فان هذه العلوم الآتية من تلك الزيادة فكأنه يقول صلى الله عليه وسلم أنزلت علينا علوم الأخلاق النفسية

والمعاملات

والمعاملات الإنسانية والعبادات الربانية فزدنا من العلوم التي نقف بها على مصنوعاتك وبديع مخلوقاتك فإن النفوس المتحلية بالصفات الخلقية مستعدة للاطلاع على جمال هذا العالم ولا جرم أن هذه العلوم الآتية زائدة على المتقدمة في السورة من الصفات الانسانية . ويؤيد هذا أن الله أمره صلى الله عليه وسلم في سورة طه أن يقول « رب زدني علما » فالزيادة هنا هي الزيادة في العلم أو تشمل الزيادة في العلم، وهذا قوله : (ولقد خلقنا الانسان) آدم (من سلالة) خلاصة سلت من بين الكدر (من طين) فتلك الخلاصة المسلولة من طين هي الصفوة المجهولة آدم ولا علم للناس بما كان من التطور الذي حصل لتلك الخلاصة الطينية وهل كان أول خلقه تحت خط الاستواء كما جاء في كتب قدمائنا أن أصل هذه الحيوانات الكبيرة قد خلق عند خط الاستواء لأنه هو المكان المستعد المتخلق للخصوبة والحرارة وقد خلقت أوائل الحيوانات هناك ومن ذلك الإنسان وأن أصل الآدميين خلق هناك . ثم إن الحيوانات حفظت في أرحامها تلك الحرارة التي تولد آباؤها فيها فبقيت على ما هي عليه عند خط الاستواء بحيث تكون تلك الأرحام حافظة لتلك الدرجة ليتولد فيها الذرية إلى آخر الزمان . أم كان أصل التولد في البحر لكل حيوان ثم ارتقت تلك الحيوانات من بحرية إلى برية ومنها الانسان فارتقى إلى ما هو عليه ؟ . لا يعلم أحد ذلك وإنما الذي نعلمه أن الإنسان يأكل الثمرات والحبوب واللحم فيصير ذلك دما ومنه تكون النطفة فيخلق منها الذرية الإنسانية في الإنسان والحيوانية في الحيوان، فالمعلوم عندنا خلق نسل آدم كنسل الحيوان لا أصل آدم ولا أصل الحيوان وهذا هو قوله (ثم جعلناه) أي جعلنا نسله (نطفة) وهي المني (في قرار مكين) حرز وهو الرحم ، وإنما سمي مكينا لاستقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة في درجة حرارة خاصة وربما كان ذلك الاستقرار في الآية مشيراً إلى ما يقوله قدماؤنا من الفلاسفة: إن تلك الحرارة حفظت وبقيت منذ كان الأصل في خط الاستواء وسترى ما يشير لذلك قريبا من النقول عن النقوش اللوحية المترجمة من الآثار الهندية (ثم خلقنا النطفة علقة) أي صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) أي جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ (فخلقنا المضغة عظاما) بأن ميزنا ما بينهما فما كان من العناصر الداخلة فيها مواد العظم جعلناه عظاما وما كان مواد اللحم جعلناه لحما، فان المواد الغذائية شاملة لذلك كله وهي بعينها متبثة في الدم وهو قوله (فكسونا العظام لحما) وهناك ينمو الجنين نماء مطردا وهو قوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) بأن نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ناطقا، لا أبكم، سميعا بصيرا، وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرا وباطنا مالا يحصى وجميع أعضائه مقيسات تقيسا حسنا مقيسة بشبره بحيث يكون طوله ثمانية أشبار بقياسه وإذا مد يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بشبره هو وإذا مد يديه إلى الجهتين كان طولها كطوله على السواء . وقد تقدم في هذا التفسير عجائب خلقته في مواضع مختلفة وفيها يظهر لك أن الجميل وغير الجميل من النسبة القياسية الشبرية، فالشبر كان الأساس الذي وضعه الله لقياس بدن الانسان . ولذلك لما كان قدماء المصريين يعلمون علوما يجهلها الناس الآن جعلوا أصل القياس الشبر . ألا ترى أن الهرم الأكبر بالجيزة طول كل ضلع من أضلاعه ألف شبر بشبر الانسان، وهذا الهرم مقيس على حسب مدار الشمس السنوي وطوله ومنسوب إليه ومن هذا الهرم وحسابه يكون الأردب والويبة والكيلة، وكذلك الرطل والأوقية والدرهم وما أشبهها . كل ذلك مبني على الهرم ومقياسه وكذلك الفدان القيس عندهم بمقياس غير القصبة الحالية، وهو موضوع في الهرم الأكبر . وعسى أن يذكرني الله ذلك عند قوله تعالى « ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان » كما ذكرني بذلك في [سورة يونس] ووضحته ، فاذا وفق الله لذلك ووصلت إلى [سورة الرحمن] شرحت هذا المقام إن شاء الله لتعجب من علوم الأمم وفقهها في نظام الدنيا وكيف جعلوا شبر الإنسان أصل المقاييس وكيف نكيل ونزن ونبيع ونشتري في أسواقنا

ولا علم لنا أننا نقيس ونزن ونكيل بما هو من نتائج أشبارنا التى قدرها الله لنا فى الأرحام وجعلها فى مضمون هذه الآية إذ أنشأنا الله خلقا آخر فيجعل الطفل مستهلا ثم قاعدا ثم قائما ثم ماشيا ثم يفطم ويأكل ويشرب ويبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد (فتبارك الله) استحق التعظيم والثناء فى الأزل وفيما لا يزال (أحسن الخالقين) المصورين والمقدرين، ويقال : إن الناس يخلقون أى يقدرون الأشياء كما قيل :

فلأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى أنت تقدر الأمور وتقطعها، وغيرك يقدر ولا يقطع (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) لصائرون إلى الموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) للمحاسبة والمجازاة وليس خلقكم على هذا النظام وبعثكم بلا أسباب استوجبته فكما خلقناكم من ماء مهين والأسباب والمسببات متلاحقة منتظمة بحساب ونظام لا بالمصادفة والاتفاق، هكذا كانت الأسباب السابقة على خلقكم فأول الأسباب عالم الملائكة والعقول التى تهيمن على عالمكم ويلى هؤلاء عالم السموات ومنها الطرائق السبع التى هى أقرب إليكم من غيرها جمع طريقة وهى طرق الكواكب المعروفة عند البشر فى هذه الأرض وهى سبعة، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثا وقد مر الكلام على ذلك فى [سورة البقرة] فالموضوع هناك مستوفى وكذا فى سور أخرى . فهذه الطرق السبعة تسير فيها الكواكب بحساب منظم متقن لا خلل فيها، وهذا قوله (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) وقوله (وما كنا عن الخلق) أى المخلوق وهى تلك الطرق وغيرها من جميع المخلوقات (غافلين) مهملين أمرها وكيف نهملها ولو أنا أهملناها لحظة لاختلت الموازنة بأن يسير كوكب فى غير مداره أو يزل نجم عن سنن سيره فيختل النظام العام . وبسير الكواكب ومنها الشمس تنتقل الحرارة فى الأقطار الأرضية وهذه الحرارة تكون أوفر فى خط الاستواء وينشأ منها بخار يعلو إلى طبقات الجو فيبرد تارة فى خط الاستواء فيهطل هناك وتارة فى المنطقتين المعتدلتين . وبتنوع الرياح من موسمية وتجارية ضدية ودورية تتنوع الأمطار وتهطل فى أماكن مختلفة، فالجو فى أعلاه بارد وحرارة الشمس تؤثر فى سطح الأرض فيرتفع البخار وتتموج الرياح فإذا سارت من المنطقتين المعتدلتين إلى الدائرتين القطبيتين قابلت هناك جوا باردا فأمطرت. فالأقطار الباردة والجو الأعلى سيان فى البرودة فهناك تكون الأمطار وتنزل على الأقطار . ومتى قابلت الريح الباردة جوا حارا وفيها بخار تفرق ذلك البخار فإن الحرارة تفرق والبرودة تجمع وتضم . وقد تقدم تفصيل الكلام فى التفسير . وهذا المطر ينزل على الجبال وعلى السهول فيخزن فى الجبال ويصير فوقها ثلجا فإذا سلطت عليه حرارة الشمس ذاب الثلج من فوق الجبال قليلا قليلا فنزل على اليابسة ليمد الأنهار والأنهار تسير لتسقى المزارع وهكذا باطن الجبل يبرد الماء فيه فيكبر حجمه عند صيرورته ثلجا فيكسر ما فوقه من الأحجار فتنفجر الينابيع فيجرى الماء فتزيد الأنهار . فالجبال مخازن خزن الله فيها الماء لينزل فى زمن لا ينزل فيه المطر، وهذه المعانى هى التى فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره كما رأيت من إحكام الجبال وإتقان عنصر الماء بحيث يكبر حجمه إذا برد وجميع السوائل ليست على هذه الشاكلة ، وخص الماء بهذا الوصف ليكون كبر الحجم مفتاحا تفتح به خزائن الرحمة وبدائع الحكمة ويكون درسا للمسلمين ونبراسا للشبان ليفتحوا به خزائن الحكمة كما فتح به خزائن الماء المخزون فى داخل الجبل المنصب من أعلاه فى المغارات والكهوف والأماكن الواسعة فى جوف الجبال (فأسكناه فى الأرض) أى جعلناه ثابتا فيها فمنه ما فى الجبال، ومنه ما يكون فى مجارى تجرى من خط الاستواء مارة بباطن الأرض القريب والبعيد ويمر على معادن مختلفة فيتشكل بشكلها ويتصف بصفاتها فمنه النوشادرى، ومنه الكبريتى ومنه الملحى وهكذا من أنواع المياه، وهذه المياه هى القريبة من سطح الأرض، وهناك مياه بعيدة الغور بعيدة

العمق يقال لها المياه الارتوازية وهذه مياه فى بلادنا المصرية صافية نقية جميلة خالصة لاتأثير لشىء عليها صالحة للشرب تبعد عشرات الأمتار عن سطح الأرض بل هو نيل آخر غير النيل الذى على وجه الأرض يأتى من (جبال القمر) التى منها ينبع نيل مصر ويمر كما يمر نيلنا من هناك إلى البحر الأبيض المتوسط وهذا النهر لا يتوصل إليه إلا بمشقة لشدة بعده والماء الذى يخرج منه يكون مرتفعا جدا لأن منبعه من خط الاستواء فى علو شاهق ، ومن عجب أن ذلك النيل الباطنى صالح للشرب والنيل الظاهر صالح للزراعة ولايصلح للشرب فى أيام النيل إلا بعد غليه وتصفيته مما فيه من المواد الغريبة لأن هذا الماء فيه حيوانات ضارة فغليه يقتلها فليكن صافيا من المواد وليكن مغليا ، فهذه المياه كلها فى ظاهر الأرض وباطنها من ماء المطر النازل من السماء الذى كان بخارا من البحر الملح وغيره ثم صار سحابا فأجرته الرياح ، وكل ذلك بسبب الشمس التى تجرى فى طريقة من الطرائق المذكورة ، فاذا كان هذا كله بتقديرنا فإنا قادرون أن نغير الأسباب فنغير مجرى الشمس عن المدار فيختل ذلك كله فلا مطر ولا ماء (وإنا على ذهاب به لقادرون) أى على إزالته بإفساده بأن نجعل الماء كله ملحا بحيث نجعل الملح صاعدا من البحر مع البخار بطرق أخرى ، أو بأن نزيد الحرارة على أنهاركم فيصير الماء بخارا ، أو نفتح فى الأرض فتحات عظيمة فيغور ذلك الماء وغير ذلك ، لم نفعل ذلك بل أبقيناه (فأنشأنا لكم به) بالماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) ومن الجنات ثمارها وزرعها (تأكلون) ترتزقون وتحصلون معايشكم (وشجرة) عطف على جنات (تخرج من طور سيناء) جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وهو طور سينين . يقول الله وأنشأنا لكم به شجرة وهى الزيتون تخرج من طور سيناء ، وسيناء اسم للمكان الذى فيه الجبل المذكور (تنبت بالدهن) أى ملتبسة بالدهن ومصطحبة به (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن فهى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ به الخبز أى يغمس فيه للائتدام به .

واعلم أن زيت الزيتون له مزايا فلأذكر منه مايهم فأقول :

تعلم أيها الذكى أن الطاعون قد يحل بالبلاد أثر الحوادث الحربية والوقائع العظيمة وغير ذلك . ولقد كتب طبيب مصرى فى الجرائد المصرية يقول : إن العلماء بحثوا فى أهم الأدوية لتجنب الطاعون وما الطاعون إلا مرض والأمراض لها أدوية علمها من علمها وجهلها من جهلها . ولقد عرف الناس اليوم أن المعامل التى فيها يعمل الزيت المستخرج من الزيتون لايستضر العاملون فيها بالطاعون بل يمر عليهم ولا يؤثر فيهم . هكذا الذين يعملون فى الزيوت الأخرى ، ولكن أهمها زيت الزيتون ، ولقد شرح ذلك شرحا وافيا على صفحات الجرائد ، فأردت ذكره هنا ليعلمه الناس ويدرسوه ؛ ولقد وصف ذلك الطبيب وغيره وصفا مؤقتا لمن لم يعتد شرب الزيت أو الائتدام به فحتم على المطعون أن يستكن فى حجرة ويدلك له جسمه كله بصفات خاصة فيكون ذلك دواء له ، ولكن الذى يهمنا أن الآكلين له المؤتدمين به لايغشاهم الطاعون وهذا من سر قوله تعالى «يوقد من شجرة مباركة زيتونة» فهذه الشجرة مباركة ومن بركتها النجاة من الطاعون لمن أكل زيتها بل كل من اعتادوا أكل أنواع الزيوت الأخرى يتجنبهم الطاعون ، ولكن زيت الزيتون أهم منها وهذا لم يعرفوه إلا بالتجربة وبالمصادفة ، إن فى ذكر الزيتون وحده واختصاصه بالذكر لمزيات ومنها ماذكرناه .

إن أنواع الفواكه إما سكرية وإما مائية وإما حمضية وإما عطرية وإما زيتية فالأولى كالتمر والعنب والثانية كالخيار والقثاء ، والثالثة كالليمون . والرابعة كالتفاح ، والخامسة كالزيتون . فالفواكه يدخل فيها هذه الأقسام فلم اختص الزيتون وحده بالذكر ؟ إن الزيتون يضىء ويؤتدم به ويمنع الطاعون لمن أدام أكله ولما كان فيه مزية الإشراق والإضاءة جاء ذكره بعد هذه السورة فى التمثيل بقوله «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة» الخ فليس فى التمر ولا فى العنب ولا فى بقية الفواكه المعروفة ما يستضاء به فأفردها بالذكر وكأنه

يقول القارئ* هذه السورة: تأمل فى شجرة الزيتون فقد أفردتها بالذكر وتنبه لما فات أمم ما فى حياتكم الدنيا أن تكون نفوسكم مشرقة ولا فائدة فى نخلكم ولا عنبكم ولا بقية الفواكه ولا نجاتكم من الطاعون فكل هذا قليل فى جانب إشراق قلوبكم وخلوصكم من هذه الأرض الملوثة من الظلمة والرجس والخبث ، فتنبه أيها القارئ* لكتابى لهذه الشجرة فإنها ستأتى فى المثل الذى ضربناه فى سورة النور بعد هذه وسميت السورة كلها بالاسم الذى جىء به من الضوء الذى يوقد من الشجرة المباركة التى ذكرناها هنا وحدها وأفردناها بالذكر وذكرناها فى (سورة التين) .

ولما كان الماء به يخرج الشجر والنبات، وهما مقدمتان لخلق الحيوان كما هو مقرر فى الحكمة وكان هذا كله مقدمة لخلق الإنسان شرع بذكر خلق الحيوان كما تقدم فى السور السابقة: الحجر والنحل وطه والأنبياء والحج فقال (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها) أى إن لكم فى الأنعام آية تعتبرون بها وذلك أن اللبن يكون خلاصته من الدم المستخلص من الغذاء كالتبن وأوراق الشجر والحب الذى يزدرده الحيوان فيهضم فيكون كيموسا ثم كيلوسا ثم ينقلب دما وما بقى بعد الخلاصة التى تكون دما يصير فرثا يخرج من منفذه وما زاد من الماء يفرز فيخرج من منفذه . فالفرث والدم كلاهما فى جسم الحيوان . الأول فى الأمعاء الغلاظ والدقاق ، والثانى فى العروق بقسميها ، وهى الشرايين والأوردة ومع ذلك لا يختلط الفرث بمجارى اللبن ولا الدم ولو شاء الله لغير الوضع فلم يخلص لكم اللبن كما لو شاء لغير وضع الكواكب والرياح فلم يكن الماء على الأوضاع المتقدمة فشربتموه ، ثم قال (ولكم فيها منافع كثيرة) فى ظهورها وأصوافها وشعورها وغير ذلك مما يعرف بالبحث ، ومتى تركتم البحث فيها وفى غيرها من منافع خلق حرمتكم منها وسلطت عليكم غيركم لأنى لا أعطى النعمة إلا لمن يشكرها وأيضا جميع العلوم فرض كفاية . فليقم فيكم من يعرفون ويخصص لكل علم طائفة ثم قال (ومنها تأكلون) فتنتفعون بأعيانها (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الأنعام التى منها الإبل تحملون، والإبل سفائن البر . قال ذو الرمة * سفينة بر تحت خدى زمامها * يقول الله « وعليها وعلى الفلك » أى سفن البحر «تحملون» فأنتم تحملون فى البر وفى البحر .

انتهى التفسير اللفظى للمقصد الأول وفيه (ثلاث لطائف) :

(١) فى قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

(٢) فى قوله تعالى « سبع طرائق » .

(٣) فى قوله تعالى « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » الخ .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ﴾

قد قلت لك : إن قدماءنا كعلماء كتاب (إخوان الصفا) كانوا يقولون إن أصل الحيوان تولد فى خط الاستواء ، ومن عجب أن يكون لهذا القول شبه دليل وإن كانت الحقيقة لا تزال خافية . فانظر كيف جاء فى جرائدنا المصرية فى يوم الاثنين ٩ مارس سنة ١٩٢٤ فى أثناء تفسير هذه السورة ما نصه :

(رأى جديد فى مهد البشرية وحضارة ما قبل التاريخ)

كتب (الكولونل جيمس شيرشوار) الضابط بالجيش الانجليزى ومن المشتغلين بعلم الآثار يقول : إنه عثر فى الهند على (١٢٥) لوحة عليها كتابات قديمة وإنه ترجم هذه الكتابات بمساعدة كثيرين من علماء البوذيين واستخلص مما حوته أن مهد البشرية لم يكن فى (العراق) ولا فى (الأناضول) بل فى قارة كانت قائمة على خط الاستواء اسمها (مو) قارة فى الأوقيانوس الباسفيكى قبل (١٥) ألف سنة وزاد على ذلك أن الكتابات التى عثر عليها تشير إلى أن جنة عدن كانت فى هذه القارة قبل ١٣ ألف سنة . ومما قاله (الكولونل جيمس شير شوار) فى مقالاته المفصلة عن هذا الاكتشاف أن حضارة سلطنة (مو) كانت

أعظم

أعظم من جميع الحضارات التى عرفها البشر فيا بعد فقد كان لأجدادنا قبل (١٣) ألف سنة اختراعات ذهب سرها مع الزمن وكانت جيوش سلطنة (مو) مجهزة بطيارات كبيرة تسع الواحدة منها (٢٠) جنديا وتسير بمحركات بسيطة مستخدمة لقوى الطبيعة التى يسعى العلم الآن إلى الاستفادة منها فى هذه الأيام. وقد جاء فى الكتابة المكتشفة أخيرا أن قائدا اسمه (رمنسدر) من قواد سلطنة (مو) طار من عاصمة سيلان إلى الهند الشمالية دفعة واحدة وأن جنوده كانت مجهزة بأسلحة نارية وأن البارود كان معروفا فى ذلك الحين ولكن وقعت زلزلتان قبل (١٣) ألف سنة دمرتا قارة (مو) فابتلعت مياه الأوقيانوس سكانها وقصورها ومدنها وآثارها. أما أسباب الزلزلة فقد وصفت فى الكتابات القديمة التى كشفها (الكولونيل جيمس شير شوار) كما يلى :

كانت قارة (مو) تحتوى على تجاويف مملوءة غازا وحدث أن ظهر بركان فيها فانفجرت النار فى هذه التجاويف ونسف القارة إلا بعض أنحاء منها تعرف اليوم باسم (جزر هاواى) انتهى.

واعلم أن هذا القول يشهد لما يقوله علماء الهند ونقله (إخوان الصفا) أن العالم يحصل له انقلاب فى كل (٣٦) ألف سنة فيصير البرّ بحرا والبحر برا والخراب عامرا والعامر خرابا فإذا صح هذا النبأ يكون ما يكون ما يقوله القوم له آثار لأنه منقول عن علماء البوذيين، وهذه المدة تسمى مدة تقدم الاعتدالين، وقد حسبها علماء العصر الحاضر فوجدوها ٢٥ ألف سنة والله أعلم بالحقيقة. والذى يهمنا فى هذا المقام أنهم ذكروا أن هناك جنة عدن وأن القارة تحت خط الاستواء، وجعلوها منشأ الجنس البشرى وهذا القول بعينه هو المنقول فى (إخوان الصفا) عن الهنود، والله يعلم، والناس يتعلمون.

(هداية نجمت من هذه الآيات)

أيها العلماء. أيها الأذكياء فى الأمة الإسلامية. انظروا إلى هذه الآيات كيف ابتدأ الله بخلقنا من طين وأخذ يتدرّج فى الخلق طبقا عن طبق وحالا بعد حال إلى أن انتهى إلى إنشائنا خلقا آخر ثم أماتنا ثم بعثنا، أليس هذا هو التاريخ الطبيعى للانسان؟ طين ارتقى فصار حيا ثم ارتقى فصار روحا تقابل ربها. يظن صغار العلماء وجميع الجهلاء أن هذه مسألة قاصرة على خلق الإنسان وعلى ظواهر القول. كلا. إن القرآن نزل هداية للناس. يقول الله تعالى «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض» ويقول «ادع إلى سبيل ربك» الخ، ويقول «إن ربى على صراط مستقيم» ويقول «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب» ويقول «وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون» فها هو ذا هنا سبحانه قد فصل لنا آيات الخلق الإنسانى وأرانا سبيله وطريقته فى نظام التعليم الإنسانى وكيف نسير فيه. يقول الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم «هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى» فسبيل الله وسبيل النبى صلى الله عليه وسلم هى أننا نقرأ تاريخ العلوم. فكما أنه مرّ بنا على أدوار الإنسان من النطفة إلى العلقة إلى أن كبر ومات وقابل ربه. هكذا نفعل فى جميع العلوم أى أنه يستحسن أن نسلك فيها هذا المسلك بعينه فإذا أردنا تلقين علم من العلوم كالنحو والصرف والبلاغة وعلم الهندسة والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس وعلم الفلك وعلم الموسيقى وهكذا وجب علينا أن نجمع تاريخ هذا العلم من مبدئه إلى منتهاه فإذا درسنا علم الفقه فلنورد للطالب تاريخ الفقه مختصرا وكيف كان أصله من الأصول الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس وتدرّج وتسير معه من عصر الصحابة إلى الأئمة المجتهدين إلى من بعدهم من العلماء إلى وقتنا الحاضر ونستخلص الزبدة ليكون القارئ على بصيرة. وهكذا إذا درسنا علم النبات نبحث فى أصل تكوينه من الخلية الصغيرة وتكاثرها ثم أنواع النبات من أدناه إلى أعلاه. وهكذا ندرس تاريخ علمه من حيث

المباحث النظرية من مبدأ التاريخ المعروف إلى الآن والإشارة إلى أهم الكتب وأهم العلماء الذين ألفوا فيه .

هذه هي الطريقة والسبيل الوحيد الذى به يكون فى الإسلام رجال مثقفون عقلاء علما وحكمة :

وما مثل العلماء فى ذلك إلا كمثل الفلاحين لاينالون حظا من حقولهم ولا يكسبون غلة من زروعهم إلا إذا حرثوا الأرض حرثا جيدا وقلبوها قلبا تاما، فمتى وضعوا الحب ونزل عليه الماء نبت وازدهى وترعرع هكذا الطالب لا تبزغ شمس معارفه ولا تزهر إلا إذا بحثنا له عن تاريخ العلوم وفتشناها وآثرنا ما كمن فيها فهناك يكون نبوغه وظهوره لأنه نبت فى أرض العلم الصالحة للانبات المتخلخلة الأجزاء فيتوغل فيها بعقله ويدرسها ويمتد فى أعماقها بعقله فيزكو فرعه ويزهو زهره ويجود ثمره فيكون خيرا لأمته :

هذه سبيل الله فى التعليم وهذا هو الصراط المستقيم . وإذا كنا نرى الإمام الشافعى مثلا رضى الله عنه يدقق فى مسألة الوضوء ويأمر أن تغسل الوجوه أولا كما ذكرها الله أولا ويجعل اتباع ترتيبه واجبا فأغسل وجهى ثم يدى ثم أمسح رأسى ثم أغسل رجلى . لماذا هذا ؟ لأن الله ذكرها هكذا مرتبة . إذا كان هذا رأى أكابر الأمة فى مسألة الوضوء الذى لايضر فيه أن نؤخروجها عن يد ولا أن نقدم رجلا على رأس فإن المقصود من النظافة حاصل على كل حال . فكيف تكون حالنا فى العلوم التى هى واجبة وجوبا كفائيا على القادرين من الأمة ؟ أقول كيف تكون حالنا فيها . أفلا ننهج النهج الذى سنه الله ونرجع دائما إلى تاريخ كل العلوم فندرسها لأبنائنا أولا حتى يكونوا قد اطلعوا على ملخص تاريخها ليكونوا أقرب إلى الحقائق وأكثر استعدادا للاجتهاد .

هذه هى الحياة الاسلامية، وهذه سبيل ربك ، وهذا هو الصراط المستقيم صراط الله . يأمرنا الشافعى رحمه الله أن نبدأ بما بدأ الله به . أفلا يجب علينا أو على الأقل ينبغى لنا أن ننهج ما نهجه الله فى تعليمنا فنلخص تاريخ العلوم كما لخص الله تاريخ خلق الإنسان . ولقد قام بنوع من هذا العمل صاحب (كشف الظنون) التركى المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى فانه ذكر تاريخ العلوم وذكر الكتب المؤلفة فى كل علم . وهذه طريقة أوروبا فى تعليم العلوم جميعها ولذلك نسمعهم يقولون « التاريخ الطبيعى . التاريخ البشرى . التاريخ الأثرى . التاريخ الرياضى » وهكذا .

بهذا فاقونا وازدروا بالشرقيين لجهالتهم ونومهم العميق . أوروبا نهجت نهج القرآن واتبعت سبيله فى التعليم ولكن لا تظن أنى أقول إنها اتبعته فضلا . كلا ، لأنها تجهله وإنما هى سارت على السبيل الذى فى القرآن وإن لم يعلموه فلما اطلعنا على طريقتهم رأيناها هى التى يرشد لها القرآن . فعلى المسلمين أن يسلكوا نفس هذه السبيل .

إنك أيها الذكى سواء أكنت من ذوى المال أو الجاه أو العلم مسئول عما أكتبه الآن ، فكن خير هاد ومرشد للعلماء والطلبة وجاهد فى ذلك حق الجهاد واحذر أن تضن بموهبتك فالله سائلك كما أنى مسئول وقد قدمت لك ما أقدر عليه فلتقم بما وجب عليك شكرا لربك وتعليما لأمتك وازديادا لعقلك وعلوا لشرفك وعظمة لقدرك فسعيك لرقى أمتك نافع لك فى الدارين اهـ .

(جوهرة فى قوله تعالى « فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »)

اعلم أن الله عز وجل لم يكرر خلق الانسان فى مواضع من القرآن إلا لما فيه من العجائب والبدائع وإتقان الصنع وإبداع التركيب . ولقد تقدم فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » بدائع من تركيب جسم الإنسان وبيان طبقات العين والأذن ورسمهما وعجائب نظامهما وكيف كان فى الأذن تعاريج فى الداخل مشروحة هناك بعد رسمها وكيف كان هناك ما يسميه علماء الطب الحديث

(عصى كورتى) جمع عصاة وهى عبارة عن شعرات دقيقات لا ترى بالعين وإنما ترى بالآلات المصورات ووظيفتها على ما يظن اليوم أنها تؤدى صور الأصوات المختلفات بحيث توصل كل واحدة منهن نوعا من الصوت إلى القوة الحاكمة فى الدماغ . فمنها ماتوصل صوت الإبرة مثلا عندوقوعها . ومنها ماتوصل صوت قلة المدفع عندانطلاقها ومنها ما توصل الصوت الهادى . ومنها ما توصل الصوت المرتفع وهكذا مما لا يمكن إحصاؤه وتلك الشعرات قدخلقت فى مادة سائلة فى الأذن الداخلة وهذه وظيفتها فارجع إلى ما هناك تجد شرحا وافيا . وهكذا ترى العين ووظائف طبقاتها طبقة طبقة ، وكيف كانت سبع طبقات وثلاث رطوبات وما وظيفة كل منها . وهناك أيضا تجد أجهزة الجسم الإنسانى مفصلة موضحة مبدعة أيما إبداع بحيث تجد بينها وبين ما فى المدن من الصناعات موافقة تامة . فكما أن فى المدن من يصنعون اللبن ويحرقونه فيصير آجرا هكذا جسم الإنسان فيه قوى أودع مبدع الكون الحكيم بها ما يصور من المادة الدموية عظاما صلبة . فها هى ذه العظام المتينة قام بها الجسم الإنسانى كما يقوم البيت بالآجر إذا بنى به ولكن آجر البيت قد صنعناه بطرق معروفة مشاهدة فإننا خلطنا التبن بالتراب ومزجناهما بالماء ووضعناهما فى قالب خاص ثم جففنا ذلك فى الشمس فصار لبنا جمع لبنة ثم وضعنا ذلك اللبن بعضه على بعض بهيئة خاصة وأوقدنا عليه النار أياما وليالى حتى احترق ثم بنينا به المنزل . أما العظام فى جسم الإنسان فإننا ألفيناها صلبة بلا عمل منا ولا نار أوقدناها بل الأمر فيها عجيب فإنها صارت صلبة منظمة مرة واحدة فهى لبن فآجر مبنى منظم. ففى المنازل نرى الأعمال يتبع بعضها بعضا ونرى الصناع كذلك . أما هنا فإنا لا نرى من يضرب اللبن ولا من يجعله آجرا ولا من يبنيه ولا من يهندس البناء . ومع أنا لا نرى العمال التى فعلت ذلك نجد أن هذه الصناعات كلها تصنع فى آن واحد فيكون البناء مصاحبا صنع آلاته بنظام تام وإتقان فى العمل . وأيضا كما أننا نرى فى المدن الكناسين والزبالين نجد فى الجسم الإنسانى أجهزة لإخراج ما فى الجسم من بقايا الأطعمة التى إذا بقيت فيه أضرت به (مثال ذلك : الكليتان والحالبان والمثانة ومجرى البول) فهذه وضعت لإخراج الفضلة المائية وهكذا وضعت الأمعاء وما يليها لإخراج الفضلات الغليظة . وأيضا كما أن فى المدن من ينسجون الحرير والرقيق من الثياب هكذا نجد فى الجسم الإنسانى تلك الطبقات الرقيقة والأعمال الدقيقة فى العين التى لو خلقت خشنة لأضرت بحاسة الإبصار . وإن أردت استيفاء هذا المقام فاقرأه هناك فإنك تجد جدولا فيه صناعات المدن موازنة بالعجائب التى فى جسم الإنسان بهيئة منظمة، وعدد تلك الموازنات ٢٣ نوعا وقد شرحت هناك نظام العقل الإنسانى بعد نظام الجسم ليكون العاقل على بصيرة من أمر جسمه وأمر عقله وإن كان ذلك بطريق إجمالى .

هذا ما ذكرته هناك فاقرأه إن شئت، ثم اسمع ما أتلوه عليك الآن من عجائب صنع الله وبدائع حكمه فى أجسامنا فوق ما تقدم. ولعمر الله إنى حينما قرأت ماستسمعه الآن خطر لى خاطران متباينان : خاطر العظمة والمجد والشرف والعلو، لأنى رأيت هذا الجسم الإنسانى متقنا إتقانا لاحد لجماله ولا نهاية لكماله كما ستراه وهو مسكن أرواحنا . وقد اعتنى صانعه به عناية تفوق العناية بتركيب الماء والهواء والمعدن والنبات وكل حيوان فأجسامنا مبدعة إبداعا غريبا بديعا عجيبا . فمن هذا الوجه قلت فى نفسى : نحن معاشر بنى آدم فوق متناول الوصف وأرواحنا بهية جميلة بديعة، ودليلى على ذلك هذه المساكن التى أعدت لها قبل هبوطها إلى عالمنا الأرضى. إنى قد خطر لنفسى هذا الخاطر وصار ثابتا قويا، وما أشبه هذه الروح الإنسانية إلا بملك عظيم الشأن رفيع المنزلة أراد أن يزور قرية من القرى أو مدينة من المدن فأعدوا له منزلا شريفا ومقاما كريما على مقدار منزلته ولقد رأينا من طبع هذا النوع الإنسانى أن يعد للقادمين من الاكرام ما يوافق منازلهم ويناسب مقاماتهم . فعلى هذا القياس إذا قرأت ما سأكتبه لك الآن مفصلا ورأيت أن روحك قد حلت فى هذه المدينة البديعة المنظمة التى لا نظير لها فى مدن الأرض وهى جسمك أيقنت لامحالة أن أرواحنا عالية

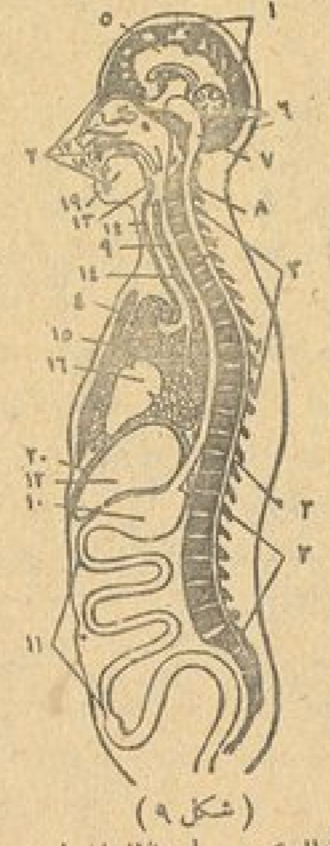
الشأن وعلو شأنها على مقدار إتقان أجسامنا . هذا هو الخاطر الأول . أما الخاطر الثانى فهو يناقض الأول على خط مستقيم . ذلك أنى قد خجلت واعترانى الأسف والأسى . ذلك أن هذا النوع الإنسانى كله إلا قليلا يعيشون ويموتون وهم يجهلون هذا الهيكل كما يجهلون نظام أرواحهم ، وأنا واحد منهم فنحن نعيش ونموت ونحن نجهل بدائع التركيب فى أجسامنا ، ولاجرم أن هذا مما يخجل له الإنسان فكيف تعيش روحى فى هذا الجسم وتستعمله وهو مركب تركيبا أبدع من كل تركيب فى أرضنا وهى لا تعقل منه شيئا ؟ وإذا عقلت شيئاً كالذى ستقرؤه فى نظام اليد الإنسانية أيقنت أن ما جهلته هو كل شىء ، وأن ما علمته هو لاشىء ، فالإنسان كله غافل عن نفسه يعيش ويموت وهو ظلوم كفار . ولعلك تقول : ما الذى تريد ذكره الآن مما أثارفيك هذين الخاطرين من تشريح جسم الإنسان؟ أقول لك بعض ما جاء فى كتاب [قانون الصحة المنزلى] تأليف الدكتور (جون سايكس) الذى عربه قلم صحة المعارف المصرية المطبوع سنة ١٩٢٤ م ، وهذا نصه :

﴿ الفصل الثانى فى تركيب جسم الإنسان . يجب معرفة تركيب الجسم بالاختصار ليسهل معرفة وظائفه ﴾

يتركب الجسم الإنسانى من الرأس والعنق والجذع والأطراف . فالرأس فيه المخ وجزء من النخاع وعضو الابصار والسمع والتكلم والذوق ومنافذ جهاز الهضم والتنفس (انظر شكل ٩) .

والعنق فيه الحنجرة (وهى عضو الصوت) وفتحة القصبة الهوائية وهذه عبارة عن أنبوبة توصل الهواء من البلعوم إلى الرئتين وفتحة المرىء ، وهو عبارة عن أنبوبة خلف القصبة الهوائية توصل الغذاء من البلعوم إلى المعدة وفيه أيضا العروق التى يصعد فيها الدم إلى الرأس وفيه الجزء العلوى من العمود الفقرى المحتوى على جزء من النخاع .

والجذع مركب من جزأين علوى وسفلى فالعلوى هو الصدر وهو تجويف مخروطى الشكل محدود من الخلف بالعمود الفقرى ، ومن الجانبين والأمام بالأضلاع وعظام القص والصدر يحتوى فى الجهة اليسرى المقدمة على القلب والشرايين الكبيرة وعلى الرئتين . وينتهى الصدر من الأسفل بالحجاب الحاجز الفاصل بين جزأى الجذع ؛ ويخترق هذا الحجاب شريان عظيم (الأورطى) والمرىء والوريد الأجوف السفلى والقناة الليمفاوية والسفلى هو البطن المكون من الأمام والجانبين من عضلات ومن الخلف منها ومن العمود الفقرى وينتهى من أعلى بالحجاب الحاجز ومن أسفل بعظام الحوض ، ويحتوى على الأعضاء الآتية وهى : الكبد والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والبنكرياس والطحال والكليتان والمثانة .



(شكل ٩)
قطاع عمودى لجسم الإنسان وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه مع الأسنان (٣) العمود الفقرى (فقرات العنق والظهر والبطن) (٤) القص (عظام الصدر) (٥) قطاع المخ (٦) قطاع المخيخ (٧) اتصال الدماغ بالجزء العلوى للنخاع الشوكى (٨) النخاع الشوكى (٩) المرىء (١٠) المعدة (١١) الأمعاء (١٢) الكبد (١٣) لسان المزمار (١٤) القصبة الهوائية والحنجرة (١٥) الرئتين (١٦) القلب (١٧) الحفرة الأنفية (١٨) تجويف الفم (١٩) اللسان (٢٠) الحجاب الحاجز .

فالكبد يشغل الجهة اليمنى العليا من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة ، والمعدة معظمها فى الجهة اليسرى العليا ، والأمعاء الدقيقة تملأ الفراغ أمام المعدة وأسفلها وطولها نحو ستة أمتار ، والغليظة تبتدئ من أسفل الجانب الأيمن للبطن ثم تصعد نحو الكبد ثم تتجه إلى الشمال مارة أسفل المعدة ثم إلى الأسفل مخترقة الحوض وتنتهى بالمستقيم . وطولها نحو متر وثمانية سنتيمترات . والبنكرياس محله خلف المعدة ، والطحال محله فى الجانب الأيسر تحت الحجاب الحاجز ، والكليتان مجاورتان للعمود الفقرى ، واليمنى تحت الكبد واليسرى تحت الطحال ، والمثانة موجودة فى أسفل البطن أمام المستقيم ، والأطراف اربعة الذراعان والطرفان السفليان ولا حاجة لشرح أجزائهما ، وأجهزة الجسم هى :

(١) جهاز الحركة ، ويدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الإرادية وأوتارها .

(٢) الجهاز الدورى ، وأعضاؤه ثلاثة (القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية) .

(٣) الجهاز التنفسى ، وأعضاؤه أربعة (الحنجرة والقصبة والشعب والرئتان) .

(٤) الجهاز الهضمى وأعضاؤه تسعة (الفم والأسنان وغدد اللعاب والبلعوم والمرىء والمعدة والبنكرياس والكبد والامعاء) .

(٥) الجهاز اللمفاوى ، وأعضاؤه (عروق الدم الأبيض والأوعية اللبنية والطحال وبعض الغدد) .

(٦) الجهاز البولى وأعضاؤه (الكلى والحالبان والمثانة ومجرى البول) .

(٧) الجهاز الجلدى وأعضاؤه (غدد العرق والغدد الدهنية والشعر والأظافر وطبقات الجلد) .

(٨) الجهاز العصبى ، وأعضاؤه (المخ والنخاع والأعصاب بأنواعها وأعصاب الحواس الخمس) .

﴿ جهاز الحركة ﴾

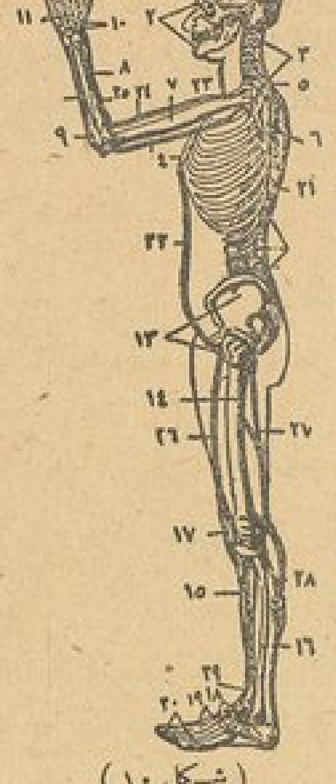
يتكون هذا الجهاز من الهيكل العظمى الذى تتصل عظامه بعضها ببعض بواسطة المفاصل ومن العضلات التى تحركها وتحرك العظام .

الأطراف السفلى تحمل الحوض الذى يتصل بهما وتحمل العمود الفقرى الذى يحمل من أعلاه الجمجمة ويتصل به فى جزئه الحلقى اثنا عشر زوجا من الأضلاع ، وبذلك يتكون الصدر المتصلة به الأطراف العليا (انظر شكل ١٠) فى الصحيفة التالية .

ولما نقلت ماتقدم من الكتاب المذكور واطلع عليه أحد الفضلاء قال لى هذا كلام الأطباء ، وهو مقال مجمل والإجمال غير التفصيل ، فاذكر لنا مثلا يبين تلك الأجهزة وعجائبها ، ثم بعد ذلك أذكر أبدع ماتراه فى هذا المقام ، فقلت سأجعل ذلك فى [فصلين : الفصل الأول] فى عجائب تلك الأجهزة بضرب مثل [الفصل الثانى] فى أبدع ما رأيته فى هذا المقام .

﴿ الفصل الأول فى ضرب مثل لعجائب هذه الحكم فى جسم الانسان ﴾

تصور أيها الذكى أنك فى حديقة فيها من كل فاكهة زوجان ورأيت ضروب الثمار تحيط بك ونظرت عينك تلك الأنواع فاخترت منها فاكهة التفاح ، فماذا حصل اقتطفت منها تفاحة وقشرتها وأكلتها . فهذا هو المثل الذى أضربه لك ، وبيانه أننا نرى أن فى بيوتنا أزرارا كهربائية وتلك الأزرار متصلة بسلك الكهرباء واصلة إلى داخل بيوتنا منتهية بأجراس فاذا ضغط الزائر على الزر الكهربائى سمع أهل البيت صلصلة الجرس فأرسلوا خادما يفتح الباب ويدخل الزائر فى المنزل . هكذا يحصل فى أجسامنا . ألا ترى أن أعيننا لما رأت التفاح وصلت الصورة المرسومة على شبكية العين إلى أعصاب الحس وعرفتها القوة الحاكمة فى الدماغ فأوعزت إلى أعصاب الحركة فحركت اليدين فاقتطفتا هذه التفاحة فالزائر فى مثال المنزل أشبه بنفس التفاحة هنا وإرسال صورة التفاحة من



(شكل ١٠)

شبكية العين إلى القوة الحاكمة فى الدماغ أشبه بمرور التيار الكهربائى عند الضغط على الزر الكهربائى ونفس العين أشبه بنفس الزر الكهربائى وأهل المنزل فى الداخل أشبه بالقوة الحاكمة فى الدماغ وإرسال الخادم لفتح الباب أشبه بما تفعله القوة الحاكمة فى الدماغ من تحريك أعصاب الحركة فتحرك اليد لأخذ التفاحة ووضع التفاحة فى الفم وأكلها أشبه بدخول القادم منازلنا، هذا أول عمل من أعمالنا فى هذه التفاحة، ولقد تم هذا العمل بقوة الجهاز العصبى والجهاز المعد للحركة أما الجهاز العصبى فان العين لما رأت التفاحة وعرضتها على القوة الحاكمة لم تجد لها سبيلا إلا أعصاب الحس، وأعصاب الحس متصلة من العين وبقية الحواس بالنخاع والمخ. فلولا هذا الجهاز وأعصابه ماأمكننا أن نعرف لون التفاحة وشكلها ووصفها ولا طعمها بل كنا لانفرق بين اللبن والآجر والتفاح والحجر، فالجهاز العصبى المذكور به أدركنا مزية تلك التفاحة، اللهم إنك أدهشتنا بصنعك فى أجسامنا وأخجلتنا بجهلنا العظيم حتى إن كثيرا من الأطباء يا ألله لايعجبون من ذلك لعدم إحساسهم ببهجة الجمال وإن كانوا يبصرون نظامه.

أما الجهاز المعد للحركة. وهو الذى تقدم أنه يدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الإرادية وأوتارها فان عمله فى التفاحة لايكون إلا بعد تمام عمل الجهاز العصبى، ألا ترى رعاك الله أن صورة التفاحة لما وصلت إلى القوة الحاكمة فى الدماغ أسرعت تلك القوة إلى تحريك أعصاب الحركة المتصلة بالعضلات وأوتارها فى اليد فاقتطفتها، فأعصاب الحس وظيفتها علمية وأعصاب الحركة وظيفتها عملية. سبحانك اللهم قد جعلت عمل أعصاب الحس مقدما على عمل أعصاب الحركة كما جعلت قراءة العلم مقدمة على العمل. فلا عمل إلا بعد علم كما لا اقتطاف للتفاحة إلا بعد إحساس بها، ووظيفة هذا التفسير علمية كوظيفة أعصاب الحس، وسيكون العمل بعد العلم كما كان اقتطاف التفاحة بعد العلم بمنفعتها. فتعجب من صنع الله. واعلم أن لهذا التفسير رجالا سيقومون برقى هذه الأمة فهم كأعصاب الحس ويتبعهم رجال العمل كأعصاب الحركة، فهذان جهازان من الأجهزة الثمانية المتقدمة قد استبانت أعمالها فى هذه التفاحة، هنالك يأتى عمل [الجهاز الثالث] وهو الجهاز الهضمى؛ فالفم يتلقاها والأسنان تمضغها وغدد اللعاب تفتتها وتهضمها والبلعوم يدحرجها والمرىء يزلقها والمعدة تطبخها

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه (الفك السفلى والعلوى) (٣) الفقرات (٤) القص (٥) الفقرة الأولى الظهرية (٦) عظم اللوح (٧) عظم العضد (٨) عظم الزند (٩) عظم الكعبرة (١٠) عظام الرسغ (١١) عظام المشط (١٢) عظام الأصابع (١٣) الحرقفة (١٤) عظم الفخذ (١٥) و (١٦) عظما الساق (١٧) الرضفة (١٨) عظام القدم (١٩) عظام المشط (٢٠) سلاميات القدم (٢١) عضلات العمود الفقرى (٢٢) العضلات المستقيمة للبطن (٢٣) العضلات المقدمة للعنق (٢٤) عضلات الذراع (٢٥) عضلات الساعد (٧٦) عضلات الفخذ المقدمة (٢٧) عضلات الفخذ الخلفية (٢٨) عضلات الساق الخلفية (٢٩) عضلات الساق المقدمة.

والبنكرياس يزيد هضمها كما فعل اللعاب فى الفم . والكبد والأمعاء يقتسمان مواد هذه التفاحة فالكبد تأخذ الخلاصة الغذائية التى صارت دما والأمعاء تأخذ الفضلة التى لاتصلح للغذاء لتقذفها إلى الخارج بعد تمام دورتها هنالك يأتى عمل [الجهاز الرابع] وهو الدورة الدموية وعمل [الجهاز الخامس] وهو الدورة التنفسية فنرى القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية التى تحمل الدم الوريدى وهو الأسود والدم الشريانى وهو الأحمر تقوم بإدارة الدم فى الجسم . وما هذا الدم إلا خلاصة تلك التفاحة فتعطى تلك العروق الشريانية لكل عضو من أعضاء الجسم قسطه وحظه وما يناسبه من خلاصة تلك التفاحة ، وأما الدورة التنفسية التى تقبل الهواء الجوى فى الحنجرة وفى القصبة الهوائية وفى الشعب وفى الرئتين فانها هى التى بها يطهر الدم الذى يديره الجهاز الدموى فان الهواء حينما يصل إلى الرئتين تلتقطان منه الاكسوجين وتعطيانه المواد السامة للجسم المسودة للدم التى هى أشبه بالفحم المسماة (المادة الكربونية) فيأخذها الهواء ويحملها إلى الخارج بطريق الزفير ، فجهاز التنفس مساعد للجهاز الهضمى . أما الجهاز اللينفاوى فهو أشبه بتابع لجهاز الدورة الدموية ، وهو الجهاز السادس ، فاذا رأينا لبن إناث الحيوان ولبن المرأة التى أكلت هذه التفاحة فاننا نقول إن هذا الجهاز اللينفاوى قد قلب الدم إلى مادة لبنية ، وهكذا المواد التى فى الطحال وبعض الغدد ، فهذه كلها من العوامل التى تعمل فى الدم وتصنع منه مواد تغاير الدم لمنافع خاصة ، وأما الجهاز البولى المتقدم فهو الذى يأخذ من الدم المادة المائية الضارة بجسم الحيوان ويقذفها إلى الخارج بطريق الحالبين والمثانة ومجرى البول وذلك فيه الماء الباقى من ماء التفاحة الذى لا يلائم تركيب الدم . وهناك [الجهاز الثامن] وهو الجهاز الجلدى فان مافيه من الغدد الدهنية والشعر والأظافر وكذا الطبقات المختلفة يأخذ كل منها حظه من خلاصة التفاحة الجارية فى العروق الشريانية . هذا هو المثل الذى طلبته أيها الذكى وجعلت له الفصل الأول من الفصلين اللذين أردت ذكرهما فى هذا المقام .

﴿ الفصل الثانى : فى أبدع مارأيته فى هذا المقام ﴾

اعلم أيها الذكى أنى فى هذه الأيام أى فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ قد أحاطت بى عوائق وموانع منزلية وخارجية فكادت تحول بينى وبين الأفكار الجميلة البهجة التى أضعها فى هذا التفسير ، فلما رأيتها قد أحاطت بى رفعت طرفى إلى السماء ليلا ورأيت المجرة السماوية التى يقول علماء عصرنا فى آخر كشف كشفوه : إن عرضها عشرون مليون سنة نورية وطولها مائة مليون سنة نورية ، فأخذت أسأل مبدع هذا النظام المدهش ، ذلك الذى جعل عينى وأنا فى هذه الأرض الصغيرة ترى وتدرك إدراكا سطحيا لاحد لمداه ، تلك المجرة يقول علماؤنا ان هذه المجرة فيها مئات الملايين من النجوم وتلك النجوم أكثرها أكبر من شمسنا ولكل منها سيارات وأرضون وللسيارات أقمار . وإذا كان عرضها (٢٠) مليون سنة نورية فمعناه أن اتساعها يخرج عن دائرة الفكر الانسانى ، فمابالك بالطول ومابالك بالمجرات الأخرى . فكرت فى هذا كله ليلا وشكوت إلى الله ما أخافه من انقطاع الفكر الذى أنشره فى هذا التفسير . فانظر ماذا جرى . اللهم إنك أنت اللطيف الرحيم الرءوف فماذا حصل ؟ قمت صباحا يوم السبت أى يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ متوجها إلى عمل الدنيوى وقابلت لأجل هذا العمل صديقا لى بضواحى القاهرة وكان ابنه قادما من أوروبا وهو يتعلم علم الطب ففرح إذ رآنى فدار بيننا الحديث على الطب والتشريح فتذكرت فى نفسى ماكان يخطر لى كثيرا فى فترات من الزمان فى أمر تركيب اليد ونظامها وعجائبها (انظر نمرة ١٠ و ١١ و ١٢ فى شكل ١٠ المتقدم) وتذكرت أنه يخيل للناس أن أمر اليد سهل وأن تحريكها بالحركات المختلفة ليس يعوزه أكثر من أن يكون هناك عظم وعلى العظم عصب ولحم وعروق وأوتار وهذه الأوتار تفعل كل مايطلب منها ، ومعنى هذا أن العضلات والأوتار الموضوعة فى أيدينا

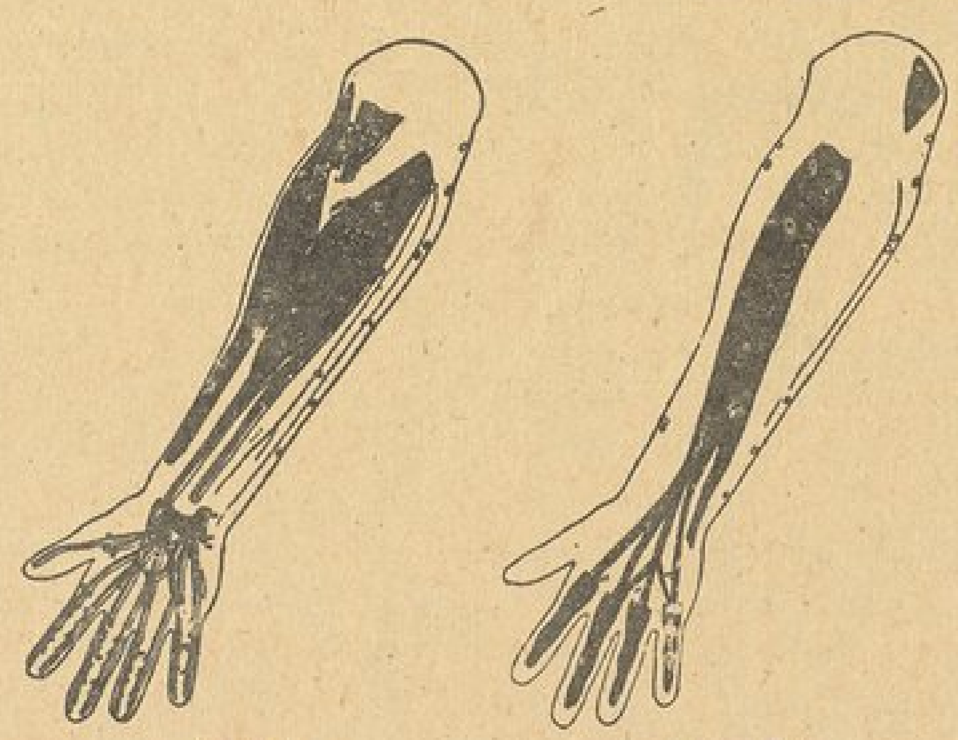
تفعل القبض والبسط وجميع أنواع الحركات الكثيرة، وهى هى بعينها فى الجميع ولكن ظهر أن الأمر على خلاف ذلك وأن كل حركة مهما صغرت ودقت لها أعصاب غير أعصاب جميع الحركات ؛ ومعلوم أن عظام اليد تبلغ (٢٧) عظما منها (٨) فى الرسغ وهى صفان و (٥) فى راحة اليد و (١٤) فى الأصابع فى كل أصبع ثلاث وفى الإبهام عظمان : أحدهما أكبر ، والثانى أصغر فتكون العظام (٢٧) وهنا يخيل لأكثر الناس أن الحركات بهذه العظام أمر لا يحتاج إلى عناية أكثر من إرادة الانسان ولكن هذا خطأ فان هذه العظام مرتبطة بعضلات فى الذراع وهذه العضلات متصلة بأعصاب توصلها إلى المركز العصبى ، وهو المخ والعمود الفقرى فمتى أراد الإنسان تحريك إبهامه أو أصبع من أصابعه أو جميعها أو اثنين أو أكثر مجتمعة أو منفردة قبضا أو بسطا أو يمينا أو شمالا أو أوقف أصابعه بهيئة زاوية قائمة أو ضغط عليها إلى الخلف أو أوقف يده فجعل إبهامه أعلى والخنصر أسفل أو بالعكس أو جعل يده أشبه بالملعقة أو المجرفة ليشرب الماء مثلا أو ضمها ضما مصمتا جامعا الأصابع للوكز بها أو ضمها ولها فراغ من الداخل بحيث يمكنه تخبئة شىء فيها أو جعلها بهيئة بحيث يمكنه أن يكتب بها أو جعل الإبهام مع السبابة بهيئة حلقة وهكذا مع بقية الأصابع ، فهذه هيئات تعد بالعشرات بل ربما تصل المئات لأن الهيئات المذكورة كثيرة جدا ، فانظر ماذا يقول علماء التشريح . ها أنا ذا الآن أنظر أمامى العضلات التى فى الذراع التى بها تتم هذه الحركات المختلفة أنواعها والرسوم التى أراها الآن أمامى التى رسمها الأستاذ (تشيزمان) وأراها لى هذا الشاب تبلغ (١٢) رسما أولها رسم الجلد أى جلد اليد وقد وضع على ورق شفاف ثم رفع هذا الرسم فظهر تحته رسم ماتحت الجلد مباشرة وفيه الدهن وفيه الأعصاب الجلدية مباشرة والأوردة وهذه الطبقة وظيفتها إعطاء الإحساس بحيث يصل مايحس به الإنسان إلى دماغه ، فإذن هذه الطبقة الثانية لمساعدة الجلد والطبقة الثالثة تحت الأولى وفيها عضلتان بهما يقدر الإنسان أن يثنى يده من عند رسغه وكذلك عضلات لثنى الأصابع كلها مجتمعة أو منفردة بواسطة أوتار تفعل ذلك فلكل أصبع عصب محرك يحركه إلى الأمام بوتره كما قلنا فيما تقدم والرابعة تحتها فيها الشرايين المغذية وهى تغذى هذه العضلات والجلد فوظيفتها التغذية العامة فى اليد وفيها أعصاب تصل إلى مافوقها وإلى ماتحتها ، والخامسة تحت الرابعة وفيها الأعصاب الواصلة لعضلات أخرى غير المتقدمة وهى العضلات العميقة الغائرة وهى تساعد على القبض بأنواعه المتقدمة كلها ، والسادسة الهيكل العظمى المتقدم ذكره . ثم ننقل الكلام إلى الناحية الثانية وهى جلد ظهر اليد وأظافره وشعره وهى الطبقة الثانية عشرة ثم الطبقة الحادية عشرة فيها أعصاب الحس والعروق الوريدية كالمتقدم وفائدتها مساعدة الجلد على الحس كما تقدم فى الناحية الأخرى والطبقة العاشرة العضلات التى فيها هذه لحركة البسط كما أن الثالثة فيما تقدم لحركة القبض وتنوع الحركات هنا كتنوعها هناك ولكن تلك للقبض وهذه للبسط وتحتها الطبقة التاسعة وفيها الشرايين المغذية والرابعة كالتاسعة والخامسة كالثامنة . وأما السابعة فهى نفس الهيكل العظمى المتقدم من ناحية ظهر اليد .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لاتزال طبقات اليد غامضة غير واضحة ، فقلت : إن جميع العقلاء من المسلمين وغير المسلمين يعيشون ويموتون وهم يجهلون خواص جسم الإنسان كله إلا قليلا ، وهذه اليد مثل من أمثاله والمسلم لايعرف من أمر اليد إلا أنها تقطع فى السرقة وأنه يأكل بها ويدافع العدو ولكن التفكر فى عجائبها قليل، والله يقول «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» ويقول «فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» . فاذا نظرنا إلى اليد نظرا علميا كالذى نظرته الآن فى هذه الصور التى رأيتها أمامى وهى ١٢ صورة رأينا هنا ست طبقات من جهة باطن اليد وستا من جهة ظاهرها وطبقتان من هذه الست فى الوسط وهى عظم الساعد ، فالعظم له وجهان . وجه يلى باطن اليد ووجه يلى ظاهرها ، فهذان وجهان من

الأوجه الاثنى عشر . وهناك جلد على باطن اليد وجلد على ظاهرها وهذه يسمونها فى الطب (بالناحية الانسية) و (الناحية الوحشية) فهاتان طبقتان أيضا ، فبقى أربع طبقات من جهة الباطن وأربع طبقات من جهة ظاهر اليد . فمنها طبقتان كل واحدة منهما فى جهة من الجهتين هما تحت الجلدين المذكورين ، وهاتان الطبقتان فيهما قوة الحس ولولاهما لم نحس بما يمس جلودنا من نفع أو ضر ، وهناك طبقتان أخريان فى كل ناحية طبقة تحت السابقتين بهما جهازا الحركة كما تقدم فى أمر التفاحة ، فالحس أولا والحركة ثانيا ، فهكذا هنا حس لحركة والحس أولا والحركة ثانيا وتحتهما طبقتان فى الناحيتين أيضا للتغذية بواسطة الجهاز الدموى ثم طبقتان فى الناحيتين فيهما عضلات أخرى غير العليا للحركة أيضا .

هذا ملخص ما رأيته فى الصور الاثنى عشر المذكورة . ولقد اصطفيت من هذه الصور (صورتين اثنتين) وهما الصورتان اللتان فيهما عضلات الحركات التى للقبض والحركات التى للبسط ، فالأولى موضعها من جهة باطن اليد والثانية موضعها من جهة ظاهرها ، فأما التى للقبض فانظر صورتها (شكل ١١) وأما التى للبسط فانظر صورتها (شكل ١٢) .

ولقد تقدم قريبا فى (سورة الحج) عند قوله تعالى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» الخ إيضاح أجمل لهذا المقام فاقرأه هناك إن شئت .



(شكل ١١)
(صورة العضلات التى للقبض من جهة باطن اليد، وهذه طبقة من طبقات ست)

(شكل ١٢)
(صورة العضلات التى هى طبقة من الطبقات الست من ظاهر اليد وهى للبسط بجميع أنواعه)

فقال صاحبى : الآن فهمت الفصل الثانى وعجبت من الصنع كما عجبت أنت ولكنى أريد كلاما عاما على ما تقدم ليستبين جمال الله عز وجل وبدائع حكمته . فقلت إن الأجهزة الثمانية فى الجسم الانسانى السابقة قد اتحدت على العمل، فجهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وجهاز البول وغيرها مما تقدم

كلها متعاونات متحدات متحابات ، فاعجب لدورة دموية متحدة مع دورة تنفسية، فإحداهما تنظف الأخرى مما علق بها من المضار وثانيتهما تعين الأخرى وتغذى أعضاءها، فهذه تغذى، وهذه تنظف، وهما متجاورتان متحابتان ، وقد ظهر أثر تلك الأجهزة فى كل عضو ومنها اليد فاننا نرى جهاز الحس وصل إلى ماتحت الجلد فى الناحيتين وجهاز الحركة وصل أثره إلى ماتحت جهاز الحس فى طبقات اليد . إن دوائر هذا الجسم الإنسانى متحدات متعاونات عاملات كلها تحت إشراف مسيطر واحد، هو المدبر العام للجسم الذى نسميه روحا .

هذا النظام العجيب المدهش قد وضع فى جسم هذا الإنسان . يظن الإنسان من أى طبقة كان أن عضلات القبض عين عضلات البسط فوجدنا فى الصورتين المتقدمتين أن عضلات القبض من جهة الباطن وعضلات البسط من جهة الخارج، ومعنى هذا أن لكل حركة عضلات خاصة وقس على ذلك جميع الحركات فى اليد صغيرة وكبيرة ، وما مثل اليد إلا كمثل الفسطاط المثبت بالأوتاد قد ربطت فيها الأطناب المشدودة التى تقوى ولكن لكل ناحية أوتاد وأطناب غير الناحية الأخرى فهكذا اليد لها أوتار وعضلات فى كل من الناحيتين ، هذه للقبض وهذه للبسط ، ثم إن هذا الإنسان الذى أنعم الله عليه بهذا الجسم المنظم المحكم هو الذى سكن هذه الأرض ولم نر من أعماله مايدل على كماله الخلقى المشابه لكماله الجسمى ، فياليت شعرى أين المناسبة بين نظام هذا الجسم والنظام المحكم فى طبقاته وبين نظام كثير من نوع هذا الإنسان ؟ انظر ما تقدم فى أول سورة (طه) من ذكر الأمة التى تعيش بالقرب من ساحل الذهب التى ذكرناها عند قوله تعالى « الذى خلق الأرض والسموات العلى » فانظر لنظام تلك الأمم الذى كله قلق واضطراب وإهلاك وتدمير وعيوب نظامية اجتماعية فياليت شعرى أين نظام العمران ونظام جسم الإنسان . يظهر لى أن هذا العالم الذى نسميه إنسانا لاينال الدرجة الرفيعة والسعادة الحقة إلا إذا تعاونوا جميعا بحيث تكون هيئة نفوسهم فى تعاونها كهيئة انتظام جهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وهكذا فهى تعمل منتظمة متبادلة المنافع . يعجبنى ماقاله بعض الأرواح التى أحضروها فى أوروبا، وهذا نصه : إن الأرواح العالية تكون آراؤها كلها واحدة فلايخطر لأحدهم إلا مايخطر للجميع فالرأى واحد ويجب عليكم فى الأرض أن تعرفوا هذا من الآن . وهذا القول عجيب فهو المطابق لنظام جسم الإنسان وهو المطابق لقول الله تعالى « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا » فهم إذن أشبه بالأجهزة المتعاونة فى الجسم الإنسانى ، ألست بهذا تعرف معنى قوله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » وأى تقويم أحسن مما رأينا فى هذا المقام ثم أعقبه بقوله « ثم رددناه أسفل سافلين » وهذا حق لأنه إذا كان جسمه على أحسن نظام فان نظامه المدنى على أسوأ نظام .

ويظهر لى حقا أن النوع الانسانى فى مدنيته كلما كان أقرب فى التعاون إلى تعاون الأجهزة الجسمية كان أقرب إلى السعادة ، وكلما كان مفكك العرى غير منتظم فى هيئة حكومته كان أبعد من السعادة التى توجب على هذا الانسان أن يكون جميع طوائفه فى الشرق والغرب أشبه بنظام جسم الانسان بحيث لايكون فى صدورهم حرج من النظام العام الذى يعيشون فيه ، والله هو العليم الحكيم .

فعلى أمم الاسلام بعدنا، وعلى قراء هذا التفسير خصوصا أن يجدّوا فى رقى أممهم وأن يقتبسوا كل علم وكل فنّ بحيث تتشعب الأسلاك البرقية والبريدية والطرق الحديدية فى جميع أنحاء المملكة كما رأينا أعصاب الحس والحركة متشعبة فى جميع أعضاء الجسم ، وعليهم أن يربوا الشعب كله تربية إجبارية بحيث يعرفون المنافع والمضار كلها ويكون منهم نواب للأمم يتعاونون تعاون الأجهزة المنتشرة فى أقطار الجسم ، هذا أمر واجب على المسلمين فعليهم قراءة علوم الأمم ثم الازدياد فيها فبهذا يفهمون قوله تعالى « فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم ، وعلى أنك لم تجعل العوائق المادية مانعة من ازدياد العلم بل أنعمت علىّ بالعلم والفهم أثناء هموم الحياة وأوصابها، والحمد لله رب العالمين .

﴿ نور على نور فى قوله تعالى « ثم أنشأناه خلقا آخر » إلى قوله « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » ﴾

اعلم أن هذا الإنسان علم أشياء كثيرة ، ونسى نفسه . يفرح الناس بكشف الكهرباء والمغناطيس والجاذبية وقوة البخار وأشعة الراديوم والطيارات الطائرات فى الجو ، يفرحون بذلك وفاتهم جميعا أن ذلك أشبه بفرح الفارس بقوة فرسه وكره وفره وحسن طاعته وهو خلو فى نفسه من الكمال . وأى فرق بين الفرس الفاره وبين هذه القوى التى كشفت حديثا لراحة الإنسان . كل هذه القوى والعوالم خارجة عن نفس الإنسان . يفرح الناس بذلك ، وهم غافلون عن أنفسهم إلا قليلا . يخلو الإنسان فى خلوته ساعة ويتفكر فى نفسه ويحصر فكره فى وجهة خاصة أو ناحية من الأرض فيجد الفكر بأسرع من لمح البصر انتقل من الغرب إلى الشمال ثم إلى الجنوب ثم إلى الشرق ثم إلى أعلى الأفلاك ثم إلى مداب السمك ثم إلى داخل الأرض وما تحت البحار ثم يطير فى الجو ثانية . يعرف الإنسان ذلك من نفسه فلا يحرك له ساكنا ولا يلقى له بالا . ينظر المرء فى نفسه فيجدها أسرع من جرى القطار بل من الكهرباء فى الأسلاك ولمع البرق الخاطف فلا يهيجه ولا يحركه ويظن أن ذلك كله أمور لاقيمة لها ، وإنما كانت لا قيمة لها لأنها حاضرة عنده لم يتجشم المشاق فى تحصيلها كأن مالا سعى له منبوذ وما لا تعب فيه مطروح، فهذه القوة لما لازمت الإنسان من صغره عدّها من سقط المتاع ولم يعرها التفاتا مع أنها قبس من الأنوار ونور من عوالم الجمال وشهاب ثاقب . النفس بسرعة حركة خواطرها تجرى حثيثا إلى عوالم الكواكب وتسرع فى خطاها إلى الملأ الأعلى وتود لو تعرف كل كوكب دخل فى حسبان علماء الفلك وتطلع (بتشديد اللام) إلى أن ترى سكانها وتفرح بالعروج إليهم والاطلاع عليهم . النفس تجرى لا مستقرّ لها إلا إذا استوعبت العوالم عالما عالما وعرفت عجائبها . هنالك يقول شاعرها :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

الإنسان خلق من الأرض وربى بالنور الواصل من الكواكب والهواء المحيط بالأرض فهو إذن ربيب العوالم العلوية والسفلية وهو مركب من جسم وروح فجسمه أشبه الأجرام الفلكية والكواكب الدائرة ومنها الأرض . تلك الكواكب تتحرك فى دورانها جميع الحركات الممكنة فى الدوران . هكذا الانسان يحرّك إلى أعلى وإلى أسفل وإلى الجهات الأربع وذلك فى صناعاته المختلفة فيحرك الانسان يده إلى أعلى وأسفل وإلى الجهات الأربع مشاكلة للكواكب وللارض فى إتمام سائر الحركات الممكنة . هكذا نجد نفوسنا لها حركات فكرية إلى هذه الجهات عينها وتزيد على ذلك بأنها تودّ استيعاب جميع العلوم ومعرفة العوالم كلها . إذن النفس من نالم له هذا السلطان وهو المسمى (النفس الكلية) التى استمدت منها نفوسنا :

إن شوق نفوسنا إلى معرفة كل شىء دليل على أن النفس التى استمدت منها نفوسنا تعلم كل شىء ولها الإحاطة والتصرف . ولولا ما فيها من هذه القوة العلمية والعملية ما اشتاقت نفوسنا إلى حوز جميع العلوم وجميع النعم . فإذا قال قائل . من هذا الإنسان ، وما هى الأرض التى يسكنها . لقد ثبت أن هذه الأرض بالنسبة للعوالم التى نعيش فيها أشبه بجوهر فرد بالنسبة لألف مليون أرض فلو صغر العالم كله بحيث صار ألف مليون أرض كأرضنا كانت أرضنا جوهرا فردا . ومعلوم أن هذا لاتمكن رؤيته فكيف يكون سكانها أمثالنا لهم قدرة على الاطلاع على العوالم كلها وهم والعدم سواء ، وكيف يشتاقون لما لايصلون إليه ؟ فإذا قال قائل هذا قلنا حقا إننا من عوالم ضعيفة ونحن بهذا المقدار بالنسبة للعوالم ولكن هذا العالم الذى نعيش فيه مملوء رحمة

مشمول بالحكمة فإنك ترى الجوهر المادّى إذا أطلق ما فيه من القوى والكهرباء إلى الخارج اشتعلت الأرض كلها نارا . وأيضا إن الجواهر الصغيرة حركات من ذرات كهربائية يدور بعضها على بعض كدوران السيارات حول الشمس ، إذن عالمنا الذى نعيش فيه جملت صغاره فيها ما فى عظائمه من القوى كل بقدرة فالجوهر الفرد فيه نور وحركات سريعة كنور الكواكب وحركاتها :

فإذا كان هذا فى العوالم المادية فليس بعجيب أن تكون أرواحنا مستمدة من عوالم نسبة أرواحنا إلى تلك العوالم كنسبة الجواهر الفردة للكواكب . فإذا كانت النفوس العالية مطلعة على عوالم عظيمة واقفة على أسرارها فهل كان بدعا أن تحذو أرواحنا حذو تلك الأرواح العالية فتشتاق إلى ماملكت تلك وتقلدها .

هذا هو السر فى ولوع نفوسنا بالعوالم والاطلاع عليها فهى أبدا لا تهدأ ولا تسكن مشرقة مغربة متجهة شمالا وجنوبا باحثة بالفكر عن العوالم علويها وسفليها . اتجهت الذرات الجسمية فى العوالم إلى ما اتجهت إليه كواكبها من الحركات واتصفت بما اتصفت به من الأنوار . هكذا اتجهت أرواحنا إلى ما اتجهت إليه النفوس العالية المحيطة بعالمنا فقلدتها بالفطرة فى إشراقها والولوع بمعرفة العوالم كلها . هذه هى فطرة الإنسان المستقرة فيه . وليس ما أقوله لك الآن مجرد رأى رأيته أو خاطر خطر لى . كلا ، فما من أمة من الأمم أو جيل من الأجيال إلا سمع بحوادث تدل على ما أقوله لك بحيث تكون حركات النفس الفكرية التى يحسّ بها كل امرئ [وإنه بينما يفكر فى بقعة فى الشرق إذا فكره قد انتقل أسرع من البرق إلى بقعة بينها وبين الأخرى ألف ميل غرب الأولى] تصبح حركات فعلية لا مجرد خاطر خطر أو فكر عرض ، وذلك فى علم الأرواح وإن فيما نقاته فى هذا الكتاب من علم الأرواح لدليلا ساطعا وبرهانا قاطعا ولكن أذكر حادثة تلك الفتاة التى نوّمها العلامة شارول فقالت له (إنك نائم وأنا يقظانة) فإنك ترى الأشياء خشنة غليظة وأنا أرى باطنها وأسمع مالا تسمع وأبصر مالا تبصر وأدرك مالا تدرك وأسمع من يتكلم من بلدة أخرى . وقال العلم ذاته [ان ابنة كان يحصل لها فى السبات الطبيعى نوع من الانخطاف فقالت إنها كانت تحس بأن جسمها يتمدد شيئاً فشيئا إلى أن تفارقه وتراه بعيدا باردا كأنه ميت ثم قالت وأرى نفسى كبخار نورانى أرى وأدرك مالا أقوى على إدراكه فى أية حالة كنت عليها ولا تبقى هذا الحال إلا بضع دقائق وقد تصل إلى ربع ساعة ثم يجىء الجسم البخارى إلى الجسم الغليظ فأفقد الشعور ويزول عنى الانخطاف] وهناك أناس انتقلوا إلى محال بعيدة بفعل أرواحهم وهذا ليس مطلب النفوس الإنسانية . إن مطلب النفوس الإنسانية إدراك كل شىء والإحاطة بالعوالم كلها وهؤلاء الذين انتقلوا فى لمح البصر إلى أماكن بعيدة إنما انتقلت أرواحهم بأجسامهم الروحية الأثيرية وفى قدرة كل امرئ هذا الانتقال متى وجه نفسه وجهة خاصة ولكن ليس هذا دالا على سموّ هذه النفوس فسموّ النفوس شىء، وطبعها العام شىء آخر وهذا المذكور من طبعها العام ، لامن سموّها . وأنا أذكر حادثة أيام تملى بالجامع الأزهر، وها هى ذه :

كنا منصرفين من الجامع الأزهر إلى قرانا لنرجع إلى أهلنا وركبنا سفنا شراعية فقمت ليلا من المركب لأطلع إلى البر وقت الفجر فوقعت فى البحر بين السفينة والشاطئ وكان البرد شديدا فلما وصلت إلى قريتنا فاجأتنى والدتى قائلة : يابنىّ رأيتك وقت الفجر فى لجة البحر مرتعدا فقمت من فورى فزعة فأخبرتها الخبر فتعجب الناس من ذلك . وهذه حاصلة فى كل زمان ومكان ولكن الناس لا يعبئون بما تكنه نفوسهم احتقارا لشأنها وجهلا بعلمها . وقصارى القول ومداه أن النفوس الإنسانية مقبلة على مستقبل على عظيم فى العوالم الروحية وهذا المستقبل يدل عليه أحوالها الحاضرة من حب استطلاعها وكشفها ومن

سرعة خاطرها وجولانها الفكرى فى كل زمان ومكان وفيما لا يتناهى من العوالم « والله من ورائهم محيط » والحمد لله رب العالمين .

(بهجة العلم : فى قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين »)

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة مبتدأة بفلاح المؤمنين المتصفين بما يأتى :

(١) يصلون .

(٢) يخشعون فى الصلاة .

(٣) يعرضون عن اللغو فى الأقوال والأفعال .

(٤) يعرضون عن اللغو فى المال بإخراج مافضل عن الحاجة إلى المستحقين ، وعلى الأقل الزكاة .

(٥) وعن الشهوة الأخرى فى النوع الانسانى .

(٦) يعيشون بأمان مع الناس بإيفاء العهد الخ .

(٧) يحافظون على صلاتهم .

(٨) ونتيجة ذلك أنهم يرثون الجنة .

(٩) وعقب ذلك بذكر العلوم التى هى مفتاح الجنة ، فذكر خلق الانسان وتطوره ثم خلق السموات .

(١٠) ثم ذكر عدم الغفلة عن هذه المخلوقات .

ههنا يتبدى للعقل . ما المناسبة بين تلك الفضائل وهذه العلوم ، ولماذا كررت الصلاة مرتين مرة مع الخشوع وأخرى مع المحافظة عليها .

اعلم أن الانسان لا يستقيم له علم إلا بصرف الشواغل والذى يشغل الانسان بطنه ولسانه وفرجه وأمور عامة ؛ فالزكاة للأول وترك اللغو للثانى وحفظ الفرج للثالث وإيفاء العهد ونحوه للرابع ، فاذا كمل الانسان فى هذه فعليه إذن أن يتعلم ضبط النفس وضبط النفس لتوجيهها إلى المطلوب فان المطالب العلية إن لم يتوجه لها الانسان توجها تاما لم يدركها وهذا الضبط جعلت له الصلاة . إن المسلم حين يخشع فى الصلاة ويوجه همته كلها للمعبود ينال أمرين : الأول الاعتياد على حفظ الخواطر فيوجهها لأمر واحد . الثانى توارد العلوم على قلبه فها أنا ذا أذكر ماورد على قلبى فى صلاة فى يوم من الأيام . ذلك أن المصلى يقول : (الله أكبر) فى أول الصلاة وهذا التكبير مع التسليم قد شرحت الكلام عليهما فى (سورة الاسراء) عند ذكر المعراج ، وههنا أقول ما انشرح له الصدر فى مقام هذه الآية وهى « وما كنا عن الخلق غافلين » فأقول :

الله أكبر . جل العلم وجل الله الذى علم وألهم ووفق وأحسن . يكبر المسلم فى أول الصلاة فلا يقول الله كبير . كلا ، بل يقول إنه أكبر . فاذن كل ماعلمناه من علم وحكمة فان الله أكبر مما علمنا وعليه نزيد فى الرقى والتعلم وكلما ازددنا علما قلنا الله أكبر . فاذن العلم لا نهاية له لأن الله بعد ماعلمناه أكبر من هذا كله ، الخلاء لا يتناهى والمخلوقات جهل الناس نهايتها . أفليس الله إذن يكون لا نهاية له فمهما ارتقينا فالله لا نهاية له بعد مانعلمه :

(١) يوجه المسلم وجهه للذى فطر السموات والأرض فيقال هناك ماهو أعظم لأن الله أكبر .

(٢) يحمد الله لأنه ربى العوالم المعروفة فيقال له الله أكبر من هذا كله فهناك عوالم ستكشف .

(٣) يقول المسلم نحن نعبدك فيقال له وهناك عبادة أعظم لأن الله أكبر .

(٤) يستعين المسلم بربه فى أموره فيقال له وهناك مواهب أعظم فيمنك فيما تطلب فوق هذا لأن الله أكبر

(٥) يهدى الله المسلم الصراط المستقيم فيقال له وهناك هداية أعظم لأن درجات الرقى لا حصر لها فان الله أكبر .

إذا علمت هذا فانظر فى قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» . هذه الآية تدخل فى العلوم كلها وكلما ازددنا علما ازددنا طلبا . فهل تفكر فى نبات أم فى حيوان أم فى معدن أم فى كوكب . حفظ الله لهذه العوالم ليس يعرف ألبتة إلا بالعلوم ودراستها .

إن عدم غفلة الله عن خلقه لن تدرك حق إدراكها إلا بالنظر فى كل علم وهذا أمر لا آخر له وكلما ازددنا علما يقال لنا الله أكبر . إن هذا التفسير قد مزجت فيه العلوم المعروفة وفصلت تفصيلا . إن فيه من كل علم زهراته ومن كل فن ثمراته فاقتطف تلك الثمرات فيما تقدم ، ولكن يقول المسلم الله أكبر ويقول الله لنبينا صلى الله عليه وسلم «وقل رب زدنى علما» فهاك ماراًيته وأشرت إليه فى (سورة هود) إنى اطلعت على عجائب لاتخطر بالبال فى كتاب يسمى [علوم للجميع] باللغة الانجليزية لمؤلفه الأستاذ (روبرت براون) فقد جاء فى صفحة (١٢٨) وما بعدها من المجلد الثانى ما ملخصه تحت عنوان [الألوان الحافظة للحيوان]:

(١) أن المفكر العادى يرى أن ألوان الحيوانات وزعت عليها بلا منفعة ولا علم وإنما هى مصادفات عمياء إن كل شىء فى المناطق الحارة يهيج لونه حسن شكله حيوانا كان أم نباتا .

(٢) إن أكثر الناس لايدرون لماذا كان هذا الحيوان أبيض وهذا أسود ولماذا تكون دودة الفراشة خضراء تارة وحمراء أخرى وآونة ذات خطوط وبقع من ألوان مختلفة موضوعة بلا نظام ، إن أكثر الناس لايرون أن هذه المباحث عقيمة النتائج قليلة الثمرات بل هى عندهم كلام باطل .

(٣) وسنذكر هنا أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها بل كثير منها لاتعيش إلا بحماية ألوانها الخفيفة .

﴿ الحيوان قسمان ﴾

قسم يعيش على غيره وقسم يأكله غيره . وبعبارة أخرى آكل ومأكول ، والقسم الثانى لابد له من الهرب من عدوه وإلا لمات وهذا الهرب (١) إما بسرعة الطيران (ب) وإما بقوة الملاحظة (ج) وإما بأن يخفى نفسه عن الناظرين (د) وإما بأن لايظهر ليلا (هـ) وإما أن يختفى تحت الأرض (و) أو تحت الأوراق (ز) أو قشور الأشجار (ح) أو الأحجار .

فبهذا كله يفر من الموت . أما القسم الأول وهو الحيوانات المفترسة فانها أيضا إن لم تكن مختفية عن أعين فرائسها حل بها البلاء ، فاذا كانت الأولى يعتريها العطب إذا لم تكن مختفية فهذه أيضا يقتلها الجوع إذا رأتها فرائسها ففرت منها ، إذن الألوان التى تتصف بها الفريسة يجب أن تكون غير واضحة حتى تربى أولادها وتحصل قوتها باختفائها عن الحيوان المفترس ، وهكذا الحيوان المفترس يجب أن لا يكون له لون ظاهر وإلا لهلك وتكون النتيجة هكذا [كل لون ظاهر فى الحيوان مهلك له آكلا كان أو مأكولا] فاللون إذن يجب أن لا يكون واضحا بل يجب أن لا يكون له وجود ألبتة مع أن اللون شائع وجوده فى الحيوان فضلا عن مجرد وجوده حتى يصح القول أن الزائد والناقص يتماحيان فى علم الحساب . إذن لامعنى للون يحمى الحيوان .

الجواب عن ذلك

هناك أجاب المؤلف قائلا إن امتحانات عظيمة جليلة أظهرت أن الألوان حتى ما كان منها أظهر وأبهج وأنضر حامية للحيوان حافظة لحياته :

(١) إن الأرض والسماء والأوراق والأزهار كلها براقة مؤثرات فى حياة الحيوان حامية له .

(٢) إن جمال الحيوان وبريقه قد يكونان إنذارا للحيوانات الأخرى بما يحمله الحيوان من سلاح أو ماف طعمه من كراهة . وفي أحوال أخرى توجد حيوانات كثيرة تحمى أنفسها بدون الاختفاء وهذه تصحبها الألوان وتلازمها . فلنلاحظ هذا الموضوع ولنفكر فيه فههنا مزرعة واسعة فيها ظهور الألوان وجمالها وبهجتها من وجه ، ومن وجه آخر هناك ألوان خفيفة وجدت كلها لتحمى الحيوان على حسب بيئة الحيوان وعادته وغرائزه .

(أمثلة الألوان التى تحمى الحيوان)

(المثال الأول)

حديقتى التى اعتراها نوع من الحشرات تسمى (سلاق) بسبب رقة الشتاء سنة ١٨٧٧ ورطوبة الربيع بعده ، ففى مساء ليلة أخذت أنحى تلك الحشرات عن أحسن النبات بالمبراة لأسقطه فى جرة فيها ماء ملح شديد الملوحة وحين أفعل ذلك كثير منها تتقلص وتقع على الأرض وهى مع أنها تقع على الأرض أمامى أراها تصير شبيهة بالحصباء التى تكثر فى تلك الأرض وهى مختلفة الألوان أبيض تقريبا وأحمر وأصفر وأسود تقريبا وهى حينما تنقبض وتتقلص بشكل بيضاوى تكون أشبه بالحصوات المبتلة المختلفة الألوان ، ثم إن حشرة من هذه سوداء كانت صفراء زيتية تحت ظاهرها . فلما تقلصت كان من العجب أنها أصبحت كحصاة سوداء من الصوان منشقة شقتين صفراء من الداخل وهذه حال الحصا الصوانى هناك تماما وهذه ربما يقال إنها حال خاصة إذ لابرهان على دوامها ولكن مر زمان تبعه زمان وأنا لم أعد أرى هذه الحشرات ألبتة بنظرى ولا واسطة لذلك عندى إلا أنى ألمس الحصوات المنثورة على الأرض بطبعها بالمبراة ولا زلت ألمس حصاة بعد أخرى حتى عثرت بما لان منها . هنالك أتانى اليقين أن هناك غاية مقصودة حقا والذى يغشى بأنه أحد الحصوات قادر أن يغش الطيور وغيرها التى تعيش على هذه الحشرة . أقول حقا إن هذا قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » .

(المثال الثانى)

فى المناطق الاستوائية الحارة كنت أضيف حاسة اللمس إلى حاسة النظر أيضا لأميز بين حشرة تسمى [حشرة العصا] وبين نفس العصا فنتج من هذا أنه من المسلم به أن المماثلة تكون فى بعض الحشرات لوقايتها لأنها تحميها من المهاجمة التى تنتابها من الطيور الآكلة للحشرات . وعليه تكون هذه الحشرة وهى (سلاق) قد حميت من الطيور الآكلة الحشرات بهذه المماثلة وكذلك (حشرة العصا) .

(المثال الثالث)

(الذى يحمى بعض السوس) فى بلاد الانجليز أنه أعطى قوة الانكماش عند مسه وهو إما أحمر وإما منقط وهذه لها عادة أن تسقط على الأرض عند مسها أو إزعاجها بحال خاصة وحينئذ لايعرف الفرق بينها وبين كتل الطين والحجارة .

(المثال الرابع)

وهناك نوع آخر يوجد دائما أخضر جميل ويجرى ويطير حينما يمس .

(المثال الخامس)

هناك نوع غريب صغير من الخنافس أحمر يحفر فى الأرض يصير أشبه بحبوب بعض النبات المسمى بالنبات الصيوانى .

(المثال السادس)

الخنافس الجميلة الشكل المساة (مسك بيتل) التي تقع دائما على أوراق الصفصاف تكون خضراء .

(المثال السابع)

الحشرات المسميات (سبردس) والتي تسمى (رقيمس) التي تلازم الخشب أو الأعمدة تكون سمراء أو تميل إلى الصفرة .

(المثال الثامن)

إن أحسن مثل ضرب للحيوان الذي برز وظهر بلونه هو الفراش الذي لا وقاية له تقيه في بلادنا الإنجليزية .

(المثال التاسع)

الفراش المسمى (اقريوبس) الأخضر اللون والآخر المسمى (أكرونيكتابى) الرمادى اللون يقعان على جذوع الأشجار نهارا ويختفيان اختفاء تاما بمشابهتهما للنبات المسمى (ليتشب) الذى يحيط بهما .

(المثال العاشر)

الفراش المسمى (لبيتموث) حينما يقع مظهرا جناحيه الأحمرين الكبيرين يشابه الورق الجاف في شكله ولونه (انظر شكل ١٣) .



(شكل ١٣ — صورة حشرة لبيتموث)

(المثال الحادى عشر)

بينما (بف تب موث) أى فراشة (بف تب) تقبض أجنحتها حتى تصير تماما مثل قطعة من عصا مكسورة وفى نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثا (انظر شكل ١٤) .



(شكل ١٤ – صورة حشرة بف تب)

ولا جرم أن هذه الحال تبين لنا إذا نظرنا هذه الحشرة فى خزانة كيف يستحيل علينا أن نتبين أهذا لون فراشة جاء لحمايتها أم لا ؟ فليت شعرى من ذا الذى يجول بخاطره أن هذا الجمال ولون الفراشة الواضح قد جىء بهما مشابهين لقطعة من عصا مقطوعة ليخفى على أبصارنا فلا نعرف أن ذلك سبب فى حفظ الفراشة من أعدائها . هذا قول المؤلف ، وأنا أقول يا ليت شعرى هل يعلم المسلمون بعدنا أن هذا هو معنى قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» وأنهم بعد ما بينا فى هذا التفسير يجب عليهم التبحر فى هذه العلوم فهم أولى بها من الفرنجة .

(المثال الثانى عشر)

إنه من الأمور التى يكثر وقوعها فى الأقطار الحارة أن نجد خنافس وفراشا تشبه زرق الطيور وهذا أيضا يحصل فى البلاد الانجليزية كما قاله الأستاذ (سيد قويك) [لقد وقعت فى الخطأ أكثر من مرة إذ كنت أرى فراشة ذات لون مختلط السواد بالبياض قد أشبهت زرق الطير واقعا على الورق (وبعبارة أخرى) رأيت الفراشة تشبه زرق الطير] .

(المثال الثالث عشر)

وهناك نوعان من الفراش يشبهان الحيطان المصنوعة من الطين التى يقعان عليها .

(المثال الرابع عشر)

وفى بلاد (السويزرلند) كنت أسلى النفس فى بعض الأزمان بملاحظة فراش يقع قريبا منى إذ يقع على حائط من الحجارة فى ذلك الاقليم موافقا لها وهو لا يتميز عندى على بعد بضعة (ياردات) منى .

(المثال الخامس عشر)

لقد لاحظ الناس أن اللون العام الخفيف الذى للفراش على أجنحته فى الخريف وفى الشتاء يوافق لون الطبيعة العام فى ذينك الفصلين ، قال العلامة (يوسف جرين) إن أكثر الفراش الخريفى مختلف لونه ما بين الصفرة والسمرة وذلك يشبه الأوراق الخريفية بينما نجد الفراش الشتوى فى نحو (هيرنيا) و (كيانونيا) ذا لون لطيف أشيب فضى .

(المثال السادس عشر)

إن دود الفراش لونه الواضح قد أعدّ لحمايته على وجه العموم . ألا ترى رعاك الله أن الجم الغفير من هذه المخلوقات أعطى لون الخضرة مشاكلة للون الورق الذى هو يعيش عليه ويتغذى منه ويعطى اللون السمرة حينما يكون وقوعه على قشر جذوع الأشجار أو الأغصان وكثير من هذه المخلوقات من أنواع أخرى مثل (جيومتريدا) أو (لوبرز) قد أعطى عادة أنه يغرس نفسه غرسا تاما مثل ماتغرس العصا التى هو يشبهها فى الشكل واللون .

(المثال السابع عشر)

كل امرئ يعلم أن هناك جما غفيرا من دود الفراش ولكنه يسأل قائلا : لماذا رأينا بعض تلك الأنواع قد حميت من الهلاك . ولماذا نرى أنواعا أخرى تحتاج إلى حماية ، ذلك لأنها قد فقدت مايحفظها والجواب على ذلك سيكون بالاستدلال والاستنتاج البرهانى ، ذلك أنه ثبت بالملاحظة والامتحان أن كل دود الفراش الأخضر والأسمر يكون طعاما هنيئا لذيذا بلا استثناء للطير وللضفدع وللضب وللعنكبوت . فهذه تسعى لتختفى من جوع هذه الأعداء بأنها تأكل فى الليل وحده أما فى النهار فانها لاتتحرك وتبقى على الأوراق والأغصان وقشور الجذوع التى شابهتها فى الألوان ، ومن جهة أخرى هناك نوع آخر منه لامع اللون يأنف من أكله الطير إذا عرض له وكذلك الضبّ والضفدع والعنكبوت فليس أحد هذه المخلوقات بقادر أن يلمس دود الفراش المذكور (انظر شكل ١٥) .



(شكل ١٥ — صورة دود الفراش المحفوظ بكراهة طعمه)

وقد يقتنص الطائر ونحوه ذلك الدود بفمه ولكنه حالا يلقيه من فمه لما أحس منه بالطعم الكريه وهذا القانون يسرى على دود الفراش الذى له شعر يغطى جلده والذى نسج غزلا يحيط به . والذى يزيد فى العجب أن هذه المذكورات لها طبائع تخالف ما تقدّمها من تلك الفراش الخضر والسمر وهو أن هذه تأكل نهارا ولا يخفين أنفسهن كالسابقات وتأكل علنا كأنها حفظتها حكومة نظامية وكأنها أعطيت علما بنجاتها من سائر أعدائها هذه هى الرابطة التى بين اللون المبهج السار وعادة الإقدام والشجاعة . الفراش تنزلنا نورا وتضىء لنا كثيرا من أحوال الضوء اللامع الذى إن لم يكن كذلك فإن وجوده يكون معارضا لفكرة الحماية والحفظ

وعلى ذلك نقول إن بين خنافسنا طائفة ساطعة اللون كالمسماة (الطيور السيدات) والجنود والسائحين بين الطائفة منها المسماة (ملكودرمس) وهذه الأنواع الذكورات حشرات مكشوفة ظاهرة ولا وقاية تقيها وهى لم تخف أنفسها يوما ما ولم تبحث عن ملجأ تلجأ إليه ولم تتظاهر بالموت كما تفعل الخنافس الأخرى . إن السبب فى ذلك قد وجد الآن . ذلك أنها أشبه بدودة الفراش التى لونت تلوينا بغير إتقان وهى لا تصلح طعاما لآكلات الحشرات :

(المثال الثامن عشر)

وهذا الإيضاح يصح أن يعطى للبياض الذى يظهر فى فراش مخصوص . إن أحد ذلك الفراش المخصوص هو المسمى (سيلما منثرستى) وهو فراش عادى جداً ولما وضعه فى طعام الفراخ الرومية الأستاذ (استانتون) فى جملة مئات من الحشرات الأخرى التى لا قيمة لها رفضته ولم تأكله وهكذا كل الطيور بالتعاقب التقطته ثم رمته لما رأته كريه الطعم ، وهذا نفسه قد حصل مع حشرة أبى دقيق الزاهية اللون المزخرفة التى تكون الطائفة المسماة (دنسدا) وقد لاحظ الأستاذ (بلت) الطيور الآكلات الحشرات فى جنوب أمريكا إذ رآها قبضت حشرة (أبى دقيق) وأحضرتها إلى أعشاشها لتطعم بها أفراخها الصغار وبعد نصف ساعة لم تحضر تلك الطيور أحد هذه الطائفة التى تطير فى كسل بلا وجل مرات كثيرة .

(المثال التاسع عشر)

وهناك طرق أخرى للحماية غير كراهة الطعم وبها يكون الاختفاء غير ضرورى . إن أسلحة الطير تقوم لها بحق الدفاع عنها متى كانت تامة فى نوعها لتجعل هذا النوع غير نافع لعدوه أو خطرا عليه إذا هو هجم عليه وأحسن مثال لأسلحة الحشرات (النحل والزنابير) فإن بين هذه ألوانا زاهية عامة بينما هى تطير هنا وهناك لتبحث عن غذائها من غير أن تحاول الاختفاء . وهناك حشرات أخرى لها غطاء قوى أو غزل متلبك بلا نظام وذلك وضع عليها لأجل أن لا تؤكل . إن من بين الحشرات التى فى الأقطار الحارة كثيرا من هذه الحشرات الظاهرات اللون المزوقات تزويقا غير منظم . خذ مثلا من أمثلة هذه الطائفة وهو الزنبور الياقوتى الذيل الذى ليس له حمة تكون سلاحا له وإنما أعطى قوة بها يدحرج نفسه فيصير كرة صعبة قوية وهو ملون بلون زاه بهيج بهى حسن حتى يظهر أنه جوهرة غريبة نادرة الوجود . وهناك نوع آخر ينال الحماية بالطيران السريع بأقصى شدة ممكنة ثم يخفى نفسه فى ثقب أو بين أزهار حينما يسكن وهذه دائما تظهر بلون لامع فتشبه (روز شعر) المعتاد . هذه الأمثلة القليلة تفيد أنه لا حجة تقاوم استعمال اللون للحماية فى بعض الحيوان مثل أن يقال إن هناك حيوانات لها ألوان مضيئة وليست للحماية . هذه أحوال أفادت أن الحيوان أعطى عوضا يجعله يعيش ويبقى نوعه . هذا العوض نقدر على فهمه فى بعض الحيوان وفى بعض آخر نحن جهلاء بالعادة وبما يحيط بالنوع لنحقق هل اللون يحمى أم هناك أمر آخر للحماية وإذا لم يحم اللون فما هى الحال الخاصة التى تقوم بالحماية بدل اللون .

(المثال العشرون)

دود الفراش لأمبراطور الفراش (أى تبع - بتشديد الباء - الفراش) جسمه محلى بالخضرة مع نقط وردية اللون فى جمال فائق منظم ويأكل فى مرعى ولونه متلائم تلاؤما موسيقيا مع براعيمه الخضراء وأزهاره الوردية حتى إنه يصعب كشفه بين تلك المراعى .

(المثال الحادى والعشرون)

لننتقل للصحراء . هناك لا أشجار ولا مراعى تحمى الحيوان بمشاكلته لها . إذن نجد تغيرا فى اللون

ليشاكل الحيوان ما حوله . فترى القبر (بتشديد الباء)وأنواعا أخرى من الطير وكل ماله فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد الحيات والضب . كل ذلك يلون الرمال . وليس هذا خاصا بصحراء بل هكذا كل الصحاري والجمل والأسد لهما لون لطيف رملى أو صخرى رملى .

(المثال الثانى والعشرون)

لنبحث فى الجهات التى فى القطب الشمالى ، فهناك اللون الأحمر المصفر اللطيف هو المطلوب ولكن اللون الأبيض الصافى وفى بعض الأحيان الأسود الأحمر أو الأسود (حيثما يكون اللون الواضح اللامع يكون أكثر فائدة من لون الاختفاء) . كل دب فى الأرض أحمر أو أسود إلا دب القطب فهو أبيض وكذلك أرنب القطب والصائد الثلجى والبومة الثلجية كل هذه بيضاء أو قريبة من البياض . والثعلب القطبي والأرنب الذى يسكن (جبال الألب) فهذان يتغيران إلى البياض زمن الشتاء . وهناك طائر يسمى (بستر ميجان) فى الأراضى المرتفعة وهذا خير مثال للحماية بالألوان ، فريشه فى زمن الصيف موافق لألوان الأحجار التى يجب أن يقع عليها ولا يقدر الإنسان أن يميز سربا منها بدون أن يرى واحدا منه وهو يلون بالبياض زمن الشتاء لأجل حمايته بمشاكلة الثلوج هناك التى تغطى الجبال . يستثنى من البياض الشامل الحيوانات فى المنطقة القطبية (غنم مسك) أو (ثيران مسك) وهذه تسمية معتادة هناك خطأ لونها أحمر مسود ويرى فى أثناء الثلج والجليد وليس سبب هذا صعبا ، إنه يعيش أسرابا فحمايته باتكاله على الجماعة والحيوان المنفرد هو الفريسة للدب القطبى أو الثعلب القطبى ويمكنها أن ترى جماعاتها فيلتحق الواحد منها بها على أى مسافة فهو خير من اختفائه من العدو . انظر إلى (السمور) فهو يحفظ فروته السمراء الثمينة فى أثناء شتاء سيبريا القاسى وفى أثناء ذلك الفصل يلازم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط فيقتنص الطيور من وسط الأشجار . والغراب يكون فى أقصى الأقطار القطبية الشمالية لكنه دائما أسود لأنه لاعدو له وهو يأكل من الجيف وهى لا تحتاج إلى الاختفاء من فرائسها . هذه أسباب ثلاثة (غنم خاصة تكون سمراء لأنها تكون سربا والسمور لأنه يعيش وسط الأشجار والغراب لأنه لا عدو له) ذات قيمة من أجل وجهة نظرية . لقد برهنت هذه الثلاثة على عدم صحة الفكرة العادية التى يقال فيها إن الحيوان يتغير للبياض فى الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد المباشر أو من تأثير انعكاس البياض من الثلج . فهذه الثلاثة علمتنا أن البياض إنما اختص بهذه الحيوانات البيضاء لأنه حافظ لها بينما تلك التى إما لا تحتاج إلى الحماية وإما أن لون السواد نافع لحفظها لم تلون بالبياض . إذن سبب التغير لا يرجع عقلا إلى الأمور الخارجية بل هو راجع إلى قوانين مختلفة مختارة بحيث تغير صفات الحيوان فى طريق نافع لها .

(المثال الثالث والعشرون)

الحيوانات الليلية تبرهن على فكرة الحماية اللونية . خذ مثلا لذلك الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط والخلد كلها رمادية اللون أو سوداء اللون . إذن لا يمكن رؤيتها ليلا إذ هى إذ ذاك تسعى لجلب الرزق وفى النهار تخفى أنفسها فى منافذ أو تحت الأرض . وإذا كان لون الاختفاء لابد منه مثل ما هو حاصل فى (البوم) فإننا نجد لونه ترابيا ذا بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا ليحصل التشابه بينه وبين قشر الشجر أو الأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل .

(المثال الرابع والعشرون)

بعض الحيوانات الليلية لها لون زاه وهو (سكانك) الذى هو فى أمريكا الشمالية وهو أبيض اللون وذيله طويل أبيض غاية البياض ولكن هذا يملك رائحة مهولة كريهة تنتشر فتجعله مخوفا مزعجا وذيله الزاهى إنما هو

علم مفرد لكل حيوان آكل اللحوم منذر له أن لا يفتك به كما يحصل فى (الفراش) الذى تتحاماه الطيور لطعمه السكريه كما تقدم وهى تأكل غيره لاهو .

(المثال الخامس والعشرون)

(ا) ومثل ماتقدم فى التأثير البرهانى أن اللون يحمى ماذكرنا هنا وكذلك فى وسط الغابات التى عمتها الخضرة بكثرة فى المناطق الحارة وما يقرب منها ، فانا نرى هناك طيورا لوّن ريشها بلون تلك الجهات فصار أخضر مثل (الببغاء) الذى يسكن تلك الأقطار فهو أخضر على وجه العموم مع بعض رقع ذات لون براق بهيج .

(ب) وفى الجزائر الاستوائية الشرقية أنواع كثيرة من الحمام خضراء كالببغاء وكثير أيضا من أصناف غيرها بنفس هذا اللون .

(ح) ومثل هذه فصيلة الطيور الآكلة الفاكهة وهى تكثر فى الأغلب فى الأقطار الاستوائية الأسيوية ، وهناك طير :

(١) أخضر يسمى (بلبل) (٢) وآخر يسمى (آكل النحل) (٣) والذى فى أفريقيا الاستوائية .
(٤) وذو العين البيضاء الصغيرة الذى فى الأقطار الشرقية الاستوائية وأنواع أخرى كثيرة . كل هذه الأنواع تلازم الأفنان المورقة المشتبكة الأوراق المشاكلة للونها مشاكلة موسيقية منتظمة بحيث لايقدر الانسان أن يميز بين المساكن وساكنها .

(المثال السادس والعشرون)

ولنوازن بين هذا وبين الألوان العادية فى الطيور بالأقطار التى هى مثل بلادنا . ليس هناك لون يقرب من الأخضر فذلك ليس بموجود بينما الزيق والأسمر هما العامان فى ريش الطيور . هذا لون خفيف وهو أقل مظاهر اللون بين الأشجار التى لا أوراق لها والأدغال أو الشجيرات التى هى كثيرة فى جزء كبير من السنة وعند الاحتياج إلى الوقاية تكون الألوان أشد خضرة .

(المثال السابع والعشرون)

إن للزواحف ألوانا خفيفة واقية لها . فانظر إلى الضب والحية فانهما يكونان أسمرين قليلا أو كثيرا أو زيتيين خفيق اللون بينما هما فى الأقطار الاستوائية وحدها يكونان شديدى الخضرة البراقة لامعين ليشاكلا النباتات فى تلك الأقطار ، وهناك نوع من الضباب مسطح مشاكل لجذوع الأشجار أو الأحجار التى يعيش عليها ولونه أخضر أو أشيب مشاكلة للسطح الذى يعيش منه .

(المثال الثامن والعشرون)

بعض الحيات الليلية هى وكل ماكان ليليا من الحيوانات التى تحتاج إلى الاختفاء تكون ألوانها ذات سواد أو سمرة أو زيتية .

(المثال التاسع والعشرون)

كثير من السمك قد اتضح فيه الحفظ بواسطة اللون فترى الذى يسكن فى قاع البحر له لون نفس القاع فهو منقوش نقشا كثيرا ليوافق الرمال والحصى . فأما الذى يعيش قريبا من سطح الماء فانه يكون من فوق أزرق مائلا للخضرة وهو من أسفل أبيض لأجل الفرار من العدو الذى فى الهواء فوقه ومن العدو الذى فى الماء تحته ، والسمك اللامع فى البحار الدافئة كثير منها تختفى حينما تكون محوطة بالأعشاب البحرية اللامعة والمرجان والشقائق وأنواع من الحيوانات البحرية التى تجعل قاع البحر فى بعض الأوقات يشبه حديقة مزهرة

خيالية والسمك الذى كالأنابيب وخيل البحر هى أحسن أمثلة لأساليب اللون والاحتماء به فبعضها مخضر مشبها للحشائش البحرية العائمة ، ولكن فى استراليا هناك نوع عظم مغطى بطبقة ورقية وكلها ذات لون أحمر وهذه تعيش وسط الأعشاب الحمراء البحرية وبهذا تختفى عن أعين الناظرين .

(المثال الثلاثون)

فى الأقطار الاستوائية حشرات قد حفظت بصفات عجيبة غاية العجب من حيث ألوانها وخطوطها العجيبات وأحسن ماعلم منها (حشرات الورق) التى هى حشرات كبيرة عجيبة أجنحتها وأغطية أجنحتها عريضة مسطحة مشكلات بأوردة وعروق مثل ما للأوراق وأرجلها ورءوسها وصندوقها لها اتساع مسطح على هيئة ماحولها من النبات وعلى هيئة كل موجود من النباتات ذات الأوراق الخضر خضرة لطيفة وهى التى تعيش عليها تلك الحشرة . إنه لا يمكن كشف تلك الحشرات وتمييزها عما حولها إذا لم تتحرك .

(المثال الحادى والثلاثون)

الحشرات (العصوية) فيها غرابة وهى أنها أشبه بأسطوانة طويلة والمخالب طويلة وهى تماما كقطعة من عصا سمراء أو مخضرة فاذا كان لها جناحان فانها تضمهما معا وتختفى تحت غطاء أجنحتها كأنها عصا ممدودة بينما الرأس والرجلان مصوّران إما مثل هيئة العصا أو كهيئة فرع غصن يتعلق على الشجيرات ، وهذا المخلوق فى الغابات لايتميز من الفروع والأغصان التى تتدلى من الأشجار فوق رءوسنا ، وهذه لاتزال ساكنة لاحراك لها أثناء النهار فاذا جاء الليل أخذت تأكل وهى تعلق أنفسها بأطراف أرجلها بغصنين أو بثلاث وبقية الشجرة ملائمة لأبدانها وعلى ذلك تظهر بمظهر غير متناسب كأنها أغصان مكسرة اتفاقا ، وبعض هذه الحشرات تحمها مادة خضراء عجيبة منتشرة على جميع جسمها وإذن تظهر كأنما هى قطعة من غصن مغطاة بطحلب بهىّ لطيف أخضر قد عمه من جميع جوانبه، وهذا المنظر قد ظهر لكاتب هذه المقالة فى الكتاب الإنجليزى فى بلاد (بورنيو) فأيقن لما رآه أن الطحلب قد نما وترعرع على الحشرة وهى حية ولكنه لما امتحن ذلك تبين له أن الذى ظنه طحلبا إنما هو من مظاهر نفس الحشرة .

(المثال الثانى والثلاثون)

ومن عجب حشرة (أبى دقيق) ذات المنظر الجميل الساحر الذى يجعل تلك الحشرة ظاهرة جلية . فانظر كيف كان نفس مابه ظهورها يكون به اختفاؤها وأول من كشف ذلك الأستاذ (وود) فانه قال «إن حشرة أبى دقيق الجميلة برتقالية الرأس فان هذه الحشرة وإن كانت ظاهرة وهى على الأغصان تختفى اختفاء تاما وقت المساء إذا جثمت فى مكانها الملائم لها وهو أطراف الأزهار فى (شجر البقدونس) . ألا ترى أن ماتحت ظاهر هذه الحشرة فى غاية الجمال منقوش بخضرة مصحوبة ببياض لتماثل البياض والخضرة فى أطراف زهر ذلك النبات انتهى ماقصدته من ذلك الكتاب (انظر شكل ١٦) فى الصفحة التالية .

شكل



(شكل ١٦ ـ صورة حشرة أبي دقيق البقدونس)

وههنا يتجلى (أمران : الأول) أن ما انتشر بين المتعلمين فى مصر وسوريا والعراق وجميع بلاد الشرق وكثير من بلاد الغرب أن العلوم الطبيعية ومذهب (داروين) و (لامارك) تنافى وجود منظم الكون إنما هو من العلوم التى أذاعها القوم فى القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر . أما علماء أواخر القرن التاسع عشر وعلماء القرن العشرين فى أوروبا فإنهم بما حققوه لم يصبحوا مؤمنين فحسب بل هم موقنون فانظر إلى ما تقدّم فى (المثال الأول) كيف يقول المؤلف [هنالك أتانى اليقين أن هناك غاية مقصودة حقا] وأن الحشرة قد أدخلت الغفلة على هذا الكاتب فلم يميزها من الحصوات حولها فهى على غش الطيور الآكلات لها أقدر . وهذه مسألة واحدة من الأمثلة الاثنتين والثلاثين المتقدّمة المملوءة من الحكمة والإيمان والعلم وانظر ثم انظر فى (المثال الثانى والعشرين) . انظر إلى الثعلب القطبى كيف يتغير إلى البياض زمن الشتاء ، وإلى الطائر الذى يكون ريشه فى الصيف موافقا لألوان الأحجار التى يقع عليها ولألوان الثلوج زمن الشتاء ، ثم تأمل كيف اهتدى العلماء فى أوروبا للحقيقة إذ كذبت تلك النظرية العتيقة التى علقت بأذهان الطلاب فى جميع مدارس العالم قاطبة وهى أن الألوان إنما جاءت بتأثير البيئة والوسط . فاعجب كيف يقول فى نفس هذا المثال إن (السمور) و (الغراب) و (غنم مسك) هذه الثلاثة قد كذبت النظرية المعتادة القائلة إن الحيوان يتغير للبياض فى الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد وإما من انعكاس البياض من الثلج وأثبت أن البياض يوجد إذا كان نافعا للحيوان وغيره يكون عند الحاجة أيضا (وبعبارة أخرى) إن متأخرى الفرنجة اليوم برهنوا على هذه الآية « وما كنا عن الخلق غافلين » وأى برهان أعظم من هذا اللهم إنك قد أريتنا وعلمتنا الحكمة وأريتنا من أبدع العلوم والحكم . هذه هى العلوم والحقائق التى هى بعض ملكوت السموات والأرض التى أراها الله لابراهيم الخليل عليه السلام وبها أيقن بربه . وها هى ذه

أمامك فى هذا المقام وهـذا التفسير طافح بها وقد حجبت هـذه العلوم عن كثير من المتعلمين فى بلادنا . يقرءون العلوم واللغات ولـكنهم لم يوفقوا للاطلاع على ما علمته أوروبا فى هـذا القرن وأواخر القرن الذى قبله . فهم يقرءون صدى صوت علماء القرن الثامن عشر تقريبا ولم يصلوا لنهاية العلم فى هذا القرن . فها أنا ذا أريتك نهاية علم القوم حتى تعلم علما ليس بالظن أن أولئك الذين يلحدون ويكفرون متظاهرين بأنهم تابعون لعلماء أوروبا قد غرّهم فى عقلهم ما كانوا يكذبون . فهؤلاء جهلهم جهل مركب ولله فى خلقه شؤون . هذا هو الأمر الأول .

(الأمر الثانى فى هذا المقام جمال العلم ومحاسن الطبيعة وموسيقاها)

اعلم أن التوغل فى معرفة هـذه العوالم يريها كأنها « جنة عالية . قطوفها دانية . لا تسمع فيها لاغية » انظر إلى ما سمعته الآن . انظر إلى هذا الجمال وأى جمال أبدع وأى حسن أبهج من هذا . يعيش الناس ويموتون وهم مغمورون فى الجمال والموسيقى ولـكنهم لا يعلمون أنهم فى جمال وموسيقى . وما مثل الناس فى هذه الحياة وقد غفلوا عن الجمال الذى رأيت الآن إلا كمثل العمى أمام الغانيات القانتات أو كمثل الصم أمام المغنين والمغنيات جملت هذه الدنيا وكملت وتعالى الله فطمس الحقائق وأبعدها عمن لا يستحقون وأبرزها لمن يفقهون .

(حكاية من رسالة القشيرى المؤلفة فى القرن الرابع الهجرى)

حكى أن الجنيد رحمه الله جاءت له امرأة تشكو زوجها فقالت ياسيدى لماذا يتزوج زوجى علىّ والله لولا أن كشف الوجه حرام على الأجانب لأريتك وجهى حتى تعلم أنى جميلة . فلما سمع ذلك الشيخ أغشى عليه ، فقيل له لماذا ؟ فقال لأن الله يخاطبنى على لسان هذه المرأة أنه لا يرى وجهى إلا المستحقون وهم المطيعون وسواهم محرومون . فهكذا هنا نقول إن وجه هذه الدنيا كله جمال ولا يحظى به إلا المفكرون وسواهم غافلون .

انظر كيف رأيت أكثر المتعلمين فى الشرق والغرب جهلوا هذا الجمال لأنهم لم يصلوا لغاية علم القوم الذين ادّعوا أنهم قلدوهم . ويجمع هـذا المقام كله قوله تعالى « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » .

ولعلك تقول أين الموسيقى فى هـذا العالم ونحن لا نعرف الموسيقى إلا المسموعات من الأوتار والمغنين ؟ أقول إن الموسيقى على قسمين : قسم خاص وقسم عام . أما القسم العام فهو ما يعلمه الجهلاء والعلماء على حد سواء من الحركات والسكنات التى تؤثر فى الهواء فتصل للآذان وهذه إنما تسر القلوب لأنها على نسب هندسية كما تقدم فى (سورة يوسف) عند الكلام على جماله وكما ذكرته فى كتابى [الموسيقى] وملخص ذلك أن الموسيقى ترجع إلى النظام والنسب الهندسية والحسابية [يحكى] أن الفيلسوف (فيثاغورس) مر بدكان حداد فسمع وقع أربع مطارق فأطربته لأنها موزونة فوزنها إذا هى على نسبة ٦ إلى ٨ إلى ٩ إلى ١٢ فأتى بأوتار أربعة متساوية فى الطول والثخن وربط بها أثقالا على النسبة المتقدمة فنقرها فكانت كتوقيع المطارق الأربع . واعلم أن جميع علم الموسيقى يرجع إلى سبب ووتد وفاصلة وهكذا علم الشعر والسبب مثل (من) والوتد مثل (على) ومثل (جد) والفاصلة مثل (فعلت) ومن هـذه الثلاث تتركب جميع الألحان وتلك الألحان يحملها الهواء فتدخل الآذان فيفرح الإنسان بها . ذلك لأنها على نسب هندسية مثل خفيف الثقيل الأول الذى على هذا النمط فعولن مفاعيلن فهذا فى الموسيقى أشبه ببحر الطويل فى علم الشعر وهذا الوزن نفسه هو الذى تصيح به الفاختة وهـذا صورته (ككوه كوه ككو كوكو) فهذا الوزن نفسه هو فى بحر الطويل إذا كررناه أربع مرات وهو نفسه موسيقى

وهو

وهو نفسه صياح الفاختة وإنما استلذها السمع لأن نسبتها مكررة هكذا (٧) متحركات إلى (٥) سواكن كنسبة (١٤) متحركا إلى (١٠) سواكن كنسبة (٢١) متحركا إلى (١٥) ساكن كنسبة (٢٨) متحركا إلى (٢٠) ساكنا وهذا هو نفس بحر الطويل . ومعلوم أن هذه النسبة حاصل ضرب الطرفين فيها يساوى حاصل ضرب الوسطين أى أن (٥) إذا ضربت فى (١٤) فإنها تساوى (٧) مضروبة فى (١٠) وعلى هذا أبدا فقس فيما لا يتناهى مهما تكررت هذه النسبة المتكررة المنتظمة وهى التى عرفتها آذاننا وآذان الطير وآذان الجهال منا والعلماء . عرفت آذاننا هذه النسبة ففرحت بهذا الجمال ولكن بعد هذا كله نقول إن هذه الموسيقى عرفها الطير وكثير من الحيوان وجميع نوع الإنسان ، ولكن هناك موسيقى أرفع مقاما هى الموسيقى العلمية أى النظام والإبداع فى هذه الدنيا فهذه الموسيقى هى التى حجبها الله عن أكثر هذا النوع الإنسانى بل أكثر المتعلمين فى الأمم محرومون منها وهى الموسيقى التى تظهر فى علم الفلك وعلم الطبيعة . انظر وتعجب إلى نظام الأفلاك وحسابه كما تقدم فى هذا التفسير وتقدم بعضه فى (سورة يوسف) عند ذكر الجمال وأن هذه النسبة التى قرأتها فى الشعر والموسيقى تقرؤها فى حساب سير الشمس والقمر والكواكب وتعرفها فى نظام العناصر عند تركيبها وأبدع من ذلك ما رأيته الآن فى هذا المقام الذى نحن بصدده . انظر ثم انظر إلى الغراب كيف خالف لونه لون الثلج فى الأقطار القطبية ، لماذا؟ لأن فريسته جيفة لا تفر منه . وانظر كيف ترى الله عز وجل جعل حماية الحيوان متنوعة الأشكال بهجة الناظر . فتارة يحميه بقذارة شكله ومشاكلته لزرق الطير الذى يأكله . وتارة يحميه بمشاكلة لونه لما حوله . وتارة يحميه بالريح الكريهة التى يؤذى بها من يقصده . وتارة يحميه بشدة العدو . وتارة باختفائه ليلا وتارة بسلاحه وهكذا من ضروب الإبداع والإتقان . قل لى رعاك الله . ألم تكن هذه الأجسام كلها من عناصر معلومة والعناصر كلها هى المواد الجامدة والغازية والسائلة ثم بعد ذلك يكون الضوء والحرارة . فماذا جرى ؟ جرى أن هذه المواد الثلاثة تنوعت أشكالها فكان منها صور حيوانية وأخرى نباتية والحيوانية تنوعت الحماية فيها إلى صور بديعة مختلفة . فانظر . أليست الموسيقى ترجع إلى ما ذكرتك من السبب والوتد والفاصلة . فهذه الثلاث كان منها جميع الشعر وجميع الموسيقى فى العالم . وما الشعر والموسيقى إلا حركات وسكنات هذه أصولها إذن لا فرق بين الموسيقى العامة فى أن لها أصولا ثلاثة والموسيقى الخاصة فى الطبيعة فان أصولها أقسام الأجسام المتقدمة ؛ فكما تنوع الشعر والموسيقى إلى مالا يتناهى من الصور المفرحة للعلماء فى الهواء والجهال على حد سواء هكذا تنوعت أقسام الأجسام الثلاثة إلى مالا يتناهى من الجمال فى هذا العالم كما رأيت فى أنواع حماية الحيوان ، وهذا لا يكون فى الهواء بل فى العوالم الطبيعية كلها . يظهر أن هذا العالم مبنى على أمرين حركة مستمرة ونظام جميل . فالحركة فى الموسيقى والشعر معروفة والحركة فى الطبيعة لا يعقلها إلا المفكرون فيها .

ففز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ إيضاح ما تقدم . بعض أسرار القرآن تظهر فى هذا الزمان ﴾

هذه الأسرار هنا ترجع إلى نظام الحيوان ونظام الحساب العام . أما نظام الحيوان الذى رأيته فهو السر المصون والجوهر المكنون والعرفان والنور . نعم هو المذكور فى قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فها هو ذا ذكر سبحانه اختلاف ألوان الثمرات وألوان أجزاء الجبال والدواب والأنعام ، ثم ختم ذلك بأنه لا يخشى

الله إلا العلماء . الله أكبر . ياليت شعرى أى علماء هؤلاء ؟ نعم هم علماء النبات والحيوان والجماد الذين يعقلون سر الألوان ؟ وهل سر الألوان غير ما جاء فى هذه المقالة ونحوها . أيها المسلمون ، أليس هذا هو الذى جاء لأجله القرآن . جاء القرآن لهذا . القرآن نزل وانتشر قرونا ثم خلف بعد ذلك خلف ورثوا الكتاب وحفظوه عن ظهر قلب ثم ناموا فخلقنا الله اليوم فرأينا أنه وإن أنام المسلمين فى القرون المتأخرة قد أيقظ أمما أخرى فأظهرت ما أكنّ القرآن من أن لكل حيوان لونا يخصه لنفعه أو لبقائه إذن عرفنا الآن أن الألوان المذكورة فى الآية ليست مظاهر جمالها بل منافعها الحقيقية المتقدمة ، إذن هى تفسير للقرآن إذ أن الله الذى أنزل القرآن وقال « ثم إن علينا بيانه » وقال « سيريكم آياته فتعرفونها » هو نفسه الذى أمر علماء أوروبا فاستخرجوا منافع الألوان وهو الذى ألهم مؤلف هذا التفسير وأمثاله أن يصيحوا فى المسلمين قائلين لهم تعلموا هذه العلوم فان ألوان الحيوان مثلا النافعة له هى المقصودة فى الآية والعلماء بها هم الذين يخشون الله وهم الذين قال الله لأمثالهم « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » جمع عالم . الآيتان على نظام واحد . ذكر الله فيهما أن هذه الألوان لا يعقلها إلا العلماء أى العلماء بها وبنظام هذه المخلوقات . إن هذا التفسير قد جاء قبيل ظهور حكماء فى أمم الإسلام لم يحلم بهم الدهر . انظر إلى الآيتين السابقتين هل يعقل أن أحدا يقال له (عالم بنظام وبألوان المخلوقات) إلا من يبرعون فى هذه العلوم ومتى برعوا يعقلون بعض جمال ربهم ويكون العالم أمامهم جنة عرضها السموات والأرض أو موسيقى تصدح لأولئك العلماء العاملين . انتهى الكلام على نظام الحيوان .

أما نظام الحساب العام فان الله لم يقف نظامه عند حد الحيوان نفسه ومراعاة حياته وحفظه بل تعدى ذلك إلى أصواته فحسبها ونظمها ولم يذر طيرا على شجر ولا إنسانا فى بدو أو حضر إلا نظم أغانيه وموسيقاه . وهذا كله تفسير لقوله تعالى هنا « وما كنا عن الخلق غافلين » وعدم الغفلة يلزمها أن لا يضع سبحانه لونا إلا لفائدة وإلا لكان ذلك اللون عبثا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » إلى قوله « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ومن الحق المذكور أن يكون لكل عرض ولون فائدة وإلا فكيف يسبح الناس ربهم ويقولون « سبحان الله » والتسبيح تنزيه عن كل ما لا فائدة فيه . إن الناس لا يصلون إلى المقام الأعلى إلا بعد فهم هذا الوجود حتى يعقلوا عمل ربهم . وكما أن عدم الغفلة عن الخلق يلزمه أن لا يكون لون بلا فائدة هكذا يلزمه أن تكون الأصوات أيضا منظمة كما قال تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » وقال « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » خذ إيضاحا لما تقدم ، تقول الفاختة :

ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو ككوه كوه ككو كوكو

والشاعر العربى يقول من بحر الطويل :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

والموسيقى خفيف الثقيل الأول :

تنن تن تنن تن تن تنن تن تنن تن تن تنن تن تنن تن تن الخ

وزن الشعر :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

الحساب : ٧ : ٥ : ١٤ : ١٠ : ٢١ : ١٥ : ٢٨ : ٢٠

ومثل بحر الطويل فى هذا الحساب بحر البسيط وبحر المديد إذا لم يدخلها علل أو زحافات كما هو مبين فى محله ، هذا معنى قوله تعالى « إن الله سريع الحساب » وقوله « وهو أسرع الحاسبين » لأنه أسرع فى حساب نغمات الموسيقار وأصوات الفاختة والشاعر العربى رجعلها كلها بحساب واحد بحيث يكون حاصل ضرب الطرفين فى كل واحد يساوى حاصل ضرب الوسطين . هذا هو أعظم سر من أسرار الإسلام ظهر الآن وسيظهر أسرار وأسرار بعد انتشار هذا التفسير انتهى .

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « سبع طرائق » ﴾

لقد تقدم الكلام عليها فى (سورة البقرة) فليرجع إليه من أراد .

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » ﴾

لقد علمت أيها الذكى أن (المواليد الثلاثة) وهى النبات والحيوان والإنسان وكذا المعدن قد جاءت فى القرآن مراراً وما ذكرت مرة إلا تامة وفى هذه السورة تامة أيضا فإنه ذكر الانسان الذى هو آخر السلسلة ثم ابتدأ بالعلويات فالعناصر كالماء ، وذكر الأرض وفيها المعادن ثم النبات ثم الحيوان وهذه السلسلة منتظمة كما ذكرته سابقا فى هذا التفسير . وأذكر لك الآن أن هذه السلسلة نقلها الفرنجة عن آبائنا . أما قدماؤنا فكانوا يقولون هكذا [إن للمعادن تليها النباتات فالحيوانات وأعلاها ما هو كالقردة وكالفيل ونحوه من كل ماله صفة تشبه صفة الإنسان وأعلى من هؤلاء الإنسان الذى فى أطراف المسكونة] فلما نقل المذهب إلى أوروبا وشرحه (داروين) قال بما قاله آباؤنا تماما ولكنه قال [يحتمل أن يكون الأعلى مشتقا من الأدنى] أى متولدا منه ، ففتح بابا للقوم بأن الإنسان كان قرداً فترقى فتعصب لهذا المذهب من بعده العالم (برن) وأمثاله وهناك عشرات بل مئات يقولون [إن هذه العوالم ليس لها موجد وإنما وجدت بالمصادفة وبسبب أربعة أمور كما سيأتى : وهى تطور الحياة والوراثة وتنازع البقاء ، وكون الأقوى يميت الأضعف] فجاء علماء العصر الحاضر فى القرن العشرين وقاموا قومة واحدة على هذا المذهب فنقضوه . ويجدر بى أن أنقل لك كلامهم حتى تعرف أن قوله تعالى : « فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » وقوله « ثم جعلناه » الخ وهكذا أصبح مبرهنا عليه فى العلم الحديث . وإنى أعلم أن هذه الآراء لن تنتشر سريعاً فى المدارس والكتب ولكن المذهب الدروينى قبل تعديله سيبقى على حاله يدرس لصغار التلاميذ أمدا طويلا . فها أنا ذا أسمعك العلم الحديث . الذى قلبه وما قلبه وأبطله إلا علماء الألمان والنمسا والإنجليز فلأسمعك كلامهم لتكون على علم حق إذا قيل لك (مذهب داروين) كان عندك منه خبر وأسمعتهم نقضه من فطاحل خلقهم الله بعده فى أوروبا فرجع الأمر للقرآن وثبت بالبرهان العقلى الحديث قوله تعالى « ولقد خلقنا » الخ .

﴿ فصل : فى أصول مذهب داروين . وبيان أقوال العلماء فى نقضه
من أهل أوروبا وأن أصوله أربعة ﴾

اعلم أن هذا المذهب لما انتشر فى بلادنا المصرية فشا الإلحاد وعمت الرشوى وذاع الزيغ وتفاخر كثير من العظماء ، وأرباب السطوة والنفوذ بخلع العذار وانتهاك الحرمات وتبارى كثير منهم فى شرب الخمر والقمار ونبذوا الدين ظهريا وذلك عقب ظهور مؤلف الدكتور (شبل شميل) الذى هو ترجمة كتاب بخنر الألمانى وكان المترجم والمترجم عنه يميلان إلى الإلحاد وإنكار الخالق فكان ذلك داعيا لفشو ذلك وتقليدهما تقليدا بلا جدال . كل ذلك فى أوائل هذا القرن العشرين ، وبينما نحن كذلك فى مصر وفى بعض بلاد الشرق كان علماء أوروبا قد نقضوا هذا المذهب فخر على المؤمنين به السقف من فوقهم وانهارت دعائمه وأصبح هشيما تذروه الرياح كأن لم يغن بالأمس . ولأذكر لك أصوله ثم بيان أقوال العلماء فى نقضه .

﴿ فصل: في أصول هذا المذهب ﴾

بنى (دارون) هذا المذهب على (أربعة أصول : الأصل الأول) أن الحياة ذات أطوار وتغيرات بها ترتقى من حال إلى حال (الثانى) أن هذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل (الثالث) أن الأحياء جميعها بينها تنازع فى البقاء (الرابع) أن ماكان أتم وجودا وأقوى وأكمل فهو الأصلح للبقاء، وأما الأضعف فانه محكوم عليه بالفناء ، فالحيوانات والنباتات كلها سلسلة واحدة أعلاها مشتق من أدناها بالارتقاء ، ومن ذلك أن الانسان مشتق من القرد وهو أعلى الحيوانات بمقتضى هذه القواعد ، ولما كان الأكمل هو الباقى ظهر الشره والطمع فى عالم السياسة وأنشئت فى أوروبا المهلكات الحربية بناء على هذه النظرية وسيادة القوة الأسدية ونقضت العهود وخربت الذمم بين الأفراد فى بلادنا ، وماعجبت لشىء عجبى منا معاشر الشرقيين كيف نقدس مذهبا نقضه أهل أوروبا ، وسيعتريك العجب حين أتلو عليك من آراء حكمائهم وبراهين علمائهم مايذيب هذا المذهب ويجعله هباء منثورا . إنى آسف أشد الأسف أن الغفلة مستحكمة فى أنحاء الشرق عند المتعلمين منهم . آمنوا بالمذهب الدروينى كما شربوا الخمر اتباعا لأهل أوروبا ولم يعلموا بأنباء العلماء هناك إذ أبطلوا ذلك المذهب بطلانا تاما كما بينوا أن الخمر سم ناقع حتى حرمته دولة أمريكا وأنكرته بلاد السويد والنرويج . فالخمر لايزالون يشربونه والالحاد فى الدين باق كأن المذهب لم ينقضه أولو الألباب .

﴿ فصل: فى نبذ مما قاله العلماء فى نقض هذا المذهب ﴾

(١) قال (جوستاف لوبون) «إن المادة ليست أبدية بل هى خاضعة للناموس الحتم الذى يقضى على جميع الكائنات بالفناء وهى مركبة من مجموعات شمسية مؤلفة من عناصر يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جدا وهى لاترى ثابتة فى حسنا إلا بسبب تلك السرعة المفرطة» اه .

وأنت تعلم أن مذهب (دارون) مبنى على المادة وهى أسه .

(٢) قال الأستاذ (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى [إذا نظرنا فى ناموس خاص أياكان فانا نستطيع أن نؤكد أنه لا يمكن أن يكون إلا تقريبيا لأنه مستنتج من تحقيقات تقريبية وهذه التحقيقات لم تكن ولايمكن أن تكون إلا تقريبية] . وقال الدكتور (ج . جيليه) [إن النواميس يمكن أن تتغير بعارض من العوارض وأن يبطل عملها أيضا] . أقول ولاجرم أن هذا من أكبر أساس مذهب (دارون) المبنى على النواميس الطبيعية .

(٣) قال الأستاذ (جوستاف جوليه) إن العوامل التى ذكرها (دارون) تعجز عن تعليل ذلك الثبات التام للصفات الأصلية للأنواع التى تكون حديثا وتعجز أيضا عن تعليل نشوء الإلهامات الجديدة فيها . وقد أثبت أن أنواعا جديدة لاتزال تخلق جديدا كما ستراه .

ثم قال الأستاذ (جوليه) إن مذهب لامارك ومذهب (دارون) يستويان فى القصور فإنهما لا يفسران التحول عن الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول عن الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التى ليست له ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة وأن مسألة الحشرة أشد استحالة . وهل هناك أى علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة وبين الحشرة الكاملة التى تنقلب إليها . إنها حشرة تعودت الحياة الدودية تحت الأرض أو فى المياه فكيف تصل شيئا فشيئا إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة لها ، انتهى باختصار .

(٤) قال العلامة (دوفرى) : إن التحولات الفجائية هى القاعدة فى عالمى الحيوان والنبات وقد أعلن

هذه

هـذه الحقيقة (جوفر) و (اسان هيلير) و (كوب) وثبت أن الظهور الفجائى للأنواع الكبيرة الرئيسية كالزواحف والطيور وذوات الثدى كان فى الأراضى الجيولوجية ومتى ظهرت حصلت على صفاتها كاملة .

(٥) قال الدكتور (جوستاف جوليه): إن الحشرة ظهرت من أقدم عهود الحياة الأرضية وثبتت أنواعها فى جميع الأحوال فهى تناقض ماذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة وتناقض التطور بفعل العوامل الخارجية فانها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حشرة طائرة ولاتأثير عليها من الخارج كما أن الهوة عميقة بين الحال الأولى وهى الدودية والحال الثانية وهى حال الحشرة وهى هوة تضيع فيها كرامة جميع النظريات الدروينية واللاماركية، فالحشرة أدت شهادة حسية ببطلان مذهب (داروين) كما أثبت عجزه عن تفسير غرائزها الأولية العجيبة المحيرة للعقل .

(٦) رأى (فون باير) فى مذهب (داروين) وهو العلامة الألمانى الكبير مؤسس علم الأمير بولوجيا (علم الأجنة) ومن أقطاب الفزيولوجيين والحفريين قال : [إن للرأى القائل بأن النوع الإنسانى متولد من القردة السنيمانية هو بلا شك أدخل رأى فى الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان] .

(٧) قال العلامة (فيركو) الألمانى من علماء (الانتروبولوجيا) أى (التاريخ الطبيعى للانسان) وكذلك العلامة (الانتربولوجى) الفرنسى (دوكاترفراج) يقولان إن القرابة فى التاريخ الطبيعى للانسان من القرد منعدمة .

إن الإنسان فى العهد الحفرى الرابع وجد مشابها لناكل المشابهة مع أنه كان يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه القردة بل إن نقص الحلقة فى رجال العصر الحاضر أوفر منها فى تلك العصور . ثم قالا إننا لانستطيع أن نعتبر ولادة الانسان من القرد أو من حيوان آخر من الأمور العلمية .

(٨) رأى العلامة (ايلى دوسيون) ذكر فى كتابه [الله والعلم] فى الطبعة الصادرة سنة ١٩١٢م ما يأتى :

إن الفرضين اللذين يقوم عليهما مذهب (داروين) هما الانتخاب الطبيعى وانتقال الصفات المكتسبة وقد أثبت (هربرت سبنسر) هدم الفرض الأول من أساسه ، ونقض (ويسمان) إمكان انتقال الصفات بطريق الوراثة ، وبرهن على أن هذه المشاهدات المزعومة لا تقوم إلا على حكايات مخترعة ولا تعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكايات المرضعات .

(٩) قال الأستاذ (جورج بوهن) مدير معمل (البيولوجيا) و (البسيكولوجيا) ما يأتى : إن نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التى كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعى) .

(١٠) كتب العلامة (ادمون بريه) فى مجلة (العالم الحى) سنة ١٩١٢ م قال : [إن ثقة الاستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيفة جدا، فان هذه البيئات على مايقول لاتصلح لايجاد أى تغيير ورأى ثابت فالبط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها ولكن الأمر على العكس من ذلك فى مذهب المسيو (جينو) فانه يقول بأنها وجدت لها مقدما بدون تأثير من الخارج وأخذ (البط) يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم . فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل للعوم ، أى أنها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها فى العوم .

(١١) قال العلامة (بلوجر) الألمانى [لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة] .

(١٢) قال الفزيولوجي الكبير (دوبوار عند) [إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها وأنها هي نفسها من المفترضات الغامضة].

(١٣) رأى (دائرة المعارف الكبرى الفرنسية) في مذهب (دارون) [إن النظرية الدروينية لسوء الحظ مختلة من أساسها لأنها تفرض أن جميع الصفات النافعة حدثت بالمصادفة وبالتالي جميع الحيوانات حدثت على ما هي عليه اتفاقا (مصادفة) وهو فرض يلاشي المسألة نفسها].

(١٤) قال الدكتور (إدورد هارتمان) [إن وجود هذا الرأي عند الدروينيين (رأي عدم وجود القصد) هو من المسلمات التي لا يقوم عليها دليل ومن الأوهام التي لا أساس لها. وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكي ولا يمكن النظام بلا قصد كما لا يمكن القصد بلا نظام. وكل ما لا نظام له فهو مهمل في فوضى كالثيران الهائمة والطبيعة التي يعللون بها ليست كذلك].

(١٥) قال العلامة (لويز بوردو) ما نصه [يجب أن يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر في تلازم الحودث ويثبت به].

(١٦) رأى الأستاذ (فون باير) الألماني في القصد قال [إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لا قصد في الطبيعة وأن الكون لا يعوزه إلا ضرورات عمياء، فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك، وهي أني على العكس أرى جميع هذه الضرورات تؤدي إلى أغراض سامية].

(١٧) قال (كاميل فلامريون) [إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررا وغاية دفع بها إليها وأن المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده وأنهما يتعاليان عن أن نلم بهما في حقارتنا. إن التبصر الذي يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان المشاهدات في التاريخ الطبيعي يستنتج منها أن في الطبيعة عقلا مدبرا].

(١٨) قال العلامة (لوجيل الفرنسي) ما نصه: إنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى صادرة من قوة أولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل.

(١٩) في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية ما نصه: إن لكل من الكائنات المتنوعة للطبيعة الحية غاية وضع لأجلها ومركزا يدور عليها.

(٢٠) قال الأستاذ (ميلن ادوارد) في جامعة السربون بفرنسا: إن الحيوان المسمى (اكسيلوكوب) من المحيرات للفكر.

إن هذا الحيوان يرى طائرا في الربيع منفردا ويعيش ويموت بعد أن يبيض مباشرة فلم ير صغارها أمهاتها ولا تعيش حتى ترى أولادها اللاتي يخرجن دودا يعيش سنة في مسكن مقفل وهدوء تام فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا فإذا أتمته على ما ينبغي أخذت في جلب ذخيرة تكفي صغارها سنة وهي طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع بيضة وتأتي بنشارة الخشب تكون منها عجينة تجعلها سقفا على البيضة ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخرى وهكذا، فتبنى بينها مكونا من جملة طبقات ثم تترك الجميع وتموت ثم قال: يدهش الإنسان حين يرى جمال هذه المشاهدات المتكررة رجال يدعون لك أن هذه العجائب نتائج للمصادفة وأن إلهامات النمل مثل أسمى مدركات الإنسان نتيجة عمل الطبيعة من تجمد الماء، واحتراق الفحم وسقوط الأجسام، إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضا تاما فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها أبدا. وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض

الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية انتهى كلام العلامة (ادوارد) ملخصا .

وهذا عجب عجاب ، كيف كان مذهب (داروين) فى الغرب قد أصبح كثيبا مهيلا وهباء منثورا وقولا هراء ولغو الحديث وكلام المرضعات وخرافات العجائز وأساطير الأولين كما عبر عنه علماؤهم بذلك وهو فى بلادنا المصرية وفى البلاد الشرقية معتمد عليه موثوق به فهو الحجة القائمة عندهم على دحض جميع الإلهيات والنبوات . ترى الرجل يتيه عجبا أنه أعلم العلماء وأعظم المفكرين فاذا تحققته علمت أنه يدعى العلم بمذهب (داروين) على أن أكثر هؤلاء لايعلمونه مع بطلانه .

إن العلم الناقص ضلال مبين فإما علم تام وإلا فلا « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

فلما سمع ذلك صاحبى ، قال لقد كثرت الدعاوى فى المجالس فلا أسمع إلا أنهم يقولون (فلان فيلسوف يتعالى عن الديانات ويتعاظم على أداء الصلوات اكتفاء بما علم من الطبيعيات وما درس من الرياضيات) . أما الآن فانى إذا قابلت أحدهم أقول له :

* أطرق كرا إن النعام فى القرى *

ثم أقـــول :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولقد تمادى الناس فى تسمية كل متنطع فى كلامه متفيهق فى حديثه أنه فيلسوف ، فعرفت الآن ان هذا كله حديث خرافة ولقد تمادوا فى طغيانهم يعمهون حتى سموا ضلالة وجهالة كل مكذب للديانات مكذب بالوحى فيلسوفا حتى إن أحدهم سأل فى [مجلة المقتطف] هذا السؤال هل المعطل يسمى عبقريا ؟ فأجابه كلا بل المدار على النبوغ العلمى فكأن هذا الجاهل ظن أن إنكار الأنبياء كاف فى النبوغ أو الفلسفة ، وهذا غاية الحمق والجهالة وما أسهل الكفر وبالتالى ما أسهل الفلسفة فليجلس المرء على كرسيه وليقذف كلمات الاستهزاء والازدراء من لسانه وليصب جام غضبه على علماء الدين والأنبياء والمرسلين وليكررها صباحا ومساء ثم ليبشر بأن اسمه يكتب فى ديوان الحكماء المفكرين والأساتذة المحنكين والعقلاء المجربين والنظار العبقريين ، ولا مدرسة ولا تعلم بل يأتيه العلم هنيئا مريئا فيكون بطلا وبالسفاهة شجاعا وبالغباوة نابغة فأف وتف لقوم لايفقهون صم بكم عمى فهم لايرجعون .

﴿ فصل : فى ذم المتفلسفين والمتبذلين والمغفلين ﴾

ولما جاء صاحبى فى اليوم التالى قال هل كان المتقدمون فى الأعصر الغابرة مبتلين بأمثال هؤلاء المتفلسفة فقلت : نعم ، قال العلامة محمد بن عمر الرازى فى شرحه على الاشارات للرئيس ابن سينا صفحة (٤٧٣) مانصه :

العوام حمق لجزمهم بالثبوت لا لدلالة ، وهؤلاء المتفلسفة حمق أيضا لجزمهم بالشىء لا لدلالة بل الحمق الأول أقرب إلى السلامة من الحمق الثانى لأن الأول يوجب الانقياد للأنبياء والشرائع وذلك سبب للنظام فى الدنيا والسعادة بوجه ما فى الآخرة [إلى أن قال : وأما الحمق الثانى فهو سبب الفساد والخلاعة والشر فى الدنيا والشقاوة فى الآخرة ؛ فالأحمق الأول جاهل سليم ، والأحمق الثانى شيطان رجيم ، ثم قال : والغرض من هذا الفصل منع إلقاء هذا الكتاب وماجرى مجراه من العلوم النفيسة فى أيدى أقوام مخصوصين . فالأول الجاهل المتبذل المستخف بالعلم كما قيل : * ومن منح الجهال علما أضاعه * والثانى البليد الذى لايفهم فانه لايقف على الحقيقة فربما صار سببا لخروجه عن ربقة الشرائع وصار أشقى الأشقياء ، والثالث المقلدة فانهم لاينتفعون بشىء من العلوم وإن كانوا فى غاية الذكاء لأن حبهم للفرط لما عليهم من المذاهب يعميهم ويصمهم

عن الوقوف على الحق وأخس الناس وأرذلهم هؤلاء المتفلسفة فانهم ينظرون إلى أصحاب الشرائع والأديان بعين الاستخفاف مع كونهم أخس الناس درجة وأرذلهم مرتبة واستحقاقهم الامن فى الدنيا والعذاب فى الآخرة] انتهى .

هذا شرح الامام الرازى لفقرتين من كلام الإمام الرئيس (ابن سينا) وهما آخر الكتاب موصيا قارئ كتابه أن يصون العلم عن هؤلاء وهذا تفصيل ما أجمله الرئيس وهو منطبق على متفلسفة هذا الزمان . انتهى تفسير المقصد الأول من (سورة المؤمنون) .

(المَقْصِدُ الثَّانِى)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ * ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * ثُمَّ أَنْشَأْنَا

مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من إله غيره) مالكم معبود سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يطلب الفضل عليكم ويسودكم (ولو شاء الله) أن يرسل رسولا (لأنزل ملائكة) بإبلاغ الوحى (ما سمعنا بهذا) الذى يدعونا إليه نوح (فى آبائنا الأولين . إن هو) ماهو ؟ يعنون نوحا (إلارجل به جنة) جنون (فتربصوا به) انتظروا (حتى حين) إلى حين يموت (قال) نوح (رب انصرنى) أعنى بالعذاب وإهلاكهم (بما كذبون) بالرسالة (فأوحينا إليه) أرسلنا إليه جبريل (أن اصنع الفلك) أى أن خذ فى صنع السفينة (بأعيننا) بمنظر منا (ووحينا) أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها (فإذا جاء أمرنا) بالركوب أو نزول العذاب (وفار التنور) أى طلع الفجر أونبع الماء من التنور وهو وجه الأرض أو أشرف موضع فيها (فاسلك فيها) فأدخل فيها من كل أمتى الذكر والأنثى واحدين مزدوجين أو من كل بالتنوين أى من كل نوع زوجين واثنين للتأكيد لأن زوجين مفرده زوج والزوج هوالفرد الذى له مقابل مقارن له . ويقال للزوج الذى هو ذكر فرد وللزوج الذى هوأنثى فرد وهذا قوله (من كل زوجين اثنين) وقوله (وأهلك) أى وأهل بيتك أو ومن آمن معك (إلا من سبق عليه القول منهم) أى القول من الله بإهلاكه للكفرة . ويقال سبق عليه فى الشر وسبق له فى الخير (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لهم بالإنجاء (إنهم مغرقون) لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصى (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى) فى السفينة أو فى الأرض (منزلا مباركا) بالنجاة من الغرق وكثرة النسل (وأنت خير المنزلين) فان الله يحفظ ويكلأ من ينزل عليه النعم ولكن غيره ينزل النعم وليس قديرا على حفظ من أنزلها عليه (إن فى ذلك) الذى ذكر من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله ونجاة أوليائه (لآيات) دلالات على قدرتنا (وإن كنا لمبتلين) أى إنه أى الحال والشأن كنا الخ واللام هى الفارقة أى وإننا كنا ممتحنين عبادنا بهذه الآيات (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) هم عاد وثمود (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعنى هودا وصالحا (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى قلنا لهم على لسان الرسول « اعبدوا الله » الخ (أفلا تتقون) عذاب الله (وقال الملأ) الأشراف (من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب (وأترفناهم) نعمناهم (فى الحياة الدنيا) بكثرة

الأموال والأولاد (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) فيما يأمركم به (إنكم إذن لخاسرون) حيث أذللتم أنفسكم ، وجواب القسم هو المذكور يدل على جواب الشرط المحذوف (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما) مجردة من اللحم والأعصاب (أنكم مخرجون) من الأجداث أو من العدم إلى الوجود وأنكم تكرير للأول تأكيدا (هيهات هيهات) بعد التصديق ، وقوله (لما توعدون) اللام للبيان كما تقول هيت لك فهيت أى تهيأت فيقال لماذا فيجاب وهنا يقال بعد بعد فيقال لماذا هـذا فيقال لما توعدون ويقال هيهات أى بعد وهو مبتدأ خبره « لما توعدون » (إن هى إلا حياتنا الدنيا) أى ما الحياة إلا حياتنا الدنيا فإن بمعنى ما (نموت ونحيا) يموت بعضنا ويولد بعضنا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين (قال رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) بسبب تكذيبهم إياى (قال عما قليل) عن زمان قليل وما صلة لتأكيد معنى القلة (ليصبحن نادمين) على التكذيب إذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة بالحق) صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فيكون القوم قوم صالح . ويقال المراد بالصيحة الهلاك فيكون ما قلناه هو ما يشمل قوم هود وقوم صالح (فجعلناهم غثاء) هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر ، والمعنى صيرناهم هلكى (فبعدا) مصدر بعد أى هلك منصوب بفعل محذوف واللام لبيان من دعى عليه (للقوم الظالمين . ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) قوم لوط وشعيب وغيرهم (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) الأجل (ثم أرسلنا رسلنا تترى) متواترين واحدا بعد آخر من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو وهو إما مصدر وقع حالا أى متواترين أو الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) فى الإهلاك (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها وهو اسم جمع للحديث أو جمع لأحدوثة (فبعدا لقوم لايؤمنون . ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين) وحجة واضحة ملزمة للخصم والآيات هى الحجج العقلية والسلطان المبين هى العصا واليد ونحوها والعصا انقلبت حية وبها انفلق البحر وتفجرت العيون وابتلعت سحر الساحرين حين صارت حيـة وصارت أيضا شمعة وشجرة مثمرة ورشاء ودلوا وقد تقدم سر ذلك فلا تكن واقفا عند هذا الحد (إلى فرعون وملائه فاستكبروا) عن الإيمان والمتابعة (وكانوا قوما عالين) متكبرين (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لأنه يكون واحدا وجمعا (وقومهما) أى بنو إسرائيل (لنا عابدون) خاضعون مطيعون وكل من دان للملك فهو عابد له (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (لعلهم) لعل بنى إسرائيل (يهتدون) إلى المعارف والأحكام (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أى دلالة على قدرتنا لأنها ولدته من غير مسيس فالآية جاءت بهما معا (وآويناهما إلى ربوة) الربوة: المكان المرتفع ولا يعلم أىّ هو أفلسطين أم مصر أم أرض بيت المقدس ؟ (ذات قرار) مستقر من أرض منبسطة أو ذات ثمار وزروع لأن أهلها يستقرون فيها (ومعين) ماء معين ظاهر جار . يقال معن الماء إذا جرى فماؤها جامع لأسباب التنزه والنعيم ويقال معين أى معيون اسم مفعول من عانه إذا أدركه بعينه لأنه لما ظهر على وجه الأرض أدركته العيون فهو إما صفة مشبهة على الأول وإما اسم مفعول على الثانى هـذا هو آخر المقصد الثانى . ولنلحق به من المقصد الثالث بعض آيات لاظهار نتيجة ما تقدم قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم) هذا خطاب عام لجميع الرسل ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاطب كل نبى وحده بهذا الخطاب وجاء لخاتمهم الذى أرسل لجميع أهل الأرض وقد دخل فى دينه فعلا من جميع الأديان من البوذيين والمسيحيين واليهود والمجوس . فإذن هو يخاطب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ونحن معه والخطاب الآن لنا نحن أى

أهل

أهل مصر وسوريا وبلاد الفرس والترك ومسلمي الصين والهند وجزائر الهند الشرقية بل أقول أيها المسلمون اسمعوا قد خاطبكم الله بما خاطب به الأنبياء يقول لكم أيها المسلمون فى جميع الأقطار « كلوا من الطيبات » أى الحلال الصافى القوام . فالحلال مالا يعصى الله فيه والصافى مالا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل « واعملوا صالحا » فإنه النافع عند ربكم « إنى بما تعملون عليم » فأجازيكم (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) ملتكم ملة واحدة أى متحدة فى العقائد وأصول الشرائع وأمة منصوب على الحال (وأنا ربكم فاتقون) فى شق العصا ومخالفة الكلمة (فتقطعوا أمرهم بينهم) أى قطعوا أمر دينهم (زبرا) قطعا جمع زبور: أى تفرقوا وتحزبوا فرقا فالزبور بمعنى الفرقة . وقرئ « زبرا » بضم فقتح جمع زبرة : أى قطعوا أمرهم بينهم حال كونه قطعا (كل حزب بما لديهم فرحون) معجبون معتقدون أنهم على الحق (فذرهم فى غمرتهم) فى جهالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها (حتى حين) أى إلى أن يموتوا ولنقف هنا .

ولعلك تقول كيف تقول إن الله خاطبنا نحن الآن مع أنه خاطب الأنبياء . أقول لك الأنبياء الآن عند ربهم بل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بل أصحابه وتابعوه والقرآن يقرأ لنا، وما دام المسلم يقرأ قولا ولا يجد أنه موجه له لا ينفعه، وإن أردت إلا نص النبوة فهاك الحديث . روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » وقال « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » أخرجه مسلم . ولقد تقدم الكلام على هذه الآية قريبا فى [سورة الأنبياء] وأن الله أعرض عنهم كأنه يخاطب غيرهم لما تفرقوا . خاطب الله أمتنا بنص الحديث أن تأكل حلالا، وخاطبها فوق ذلك أن تتحد وجهتها وأعرض عنها قائلا « فتقطعوا أمرهم بينهم » قطعا وتفرقوا جماعات وأصبح كل فريق معجبا بنفسه فرحا بما عنده من المال والرجال . خوطب الأنبياء بذلك وأخبرنا الحديث بأننا خوطبنا بما خوطب به الأنبياء فأتباع الأنبياء تفرقوا مع أن الدين واحد والله تعالى أرسل محمدا فى آخر الزمان ينعى على القوم يقول يا أتباع الأنبياء أين عقولكم أين أخلاقكم يا أيها الجهال الغافلون أنا أرسلت رسلى إليكم فمالكم لا تعقلون، أرسلت عيسى، أرسلت موسى ، أرسلت فلانا، أرسلت فلانا وقصدت بذلك هدايتكم فرأيتكم جعلتم أنبياءكم محل الشقاق ومحل الخلاف ومثار النزاع . ولم هذا؟ وهل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول ينافى المودة والمحبة. ما أشأمكم يابنى آدم . ندع هذا وننظر فأنتم يا أتباع محمد مالكم أيضا كيف تفرقتم أحزابا .وهل مذهب الشافعى ومالك وابن حنبل ومذهب الزيدية والشيعة والسنوسية وغيرهم وتفرق الطرق الصوفية وأتباع زيد وعمرو من هؤلاء الشيوخ أو أتباع بعض آل البيت من الرؤساء فى الممالك المختلفة . هل شىء من هذا يفرق العقيدة فيا للجهالة العمياء ، وكيف يكون هذا سبب التفرقة وهل تغير الدين وهل تغير القرآن وهل تغيرت القبلة وهل تغير الرب وهل حصل إشراك ؟ كلا ، ثم كلا. وإذا كنت أعيب على الأمم المختلفة الأديان أن تتنابذ فهأنا ذا أعيب عليكم أيها المسلمون تنابذكم وأنتم أهل دين واحد . نعم أيها المسلمون قل المصلحون بينكم وكثير من الرؤساء لا يريدون منكم إلا خبزكم وأكل أموالكم بلا مقابل . ليقم فى الاسلام مرشدون . ليقم فى الإسلام علماء مصلحون . ليتم فيكم مجددون يقولون لكم : لماذا التخاذل ؟ الدين واحد . هلا قرأتم أول هذه السورة . ألم تنظروا كيف ذكرنا فيها أولا علم الأخلاق وعلم العبادات ثم ثنينا بعلم التشريع وعلم النفس وعلوم الطبيعة . كل هذه تذكرة بأعمالى وجمالى وحكمتى فى خليقتى . كل هذه تذكرة لكم أيها المسلمون أنظروا فى هذه العوالم . انظروا فى جمالها . انظروا فى الشموس المشرقات والكواكب الساطعات

والنجوم البازغات والطرائق للدورات والأقمار الباهرات ، وتأملوا فى الثوابت البديعة وكيف كانت المجرة والمجرات وراءها قد تجلت فيها آلاف الآلاف مما لا تحصونه عدا . كل هذا وضعته وزينت به سماءكم . وهلا نظرتم ذلك السحاب العجيب والهواء اللطيف وضوء الشمس الجميل ووجه الأرض المطيع الذى كسوته الجلابيب السندسية والأشجار العطرية والأزهار البهية والأثمار الجنية وجعلت من ذلك الغذاء وخلقت منها الدواء وكتبت فى بعضه الفناء وفى بعضه الداء ولونته ألوانا وجعلته أفنانا وهكذا الحيوان اختلف صغرا وكبرا ولونا وقدرا وشكلا وبرا وبحرا وهواء .

هذا هو الذى أنزلته عليكم فى هذه السورة وكررته لكم فى أكثر من سورة . هذا هو النظر العقلى والعلم الإسلامى والعالم العقلى والحكمة الاشراقية والآيات الربانية والعبر الصمدانية والبدائع الإسلامية فهل أنتم ناظرون وهل أنتم تعقلون ؟

أيها المسلمون . أتدرون لم تخاذلتم ولم تقاتلتم ولم اجتمع الناس وافترقتم لأنكم جهلاء جهلاء . حقا جهلاء جهلاء جهلا لا يطاق . أيها المسلمون . الجهل قد خيم فوق ربوعكم وضرب أطنابه بين ظهرانيكم وعشش فى مصر والشام والحجاز والعراق واليمن والهند والصين وشمال أفريقيا . لماذا . لأنكم فرطتم فى كتاب ربكم فرطتم فى دينكم . ظننتم أن الدين ليس فيه شئ سوى مسائل القضاء والعبادات فتركتم الأخلاق ظهريا وعلوم هذه العوالم ، فالأخلاق جعلتها فى أكثر من (٧٥٠) آية وهكذا علم التوحيد وعلم جلالى وجمالى جعلته فى نحو (٧٥٠) آية وبقية الكتاب وهو ستة آلاف آية ينحو منحى هذين القسمين وأنتم ما فكرتم إلا فى مائة وخمسين آية وهى آيات الأحكام فنمتم نوم الجاهلية وظن كل فريق أن المحبة اختصت به . أنتم حصرتم عقولكم فى قليل من الدين ولو أنكم قرأتم هذه العلوم العصرية والآيات الربانية لرأيتم أنكم على شريعة واحدة وآية قيمة ، فقراءة السموات من دينكم ، وقراءة الأرض من دينكم ، وقراءة النبات والحيوان والتشريح من دينكم وقراءة علوم النفس من دينكم ، وقراءة سير الأمم وأخلاقها قديما وحديثا من دينكم . هذا هو دين الإسلام فلم ينزل الله هذه السورة بلا فائدة وهى المسماة (سورة المؤمنون) فلذلك جعل الإيمان فيها كاملا .

فمتى عرفتم هذه العلوم تفتحت بصائركم فأيقنتم أنه دين واحد فتصالحتم . عجبا لكم يا أمة الإسلام بل ألف عجب لكم . كيف ترون الأمم المسيحية قد اتحدت عليكم والخلاف فى دينهم ودنياهم شديد ثم أنتم مع اقتراب دياركم واتحاد دينكم تتنابذون وتختصمون . أف لكم أفلا تعقلون ؟ أف لعالم لا ينصح وجاهل لا يتعلم . حرام على علماء الاسلام أن يتركوا العلوم الكونية . حرام عليهم أن يحرموا الأمة من جمال دينها وأصول شرعها وعجائب ربها . حرام على أمة الإسلام أن تبقى متأخرة عن الأمم وهى التى جعلت رحمة للعالمين ، وكيف تكون رحمة لهم وهم أعلم منها وهى الآن أجهل الأمم ؟ إن العذاب واقع على كل عالم وعلى كل أمير وعلى كل ذى جاه وعلى كل ذى قدرة إذا هم لم يذيعوا ما نقوله ويقوله أمثالنا فى أمة الإسلام . فلينشروا هذه المبادئ وإلا فإن أوروبا لهم بالمرصاد وعين الله لا تنام وسينتقم الله من المقصرين والغافلين «وما الله بغافل عما تعملون . وهو الغفور الرحيم» وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وهنا (ثلاث جمل) :

(١) فى مناسبة هذه السورة لما قبلها :

(٢) وفى إيضاح الطرق التعليمية للأمم الإسلامية .

(٣) وفى تبيان قوله تعالى « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

(١) (مناسبة

(١) ﴿ مناسبة هذه السورة لما قبلها ﴾

إن هذه السورة جاءت عقب سورة الحج لأن (سورة الحج) جاء فيها البعث والجهاد فجيء بهذه لتتميم القول : أى لذكر الخصال التى بها يكون الإنسان كاملا منعوتا بلفظ المؤمنين وآل الكمال، وسميت السورة بالمؤمنون ثم وصفهم بصفات العبادة والأخلاق ودرس العلم والحكمة . وأيضا ابتدأ (سورة الحج) بذكر علم التشريح استدلالا على البعث وذكره هنا لترقية العقول البشرية مع البعث فهناك استدلال وهنا تكميل .

ذكر الله فى أول السورة فلاح المؤمنين وأتبعه بذكر الصلاة والخشوع فيها ونرى الحديث يحثنا على أن لا نرفع أبصارنا فى الصلاة وأن نعبد الله كأننا نراه وأن نفكر فى القراءة . ويقول العلماء ينبغى أن لا تفكر فى شيء وقت الصلاة إلا فى هذا ثم نفكر فى هذه الصلاة فماذا نجد؟ إنها أى الصلاة تفسير لسورة المؤمنون نعم تفسير لها . ألم تر أولا إلى قول القارئ « الحمد لله رب العالمين » فإنه ذكر العالم مجملا كله وأنه وسعه كله بالرحمة وإلى قوله « إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط » الخ فإننا نستعين بالله أن يهدينا الصراط الذى لا عوج فيه وهو صراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم . ولما كان قوله « العالمين » مجملا غير مفصل شرع يفصله بعض التفصيل فى الركوع فيقول المصلى « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » أليس هذا التفصيل هو المذكور فى هذه السورة أى أليس هذا هو علم التشريح الذى جاء فيها إذ قال «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » الخ . يقول الله فى هذه السورة « قد أفلح المؤمنون » وذكر خشوعهم فى الصلاة وأتبعها بصفات ثم ختم الصفات بنفس الصلاة بعد أن وصفهم بأنهم حافظون للفروج لبقاء النسل وكثرته وحفظ الأمانة ليعيشوا عيشة هنيئة ويحبوا بعضهم وبأنهم ينفقون المال الفاضل عن حاجتهم كما يذيعون العلوم فجعل الصلاة فى أول الصفات وفى الآخر إشارة إلى أن فى الصلاة ما به يكون المؤمن كاملا . وأعقب ذلك بعلم التشريح الذى يخاطب به المسلم ربه فى ركوعه . وذكر بعد التشريح فى هذه السورة علم الفلك كطرائق النجوم التى يعرفها علماء العصر الحاضر القائلون [إن العالم الذى نعيش فيه هو الأثير المالئ للفضاء وفيه طرائق للنجوم وهى المدارات] وهو تصريح بعلم كان مجهولا عند الأمم قديما فظهر فى هذه السورة كما ظهر فى العالم الإنسانى أن النجوم لها طرائق فى بحر الأثير . وأبان سبحانه أنه غير غافل عن خلقه وأتبعه بعلوم النبات والحيوان وهذا بعينه هو مايقوله المسلم بعد الركوع فهو فى الركوع يدرس علم نفسه لأنه مطأطئ رأسه فإذا رفعها إلى أعلى قال « ربنا لك الحمد » فهو كما يقول « الحمد لله رب العالمين » فى قراءة الفاتحة يقول هنا مفسرا لذلك « ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » هذا هو الذى يقوله المسلم بعد الرفع من الركوع : أى يرفع رأسه فيخاطب ربه بأن حمدى لك على قدر علمى بالسموات والأرض وما بينهما وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة بعد علم التشريح الذى يتبعه علم النفس ، فالفلك والنبات والحيوان والأرض هى العلوم التى يخاطب المسلم بها ربه . فأما الاكتفاء بالسموات وبالأرض وبما بينهما بدون علم بها فهو كما يكتفى الحمار بنظره البصرى وكما يقرأ العامة هذه الطبيعة بعيونهم . وإذا أتبع الله ذلك كله بذكر قصص الأنبياء إجمالا وذكر بعضهم تفصيلا فذلك تفسير لقوله « اهدنا الصراط المستقيم » ولا صراط مستقيما إلا ما كان عليه نبينا والنبيون وهم المنعم عليهم . فيا عجبا . هل المنعم عليهم نعما دنيوية وأخروية يكونون مجهولين عندنا ونحن نهتدى إليهم ، والله لا هداية لطرقهم إلا بمعرفتها فلم يقل المسلمون « صراط الذين أنعمت عليهم » لمجرد اللفظ . والنعم « قسمان » دنيوية وأخروية ولا أخروية إلا بعد الدنيوية . ومستحيل أن تكون آخرة إلا بعد الدنيا . وإن شئت برهانا فلأسمعك ما جاء فى تفسير (سورة البقرة) عند قوله

تعالى « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » إذ ورد أن هذا كان دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم وأنه صلى الله عليه وسلم لما رأى رجلا قد ضعف من المرض سأله قائلا هل كنت تدعو الله قال نعم كنت أقول اللهم إن كنت تريد معاقبتى فى الآخرة فعاقبنى فى الدنيا فأمره أن يدعو بهذا الدعاء « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة » الخ فدعا الله فشفى من المرض . وقد فسر العلماء الحسنة فى الدنيا بجميع النعم من صحة ومال وراحة قلب وولد وهكذا حتى قالوا : إن الإنسان بلا طمأنينة فى الدنيا لا عبادة له .

فمن هنا عرفنا النعم وأنها دنيوية وأخروية ولا أخروية إلا بعد الدنيوية . فإذا قال الله « الذين أنعمت عليهم » فلندرس كل علم يوصل إلى دنيا وكل علم يوصل إلى الآخرة لذلك ذكر الله هنا الأنبياء . وقد تقدم تفصيل الأنبياء فى (سورة الأنبياء) وقد عرفت هناك العلوم الدنيوية التى أنعم الله عليهم بها . ولعمرك ما هذا إلا فتح باب لذكر النابغين والنابهين والكاشفين وعلماء الأمم أجمعين بحيث ندرسهم أى أننا ندرس كل نعمة دنيوية وكل نعمة أخروية . ندرسها لنتناول نفس النعمة الدنيوية والأخروية . فإذا قرأنا « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » فمعناه أننا ندرس علم التشريح كما ندرس علم النفس وإذن نكون فهمنا « خشع لك سمعى وبصرى » فى ركوعنا . وإذا قرأنا « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » فمعنى هذا دراسة العلوم المذكورة وإذن نكون درسنا قول المصلى « ربنا لك الحمد » الخ وكان ذلك تفصيلا لقولنا فى الصلاة « الحمد لله رب العالمين » وإذا قرأنا « اهدنا الصراط المستقيم » وذكرنا المنعم عليهم والمغضوب عليهم فمعناه دراسة الأنبياء الذين شرحنا علومهم فى سورتهم ودراسة كل نعمة فى الدنيا ونعمة علمية للعقول وارتقائها أى علوم الآخرة هذا هو المقصود من ذلك وإذن نكون درسنا بقية (سورة المؤمنون) التى ذكرت هؤلاء الأنبياء وشرحت المنعم عليهم والمغضوب عليهم المذكورين فى الفاتحة هذا هو معنى المؤمنون ومعنى خشوعهم فى الصلاة ؟ فخشوعهم فى الصلاة ليتفكروا ومتى تفكروا عقلوا ما فى الصلاة وما فى الصلاة هو نفس ما فى هذه السورة علوم تشريحية وعلوم نفسية وعلوم فلكية وعلوم نباتية وعلوم حيوانية وعلوم طبيعية وعلوم كيميائية وعلوم رياضية لأنه لا يمكن دراسة ما ذكر من هذه العلوم الطبيعية ولا الفلكية ولا علم التشريح الذى هو منها إلا بعد التضلع من العلوم الرياضية . هذا هو دين الاسلام وما عداه فجهل وغرور وندامة .

ها أنا ذا قد بينت ما وجب على وأنت أيها الذكى مسئول عن نفسك وعن أمتك . أنت مسئول بين يدى الله تعالى . بين لأمتك ما سمعت وتصرف بعقلك وفكر فى أمرهم فلا سعادة لك فى دنياك ولا فى آخرتك إلا بسعادتهم ولذلك أسمعك تقول « إياك نعبد » فالعبادة مشتركة ونحن كلنا لا بد أن نعبد معا وهكذا أسمعك تقول « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وأسمعك تقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » الخ فأنت فى صلاتك تدعو لنبينا صلى الله عليه وسلم ولأمته وتسلم عليه وعلى أمته وتضم الأمم التى تبعت إبراهيم . فأنت فى صلاتك مع هؤلاء جميعا بل أنت فى صلاتك مع أعظم من ذلك فانك تقول « وعلى عباد الله الصالحين » والصالحون أعم من المسلمين ومن أمة إبراهيم بل هم كل صالح من كل أمة بل كل الملائكة بل وكل ملك فى كل سماء أو أرض . هذا هو الذى تدعو به فى صلاتك ، فأنت لست وحدك لا فى الدنيا ولا فى الآخرة فاسع لارتقاء أمة الاسلام على الأقل وبلغهم ما سمعت الآن واسلك طريقا تراه لهم نافعا والله هو الهادى إلى سواء الصراط

(طرق علم التوحيد)

ها أنت ذا قرأت علوم الإسلام فى سورة المؤمنون وفى الصلاة وعرفت أن (سورة المؤمنون) قد فسرتها الصلاة وأدعيتها وأن الفاتحة المجملة قد فصلت فى الأدعية وفسر الجميع بهذه السورة وهذه السورة تكملها

سورة الأنبياء وقلت لك إن النعم عليهم فى الدنيا كثيرون فليدرس المسلمون علوم جميع الأمم ليعرفوا كيف حل غضب الله على الجاهلين وكيف أنعم على المتعلمين . كل هذا عرفته ولكن انظرأيها الذكى . انظروتعجب معى . انظر لأسلافنا الكرام . انظر كيف كانوا رحمهم الله نبراس الأمم . ماذا فعلوا ؟ رأوا قوما درسوا شيئا من علم الطبيعة شيئا يسيرا حقيرا فافتخروا بأنهم قرءوا الفلسفة وماهم بفلاسفة بل هم جهلاء فشككوا الناس فى الدين . فماذا جرى ؟ قام هؤلاء الأكابر فألفوا علما سموه (علم الكلام) لأن مسألة كلام الله اللفظى والنفسى كان أثارها المأمون ومن معه وتمادى القوم فأتموا تأليف هذا العلم وتكوينه فجمعوا العقائد فى خمسين مسألة كصفات الله النفسية وصفات المعانى والصفات المعنوية وصفات التنزيه والتقديس وصفات الرسل ومايجب لهم من الأمانة والفطانة الخ واليوم الآخر وماأشبه ذلك وأمروا الناس أن يدرسوها ، ولما شاع ذلك قام العلماء آباؤنا فحرم هذا العلم قوم لأنه يهوش على أذهان الطلبة وقال قوم منهم . كلا بل نخصص به طائفة لافحام الخصوم وبقية الأمة لاتدرسه ويشترط فى الدارسين له أن يكونوا ذوى صفات حميدة قالوا لأنه ربما ضلوا السبيل بسبب الشكوك التى ترد فى أثناء قراءة هذا العلم وانتهى أمر الأمة بأن جعلته علما عاما يقرؤه كل طالب ويحفظ العقائد عن ظهر قلب أو بفهم ويقول الله قادر عالم حى الخ والأنبياء كذا وكذا . هذا كل ما حصل فى الإسلام وبهذا انصرف المسلمون عن فهم أركان الصلاة وأدعيتها وانصرفوا عن دراسة جمال الله وعن تشريح أنفسهم وعن معرفة ماحولهم وذلك لأنهم اكتفوا بتلك القشور وظنوا أن هذا كاف إلى يوم النشور وأن هذا هو النور والكتاب المسطور فى الرق المنشور .

أليس هذا أشبه بما قصه الله إذ قال « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » . أليس كل حزب من المسلمين أصبح فرحا بما عنده من العلم ونسى الناس علوم القرآن . أو ليس هذا هو التقطيع ، ياويحنا إذا فرطنا فى تعاليم ديننا وآبائنا . ألم يبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرنا بأننا سنتقطع هذا التقطع وتتمزق هذا التمزق ، النبي صلى الله عليه وسلم نفسه هوالذى قال ذلك فمزقنا علما وتمزقنا أمما فلنجتمع كما تفرقنا ولنتعلم كل العلوم كما مزقناها .

فانظر كيف انصرف الناس عن القرآن ، انظر كيف كان أول هذا العلم لرد الشبه ثم اختصر وجعل كلمات يتلقفها التلاميذ ثم نام الناس عليها وعكفوا . انظر وابك على أمة الإسلام . ابك على أمة الإسلام ، يكرر المسلم صفات الله فيقول «قادر مريد وعالم وحى» ويقول بعد تمام صفاته «إن كماله لايتناهى» .

ياعجبا ، ومافائدة القدرة لنا بدون أن نقرأ آثارها الظاهرة . انظر كيف كان هذا العلم قدحجب الناس عن نفس القرآن مع أن القرآن ينظر فى نفس العلوم التى هى آثار صفات الله . فانظر إلى أمة تحفظ الصفات ولا تقرأ آثارها انظر إلى الكتب المصنفة كيف منعت الناس عن القرآن .

هاأناذا أبنت لك كيف كان آباؤنا يدضون عن الدين بهذا العلم وحسنا فعلوا . ثم انظر كيف جاء الخلف فظنوا أنه هو المقصود وتركوا القرآن (وبعبارة أخرى) تركوا عجائب الله فى الأرض وفى السماء (وبعبارة أصح) «نسوا الله فأنساهم أنفسهم» فأذلم الفرنجة وهم نائمون أوهائمون فى أودية الجهالة ، وسيؤيد الله هذه الأمة ويخرج فيها رجالا يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

﴿ بالجهل تفرق المسلمون وبالعلم اجتمعت الأمم ﴾

(تبيان قوله تعالى « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون »)

لقد تقدم تفسير هذه الآية وعرفت من نفس الحديث الشريف . ومن كلام المفسرين أن هذا القول

يقصد به أمة الإسلام . وأقول الآن إن هذا معجزة . فاذا أورد بعض العلماء حديث افتراق الأمة نيفا وسبعين فرقة وردّ الحديث بعضهم لعدم ثبوته فنقول ولكن هذه الآية لاراد لها فقد أخبر الله بتفرق أمة الإسلام وقد حصل هذا فعلا ولم يكن المقصود مجرد الإخبار إنما المقصد أن يكون هذا القول موجها للاحتراس من التفرق فقد أخبر بذلك وأراد أن نحترس من ذلك .

﴿ التفرق فى العصر الأول وكيف تلافاه الخلفاء الراشدون ﴾

لقد كانت الأمة العربية قبل مبعث الرسول صلوات الله عليه لاتعنى كثيرا بالقراءة والكتابة وكان جلّ اعتمادهم فى قيد أشعارهم وخطبهم ونحوها على حفظها فى أوعية صدورهم وكان الورق الذى بين أيدينا اليوم لم يشتهر بينهم وصحائفهم إذ ذاك جلد أو حجارة رقيقة بيضاء وكلمة (كتاب) تطلق على كل صحيفة مكتوبة من هذه الأنواع والكاتبون فيهم قليلون ، فلما كان القرآن ينزل نجوما وأقساما كان النبى صلوات الله عليه يملى عليهم ماينزل وقته فيكتبونه على ماتيسر من جلد ونحوه وخصص لذلك العمل من كان يحسن القراءة والكتابة وأطلق عليهم (كتاب الوحى) . أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر فى الأمة فكرة حفظ القرآن واستظهاره فحضهم على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ورغبهم فى حفظه ولم يترك وسيلة للوصول إلى ذلك إلا استعملها فكانت عشرات الآيات والسور الطويلة بل والقرآن كله يحفظه كثير منهم . وأعانهم على حفظه سريعا قوة حافظتهم وسرعة خاطرهم وصفاء ذاكرتهم . فالمعروف عنهم استظهار مايطرق سمعهم بسرعة عجيبة مع الضبط بل فيهم من إذا قرئت عليه القصيدة الطويلة حفظها من أول مرة وفى أخبارهم شواهد على ذلك كثيرة لم يقف صلوات الله عليه عند هذا الحد فى حفظه بل أمرهم بكتابته وتدوينه . ولذا رغبهم فى تعلم القراءة والكتابة ومدحه وبالغ فيه حتى إن الأسير الذى يأسرونه فى حروبهم إذا عجز عن الافتداء بالمال وهو متعلم جعل فداءه تعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فتلاشت بينهم الأمية وتسارعوا إلى تسطير القرآن على ماتيسر مع ضبطه إذ كانوا يكتبونه عند سماع قراءة الرسول وهو يسمع منهم ما يكتبون . وممن اشتهر من كتاب الوحى (زيد بن ثابت) فقد شهد عرض القرآن فى المرة الأخيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبه له وقرأه عليه وأقرأ الناس به ، وذلك أن جبريل عليه السلام كان يلقى الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل سنة فى ليالى رمضان يعرض عليه القرآن كله مرة وفى العام الذى قبض فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين وماذلك إلاليعرضه كذلك على قومه حتى يحفظ مضبوطا ، ومن كتاب وحيه أيضا (أبىّ بن كعب) و (الزبير بن العوام) و (خالد وأبان ابنا سعيد بن العاصى بن أمية) و (حنظلة بن الربيع الأسيدى) و (معيقب ابن أبى فاطمة) و (معاوية بن أبى سفيان) و (علىّ بن أبى طالب) وغيرهم وأشهرهم (زيد بن ثابت) فلم ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الحياة إلا والقرآن كله محفوظ فى الصدور مكتوب على رقاع متنوعة من جلد وحجارة مع الضبط والتدقيق وإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كتب بعد تلاوته عليه .

ولما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة أصيب الاسلام بارتداد بعض القبائل وادعاء بضعة كذابين ودجالين كالأسود العنسى ومسيلمة وسجاح للنبوة ، ولكن تداركت تلك الحوادث حكمة أبى بكر الصديق وتلاشت بسياسته وحزمه فبعث بالجيوش إلى المرتدين والمتنبئين وأرسل إليهم كتبا يدعوهم إلى الهدى والرشاد وان أبوا فالقتال فما كان إلا القتال فظفرت جيوش المسلمين وثاب الناس إلى رشدهم وعاد المرتد واندحر المتنبئ إلا أنه قتل جمع كبير من قراء القرآن وحفاظه فى واقعة (اليمامة) إحدى هذه المعارك فاستفزهم هذا الفزع إلى المبادرة والاسراع إلى جمع القرآن على الطريقة التى وجدوا عليها غيرهم من الأمم فى تدوين معلوماتهم فى صحف من نوع واحد خشية أن يضيع القرآن ويندرس بقتل كثير من حفاظه ووجوده فى رقاع منوعة

سرعان ماتمتد إليها يد التبديد فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت ، فقال له إن عمر بن الخطاب قد أشار على بأن آمر بجمع القرآن لأن القتل قد استحر (يوم اليمامة) بالقراء وخشى أن يستحر القتل بهم فى مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن فقال زيد لأبى بكر وعمر كيف نفعل شيئا لم يفعله الرسول فقالا هذا والله خير وما زالا يراجعانه حتى قر رأيهم على جمعه فقال أبو بكر لزيد إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه، فتألفت لجنة من الحفاظ والقراء والكتاب برأسها زيد بن ثابت فأخذ يتتبع القرآن يجمعه من الجلد والحجارة التى كانت تكتب فى عهد الرسول ومن صدور الرجال الذين تلقوه عن الرسول وكانت اللجنة لاتكتفى بحفظها ولا بما وجدته مكتوبا عندها إلا إذا راجعوا ماعند الغير مما كتب بين يدى الرسول وباملائه وإن وجد عند أكثر من واحد أو يشهد عليه شاهدان عدلان منهم . وهكذا استمرت اللجنة تعمل وجميع أعضائها من أكبر الحفاظ وأدق القراء وفيهم أشهر كتاب الوحى فسطروا القرآن جميعه فى صحف من نوع واحد وقد أقرها وأجمع عليها جميع الصحابة لم يخالف واحد ثم أودعت هذه الصحف عند أبى بكر حتى توفى ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر بعد ذلك .

وفى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه قدم عليه حذيفة بن اليمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح (أرمينية) و (أذربيجان) مع أهل العراق فقال ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . وسبب ذلك أن هذه الجيوش كانت من قبائل متعددة من أصقاع مختلفة فسمع حذيفة كل قبيلة تقرأ على وجه لم يسمعه هو من الرسول صلى الله عليه وسلم وظن أن القراءة التى سمعها وقرأ بها هى الوحيدة وأن الرسول لم يقرئ جميع الوفود والقبائل بها مع أن الرسول صلوات الله عليه كان يقرئ المسلمين على أحرف مختلفة حسب لهجة كل قبيلة من العرب وكلها لاتخرج عن المقصود والإعجاز ولم يفعل ذلك إلا بايحاء من الله تعالى ، ففى صحيح البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال «أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» وكان الكثير منهم لايعرف إلا وجها واحدا من القراءة وهو الذى سمعه من الرسول، حسب لغة السامع ولهجته، ويدل لذلك مارواه البخارى فى صحيحه من أن عمر بن الخطاب يقول : «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال أقرأنيها رسول الله ، فقلت كذبت فان رسول الله قد أقرأنيها على غير ماقرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فقلت إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله أرسله ، فلما جاء قال اقرأ ياهشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله كذلك أنزلت ثم قال اقرأ ياعمر فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه» وهذا بعينه الذى حمل حذيفة وغيره على اتهام القراءات المتعددة من القبائل المختلفة فى هذه الفتوحات والحروب ، فلما أفضى إلى عثمان بمقالته خشى من اشتداد النزاع بين القبائل لهذا الخلاف اللغوى فتشب بينهم نار الحرب والخاصمة فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم وتتفرق كلمتهم فرأى رضى الله عنه بعد مشورة من كان فى عهده من الصحابة أن يجمع المسلمين على مصحف واحد مكتوب بقراءة قريش ورسمها الكتابى فبعث إلى حفصة بنت عمر أن ترسل بالصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر فأرسلت بها وجمع الحفاظ والقراء وكتاب الوحى الذين فى خلافته من بينهم سعيد بن العاصى وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فتألفت لجنة رئيسها زيد بن ثابت ، وقال لهم عثمان إذا اختلفتم عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فان القرآن نزل بلسانهم أراد بذلك أن يجمعهم على وجه

واحد فلا يجد الخلاف إليهم سبيلا فسارت اللجنة فى عملها بالتحرى والتدقيق كما فى خلافة أبى بكر سيما أن رئيس اللجنتين فى الـ دين واحد فنسخوا منه عدة مصاحف أرسلت إلى الأمصار ورد مصحف حفصة إليها وأمر باحراق ما عدا ذلك وأجمع جميع المسلمين من قراء وكتاب وحفاظ على اعتماد هذا المصحف وأنه كما تلقوه عن الصادق الأمين فصار هو المعول عليه والمعمول به فى جميع الأقطار ولم يطل بهم العهد فى ذلك الحين على انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبهذا العمل الجليل قد انحسم ما كان متوقعا من النزاع . وبهذا حفظ الله كتابه من الضياع والتحريف والتبديل وتحقق قوله تعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» . هذا والواقف على طباع العرب من شدة تمسكهم بدينهم وحرصهم على ضبط ماينقلونه عن الرسول وغضبهم وسخطهم لأقل شيء يخالف ما كان عليه الرسول ولو أمر به أعظم عظيم والعارف بما جبل عليه الخلفاء الراشدون من الخلق الكريم وعدم الاستبداد بالرأى وسرعة نزولهم على ماتجمع عليه الأمة . إن العالم بذلك كله يجزم بأنه لو اختلف حرف واحد من القرآن عما تلقوه من رسول الله لاشتعلت بينهم نار الحروب وثاروا على الخليفتين بل لارتدت شعوب بعملهما ولطعن عليهم أعداؤهم وعابوا كتابهم وهم مخالطون لهم يرقبون أى عيب يشنون به الغارة عليهم ولاختلفوا هم أيضا فى قبول هذه المصاحف واظهرت عدة مصاحف متغايرة متناقضة ولكن شيئا من ذلك لم يكن وإن ذلك ليدل دلالة واضحة ويقطع قطعا يقينيا أن هذه المصاحف هى عين ماتلقوه عن رسول الله والذى نطق به «وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى» .

لبث القرآن عهدا كبيرا تتناقله الأمم والأجيال بالكتابة اليدوية من هذه المصاحف العثمانية المجمع عليها فى خلافة سيدنا عثمان وكانت الكتابة تزداد تحسينا شيئا فشيئا على مقتضى تطورات العصور إلى عصر اختراع آلات الطباعة فكانت عاملا قويا فى نشر المعلومات وبث المؤلفات وأول مصحف طبع سنة (١٦٩٤) ميلادية بمدينة (همبورغ) بألمانيا ثم انتشرت بعد ذلك انتشارها المشهود . هذا ما فعله الخلفاء رضى الله عنهم فتلافوا الأمر ولم يفرطوا فبقى القرآن محفوظا إلى الآن .

(كيف يتحد المسلمون الآن)

لقد عرفت أيها الذكى أن انحصار العقول الإسلاميه فى ألفاظ علم التوحيد وفى العلوم الفقهية هو الذى أدى بهم إلى التخاذل . إن انطلاق العقول إلى علم ما فى السموات والأرض يفتح لهم بابين : (الباب الأول) باب نظام هذا العالم ومنه يعرفون جمال الله وحكمته (الباب الثانى) أنهم يرون أن علم الفقه وعلم التوحيد المصطلح عليه ليسا إلا شيئا يسيرا جدا من دين الإسلام ويرون أن الإسلام هو كل هذه العلوم . فيرى المسلم الشيعى والسنى أن الخلاف بينهما شيء يسير جدا لأنهما لا يختلفان فى علم التشريح ولا علم النفس ولا علم النبات ولا علم الحيوان ولا علم الكيمياء ولا علم المعادن ولا علم طبقات الأرض ولكن الخلاف جزئى يسير وإذن يتعارفون ويتقابلون ويرون أنهم إخوان على سرر متقابلين وأن انحصار الأفكار هو الذى منعهم وأضل الأمم الإسلامية . وإن شئت بيانا أكثر فقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها : لماذا نرى ألمانيا أمما كثيرة وممالك تعد بالعشرات ومع ذلك تكونت منها أمة واحدة ونرى الولايات المتحدة تكونت منها أمم تبلغ فوق مائة مليون ومع ذلك هم من أمم مختلفة وعقائد متباينة حتى إنهم فيهم اليهودى والمسلم والنصرانى والدرزى وكلهم يعيشون عيشا هنيئا . وكيف كان الإنجليز أمما مختلفة وقد اتحدوا وها هم أولاء يضربوننا فى الشرق .

أيها الذكى . إن المسلمين ما فرقهم إلا الجهل . إن هذه الأمم لما قرأت العلوم وعلمت كل واحد من

أبناء البلاد مبادئ العلوم واتقى أغنياؤها فى العلم عرفوا أن الفارق بينهم فى الديانات قليل بالنسبة لما اتحدوا فيه من العلوم والحياة . إذا كان ذلك فى أمم مختلفة فكيف يكون أمر أمة الإسلام هذه الأمة المتحدة التى ما فرقها إلا الجهل وسوء سلوك الرؤساء والأمراء . أفلا ترى أن قراءة العلوم بين الأمم الإسلامية تجمعهم كما جمعت الأمم المختلفة . ولعمرى إن أهل دين واحد أقرب إلى الاتحاد من الأمم المختلفة . فكيف إذن بدين الإسلام الذى هو دين علم وحكمة . ياحسرتا على ما فرط المسلمون . إنى ليحزننى وايم الله أن أقول انظروا إلى أوروبا ولكن ما العمل وهم سبقونا . هلا قام قائم بين المسلمين وجدد عهد عثمان وأبى بكر رضى الله عنهما وقال أيها المسلمون ادرسوا العلوم كما درسها الغربيون لتعرفوا دينكم وربكم وسر صلاتكم وتكونوا مؤمنين حقيقيين . ياليت شعرى متى يقوم فيكم ذلك القائم ، متى يقوم فيكم من يقول لكم كفى كفى ؟ لقد شبعنا جهالة فأين العلم أين العلم . أيها المسلمون انظروا كيف ترون التفرق والتخاذل ، لاتفرق ولا تخاذل إلا بالجهالة ، فبلاد العرب على قلة عددها فيها ممالك متفرقة تتقاتل وتتحارب وليس يدبر أمرها إلا الفرنجة لماذا ؟ لأنهم جهلاء لايعرفون أمور الدنيا فيصلحونها ولا المودة بينهم التى لاتكون إلا بالعلم ولا علم اليوم . فالعلم فى أوروبا وحدها . وأما أمة الإسلام فانها أصبحت فى براثن أوروبا . فبالعلم ملكونا وبجهلنا بديننا تفرقنا : أى بعلوم ديننا ، أى بجمال الله وآياته وحكمه ونظامه ، نسينا الله فنسينا . أفليس هذا هو الفسق . أفليس الفسق أن تكون مصر وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وسوريا والعراق كل هؤلاء أمة عربية لغتها واحدة ودينها واحد وأصلها واحد ومع ذلك لايعرف بعضهم بعضا . أليس ذلك إلا لأنهم جهلاء ، جهلاء جدا لايعرفون ماذا يصنعون . أليس ذلك حاصلا فى الإسلام لأنا جعلنا كتابنا بيننا زبرا « كل حزب بما لديهم فرحون » ؟.

﴿ حكاية ﴾

قال لى يوما الأستاذ المستشرق الانجليزى (ادوارد براون) إنى قابلت تلميذا من تلاميذ الفرس وقد كنت موفدا من قبل أمتنا الانجليزية لأعرف طبائع هذه الأمم . أيتحد المسلمون أم هم فى المستقبل لا يتحدون ، قال فدرست الأمم التركية والفارسية والعربية وعلمت من أمة الفرس أنهم يستحيل أن يتحدوا مع أهل السنة ، فقد قال لى ذلك التلميذ الذى قابلته إنى حاربت الترك مع الروس لما كانوا يحاربونهم لأنى أعتقد أن الكلب أفضل من المسلم السنى فلذلك فضلت أن أحارب الترك مع الروس . قال الأستاذ (براون) وأنا عالم علم اليقين أن هذا التلميذ لم يذبح دجاجة مدة حياته لجبنه ولكن عرفت أن تعاليم هذه الأمم قد قضت عليهم «فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » انتهت الحكاية .

أقول وكان ذلك منذ نحو (٢٠) سنة . أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فان الفرس والترك اقتربوا وتحابوا وظهر خطأ نظرية الأستاذ (براون) وأن الأمور قد تغيرت وأقول الآن كل هذا كان للجهالة العمياء العامة فى الاسلام .

﴿ سورة المؤمنون وعلوم الحكمة ونشرها فى الاسلام ﴾

هل أحدثك عن تقسيم الحكمة عند أسلافنا ؟ وهل تحب أن أقول لك إن الحكمة كلها قد نقلت إلى أوروبا وجاء (بيكون) الانجليزى ورتبها ترتيبا آخر ونشرها فى أوروبا وكل ذلك ملخص هذه السورة .

فانظر الآن لما قاله (بيكون) المذكور الذى كان فى حدود المائة السادسة عشرة من التاريخ المسيحى فانه عمد إلى ما رأيت من العلوم المذكورة فى هذه السورة التى سطرها آباؤنا باسم الفلسفة وقسمها

على أهم القوى التي في الدماغ وهي ثلاثة : (القوة المتخيلة . والقوة المفكرة ، والقوة الذاكرة) . فالقوة المتخيلة التي مقرها في مقدم الدماغ عند القدماء علم الشعر ويقسمه إلى ثلاثة أقسام : (الشعر الوصفي ، والشعر الذي تذكر فيه الروايات ، والشعر الأمثال) . وللقوة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان طبيعي وبشري والطبيعي يشمل علوم الطبيعة كلها من العلويات والسفليات كالجيولوجيا والجغرافيا والسماء والعالم والكون والفساد إلى آخر ما تقدم .

والتاريخ البشري يشمل التاريخ الديني والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأدب والفنون . وللقوة المفكرة علوم الفلسفة وهي (ثلاثة أقسام : فن معرفة الله . وفن معرفة نظام الطبيعة . وفن معرفة نظام الإنسان) كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الأخلاق وعلم النظام الاجتماعي وعلم الجمال . وقد اعتادوا أن يقرءوا مع ذلك المذاهب الفلسفية . فهذا هو تقسيم المحدثين .

فانظر الآن . أليس معرفة الله هي المذكورة في أول سورة المؤمنون . أليس علم النفس هو اللازم لعلم التشريح المذكور في أول هذه السورة . أليس علم نظام الطبيعة هو مجموع تلك العلوم التشريحية والفلكية والحيوانية والنباتية في أول السورة . أليس علم النفس يتفرع عنه علم المنطق وعلم الأخلاق وعلم الجمال وعلم النظام الاجتماعي فهذه فروع له . فأما المنطق فما هو إلا ميزان والميزان لا يصح شيء بدونه . وأما علم الأخلاق فهو مفهوم من أول السورة في الوفاء بالعهود والزكاة ونحوها . وأما علم الجمال فهو ملخص نظام الطبيعة وحسنها وجمالها وبهاؤها . وأما علم الاجتماع فيشار إليه بقصص الأنبياء في هذه السورة وأمثالها وأن ندرس نظم الأمم ونحللها ونأخذ بأحسنها .

﴿ الدروس التي تلقى إلى المسلمين ﴾

(١) دروس العبادة والأخلاق للأطفال عملا لا مجرد علم كما في أول سورة المؤمنون .

(٢) دروس علم الأشياء بحيث يذكر فيه أحاسن الجمال في الطبيعة والبدائع والنظم المتقنة في هذا الوجود وغرائبه ليعشق التلميذ درسه وربه . كل هذا في التعليم الأولي مع ذكر الله وصفاته .

(٣) درس العلوم الطبيعية في التجهيزي درساً منظما فيقرأ الحيوان والنبات والتشريح وطبقات الأرض والفلك وتلك القراءة المقصد منها الإلمام بهذه العلوم بهيئة منظمة كما في هذه السورة .

(٤) ذكر سير الملوك والأمراء والعلماء وأخلاقهم وأعمالهم وما يتبع ذلك ليكون في الأمة مصلحون كما جاء في هذه السورة من ذكر المنعم عليهم من الأنبياء ويكون ذلك تبذا صالحة جميلة في كتب متقنة جميلة شارحة للصدور مهيئة الطفل لدراسة العلوم بانشراح صدره لدينه ولأمة الإسلام .

ليقم في الاسلام مجددون فلينشروا هذا في مختلف الأصقاع فاذا درسوا ذلك فليدرسوا معه مايلزم من علوم الدين ثم ليتخصصوا في القسم العالي كلا فيما هو أهل له ، فهذا للعلوم العربية ، وهذا للحديث والتفسير ، وهذا للكيمياء والطبيعة وهذا للهندسة ، وهذا للطب الخ .

هذا هو الذي يجب أن يكون عليه المسلمون في مستقبل الزمان وأن الله سبحانه هو الذي ألهم بكتابة هذا في التفسير وسيلهم كثيرا من المسلمين بنشر هذه الآراء ، وهو الذي سيهدي المسلمين فيسيرون على صراط مستقيم ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرة في قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ﴾

لقد تقدم في هذا التفسير في موضع غير هذا أن التثليث عند الأمم السابقة قبل المسيح لم يكن بالمعنى الذي

يتعارفه

بتعارفه المسيحيون إذ نقلت عنهم أنه كان هكذا الله والمادة والعقل المدبر لها باذن الله والمادة والعقل يدلان على الله . ومعنى هذا أن الإنسان إذا نظر فى هذه الدنيا لايرى إلا مادة وهذه المادة يراها فى غاية الانتظام وهذا الانتظام يدل على عقل نظمه وهو المعبر عنه عندنا بالملائكة الذين يدبرون العوالم وهؤلاء الملائكة الذين عرفناهم بآثارهم فى السموات والأرض يدلون على أن لهم إلها خلقهم . إذن المادة والقوة المدبرة يدلان على الله . إذن الموجود إما مادة محسوسة وإما عقول مرتبطة بها وإما موجود مجرد من المادة مدبر للقسمين أى الوجود إما مادة وإما مختلط بها وإما مجرد عنها مدبر للقسمين . هذا ما كان يقوله فلاسفة الأمم لهم ثم تمادى الزمان فصار الثلاثة آلهة وقد جعلت لهم أصنام فى الهند وعند البابليين والآشوريين وقدماء المصريين .

ولما نقل النصارى هذا التثليث عن الأمم لم يحسنوا النقل فبدل أن يقولوا (الله والمادة والعقل) المعبر عنها بالأب والأم والابن قالوا (الأب والابن والروح القدس) وجعلوهم جميعا آلهة وكلهم إله واحد .

أفلا تعجب لما أسمعك الآن وكيف يظهر الله عز وجل الأسرار فى كلام المسيحيين أنفسهم . فانظر لما جاء فى [مجلة البريد المصرى] فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ وهى المجلة الشهرية الدينية الأدبية فى سنتها الخامسة عشرة عدد (٩) صفحة (١٣٩) وهى التى يديرها المسيحيون بمصر ؛ فقد جاء فيها مانصه (ولولا تجسده ماعرفنا الأب بالابن كما فى متى ١١ : ٢٧ ويوحنا ١ : ١٨ (٢٥)) اﻫ .

أفلا تعجب معى . لجل الله ، أليس هذا هو عين ماأسلفته نقلا عن أصول ديانات القدماء ، وهو عين هذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها إذ يقولون (لولا تجسد المسيح ماعرفنا الأب) إذن الأمر ظهر وهو أنه لولا العالم ماعرفنا الله ، والعالم هو المادة والقوة العاقلة المنظمة لها ، فهذه لولاها لم يعرف الناس ربهم فجاء المسيحيون وحصروا معرفة الله فى ظهور جسم المسيح ونور عقله . وبعبارة أخرى إن الرجل العالم يدرك جمال الله من كل حشرة وكل كوكب وكل نبات وهكذا ولكن طائفة من الناس اكتفوا برجل صالح ذى نور من الله فدلهم على الله تعالى . لجسم المسيح بعض جسم الأرض وعقله بعض العقل العام الذى خلقه الله فى العوالم كلها . فى هذا اكتفاء بالبعض عن الجميع ، وما المسيح إلا آية واحدة من آيات الله التى منها الشمس والقمر وحيوان الأرض وغيرها . أفلا تعجب أن ترى المسيحيين ينطقون بالسر وإن كان أكثرهم لايعترفون به إذ يقول إنجيل متى وإنجيل يوحنا المتقدمين (إن تجسد المسيح يدل على الله) أليس هذا هو عين التوحيد وعين قوله تعالى «وجعلنا ابن مريم وأمه آية» فعيسى آية لا غير فى القرآن ، وعيسى يدل على الله فى إنجيل متى وإنجيل يوحنا والمادة والعقل والعالم يدلان على الله فى أديان القدماء . إذن اتفق القرآن وإنجيل متى وأصول الأديان القديمة على شىء واحد وهو أنه لاتثليث بل هو توحيد حق دين المسيح عند (متى) و (يوحنا) اللذين جعلا وجود المسيح يدل على الله وإذن أصل التثليث استدلال بمقدمتين على نتيجة المقدمتين (الجسد والروح) والنتيجة أنه لابد من موجود أوجد الروح وأوجد الجسم وضمهما إلى بعضهما ونظمهما .

هذا هو معنى قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » وذلك كما تقول إن البرهان يحتاج إلى مقدمتين وتكون لهما نتيجة ، فكما تقول العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث تقول هنا العالم مادة وهى مدبرة بعقل منظم وهذان لابد لهما من موجد منزه عن المادة منظم لهما معا لأن الموجود إما مادة وإما منزه عنها وإما ملتبس بها لاغير والحمد لله على نعمة العلم والحكمة .

﴿ تذكرة فى أن ألوهية المسيح منقولة عن الأمم السابقة التى خلت ﴾

جاء فى كتاب [الذهب الروحانى] صفحة (٤٢٢) مانصه :

- ولا تتوهمن أن النصرانية وحدها اخترعت أن الإله صار بشرا فان الهنود نسبوا إلى (فشنو) وهو الأقنوم

الثانى من ثالوثهم تسعة تجسدات وفى ثامنها ظهر باسم (خريستا) وكذلك (أبولونيوس) التيانى ظنه معاصروه إلها لأنه علم ماعلمه (يسوع) وعمل أعمالا عظيمة وروى عن أمه أنها لما كانت حاملا به ظهر لها فى الرؤيا (بروتيو) أحد آلهة المصريين وقال لها إنه حل فى أحشائها . ومثله (ليوتسو) الصينى ظنوه إلها صار إنسانا وقد حملت به أمه بنظرها إلى رجوم ساقطة من السماء . وأما ألوهية المسيح فلم تنشأ إلا بعد خراب (أورشليم) وتشتت اليهود فى مصر والفرس والهند وبعد أن استتب الأمن عاد هؤلاء إلى وطنهم وهم متشربون مبادئ أديان الشعوب الذين عاشوا بينهم بضع سنين فقامت عندها بين عامة النصارى المجادلات والمنازعات إلى أن قرر (المجمع النيقاوى) هذه العقيدة بحكم سلطان أجنبى هو الملك (قسطنطين) الذى عقد المجمع المذكور لأغراض سياسية ، ثم قال ومن العجب أن أرباب النصرانية تنازعوا حتى سفكوا الدماء فى مسائل وهمية لاطائل تحتها وقد تناسوا الشىء الجوهرى الوحيد الذى جاء المسيح لأجله وهو محبة الله والقريب هذه هى المحبة التى قال عنها عليه السلام إنها الناموس كله وجاء من بعده فاستبدلوا بها اللعنات والحرمان وإحراق بعضهم حتى أصبحت النصرانية بعد عشرين جيلا فى حالها الحاضرة مشتملة على عقائد تافهة ينكرها العقل ويأباها العلم) .

وجاء فى صفحة (٤٢٠) من هذا الكتاب أيضا مانصه :

جاء فى إنجيل مرقس أنه لما أتى يسوع إلى مدينته احتقره آله فقال [لا يكون نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقاربه وفى بيته] ولم يستطع أن يصنع هناك شيئا من القوات (مرقس ٦) .

فيسوع يقر ههنا عن نفسه بأنه نبى بسيط وأنه عجز عن صنيع آية فكيف يتأتى منه العجز وهو (الله رب العالمين) وسأل يوما تلاميذه قائلا وأنتم من تقولون أنى هو؟ فأجاب بطرس أنت المسيح (مرقس ٨) .

ومعنى المسيح رسول ممسوح بالدهن كما كان اللاويون وملوك إسرائيل فلم يقل له ههنا بطرس أنت هو الله ولا نبهه يسوع على غلطه بقوله له (أنا الله بالذات انحدرت من السماء) متجسدا بينكم لأنقذكم من خطيئة آدم وأعوض عن الاهانة العظيمة التى لاتتناهى التى لحقت بعزتى الإلهية بل قال فقط عن نفسه « إنى رسول يعمل بارادة مرسلة» انتهى المقصود منه .

وقال فى صفحة (٣٥٥) وما قبلها مايأتى : لقد تفرغ علماء أجلاء من أوروبا للبحث عن أصل الأناجيل وأدوار تقلباتها فقالوا إن المسيح اختار رسله من الشعب البسيط وكانوا صيادى سمك من بحيرة طبريا وأراد بذلك أن تعاليمه لاتحتاج إلى ذكاء خارق للعادة . قال وبعد رفعه إلى السماء أخذ الرسل يبشرون بما رأوا يقولون بوحدة الله ومحبته لعباده ووجوب ارتباط الناس بالمحبة لأنهم إخوة وربهم واحد وقالوا بالتوبة والتكفير عن ذنب الإنسان نفسه لاذنب أبيه آدم ورمزوا للتوبة بماء المعمودية الذى أخذوه عن (الأسونيين) بواسطة (يوحنا المعمدان) الذى كان من مصافيهم . والقصد منه التنبيه به على التوبة من الذنوب ، ويقولون بخلود النفس والقيامة فدخل الناس فى الدين أفواجا ، ولكن بعد ذلك جاء رجل يسمى (بولس) وهو فريسى وبعلم بالناموس وباللغة اليونانية فاحتقر الرسل أولا ، وهو مع أنه ماعرف المسيح ولا رآه قط ولا سمع كلامه ادعى بأنه رسول وبه وحده خصت معرفة الحقائق وإعلانها (غلاطيه ١) وأخذ يخاصم بطرس ويوبخه (غلاطيه ٢) فتألف عندها أى بعد رفع المسيح (١) بعشر سنين [صنفان] من النصارى [الأول] تابع لمن بقى

(١) المذكور فى الكتاب المنقول عنه بعد موت المسيح لأن هذا اعتقاد الإفرنج . ولقد مر بعض هذه العبارة فى سورة (آل عمران) وقد سهونا أن نبدل الرفع بالموت وستصحح فى الطبعة الثانية فليتنبه .

من

من الرسل فى أورشليم [والثانى] تابع لبشارة (بولس) الذى ادعى بأنه أخذها عن إيحاء المسيح نفسه وبعد حين تمرد اليهود على (نيرون) فانتشب الحرب فى اليهودية بقيادة (فسباسيانوس) الرومانى ثم ابنه (طيطس) وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠) وخرب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتا) انتهى الكلام على [المقصد الثانى من سورة (المؤمنون) .

(المَقْصِدُ الثَّالث)

يا أيها الرُّسلُ كُلُوا من الطيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالحاً إنى بما تعملونَ عليم * وَإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرَهُم بينهم زُبُراً كُلُّ حِزبٍ بما لديهم فرحون * فذرهم فى غمرتهم حتى حين * أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين * نسارعُ لهم فى الخيرات بل لا يشعرون * إن الذين هُم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون * بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون * أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون * أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين * وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون * ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون * ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون * حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا

هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *
وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ *
قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ
مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ
بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ
لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ
اللّٰهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى
مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ
مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ *
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى
تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا
ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ *
إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *
فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ

بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » إلى قوله « فذرهم فى غمرتهم حتى حين.» تقدم تفسير هذه الآيات فى آخر المقصد الثانى وقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أى نعطيهم ونجعله مددا لهم ، وقوله « من مال وبنين » بيان لما : أى أيحسبون أن الذى نمدهم به (نسارع) به (لهم فى الخيرات) فيما فيه خيرهم وإكرامهم (بل لا يشعرون) بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لامسارعة فى الخير والمسارعة التعجيل (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) خائفون (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون) شركا جليا ولا خفيا (والذين يؤتون ما آتوا) يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات (وقلوبهم وجلة) خائفة (أنهم إلى ربهم راجعون) فى الآخرة فلا يقبل منهم (أولئك) أهل هذه الصفة (يسارعون فى الخيرات) يبادرون فى الأعمال الصالحة (وهم لها سابقون) وهم سابقون بالخيرات لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا أن ذلك إكرام ظنا غير حق فالمال والبنون ليس إعطاؤهما والامداد بهما مما يؤهل للمسارعة بالخيرات . فأما خشية الله والايمان بالله وعدم الاشراك به والتصدق مع الخوف من الله فان ذلك هو السبق للخيرات . وملخص ذلك أن النعم ليست هى السعادة وإنما النعم راجعة إلى العلم والعمل ؛ فالعلم رمز إليه بالإيمان بالله والعمل رمز له بالصدقة وأحاطهما معا بالخشية والخوف . وهل لك أن أسمعك ما أرسله أرسطاطاليس إلى الاسكندر فى رسالته السياسية لترى كيف نطق بهذه الآية قبل القرآن بنحو تسعة قرون . أذكر لك جملا تناسب المقام فأقول :

أرسطاطاليس ، والإسكندر ، والسياسة

قال : [يظن الناس أن الاستمتاع بالخيرات منهل عذب سهل سائغ شرابه ، وأن مقاساة الشدائد لايقوى عليها أحد . ولست أرى هذا صوابا بل الصواب عندى خلافه ، وذلك أن الناس إذا جربتهم الشدائد تحنكوا لما فيه مصلحتهم فاذا أظلتهم الأحوال تحركوا فيما يدفع ذلك عنهم ، وإذا صاروا إلى الأمن والدعة مالوا إلى الشره والفساد وخلعوا عذار التحفظ . وما أعسر أن تكون مع رخاء البال صيانة العقول بل قد يذهب ذلك بالعقل كثيرا ويذهله . فأحوج ما يكون الناس إلى التأديب إذا صاروا إلى الخفض والدعة ، فانه إن كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فان ذلك يحدث والناس متحفظون حذرون . فأما فى حال الخفض فتحدث أحداث كثيرة والناس قارون مهملون لأمرهم وعند ذلك يحتاج العامة إلى بالأدب والسنة] .

ثم قال [وليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتمله كل أحد كما ظن هؤلاء ولو أنه كان ذلك كذلك لوجب على الآباء أن يملكوا أبناءهم أموالهم من أول نشئهم . فكما أنه لا ينبغى أن تفوض الأموال إلى الصبيان كذلك لا ينبغى أن تفوض الأمور إلى العامة فان أخلاق العوام أشبه بأخلاق الصبيان وكلا الصنفين محتاج إلى الرقباء والمدبرين والعبرة فى ذلك أيضا قد ترى من تصرف الأحوال وتنقل الدول ، فما بال الرياسات لا تثبت ولا تدوم على حال لصنف واحد وفى مدينة واحدة كالذى رأينا من نقلها فى بلاد آسيا وفى بلاد أوروبا وفى غيرها من المدن فقد ملك (أشور) حينا لأهل الشام وسوريا ثم خلف بعدهم أهل (ماه) ثم خلف بعد هؤلاء أهل فارس وكذلك نجده فى سائر الأمم فالعلة فى هذا كله واحدة هى التى ذكرنا من أن التقلب فى الخيرات أصعب من مقاسات الشرور وكذلك نجد الذين نالوا الرياسة بنصب ومشقة ثم زيدوا فيها شيئا بعد شىء قد حنكتهم وثقفتهم التجارب أكثر ذلك ما تطول مدتهم ويئول إلى السعادة وحسن العاقبة أمرهم . وتجد الذين نشأوا فى الخفض ووافتهم الأمور عفوا فلم تصبهم شدة ولم يمسهم خوف يصيروز إلى ضد ذلك . وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقة والنصب وتصير إلى الخراب بالرفاهية والخفض داعية إلى البطالة والناس فى أكثر ذلك مائلون إلى البطالة مستلذون بها وذلك أنهم يكرهون الأدب والسيرة الحسنة هربا من المشقة ويؤثرون الفراغ والبطالة طلبا للتودع ويفنون أعمارهم فى طلب اللعب واللهو صائرون إلى الشقوة . وليس يكون مع البطالة وتعطيل الأدب بقاء ملك ولا ذبّ عن حريم ولا اصلاح عامة] .

ومما قاله أيضا [وكذلك المدائن التى دخلها الخلل والفساد إنما أتيت من سوء أثر الرؤساء والمدبرين فصرفوا هممهم إلى اللذات الزمنية فأهملوا التدبير الباقى أثره وذكره على وجه الأرض أبد الدهر ، فقد ينبغى للمدبر أن لا يتخذ الرعية مالا ولا مأكلا ولا قنية ولكن يتخذهم أهلا وإخوانا وألا يرغب فى الكرامة التى من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الأدب وصواب التدبير] .

ثم قال بعد كلام [واعلم أن الأيام تأتى على كل شىء فتخلق الأفعال وتمحو الآثار وتميت الذكر إلا ما رسخ فى قلوب الناس محبة تتوارثها الأعقاب ، فاجتهد بالظفر بالذكر الجميل الذى لا يموت . واعلم أن المدائن التى دخلها الخلل والانتشار أتى ذلك إليها من سوء رسوم الرؤساء والمدبرين وذلك أنهم آثروا جرّ المنافع إلى أنفسهم على تفقد أمور العامة وتقويم سنن المدن وصرفوا هممهم فى تعجيل اللذات الزمنية وأهملوا التدبير الباقى أثره وذكره على وجه الأرض والدهر . وقد رجوت أن تكون عواقب أمورك إلى سعادة وأن تجتمع لك الخصال المحمودة عند اليونانيين لأنك حقيق بها ، واجتهد أن تظفر بالذكر الذى لا يموت بأن تودع قلوب الناس محبة تبقى بها ذكر مناقبك وتشرف بها مساعيك على الأبد والسجود لذكرك والنجوع لفضلك والسلام إليك وعليك] اه .

أيها الذكى انظر فى كلام (أرسطاطاليس) وانظر إلى (الإسكندر) كيف سار على هذه الطريقة وانظر فيما هو أهم من ذلك كيف جاء هذا كله مختصرا فى الآية . يقول الله إن إمدادكم بالمال والولد ليس مسارعة بالخيرات بل أنتم لاتشعرون . والتعبير بعدم الشعور قد أطال فى وصفه (أرسطاطاليس) فقد جعل النعمة والمال والولد والخفض والدعة وما أشبه ذلك من أبواب الشقاء . جعلها مدعاة البطالة . مدعاة لخراب البلاد مدعاة للذم . مدعاة لتنقل الدول . مدعاة لتنقل الرياسة . مدعاة للذل الأبدى ، فواها للعلم وواها للحكمة. انظر أيها الذكى وتعجب . يقول الله هنا المال والولد ليسا خيرا ، ويقول إنما الخير أن تعطوا المال لمستحقيه هكذا يقول الله فى هذه الآية ثم ترى أن هذا القول قد شرح قبل القرآن بنحو (٩٠٠) سنة . وأين شرح ؟ فى [رسالة السياسة] من أكبر فيلسوف إلى أكبر ملك فأصبحنا ونحن نقرأ فى القرآن لاندرى أنحن

فى دين يقرؤه العامة والجهلاء كما هو شأن سائر الديانات أم فى حكمة وفلسفة وسياسة وعمارة مدن . اللهم إن هذه المعانى تتعالى عن أنظار العامة ولا يتطاول إليها إلا المتعلمون . اللهم إن العامة يسمعون مثل هذا الكلام فيقولون إن القرآن يصبرنا وينكرون ذلك فى قلوبهم وعلى ألسنتهم ويقولون كل ذلك ليسلونا نحن الجهلاء والحقيقة غير ذلك . وأرى الطبقة المتعلمة بعضهم ينفر من مثل هذا ويعده كما يعده العامة . فمن لى بأن يعرف الناس مرامى دينهم ويفقهوه ويرقوا شعبهم ويفهموا قوله تعالى أيضا « كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى » وقوله ، « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » ثم بعد ذلك أخذ يذم الإنسان بأنه إذا أخذ فى النزع اعتراه الندم بأنه لا تصدق ولا صلى كأنه ظن أنه خلق ليهمل فى الوجود وهو جاهل نشأته فعاش مهملا الأخلاق والعلوم حبيس المال وجهل تركيب جسمه، ويفهموا أيضا قوله تعالى « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » الخ . وقوله . « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » وهكذا من الآيات التى شرح معناها أرسطاطاليس . فانظر كيف جعل الله المال والولد عذابا وجعله أرسطاطاليس لا يحتمل : أى أن الناس يتحملون النقم ولا يتحملون النعم فكأن النعم ترديهم إلى مهاوى الخسران والحروب ترفعهم إلى العلا . ومقالة أرسطاطاليس قد ذكرت فى غير هذا المكان وأعدناها هنا لمناسبة الآية والشرح الذى رأيته . وبهذا نفهم هذه الآيات ونعرف أن المسلمين لم يفطنوا لهذا الكتاب ولم يذيعوا معانيه حتى تفهمه الأمة وحتى يتأدب العامة به ولم يرد الله أن يكلفنا مالا نطيق بهذه العلوم . كلا فقد قال (ولا نكلف نفسا إلا وسعها) فإذا حرض على إنفاق المال فلم يرد أننا نعيش فقراء كلا . بل الله يعلم ما فى كل نفس من نية الخير والاصلاح وغير ذلك (ولدينا كتاب) وهو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) بالصدق (وهم لا يظلمون) فلا زيادة فى عقاب ولا نقص فى ثواب (بل قلوبهم) قلوب الكفرة (فى غمرة من هذا) فى غفلة مما وصف به هؤلاء المؤمنين وهكذا كثير من المؤمنين غافلون مثلهم لا يعرفون ولا يعقلون . إن المتصدق الذى أبقى له ذكرا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة سعيد وأن الغنى المترف المنعم بالمال والولد وهو غافل شقى فى هذه الدنيا معرض لزوال النعمة كما شرحه أرسطاطاليس (ولهم أعمال) خبيثة (من دون ذلك) متخطية متجاوزة ما وصف به هؤلاء المؤمنين (هم لها عاملون) معتادون فعلها فيجعلون المال للهو واللعب والتعاظم على الأقران فتشب ذريتهم على لعب القمار والجهالة والبطالة فتخرب الديار وتزول الممالك (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) عذاب الأنفس وعذاب المدن وخراب القرى ويحتل البلاد غير أهلها كما حصل فى مصر لما أسرف القوم وعاشوا عيشة البذخ فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى ودخل الفرنجة البلاد، وكما كان عليه ملوك الاسلام كالخلفاء الترك الذين أوردوا الأمم الإسلامية موارد الهلكة ، وكما كان عليه كثير من شيوخ الطرق الصوفية من جمع المال وكنزه وادخاره وهم قد احتالوا بأخذه من الأمة جهارا نهارا وقد ظهروا لهم بمظهر الصلاح فانقلب ذلك فى أعقابهم إلى الأثرة بالأمر وهم أذلاء للفرنجة. والله لا يهدى القوم الفاسقين .

فها أنت ذا ترى كثيرا من الممالك الإسلامية طعمة للفرنجة كما حصل لأهل مكة إذ شدد الله عليهم لما دعا النبى ﷺ وقال « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة، وها أنت ذا ترى الأمم الإسلامية التى دخلها الفرنجة لا يعيشون إلا عيشة البهائم فالفرنجة يسومونهم سوء العذاب ويأخذون أموالهم ويذلونهم ويمنعون العلم عنهم . كل ذلك لضلال الأمراء الذين كانوا يديرون شئونهم وأول مصيبة تنزل من الفرنجة تنصب على أولئك الرؤساء فيقيدون أعمالهم فى الأمة ويذلونهم فى قصورهم ويدسون لهم الدسائس ومن لم يوافقهم فى أعمالهم ورغباتهم طردوه . فمن هؤلاء المترفين من يصرخ بالاستغاثة ولا مغيث بل يقال له بلسان الحال أو بلسان المقال قد فرطت والعبرة تتلو

العبرة والآية تتلو الآية فكنت تعرض مدبرا . فلم لم تتدبر القرآن . ثم قال تعالى (إذا هم يجأرون) يصيحون مستغيثين ، قيل لهم (لا تجأروا اليوم) فإنه لاينفعكم (إنكم منا لا تنصرون) أى لاتمنعون منا أولا يلحقكم نصر من جهتنا لأنا جعلنا التنعم والبطالة حاطا بالانسانية ومرجعها إلى الحيوانية وهذا تعليل لما قبله لقد علمناكم فلم تسمعوا (قد كانت آياتى تتلى عليكم) أى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى ترجعون القهقرى وتعرضون عن الايمان (مستكبرين به) أى بالبيت الحرام أى مستعظمين بالبيت الحرام إذ كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف يقول الله تعالى مستكبرين بالبيت الحرام مستعظمين حال كونكم تسمرون (سامرا) هو مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة أى حال كونكم سامرين متحدثين حول البيت مجتمعين وكان عامة سمركم فى القرآن فتقولون هو سحر أو شعر (تهجرون) بذلك السمر أى حديث الليل من الهجر بضم الهاء وهو الهذيان أو من الهجر بفتحها أى القطيعة . يقول الله كنتم حين سماع الآيات تعرضون عنها مستعظمين بأن البيت الحرام لكم وأنتم جيرانه فلا تضامون وأنتم تتحدثون ليلا فى أمر القرآن وذمه قاطعين الرحم (أفلم يدبروا القول) أى القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم وقد أتى لهم بحكمة عالية وسياسة منظمة (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) من الأمن من العذاب فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كاسماعيل وأعقابه فقد خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ولم تبطرهم النعم كما أبطرت هؤلاء . فالقانون المسنون واحد . إن ترادف النعم والناس آمنون العواقب يعقبها الخطر والهلاك فهؤلاء قد جهلوا (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أى أليس عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا توبيخ لهم على الإعراض عنه بعد ماعرفوا من صدقه (أم يقولون به جنة) أى بل أيقولون وهكذا ماقبله ، وجنة : أى جنون وليس كذلك (بل جاءهم بالحق) بالصدق (وأكثرهم للحق كارهون) لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم (ولو اتبع الحق أهواءهم) بأن كان هناك آلهة شتى (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) فالعالم قائم بالحق وهم يكرهونه والحق يكون من جهة الألوهية فاذن يكون الإله واحدا ومن جهة النظام وحسن النسق فهو إذن منتظم فلو كان الالهمتعددا لم يكمل النظام وتشتت ، ولو كان العالم على غير نظام لم يثبت ولم تقم له قائمة (بل أتيناهم بذكرهم) عيبهم وهو القرآن كما قال تعالى «وإنه لذكر لك ولقومك» أو وعظهم (فهم عن ذكرهم معرضون) لا يلتفتون إليه (أم تسألهم خرجا) أى بل أتسألهم أجرا على أداء الرسالة (فخراج ربك) رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة (خير) لسعته ودوامه . والخراج يغلب فى الضرائب على الأرض وهو عادة يكون كثيرا ولازما . أما الخرج فهو مقابل الدخل وهو كل ماتخرجه لغيرك وليس ماتخرجه لغيرك فى اللزوم والدوام كالخراج ولذلك عبر به وقواه بقوله (وهو خير الرازقين) فهذا تقوية لكون خراج الله خيرا . وإنما كان الله خير الرازقين لما نراه فى عمله فى هذه الأرض . ولقد تقدم فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى «وترزق من تشاء بغير حساب» ولقد مر فى هذا التفسير من حسن التلطف فى تربية الطير والوحش والحشرات والأنعام وما أفادها من غرائز وعواطف وحسن سعى فى سبل المعاش ولو أنك قرأت كل مامضى فى هذا التفسير مما أشبعنا به العقول فيه لفهمت قوله تعالى «ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام» إلى قوله «مانفدت كلمات الله» وكيف تجد وأنت لو درست حشرة واحدة لاستنفدت الحياة فضلا عن آلاف بل مئات الآلاف . ولقد يدهشك عين أصغر حشرة إذ تجد لها أى للعين الواحدة جملة عيون كل عين مستقلة ترى وحدها مستقلة عن عيون التى حولها : أى أن عين النملة أو النحلة ليست كأعيننا ، فعين أحدنا واحدة ولكن عين النملة مثلا مركبة من عيون كعيون الغربال كل عين لها أعضاء خاصة بحيث تستقل بالمنظر عن جاراتها ولو فقئت واحدة لبقيت اللاتى حولها ينظرن وهن

كثيرات نحو مائتين، ومنها ما تحتوى على أكثر، وذلك سيتضح لك فى سورة النحل فإذا كانت أعين الواحدة لحشرة صغيرة على هذا النمط والعين لم تخلق إلا لهدايتها لطعامها وشرابها فما بالك ببقية ما يلزم لحياتها من أعضاء داخلة وخارجة وما أعد لها من رزق تحصله فى هذه الأرض «وما كنا عن الخلق غافلين» فهذه نبذة صغيرة من كونه تعالى خير الرازقين .

لعمرى إنما المجد والحكمة هذه الحكمة . إنه لا حكيم إلا الله « إنه هو الحكيم العليم » ثم قال تعالى : «وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم» ولما نفى تدبرهم القول ومنافاة القول لما جاء به الأولون وأن رسولهم غير معروف لهم وجنون رسولهم وسؤالهم الأجر . لما نفى هذا كله لم يبق إلا أنهم هم غير فطنين وقد دعاهم إلى صراط مستقيم (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط) السوى (لناكبون) لعادلون عنه . ومعلوم أن خوف الآخرة أدعى إلى عدم العدول عنه (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا) لثبتوا ، واللجاج : التمادى (فى طغيانهم) إفراطهم فى الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول (يعمهون) عن الهدى . ولقد جرت عادة المفسرين فى مثل هذه الآية أن يذكروا أن أهل مكة قحطوا حتى أكلوا العلهز فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنشدك الله والرحم . ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين . قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت (ولقد أخذناهم بالعذاب) أى القتل يوم بدر (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) بل أقاموا على العتو وتمادوا على الباطل (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) يعنى الجوع فإنه أشد من القتل والأسر ، أو القتل والأسر يوم بدر أو الموت أو قيام الساعة (إذا هم فيه مبلسون) آيسون من كل خير . واعلم أنى لم أجد لذلك أثرا فى كتب الصحاح الستة عند تفسيرهم هذه الآية . فها هو ذا أمامى كتاب « تيسير الوصول لجامع الأصول » فلم أجده ذكر شيئا من ذلك فى تفسير هذه السورة ، وأيضا هذه السورة مكية والنبى صلى الله عليه وسلم فى مكة كان بين ظهرانيهم « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فإذن كان العذاب بعد خروجه من مكة ، وبعد الخروج من مكة كيف تكون السورة مكية ؟ . وأيضا كيف يؤمن أبو سفيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم مقبول عند الله فيستجاب دعاؤه فيأتى اليه فيستغيث به ؟ . كل ذلك فى حاجة إلى تمحيص . ولما فرغ من الآيات التى تخيف العباد شرع فيما هو أهم وهو ما يقنعهم من طريق العقل فقال (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا (قليلا ما تشكرون) أى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم فى الأرض) خلقكم (وإليه تحشرون) تبعثون (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار) تدبير اختلافهما فيزيد فى أحدهما ما نقصه من الآخر بنظام كما تقدم فى سورة الحج والبقرة ، وهو فيها أظهر وكذا فى غيرهما من السور (أفلا تعقلون) بالنظر والتأمل ، ولكم أفئدة وأسماع وأبصار وما خلقناها لكم إلا لتستبصروا وتتفكروا فى خلقكم وتصويركم ورزقكم وإحيائكم وإماتتكم (بل قالوا مثل ما قال الأولون) أى قال كفار مكة كما قال آباؤهم الأولون (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) محشورون . قالوا ذلك على وجه الاستبعاد (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) أى وعد قوم آباءنا هذا وذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة (إن هذا إلا أساطير الأولين) أكاذيب الأولين (قل) يا محمد لأهل مكة (لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون) إن كنتم من أهل العلم (سيقولون لله) لأن العقل يأبى غير ذلك (قل) يا محمد لهم (أفلا تذكرون) فتعلموا أن من خلق هذه العوالم العجيبة لا يخلقها سدى بل إنما يخلقها لغاية ، ولا غاية لإبقائها بعد هذه الحياة ، وإلا كان عمله بلا فائدة

(قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون) عقابه وكيف تشركون به شيئا ، وهو باعترافكم خالق تلك العوالم العظيمة ، أم كيف تنكرون بعثه للمخلوقين ؟ وذلك يستوجب أن يكون عمله عبثا فهل صاحب هذه العوالم العجيبة العظيمة ، يفعل العبث (قل من بيده ملكوت كل شيء) أي خزائنه وملكه غاية ما يمكن . وهذه { درجات ثلاث } للملك (١) الأرض ومن فيها (٢) والسموات السبع والأرض الخ (٣) وملكوت كل شيء أي ما هو أعم من السموات والأرض فلذلك ناسب أن يقول (وهو يجير ولا يجار عليه) أي يغيث من يشاء ويحرسه ، ولا يغاث أحد ولا يمنع منه ، وذلك لأنه ليس في العوالم كلها ما هو خارج عن قبضته فهو يغيث وليس أحد في ذلك كله بقادر أن يمنع منه (إن كنتم تعلمون) فأجيبوا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) تخدعون وتصرفون عن توحيد وطاعته ، فإذا كان هذا معتقدكم ورأيكم فلماذا تشركون به بعض الأوثان ؟ أم كيف تفقون عقولكم على مخلوق عاقل أو غير عاقل ؟ وهو قد دبر الجميع . فإذن يكون المرضون عنه المغرمون بعض البشر ، أو بعض الأصنام قد سحرت عقولهم كأنها قد نوّمت ذلك التنويم المغناطيسي فغاب عنها عقلها وتصورت الشيء على خلاف ما هو عليه كما يعطى للنوم (بفتح الواو) السكر ويقال له : هذا حنظل فيلفظه حالا . فها هو ذا قد سحر وأخذ عقله ولوى عن مراده وضل ، وهذا شيء أصبح مشاهدا كما ذكرته في سورة البقرة ، فإن التنويم المغناطيسي المذكور سار في جميع الأمم . ومعنى هذا أن القول وتكراره على الأفئدة يخدع العقل والحواس حتى تنصرف النفوس عما تعرفه وتتوهم صدق ما يقال لها ولذلك كثرت الفرق في الأمم الاسلامية وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ما خدعوا به عقول الشعوب ومن الخدع كثرة التكرار على العقول والحث والحض . فإن ذلك يخدع الناس ويصرفهم عن الحقائق ، وأوروبا قد استعملت ذلك فتخدع أبناء العرب الذين فتحوا العالم قديما وتوهمهم أنها تفعل لخيرهم ، وهي تقتلهم وتغيب عنهم شمس العلوم وتقول لهم أنتم لا تصلحون للحياة الحرة ودينكم لم يكن دين مدنية ولغتكم لا تصلح للعلوم وجنسكم لا يصلح للرقي وهكذا ، ونحن آباؤكم الرحماء ، وما أشبه ذلك . فهذا وتكراره على الأذهان سنة فسنة وجيلا فجيلا يصرف الناس عن عقولهم وعن مجدهم ويسحرهم . هذا سر من أسرار القرآن إذ عبر بالسحر في مقام الانصراف عن الحقائق الملموسة ، فإن قوما يعترفون بالله خالق العالم كله وبعد الاعتراف يقولون : إن له شريكا فلا معنى لهذا إلا أن العقول مسحورة والعالم كله اليوم قد قام بنظرية السحر . فأمم أوروبا ساحرة وأمم الشرق مسحورة إلا من فطنوا وقام فيهم مجددون فإنهم نهضوا بقومهم . ولفظ السحر هنا قد جمع علوم السياسة الأوروبية الاستعمارية وأنزلها في القرآن ليتدبرها المسلمون وليعلموا أن الناس قد تكون لهم أسماع وأبصار وأفئدة ولكنهم يتركونها مكتفين بما سمعوا ، والمسلمون اليوم مسحورون إلا من رحم ربك ، مسحورون عن علوم الدنيا . لماذا ؟ لأن الأستاذ قال في الدرس : لا يجب عليك إلا علم الفقه وعلم التوحيد . فإذا نظر التلميذ المسكين العوالم المحيطة بنا من شمس وقمر وكواكب ومعادن ونبات وحيوان وقال أي أستاذ هذه مخلوقات ربي ، أفلا أدرسها ؟ يجيبه هل تعرف صفات الله وصفات الأنبياء ؟ فيقول نعم فيقول له كفى لا يجب عليك شيء . فيقول يا أستاذي إن الله ذكر هذه العلوم كثيرا في القرآن فيجيبه نعم ولكن المدار على أنك تعرف الله بالأدلة التي في كتب التوحيد فيكرر هذا القول على مسامع التلاميذ فيسحرون ويذهب الدين والمواهب التي وهبها الله لهم هكذا الأوروبيون يأتون بلاد الشرق فيسحرون أعين الناس ويسترهبونهم ويجيئون بسحر عظيم وذلك بالمدافع والرشاشات فيدهشون الشرقيين ويقولون لهم : نعطيكم الشهادة الثانوية في علوم ليس فيها شيء من

العلوم التي حولنا، فلا نبات ولا حيوان ولا تشريع ولا فلك ويوهمونهم أنهم علماء فيصبحون مسحورين . وهذا هو السحر الحقيقي الدائم الذي يصرف العقول عن المواهب والأبصار والأسماع . والله لقد تعاون بعض رجال الدين قديما وأهل أوروبا حديثا على سحر الأعين فسحروها . فمن للمسلمين اليوم إلا نصر الله ؟ « ألا إن نصر الله قريب » .

هذا هو السحر الذي سحر به المسلمون . فلئن سحر الكفار بعبادة الأصنام فقد سحرت أبصارنا نحن المسلمين عما أبدعه الله وزين لنا الجهل في صورة العلم والخيبة في صورة النجاح . هذا هو الذي فهمته في قوله تعالى « فأنى تسحرون » فلم ينزل الله مثل هذا القول لنسمعه فنقول هذا أمر مضى وانقضى ، وأنا الآن لست أعبد الأصنام وأنا خير من أبي جهل وأمثاله فقد عرفت وهم جهلوا ، نعم نحن خير لأنا آمنا ولكن المؤمن الجاهل معذب في الدنيا والآخرة ، وعبر الله بالسحر ليفتح لنا باب التفكر في ضحك الغرب على الشرق سياسة . وضحك رؤساء الطرق على تابعيهم نذالة وجبنا ، وضحك العلماء الرسميين في كل أمة على تلاميذهم ليصرفوهم عن عجائب الله تعالى وجماله وبهائه وبهجة صنعه وإتقانه وحكمته فيقولون لهم : كفاكم الإيمان أو الكتب التي وضعها فلان وفلان أو التسابيح والذكر والتلاوة البليدة الغافلة ونحو ذلك فكل هذا من السحر وكل هذا من مقصود قوله « فأنى تسحرون » ثم قال تعالى (بل أتيناهم بالحق) من التوحيد والوعد بالنشور (وإنهم لكاذبون) لإنكارهم ذلك لأنهم سحرت عقولهم بخدع الآباء وتكرار القول والعادة التي هي طبيعة خامسة (ما اتخذ الله من ولد) وكيف ذلك وهو لا مثل له (وما كان معه من إله) يشاركه في ألوهيته (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) أي لو كان معه آلهة كما يقولون لذهب كل إله بما خلقه وحارب الإله الآخر وتغالبوا كما نرى في ملوك الدنيا فلم يكن إذن بيده ملكوت كل شيء ، وقد أقررتم بذلك (سبحان الله عما يصفون) من الولد والشريك ، ثم وصف نفسه تعالى بصفة العلم بعد القدرة العامة فيما تقدم للاستدلال على الوحدة فقال (عالم الغيب والشهادة) وهم موافقون على ذلك لأنهم أقروا بأنه له ملكوت كل شيء إذن فهو عالم بما غاب وما شوهد (فتعالى عما يشركون) ولما كان ذلك يوجب وقوع العذاب في الدنيا والآخرة قال تعالى (قل رب إما تريني ما يوعدون) ما وعدتهم به من العذاب في الدارين (رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) قرينا لهم في العذاب فإن شؤم العذاب قد يعم كما نرى النار قد تحرق ثوب الناسك الذي لا ذنب له . قال الحسن « أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء » ثم قال تعالى (وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) وإنما نؤخره عنهم لأنا نعلم أن بعض أعقابهم وبعضهم سيؤمن (ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون) أي ادفع السيئة بالإحسان في مقابلتها واصفح عنها وإنما يكون ذلك إذا لم يظن ذلك وهنا في الدين ، نحن أعلم بما يصفونك به فنجازيهم عليه فكل أمرهم إلينا (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) وساوسهم ونزغاتهم ونخسهم ونفثهم ودفعهم بالإغواء إلى المعاصي ، والهمز : النخس ، ومنه مهماز الرائض فرسه . شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الراضة الدواب على المشي ، والجمع للمرات (وأعوذ بك رب أن يحضرون) ويحوموا حولي في شيء من أموري لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له ، وأهم ما يطلب ذلك في حال الصلاة وقراءة القرآن وحضور الأجل فإن الشياطين تلهي القارئ عن المعاني وتلهي المحتضر عن تذكر ربه وتلهي المصلي عن التفرغ لتذكر ربه يقول الله « نحن أعلم بما يصفون » أي فهم لا يزالون يشركون (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال) تحسرا (رب ارجعون) ردوني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وجملة قوله « وقل رب أعوذ بك » إلى قوله « يحضرون » اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله (لعلي أعمل صالحا فيما تركت) أي في الإيمان الذي

تركت وفى المال وفى جميع أحوال الدنيا (كلا) ردع (إنها كلمة) أى قوله « رب ارجعون » الخ . والكلمة الطائفة من القول المنتظم بعضها مع بعض (هو قائلها ومن ورائهم برزخ) أى ومن أمامهم ومن بين أيديهم حاجز عن الرجعة وهو القبر (إلى يوم يبعثون) منه وهو إقناط لهم عن الرجوع إلى الدنيا وإنما يرجعون إلى حياة أخرى غير حياة الدنيا . ثم أخذ يشرح تلك الحياة الجديدة وأحوالها فقال (فإذا نفخ فى الصور) جمع صورة . وقرىء « الصور » بضم ففتح وهو ظاهر فى هذا المعنى (فلا أنساب بينهم يومئذ) تنفعهم فإن التعاطف زال للدهشة والحيرة (ولا يتساءلون) ولا يسأل بعضهم بعضا كما يكون ذلك فى الدنيا إذ ينفع الأرحام بعضهم بعضا ويسأل بعضهم بعضا. فأما كون بعضهم يقبل على الآخر فيسأله فذلك بعد الاستقرار فى الجنة واستقرار أهل النار فى النار ويكون ذلك بعد النفخة الأولى وبعد النفخة الثانية أيضا إذ يؤخذ بيد العبد ويقال من كان له حق فليأت إلى حقه فيفرح المؤمن أن يكون له الحق على أقرب الناس إليه فيأخذه منه فأصبح النسب غير مانع من ذلك ، وأيضا لا يتفاخرون ولا يتساءلون سؤال تواصل لأن الأنساب إذن لا تفيد وإنما تفيد الأعمال (فمن ثقلت موازينه) موزونات عقائده وأعماله وأخلاقه (فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالنجاة (ومن خفت موازينه) أى ومن لم يكن له أعمال وآراء تستحق الاعتبار فتوزن (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) غبنوها فأضاعوا كمالها الذى كانت مستعدة له (فى جهنم خالدون . تلفح) تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) عابسون أو متقلصو الشفتين عن الأسنان من شدة الاحتراق ، ويقال لهم (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أو شقاوتنا على وزن سعادة ووزن كتابة ، أى ملكتنا الأخلاق والعادات فحبستنا فى سجنها المظلم فلم نر النور ولم نعرف الحقائق (وكنا قوما ضالين) عن الحق، ذلك لأن الخلق متى ثبت فى الإنسان وأحاط به منعه التجاوز عنه كما يرى فى شاربى التبغ والخمر والمواد المخدرة والمولعين بالعظمة والكبرياء والمغرمين بالاسراف فهؤلاء قد يعرفون الحقائق ولكن الاعتياد والرياء وخشية الناس ملكتهم فلا يقدرون على التخلص من ذلك (ربنا أخرجنا منها) من النار (فإن عدنا) إلى التكذيب (فإنا ظالمون) لأنفسنا (قال اخسئوا فيها) اسكتوا سكوت ذلة وهوان ، أو ابعدوا كما يقال للكلب إذا طرد : اخسأ (ولا تكلمون) أى فى رفع العذاب ، أولا تكلمون أصلا وذلك لأنه لا مناسبة بينى وبينكم لأنكم ماديون وأنا فوق المادة وإنما يكلمنى من صفى نفسه من المادة وتقرب منى باحتقارها وبالتبحر فى العلم والحكمة . ويقال إن هذا آخر كلام يتكلمه أهل النار ثم لا يكون منهم بعدها إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون فإنهم أولا يدعون مالكا خازن النار « يا مالك ليقض علينا ربك » فلا يجيبهم ثم يقول « إنكم ماكثون » ثم ينادون ربهم « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم « اخسئوا فيها ولا تكلمون » إلى آخر ما تقدم وهذه ليست فى الصحاح. ثم قال تعالى (إنه كان فريق من عبادى) أى المؤمنين كأهل الصفة (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا) تسخرون منهم وتستهزئون (حتى أنسوكم ذكرى) من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) قد كان كفار قريش يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبلال وعمار وصهيب وخباب (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا) على أذاكم واستهزائكم (أنهم هم الفائزون) أى فوزهم بمجامع مايطلبون (قال) الملك المأمور بسؤال الكفار لهم يوم البعث (كم لبثتم فى الأرض) فى الدنيا وفى القبور (عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لأنهم نسوا مدة لبثهم فى الدنيا من الهول والشدائد (فاسأل العادين) أى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم وهم خالصون أصالة من المادة فلا عذاب عليهم ينسيهم الحساب (قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى ما لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم فى الدنيا فهذا تصديق لهم (أفحسبتم) أيها الناس (أنما

خلقناكم

خلقناكم عبثا) أى عابثين فنحن لم نخلقكم تلهيا بكم وإنما خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم فترتقوا بأنفسكم وبمجرد اختياركم مع سابق علمنا وبتربيتنا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه فلم نخلقكم عابثين . وقوله (وأنكم الينا لا ترجعون) معطوف على « أنما خلقناكم » (فتعالى الله الملك الحق) أى التام الملك لا ملوك الأرض الذين ملكهم معرض للزوال (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) الحسن وتقدم معنى العرش فى « هود ويونس » (ومن يدع مع الله إلها آخر) يعبده (لا برهان له به) أى لا حجة ولا بينة له به لأن ذلك مستحيل (فإنما حسابه عند ربه) فهو يجازيه وهذا جواب الشرط (إنه لا يفلح الكافرون) إنه أى الشأن . ابتدأ الله السورة بفلاح المؤمنين وختمها بعدم فلاح الكافرين ثم علمنا كيف نسأل المغفرة والرحمة فقال تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) فرحمة الله تغنى عن رحمة غيره . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم العشر » . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من السورة . وهنا (أربع جواهر) .

(الأولى) فى قوله تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

(الثانية) و (الثالثة) فى قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » وفى قوله تعالى « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

(الرابعة) وهى جوهرة فى نور الأنوار وسر الأسرار فى قوله تعالى « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » .

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة » الخ ﴾

قد تقدم الكلام على اتحاد الأمم المنتظرة فى أول (سورة الحج) وتقدم أيضا فى (سورة الكهف) كلام عام فى الذى حل بالمسلمين من الخلاف فى الخلافة وكيف تقطعوا فرقا وذاق بعضهم بأس بعض، وها أنا ذا الآن أشرح هذا المقام بشرح أوسع وأبهج وأجمل .

فاعلم ياصاح أن هذا التفسير جاء فى زمان ظهور الحقائق وانتشار الروح السعيدة فى هذا النوع الإنسانى ولقد كنت ألفت كتاب [أين الإنسان] قبل الحرب العظمى بأربع سنين ونشر إذ ذاك وما كنت أعلم أن ما أكتبه إذ ذاك أى منذ ثمانى عشرة سنة وذلك سنة ١٩١٠ م سيصبح فكرة عامة عند الأمم الشرقية والغربية إذن أنا أحمد الله عز وجل حمدا كثيرا على ما ألهم وعلم وزرع فى الأفئدة الشرقية والغربية الآن فكرة كانت منسية قبل الحرب العظمى فأذكر لك الآن ملخصا من كتاب [أين الإنسان] ثم أتبعه بما ألقاه محافظ (كابول) ببلاد أفغانستان فى شهر يونية سنة ١٩٢٨ . ثم ما تلاه بعد ذلك فى شهر أغسطس من هذه السنة أيضا بعنوان (ميثاق السلم ونبذ الحرب بين الأمم) ثم أتبعه بفكرة عامة فى الموضوع . فهنا [أربعة فصول] :

[الفصل الأول] فيما جاء فى كتابى (أين الإنسان) .

[الفصل الثانى] فى خطاب محافظ كابول بمصر .

[الفصل الثالث] ميثاق السلم ونبذ الحرب .

[الفصل الرابع] فكرة عامة فى هذا الموضوع .

﴿ الفصل الأول فى ملخص مما جاء فى كتابى أين الإنسان ﴾

ألخص لك أيها الذكى هنا (الفصل العشرين) من كتاب [أين الإنسان] ففيه استخراج السلام العام فى الأمم من النواميس الطبيعية والنظم الفلكية والفطر الإنسانية وبيان السياسة على أساس الطبيعة وأن مدنية اليوم حيوانية ودعوة الناس للانسانية الحقيقية . وبيان أن الإنسان لم يفهم إنسانيته وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ثم نوابها وملوكها يدعو الأولين لبحث هذا الموضوع والآخرين للتعاون على العمل ، وهناك جاء ماملخصه :

(١) إن عدد الذكران والنساء فى المواليد على سطح الكرة الأرضية يكادون يتساوون وهذه قاعدة لم تخطىء إلا نادرا لعارض .

(٢) وكما حصل ذلك فى الذكورة والأنوثة حصل فى القوى والملكات فلا يكون الجمال المفرط ولا الذكاء المفرط ولا القوة المدهشة إلا نادرا على مقدار الحاجة لذلك .

(٣) الأمم الوحشية لم تفقد الذكران أو الاناث حتى تقترضهم من أمم أخرى فهكذا هى لاتفقد العقول الكبيرة المستعدة لإدارة شئونها وارتقائها علما وعملا .

(٤) إذا تركت تلك العقول فى الأمم الضعيفة خسر الإنسان العام خيرات من الأرض ومن الهواء والماء على مقدار تلك العقول المتروكة .

(٥) الأمم القوية خسرت من ريع الأرض على مقدار ماخسرت من عقول الأمم الضعيفة .

وفى صفحة (٢٣٢) و (٢٣٣) من الكتاب فى الفصل العشرين المذكور مانصه : هذه أهم مباحث هذا المقام :

(١) هل قوى نوع الانسان موزعة عليه توزيعا حسب الحاجة كما فى الذكورة والأنوثة .

(٢) هل المنافع موزعة على سطح الكرة الأرضية توزيعها على العقول .

(٣) أيهما أنفع للأمم الرشيدة أتسير على منوالها المرسوم ولا تتجاوز فى سياستها أصغر الحيوانات كالنمل أم تعدل عنها إلى شرنها وإسعادها وصداقتها ؟ .

(٤) إذا كثر تعداد أمة أفلا تعطى أرضا من بلاد أخرى بمقدار نموها ؟ .

(٥) أيحسن أن تحصى أراضى الأمم العامرة والغامرة ؟ .

(٦) أو ليس من الجهل الفاضح أن تصرف قوى الأمم إلى قتال أنفسهم ويذرون محاربة الطبيعة لإخضاعها أو ليس من الواجب أن يوضع ناموس عام لإصلاح الأرض فى كل أمة وعد الشعوب التى هى نصف رشيدة والتضافر بعد ذلك على إصلاح الباقى من الأمم طوعا أو كرها ثم يبين مقادير ثمرات العقول الخامدة إن أوقظت من غفلتها وما فوائد الأمم الرشيدة منها ؟ .

(٧) أليس سعادة الإنسان فى أن يكون ذا ملكة فى فن خاص تضارع غرائز الحيوان كنسج العنكبوت وهندسة النحل . فإذا وصل النوع الإنسانى إلى هذه الملكات فما مقدار الفوائد إذ ذاك؟ .

(٨) الدول اللاتى تربح من إضعاف غيرها وجهله ، فما الذى يجب أن يستعيضوا به عن الربح بدل مافقدوه ؟

هذا هو الذى أردت تلخيصه من هذا الفصل فى كتاب [أين الإنسان] الذى نشر قبل الحرب العظمى وبه انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى فى خطاب محافظ كابول فى فندق الكنتنتال بمصر فى شهر يونية سنة ١٩٢٨ ﴾

ألست تعجب أيها الذكى أن ما كنت أكتبه منذ ثمانى عشرة سنة بصفة رأى خاص لى أصبح الآن يخطب به على المنابر فى بلاد الغرب وفى بلاد الشرق على رءوس الأشهاد . اللهم إنى أحمدك على نعمة التوفيق وعلى

نعمة العلم وعلى أنك أنت أبقيت حياتى حتى رأيت أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة يجهرون بمثل ما كنت أستنبطه استنباطا عقليا . فانظر إلى انتشارهذه الآراء بين الأمم بعد الحرب العظمى وانتقالها من أمة إلى أمة. فهاك صورة الخطبة التى ألقاها على أحمد خان محافظ كابول بذلك الفندق بمناسبة إبرام معاهدة الصداقة بين مصر وأفغانستان . فمنها قوله : إن يقظة الشرق ووحدة مشاعره ليست وليدة المصادفة بل إنها ثمرة الصبر الطويل والتفكير وقد شملت الشرق جميعه من جبال طوروس إلى أرزلبنان لجبال البامير بالهند إلى سهول أفغانستان فالبوادى العربية فالعراق ففارس فالهند فالصين فسيريا فاليابان . إن ممالك الشرق القديم قد استفاقت اليوم من رقادها الطويل فنهضت وتقدمت طالبة اللحاق بمن تقدمها يقودها زعماؤها الذين بثوا فى سواد شعوبها مشاعر الإخاء والائتلاف والتعاون على الاتحاد ولامطمح لهذه الشعوب غير عقد روابط الصداقة والولاء ونشر السلام العام وشعارها (الناس إخوة) .

إن الأمم كالأفراد يسودها الشعور بحاجتها أينما حلت وكيف وجدت تحدوها إلى نشدان الاتحاد والائتلاف بقطع النظر عن الجنس والمذهب ، ومتى توفرت لها البواعث للروابط والانضمام أمكنها إذ ذاك بلوغ مقاصد النجاح والهناء فتصل إلى درجة من التمدن الصحيح الذى يبعثها على الوحدة التى تدرك بها القوة ، ومتى أدركتها تسنى لها أن تحمل راية السلام التى ينطوى فيها الهناء ونعومة البال وبها تتمكن من إدراك وحدة التصورات والأفكار وبلوغ المطالب الرفيعة وتلك هى غرض شعوب الشرق كيفما تنوعت المقاصد . فلولا تلك الحمية المضرمة فى صدور تلك الشعوب المتباينة أجناسا المقيمة فى متعدد البلدان والأوطان لم تكن لتوجد تلك المشابهة التامة والعلاقة فى ميولها ومشاعرها ، باجتذابها الأمم المتباعدة والأقوام المتنائية وتقريب مجموعها بعضها إلى بعض بعاطفة القربى والإخاء . ولكن معلوما أنه ليس لممالك الشرق فى تحالفها واتحادها وجهادها فى سبيل السلم ونشدان الحرية من غرض وقصد سوى الاتصال والتقرب إلى أمم الغرب كى يتمكن الطرفان المتباعدان من الاشتغال وبذل الجهود فى توفير الخير والهناء والسلام لبنى الإنسان . وأقوى برهان نقيمه على ما قدمناه من الكلام فى هذا الصدد شعورنا بالمسرة والارتياح وهما دليلا التضامن والإخاء اللذين جمعا شعب هذه البلاد فى دائرة واحدة بفضل زعمائها القديرين وهى لاترجو من وراء ذلك التضامن والإخاء سوى الاستمتاع بثمرات السلم ونعومة البال ومتى أدركتها بلغت إلى إتمام التفاهم مع الأمم التى تتواصل وإياها فى المعاملات ومبادلات الأفكار . ومما يؤسفنى أن أجد رجال جمعية الأمم على خلاف ماينبغى أن يكونوا عليه لأنى رأيتهم مختلفين فيما يجب اتخاذه من خير الوسائل والطرق لتوطيد السلام العام بين الأمم وأراهم إلى الساعة لم ينجزوا شطرا واحدا من مهمته العظمى لخير البشرية . وأحب أن أكون متفائلا لو قلت: إن جمعية الأمم الشرقية المنتظرة تكون يوما خير معوان لجمعية الأمم الأوروبية . لأنها تشد أزرها فى إكمال تلك المهمة الكبرى وإنى قوى الرجاء فى أنه لا يمضى زمن طويل حتى أسمع صوتا من جمعية الأمم الشرقية مناديا بلزوم إكمال تلك المهمة الإنسانية العظمى الساعية لإتمامها جمعية الأمم الأوروبية، ويطربنى أن أقول إنه كان من أثر زيارة جلالة الملك أمان الله خان لهذه الديار انعقاد روابط الود والتعارف مع حكومات بلجيكا وبولندا وجمهورية سويسرا وعقدنا معاهدات صداقة ووداد مع حكومة بريطانيا العظمى وجمهورية السوفيت وحكومة إيطاليا وجمهوريات فرنسا وألمانيا وتركيا وحكومة إيران . نعم ليس لنا فى القارة الأفريقية أصدقاء وليست لنا فيها علاقات . وإن كان من حسن حظى أنى ندبت إلى مهمة عقد معاهدة ود وولاء مع حكومة مصر . ويسرنى أنها عقدت وأمضيت على أحسن ما يكون) .

ثم قال (وإنى لأرجو أن تعقد معاهدة صداقة بيننا وبين جمهورية الولايات المتحدة وأود أن لا يفوتنى مطلب

جدير بالنظر إلا وهو أن قصد عقدنا تلك المعاهدات مع الحكومة المصرية هو ضرورة توثيق صلات الود والتعاون بين شعوب قارتي أفريقية وآسيا) .

ياحضرات الأصدقاء ، تعرفون أنه ليس في وسع شرقي يحترم ذاته أو يكرم وطنه أن يكتم سروره أو يضمر شعوره حتى يذكر له تقدم اليابان ووثبة الترك ونهضة أفغانستان ويقظة إيران وتقدم مصر وما أصابته من العزة والنجاح أولا يذكر ثورة سورية أولا تمر بمخيلته نهضة الشرقيين بالإجماع . كيف لا يفرح الشرق ويهتز طربا حين يتلى على سمعه ما تقدم من البيانات . الباعث الذي يحسه ويتأكده من أن الشرق أصبح قويا لأنه عرف بأن جاءت الساعة التي أمكنت شعوب الشرق أن تقف وجها لوجه أمام أمم الغرب فتطارحها القول مخاطبة إياها قائلة (أن ليس من همي وقصدي التنافس والسباق ولكن مقصدي أن أنقل عنك كل ما يحسن اقتباسه من مدنيتك ولا أترك شيئا مفيدا) وهذا ما يجب أن يكون صالحا لكلتا القارتين العظيمتين . ليس ما شمل الأمم الشرقية من عوامل الجذل والسرور إلا لكونها مزقت غواشي الجهالة والتعصب وانقبضت أيدي أهلها عن التذابح والتقتيل وأدركوا الواجبات المفروضة نحو أوطانهم وإخوانهم في الانسانية ، ذلك لأن مشاعر التعاطف والإخاء قد أوجبت عليهم هذه الفريضة نحو شركائهم في البشرية . هلا كان ذلك لداعي أنهم نبذوا الخلاف والشقاق واطرحوا النزاع ، أو لأن كل أمة منهم كفت عن محاربة جارتها ، كلا . ولكن لأنهم اتحدوا واجتمعوا أمة واحدة وبهذا الاتحاد أمكنهم أن يقوموا بنصيبهم من العمل ويستعدوا لخير الإنسانية جمعاء ناظرين إلى جميع الأمم بأوطانها قاصيها ودانيها كأحلاف وإخوان صدق ، بقطع النظر عن اختلاف اللسان وتباين العقيدة . ولا أكون مبالغا إذا قلت إن مصر جادة في هذا السبيل ، فإننا نراها باذلة منتهى الجهد في توثيق عرى الصداقة والسعي إلى محالفة أكبر الدول ، وهو مأخذ لا ينشده إلا أعاظم الرجال والأمم ، وهو الغرض الأسمى الذي تسعى اليه بلادي المحبوبة ، وهي بلا ريب ستدرك ضالتها المنشودة . إن بلاد أفغانستان تبذل أقصى جهدها لتحقق روابط الصداقة مع شعوب العالم أجمع وتفرغ مجهودها لتوطيد قواعد السلام العام والاتحاد بين أبناء البشرية . إنني في هذه اللحظة أطير في سماء الخيال وأرى بعين البصيرة كما لو أن أجدادنا الذين رحلوا عن هذا العالم منذ مئات وآلاف السنين يخاطبوننا فتصل إلينا أصواتهم عن طريق (اللاسلكي) منادية إيانا قائلة (إن أرواحنا تخاطبكم بلهجة الصدق والإخلاص وإنها لتهزأ بكم وتسخر من مدنيتكم الكاذبة المصطنعة ، فإنكم وصمتمونا بالخشونة والبربرية ، ولكن واحرقلوبنامنكم فإنها لتهمة كاذبة وهي مردودة عليكم ولا يلحقنا شيء من عارها) . ثم يقولون لنا : إننا كنا محرومين لذة العلوم الحديثة والمخترعات الجديدة والعلماء المتبحرين ، ولم يكن لدينا شيء من جمال وكمال الأشياء والمواد التي هي اليوم بين أيديكم ولم يكن عندنا تليفون ولا تلغراف ولا (لا سلكي) ومع ذلك تعودنا على أن يقتل الواحد منا الآخر . إنما كان يحدث ذلك نادرا عند ثورات الطبع وفي أحوال الجوع أو الغضب أو في أحوال كان الإنسان لا يملك شعوره . وجهد ما كنا نعرفه من أساليب القتل هو استعمال أداة من شجر أو خنجر من حجر ، ولكنكم أنتم قد لطختم جمال مدنيتكم وعطلتم كمال مخترعاتكم . فبدلا من أن تكون هذه المخترعات وسائل خير وفضل صارت سبة وعارا على العصر الذي وجدتم فيه . لقد تعمدتم القتل على أهون سبيل بلا اكتراث ولا اهتمام ، واخترعتم الغازات السامة للهلاك واستئصال بني الإنسان . واستخدمتم الكهربائية وطرق الاختراعات لتقصير الأبعاد وتقريب المواصلات ، لا حبا بنفع بني النوع الإنساني ، بل لفنائهم وقطع دابرهم من على وجه البسيطة . أما نحن فلم يكن في وسعنا القتل فوق الأرض وتحت سطحها وفوق صفحة البحر وفي أعماقه وفوق صفحة السحب وفي جلد السماء . وقد

يأخذنا

بأخذنا الاشفاق عليكم لأنكم أجهدتم أدمغتكم وقواكم العقلية وتفكيراتكم وبذلتم المال والملايين من الأصفر الرنان لاستزادة مخترعات الهلاك واستئصال النفوس البشرية التي حرم الله قتلها إلا بالحق ولم يخلقها إلا لاستمتاع الحياة وخدمة الآخرين . نعم إنكم لا تقتلون أفرادا ولكنكم تفرغون جهودكم في استئصال بني نوعكم وإخوانكم في البشرية . إننا وغرة جبين الحق نهزأ بمخترعاتكم ونسخر بأفعالكم ويحزننا أن نقول لكم أبقوا على حياة إخوانكم . لا تثيروا النزاع ولا تقووا أسباب الخصام والصراع . دعوا إخوانكم في البشرية يعيشون في سلام ويهنئون بدعة الحياة . دعوهم يشتغلون لخير أنفسهم ولخير البشرية ولنفع أوطانهم . نعم إننا ارتكبنا ذنوبا ولكننا تبنا إلى الله عنها وسألناه رحمة ومغفرة . أما أنتم فتصوروا كيف تكون حالكم وبأي شيء تمثل مشاعركم عواطفكم حينما تسألون لتعطوا جوابا عن كبائركم وشروركم التي استفحل أمرها واستطار ضررها . فكيف إذن يقارن موقفكم بموقفنا والفرق بيننا وبينكم عظيم . إن جمعية الأمم التي نظمتموها لم تنجز شيئا كما كان يجب أن تفعله على الحقيقة . ومن الواجب أن ترتبط بجمعية الأمم الشرقية وكلتا الجمعيتين تعملان يدا واحدة لخير وتقدم بني النوع الإنساني وكان حقا لزاما على جمعية الأمم أن تصدر الأوامر التي كان يجب على دول الأرض المتعددة أن تمتثل أوامرها وتقوم بإتمامها . ما فائدة مصالحة إخوانكم في الإنسانية بينما قلوبكم بعيدة عن استشعار أضعف العواطف اعتدادا بأن السياسة تقضي بذلك . ألا تعلمون أنه يجب علينا أن نكون مخلصين وصادقين في جميع مشاعرنا وعواطفنا حتى في السياسة فلا نستخدمها بطرق عوجاء لتكون سياسة للمداهنة والتدليس . إن بعضا منكم يوافقني والبعض الآخر يخالفني ولكني أرجو أن يحمل نفر منكم أقوالي وأفكاري على محمل العطف بحسن النية والقصد ويقيني أنكم توافقون على مبادئ وتعاليم السلم والإخاء البشري فتمثلوا مقالي هذا بقصيدة من الشعر أو مقال من النثر يبدو فيه جمال المطلع ولطف الأسلوب والقصد من سلامة الذوق . وإني لأناشدكم السعي إلى وجدان الوسائل لبث الدعاية لذلك الغرض الأسمى الذي أعتقد أنكم توافقون على الغاية المنشودة من ورائه بروح الاخاء العام . وإنه ليسرني ويطربني أن أقول إن مليكنا المحبوب جلالة (أمان الله خان) وجميع مواطني وشخصي الضعيف لا شأن لهم ولا غاية في مشايعة أو مناصرة دين على دين أو طائفة على أخرى، بل إننا ويمين الحق نرعى ذمة كل فرد من الناس ويسرنا أن نكون أصدقاء وإخوان جميع الأمم والأشخاص ونعد أنفسنا إخوانا لكل دولة وأمة تحت أديم السماء مصافحين أولئك الاخوان يد الصداقة الخالصة وشعارنا يفصح عن قصدنا بهذا القول « كونوا خلصاء وأمناء لجميع إخوانكم » انتهى .

﴿الفصل الثالث: في ميثاق السلم ونبذ الحروب الذي أرسلته الحكومة الأمريكية إلى الأمم كلها ونشر في مصر يوم الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٨﴾

فمما جاء فيه ما نصه [إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس الجمهورية الفرنسية وجلالة ملك بلجيكا ورئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا وجلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندا والأملاك البريطانية فيما يلي البحار وامبراطور الهند ورئيس جمهورية الريخ الألماني وجلالة ملك إيطاليا وجلالة امبراطور اليابان ورئيس جمهوريه بولونيا نظرا لما يشعرون به من الواجب الملقى على عاتقهم لزيادة خير الإنسانية . ونظرا إلى إيقانهم بأن الوقت قد آن للعمل على نبذ الحرب نبذا صريحا باعتبارها أداة لسياسة قومية توسلا لدوام بقاء العلاقات السلمية القائمة الآن بين شعوبهم . ونظرا إلى اقتناعهم بأن كل تغير في علاقاتهم بعضهم ببعض يجب

أن لايحمل له إلا بالطرق السلمية ولا يتحقق إلا بوسائل السلم والنظام وبأن كل دولة من الدول الموقعة تسعى من الآن فصاعدا لتنمية مصالحها القومية يجب حرمانها الانتفاع بمزايا هذه المعاهدة (كذا) ونظرا إلى أنهم يرجون أن جميع الدول الأخرى محتذية مثالهم لا تلبث أن تشترك فى هذه الجهود الإنسانية وأن تلك الدول بانضمامها إلى هذه المعاهدة بمجرّد العمل بها تمهد لشعوبها سبيل الاستفادة بما احتوته نصوصها من المزايا فتجتمع بذلك كلمة شعوب العالم المتمدين على نبذ الحرب باعتبارها أداة لسياستها القومية نبذا تاما قد قرروا فيا بينهم إبرام معاهدة وعينوا لهذا الغرض المفوضين اللازمين . وبعد أن تبادل هؤلاء المفوضون وثائق تفويضهم التام وبعد أن تبينوا صحتها اتفقوا فيا بينهم على المواد الآتية :

(المادة الأولى) تعلن الدول المتعاقدة فى صراحة وتأكيد باسم شعوبها المختلفة أشدّ استنكارها للالتجاء إلى الحرب لتسوية الخلافات الدولية كما تعلن نبذها إياها فى علاقاتها المتبادلة باعتبارها أداة سياسية قومية .

(المادة الثانية) تقرر الدول المتعاقدة بأن تسوية أو حل المشاكل والمنازعات أيا كان نوعها أو سببها يجب أن لايعالج أبدا إلا بالوسائل السلمية .

(المادة الثالثة) تصدق الدول المتعاقدة المبينة أسماؤها فى الديباجة على هذه المعاهدة وفقا لمقتضيات دساتيرها وتصبح المعاهدة نافذة بينها متى أودعت جميع وثائق التصديق فى (وشنجطون) .

وعند ما تصبح هذه المعاهدة معمولا بها على الوجه المشار إليه فى الفقرة السابقة يباح لسائر دول العالم الانضمام إليها طوال الزمن اللازم لذلك وتودع الوثيقة الدالة على انضمام كل دولة فى (وشنجطون) وبمجرد هذا الايداع تصبح المعاهدة نافذة بين هذه الدولة وبين الدول الأخرى المتعاقدة . وعلى حكومة الولايات المتحدة أن تقدم إلى كل من الحكومات المبينة فى الديباجة ولكل حكومة تنضم إلى هذه المعاهدة فيا بعد صورة طبق الأصل من المعاهدة المشار إليها ومن كل وثيقة من وثائق التصديق أو الانضمام . وعلى حكومة الولايات المتحدة أيضا أن تخطر تلغرافيا تلك الحكومات بكل وثيقة من وثائق التصديق أو الانضمام بمجرّد إيداعها . وإشهادا بما تقدم وقع المفوّضون ووضعوا أختامهم على هذه المعاهدة باللغتين الفرنسية والإنجليزية على أن يعتبر كلا النصين مرجعا يعتمد عليه . وقد صدر بباريس فى اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين :

كل ما يتعلق بالتصديق على هذه المعاهدة والانضمام إليها من الأحكام مبين (كما تلاحظون معاليكم) فى المادة الثالثة الأخيرة . فهذه المادة تنص على أن المعاهدة تصبح نافذة بمجرد إيداع تصديق جميع الدول المبينة أسماؤها فى الديباجة فى وشنجطون وعلى أن باب الانضمام إليها سيظل مفتوحا لجميع دول العالم ، كما أن وثائق الانضمام تودع أيضا فى وشنجطون . وكل دولة ترغب فى الاشتراك فى هذه المعاهدة لها حق الانضمام إليها . وعلى ذلك فإن حكومتى تكون سعيدة بأن تتلقى فى أى وقت مناسب إعلان الانضمام من الحكومات التى ترغب فى الاشتراك فى نجاح هذه الحركة الجديدة لسلم العالم بادخال شعوبها فى دائرتها المباركة . ومما تجدر الاشارة إليه فى هذا الصدد أن هذه المعاهدة تنص بكل وضوح على أنها عند ما يعمل بها تصبح نافذة بين الدولة المنضمة وبين باقى الدول المتعاقدة على وجه السواء وعلى ذلك فمن الواضح أن كل حكومة منضمة ستشترك اشتراكا كاملا فى المزايا منذ الوقت الذى تصبح المعاهدة فيه نافذة . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل الرابع : فكرة عامة فى هذا الموضوع ﴾

«سبحانك اللهم تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» أنت الذى خلقت هذا الإنسان وقلت له بعد أن قطع آجالا طويلة تبلغ آلافا مؤلفة « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ثم ذكرت أنهم أعرضوا «فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » اللهم إنك عاملت هذا الإنسان معاملة الرفق والتربية الحسنة . فأولا قلت له إنى ربيتك والتربية تشمل جميع العلوم المجملة فى الفاتحة فى قوله تعالى «الحمد لله رب العالمين» وهى تشمل العوالم كلها ، ثم أمرته بالعبادة والعبادة ترجع إلى أمرين : العلاقة بين العبد وربه ، وبينه وبين نفسه وبنى الإنسان . فالأولى يرمز لها بنحو الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه . والثانية يرمز لها بنحو علم الأخلاق وبنحو الزكاة . فعلم الأخلاق يطهر النفس والزكاة وأمثالها لتحاب نوع الإنسان والمودة معهم . أما هذا الإنسان فإنه قد سها كثير من نوعه عن العلوم التى أمر بها فى قوله تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » مثلا وكثير منهم أيضا ضلوا السبيل فى معاملة بعضهم بعضا ، فهم فى حرب وضرب أمد الحياة . أمرتهم (كونفوشيوس) فى الشرق الأقصى قديما بالمحبة العامة والمودة وكذلك المصلحون من الهند مثل (خريستا) ومثل (بوذا) ثم جاء المسيح ابن مريم وأمر بالحب العام . كل ذلك جاء لنصح الناس أن يكونوا أمة واحدة . وجاء القرآن الشريف بالسلم وأن يكون الناس أمة واحدة بالدخول فى الإسلام وهناك لا يكون حرب فلم يمكن ذلك .

ألا تعجبوا أن القرآن الذى جاء فيه محاربة الكافرين هو الذى جاء فيه آية تفيد أن الحرب ستنتهى يوما ما إذ قال تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وقال علماؤنا « ذلك يوم لا يبقى فى الأرض إلا مسلم أو مسالم » فانظر ماذا فعل الله لذلك اليوم أى يوم السلام العام . ألهم علماء الكيمياء والهندسة ذوى العقول العبقرية فاخترعوا آلات الحرب والدمار وكثر الاستعداد للحرب وآلات الهدم والتخريب . سبحانك اللهم أنت الذى سلطت على قطن الولايات المتحدة كما تقدم فى سورة (الأنبياء) عند قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » دودة اللوز فتفتكت بنفس القطن داخل غلافه الذى يسمى باللوز . فهذه الدودة التى أرسلتها إليهم فتكت بقطنهم هى التى علمتهم كيف يقتصدون فى زراعته وكيف ينتفعون بأرضهم فى زروع أخرى وكان ذلك الشر الناجم من الدود هو عين الخير الذى نصحت به الحكومة هناك والعلماء والخطباء فلم يفد يا ألله نصح الناصحين هناك ولا خطب الخطباء ولكن الذى أفادهم إنما هى دودتك التى وعظتهم بالعمل لا بالقول فنعم الخطيب خطيبك ونعم المعلم معلمك . فهكذا يارب عاملت الأمم كلها معاملتك لأهل أمريكا فى قطنها . أرسلت الأنبياء وألهمت الحكماء فقالوا للناس عيشوا بسلام فأبوا وتحاربوا وتقاتلوا ولم نجد فى التاريخ الحديث ولا القديم أمة من أمم الأرض إلا وقد افتخرت بالحرب والفتك وجعلته أم فضائلها ومناقبها . هنالك أرسلت لهم خطباء غير الخطباء السابقين وما هم إلا تلك المدمرات وهاك أيها الذكى ما قالته جريدة (منشستر جارديان) تحت عنوان [الحرب المقبلة] :

تبين من التمرنات الحربية الجوية الأخيرة أن الدفاع عن لندن غير مستطاع حتى فى رابعة النهار من هجمات الطيارات الحربية . فما تقول عن سائر المدن الإنجليزية الأخرى . ماذا تقول عن (برمنجهام) و (منشستر) و (ليدس) و (لفربول) والجهات الشمالية (واسكوتلنده) ولرب معترض يقول إن (لندن) يمكن إخلاؤها ولكن أين تذهب ملايين السكان وإلى أين يلجئون . أإلى المعسكرات والمضارب حيث يكونون أكثر استهدافا للمخاطر مما لو كانوا فى مدينة ذات مبان عالية تقيهم شر الغازات السامة وأقبية أرضية تخفف عنهم فتك القنابل الهائلة الانفجار . ربما كان هناك بعض الأنصاف فيما طرأ على حالة الحروب الحديثة

من التغير والتبديل فالملكيون لا الجنود هم الذين يصنعون الحرب، فمسئولية الحروب ليست على الجيش بل على الحكومات والبرلمانات والناخبين وكان الجنود فيما مضى هم الذين يقاسون ويلات الحرب . ثم إن الملكيين قد قاسوا وبال الحرب العالمية الأخيرة أيضا ولكن ذلك كان فى انكلترا أقل منه فى فرنسا وفى فرنسا أقل منه فى ألمانيا وفى ألمانيا أقل منه فى روسيا . ففى روسيا عانى الجميع أهوال الحرب سواسية فقد سقطت قنابل من الجو على لندن وباريس ومدن ألمانيا الغربية وفتكت بالرجال والنساء والأولاد . وقد شعر جميع السكان بهول الهجمات الجوية وتولاهم الرعب ولكن سرعان ما نسى الناس المخاوف . وقد كان عدد الذين قتلوا وأصيبوا فى الحرب العالمية كبيرا جدا ومع هذا كان باعتبار البشر من الأمور الطفيفة وكاد يصبح نسيا منسيا ولكن كل أوروبا الوسطى حوصرت وكاد الناس فى ألمانيا والنمسا يموتون جوعا ولم تكن حالة الملكيين غير المحاربين أفضل كثيرا من حالة الجنود المحاربين فى الصفوف الأمامية . ولهذا السبب بات الألمان والنمساويون يكرهون الحرب أكثر مما نكرهها نحن فى انكلترا . ولكن فى الحرب المقبلة سينال الملكيون فى انكلترا نصيبهم من الأهوال إذ من المؤكد أن الجنود فى الصفوف الأمامية - إن كان هناك صفوف أمامية - والبحارة فى السفن الحربية والطيارين فى الجو سيكونون أكثر طمأنينة من أهالى لندن أو منشستر أو غيرهما من المدن عندما تكون طيارات العدو فى جوها . وقد بدأ الانكليز يدركون الآن أهوال الحرب الجوية ويعلمون أن مخاطرها فوق ما يتسنى للعقل البشرى تصوره والفضل فى معرفة ذلك للتمرنات الحربية الجوية . فهل تفهم الحكومات هذا الفهم . ففى اليوم العشرين من شهر يونيو عام ١٩١٨ وقف المستر (بلفور) وقال فى مجلس العموم البريطانى ما يلى :

[من يشعر بأهوال الحرب أكثر من الذين كانوا السبب فى إضرام نارها وعلى من تقع تبعة الدماء المسفوكة والأموال الضائعة ؟ ومن الذى يرزح تحت عبئها . وكيف يمكن أن يشعر رجل أو طائفة من الرجال أكثر مما يشعر بها الجالسون على هذه المقاعد؟] .

إن أقوالا كهذه جعلت الجنود فى الخنادق يدركون بعد الشقة السحيقة بينهم وبين الحكومات التى فى أيديها مصيرهم ولكن فى الحرب المقبلة سيكون الأهالى فى مدنهم وولاة الأمور فى دواوينهم والجنود فى خنادقهم رفاق حرب سواسية أكثر مما كانوا فى الحرب الأخيرة . ولكن هل يزيد التقارب بينهم إلى حد التفاهم المتبادل . لا ريب أن الأهالى الملكيين والجنود سيتفاهمون ولكن أعضاء الحكومة يتسنى لهم أن يلتجئوا إلى أماكن بعيدة ويتحصنوا فى معاقل مأمونة . ولكن فى الحرب المقبلة سوف لا تكون هناك أماكن بعيدة أو ملاجئ منيعة . ورب معترض يقول إنه مع هذا تكون الحكومات أقل استهدافا للمخاطر من الأهالى والجنود . فهل هذه الفكرة أو الافتقار إلى سعة التصور ما حدا بالحكومات ولا سيما حكومتى انكلترا وفرنسا إلى التلكؤ فى الموافقة على تحريم الحرب والتخوف منه . إن ميثاق تحريم الحرب الذى هو أفضل مشروع قام به البشر حتى الآن قد أضعف وحط من شأنه بالتحفظات والتعابير حتى بات شبحا مما كان يقصد منه . إن الدوائر المتعلقة ذات الروية والتفكير العميق فى انكلترا غير مرتاحة إلى ما حل بميثاق تحريم الحرب من البتر والانتهاك ولا يتسنى لأية حكومة أن تزدرى آراء هذه الطبقة ولا سيما عندما ترى مساعى أمريكا السلمية وتشاهد ألمانيا تقبل الميثاق بلا قيد ولا شرط . أليس فى ذلك ما يخجل حكومتنا وحكومة فرنسا حليفتنا السابقة . كان من الواجب على انكلترا أن تكون هى الساعية إلى تحريم الحرب ليس لما لها من النفوذ العظيم والمكانة

العالية فى المدنية فحسب بل لأن عليها أن تهتم براحة رعاياها ومستقبلهم . لقد كان أهالى انكلترا فى القرون الغابرة مطمئنين إلى سكنى هذه الجزيرة آمنين هجمات الأعداء بفضل أساطيل دولتهم الضخمة وحصونها المنيعة . أما الآن فانهم معرضون للمخاطر كغيرهم بل أكثر من غيرهم . ثم إن طيارات انكلترا يتسنى لها مهاجمة (باريس) و (كولون) ولكن الدفاع الجوى عن لندن غير مستطاع إلا بطريقة واحدة وهى صد الطيارات قبل وصولها إلى جو (لندن) ولكن لندن أكبر المدن وأقربها إلى معظم قواعد الطيران الأجنبية ، فهى والحالة هذه أسهل تدميرا من سواها وباريس وكولون معرضتان لهجوم الطيارات مثل (منشستر) وليتصور القارئ كيف يكون منظر (ميدان البرت) لو ألقيت فيه قنبلة واحدة من القنابل الضخمة ، وهى تعدّ جسيمة جدا إذا قورنت بالقنابل التى استعملت فى الحرب العظمى ، التى ستستعمل فى الحرب المقبلة . إن (ميدان البرت) يصبح إذ ذاك حفرة هائلة محوطة بأطلال المنازل المدمرة تغطيها أشلاء الناس الممزقة ، ثم تصوّر أيها القارئ ماذا تكون حالة (لندن) إذا ألقيت عليها مئة قنبلة من هذا النوع (وليس ذلك بالعدد المستحيل) وانظر إلى ذلك الدمار الهائل وانصت إلى صياح الصائين من الآدميين الذى لا يعرفه إلا من خاض غمار الحرب . إنه أفظع صوت يصدر من أى حيوان . إذا كابرت إحدى الحكومات ولم تشأ أن تفهم ماذا يفكر الناس وماذا يخافون فيجدر بها أن ترجع بذاكرتها إلى الحوادث التى نجمت عن الحرب العالمية منذ عشر سنوات . ولتعتبر بما أصاب حكومات (روسيا) و (ألمانيا) و(النمسا) و (بلغاريا) وكيف قلبت واستهدفت لمخاطر الثورات والفتن حتى إن روح الثورة لم يقتصر على الدول المقهورة بل تعداها إلى غيرها . فهل غاب عنا أن فرقة فرنسوية ولت ظهورها للميدان وشرعت فى الزحف على باريس عام ١٩١٧ م وهى تهتف بسقوط الحكومة وإقامة حكومة جديدة ذات نظام جديد . ففى الحرب المقبلة سيقاسى الغالب أكثر مما قاسى المغلوب فى الحرب الماضية . وقد لا يتسنى للحكومات المنتصرة التخلص من انتقام رعاياها . ثم يجب على حكومات هذا العصر أن لا يعزب عن بالها ما حدث فى الحرب الأخيرة فان ما حدث فى روسيا لا يبعد أن يحدث فى كل مكان . فتحريم الحرب والحالة هذه هو أول واجبات الحكومات . ويجب أن يكون محكا لتأييدها أو إسقاطها وأن يكون أساس جميع أعماله وزارات الخارجية وأهم برامج مرشحى الانتخابات اهـ .

﴿ حكمة إلهية ونور على نور وتبصرة وذكرى وشكر لله تعالى ﴾

ها هو ذا خطاب محافظ كابول . فهو يقول إن أوروبا لم تقم بالأمر حق القيام ويقول إن الشرق سيقوم بأمر السلام العام . وأنا أقول : أليس هذا من العجب . لقد كتبت فى سورة (الأنفال) حين طبعها منذ سنتين فى صفحة (١٣) فى تفسير قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » ما نصه :

[الأمم الاسلامية وجمعية الأمم . انظر رعاك الله نحن أولاء فى عصرنا الحاضر كيف نسمع أن أوروبا لها جمعية أمم وإن لم تقم بواجبها بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه وأهم بلاد الشرق بلاد الاسلام ، فلماذا لا نرى أمم الاسلام لا رابطة بينها ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورية كجمعية الأمم الصورية فان هذه الجمعية وكذلك محكمة لاهاى ربما تأتيان بالغرض على طول الزمان وهم الآن يلجئون إليها عند الخصام . فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات] ثم قلت فى صفحة (٢٠) ما ملخصه [إن قوله تعالى فى سورة الحجرات « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » الخ ، وقوله فيها أيضاً « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا » ويضم لهاتين الآيتين آية « وأصلحوا ذات بينكم » فى (الأنفال) فينتج من ذلك صلح بين المسلمين وتعارف بينهم وبين غيرهم . وقد قدم الله الصلح بينهم فى الذكر على التعارف مع الأمم كترتيب العمل إذ لا يتعارفون مع الأمم إلا إذا اصطلحوا فيما بينهم].

هذا ملخص ما ذكرته هناك أنه لم يمض على كتابة هذا وطبعه سنتان اثنتان . أفلا تعجب أننا الآن نسمع محافظ كابول جاء من أقصى البلاد فى الشرق إلى مصر وهو يخطب قائلا نحن الذين نقوم بالسلام العام وأظهر تباطؤ أوروبا . اللهم إنك أنت المعلم الملهم الحكيم العليم . لقد وضح واستبان السبيل وظهر لى أن هذا زمان الاصلاح وإلا فما هذا الاسراع فى ظهور الحقائق . ألهف على « جمعية أمم شرقية » فلا يمضى زمن حتى أسمعه من أفواه رجال السياسة فى الشرق الذين كانوا عند ما كتبت الموضوع السابق لا يسمع لهم صوت . صدق الله إذ قال « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ». إن نهضة الشرق اليوم مجدة فى الإسراع حثيثا « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » اهـ .

هذا الذى ذكر قبل الحكمة الالهية المذكورة هنا هو ما جاء فى تلك الجريدة الافرنجية وهو يبين صفحة من أحوال الأمم التى نعيش معها اليوم وأن الله فعل معهم ما يفعله الأب الشفيق بأولاده والأستاذ الصالح بتلاميذه فأولا يأمرهم وينهاهم ثم بعد ذلك يعاقبهم لا انتقاما بل تعليما . فهنا علم الله الأمم السلام العام الذى أشار له بقوله « حتى تضع الحرب أوزارها » بالهام المفكرين اختراع آلات جهنمية فأجفلت الأمم من الحرب وقالوا كلا . كلا . نصطلح يا ألله . نصطلح ونسمع قولك « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فها نحن يارب جئنا نتعارف بصوت الرهبة لا الرغبة لأننا بالرغبة ما أطعناك ولكننا بالرهبة اتبعناك . هذا هو الذى ظهر فى الأمم الآن من الآية التى نحن بصددها وهى قوله تعالى « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » فقد قلنا إن السلام العام من أحد شق العبادة ، وكما فعل الله عز وجل مع الأمم فى أمر السلام العام هكذا فعل معهم فى أمر العلم الذى تضمنه قوله « وأنا ربكم » فان الناس لما قصروا فيه لاسيما المسلمون منهم سلط عليهم أنواع المؤذيات ومنها الحشرات لتسوقهم إلى العلم لأنهم إذا رأوا أنهم تنتابهم الحمى بلا سبب يعرفونه إلا حشرة صغيرة تسمى (الكولاكس) فهذه هى التى تضع فى أجسامهم الحمى فإنهم لامحالة يجدون فى علم الطب وعلم الطب يحتاج إلى أكثر علوم الحيوان والنبات والمعادن والهواء والماء وأضواء الكواكب والحرارة والبرودة وما أشبه ذلك . إذن هذه الحشرة وأمثالها أرسلها الله لأمرين : تعليم الناس جميع العلوم واتحاد الأمم فى مطاردتها . إذن المدمرات على قسمين : مدمرات طبيعية تحرض على معرفة العلوم وعلى الاتحاد العام فى مطاردتها . فلما لم يفهم النوع الإنسانى ذلك سلط عليه المدمرات الصناعية المتقدم ذكرها . ولعلك تقول فى أى وقت جاءت هذه الحشرة؟ أقول قد جاء ذكرها فى آخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ فإن المرض تفشى فى اليونان فمات كثير من الأطفال والشيوخ وأصيب به مائتا ألف وقال الأطباء إن هذه الناموسة هى التى تنقل هذا المرض وليس ينتقل بالملامسة إن الله لم يرسل لنا ذلك إلا للحض على علم الطب كما قدمنا والطب لا تقوم به إلا طائفة فى الأمة وبقيتها لهم أعمال أخرى والأمم متجاورة وكلهم يجب أن يتعاونوا على درء هـذا الخطر وكل وباء عام . إذن هى تعليم من الله لا غير وهذا كله داخل فى قوله تعالى « وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون » ثم قال تعالى « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » ثم أشار سبحانه إلى أن ما يمدهم به من المال والبنين ليس مسارعة لهم فى الخيرات بل هم ممتحنون . هذا ما فتح الله به فى تفسير هذه الآية ومصداقها فى زماننا ولست أقول إن ما ذكرته الآن سيمنع الحرب حتما ولكنى أقول إن العجب أن يكون

ما ذكرته قبل الحرب فكرا أصبح اليوم منتشرا بين أمم الأرض ، والمستقبل لله وحده هو علام الغيوب، والحمد لله رب العالمين .

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون ﴾

(الفيل والعميان الست)

اعلم أن هذا النوع الإنسانى مجبول على الخلاف . مقصور على الشقاق . تنوعت البصائر فاختلفت الآراء، الحقيقة واحدة والآراء شتى ولامحيص عنها ولافرار منها . وهل أتاك نبأ العميان الست فى كتب الانجليز الذين يقال إنهم كانوا فى بلاد الهند وقد أغرموا بالعلم والبحث غراما وأولعوا به هياما، فأجمعوا أمرهم بينهم أن يدرسوا (الفيل) دراسة تامة فقام (أولهم) وتقدم إلى الفيل فاصطدم به حتى كاد يسقط على الأرض لأنه قابله من جانبه فصاح قائلا (أيها الاخوان إن الفيل أشبه بالحائط) .

(الأعمى الثانى) فاقترب الثانى منه وقد عثر بنابه إذا هو مدوّر وناعم وحاد فصاح قائلا (إن الفيل أشبه بالحربة) .

(الأعمى الثالث) فاقترب الثالث منه وقد عثر على خرطومه فصاح قائلا (إن الفيل أشبه بحية تسعى) .

(الأعمى الرابع) فاقترب الرابع منه وقد عثر بركبته فصاح قائلا (ما أقوى هذا الحيوان إنه كالشجرة) .

(الأعمى الخامس) فاقترب الخامس منه وقد عثر بأذنه فصاح قائلا (ما أشد عماكم أيها القائلون . وكيف تقولون مالا تعقلون . إنما الفيل أشبه بالمروحة)

(الأعمى السادس) فاقترب الأعمى السادس منه وقد أمسك بذنبه فقال (إنما الفيل كالحبل . وهذا قول الحق الذى فيه تختلفون) . إن هؤلاء العميان الست الهنديين قد تناقشوا وكل أدلى برأيه وكل منهم مصيب فى رأيه من وجه ومخطئ من وجه آخر. هذا تمام الحكاية الإنجليزية . ولقد رأيت نفس هذا المثال فى كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالى . وليس المقام مقام البحث عن أصل هذا المثل من الذى قاله، ولكن إذا كان الانجليز قد كتبوه فى كتبهم ونقلتها الآن عنهم وقبلهم الغزالى فى الاحياء دلنا ذلك على أن هذا المثل من وضع الهند لأن الكتاب الانجليزية يقول إنهم من الهند، واتفق الغزالى وعلماء الانجليز على أن موضوع المثل هو (الفيل) والفيل يعظمه الهنود . إذن فلنشرح فوائد هذا المثل . إن هذا المثل ينطبق على أحوال هذه الدنيا ، فالناس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ولذاتهم ودياناتهم وعلومهم يختلفون ويجمع هذا كله من أول هذا المثال إلى الآن « كل حزب بما لديهم فرحون » . فالذى ربى فى قرية لا يحب أكثر منها وعالم الرياضة يألفها وعالم النبات مغرم به وهكذا الحيوان والسياسة وعالم اللغة وهكذا نجد الذى قرأ اللغة الانجليزية من السلفين أو الفرنسية أو الألمانية وقد درس تاريخ القوم فإنه لا محالة يحبهم وهكذا الشافعية والحنفية والمالكية والشيعة وهكذا الزراع والصناع والتجار كل له غرض بهواه بحسب ما نشأ عليه وما اعتاده ، فقوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » قد فسره المثل المضروب بالفيل فى الشرق والغرب معا . الله أكبر القرآن كتاب عام والمثل المذكور عام ولكن الحكمة القرآنية أبهى وأجمل وأبهر وبهذا تظهر البلاغة والحمد لله رب العالمين .

هذه مسألة (الفيل والعميان) تمثل لنا اختلاف العقول وأحوال الأمم والحكماء وأذكر لك نبأهم في هذا المقام مجملا فأقول :

اعلم أن كل حكيم من حكماء الأرض وعالم يلقى للناس من العلم مايراه سعادة لهم في أمورهم المادية والمعنوية وجميعهم كهؤلاء العميان يدورون حول الحقائق وكل يقول ما يفهمه والله يقول لهم جميعا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فانظر إلى :

(١) ﴿ سقراط ﴾

كيف استخلص الباحثون من آرائه القواعد الآتى بيانها :

(أولا) أن الإنسان فى ميوله وأحواله يقصد السعادة .

(ثانيا) أن الخير والمنفعة مترادفان .

(ثالثا) أن العلم هو أس الفضيلة .

(رابعا) إن الخير العام مقدم على الخير الخاص .

(خامسا) إن الجمال شطر من الأخلاق .

(سادسا) إن الشرائع الوضعية مستمدة من الشرائع السماوية .

ويقولون بأنه يرى أن حياة الفيلسوف هى أسمى ضروب الحياة لأنهـا مؤسسة على الحكمة والتميز ولأنها تجلب لصاحبها أكثر ما يتيسر نيله من السعادة والمسرة الخاليتين من شوائب الأكدار وأن حياته هى الحياة المثلى لأن رائده فيها البصيرة ورعاية المصلحة . ومما يستخلص من آراء (أفلاطون) أن الناس ليسوا سواسية فى المدارك والأخلاق وإنه من الخرق أن الجاهل يحكم العاقل والسفلة تحكم العلية لأن العامة فى رأيه ليس عندهم من البصيرة ما به يدركون الخير لهم فهم يعجزون لذلك عن إدراك ما هو خير لغيرهم وكذلك لامناص لهم من أن يجتنبوا التعرض لشؤون الأمة بل أن يلقوا مقاليدهم لمن أوتوا الفطنة والبصيرة وحسن الادارة وهم الفلاسفة فاذا أصبح الفلاسفة حكاما سلكوا بالناس سبيل السداد ورفعوا عنهم أذى الفوضى والاستبداد ويوجب (أفلاطون) أن يجعل وصف العقلاء مقتصرا على الفضيلة كالشجاعة والعفة وينفر من الرذيلة كالخيانة والفجور وأن تحظر الأشياء الغرامية التى تحدث خورا فى العزائم ووهنا فى القلوب . وكذلك يجب على الحكومة أن تحمل الناس على دينها فلا تدعهم يعبثون بالعقائد ويدينون بما يشاءون اهـ .

(٢) ﴿ آراء الفارابى ﴾

ويقول الفارابى من علماء الاسلام فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) ما ملخصه :

[إن الأمم تجتمع إما باللغة وإما بالدين وإما بالقرابة والنسب وإما بالمصاهرة وإما بالوطن وإما بالمعاهدات وإما بالملك الذى يجمع الجميع وإما بأن تستبد الأمة جماعة وهؤلاء وعبيدهم يستعبدون غيرهم وهكذا . ويقول إن هذه كلها مدن فاسقة وليس عنده مدينة فاضلة إلا فى أن تكون الأمة كلها هيئة مركبة من جماعات كل منهم يعمل فيما يناسبه بحيث يكون فيهم من هم كالقلب ومن هم كالرأس ومنهم من هم كالمعدة ومن هم كالعظام ، ففيهم الخادم والمخدوم وليكل منهم حظ مما يناسبه من العمل ورئيس للمدينة إما واحد إن اجتمعت فيه صفات الكمال وإما جماعة بحيث يكون لكل واحد صفات تغاير غيره وصفات الجماعة كلها تكون قائمة مقام صفات رئيس المدينة الفاضلة وتكون الممالك كالمملكة الواحدة فتكون الأرض كلها كرة فاضلة) هذا ملخص ما قاله الفارابى .

(٣) ﴿ آراء أرسطو ﴾

ويقول (أرسطو) من حكماء اليونان ما نصه [إن الفضائل وسط بين طرفين . فالحكمة وسط بين السفه والبله . والشجاعة وسط بين الجبن والجور وهكذا ، والفضائل العقلية تكتسب بطرق تهذيب النفوس . وأوجب أن تعتنى الحكومة بالطفل قبل خلقه بأن تسن للزواج قوانين خاصة لرعاية صحة الأجنة والأطفال . وأوجب الاعتناء بتغذية الطفل وملبسه وتمرينه كتمرين تلاميذ المدارس الآن . وإذا كبر تهيمن الحكومة على تربيته ، وعنده أن الموالى والصناع لاحاجة إلى العناية بهم وهكذا النساء فخالف بذلك (سقراط) القائل بأنهن يربين كما يربى الرجال وأوجب الموسيقى . وقال إن الأعمال البدنية يجب أن تكون غايتها ضبط النفس وكبح جماح الشهوات وتجميل صورة الجسم وتكوين العادات الفاضلة ، لا مجرد القوة الجثمانية التى بها يتباهى الفرمون بالألعاب البدنية ولا الضراوة والقساوة اللتين يفتخر بهما الجنود فى الحروب فانها إن قصد منها القوة الجثمانية فحسب كانت متعبة للأجسام شاقة على النفس ، وإن قصد منها الضراوة وتقسية القلوب كانت مظهرا من مظاهر الوحشية القاسية . ويجب أن تتدرج هذه الألعاب فى صعوبتها ، وأن لا تبتدئ التمرينات العنيفة أو الخشنة إلا بعد هذه السن . وأوجب الموضوعات الأدبية وهى تشمل القراءة والكتابة والرسم . وأوجب أن لا تعلم من أجل منافعها المادية فحسب وإنما تعلم لأسباب نفسية أسمى وأعلى . فالقراءة والكتابة وسيلتان لتزويد الفكر بأنواع المعارف والرسم يربى قوة الذوق ويساعد على تعرف الجمال والموسيقى عنده العدة فى تثقيف العقول وتعليل النفوس المكدودة وإثارة العواطف الكامنة وشغل أوقات الفراغ بأفضل أنواع المسرات . وبعد أن أفاض (أرسطو) فى فوائد الموسيقى شرح أنواعها وما يسوغ منها تعلمه والأناشيد التى يحسن إنشادها وفضل أن يتعلم الأطفال الايقاع على المزاهر حتى تتكون لهم ملكة الذوق والنقد ، ولكن يجب أن لا يغالى فى ذلك حتى يصلوا إلى المهارة الفنية لأن ذلك لا يليق بالرجل المهذب وأوجب أيضا التربية الفكرية ويوافق (أرسطو) أفلاطون فى دراسة العلوم الرياضية فى هذه المرحلة دراسة عالية ولا سيما العلوم الهندسية والطبيعية والفلكية وينصح بدراسة المنطق وعلوم الحياة . ويرى مع هذه التربية النظرية العالية أن تسير إلى جانبها التربية العملية فيأخذ الشبان بتمرينات فى الأعمال والواجبات الوطنية كالأعمال الادارية والتشريعية والقضائية] اهـ .

(٤) ﴿ آراء ابن سينا ﴾

ذكر فى [كتاب القانون] فى علم الطب بأنه تجب العناية بتدبير الحوامل واللاتى قاربن الولادة بأن يتناولن الغذاء الجيد ويأخذن نصيبهن من الرياضة البدنية ويجتنبن الاجهاد فى العمل ويتحرين جودة الغذاء ونظافته الخ . ثم ذكر فى هذا الفصل واجب الوالدة والأم لينشئا طفلا يقاوم الأمراض موفور الصحة حسن الأعضاء والشكل . وذكر أن يرضع ما أمكن بلبن أمه فان منع مانع من إرضاعه لبن أمه من ضعف أو فساد أو ميل إلى الرفه فينبغى أن تختار له مرضع على الشرائط التى نصفها بأن تكون سنها بين ٢٥ إلى ٣٠ لأن هذه سن الصحة والكمال وأن تكون حسنة اللون قوية العنق والصدر واسعة اللحم حسنة الأخلاق جيدة عن الانفعالات النفسية لأن سوء الخلق يؤثر فى تربية الطفل ، وأن يكون لبنها معتدل القوام والمقدار ولونه إلى البياض ورائحته طيبة وطعمه إلى الحلاوة وأجزاؤه متشابهة . فاذا توافرت هذه الشروط فى المرضع قبلت وتجب العناية بغذائها طول المدة أيضا حتى يكون اللبن الذى تنتجه جيدا فاذا طرأ عليها مرض منع من إرضاعها . ثم ذكر كيفية التحريك العلمى الذى يهيئ الأعضاء ولا يضرها وضرورة الموسيقى والتلحين الذى

جرت به العادة لتنويم الأطفال . وأوجب أن يكون أوكد العناية مصروفا إلى مراعاة أخلاق الصبى فيعدل وذلك بأن يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أو غم أو سهر وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذى يشتهيه ويحن إليه فيقرب إليه وما الذى يكرهه فينحى عن وجهه (ويشبه مذهبه هذا مذهب روسو) وفى ذلك منفعتان (إحداهما) فى نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق ويصير ذلك له ملكة لازمة (والثانية) لبدنه لأن الأخلاق الرديئة تؤثر فى مزاج الجسم ، فان الغضب يسخن جدا والغم يجفف جدا . ففى تعديل الأخلاق حفظ الصحة للنفس والبدن جميعا . ثم ذكر نظاما يتبع فى حياة الطفل فقال [وإذا تنبه الصبى من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ثم يطعم شيئا يسيرا ثم يترك إلى اللعب الأطول ثم يستحم ثم يغذى وإذا أتى عليه من عمره ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم ويتدرج فى ذلك أيضا ولا يحكم عليه بملازمة الكتاب كرة واحدة] .

وذكر فصلا فى التدبير المشترك للبالغين وهو (١٧) فصلا قال فى الفصل الأول [إن قوام الصحة على ثلاثة أشياء الرياضة والغذاء والنوم . ثم بسط الكلام على الرياضة بسطا لا نهاية بعده وذكر من أنواعها المنازعة والملاكمة وسرعة المشى والرمى عن القوس والقفز والحجل وركوب الخيل وشد الحبل الخ . ثم ذكر رياضة كل عضو وزمن الرياضة . وتناول فى الفصول الأخرى الاستحمام وأنواعه وفوائدها للجسم وتقوية الأعضاء الضعيفة وتسمينها وتعظيم حجمها والإعياء الذى يتبع الرياضات وعلاج الإعياء الرياضى وتدبير الشيوخ اهـ] .

(٥) ﴿ آراء العالم الهندى السر (جاجاديس بوز) النابغة فى علم حياة النبات الذى تقدم ، ذكره وآراء غاندى الزعيم الهندى ﴾

أما آراء (غاندى) فقد تقدمت فى آخر سورة (آل عمران) وذلك أنه يحرض الناس على الصناعة ويمنع الاتكال على صناعات الفرنجة . وأما آراء (السر جاجاديس) فإنه أوصى التلاميذ الهنود بهذه الوصايا فى زماننا وهى خمسة وقد خاطبهم بها قائلا فى هذه السنة (١٩٢٨) ما يلى :

(١) الثقة بالنفس وهى التى يعبر عنها الإنسان بقوله (أنا أريد) فهذه الكلمة يجب أن تفهموها جيداً كثيرا ما أسمع الناس يقولون إذا طلب منهم عمل ما (سنجتهد فى عمله) وإنى لا أشتم شيئا من رائحة التواضع فى هذه العبارة بل أراها عنوان الجبن . هل تحت السماء أمر لاتستطيعون أن تجعلوه طوع إرادتكم إن أردتم ذلك بكل قوتكم العقلية والروحية . أنا أقول لكم إن الذين لايقفون أمام الصعوبات والمشكلات خوفا منها ليسوا إلا جبناء ضعفاء بل هم عار على الإنسانية التى يتصفون بها وينتمون إليها . ليس للانسان أن يتجنب الصعوبات أو يفر منها أو يشكو أمرها بل عليه أن يذللها مادام فيه رمق من الحياة . اعلموا أنه ليس على وجه الأرض قوة تستطيع الوقوف فى سبيلكم إن أردتم المضى فيه وجميع العقبات تتنحى بنفسها عن طريقكم وما يظل معترضا لكم منها تدرسونه وتطحنونه بأقدامكم القوية هكذا يصبح كل عسير أمامكم يسيرا وكل صعب سهلا .

(٢) اختيار طريق الحق والصدق والمضى فيها بأقدام ثابتة فلا تضيعوا أوقاتكم فى بيان الفضائل ومحاسن الخير بل انهجوها وسيروا عليها . هذا هو الأساس المقدس الذى قامت عليه الإنسانية الطاهرة .

(٣) الاتحاد الوطنى . اتركوا التعصب للولايات وللأديان والمذاهب والطوائف وكونوا جميعا أبناء الهند الحنونة البارة . كونوا هنودا أولا وآخرا .

(٤) اعتقدوا أن أساس الدين هو التسامح فلا يحملنكم اختلاف عقائدكم الدينية على الاعتداء بل ليكن الدين بينكم عنوان المحبة والوداد والوئام .

(٥) لا تتركوا مدنيتكم القديمة تموت بغفلتكم وضعفكم بل كونوا رجالا ونساء أقوياء مخلصين غيورين لتتمكنوا من إنشاء مجد جديد لوطنكم ووطنى العظيم .

(٦) وههنا جاء دورى أنا فأقول (سادس) الجماعة أدلى دلوى فى الدلاء .

فها هوذا (سقراط) وهاهوذا (أرسطاطاليس) و (الفارابى) و (ابن سينا) وعالمان هنديان يطلبان الصناعة والإقدام والأخلاق والاتحاد . فأما أنا فقد ألفت كتاب [أين الإنسان] وقد لخصت بعضه فى هذا التفسير وذكرته فى مواضع كثيرة فيه . وملخصه أن جميع هذه المجالس النيابية فى العالم الإنسانى تخدم شهوات المنتخبين (أولئك النواب) وهذه الإنسانية يجب أن تكون كل أمة منها قائمة بتعليم جميع الذكور والإناث وأن تستخرج مواهب أرضها وعقولها وكل شىء فيها وكل الأمم يجب أن يكونوا متضامنين فى الشرق والغرب وعلى مقدار نقص أمة يكون فقد ثمرات لأمم أخرى ولكن الله يقول « كل حزب بما لديهم فرحون » ويقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . إذن كل هؤلاء المفكرين يبحثون عن سعادة الإنسان كما بحث العميان عن (الفيل) فأمسك كل بطرف وعرفه والفيل أوسع من علمهم هكذا هنا الإنسانية وسعادتها أوسع من علم العلماء وحكمة الحكماء . فلا سعادة للناس إلا إذا جدت الأمم كلها فى التفكير لسعادة المجموع بإخلاص والإخلاص يكون من قوم اختصوا بمواهب عالية ومدارك عظيمة وهؤلاء قليل ولكنهم مفرقون فى الأمم كلها ، فمتى عم التعليم الأمم فهناك يظهر أرباب المواهب من كل أمة ويسعدون نوع الإنسان .

ولقد رأيت فى كتاب [أين الانسان] أن موافقة تعداد الذكور للاناث غالبا فى هذا العالم دليل على أن فيه نظاما ثابتا يشمل كل شىء . فأهل الحكمة أو الصناعة أو السياسة لكل طائفة قوم خلقوا فى الأرض هكذا خلق فى هذه الأرض عقول خاصة لإرشادهم فيجب البحث عنهم فى جميع الأمم وهم الذين يديرون دفة العالم كله وغير هذا عندى باطل . ولقد اطلعت على مقال العلامة (هولدين) من أشهر كتاب الإنجليز وكبار مفكريهم ومن أشهر علماء (البيولوجيا) فى عصرنا قال فيه مانصه :

[إن نظرنا إلى صحة الأجسام بقطع النظر عن سواها يوجب بلا مراء أن يعنى الناس جميعا بعضهم ببعض لأن مرض فرد يعدى الآخر وينتقل إلى أمة أخرى ، ويقول : إذا نظرنا إلى علم الاقتصاد والسياسة فإننا نجد سوء طالع زيد يكون حسن طالع لعمرو وخراب أمة ربما كان نعمة على أخرى ولكن فى علم الصحة تنعكس الحال فإن المساكن فى وسط المدن والمحاقر التى ينتشر فيها الغبار فى الجو أوساط حسنة يربى فيها مكروب السل الذى يصيب الفقير والغنى على حد سواء . وهذه مسألة لا تقتصر على شعب واحد بل إن الطفل الرومانى المصاب بالفالج والهندى المصاب بالجدرى ، والجرذ الذى يحمل الطاعون كل هؤلاء يؤثرون فى الأعمار وينقصونها إذن تجب العناية بكل فرد وبكل أمة لاسيما أن طرق النقل الآن صارت أسرع منها قبل الآن] .

ومن قوله أيضا [إن قحطا قد وقع فى بلاد الصين منذ قرنين مضيا لم يكن ليضع الرجل الإنجليزى أو الأمريكى إزاء أية مسئولية لأنه ليس لديه وسائل النقل أما اليوم فإن استخدام البخار فى السفن والكهربائية فى نقل الأخبار كلاهما جعل القيام بمثل هذا الواجب مستطاعا] .

فهذا العالم ينحو نحو كتابى [أين الإنسان] والحمد لله رب العالمين .

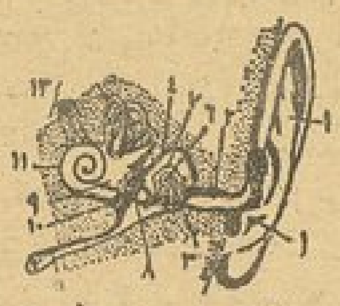
﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » ﴾

لقد تقدم الكلام على السمع والبصر فى سورة (آل عمران) وهناك صورتاهما مرسومتان وموضحتان إيضاحا تاما ومشروحتان شرحا كافيا . ولكن هنا وجدت صورتين أخريين مرسومتين فى كتاب [قانون الصحة] وهما واضحتان ظاهرتان يراهما الإنسان أمامه كأنهما آلتان من الآلات الشاهدات فى عصرنا

وفيهما من دقة الصنع وإتقان القطع المختلفة الأحجام والأقدار والصور مايبهر العقلاء، إذ يرون عناية صانع هذا العالم بمخلوقاته فيهما أوضح من تينك الصورتين وأقرب إلى الفهم والإيضاح التام . ولا جرم أن السمع والبصر والفؤاد عادة لايفكر فيها الناس ولا فى حسن إتقانها لأنها مبذولات لكل حى فغفل الناس عنها لذلك كررها الله فى القرآن وحث على النظر والتفكر فيها حتى تخرج هذه النفوس البشرية من عالم الحيوانية إلى عالم الحكمة والعقل والرقى العلمى . أما الفؤاد فارجع إلى ماتقدم فى (سورة الاسراء) عند الكلام على قوله تعالى « قل الروح من أمر ربى » وأما السمع والبصر فهاك ماجاء فى ذلك الكتاب فى صفحة ٢٣ و ٢٤ وهذا نصه :

﴿ حاسة السمع ﴾

عضو السمع هو الأذن وينقسم إلى أذن ظاهرة وأذن متوسطة وأذن باطنة (الأذن الباطنة هى التى تحتوى على أعضاء أى أعصاب السمع) فالأذن الظاهرة تتركب من الصيوان والقناة السمعية الظاهرة ويوجد بها شعر وغدد تفرز مادة شمعية تسمى (بالصملاخ) وهى تتراكم إذا لم تنظف وتضعف السمع . والأذن المتوسطة تتكون من الطبلة وغشائها وثلاث عظام صغيرة . والأذن الباطنة مكونة من تجويف فى عظم الصدغ مبطن بغشاء ينتهى فيه أطراف العصب السمعى . وإذا حدث صوت بجوار الأذن يخترق الأذن الظاهرة ثم الأذن المتوسطة ثم الباطنة فيتنبه العصب السمعى فينقل الصوت إلى مركزه فى المخ فيوجه المخ الإحساس إلى الأذن فيجعلنا نشعر كأن الأذن هى التى أحست بالسمع (انظر شكل ١٧) .



(شكل ١٧ ــ صورة الأذن)

﴿ الصوت والكلام ﴾

تحدث نغمات الصوت الأساسية باهتزاز الحبال الصوتية للحنجرة بواسطة هواء الزفير ويتنوع الصوت باللسان والأسنان والشفتين والكلام يحصل بتغيير نغمات الصوت فى التجاويف التى فوق الحبال الصوتية ، فمثلا تغير حجم وشكل البلعوم والفم والأنف يحدث نغمات مختلفة تكون حروف النطق .

﴿ حاسة الإبصار ﴾

مركزها العين وتوجد هذه فى تجويف الحجاج ومعها الأوعية والأعصاب التى تغذيها وفى مقدمتها الجفون والجهاز الدمعى . والجفون فى حافتها الأهداب وهى تقى العين ليلا ونهارا من الأجسام الغريبة التى تصادفها والجهاز الدمعى فى الجهة الوحشية للحجاج ويفرز الدمع منعا لجفاف الملتحمة (انظر شكل ١٨) .
والعين مكونة على التوالى من الطبقات الآتية وهى (الصلبة والقرنية والشيمية والشبكية) والعين

(أرقام شكل ١٧)

(١) الأذن الظاهرة (صيوان الأذن) (٢) قناة السمع الظاهرة (٣) طبلة الأذن (٤) صندوق الطبلة (٥) قناة استاكيوس (٦) المطرقة (٧) السندان (٨) الركاب (٩) التيه (١٠) مدخل القوقعة . (١١) القوقعة (١٢) القنوات النصف الهلالية (١٣) العصب السمعى .



(شكل ١٨ – رسم قطاع من مقلة العين)

مملوءة بالرطوبة المائية والجسم الزجاجي والبلورية وتجويفها تنقسم بالقزحية إلى قسمين، وهي ستار قابل للانقباض والانبساط ومثقوبة في وسطها بالحدقة التي وظيفتها تنظيم كمية الضوء الداخل في العين، وتوجد القزحية عند ملتقى الصلبة بالقرنية ووظيفتها إعداد العين للرؤية وهي تؤثر في تحديب البلورية بانقباضها وانبساطها فترى الأشياء على أبعاد مختلفة وفي الشبكية ينتهي العصب البصري.

إن شرح العين والأذن في (آل عمران) أوسع جدا.

والعين تماثل صندوق التصوير الشمسي، فأشعة الشيء المرئي تمر بالقرنية والبلورية والرطوبة المائية والجسم الزجاجي فتنطبع صورته معكوسة على الشبكية التي تشبه زجاجة التصوير فينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ فيردها هذا إلى العين غير معكوسة فنشعر برؤية الشيء، ونحكم على شكله ولونه وحجمه

﴿ القلب والأوعية الدموية وسير الدورة فيها ﴾



(شكل ١٩)

القلب هو عضو عضلي لا حكم للارادة عليه فينقبض وينبسط بنظام خاص وله أوعية خاصة وهو مخروطي الشكل ومغلف بغشاء، وينقسم إلى (أربعة تجاويف) العلويان منها يسميان بالأذينين والسفليان يسميان بالبطينين. ففي الجهة اليمنى أذين وبطين وفي اليسرى مثلهما، ولا تتصل تجاويف جهة بالجهة الأخرى بل يفصل الجهة اليمنى عن اليسرى حاجز عضلي، ولكل بطين فتحة لها صمام يسمح بمرور الدم من الأذين للبطين لا العكس ويذهب الدم إلى أجزاء الجسم من البطين بواسطة عروق تسمى بالشرايين.


﴿ الدورة الدموية ﴾

يمر الدم مرتين في القلب ليتم دورته. ففي المرة الأولى يذهب من البطين الأيسر إلى جميع أجزاء الجسم ثم يعود إلى البطين الأيمن وهذه تسمى بالدورة الكبرى، وفي الثانية يذهب من هذا البطين إلى الرئتين ثم يعود إلى البطين الأيسر وهذه تسمى بالدورة الصغرى (انظر شكل ١٩).

(أرقام شكل ١٨)

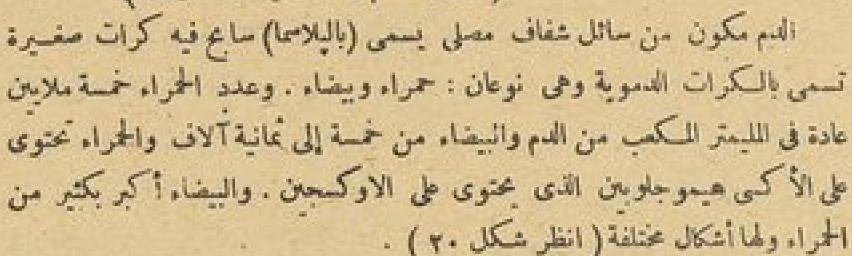
(١) القرنية (٢) الصلبة (٣) المشيمة (٤) القزحية (٥) الحدقة (٦) الشبكية (٧) العصب البصري (٨) الشريان المركزي للشبكية (٩) قطاع العصب البصري (١٠) البقعة الصفراء (١١) الخزانة المقدمة (١٢) الخزانة الخلفية (١٣) البلورية (١٤) العضلة الهدبية (١٥) الجسم الزجاجي (١٦) العضلات المحركة للعين (١٧) الجفنان (١٨) الأهداب (١٩) الغدد الدمعية.

[أرقام شكل ١٩]

(١) الأذين الأيسر (٢) البطين الأيسر (٣) الأذين الأيمن (٤) البطين الأيمن (٥) الأبهر أو الأورطي (٦) فروع من الأورطي (٧) الأوعية الشعرية (٨) أوعية شعرية موصلة للأوردة (٩) وريد (١٠) الرئتان (١١) الأوعية الشعرية الرئوية (١٢) الوريد الرئوي (١٣) الشريان الرئوي (١٤) الشريان الكبدي. (١٥) الكبد (١٦) الوريد الكبدي (١٧) القناة الهضمية (١٨) و (١٩) القناة الصدرية (٢٠) الأوعية اللنفاوية.

فتبتدئ الدورة بمرور الدم من البطين الأيسر إلى أكبر شريان (الأورطى) ثم إلى فروعه الكبيرة فالصغيرة فالشعرية التى هى أدق أوعية الجسم ووظيفتها تغذية خلايا الجسم وأنسجته ثم يرجع الدم بعد تغذيتها إلى القلب بواسطة الأوردة الصغيرة التى تصب فى وريدين كبيرين يسميان بالوريدين الأجوفين (السفلى والعلوى) وهذان يصبان فى الأذين الأيمن حيث يمر الدم منه إلى البطين الأيمن ثم منه إلى الرئة وذلك بمروره فى الشريان الرئوى وفروعه ثم يصل بعد اصلاحه بواسطة الهواء إلى الوريد الرئوى ومنه إلى الأذين الأيسر ثم البطين أعنى حيث تبتدئ الدورة ، وهناك فرع آخر للدورة يسمى بالدورة الكبدية وهى أن الدم بعد مروره بفروع الأورطى البطنى لتغذية الأعضاء يجتمع فى أوعية وريدية تصب فى وريد أغلظ ولكن بعض الأوردة الآتية من المعدة والأمعاء والطحال والبنكرياس تجتمع وتصب فى وريد واحد يسمى بالوريد الباب الذى يذهب إلى الكبد ويتفرع فيها إلى أوعية شعرية وهى التى يتكون من اتحادها بأوعية الكبد الأصلية الوريد الكبدى الذى يصب فى الوريد الأجوف السفلى .

﴿ كرات الدم فى الأوعية أى العروق ﴾



الدم مكون من سائل شفاف مصلى يسمى (بالبلاسما) سابح فيه كرات صغيرة تسمى بالكرات الدموية وهى نوعان : حمراء وبيضاء . وعدد الحمراء خمسة ملايين عادة فى المليمتر المكعب من الدم والبيضاء من خمسة إلى ثمانية آلاف والحمراء تحتوى على الأكسى هيموجلوبين الذى يحتوى على الاوكسجين . والبيضاء أكبر بكثير من الحمراء ولها أشكال مختلفة (انظر شكل ٢٠) .

(شكل ٢٠)

والدم إذا سال خارج الجسم يتجمد ويكون جلطا دموية مركبة من الكرات الحمراء والبيضاء فى شبكة من ليفية الدم وهذه الجلط مغمورة فى سائل شفاف يسمى بمصل الدم .

﴿ الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية ﴾

الأوعية هى التى تحمل الدم وهى على (ثلاثة أنواع) الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة ، فالشرايين أنابيب مرنة تنقبض وتنبسط بمرور الدم فيها وبذلك يحدث النبض وتنقسم الشرايين إلى شرايين شعرية دقيقة تغذى الجسم بما احتوته من الدم الأحمر وهذا الدم يتحول بعد الغذاء إلى دم أسود اللون يتجمع فيما يسمى (بالأوردة الشعرية) ويمر منها إلى أوردة كبيرة . ولهذه الأوردة الأخيرة صمامات تمنع رجوع الدم إلى الوراء (انظر شكل ٢١) .

(شكل ٢١)

﴿ بيان السمع والبصر والفؤاد بالقول بعد ظهور رسمها بالمنسور الشمسى الذى ظهر فى قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» وقوله « ثم إن علينا بيانه » وقوله « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» وأن هذه الصور المرسومة هى مصداق هذه الآيات ﴾

اعلم أن الفؤاد هو القلب والقلب يطلق على اللحم الصنوبرى المرسوم هنا الموضحة أجزاؤه المنظم . وفى

(أرقام شكل ٢٠)

(١) جدر الشريان (٢) الكرات الدموية الحمراء (٣) الكرات الدموية البيضاء .

(أرقام شكل ٢١)

(١) أوعية شعرية شريانية . (٢) شريان متفرع إلى أوعية شعرية شريانية .

(٣) أوعية شعرية وريدية متصلة لتكوين وريد . (٤) وريد صغير .

الإنسان قوة عظيمة ، فمن حيث تصريفها للبدن تسمى روحا ، ومن حيث إنها تشتهى تسمى نفسا ، ومن حيث إنها تدرك المعانى يقال لها عقل ، ومن حيث إنها تسرى فى بخار الدم السارى فى الجسم الذى ينظمه ذلك اللحم الصنوبرى الشكل يقال له قلب . والفؤاد هنا يراد به العقل . ولما كانت هذه المعانى لها به ارتباط وجب أن أوضح هذا القلب المرسوم أمامك لتعجب من الحكمة والعلم وتدرك من البهجة والبهاء والحسن والإشراق والجمال ما يبهر العقول ويسر أولى الألباب . حدثنى الحارث بن همام قال أخذتنى سنة من النوم أو كأنى بين اليقظة والنام إذا أمامى أرض قفراء واسعة الأطراف مترامية الأكناف لا أنيس بها ولا جليس حتى اليعافير وحتى العيس . فأخذت أتأمل أكنافها وأسرح طرفى فى أرجائها وأقول ما الحكمة فى هذا الخلاء وما المقصد من هذه الأرض القفراء فلا جمال ولا كمال ولا حسن ولا بهاء ولا شجرة خضراء ولا معالم بها يهتدى السائرون ولا مظال يستظل بها الغادون والرائحون . وبينما أنا على هذه الحال إذ رأيت شبحا ظهر كأنه بخار ثم أخذ يلتئم شيئا فشيئا حتى استقام بشرا سويا ورأيت معه بذورا عجيبة مختلفة الألوان والأقدار والصفات قد مزجها بماء وهواء وأنواع من الأرض وسحقها كلها سحقا تاما ثم صارت كهيئة اللبن ثم أخذ ينثر هذه القطرات فى تلك الأرض القفراء . فأولا نثر قطرة ثم اثنتين ثم أربعا ثم ثمانيا ثم ١٦ ثم ٣٢ وهكذا إلى أن وصل عشرات الألوف ومئات الألوف وآلاف الألوف . فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى رأيت الأرض القفراء مجللة بتلك القطرات ولكن وجدتها أخذت تتكاثف بهيئات مختلفة . وعجبت كل العجب إذ رأيت مالا يصفه الواصفون ولا يدركه العاقلون . ذلك أنى رأيت هذه الأرض صارت حقولا وحدائق وجنات ورياضا وهذه الحقول قسمت أصنافا وأنواعا . فمنها حقول القمح وحقول الفول والبرسيم وأنواع الخضر . ومنها ما رأيته حدائق غناء ، ثم الحدائق الغناء رأيتها أسرع من لمح البصر قد قسمت أصنافا وأنواعا . فمنها ماصفت فيها أشجار الفاكهة الزيتية والفاكهة السكرية والفاكهة العطرية والفاكهة الحمضية والفاكهة النشوية والفاكهة المائية كالزيتون والتمر والتفاح والليمون والبرتقال والكمثرى والبطيخ والشمام .

ومن عجب أنها صفوف وصفوف منتظمات لا خطأ فيها ولا خطل . ووجدت الحديقة قد صفت بالنخل الباسقات المصفوفات حولها وقد هبت النسمات وفاءت الأفياء . فصرت أعجب وأقول هذه أرض قفراء وهذا الرجل كان معه حبوب ومواد مائية وأرضية وهوائية فمزجها وأخذ يرميها على قاعدة الحساب (المتوالية الهندسية) فما للحساب وما لهذا النظام ؟ وما الذى جعل كل طائفة فى موضعها . ثم نظرت فوجدت أنواع الرياحين قد صفت لها دوائر (إهليلجية) كدوائر الكواكب الجاريات حول الشمس فعجبت إذ أرى الدائرة ترسم أمامى شيئا فشيئا ولا راسم لها . فأنا أرى الرسم ولا أرى راسمه، فياليت أرضنا على هذا المنوال تنظم وتزرع بساتينها وتنظم حقولها وحدائقها ونحن نجنيها بلا تعب ولا نصب . ثم نظرت فوجدت هذه الرياض نبتت فيها الرياحين مختلفة الألوان (أحمر وأصفر وأزرق وياقوتيا وألماسيا) وأنا فى غاية العجب من أن كل روضة من الرياض مختصة بنوع لا يختلط بسواه . ثم قلت فى نفسى من أين تسق هذه الحقول وهذه الحدائق الغناء، فنظرت إذا آلة بخارية كبيرة منظمة امتدت أنابيبها فى كل حقل وفى كل حديقة وفى كل روضة وتلك الأنابيب كلها ترجع إلى أنبوبتين عظيمتين ممتدتين من تلك الآلة البخارية وجهازها العظيم المنظم البديع وهذه الأنابيب كلما طال امتدادها دقت ورقت حتى صارت كالشعرات عند أطراف الحدائق والبساتين والروضات ثم نظرت إذا قصور شامخات بديعات مزينات بأجمل الصور وفيها المناظير المعظمات وأدوات السمع وهى المسرات المسميات (التليفون) فأخذ منى العجب كل مأخذ وقلت أ أنا فى يقظة أم فى منام لعلى نائم ولعل هذه أضغاث

أحلام . فبينا أنا على هذه الحال إذ تبدى أمامى ذلك الذى كان أوّلا قد بذر تلك القطرات فى الأرض القفراء وهو جميل المحيا بهيج الطلعة حسن الشكل معتدل القوام باسم الثغر ظريف الشمائل حكيم عليم فسلم علىّ وحيانى واخذ يجاذبنى أطراف الحديث من قديم وحديث . ولما أيقن أنى استأنست بمرآه أخذ يسألنى عما يدور بخلدى وما حار فيه لبى فقلت له هذه حدائق وهذه بساتين لازارع لها لامنظم فكيف رأيت فيها مالاتراه العيون ولا تتخيله الظنون . فقال اسمع يا صاح وبلغ الناس عنى . اعلم أن هذه حال تمثل خلق جسم الانسان . فالقطرات التى رميت بها فى الأرض القفراء منظمة العدد على مقتضى (المتوالية الهندسية ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢) وهكذا فهى بيضة الجنين فى الرحم تنقسم على هذا التوال وفى أثناء ذلك عدّها الدم الجارى إلى الرحم من جسم الأم . فالدم بمد البيضات والبيضات تنقسم على هذا التوال ثم هذه الخلايا المتكاثرة تنضم كل جماعة منها من طبع واحد وتتحد بنظام غائب عنكم لا تعرفونه . فمنها ما يصير عظاما . ومنها مايصير عضلات . ومنها مايصير عروقا . ومنها ما يصير حواس وهكذا ، ثم اعلم أن الأجسام على ثلاثة أقسام : مضيئة كالشمس والكواكب والنار والكهرباء فى حال خاصة . ومعتمة كالأجسام الحجرية والطينية . ومنها شفافة كالهواء وكالماء وكالزجاج . وهذه الأجزاء كلها داخلة فى الغذاء مع الدم السارى فى جسم الإنسان وأيضا المادة إما غازية كالهواء وإما صلبة كالحجر وإما سائلة كالماء وهذه الأنواع كلها يحتوى عليها الدم . وإنما اشتمل الدم على هذا كله لتستمد منه الأعضاء المختلفة ما يصلح لها . إنك لما نظرت البساتين والحقول والرياض تنتظم بلا عمل تمنيت أن لو كانت هذه حالكم على وجه الأرض فاعلم أن هذا الإحكام وهذا النظام الجميل الذى رأيته يعقل به أمران (الأول) تمثيل لما يقع عندكم فى كل حين ، فما من نبات أو حيوان أو إنسان إلا وهذه حاله من نظام سريع وشكل بديع منظم ولا عمل لكم فيه (الأمر الثانى) إن الله لو جعل هذه حال مزارعكم أنتم وصناعاتكم لأورث خللا فى نظامكم ولأصبحتم دودا أو حشرات لأنكم لا عمل لكم ولا عقول . وهل تخلق العقول إلا للفكر أو الأيدى إلا للعمل أو الأعين إلا للبصر . فاذا كان كل شىء حاضرا عندكم فما الداعى إذن لأسماعكم وأبصاركم . الأسماع والأبصار والعقول إنما خلقت لكم لتشكروا الله بها ولا معنى للشكر إلا صرف هذه الأعضاء والجوارح فيما خلقت له . فاذا زرع الله لكم نخيلكم وبساتينكم وقطنكم وقمحكم وشعيركم وصل فى حقولكم وجناتكم ما فعله فى داخل أجسامكم من خلق الأعضاء وترتيبها ونظامها بلا عمل منكم ولاعلم فمعناه أنه أهملكم إهمالا كليا وقطع عنكم مدده . قال الحارث بن همام . هل لهذا ما يستأنس به من القرآن . قال نعم . انظر إلى أهل مكة طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى فى السماء وهكذا فقال لهم هل كنت أنا إلا بشرا رسولا فما هو إلا رسول لأمم تتعلم وتعمل لا أنها يؤتى لها بالمعجزات بل عمل . قال الحارث بن همام : فما سمعت ذلك منه . قلت له فماذا تقصد من هذه الروضات والحدائق المختلفات . فقال الأعضاء المختلفات فى الجسم . فقلت له وماذا تقصد (بالمسرّة) التلفون أى آلة السمع وماذا تقصد بالمناظر المعظمة وماذا تقصد بهذه الأنابيب الممتدة . فقال هذا هو تفسير آية « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » . ألا ترى أن الأذن فى الرسم الذى أمامك عبارة عن عظمات صلبة متينة قوية وضعت وراء طبلة والطبلة أمامها فتحة والفتحة انتهت بالأذن البارزة خارجا وهذه العظمات المسميات بالمطرقة والسندان والركاب لها رنين خفى وهذا الرنين ينتقل إلى ما وراءها ويصل إلى الدماغ فيعلم ما يقال له . فلماذا وضعت هذه العظمات فى هذا المكان . ولماذا اتجهت إلى جهتى الرأس . ولماذا جعلت بنظام وحساب بحيث لو صغرت أو كبرت أو لم تكن فى موضعها أو زحزحت قيد شعرة واحدة لم يمكن السمع . فهذا هو معنى المثل الذى مثل به آلة السمع . وأما المناظر المعظمة

فى القصر فلم أرد بها إلا أن أمثل لك البصر . ذكرت لك أن المواد منها الجامدة ومنها السائلة الخ ومنها الشفافة وهكذا .

أليس من العجب أننا رأينا البيضة فى رحم المرأة أخذت تنقسم على طريق المتوالية الهندسية وفى الوقت نفسه حصل حساب ونظام فى الوضع . الشمس والقمر والكواكب مضيئات أشرق منها النور على الجوّ ووصل إلى الإنسان فكانت طبقات العين المنظمات البديعات الجميلات شفافات كما أن الهواء شفاف . فما هذا الحساب الذى خص حجاج العين بتلك المواد الشفافة . ولم جعل الشفاف فى موضع العين وجعل الصلب فى موضع الأذن . هذا يوجب الشكر ولن يكون الشكر إلا بالمعرفة لأن من لايعرف حق النعمة لا يشكرها ولايحب المحسن لأن المحسن لايشكر إلا إذا عرف قدر إحسانه وهل يعرف إحسانه إلا بالدراسة . هذا هو السبب فى قوله تعالى « قليلا ما تشكرون » .

ثم قال الطيف للحارث بن همام : وأما الذى أقصده بالأنابيب الممتدة فى الحديقة فهو القلب الذى رسم أمامك فإنك تراه مقسما أربع أقسام ؛ فالبطين الأيسر الذى أمامك فى الرسم قد خرج منه (الأورطى) وقد تفرع فرعين والفرعان تفرعا فروعا كثيرة ، ولما تغذى الجسم بالدم رجع ثانيا بواسطة الأوردة إلى القلب إلى آخر ما هو مشروح فاقرأه . ثم قال هذا الطيف للحارث بن همام : انظر هذه الأعضاء الثلاثة (السمع والبصر والقلب) واعجب من تركيبها المنظم وعملها المتقن . فالقلب جعلت بنيته بأجهزة تقبل التمدد قوية متينة لمناسبة عملها ، والأذن جعلت أجهزتها تناسب الصوت والعين أجهزتها تناسب الهواء الشفاف . فهل يعرف ذلك من الناس إلا قليل . هذا معنى « قليلا ما تشكرون » .

قال : فقلت للطيف هل الجهل بهذا يضر المسلمين فى حياتهم الدنيا أم الضرر اللاحق بهم يرجع إلى جهلهم بنعم ربهم ؟ قال الضرر اللاحق بالمسلمين يرجع لهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى معا . فأما الضرر الأخروى فإن الرجل القادر على فهم علم التشريح مثلا وقد غفل عنه وتركه هو وأمثاله من عجائب صنع الله فهذا قد أعرض عن آيات الله والمعرض عن آيات الله مقصر فكان خيرا له أن يملأ قلبه حكمة وعلما وأيضا هذه علوم من فروض الكفايات والأمة كلها تعذب بترك فروض الكفايات . فقلت للطيف فاذكر لى مثلا مما أضر المسلمين بسبب جهل هذه العلوم حتى يظهر معنى « قليلا ما تشكرون » وإذن تكون قلة الشكر صارت سببا فى العذاب فى الدنيا . قال إن الدنيا كلها اليوم قد عمها العلم والمسلمون نائمون وأضرب لك مثلا فأقول إن الناس قد أظهروا علوم جسم الإنسان بطريق الصور المتحركة (السينما) فالسينما الآن قد أظهرت أحشاء الإنسان وأعضاءه الظاهرة والباطنة . ولقد ظهر للعيان الآن فى الشرق والغرب كيف يربى الجنين فى بطن أمه . أنا مثلت لك ذلك مثالا بالحدائق والجنات ولكن الناس الآن أصبحوا يرون نموّ الطفل فى بطن أمه وتدرجه وكيف تكون البيضة فى الرحم واحدة فتنقسم اثنتين وتتضاعف ولا تزال ينمو حتى تتم أعضاؤه . كل ذلك يرونه بالصور المتحركة فى بضع دقائق ويكمل الجنين . وفوق ذلك يرون بتلك الصور نمو الأمراض كالزهرى . ألم تر أنك أنت فى ليلة الجمعة ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨ قد شاهدت بنفسك تكوين الجنين وكيف تنمو حيوانات المرض المسمى بالزهرى وكيف يلتهب الجسم مرضا ويمتلئ حبوبا وقروحا ويسودّ الجلد وتتناثر الأعضاء . وهذه الحشرات المتكاثرات تنمو كما ينمو الجنين ويظهر فى الرجل وفى المرأة وفى طفلهما الذى تربى فى رحم المرأة المريضة بهذا الداء . وقد يولد الطفل أعمى مقرح الوجه والجسم . كل ذلك أنت شاهدته وهذه المشاهدة أبلغ من المثل الذى ضربته لك وإنما أبنت لك هذا لتعلم أن الله عز وجل لم يكن غافلا عن الخلق لأنه خلق الأعضاء والسمع والبصر والجسم النافع . فإذا عرف الإنسان قواه

الشهوات التي جعلت مقدمة للمنافع وغفل عن المقاصد شوه الله هذه الأعضاء. وجعل الذنب على قدر المرض « جزاء وفاقا » فقلت للطيف ما معنى هذا ؟ فقال معنى هذا أن الشهوة البهيمية في الإنسان تأخذ بمجامع قلبه وهي ألذ شيء عنده وهي لم تجعل فيه إلا لأجل الذرية . فإذا جعلها مقصودة لذاتها سلط عليه أمراض الزهري وغيرها فشوهت نفس الأعضاء وجعلته منبوذا محقورا فهو قصد أن يكون دائما فاسقا معتزا بصولة قوته وجماله فقال له : كلا . أعضاؤك أشوهها وجمالك أذهبه وأجعلك بهيئة منفرة بحيث إذا قرب منك أحد يقول له الناس (لامساس) لأنهم إذا مسوك أصيبوا بمرضك كالسامري الذي عبد العجل . فهذا الذي عبد شهوته أصيب بالحقارة فهو يريد الشهوة والتمتع لذاتهما والشهوة البهيمية مع النساء فقيل له كل من قرب منك يصاب بمرضك فاعتزل فأنت محقور منبوذ . هذا في عذاب الفرد من نوع الإنسان على ترك الشكر وقلته في قوله تعالى هنا « قليلا ما تشكرون » أما عذاب الأمة فهاك مثلا لذلك . أما قرأت ما جاء في خطبة (السر صموئيل هور) في الجمعية الجغرافية الملكية المذكور في التلغرافات العامة الواردة إلى مصر بتاريخ (٢٦) أكتوبر سنة ١٩٢٨ إذ قال ما يأتي :

[إن اختراع الطيران أوجد مشكلة خطيرة في الامبراطورية البريطانية ، فقد دخلنا الحرب العظمى كدولة تقطن في جزيرة آمنة من المهاجمة وخرجنا من تلك الحرب ظافرين ولكن باتت عاصمتنا بسبب اختراع الطيران مستهدفة للمهاجمة من الخارج أكثر من أية عاصمة أخرى من عواصم غربي أوروبا وقد اضطررنا وسنظل مضطرين سنة فسنة إلى بذل مجهوداتنا العقلية وأموالنا لانشاء قوات جوية كافية لصد هجمات أي عدو يخطر له أن يغير على بلادنا . ويسرني بأن أقول إننا قبل خمس سنوات لم يكن لدينا من قوات الطيران للدفاع عن البلاد ما يستحق الذكر . أما الآن فلدينا ثلاثون سربا من طيارات الدفاع وهي التي أنجزت حتى الآن من الاثنين والخمسين سربا التي تقرر إنشاؤها . ثم إن الطيران قد أضاف عبئا جديدا على عاتق دافعي الضرائب البريطانيين . وبابا للنفقة على التسلح في العصر الذي كنا نود فيه تخفيف أعباء التسلح في جميع العالم فكيف يتسنى لنا أن ننال فائدة من الطيران لقاء هذه النفقات الجديدة . وقد دلني اختبار خمس سنين قضيتها في هذه الوزارة ، على أن الطريقة الوحيدة التي يتسنى بها تعويض هذه النفقات هي استخدام قوات الطيران استخداما يؤدي إلى الاقتصاد في نفقات الدفاع عن الامبراطورية وتحسين المواصلات والموارد في أجزائها المتفرقة . وقد تبين لنا أن هناك مناطق معلومة للدفاع الامبراطوري يتسنى للطيارات أن تقوم فيها مقام القوات الحربية القديمة لا أن تكون إضافية إليها . وأهم شاهد على صحة هذه السياسة هو (العراق) حيث استطعنا أن نخفض قوات الحامية التي كانت في سنة ١٩٢١ ثلاثة وثلاثين أورطة من جنود الامبراطورية تكلفنا أكثر من عشرين مليونا من الجنيهات سنويا إلى خمسة أسراب من سلاح الطيران الملكي ولم يبق ولا أورطة واحدة من الجيش الامبراطوري لمساعدة قوات الطيران وكل ما ينفق الآن على هذه الأسراب هو دون مليوني جنيه في العام ، وسرب واحد من الطيارات كان كافيا لارغام إمام اليمن الذي ظل عدة سنين يهاجم (عدن) على الاقلاع عنها وأطلق سراح بعض مشايخ مصادقين لبريطانيا كان قد اختطفهم ، وكذلك كان للطيران فضل عظيم في تهدئة رجال الدين في بلاد الصومال وعلى حدود الهند الغربية وكانت أعمالها خالية من القتل وسفك الدماء تقريبا في كلا الجانبين . وقد أخضعت الطيارات عدة قبائل كان إخضاعها قبل اختراع الطيران مستحيلا] اهـ .

هذه هي خطبة (السر صموئيل هور) . أفلست ترى أن المسلمين الآن في (العراق) و (اليمن) هم محل

التجربة والقتل . أليس هذا الذل الذى حل بالمسلمين لجهلهم؟ نعم هذه الدنيا وعلومها والأمم كلها اغترفت من نعم الله وهم لم يغترفوا . أليس هذا تفسيرا لقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » فهل يسوى الله بين من علموا علم الطيران فى الجو ومن جهلوه . ألم يكن هذا العذاب الذى حل بالمسلمين الذين ضرب بهم المثل (السر صموئيل) كالعذاب الذى حل بالرجل والمرأة اللذين أصابهما داء الزهرى فشوه جسمهما وأعمى أولادهما . ألست ترى أن هذا الجيل من أمة الإسلام إذا لم يتعلم فترك ذريته جهلاء فأصابتهم نار الطيارات كما أصابت اليمن يكون هذا الجيل أشبه بالرجل المشوه الجسم بالزهرى الذى خلف ذرية أصيبت مثله بالزهرى لأن الأب والأم لما جهلا نعمة الصحة والحياة وضرفاها فى لذاتهما وفسوقهما عاقبهما الله ونقل المرض إلى نسلهما كما قال تعالى فى قوم نوح « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » فهكذا هذا الجيل من الأمم الإسلامية إذا فرط فى معرفة العلوم فلم يدرس جمال الله وحكمته فان عدوى الجهالة تنتقل إلى ذريته حالا ويكون الأبناء كالآباء جهالة . إذن لا فرق بين الرجل المصاب بالزهرى مع ذريته الذين يصابون بمرضه وبين الجيل الجاهل الذى يجهل نعمة ولا يدركها ولا ينتفع بها فيورث الأجيال الآتية جهالته ويكون مثلا للشر وسوء الملكة والجهل العظيم . قال الحارث بن همام : فقلت للطيف إن هذا التشبيه قاس شديد الوقع . فقال هذا حق والحق أحق أن يتبع . إن العرب القدماء هم الذين عمموا العلم فى العالم وهم آباء أهل اليمن والحجاز والعراق ومصر وسكان شمال أفريقيا والسودان والصحراء الكبرى . فآباء هؤلاء هم الذين نقل عنهم العلم أهل أوروبا فقد استفاد اللاتينيون المعلومات من العرب أى آباء هؤلاء الذين يضربون بالطيارات .

(١) فان (جوبرت) الذى كان بابا رومة الملقب (بسلوستر الثانى) أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب أسبانيا .

(٢) واهيلارد الانكليزى ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من أسبانيا ووادى مصر وترجم مبادىء اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية .

(٣) وترجم أفلاطون المنسوب (لطينوليا) وهى مدينة قرب (روسيا) من العربية الرياضيات الكروية المنسوبة إلى (تيودوز) كما أن الأستاذ (رودلف) أحد أهالى (بروجس البلجيقية) ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية مبسوطة على خريطة وهكذا الخ (انظر ماتقدم فى سورة إبراهيم فهذا المقام هناك واضح) .

ثم قال الطيف : فهؤلاء الانجليز لم يتعلموا الهندسة إلا فى القرن الثانى عشر من أهل مصر والأندلس فليس بدعا إذا جاءوا فى القرن العشرين أى بعد تعلمهم بنحو تسع قرون وضربوا أبناء أساتذتهم فى العراق واليمن وغيرها بالطيارات فان الله خلق الناس كلهم جسما واحدا كجسم الإنسان ، والانسان رأيناه إذا أهمل أعضاءه وفرط فيها وشغلها باللذات عاقبه بادخال حيوانات تشوه خلقته وتجعله ذليلا محقورا . فهل يكون بدعا إذا سلط هؤلاء الفرنجة على المسلمين لما أصبحوا جاهلين بنعم الله وبالعلوم ، ويكون مثل القنابل الملقاة من الطيارات على أولئك العرب الآمنين أشبه بحيوانات المرض الزهرى التى تنتشر فى الجسم بعد انهماكه فى الشهوات . فهنا ترك العرب وأبناء الإسلام العلوم النافعة (وبعبارة أخرى) تركوا مواهب العقول ومواهب النعم فى هذا العالم فسلطت عليهم الطيارات .

ولا جرم أن العقل أرقى من عضو التناسل . فعضو التناسل لما فسق أصيب نفس العضو بمرض الزهرى فابتعد الناس عنه ولكن العقل الذى هو أرقى وأعظم لما عطله المسلم فلم يشغله بالعلوم كان العقاب أشد فبدل

أن يكون المرض بثورا وقروحا أصبح المرض نارا تنزل من الطيارات تهلك الحرث والنسل «جزاء وفاقا» لما كانوا يجهلون . فعقاب الله الناس على ترك عقولهم بالمهلكات لمدنهم وأجسامهم أشد من عقابه لهم بالزهرى على استعمال أعضاء تناسلهم فى غير ماوضعت له . ولما كان العقل يعم أثره البلاد والعباد كان العقاب المرتب على إغفاله يعم البلاد والعباد ولما كانت أعضاء التناسل جعلت للذرية وقد استعملت فى اللذات لذاتها شوهت أجسام الآباء وأجسام الأبناء «جزاء وفاقا - إنا كل شىء خلقناه بقدر» هذا بعض سر قوله تعالى «وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون» .

﴿ تذكرتان : التذكرة الأولى ﴾

اعلم أنه لافرق بين تلك النيران المقذوفة من طيارات الانجليز على اليمن والعراق وغيرهما وبين تلك الحيوانات الذرية (المكروبات) فى داء الزهرى الذى يعيش فى أجسام أرباب الشهوات القبح لأجسامهم ولكل من يصاحبهم ويلامسهم ، فأهل أوروبا الذين تعلموا من آبائنا العرب كما قدمناه هنا هم أنفسهم يقذفون النار على إخواننا وعلينا من طياراتهم ، فكما حذقوا بعلم العرب القدماء تغذت الحيوانات الذرية من دم الفساق فى الداء الزهرى . وكما أن هؤلاء الأوروبيين المتعلمين عن آبائنا قذفونا بالنار احتقارا لشأننا فشوهوا الأجسام وأهلكوا الحرث والنسل وهدموا الدور والقصور . هكذا نرى تلك الحيوانات الذرية فى داء الزهرى شوهت محاسن أولئك الفساق . فحيوانات الزهرى من أجسامهم تغذت وبجمالهم قبحت ولأعضاء تناسلهم مزقت ولمحاسن وجوههم شوهت كذلك هؤلاء الأوربيون لعلوم آبائنا نقلوا ولأجسام أبنائهم شوهوا ولدورهم خربوا ، وكما أن الفساق لما عطلوا مواهبهم وأناموا قواهم وعكفوا على عبادة شهواتهم وتركوا نعم الله فى سمائه وأرضه أصابهم بحيوان يخلقه فى أجسامهم ويغذيه من لحومهم ويسقيه من دمائهم ويقول لهم أيها الناس خير لكم أن تكونوا مرعى لأسفل الحيوان ومأكلا لأدنى المخلوقات . كنت اصطفيتكم لعبادتى وخلقتكم وأعددتكم لادراك نظامى فقعدتم عن المعالى فأنزلتكم إلى أسفل سافلين «جزاء وفاقا» فالغنم بالغرم والجزاء على مقدار الذنب . هكذا أنتم أيها المسلمون قلت لكم «كنتم خير أمة أخرجت للناس» وأرسلت لكم خير الأنبياء وهو آخرهم وفتحت لكم البلاد فغفلتم عن العلوم وجهلتم المنطوق والمفهوم ولم تعقلوا مابأرضكم من كنوز ولا ما فى سمائكم من جمال ولا ما لديكم من نبات وجماد وحيوان تغضبت عليكم غضبة لن أرجع عنها إلا بايقاظكم فأرسلت لكم أمما تعلمت علوم آبائكم وقلت لها خربى دورهم وهدمى مساكنهم وشوهى محاسنهم حتى يستيقظوا ويدرسوا . فوعزتى وجلالى لايسكن أرضى بعد اليوم بعزة إلا المفكرون ولا يعيش فيها بهناء إلا العاقلون «ولتعلمن نبأه بعد حين» .

﴿ فصل ﴾

ألم يعلم أبناء العرب خصوصا والمسلمون عموما أن بلاد العراق وبلاد اليمن كانت لها مدنية عظيمة وكان فى الأولى مدنية الآشوريين والبابليين ذوى العلم والحكمة والملك العظيم أيام الجاهلية . وكان فى أيام الاسلام لهم ملك دولة العباسيين تلك الدولة التى ملكت أعظم الممالك فكان له ملك فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وهى التى دوخت أمما وأزالت عروشا . وكان للثانية وهى اليمن فى الجاهلية عرش عظيم وذكرت لها سورة فى القرآن سميت باسم (سبأ) فيها سد العرم وفيها بلدة طيبة ولها رب غفور . فهاتان الأمتان العراقية واليمنية هذه سيرتهما وممالكهما ، فهل فعل الله بهما ذلك فى الإسلام ويقلب لها ظهر المجن إلا لما اتصف به رجال الأمتين هم وأكثر المسلمين من الجهل والاعراض عن آيات الله وشوهت محاسن دورهم وقصورهم وقتلت رجالهم بالطيارات كما شوهت أجسام الفساق بمرض الزهرى . اللهم إنك أنت المعلم وللهم الحكيم العليم . لك الحمد على نعمة العلم . شوهت محاسن الفساق بمرض الزهرى ومحاسن هذه الأمم

الإسلامية بالمقذوفات من الطيارات لأن القبيلين غفلا عن نعم الله فى أنفسهما فعوقبا ولكن لله رحمة عامة على الأمم وعلى الأفراد . اللهم إنك رحيم وإنك حكيم . أنت القائل فى كتابك « ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . إن فسوق الأفراد بالشهوات البهيمية عقابه الزهرى وفسوق الأمم بالغباوة عقابه المدافع والطيارات . وأنت قلت فى الكتاب بعد تلك الآيات « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها » مريدا بذلك فتح الباب للمغفرة والرحمة الشاملة للأمم وللأفراد . أما رحمتك يا الله للفساق من الأفراد فهى ظاهرة واضحة اليوم فإن طبيبا أوروبيا كان له تلميذ يابانى فى زماننا قد عملا تجارب بلغت (٦٠٦) وهذه التجارب جعلوها العقاقير وأدوية ركبوها وأخذوا يجربونها واحدا بعد الآخر لشفاء مرض الزهرى فلم يتهيأ لهما ذلك إلا بعد (٦٠٦) تجربة . فأطلقوا على الدواء ذلك الاسم وشفى به قوم ولم يشف آخرون . فهل هناك دواء للأمم الإسلامية التى حادت عن جادة الصراط المستقيم كدواء (٦٠٦) الحمد لله نعم ولعل هذا التفسير وأمثاله الذى هو مزيج مركب من علوم قديمة شرقية ومن علوم أوروبية عصرية مع الآيات القرآنية هو وأمثاله دواء الأمم الإسلامية فى هذه الأيام . فكما ركب دواء (٦٠٦) للزهرى بمعرفة طبيب شرقى وطبيب غربى هكذا هنا صار الدواء مركبا من علوم شرقية وعلوم غربية وزاد دواؤنا الآيات القرآنية ، والله يقول « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » ويقول « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

﴿ التذكرة الثانية ﴾

لما اطلع على هذا بعض الأصدقاء من العلماء . قال أن جل قوله تعالى « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » ، تكون هذه الانذارات للمسلمين بالزهرى والطيارات . قلت نعم ألم يقل الله تعالى « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . فقال وهل المسلمون جحدوا بآيات الله . قلت الإعراض عن النعم فيه معنى الجحود ومعنى الاستهزاء عملا . نعم لا مسلم فى الأرض يجحد هذه النعم ولكنه من جهة أخرى أشبه بمن كفر النعمة ومن كفر النعمة لم يقبلها ومن لم يقبل النعمة لايعقلها ومن لا يعقلها لا يشكرها وما الشكر إلا صرفها فيما خلقت له فإذا لم تصرف فيما خلقت له من العلوم والصناعات سببت الذل وذلك قوله تعالى « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ولست أقصد أن هذا هو معنى الآية نصا بل أقصد أنه يراد به الاعتبار وكأنه كناية والكناية لفظ لا يمنع المعنى الأصلى ويقصد منه المعنى العارض فقال : هذا حسن .

﴿ الجوهرة الرابعة : فى قوله تعالى « والوزن يومئذ الحق » فى الأعراف المناسب لما هنا « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » مع قوله تعالى فى سورة الأنبياء « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ﴾

لما كتبت هذا العنوان حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال ماذا تريد أن تكتب هنا بعدما كتبت فى سور كثيرة عجائب العدد والوزن والنظام الخ وهل هذا إلا تكرار ؟ فقلت له لا تعجل ولا تحملنى أن أقول لك « إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » . قال يا عجبا . أنا لم أسمع منك هذا الاقتباس إلا الآن فعسى أن يكون هنا كنز عثرت عليه حتى اقتبست الآية من قصة موسى والخضر عليهما السلام . قلت نعم هنا كنز الكنوز وسر الأسرار وعلم الحكماء

قد خبأه الله فى هذا الزمان ليبرزه للأجيال المقبلة فى هذه الآيات . علم نفيس شريف لم يظهره الله إلا للأمم الحالية تشريفا للأمم الإسلامية . ومتى اطلع عليه أبناؤنا طاروا فرحا وشوقا إلى العلوم واستيقظوا من رقدتهم وقاموا من نومتهم وسيكون لقراء هذا التفسير نهضة لم ينلها قبلهم أحد من العالمين . فقال :

أسرع برد جواب ما أنا باحث　　　عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت ألم تسمع قوله تعالى « والوزن يومئذ الحق » فلم ذكر الله لفظ الحق هنا . قال هذه عادة القرآن والله يسمى الحق وأعماله كلها حق . فهذه ليست تحتاج إلى علم ولا حكمة . فقلت هذه الإجابة منك تدلنى أنك تنظر لهذا القرآن ولهذه الدنيا نظرة بغير عناية . إن لفظ الحق هنا لها معنى لا يتم إلا بعلوم كثيرة سأظهرها لك الآن . علم الله قبل أن ينزل القرآن أن بعض الناس لا يهتم فلفظة مثل هذه يجعلها أمرا عاديا فأشار إلى دفع هذا بقوله بعد آيات « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » فعادة الناس أن يظنوا أن مثل هذه الكلمة جاءت عفوا لا معنى يخصها وهذا لعدم التدبر والفطنة كما لا يتدبر أكثر الناس فى أعضائهم وحواسهم وتركيبها العجيب . فقال إنها لفظة مفهومة بذاتها لا تحتاج إلى شرح : قلت لا وأزيدك على ذلك أن قوله تعالى بعد آيات « فتعالى الله الملك الحق » يعطى هذه الكلمة صبغة خاصة ، ألا ترى رعاك الله أنه كما أن الملك قسمان : قسم هو حق لا يموت ولا يفوته شيء ولا ينازعه أحد ولا ولد له يرثه ولا أخ ولا شريك ولا ضعف يعتريه . وقسم هو باطل لأنه يمرض ويموت ويشاركه سواه ويحاربه ويغلبه الغالبون ويعزلونه الخ ، فهذه المعانى وأمثالها تؤخذ من قوله تعالى « فتعالى الله الملك الحق » وإنما تعالى لأن الملك الباطل وهم ملوك الأرض قاطبة لا يتعالون بل هم فى الحضيض . قال هذا حسن ثم ماذا ؟ قلت إذا صح هذا فى قوله تعالى « فتعالى الله الملك الحق » فإنه يصح نظيره فى قوله «والوزن يومئذ الحق » فقال إن هذه الجملة حاصرة فكأن الدنيا لاوزن فيها بحق وليس هناك حق فى الوزن إلا يوم القيامة وهذا غير معقول فإن فى الدنيا من الوزن ما هو حق ومنه ما هو باطل، فقياسك الحق الأول على الحق الثانى قياس مع الفارق . فقلت كلا . إن وزن الدنيا كله ليس محققا ولا وزن مع التحقيق إلا عند الله تعالى وهذا الحكم مستحيل أن يعرفه الناس إلا بعلم الفلك والطبيعة ، فقال أريد أولا أن أعرف الوزن فى هذه الحياة الدنيا ثم بعد ذلك أعرف كيف يكون غير حق بحيث يكون ذلك مبرهنا عليه فإنى ما سمعت أن موازين الأمم كلها ناقصة غير تامة إلا منك ، فقلت : الجواب عن الأول . اعلم أن أصل الموازين الجاذبية التى جعلها الله من صفات المادة كما قال تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » فهذا الامساك هو المسمى جاذبية فكل حجر أو شجر منجذب إلى الأرض ولولا تلك الجاذبية لأصبحنا جميعا بعيدا عن هذه الأرض وبهذه الجاذبية يكون :

(١) الحجر ينزل من أعلى إلى أسفل بقانون فينزل فى (باريس) فى الثانية الأولى (٩ر٤) أربعة أمتار وتسعا من عشر أى وتسع دسيات ، وفى مصر أقل ضرورة لقربها من خط الاستواء ولا يجوز التطويل فى هذا لأنه مشروح شرحا تاما فى أول سورة (آل عمران) فارجع إليه هناك .

(٢) إذا كان جسمان خفيفان يقتربان من بعضهما على وجه الماء كالفلين مثلا فإن المسافة إذا كانت بينهما مترا مثلا كانت السرعة بينهما أكثر منها والمسافة بينهما متران بمقدار أربعة أمتار أى على حسب عكس المربع إذ مربع المتر الواحد متر واحد وإذا كان بينهما متران كانت السرعة بعكس المربع فأعطى تربيع الثانى للأول وتربيع الأول للثانى وقس عليه ما إذا كان بينهما ثلاثة أمتار وهكذا .

(٣) البندول وهو عبارة عن خيط أو حبل أو معدن طويل فى آخره قطعة من الرصاص أو غيره تعلق فى مكان بشروط مخصوصة ويترك يذهب ويجىء من نفسه متذبذبا مضطربا فان هذا له حركات منظمة فى أوقات معينة .

(ا) فإذا نظرنا إلى بندولين يتحركان فى مكان واحد نجد زمان حركاتهما واحدا إذا كانا متساويين فان اختلفا كانت ذبذبتهما على حسب جذر طولهما فإذا كان أحدهما طوله ٤ والآخر ٩ تذبذب الأول فى (٢) والثانى فى (٣) والمعنى أن الحركات المتساوية عددا تخمسة مثلا تقع من الأول فى (٢ من ٣) من الثانى .

(ب) وإذا أخذنا بندولا واحدا فى أماكن مختلفة كانت سرعته على حسب عكس الجذر التربيعى لشدة الثقل إذ معلوم أن الثقل يكون أكثر كلما قربنا من القطبين وأقل كلما قربنا من خط الاستواء . فاذا كان البندول فى النوبة قوة ثقله (١) وفى بلاد الروسيا قوته فى الثقل (٤) تحرك فى الأولى حركات مضروبة فى (٢) الذى هو الجذر التربيعى لأربعة وتحرك فى الثانية تلك الحركات بعينها مضروبة فى (١) الذى هو الجذر التربيعى لواحد . والنتيجة أن البندول الواحد فى الأماكن المختلفة تكون سرعته على حسب عكس الجذر التربيعى لشدة الثقل ، وبعبارة أخرى يكون فى الجهات القطبية وما والاها لشدة ثقله مناسباً للجذر التربيعى فى الجهات الاستوائية وهكذا بالعكس .

(٤) ثم انظر إلى الموازين التى يزن بها نوع الإنسان أمتعته فانها تابعة للميزان العمومى وهذا وضح فى كتابى [ميزان الجواهر] وكتابى [نظام العالم والأمم] . وملخص ذلك أن لكل ميزان من موازين (القبان) جهتين جهة صغرى تسمى (ذراع القوة) وجهة كبرى تسمى (ذراع المقاومة) وعلاقة فى الوسط فيها لسان دال على الاعتدال وعلى ضده . وإذا تساوى ذراع القوة وذراع المقاومة كان الرطل الموزون يعادل رطلا نظيره من حديد مثلا موضوع فى الكفة الثانية وهذا متداول بين صغار الباعة . فأما إذا طالت إحدى الجهتين وقصرت الأخرى كميزان القبان المذكور فان القوة (التى هى عبارة عن الشىء الموزون كالقطن مثلا ، والمقاومة التى هى عبارة عما يعادله من المعدن) لهما قانون خاص . ذلك أن المقاومة دائما عكس ذراعها فإذا كان ذراعها قدر ذراع القوة عشر مرات كانت هى أقل من القوة عشر مرات . وإن كان ذراعها أكبر مائة مرة كانت أقل من القوة مائة مرة . فاذا كانت هى عشرة أرطال كانت القوة ألف رطل وهكذا . فانظر كيف أمكن الإنسان وزن أشياء كثيرة بمعادل قليل مع ناموس حق لا يتغير .

فهذه المسائل نظر فيها إلى اعتبار طول الروافع ومربع المسافة فى الحجر النازل وعكس المربع فى الجسمين المتجاذبين والجذر فى البنادل المختلفة فى المكان الواحد وعكس الجذر فى البندول الواحد فى الأماكن المختلفة هكذا :

(١) الطول (٢) المربع (٣) عكس المربع (٤) الجذر (٥) عكس الجذر

هذا هو الحال فى أرضنا . هذا هو الميزان فى دنيانا التى نعيش فيها .

﴿ جهل أكثر الناس ﴾

الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يفكرون أما الجهلة فلا يعقلون من هذا شيئا وأما الذين درسوا هذه العلوم فان أكثرهم يمرون على هذا وهم لا يذكرون وإنما ينظرون إليها نظر الزارع لزرعه والموظف لمرتبه الذى يتقاضاه من صاحب العمل وهناك مستبصرون فى النوع الانسانى وهم فى الأرض قليل . خلقهم الله

وبينهم مع قلبهم فى الأقطار ليبينوا للناس هذا الجمال وليقولوا لهم أيها الناس إذا كان البندول فى الساعة يعرفكم زمانها والقبان يعرفكم مقدار المبيع لتبادل المنافع فما ذلك إلا متاع لأجسامكم . أما عقولكم فغذاؤها هو هذا الجمال . والتأمل فى وضع هذا الوجود وكيف ظهر الجمال فيه والميزان والعدل وتبدى لعقولكم جمال الوضع والاتقان فاعتبرت جميع الأوضاع من طول ومربع وعكسه وجذر وعكسه دلالة على حكمة بالغة وآية باهرة ظاهرة وأن هذا العقل الإنسانى الذى أدرك هذ أجمل وأجمل وأبدع وأبدع، لأنه فرح بهذه المعانى المخبوءة فى المادة حين اقتنصها منها . فهذا الاقتناص دلالة على أن القنيصة غذاء المقتنص وأن هذا الجوهر العقلى الذى هو سرّ الانسانية مناسب لتلك الأسرار فى الطبيعة . هذه الموازين والأسرار المخبوءة فى الطبيعة إنما هى مما يليق للعقل لأنها لطيفة وهو لطيف فتجاذب اللطيفان وتعانق الجميلان . إن العقل المخبوء فى الإنسان هو الذى غاص على هذه الجواهر فى المادة ليتحلى بها، فخلاصة الإنسان وهو العقل غذاؤه خلاصة الطبيعة وسرها وهى القوانين؛ كما أن جرم المادة غذاء لجرم الإنسان فالمادة للمادة والمعنى للمعنى . إن اختفاء معانى المادّة واحتجابها وجمالها وعدم ظهورها إلا للعقل وحده تارة وللغريزة بعض الحيونات تارة أخرى دليل على أن هناك (عالمين) عالما لطيفا روحيا وعالما كثيفا مادّيا وأن العالم الكثيف المادّى أشبه باللوح الذى يقرأ فيه العالم اللطيف المادّى علومه . إن الدنيا كلها لوح لنفس كلية مشرقة على هذا العالم . تلك النفس تنوّعت فى الأحياء كما تنوّعت المادة إلى صور وأشكال تنوّعت المادّة وتنوّعت العقول والغرائز وربك على كل شىء حفيظ .

(٥) المسألة الخامسة وهى ارتفاع الجو . يرتفع الجو عن سطح الأرض (٤٨٠٠٠) متر وحرارة الطبقات الجوّية تنقص درجة فى كل (١٥٠) مترا أو (٢٠٠) مترا من الارتفاع لغاية (٧٠٠٠) متر تقريبا . ويظن أن التناقص بعد هذا الارتفاع أقل من ذلك وأن الطبقات الأخيرة ذات حرارة لا تنخفض عن ستين درجة . وثقل الجوّ يزن عمودا من الزئبق ارتفاعه (٧٦) سنتيمترا أو عمود من الماء ارتفاعه ١٠٫٣٣٤ مترا فالضغط الكلى على سطح الأرض يعادل ثقل عمود من الماء قاعدته سطح الأرض وارتفاعه (١٠٫٣٣٤) مترا وهذا يعادل ثقل (٥٨٥٠٠٠) مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلو متر واحد . فهذا من الموازين التى وضعها الله فى الأرض ليزن بها هذا الوجود وإنما قلنا إنه من الموازين لأن الشمس إذا أرسلت أشعتها إلى أرضنا وهى تحت الأفق صباحا ومساء أو فوقه نهارا فان هذا الضوء إنما يتفرق عليها بنسبة محفوظة بواسطة الهواء فى جميع الجهات وهذا يسمى الضوء المنتشر أو المتفرق . فلو فرضنا أنه لم يكن هناك هواء فوق أرضنا فانه لايتم شئ فى هذا الوجود فلا نبات ولا حيوان ولا ماء لأن الماء لا يكون إلا بمجرى الرياح وهذه تحمل السحاب وهنا لا هواء فلا سحاب وأيضا لا يستضىء من الأرض إلا الجزء المقابل للشمس وحده وما عداه لا يصل له الضوء وكيف يصل له وهو إنما يأتى له بواسطة الهواء الذى ينشر الأشعة المنعكسة من المادة الأرضية وهنا لاهواء فلا انتشار لتلك الأشعة المنعكسة. ثم إننا الآن نرى لون السماء الزرقة وهذه الزرقة لون الهواء نفسه لأن سمكه العظيم الذى يبلغ عشرات آلاف الأمتار هذا شأنه كلون ماء البحر العميق . فهذا اللون إذا لم يكن هواء لا يكون وإنما نرى السماء حالكة السواد . ويرى جميع الناس الكواكب السيارة والثابتة وقت الظهر وينتقل الناس من النهار إلى الليل دفعة واحدة ومن الليل إلى النهار دفعة واحدة . فانظر إلى ميزان الهواء الذى قدر بمقدار . يحمل السحب ويأتى بلون الزرقة وينشر النور وله درجات من الحرارة متدرّجة من أسفل إلى أعلى .

(٦) المسألة السادسة : هذا الهواء نفسه هو الذى فيه يطير الطير وقد طار فيه الانسان فى أيامنا هذه .

وقد

وقد تقدّم فى سورة (المائدة) عند قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » الخ كيف كان طيران الإنسان فى الجوّ على (ضربين) ضرب على هيئة سير السفن والسمك فى البحر، وضرب على هيئة طيران الطير فى السماء فاقرأه هناك ولا نعيده وإنما هنا نأتى بفائدتين : (الفائدة الأولى) أن الناس إذا طاروا فى الجو فانهم إلى الآن لم يصلوا إلى أكثر من عشرة آلاف متر بالطيارات ولا إلى أكثر من (١٥) ألف متر بالمنطاد . وقد علمت فى سورة (المائدة) أن المنطاد يرتفع بخفة حجمه. فأما الطيارة المسماة باللغة الفرنجية (ابروبلن) فانها إنما ترتفع بقوة تحريكها مع ثقل جسمها كثقل جسم الطائر بالنسبة للهواء (الفائدة الثانية) إن الطيارة إنما تجرى بقوة تحريك آلة أو أكثر فى مقدمها وهذه الآلة تتحرك بقوّة ناتجة من المادة المسماة (البنزين) التى يستخرجونها من الفحم الحجرى وهذه الحركة تطرد الهواء أمامها فيخلو لها الجوّ من الهواء فتندفع وتأخذ فى العلو أيضا لأن اللوحين الأماميين اللذين فى الطيارة مرتفعان إلى أعلى ارتفاعا منظما فيضربهما الهواء إلى أعلى فيحصل أمران : اندفاع إلى الأمام بخلو الهواء ، وارتفاع إلى أعلى بدفع الهواء إلى أعلى لمقدم الطيارة .

(٧) المسألة السابعة بيان المقصود من قوله تعالى « والوزن يومئذ الحق » فى سورة الأعراف المناسب لما هنا.

اعلم أن هذه الموازين المتقدّمة التى وضعها الله فى الأرض سواء أكانت موازين طبيعية أو صناعية ليست فى إتقانها كموازين الله يوم القيامة فإن عالمنا الذى نعيش فيه أقلّ نظاما من العالم الأعلى حينما نخرج من الأرض إلى عالم أجمل من هذا وألطف منه . والبرهان على ذلك أن سرعة دوران الأرض فى الثانية الواحدة (٤٦٥) مترا فى خط الاستواء و (٤١٩) مترا فى عرض مصر و (٣٠٥) مترا فى باريس ولا تزال قوة السرعة تقل إلى القطبين ، ثم إنه كلما كانت السرعة أشدّ كان الجسم أخفّ كما نرى أن الجسم فوق الرحى وهى مسرعة الدوران يكون أخف منه لو كانت الرحى ساكنة بنسبة السرعة . فإذن الأجسام تكون أخف فى خط الاستواء منها فى القطبين ، فأما ما بينهما فإنه يكون بالنسبة لذلك وعليه استنتج العلماء أن الكيلوجرام ينقص وزنه فى خط الاستواء بقدر(٣٫٥) ثلاث جرامات ونصف جرام أى مقدار جزء من (٢٨٩) جزءا ومعلوم أن الكيلوجرام ألف جرام ، فإذن كل ألف جرام تنقص نحو (٣٫٥) فى الوزن فى هذه الدنيا ، ويقول العلماء لو أن الأرض كانت أسرع دورانا مما هى عليه (١٧) مرة فقط لانعدم وزن الأجسام فى خط الاستواء بحيث يصير الجسم هناك لاوزن له لشدة الحركة ويكون أقل من وزنه كثيرا جدا فى غير خط الاستواء .

هذا هو تفسير الآية التى نحن بصددها . يقول الله تعالى « والوزن يومئذ الحق » ويقول « فتعالى الله الملك الحق » أما كونه ملكا حقا فهو ظاهر لأن ملوك الأرض تحت تصرفه هو فهذا ظاهر أى أن ملكهم باطل زائل ، أما كون وزن يوم القيامة حقا ووزن هذه الدنيا غير حق فهو غير معلوم وإنما يعلم بطريق العلوم التى ظهرت فى الدنيا ، والمسلمون عنها نائمون ، لقد استبان هنا أن جميع الأجسام التى نزنها فى هذه الأرض ليس وزنها جاريا على الحقيقة تماما لأن أرضنا تجرى جريا سريعا وإذا كان كذلك فسرعتها تنقص وزن الأجسام التى عليها فالجسم الذى ينقص فى خط الاستواء جزء من (٢٨٩) ينقص فى مصر وفى غيرها جزءا أقل من ذلك فتكون الأوزان غير حقة عندنا لأن عالمنا عالم ثقيل ليس نوريا بل هو مظلم فلذلك كانت موازينه غير حقة ولا صادقة ، هذا هو تفسير القرآن ، والقرآن أظهر لنا أن الوزن يوم القيامه حق أما وزن الدنيا فإنه ناقص ولو جزءا قليلا جدا ، وهذا ظهر لنا من العلوم المنتشرة فى ربوع الشرق والغرب الآن ومن قوله تعالى « فتعالى الله الملك الحق » وفهم معنى الحق فى المقامين ومن قوله تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » الخ الذى يشير إلى أن أى كلمة فى الكتاب ليست عبثا بل لها مقصود خاص ومنها قوله تعالى « والوزن يومئذ

الحق » أى أما فى الدنيا فإن الوزن عندكم فيه تقريب لاتحقيق ، فياليت شعرى كيف يعرف المسلمون معنى قوله تعالى «والوزن يومئذ الحق» إلا بمثل مابيناه وكيف وافق نظام هذا الكون سر القرآن وكيف أصبح العلم الحديث والقديم سرين من أسرار القرآن فيا أسفا على أمة مات علماؤها وضاع مجدها وطاح قوّادها وذهبت كأمس الدابر « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » . اللهم إن المسلمين غيروا ما بأنفسهم من حب العز والمعرفة فأصبحوا طحين الرحى أذلاء ضعفاء جهلاء ، وعسى الله أن يتقدم برجال يقرءون أمثال هذا التفسير ويكونون قادة للأمم الإسلامية والحمد لله رب العالمين .

(٨) المسألة الثامنة . قال ذلك الصالح لما سمع هذا: إذن جميع الموازين على الأرض غير موصلة لحقيقة الموزون بسبب حركة الأرض الدورية وهذا عسر لا يعرفه إلا الدارسون لهذه العلوم فهل تذكر لى مثالا آخر أعرف به أن موازين هذه الأرض لاتوصل إلى الحقيقة حتى يتبين لى معنى قوله تعالى « والوزن يومئذ الحق» التى نحن بصدد الكلام عليها . فقلت مسألة (أرشميدس) قال وما هى ؟ قلت إن (أرشميدس) الفيلسوف كان ملك زمانه قد أعطى للصائغ ذهبا يصنعه له تاجا فلما وقع فى يد الملك شك فى أمره وقال لابد أن يكون هذا الذهب قد خلط بفضة وأحضر (أرشميدس) وقال له أريد أن تبحث لى فى ذلك ففكر أياما وبينما هو يستحم إذ أحس بأن جسمه فى الماء أخف منه وهو فوق الأرض فأدرك حالا أن جميع الأجسام تخف فى الماء فأسرع بالخروج من الحمام من غير أن يستتر بلباس وقال عرفتها عرفتها ثم صنع تاجا بوزن هذا التاج من الذهب وتاجا آخر بوزنه من الفضة فوضع تاج الذهب فى إناء فيه ماء فارتفع الماء فى الاناء فجعل هناك علامة ثم وضع تاج الفضة فى الماء فارتفع الماء طبعا فوق علامة ارتفاعه للذهب لأن الذهب أثقل والفضة أخف فتأخذ حجما أكبر مما يأخذ الذهب ثم أتى بالتاج المطلوب معرفته فارتفع الماء إلى علامة بين العلامتين فعرف يقينا أن هذا التاج مخلوط فيه ذهبه بالفضة ولولا ذلك لم يرتفع الماء فى الاناء عن ارتفاعه فى تاج الذهب فسر ملكه بذلك وظهر أن ظن الملك كان صادقا وأن الصائغ غاش . وهذه القاعدة هى أس لسير السفن فى البحر، والسمك فى الماء ، والمنطاد فى الهواء .

إن السفينة فى البحر لا تطفو فى الماء إلا إذا كانت أخفّ من الماء الذى أزاحته، وهكذا السمك لايطفو إلا إذا تمغ للنفاخ الهوائى الذى فى جسمه فكبر حجمه فصار أخف من الماء الذى يزحه وهكذا المنطاد فى الجو يسرع فى الارتفاع بمقدار خفته ، فتبين من ذلك أن الجسم فى الماء أخف منه وهو فى الهواء ثم الجسم الذى فى الهواء فوق سطح الأرض أقل من حقيقته بجزء قليل كما تقدم ، هذا هو معنى قوله تعالى «والوزن يومئذ الحق » وقوله «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» فقوله «ليوم القيامة» قيد لدقة الوزن، أما فى الدنيا فان الوزن لايكون تاما أو لايأتى بمثقال حبة من خردل لأنك علمت أن كل ألف جرام فى خط الاستواء تنقص ثلاثة ونصفا وهذه فيها حبات خردل لاحبة واحدة بل فيها عشرات بل فيها مئات الحبات . هذا هو سر القرآن ظهر فى هذا الزمان . قال فهل هناك موازين من هذا الباب عامة ؟ فقلت نعم الهواء جعله الله أخف من الماء (٨٠٠) مرة والبخار أخف من الماء (١٧٢٨) مرة ولذلك الميزان ترى الهواء فوق الماء وترى البخار يعلو سحابا ويرتفع فى طبقات الجو .

(٩) المسألة التاسعة : قال صاحبى هذا حسن جدا وبيان عجيب ونور مبين لم يظهر إلا فى هذا الزمان فهل هذا الوزن المذكور فى القرآن جاء فى ديانات الأمم السابقة، فقلت نعم ولدينا دليل مشاهد ظاهر واضح

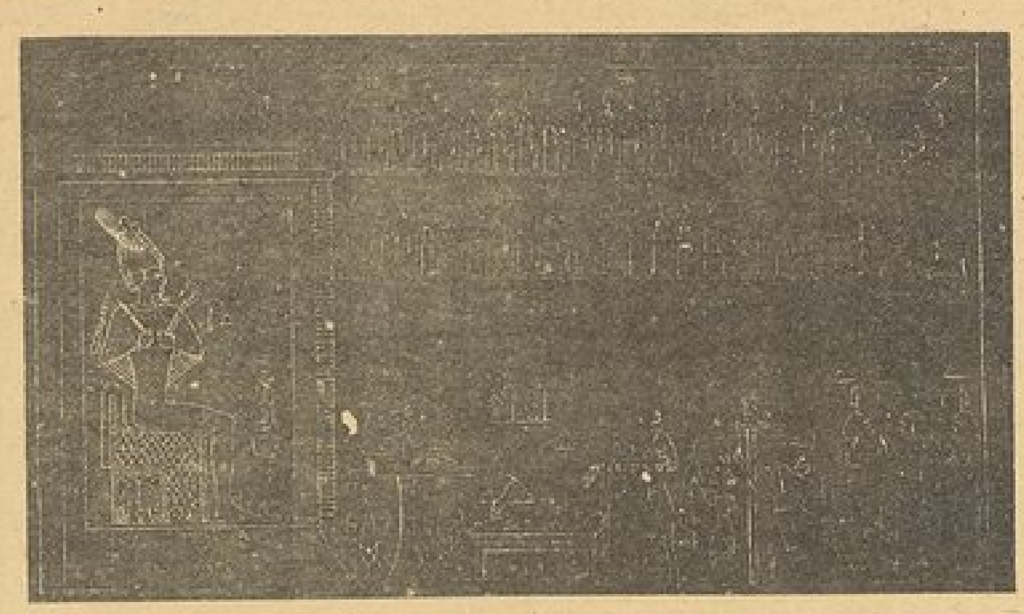
لم يظهر

لم يظهر إلا فى هذا الزمان ، فقال وماهو ؟ قلت قد عرف الناس أن دين قدماء المصريين مأخوذ من النبى إدريس عليه السلام المسمى (هرمس) ويسمى (اخنوخ) كما يسمى بهذين الاسمين أيضا كوكب الشعرى الذى فى الهرم لاجتلاء نوره ويسمى أيضا (توت) فهؤلاء قد صوروا لأممهم ميزان الله يوم القيامة بصورة تمثل لهم العدل يوم القيامة . وقد تقدم الكلام على دين قدماء المصريين فى سورة (يونس) عند قوله تعالى : «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية» وأن تلك الجثث انما بقيت بمصر ليبين الله للناس ماكان عليه القوم : من علم ومن جهل وضلال وهدى . وأزيد الآن عليه ماقاله أستاذنا أحمد أفندى نجيب مفتش وأمين دار عموم الآثار المصرية إذ نقل فى كتابه [الأثر الجليل] فى صفحة ٩٣ ومابعدها عن (هيرودوت) أن أهل (طيبة) كانوا يعبدون الله وحده ويقولون: هو الأول والآخر الحى الأبدى السرمدى . ونقل عن جامبليك أنه سمع من كهنة المصريين أنفسهم أنهم يعبدون الله وحده ويقولون إنه فاطر السموات والأرض ورب كل شىء ، وهو المالك لكل شىء ، الخالق لكل شىء الذى لم يخلق ولم يتجزأ ولا تراه العيون . يعلم ماتكنه الضمائر وماتخفيه الصدور ، وهو الفاعل المختار لكل شىء وفى كل شىء إلى أن قال: وأما ماتراه من كثرة المعبودات فجميعها رمز إلى صفاته تعالى ، وهذا هو اعتقاد كهنة المصريين المدون فى كتبهم المقدسة اهـ .

ثم نقل أستاذنا المذكور عن المؤرخ (شمبليون فيجاك) ما يفيد أن المصريين كانوا أمة واحدة يعبدون الله تعالى ولكن لما أظهروا صفاته العالية مشخصة للعيان وقد غرقوا فى التوحيد تشعبت طرقهم .

ونقل فى صفحة (٩٤) نقلا عن (مسبرو) مامخلصه: أن الأمة المصرية كانت مخلصة لله فى العبادة فكانوا يرون أن الله فى كل مكان فهامت قلوبهم فى حبه وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله ثم عددوا صفاته وجعلوها صورا محسوسة وصوروا لها كل شىء نافع فاشتهرت تلك الصور حتى ملأت المدن فنشأ عن ذلك جملة معبودات متباينة فى الشكل والهيئة دخلت فيها الحيوانات والطيور والسمك والحشرات ولكل واحد وظيفة خاصة مثل (أمون) الله ومثل (فتاح) الذى أتقن كل شىء ومثل (أوزيريس) الله الرحيم فاعل الخير .

ونقل عن بعض المؤرخين صفحة (٩٥) مانصه (كان مكتوبا فى أحد الأسفار المصرية المنسوبة إلى هرمس إدريس عليه السلام) ما صورته [يامصر يامصر يأتى عليك يوم يتغير فيه دينك القويم ومنهجك القديم فتظهر الخرافات وتعم الضلالات وتنحصر أخبارك فى أحجارك] . لكن نقل بعد ذلك عن (ماريت باشا) أنه قال [لم نجد إلى الآن على الآثار أدنى شاهد على ذلك التوحيد بل هم عبدوا كل شىء إلا الرب جل جلاله] ثم قال [وهذا هو الذى عرف عن نفس الأمة أما التوحيد فهو خاص بعلماء الدين وهم الكهنة] هذا ملخص ماقاله فهؤلاء صوروا العدل بصورة مجسمة فيها (٤٢) قاضيا لهم رئيس هو (أوزيريس) رئيس القضاة والروح تحاسب بين يدى القضاة وعلى رءوسهم ريشة العدل وهناك ملك العذاب وتوت كاتب الأعمال يسجل ما ظهر له والميزان له كفتان فى اليمنى قلب الميت وفى اليسرى معيار الحق وهناك ملك يسمى هوروس ينظر كم بلغت الحسنات والسيئات وآخر يراقب كفة معيار الحق وآخر فى يده قضيب الملك وأمامه روح الميت مصورة تتبرأ من كل ذنب وهذا كله ينطق بقوله تعالى « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون» وقوله «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» وإنما نقلت لك هذا لتعجب من دين الإسلام كيف كان هو الدين الذى كأنه صورة لجميع الديانات وكيف كان الوزن فيه واردا ومرسوما فى ديانة قدماء المصريين بنفسه ، فهو فى القرآن جاء بالقول وفى ذلك الدين جاء بالرسم والتصوير وهذا صورته (انظر شكل ٢٢ فى الصفحة التالية) .



(شكل ٢٢ ـ صورة محكمة (أوزوريس) الجهنمية)

(ا) أوزيروس رئيس القضاة جالس على منصة الحكم .
(ب ب) الاثنان والأربعون قاضيا من الملائكة المكلفين بحساب الروح وعلى رءوسهم ريشة العدل .
(ج ج) الروح تحاسب بين يدى القضاة .
(د) مائدة عليها بعض أرواح الموتى وقليل من القرابين .
(هـ) ملك العذاب .
(و) توت كاتب الأعمال يسجل ماظهر له .
(ز) علامة العدل ثم الميزان فى كفته اليمنى قلب الميت وفى اليسرى معيار الحق كما تقدم .
(ح) الملك هوروس ينظركم بلغت الحسنات والسيئات ؟ .
(ط) (أنوبيس) يراقب كفة معيار الحق .
(ى ى) ملك العدل له صورتان بيد إحداهما قضيب الملك وبوسطهما روح الميت تتبرأ من كل ذنب . انتهى .

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون» ﴾

اللهم إنك قد حكمت بحبس أرواحنا فى هذه الأجسام المظلمة وحجبتها عن الاطلاع على سر التكوين وأسرار الوجود ولكنك لم تفعل ذلك بخلا ، كلا والله ولا حبسا للعطاء ولكنك سبحانك لاتعطى إلا على مقدار قوة المعطى وذلك بالوزن ولقد شاهدنا الوزن فى هذه الدنيا . شاهدناه بالله حتى أصبحنا به موقنين إيقانا تاما وقرأنا كتب علماء الأرواح الذين نوّموا أنفسهم وقالوا إنا شاهدنا بعض عالم الأرواح فرأينا النظام هناك كالنظام هنا من حيث إن كل روح قد وضعت فى المركز اللائق به فى أعلى عليين أو فى أسفل سافلين ، فالعوالم هناك على وزان العوالم هنا وأصحاب النار هناك قد استحقوها بما غلب على عقولهم فى الدنيا .

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الأصدقاء الفضلاء . قال لي كيف تقول إنك شاهدت الوزن في الدنيا وكيف تستدل بقول علماء الأرواح ، فأما في الأولى فلا يخلو إما أن تكون من أهل الكشف أو من أهل العلم ، فان كنت من أهل الكشف فانك لاتفيدنا علما لأن كشفك خاص بك لايتعداك كما لم يتعد كشف أولياء المسلمين ولا كشف نساك الهنود أشخاصهم إلى أممهم ، بدليل ضعف الأمتين معا وان كنت من أهل العلم فما أحراك أن تذكر لنا البراهين التي جعلتك موقنا بالوزن حتى ننظر فيها بعقولنا كما نظرت . وأما في الثانية وهي استدلالك بأقوال علماء الأرواح ، فان قولهم ليس برهانا ، فقلت سأوضح هذا المقام (بفصلين : الفصل الأول) فيما هو مشاهد في الدنيا من الوزن (الفصل الثاني) في أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوها وقالوا إنهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد في الدنيا سواء بسواء مما يفهمنا قوله تعالى « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » ويوافق قوله تعالى « ونزعنا مافي صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » أن كلام هؤلاء العلماء موافق للآية كل الموافقة وهذا عجب عجاب . ثم قلت :

﴿ الفصل الأول : فيما هو مشاهد في الدنيا من الوزن ﴾

اللهم إنك (وان حبستنا في الدنيا وأغرقت أرواحنا في هذه الأجسام المظلمة والعوالم التي أحيطت بسلاسل وأغلال من الشهوات أحكمت وثاقها علينا فلم نستطع التخلص منها) قد أنرت لنا السبل وفتحت بصائرنا وكتبت بيدك على قرطاس الطبيعة كتابا منشورا رأيناه مسطورا فيها فقرأناه فألفينا فيه أنك خصصت لكل حي من الأحياء عملا لايتعداه ، وعلما لايتخطاه . ذلك أنك سبحانك لم تدع كوكبا يجري بلا نظام وحكمت عليه أن لايترك فلكه ومداره ، وأمرته أن يجري بحساب لايخطىء فيه ثانية واحدة . هذا رأيناه مطردا في الكواكب السيارة والثابتة لاتشذ قاعدته ولايخطىء قانونه ، ومن عجب أنك لم تقتصر في تلك القوانين على الأجرام العظيمة بل رأينا السنن جارية في أصغر الحشرات وأدنى المخلوقات بحيث لاتخالف مارسم لها ولايشابه واحد منها الآخر في سننه كما لم يشابه كوكب كوكبا آخر في نظامه وقوانينه المحكمة . ولقد وجدنا الإنسان جرى على هذه السنن عينها فألفينا كل واحد من الناس سار على منهج يخالف سواه مخالفة ما ، فانا نفرق بين لون زيد وعقله ومذهبه في الحياة كما نفرق بين الكوكب والكوكب والحشرة والحشرة فلكل عمل خاص يشارك غيره في بعض الصفات ويخالفه في بعضها . فهذا هو الميزان المنصوب في الأرض ، ومن ذلك ما سأذكره من (اثني عشر مثالا الآن) في عوالم الحيوان ، أذكرها هنا لأقيس عليها عوالم الإنسان في الدنيا والآخرة حتى يلتئم عالمنا فيكون آخره كأوله وغائبه كشاهده وآخرته كأولاه ليكون ذلك دليلا لنا على ماسنلقاه بعد الموت ويوقن كل منا بمستقبله هناك متى عرف ماركز في نفسه وفهم ماتوجهت إليه هي في الحياة من المناهج والسيرة والأحوال فيعلم علما ليس بالظن ماساله هناك «مادرجته وهل أخلاقه وذنوبه تلازمه هناك كما تلازمه هنا أم هناك حال خاصة ينزع فيها من الفاضل رذائله ، ومن الشرير فضائله » حتى يتجرد كل لما غلب على عقله كما نرى في الحيوانات في الدنيا إذ كل سار فيما رسم له من الصفات . كل هذا سيفصل في الفصل الثاني . أما هذا الفصل فانما أذكر فيه الأحد عشر مثالا .

(المثال الأول)

إنك ياألله سبحانك خلقت (السلحفاة البحرية) وقد سبق علمك أنها تكون باردة الدم فلا حرارة فيها كافية لتدفئة البيض فاقتضت حكمتك أن تبتدع لها ضربا من التدبير يناسبها فعلمتها علما يخصها إذ أمرتها أن تبحث في طبقات الرمل على شاطىء البحر لاينفذ إليها الماء وذلك البحث في ظلمات الليالي الحوالك والناس لايشعرون ولاتزال تبحث عن تلك الطبقات بعد خروجها من البحر حتى تظفر بها ومتى ظفرت بها وضعت نحو (١٢٠) بيضة ثم تغطيها بالرمل بغاية العناية وتعود إلى البحر ولا يشعر بها أحد ، وكما ألهمت الأم ذلك

وعلمتها أن تبحث على المكان المناسب . علمت أفراخها إذا خرجن من البيض أن يرجعن إلى البحر ولا مرشد لها ولا معين ، فلا أب يعرفنه ولا أم مشفقة بل هى لو رأتهن لم تعرفهن فتراهن قد خرجن من تحت الرمل وقاسين الشدائد وسرن فى الوهاد والرمال والحواجز العظيمة التى تكون بالنسبة لها كأنها الجبال الشامخات حتى ترجع البحر ولا تعود وتعيش هناك وهى لا تعلم آباءها ولا أمهاتها . إنك أنت المعلم لها والمرشد وقد وزنت أحوالها وزنا حقا وجعلت الآخرين فى الميزان كالأولين . ومثل (السلحفاة البحرية) فى ذلك جميع الحيوانات الزاحفة وهكذا التماسيح لأنهن ليس عندهن من الحرارة مايدفئ البيض فجعلت يا ألله حرارة الرمل لهن بدل الحرارة الطبيعية . انتهى المثال الأول .

(المثال الثانى)

إن بعض التماسيح (وإن فعل مثل الزواحف فى كيفية التناسل) يراقب بيضه فى الرمل آنا فآنا حتى إذا تم تكوين أفراخه أخذ يكسر لأبنائه الصغار البيض إذا سمع أصواتهن من وراء قشور البيض فهو إذ ذاك يساعدهن كما تفعل القابلات فى مساعدة الوالدات وأولادهن وكما تفعل القابلات من النمل من مساعدة النملات الصغيرات المكبلات فى خيوطهن وهن ضعيفات ليخرجن حشرات كاملات . انتهى المثال الثانى .

(المثال الثالث والرابع)

إن أكثر الثعابين جارية على القاعدة العامة فى الحيوانات الزاحفة ولكن بعضها ابتليت بأعداء يؤذونها ويتربصون بها وبأولادها الدوائر ، فأنت يا ألله للطفك بها وحكمتك خصصت هذا النوع بأن يرقد على بيضه بضع أسابيع كما يرقد الدجاج سواء بسواء وذلك هو الميزان لأن هذه الأنواع لما احتاجت إلى دفع أعدائها أعطيت قوة المحافظة على بيضها وإلا فلا .

(المثال الخامس)

إن جميع الطيور ترقد على بيضها بعكس الثعابين وقليل منها تترك أفراخها لغيرها وذلك أن طائرا يسمى (الكمكم) وهو طير كالباشق لا يبنى له عشا وإنما يضع بيضه فى عش طائر غيره وذلك الطائر يخالفه كل المخالفة وهو لا يخص نوعا دون نوع بل وجدوا أنه قد وضع بيضه فى أعشاش ثمانين نوعا من الطيور وهذه الطيور التى تودع (الكماكم) عندها بيضها تربيها بكل حنان وشفقة ومتى كبرت طارت إلى مواطن أنواعها الساكنات فى (أفريقيا) بلا هاد يهديها ولا مرشد يرشدها وهى تقطع المسافات تلو المسافات والسباسب وراء السباسب ثم تلد كما ولدت أمهاتها وكل لا يعرف والدا ولا مولودا . وهذه صورة فرخ من أفراخها (انظر شكل ٢٣ فى الصفحة التالية) .

(المثال السادس)

إن الدجاج الاسترالى يصنع كما تقدم فى الحيوانات الزاحفة ولكن هذه لها طريقة خاصة فإن دجاجتين أو ثلاثا تصنع حظيرة بأرجلها يبلغ قطرها نحو (١٥) قدما ثم تضع كل واحدة منهن بيضها منظما ويغطين البيض بغطاء منظم محكم ، ومن العجب أن درجة الحرارة فى تلك الحظيرة أعلى من الحرارة العادية عشر درجات ، ومتى فقس البيض خرجت الأفراخ وحفرت لها نفقا فى تلك الحظيرة وخرجت تجرى ثم تعيش فى مكان يصلح لحياتها .

(شكل



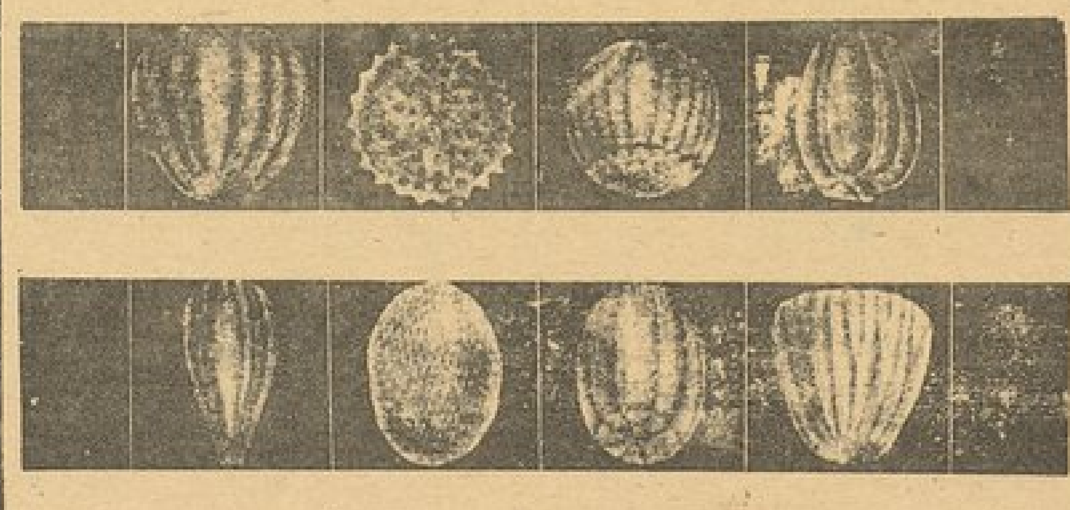
(شكل ٢٣ ـ صورة فرخ صغير من طائر الككم يطلب من حاضنته أن تغذيه مع أنها من نوع آخر)

(المثال السابع)

وهو ماتقدم فى سورة (طه) من أن السمك تنزل ذكوره على بيض أنثاه فيتربى الصغار ولاعلم للأبوين عما حل بالذرية وذلك فى قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» .

(المثال الثامن)

ما قد تقدم فى سور كثيرة كسورة البقرة والأنعام والحجر فى قوله تعالى «إن فى خلق السموات والأرض» إلى آخره فى الأولى وفى قوله تعالى «انظروا إلى ثمره إذا أثمر» فى الثانية وفى قوله تعالى «وأرسلنا الرياح لواقح» فى الثالثة من أن الحشرات زينت لها الأزهار فكانت تلك الزينة سببا لتهافت الحشرات عليها لتأكل منها رزقها وهو العسل وتكون سببا فى إلقاح النبات إناثه من ذكرانه وبعض الحشرات تبحث بعد الجهد والعناء على أوراق خاصة صالحة لأن تتربى عليها صغارها فتضع عليها بيضها بحيث تكون تلك الأوراق بعد الفقس صالحة للتغذية منها (انظر شكل ٢٤) .



(شكل ٢٤ ـ رسم بعض أنواع بيض الفراش)

(المثال التاسع)

الدود المتقدم ذكره فى آخر سورة (الحج) ينقلب إلى صور بديعة جميلة من حشرات لامعات مرقشات منقوشات ببدائع الألوان وغريب الأشكال مع أنها كلها دودات حقيرات مخلوقات فى أماكن قذرات «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

(المثال العاشر)

إن جمهوريات (النحل والنمل والزنابير) المعروفة تسير على النمط المعروف من حيث إن الأبناء يكونون معروفين عند الآباء . ولكن المدهش العجيب أن الأنواع الوحشية من هذه تضع بيضها فى أماكن مختلفة كل بيضة فى مكان خاص وتضع معها غذاء خاصا كما تفعل المرأة إذا حملت من السفاح ورمت ولدها فإنها قد تضع معه نقودا ليصرفها عليه من يجده فى الطريق .

(المثال الحادى عشر : الزنابير الوحشية)

إن الاناث منها تفعل ماتقدم هنا من وضع كل بيضة منفردة وحدها وتضع بجانبها الديدان أو الخنافس أو العناكب ولاتريد إماتتها لئلا تفسد وإنما تحقنها فى مركز مجموعها العصبى بسائل مخدر لتبقى لاهى حية تسعى فتذهب ولاهى ميتة فتفسد جثتها حتى إذا خرجت ذريتها من البيض أكلت من تلك الجثث التى أحضرها الوالد للولد كما قال تعالى «ووالد وما ولد» . أقسم الله بالوالد والولد تذكيرا بهذه العجائب المدهشة والرحمات المتنوعة البديعة . انتهى . وبهذا تم الفصل الأول فيما هو مشاهد فى الدنيا من الوزن بمناسبة آية «فمن ثقلت موازينه» .

(الفصل الثانى فى أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوا الأرواح وقالوا إنهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد فى الدنيا سواء بسواء مما يفهمنا قوله تعالى «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» إذن لاتفاوت بين نظامه فى الدنيا ونظامه فى الآخرة فكلاهما على صراط مستقيم ، ويفهمنا قوله تعالى «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين» وبيان أن كلام هؤلاء العلماء موافق لهذه الآيات كل الموافقة)

ذلك أنك يا الله سبحانك كما أريتنا ماتقدم فى الفصل الأول (فعرفناه وتحققناه لاسيما فى زماننا هذا الذى أبدعت وأبرزت فيه هذه العلوم للمسلمين وشرحت قلبى لهذا التفسير وأبرزت فيه من العجائب ما أعرض عنه الكثير إما غرورا وإما جهلا وإما ضعفا فى بصائرهم وخورا فى عزائمهم فكبرت تلك العجائب فى أعين المسلمين فى زماننا فارتقت نفوسهم إليك وعرفوك معرفة أعظم من معرفة المتأخرين من أسلافنا) هكذا أسمعتنا عجبا من كلام أحد علماء الأرواح المذكور سابقا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة المسمى عما نوئيل سودنبرج الذى يقول إنه شاهد الأرواح وخاطبها ولذلك نراه ليس متعصبا للمسيحيين بل ذم أكثرهم ومدح كثيرا من المسلمين وحكم بدخولهم الجنة وقد تقدم بعض كلامه فى (سورة التوبة) مع تاريخ حياته فهذا العالم يقول :

(١) إن الإنسان بعد الموت ليس له من السعادة أو الشقاء إلا مافكر فيه أولا وعمله ثانيا والفكر بلاعمل كبزر طرحناه فى الرمل فذلك لاينبت ، والفكر مع العمل كالبزر إذا نبت وأزهر وأثمر . ولقد جعل المدار فى الحياة الأخرى على ماغلب على طبع الانسان واستولى على نفسه وملك قيادها وصار لها أشبه بغرائز الزنابير المتقدمة والنحل والنمل والدجاج الاسترالى بحيث يفعل الإنسان فعله بناء على حب قلبى فيكون إذن أشبه من بعض الوجوه بتلك الحيوانات فى الأمثال التى قدمناها . فكما نرى الحيوانات الزاحفة تعطف على صغارها قبل خلقها

وتهيء لها الأماكن التي تلائمها لاتطلب جزاء ولا شكورا إلا أداء الواجب طاعة لضمائرها هكذا لايرى الناس لهم بعد الموت منزلة ومقاما إلا مع قوم تجمعهم وإياهم رابطة فكرية عملية بحيث يلتئمون في آرائهم التئاما قلبيا حقيقيا . أما ماليس له أصل في القلب من الأعمال ولا له منزلة من المحبة في نفس الإنسان فهذا ماهي لاعمل له . فاذا رأينا رجلا مغرما بإيذاء جيرانه أومقاضاة أعدائه أو الحسد والمحاربة وقلبه فرح بهذه الأعمال وغلبت عليه غلبة حقيقة ومع ذلك يعمل أعمالا صالحة فهذا بعد الموت ينظر في أمره وهو نفسه لا يستحل إلا ما غلب عليه في الدنيا من هذه الأمور الشيطانية ولا سبيل للنفاق والخداع هناك . فهذا يستحيل عليه أن يدخل مع الأبرار بل يدخل مع أمثاله الذين هم إخوان الشياطين في جهنم . وبالعكس ذلك الذي عشق الفضيلة ومنفعة الناس وصار ذلك ديدنا له أو أحب العلم وكان أكثر غرامة . فهذا بعد الموت ينطلق إلى أمثاله ولا يعرف كيف يعاشر إلا أولئك الذين أحبهم ولا يألف سواهم . وهناك لا أحد يحجز أحدا عن مرتبته فمن استحق مرتبة دخلها ومن لا يستحق ولا استعداد عنده فانه لا يقدر هو نفسه أن يعيش بين أهلها بل يفرّ منهم فرار الغنم من الذئاب .

وقد وضح في صفحة ٢٨٩ من كتابه هذا الموضوع إيضاحا لم أجد له نظيرا إلا في بعض كتب محيي الدين ابن عربي وفي إشارة قرآنية . ذلك أنه قال : إن الروح الصالحة تسلب منها جميع ما لايتفق مع صلاحها ثم تدخل مع الصالحين، ويفعل نظير هذا الفعل مع الروح الشريرة فتسلب الفضائل لغلبة الرذائل عليها وحبها لها حتى يمكنها أن تعيش مع الأشرار مشاكلة لهم فتجد الروح هي نفسها تحول وجهها إلى الوجهة التي غلبت عليها من تلقاء نفسها ولن تقدر الروح أن تقاوم ما غلب على طبعها فتكون الروح إذ ذاك أشبه بمن غلب عليه في الدنيا شرب الخمر فلم يقدر على التخلص من ذلك أو غلب عليه الإحسان للناس فكل منهما لا يقدر على تغيير طبعه هكذا هناك وتصير تلك الأخلاق أشبه بالجاذبية بين الأرض وما عليها وإذن تكون الرذائل القليلة وسط الفضائل الكثيرة أشبه بالحشائش النابتة في وسط الذرة المزروعة زرعا متقنا في أرض طيبة قد سمدت تسميدا جيدا فهذه تهلك حشائشها في وسط تلك الذرة وتكون الفضائل القليلة وسط الرذائل الكثيرة كالذرة النابتة وسط الحشائش في أرض غير طيبة التربة ولم تسمد تسميدا جيدا ولم يقم عليها الزارع حق القيام فإن الحشائش إذ ذاك تغلب على الذرة فلا تثمر . فهذا هو المثل الذي اخترته لغلبة الخير على الشر أو غلبة الشر على الخير . اللهم إن هذا القول عينه ينطبق على ما يقوله المؤلف المذكور وترجع سجايا الإنسان الغالبة عليه أشبه بما أودع في غرائز الحشرات من العطف على ذريتها فيكون عالم الآخرة كعالم الدنيا نظاما واحدا « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » وبهذا يظهر قوله تعالى « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ويظهر أيضا ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الساعة؟ فقال للسائل : ما أعددت لها؟ قال : حب الله ورسوله قال : أنت مع من أحببت . وهذا عجب فهو موافق لقول هذا العالم الروحي . ويشهد لنزع الرذائل من نفوس الأبرار الذين لم تغلب عليهم شقوتهم قوله تعالى « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » . أقول وإذا لم يكن الأمر كذلك ولم يكن هناك نزع بل تبقى جميع الصفات ملازمة للناس بعد الموت فإن هذه الصفات نفسها عذاب أليم . فالحقد والبغضاء والخوف والجبن وأمثالها هي نفسها عذاب، وأكثر الناس قد لزمتهم بعض العادات فلا يقدرون على التخلص منها . فهل الفضلاء الذين على هذه الصفة تلازمهم ولا تفارقهم صفاتهم وإذن يكونون إلى الأبد في عذاب أليم ، فهذا النزع يكون فرجا لهم ، ومن قرأ كتاب [إحياء علوم الدين] لا سيما الجزء الثالث منه واطلع على المهلكات فيه لم يدخل في قلبه شك أن صفات الشر لا تفارق الإنسان بعد الموت وهذا غالبا يورث اليأس، فأما هنا فإنه يقول إن مثات من غلبت عليهم الفضائل تفصل عنهم وإذن

يدخلون الجنة مع أحبابهم . وقد جاء فى هذه السورة « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا » وهذه الآية موافقة لما قاله الروح كل الموافقة . فغلبة الشقوة كافية فى إدخال جهنم كما أن طالب العلم الذى غلبت عليه اللصوصية تراه يترك العلماء ويعيش مع اللصوص كأن الشقوة غلبت محبة العلم وآثار العلم ، ويقول الله تعالى هنا «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون»

أليس هذا من العجب ؟ إن القرآن يصرح بثقل الموازين وخفتها ، أى إن المدار على الغلبة . ويرجع الأمر لما يشبه غرائز الحيوانات المتقدمة فى الفصل السابق ويطابق قول الأرواح معانى القرآن .

رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدى بها من تشاء

هديتنى فرأيت كتاب العالم الروحى ورأيته من كل وجه يشبه الذرة والحشائش ، ورأيته يوافق القرآن . ثم أطلعتنى على ما كان يعتقده قدماء المصريين إذا هو أشبه بما فى القرآن . وكلام الأرواح ومثل النبات للتقدم وغرائز الحيوان كما تقدم فى وزن الأعمال عندهم . فالحمد لله على نعمة العلم وبدائع الحكمة وعجائب الفرقان .

(١) وقد قال (عمانوئيل) : إن روحا صالحة معلومة أرادت أن تعلم شريرة فهربت بعيدا ، فلما وصلت إلى أمثالها سرت بهم وعاشت معهم .

(٢) وقال أيضا إنه رأى روحا صالحة تعلم قوما صالحين فأصغوا إليها إصغاء تاما ، وأما الأشرار فإنهم لم يصغوا كأنهم لا يسمعون .

(٣) ومن عجب أنه فى صفحة (٢٩٢) من كتاب [السماء وجهنم] للمؤلف المذكور يقول : قالت الملائكة إن حياة المحبة السائدة لا تتغير مطلقا مع أحد إلى الأبد لأن كل واحد هو محبته الخاصة به فاذا أريد تغيير هذه المحبة فى روح فذلك يوجب حرمانها من حياتها وإعدامها ، وقالوا : إن سبب ذلك أن الإنسان بعد الموت لا يمكن فيما بعد إصلاحه بالتعلم كما فى العالم ، ثم قال : فالعواطف القلبية والآراء العقلية أشبه بأساس البيت وهم يتعجبون من الناس كيف لا يفهمون أن رحمة الله ماهى إلا واسطة فقط وسخروا ممن يعتقدون أن الرحمة وحدها تخلصهم مع الإيمان ، وهذا القول ناطق بقوله تعالى : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» وناطق بقوله تعالى «يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم» .

(٤) وجاء فى صفحة (٣٠٦) من الكتاب المذكور ما ملخصه : أن أناسا من الأشرار لما ماتوا ظنوا أنهم يقبلون التعاليم النافعة لدخول الجنة ، ولكنهم لما سمعوها من الملائكة قبلوها أولا ولكنهم لم يقدروا أن يعيشوا بها ويستمروا عليها ، وإنما أبيح لهم ذلك ليكونوا على بينة من أمرهم وأن تلك الحال لا يكون أساسها إلا فى الدنيا ، فأما بعد الموت فان الباب أقفل . وهذا نفسه قول الله تعالى «يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» الخ وقوله تعالى «الآن وقد عصيت قبل» وقوله تعالى هنا «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» .

ثم قال المؤلف فى نفس الصفحة (١) : إن بعض الأرواح لما سمعوا تعاليم الملائكة المذكورة رفضوها حالا ولم يحبوا سماعها (ب) وبعضهم قالوا إذا كانت أخلاقنا وعواطفنا الشريرة قد منعتنا من دخول جهنم فنحن نحب أن تؤخذ منا هذه العواطف والأميال ، فأجيبوا إلى طلبهم ولكن أصبحت تلك الأرواح بعد أخذ أخلاقها وعواطفها منها مطروحة كالموتى ولم تبق لهم حواس ، ثم قالت الملائكة : إن تغيير الروح بعد الموت أشبه بتغيير البوم الذى يعيش فى الليل إلى حمام يعيش فى النهار . انتهى ما أردت نقله من ذلك الكتاب . أنا أحمدك يا ألله إذ وفقتنى لنقل هذا وفهمه . لقد تبين من هذا أيها الذكى أن أرواحنا بعد الموت تصبح حياتها موقوفة على صفاتها التى كسبتها فى الدنيا وهنا ظهر فيما تقدم (أمران عجيبان : الأمر الأول) أن الروح الصالحة التى أحبت الأعمال الفاضلة تنزع منها الشرور حتى يمكنها أن تعيش مع الفضلاء الذين هم

فى دربتها وقد تقدم هذا هنا أولا وأن الروح الشريرة التى غلبت عليها بقوتها تنزع منها فضائلها لقلتها لتكون موافقة لأصحابها وأمثالها (الأمر الثانى) أن الروح الشريرة التى غاب عليها الشر إذا أخذ الشر منها وسلبت تلك الصفات تكون معدومة الحس والحركة فهنا لا يسلب شرها . لماذا هذا ، لأن روحها ليس لها قوة سوى قوة الشر ولو كانت لها قوة خيرية لاعتمدت عليها فى الحياة والبقاء ، فهنا لابد من رجوع شرورها لها حتى يمكنها أن تعيش . فإذن تصير الأرواح الشريرة أشبه بالفيران التى تعيش فى المراحيض وكالحيات والعقارب فإن هذه إذا نزعت منها أوصاف الفيران وأوصاف الحيات والعقارب لم تعش يوما واحدا . ولوأننا وضعنا حماما مع البواشق والشواهين لم تستقم حياته . وهكذا لاتعيش الأرضة فى أماكن النحل ولا النحل فى أماكن الأرضة (انظر فى سورة النحل) إذ ظهر الآن سرٌّ عظيم ، وذلك السرُّ أن الله لايعدم أهل جهنم كما لايعدم الحيات لأن الحيات تكره الموت لأنها ترى لها حياة وهى عزيزة عليها . هكذا أهل جهنم إذ يرون أنهم فى حياة كما ترى الحية ولا يحبون زوالها فلما أخذت منهم الصفات التى بها حياتهم صاروا أشبه بالأموات فرجعت إليهم الحياة لأنهم يقولون : شئٌ خير من لاشئ ، فلا فرق بينهم وبين المسجونين فالمسجونون يحبون الحياة وإن كانوا أذلاء . إذن حياة أهل جهنم مع عذابهم لطف من الله بهم وكان ذلك من الرحمة العامة، إذ قال تعالى « ورحمتى وسعت كل شئ » .

(مذكرة)

لاتظنن أيها الذكى أنى وإن كنت أوضحت هذا المقام إيضاحا أنى أقطع به . كلا . وإنما أقول إن هذا قول علماء الأرواح وقد نقلته من كتاب المؤلف المذكور وعلقت عليه فإذا صح قوله فهذا توجيه . ومعنى هذا أن تكون مشكلة جهنم قد انحلت فى هذا التعبير انحلالا تاما فإنه إذا قال قائل : لماذا يعذب الله الناس إلى الأبد وما ذنوبهم ، وهل هذا إلا الظلم المبين ، وهلا هداهم ؟ فقال : إن الله فعل الممكن وليس من الإمكان أن تحول العقارب إلى عصافير ولا العصافير إلى عقارب ومتى حول أحدهما إلى الآخر مات فلا سبيل للحياة التى هى مستمدة من الرحمة إلا بإبقاء المخلوق على ماكان عليه ، ونقله من هذه الصفات معناه إهلاكه وهذا ينافى الرحمة ومتى أمكن بقاء الروح مع حذف بعض الصفات بقيت الروح وحذفت تلك الصفات كالروح الصالحة التى لها من الصلاح ما به تقدر أن تعيش ويكون لها به قوام فإن الملائكة إذ ذاك تنزع منها الشر فيبقى الخير الذى غلب حافظا للروح فتعيش ، ولايكون أخذ الشر منها مضرا لها غاية الأمر أنها ضعفت بعض الضعف كالضعف الذى تعاطى للمسهل . الله أكبر . أليس هذا إن صح يفسر كثيرا من آيات القرآن وكلام السنة . فقد ورد فى الحديث « لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وذلك لأن النبى ﷺ علم أن هذه النفوس قوية جدا وليست تذنب إلا أصغر الذنوب وهذه لاتؤثر فيها لأن محبتها للخير تامة وقد قال تعالى « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » وإن صح ماجاء فى كلام هذا المؤلف يدخل فى أحاديث الشفاعة فإذن تكون الشفاعة بالغفران لأرواح قويت فى الخير حتى يمكن أن تعيش هناك فلو أن الأرواح صارت كالحيات والعقارب فى الشر فكيف تصير أشبه بطيور أو طواويس . وهكذا تعرف قوله تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » . لماذا ذلك ؟ لأنهم لا يعيشون إلا على أخلاق خاصة ولا معنى لأخذهم منها إلا هلاكهم فالرحمة تقتضى أن يعيشوا إذن الروح تأتى إلى أرضنا وهى خالية فتعطى من القوة مابه تعيش ، والقوة إما قوة شر كاللصوصية وإما قوة خير كالاحسان فلن يعيش الأول ولن يعيش الأخير فى الجنة أو النار إلا بقوته التى كسبها ، انتهى ما أردت ذكره فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين.

(بهجة العلم فى آيتين من هذه السورة: آية « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » وآية «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون»)

ها أنت ذا أيها الذكى شاهدت الميزان الذى رسمه قدماء المصريين إظهارا للمعقول فى هيئة المحسوس

وتبيانا المعاني بالأمثال . فاعجب من تتابع الديانات وتلاحقها وتشابهها . فني القرآن ميزان وفي الكتب قبله ميزان . وهنا أريد أن أبين لك ما فتح الله به ليلة الأربعاء (٧) نوفمبر سنة ١٩٢١ م في معنى هاتين الآيتين، ذلك أن قوله تعالى « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » قد ثبت بها أن لله صراطا، وآية الوزن أثبتت أن له ميزانا ويقول في سورة أخرى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » وفي سورة إبراهيم يقول « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » وفي سورة هود . يقول « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » وفي الفاتحة يقول « اهدنا الصراط المستقيم » الخ.

فها هو ذا الصراط جاء في هذه السور الخمس ، ففي هذه السورة ذكر مطلقا غير موصوف منكرا ولكنه في السورتين الثانية والثالثة وصف الصراط بأنه صراط الله، وفي الرابعة أشار إلى أنه خلق الحيوان ونظمه وأحكم أمره وجعله على هذا الصراط، وفي الفاتحة جعله صراط الذين أنعم عليهم من بني آدم . اللهم أني أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق . لقد مننت يا الله بالحكمة وأنعمت بالعلم فلأشرح ما شرحت به صدري في هذه الأيام لتبتهج النفوس وتنشرح الصدور بما مننت من العلم وما ألهمت من العرفان . سبحانك اللهم . لقد ذكرت الصراط نكرة في هذه السورة ثم أبنت في السورتين الأخريين أنه « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » فعرفنا أن الصراط في هذه السورة وفي السورتين الأخريين إنما نعرفه بما في السموات والأرض ولا معنى لهذه المعرفة إلا بالعلم والعلم يرجع إلى علم الفلك ونظام الطبيعة . نظرنا في علم الفلك فألفيناك قد عدلت وقومت وهندست ووزنت ونظمت وأحكمت . كيف لا؟ ونحن نعلم :

(١) أن الشهور العربية مثلا لها موازين معلومة وحساب لا يتغير حتى أن السنين الكبيسة والسنين البسيطة لا تتغير ولا تتبدل بحيث يكون في كل (٣٠) سنة (١١) سنة كبيسة و (١٩) سنة بسيطة وذلك في الدور الأصغر وتكرر الثلاثون سبع مرات فيكون الدور الأكبر (٢١٠) ويعود ذلك ويكرر أمد الدهر فالسنة الكبيسة (٣٥٥) يوما والبسيطة (٣٥٤) وقد مر شرح هذا مرارا في هذا التفسير . وكأنما هذا الحساب موسيقى تصدح فإن نسبة (١١) إلى (١٩) كنسبة (٢٢) إلى (٣٨) وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين وهكذا يستمر هذا النظام مهما تكرر إلى ما لا يتناهى . فهذا مثال واحد من أمثلة نظامك في سمواتك .

(٢) وهذه الشهور العربية لن تعرف حق معرفتها عند علماء الفلك وتوزن حق وزنها إلا بأن يحسبوا ما بين كل كسوفين للشمس ويقسموه على عدد الأشهر فيخرج لهم الحساب بالدقة بالدقائق والثواني وما هو أقل من ذلك . إذن حدوث الكسوف والخسوف (بحيث يكون القمر بين الأرض والشمس في الكسوف في أواخر الشهور وتكون الأرض بين الشمس والقمر في أنصاف الشهور في الخسوف ويكون الثلاثة في الحالين في عقدة واحدة) لم يكن رمية من غير رام ولا مصادفة واتفاقا بل لها منافع كثيرة ومنها هذه فإن اللحظة التي يقف فيها القمر بين الأرض والشمس وقد منع عن أبصارنا ضوء الشمس بها ندرك أن هذه اللحظة هي نهاية الشهر فيكون ما بين هذه الحادثة والتي قبلها معلوما عندنا ونقسمه على عدد الشهور . فهذا ضبط الحساب لنا في معاملتنا وأعمالنا في الأرض . وفوق ذلك قد عرفنا أن عدد مرات الكسوف والخسوف في كل مدة تبلغ نحو (١٨) سنة محدودا لن يتغير أمد الدهر فالخسوف والكسوف محدود العدد والأشهر التي يحصرانها تضبط بهما .

(بيان تام لهاتين المسألتين)

اعلم أن الأقدمين قد سموا مدة قدرها (١٨) سنة و (١١) يوما باسم مخصوص وهو (ساروس) وهذه المدة تحتوي على (٧٠) خسوفا وكسوفا منها (٢٩) خسوفا و (٤١) كسوفا ، والخسوفات والكسوفات

التي

التى تشاهد فى غضون هذه المدة تحصل فى المدة التالية لها بالعدد بعينه وفى التواريخ بعينها . وبذلك توصلوا إلى القول بالخسوف والكسوف مقدما كما يتوصلون إلى معرفة الظهر والعصر والمغرب قبل حصولها . ثم إنهم اعتادوا أن يعينوا خسوفين اثنين منفصلين بعدد عظيم من الدورات الاقترانية المسماة (الحركات الدورية) أيضا أى دورات القمر حول الأرض ويقسمون المدة الكلية بينهما على عدد الدورات فتحصل المدة المتوسطة وهى ٢٩٫٥٣٠٥٨٨ يوما أو ٢٩ يوما ١٢ س ٢٤ د ٢٫٩ ث وهل تم هذا الحساب الذى عرفنا به مدة الأشهر إلا بفضل الخسوف . فالخسوف إذن أشبه بمدفع الظهر بمصر الذى تضبط الساعات عليه فهو ضابط أزمان الأشهر العربية ومددها ولولاه لم تتم هذه الحكمة .

هذان مثالان لما فعلته يا ألله فى الفلك ودبرته فى الحساب . فهذا صراطك الذى سلكته فى سمواتك فقول الله لنا فى سورة إبراهيم « إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » وقوله فى سورة أخرى « صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » . يذكراننا بهذا الصراط المستقيم الذى اتضح لنا بحسابه ونظامه وبأدنى تأمل فى نظام الأرض والسموات فى هذا التفسير نعرف صراطه فيهما، ألم تر إلى ما تقدم فى قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » فى (سورة الرعد) فهناك تجد مقادير حركات الأحجار الساقطة وحسابها المنظم وبدائع الحكمة فى السموات والأرض بحيث ترى أن أبعاد الكواكب عن الشمس جارية على مقتضى المتوالية الهندسية (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦) وهكذا أمر الثلج ونظامه فهو مرسوم هناك مبين حسابه وبهجته . فهذا وأمثاله كثير فى هذا التفسير . صراط الله هذا هو الذى هدانا إليه قوله تعالى « صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » فهو بذكر السموات والأرض أفهمنا أن نبحث عن صراطه فيهما ، ولا سبيل للبحث فيهما على ذلك الصراط إلا بعلم الطبيعة وعلم الفلك . فقارئ القرآن حين يسمع قوله تعالى فى هذه السورة « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » يريد أن يعرف أىّ صراط هذا ؟ فيقال له صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض فيدرس هذه العلوم فيعرف صراط الله المستقيم ثم يسمع قوله تعالى أيضا فى سورة (هود) « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » هنالك يدرس الحيوان بعد أن درس نظام السموات ونظام الأرض على وجه عام، أما الحيوان فإن له حالا خاصة فيدرسه أيضا ليعرف صراط الله فيه ، فيرى أن الجرذان عاشت تحت الأرض والظباء فى الأدواح والنحل اتخذت البيوت والكستور يتخذ له من أغصان الأشجار جسرا متينا على هيئة سدّ يمنع عنه قوة السيل وذلك بهندسة لا تنقص عن هندسة الإنسان ، بل الإنسان تعلم منه . والدب فى المنطقة الشمالية يسافر فى البحر على قطع من الثلج إلى حيث يقصد . والسنجاب يركب خشبة فى البحر بدل الثلج ويجعل ذنبه قائما مقام القلع وقائما مقام (السكان) وهى الدفة عند العامة التى بها يدير هذه السفينة يمنة ويسرة . والطواف وهو نوع من ذوات الأصداف يركب صدفته ويرفع مرساته وينشر أغشية الريح ويسافر من مكان إلى مكان وهكذا . والديورا أعطيت قوة بأن تذلل أى حيوان بحرى لتركبه بهيئة خاصة . وهذه المسائل تقدمت بعينها فى (سورة طه) ذكرت قليلا منها هنا لتكون مثالا لصراط الله المستقيم فى الحيوان لأننا رأيناه كما أن صراطه مستقيم فى حساب الكواكب وشهورها وسنيها وفى حساب العوالم الأرضية رأيناه أيضا يعطى كل ذى حق حقه من الحيوانات وينوع فى الاعطاء بحسب حال الحيوان ذاته ويجعل ألوانه مناسبة لحال معيشته وهذا الأخير تقدم فى أول السورة فارجع إليه تجده هناك موضحا . فالصراط فى هذه السور الثلاث أفهمنا قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » فالمنعم عليهم من الناس ينهجون نهج الله فى صراطه المستقيم

وصراطهم المستقيم هو التوسط بين الإفراط والتفريط . ولا جرم أن هذا يفتح لنا باب فهم الميزان الذى أصل كلامنا فيه .

(الميزان)

جاء الميزان فى (سورة الرحمن) إذ يقول تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » والميزان فى السموات هو جعلها منظمة كما رأيت فى الأمثلة المتقدمة . فالله حسب حركات الأفلاك أزلا ثم أدارها على مقتضى ذلك الحساب فالحساب يعبر عنه بالميزان ، وجريها على مقتضى الحساب يعبر عنه بالصراط فهو يزن الأمور ويجعل العمل على مقتضى الوزن وهذان ينطبقان على لفظى (القضاء والقدر) فالقضاء التقدير أزلا ، والقدر هو سير الحوادث على مقتضى القضاء . وأفضل أحوال العبد أن ينهج نهج ربه فالله على صراط مستقيم ، فليكن العبد على صراط مستقيم . فإذا كان الصراط المستقيم الإلهى فى السموات بحسب حالها وفى الأرض بحساب حالها وفى الحيوان بحسب حاله هكذا ، فليكن الصراط المستقيم عند الإنسان هو صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . ولقد أشار الله إلى ذلك فى سورة إبراهيم إذ أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر الناس بأيام الله ووقائعه فى الأمم وجعل أن فى ذلك آيات للصابرين الشاكرين فينهجون نهج الخيرات فى الخير ويجتنبون الشرور فى الشرّ بحسب ما ذكروا به من وقائع الأمم ، وذلك نفسه هو المذكور فى الفاتحة إذ يقول تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ومعلوم أن المنعم عليهم والضالين والمغضوب عليهم لا يعرفون إلا بالتاريخ ولا معنى للتاريخ إلا وقائع الأمم المذكورة فى (سورة إبراهيم) يقول الله تعالى (وذكرهم بأيام الله) إذن يجب أن يقوم جماعات فى الأمم الإسلامية فليؤلفوا كتبا فيها شذرات جميلات من التاريخ العام والتاريخ الخاص بالإسلام وبالأوطان التى يراد انتظامها ليكون ذلك صراطا ينهجه المجدّدون لهذه الأمم الإسلامية ويناسب ذلك كله قوله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وأنت أيها الذكى تعرف هذا مما تقدم فى أول (سورة يونس) عند قوله تعالى «وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » وكيف كان هرم قدماء المصريين مبنيا على مقتضى مقدار مدار الأرض حول الشمس ، فمحيط الهرم منسوب لمدار الأرض وارتفاعه لبعد ما بيننا وبين الشمس والضلع الواحد من الهرم جعل أذرعا معلومة والذراع جعل مقياسا للأطوال وللسطوح وجعل مكعبه مكاييل مصرية من حيث الحجم وموازين مصرية من حيث الثقل وكل ذلك مستعمل إلى الآن فى بلادنا المصرية كما مر هناك موضحا إيضاحا تاما . فالله يقول لنا هذا هو ميزانى فى عوالمى فزنوا على مقتضاه واجعلوا نموذج ميزانكم من نموذج ميزانى كما هو واضح فى البلاد المصرية . إذن عدلنا فى الأرض على نسق عدل الله فى السموات ، وإذا قرأنا تاريخ الأمم ظهر لنا جمال العدل وقبح الظلم فى أفعالها فنرجع لسنة الله . فإذا رأينا قوم شعيب عليه السلام يطففون المكيال والميزان وقد حادوا عن سنة الله فى ذلك احترسنا من فعلهم ورجعنا للعدل الذى سنه الله فى عوالمه . فليكن تاريخ الأمم الحاضرة للعبرة والذكرى كما بينه الله فى القرآن .

(تذكرة)

لقد كنت قرأت منذ (٤٠) سنة فى بعض كتب الإمام الغزالى أن الميزان لا يعرفه إلا من درس سائر العلوم : ولما اطلعت على شذرات منها فى (دار العلوم) وفى دراستى الخاصة ألفت كتابا صغيرا بعد ذلك سميته (ميزان الجواهر) وهو ثانى كتاب ألفته فى هذه العلوم : فأنا الآن أحمد الله عز وجل إذ علمنى ما لم أكن أعلم ، وأنعم علىّ وعلى الناس بهذا التفسير ، فانظر أيها الذكى كيف كان دين الاسلام

شائقا لكل علم ؟ وكيف غفل بعض صغار المتعلمين في عصرنا فظنوا أنه دين لا يألف العلم ولا العقل ، انتهى والحمد لله رب العالمين .

(تبيان)

هل التبحر في العلوم الطبيعية والرياضية الذي يقتضيه الميزان المذكور في القرآن والصراط كما ذكرناه مرقّ للأخلاق الانسانية . أم نرى أولئك المتبحرين تضل أعمالهم في هذه الحياة الدنيا ؟ الجواب . اعلم أن العلم والجمال والمال والصيت والسلطان كل أولئك صالحات للخير والشر سواسية تصلح للشر والخير . وآية ذلك أن كثيرا من هؤلاء يسارعون إلى الشرور والموبقات والاحتيال ويهيمون على وجوههم في المخازي والعار كما أن كثيرا منهم رفعوا أممهم إلى المستوى الرفيع والمجد الباذخ . فالمال سلاح ، والعلم صراط مستقيم ، والجاه والسلطان أجنحة ومن لا مال له قل عمله ، ومن لا علم عنده ضل وغوى ، ومن لا سلطان له أصبح كطائر لا أجنحة له ولا قوة

ولقد حض (سقراط) في تعاليمه على فتح عين البصيرة لأولى العلم ، وأبان أن هذه الطائفة إن لم تكن عاشقة له ساء مصيرها وضل سعيها ، مبرهنا بما يأتي :

إن للانسان ثلاث قوى : (الشهوية) للغذاء والتناسل واللباس والمساكن (والغضبية) للاستعلاء والاستيلاء والمدافعة (والعقلية) للعلم والحكمة .

فاذا كان القائمون بأمر المدن لم تفتح بصائرهم فتعشق العلم عشقا مفرطا بحيث تضارع في عشقها له وحبها القوتين الأخريين (الشهوية والغضبية) فان صاحبها لا يرى أمامه إلا (بابين من اللذات) باب الانتقام بالقوة الغضبية وباب الشهوات في المال والنساء . وإذن يقول في نفسه (مافائدتى من علوى على الناس أآكل مما يأكلون وأقتصر من الشهوة البهيمية على القليل كلا . فلأشارك الناس في أموالهم بالرشا وفي أعراضهم بالزنا وإلا كنت غير رابح من هذه الحياة رمحا يناسب علوى على الناس) . فأما ذلك الذى فتحت عين بصيرته وعشق العلم واستنارت بصيرته فانه بينما تراه يحكم بين الناس بالعدل يكون غرامه موجها إلى إدراك الحقائق باحثا عن عجائب هذا الوجود مبتهجا بهجة لا يحس بها غيره وإذ ذاك يعلم علما ليس بالظن أن بينه وبين صانع هذا العالم محبة فائقة وعلى مقدار ارتقائه في تلك المدارك تكون لذته بها « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ويرى الناس أبناءه وكأنما هو خليفة عليهم أو أم لهم وتتمثل له هذه الدنيا والعدل فيها بهيئة قناطر بناها المهندسون فاذا غفلوا عن إحكامها وانتظامها وحسن إتقانها اعتراها الاختلال لجرى الماء وأغرق البلاد وأهلك العباد . فالوزن والنظام في القناطر والجسور يضارعه الوزن والنظام في الأخلاق والحساب في المعاملات ، ونظام البنيان يضارعه قراءة التاريخ وسير الرجال في علم الأخلاق ، فالتاريخ والحوادث وعلم الأخلاق والقانون والفقه كل هذه موازين لأعمال الناس وأحكامهم ومعاملاتهم وقضائهم ، كما كان علم الهندسة والحساب والجبر وأمثالها موازين توزن بها أعمال دواوينهم ونظام مدنهم وهندسة مبانيهم ، وكما كان رقاص الساعة تبيانا لأوقاتهم ومواعيد أعمالهم وخسوف القمر مبينا مقادير شهورهم كما تقدم موضحا وهكذا مقاييسهم وموازينهم المرتبة على النظام العام كما في ضلع الهرم المبنى على مقتضى مدار الأرض حول الشمس إذ كان محيط الهرم جزءا من مليار منه والارتفاع جزء من البعد بين الأرض والشمس وضلع الهرم المذكور أصل كل مقياس في مصر . هكذا (المتر) لم يصنعه الفرنسيون إلا على مقتضى محيط الأرض (والياردة) عند الانجليز ترجع للمعدن في رقاص الساعة الذى يدق في الثانية مرة واحدة فهو إذن رجع للنظام العام . وهكذا نرى في هذا العصر أن الماء يعرف مقداره بآلة تعده . وهكذا بخار القطار له جهاز يعرف به عده كما يعرف الزمن بالساعات . وتقاس الحرارة بالمقياس المئينى (سنتجراد) أو بمقياس (فارنهيف) الانجليزى أو بالمقياس الثلثانى وهو الثمانينى كل تلك المقاييس تبنى على الطبائع الثابتة ، فقوى الحرارة لا خطأ فيها كما

لاخطأ فى سير الكواكب وفى الجاذبية وهكذا مقاييس الكهرباء . فهذا كله من الميزان الذى قامت به السموات والأرض ، وكلما كثرت موازين الأمة زاد ارتقاؤها وعقولها وبنقص الموازين تنقص العقول والنعم وموارد الرزق وبجمع هذا كله قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » فالله يشهد بوحدانيته مع القيام بالقسط وهو ماشرحنا ويليه الملائكة وبعدهم أولوا العلم وهم المذكورون فى قوله تعالى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء» فظهر أن هؤلاء هم الذين يخشون الله ومتى عمت هذه الآراء فى أمم الإسلام ظهر فيهم حكماء مجددون بهم يدوم مجد هذه الأمة الاسلامية كما دام مجد قدماء المصريين آلافا وآلافا قبل أن يحل بهم الفساد والفسوق والترف ، فان هذه المباحث قد أشربت بها نفوسهم وحببت إلى قلوبهم حتى كتبوها على صناديق موتاهم للتبرك بالبروج السماوية والكواكب الدرية المرسومة كما رأيته فى الكتب المنشورة حديثا .

ونظير صراط الله فى السموات والأرض صراط الإنسان بالعمل الصالح والأخلاق الفاضلة لأنها وسط بين الإفراط والتفريط . وخير معرف لمحاسن الأخلاق تاريخ الأمم ، والله يقول فى ذلك «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » وهم الذين يقرأ الناس سيرهم فى التاريخ . ويقول أيضا : «وذكرهم بأيام الله» ومن ذلك علم التاريخ والوقائع .

هذا ما فتح الله به صباح يوم السبت (١٠) نوفمبر سنة ١٩٢٨ م ، وبه تم تفسير (سورة المؤمنون) والحمد لله رب العالمين .

(تذكرة)

قد اطلع أحد الإخوان على ما كتبته هنا فى أقوال (عمانوئيل) فى صفحة (١٨٨) وما بعدها فقال : إن هذا الكلام معناه أنه لاتغير للأخلاق بعد الموت وكان هذا يأس للنفوس ، فهل أنت واثق بأقواله فقلت : هذه أمور غيبية ، والغيب لله ولكن هذا القول أشبه مما جاء فى علم الأعداد فان علماء خواص الأعداد يقولون إن لكل عدد خاصة لايشركه فيها سواه فالاثنان أول الأعداد ، أما الواحد فليس منها لأنه لاتعدد فيه والثلاثة أول عدد فردى والأربعة أول عدد زوجى والخمسة عدد كروى أى أنه متى ضرب فى نفسه مرة أو مرتين أو آلافا فان (٢٥) يكون محفوظا دائما ولم يجدوا عددا مثله وهكذا (٦) مثله فى أنه يحفظ عدد (٦) فى جميع مضروباته لا غير وليس مثل (٥) فى حفظه الآحاد والعشرات . فالعالم الذى نعيش فيه كأنه أعداد وكل عدد لايشاركه سواه فكل فرد لايشاركه سواه فى خواصه . هذا من جهة يوافق حديث «كل ميسر لما خلق له» ومن جهة أخرى نقول نحن نجهل خواص النفوس والله هو العليم وحده بها . فاذا قرأنا حديثه صلى الله عليه وسلم فى الشفاعة وأن الله لايزال يخرج العاصين من النار حتى يخرج من قلبه مثقال ذرة من إيمان ثم هو نفسه «وهو أرحم الراحمين» يخرج أناسا منها برحمته لم يعملوا خيرا قط رأيناه ينطبق على الرحمة التى شاهدناها له فى الدنيا وهو الذى يليق بجماله وجلاله . وأما مشاهدات (عمانوئيل) إن صح مانقلناه عنه فهى جزئية لا كلية والله وسعت رحمته كل شىء ، ومع هذا علينا أن نحترس من الذنوب حتى لانحجبنا عن مشاهدته وعن النظر لوجهه وعن دخول جنته . وينبغى أن نزداد علما حتى نخشاه وكلما قل علم الإنسان قلت خشيته من ربه ، وكلما كثر علمنا زادت خشيته ، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الحادى عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

ويليـه

الجزء الثانى عشر ، وأوله : تفسير سورة النور

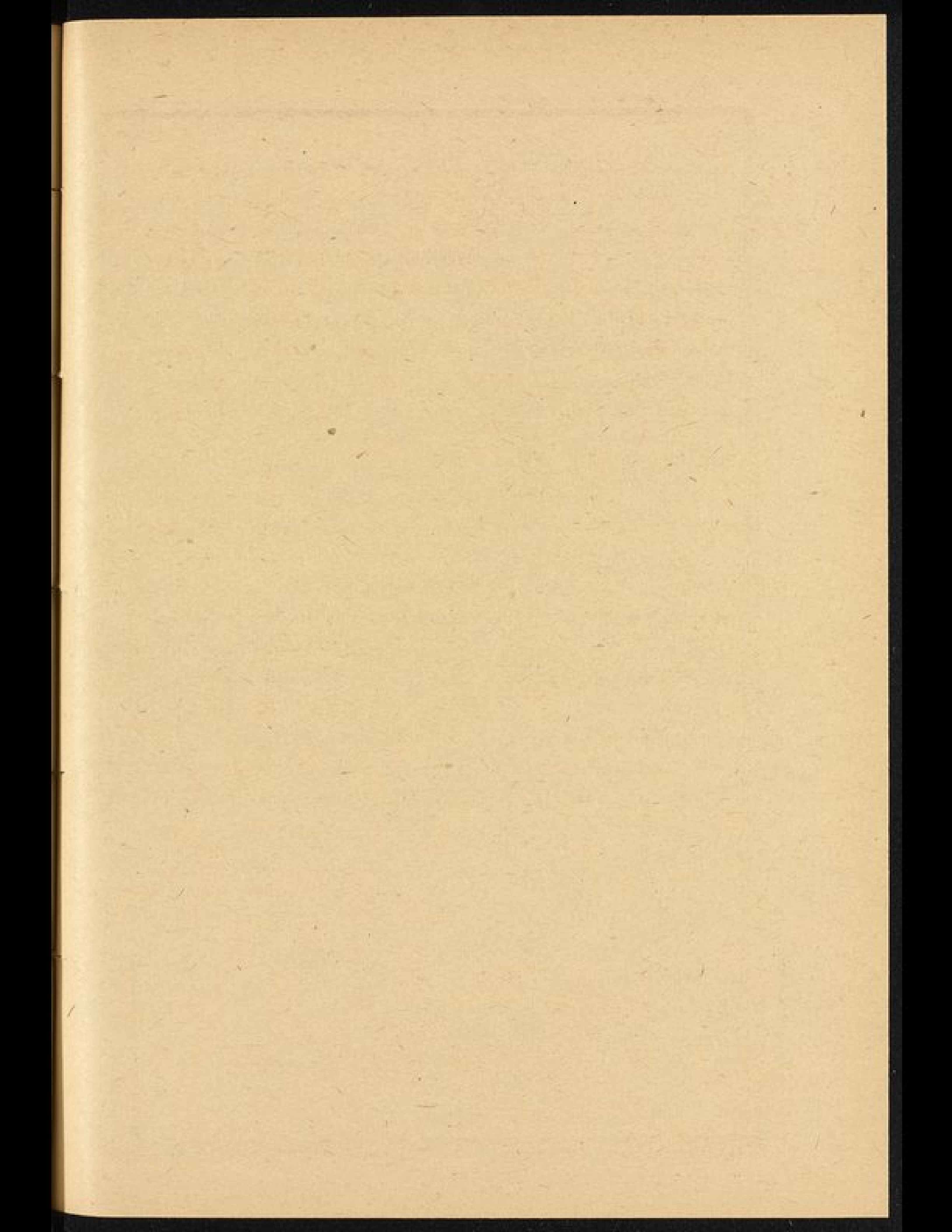
فهرس

فهرس

الجزء الحادى عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة



الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثاني عشر

الطبعة الثانية
١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
محمد أمين عمران

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سورة النور مدنية﴾

وهى أربع وستون آية

(وهى ثلاثة أقسام)

[القسم الأول] فى أحكام القذف والزنا وبراءة أم المؤمنين ومايتبع ذلك من المواعظ من أول السورة إلى قوله «لهم مغفرة ورزق كريم» .

[القسم الثانى] من قوله «ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا» إلى قوله «وموعظة للمتقين» وذلك فى آداب المعاشرة وآداب الرجال والنساء .

[القسم الثالث] فى عجائب السموات والأرض وأحوال الكفار والمؤمنين ومايتبع ذلك من الآداب الواجبة العامة من قوله «الله نور السموات والأرض» إلى آخر السورة .

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ◦ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ

الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين *
الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك
وحرم ذلك على المؤمنين * والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء
فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين
تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * والذين يرمون أزواجهم ولم
يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين *
والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد
أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من
الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم * إن الذين
جاؤا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ
منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ
سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاؤا
عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا
فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب
عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه
هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا
سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين
الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين
آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون * ولولا فضل الله
عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان
ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم
ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم *

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هذه (سورة أنزلناها وفرضناها) وأوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وكذلك من بعدكم إلى يوم القيامة (وأنزلنا فيها آيات بينات) واضحات (لعلكم تذكرون) لكى تتعظوا بالأمر والنهى فلا تعطلوا الحدود .

﴿ حكم الزنا ﴾

(الزانية والزانى) فيما فرضنا، أو فيما أنزلنا حكم الزانية والزانى ويصح جعل الزانية والزانى مبتدأ خبره (فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) الجلد ضرب الجلد فلا ينبغى أن يصل إلى اللحم وهذا فرض على الأمة كلها، يقوم مقامهم الإمام لتعذر اجتماعهم، وهذا الحكم لمن استوفى الشروط فى وجوب الحد وهى البلوغ والعقل؛ ويجب أن يغرب عاما عند الشافعى لثبوته فى السنة، ووكل أبو حنيفة أمر التغريب لرأى الإمام، ويجب على العبد والأمة نصف الحد ولا رجم عليهما وهذا حكم غير المحصن . أما المحصن فيزيد على ما تقدم أن يكون حرا مسلما متزوجا بنكاح صحيح وقد دخل بها، والاسلام ليس بشرط عند الشافعى محتجا برجمه عليه الصلاة والسلام اليهوديين وحكم المحصن الرجم . ويرى مالك فى غير المحصن كما يرى الشافعى ولكن المرأة لا تغرب ، ويرى الحنفية أن التغريب المروى فى الحديث منسوخ كما نسخ الحبس والأذى فى قوله « فأمسكوهن فى البيوت » وقوله «فآذوهما» بهذه الآية (ولا تأخذكم بهما رأفة) رحمة ورقة فتعطلوا الحدود أو تخففوا الضرب بل يكون فى الزنا أشد من الفرية وفى الفرية أشد من حد الشرب أو يخفف فى الأخير ويشدد فى الأولين على الخلاف فى المذاهب ، وقوله (فى دين الله) أى فى حكم الله . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « لو سرقت فاطمة

بنت محمد لقطعت يدها» . وروى أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يابنى إن الله لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فأوجعت ، ومعنى قوله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله أى إذا كنتم تؤمنون فلا تتركوا إقامة الحدود (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) وذلك ليزيد التنكيل ، والطائفة أقلها ثلاثة ، وقيل رجل أو اثنان والمراد حصول التشهير فقد يكون التفضيح أكثر تعذيبا من التعذيب . ولما كانت الأشكال تحن الى أشكالها وكان ضعفة المهاجرين قد هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية نزل قوله تعالى (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) لتقارب الأشكال وائتلاف الأخلاق (والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فهو مكروه كراهة تنزيه لما يلزم فيه من التشبه بالفساق والتعرض للتهمة والتسبب لسوء المقالة والطعن فى النسب وغير ذلك ، ويجوز أن يراد بالتحريم انصراف النفس عن ذلك فان الزناة يأتلفون والصلحاء كذلك . فهذا تحريم يرجع للطبع والعادة والشرع لا يمنع زواجهن . وقيل إن نكاحهن كان محرما ثم نسخ بقوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما سئل فى نكاح المسافحات « أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال » .

﴿ فصل فى حكم القذف العام وفى حكم قذف الرجل زوجته وفى الملاعنة ﴾

اعلم أن من قذف محصنا أو محصنة بالزنا فقال له يازانى أو يازانية أو زنيت فعليه جلد ثمانين جلدة إن كان القاذف حرا وكان المقذوف محصنا أى مسلما بالغا عاقلا حرا عفيفا من الزنا ولا فرق بين الذكر والأنثى ويكون الضرب هنا أخف من ضرب الزنا ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة خلافا لأبى حنيفة ، ثم إذا كان القاذف عبدا يجلد أربعين ، وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وهو يكون برأى القاضى . ومن زنى وتاب وحسنت توبته وقذف لا يجب فى قذفه إلا التعزير وهكذا القذف بغير الزنا مثل يا فاسق ويا شارب الخمر وهذا قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) اللاتى استوفين الشروط الخمسة المتقدمة وكذلك الرجال بهذه الشروط ، وخص النساء بالذكر لشناعة أمرهن إذا قذفن ، وقوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) أى يشهدون على الزنا (فاجلدوهم ثمانين جلدة) أخف من جلد الزانى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) المحكوم بفسقهم ، فالقذف إذن من الكبائر فلذلك سمى مرتكبه فاسقا (إلا الذين تابوا من بعد ذلك) من بعد القذف (وأصلحوا) أحوالهم وهذا استثناء من الفاسقين وسيأتى إيضاحه والخلاف فيه (فإن الله غفور رحيم) يغفر ذنوبهم ويرحمهم (والذين يرمون أزواجهم) يقذفون زوجاتهم بالزنا (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) أى لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به الخ (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين) فيما رماها به من الزنا (و) الشهادة (الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا (ويدرؤا عنها العذاب) ويدفع عنها الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه) إن الزوج (لمن الكاذبين) فيما رماني به من الزنا (والخامسة) بالرفع والنصب (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فى ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان .

﴿ فصل فى قصة الإفك ﴾

ولما ذكر حكم القذف العام وقذف الرجل زوجته أتبعه سبحانه بالكلام على الإفك فى أمر عائشة أم المؤمنين ، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء [ومحصل القصة] ما ذكرته رضى الله عنها قالت «فقدت

عقدا فى غزوة بنى المصطلق فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج لخفتى فلما ارتحلوا أناخ لى صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعد ما نزلوا فهلك فى من هلك فاعتللت شهرا وكان عليه الصلاة والسلام يسأل كيف أنت ولا أرى منه لطفا كنت أراه حتى عثرت خالة أبى أم مسطح فقالت : تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتنى بالإفك فلما سمعت ازددت مرضا وبت عند أبوى لا يرقأ لى دمع وما أكتحل بنوم وهما يظنان أن الدمع فالق كبدى حتى قال عليه الصلاة والسلام : أبشرى يا حميراء فقد أنزل الله براءتك فقلت بحمد الله لا بحمدك » اهـ.

وهذا قوله تعالى (إن الذين جاؤا بالإفك)وهو الصرف لأنه قول مأفوك مصروف عن وجهه (عصبة منكم) جماعة منكم وهى من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة منهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان ابن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش . ثم استأنف سبحانه الكلام مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم قائلا (لا تحسبوه) أى الإفك (شرا لكم بل هو خير لكم) لكم فيه ثواب وارتقاء الأنفس وظهور الكرامة بإنزال ثمان عشرة آية فى براءتكم وتعظيم شأنكم وفيه أيضا تهويل وتشديد على من تكلم فيكم وثناء على من ظن خيرا (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم) أى جزاء ما اكتسب بقدر ماخاض فيه مختصا به (والذى تولى كبره) معظمه (منهم) من الخائضين وهو عبد الله ابن أبى فانه هو الذى بدأ به لأنه يحكى أن صفوان مر بهودجها عليه وهو فى ملأ من قومه فقال من هذه فقالوا عائشة فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها (له عذاب عظيم) أى جهنم . ثم أخذ يوبخ العصبة فقال سبحانه (لولا) هلا (إذ سمعتموه) أى الإفك (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أى هلا ظن المؤمنون والمؤمنات الذين سمعوا الإفك خيرا بعائشة وصفوان اللذين هما من المؤمنين الذين هم جميعا كنفس واحدة فإذا ظنوا بهما خيرا فقد ظنوا بأنفسهم وهذا من أبلغ ما يكون فى التلطف من حيث اتحاد المؤمنين (وقالوا هذا إفك مبين) كذب بين لا حقيقة له (لولا) هلا (جاؤا عليه) على ما زعموا (بأربعة شهداء) يشهدون بذلك (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله) فى حكمه وشريعته (هم الكاذبون) القاذفون لأنهم ليس عندهم أربعة شهود (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) ففضله فى الدنيا بالنعم الكثيرة ومنها إمهالكم للتوبة ورحمته فى الآخرة بنعم كثيرة منها العفو والمغفرة (لمسكم) عاجلا (فيما أفضتم فيه) خضتم فيه (عذاب عظيم) فالجلد واللوم مستصغران بالنسبة له (إذ) متعلق بمسكم (تلقونه بألسنتكم) يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) أى يقولون بألسنتهم من الإفك ماليس فى قلوبهم (وتحسبونه هينا) سهلا لا تبعة له (وهو عند الله عظيم) فى الوزر . فهذه ثلاث خصال : التلقى والتحدث والاستصغار للذنب مع عظمته (لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا) ما يصح لنا (أن نتكلم بهذا) فى أمثال هذه الأمور لاسيما ما يختص بابنة الصديق (سبحانك) تنزيها لله من أن تكون حرم نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة فإن فجورها يخل بمقصود الزواج (هذا بهتان عظيم) لأن المبهوت عليه عظيم (يعظكم الله) كراهة (أن تعودوا لمثله أبدا) مادمتم أحياء مكلفين (إن كنتم مؤمنين) وهذا تقريع وتوبيخ فإن الإيمان يمنع من القبائح (ويبين الله لكم الآيات) الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب تعليما لكم (والله عليم) بصفوان وعائشة وبكل الأحوال (حكيم) فى تدبيره هذا العالم ، ومن حكمته أن يجعل زوجاته صلى الله عليه وسلم طاهرات لأنه يكرم أولياءه . ومن حكمته أنه برأ عائشة وحكم على القاذفين بالحد (إن الذين يحبون) كعبد الله بن أبى وأصحابه (أن تشيع الفاحشة) أى يظهر الزنا (فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) فيحدون فى الدنيا ويدخلون جهنم فى الأخرى (والله يعلم) مافى الضمائر (وأنتم لاتعلمون) فليكن عقابكم لهم على ما تعلمون من الظواهر فى الدنيا ، وهو يعاقب على ما يعلم من حب الإشاعة وعقابه فى الآخرة (ولولا

فضل

فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) بكم لعاجلكم بالعقوبة والخطاب لمسطح وحسان بن ثابت وحمنة وكرره للمنة بترك المعاجلة بالعقوبة (ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان) بإشاعة الفاحشة (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) الفحشاء ما أفرط قبحه، والمنكر ما أنكره الشرع (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بأن شرع التوبة ووفقكم لها فتمحى ذنوبكم وأنزل الحدود وهي كفارات لذنوبكم (ما زكى منكم من أحد أبدا) أي ما طهر ولا صلح فإنه بفضله ورحمته شرع التوبة وقبلها وأنزل الزواجر وحكم بها ووفقكم لما يمحوا الذنوب إما بأعمالكم الصالحة وإما بما تصابون به من الرزايا فإنها مكفرات (ولكن الله يزكى من يشاء) بتوفيقه للتوبة وحمله عليها وقبولها منه وباقامة الحدود وإنزال ما يخفف من الحوادث المؤلمة (والله سميع) لمقالتهم (عليم) بنياتهم . ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لاينفق على مسطح بعد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين نزل قوله تعالى (ولا يأتل) أي لا يحلف (أولوا الفضل منكم) في الدين (والسعة) في المال (أن يؤتوا) على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للاحسان الموصوفين بأنهم من (أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها . ويصح أن يقال : ولا يقصر أولوا الفضل الخ ثم قال (وليعفوا) أي وليستروا (وليصفحوا) يعرضوا وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فليفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل الله بهم مع كثرة ذنوبهم (والله غفور رحيم) فتخلقوا بأخلاق الله وتأدبوا بآدابه .

ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال بلى أحب أن يغفر الله لي . ورد إلى مسطح نفقته (إن الذين يرمون المحصنات) العفائف (الغافلات) عما قذفن به (المؤمنات) بالله ورسوله كعائشة رضى الله عنها وغيرها من كل سليمة الصدر نقية القلب لادهاء عندها ولامكر لأنها لم تجرب الأمور (لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) فهؤلاء القذفة ملعونون في الدارين ولهم عذاب عظيم في الآخرة إن لم يتوبوا فيعذبون (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) بما أفكوا أو بهتوا إذ تظهر آثار الأعمال على تلك الأعضاء وهو أبلغ من نطق اللسان فالمغتابون والقاذفون وأمثالهم تظهر صور أعمالهم مجسمة يراها المذنب وتشاهدها الناس حوله والملائكة بصورة قبيحة بشعة تشعر بالمهانة والذلة ولا مانع من النطق اللفظي وهو معنى قوله تعالى « ووجدوا ماعملوا حاضرا » وقوله « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » وذلك حاصل بعد الموت بلا توان فيظهر الإنسان بمظهره الحقيق وهذا قد أظهره الكشف الحديث فإن علماء الأرواح لما استحضروها أخبرت بما يفيد أن أخلاق الإنسان وصوره الباطنة تلازمه ولا تفارقه ويود لو يتخلص منها وتستقيم حاله فلا يقدر بل تكون له كالهواء محيط به أينما حل . ويقولون إن جسم الإنسان بعد الموت عبارة عن صورة طبق الأصل أي مطابقة لهذا الجسم المادي ويسمى ذلك الجسم [الجسم الأثيرى] أي المنسوب للأثير وهي المادة اللطيفة التي هي أخف وألطف من الهواء، والعالم كله مغمور فيها ، وهذه الصورة تمثل الأخلاق الباطنية للانسان ويود لو ينخلع منها إذا كانت قبيحة قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) جزاءهم المستحق (ويعلمون) علم معاينة (أن الله هو الحق المبين) العادل الظاهر عدله ولذلك ينتقم من المظلوم لظالمه (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) أي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبي، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والعكس ، يعني عائشة ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا عام فإن الطيور على أشكالها تقع، وإذا كانت عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مبرأة لأنها مع الطيب وهذا قوله تعالى (أولئك مبرؤن مما يقولون) أي أصحاب الافك (لهم مغفرة) عفو لذنوبهم (ورزق كريم) أي الجنة وقد حصت

عائشة بأن جبريل نزل بصورتها فى راحته وقال هى زوجتك ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم بكرا غيرها وقبض صلى الله عليه وسلم فى حجرها وفى يومها ودفن فى بيتها وكان ينزل عليه الوحى وهو معها فى اللحاف ونزلت براءتها من السماء وهى ابنة الصديق وخلقت طيبة ووعدت المغفرة والرزق الكريم . انتهى التفسير اللفظى وهنا (أربع لطائف) .

(١) فى قوله تعالى « ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » إلى قوله « فإن الله غفور رحيم » .

(٢) وفى قوله تعالى « أن تشهد أربع شهادات بالله » الخ .

(٣) وفى قوله « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا » إلى قوله « سميع عليم »

(٤) وفى قوله « الخبيثات للخبيثين » الخ

﴿ اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى « ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » إلى قوله « فإن الله غفور رحيم » ﴾

(١) ومقتضى هذه الآية أن القاذف إذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق سواء أكان قبل إقامة الحد أو بعده لأن الاستثناء راجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق وهذا قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبى وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهرى ومالك والشافعى .

(٢) لا تقبل شهادته أبدا بعد التوبة ولكن يزول عنه اسم الفسق وهذا لأن الاستثناء راجع إلى الفسق عند النخعى وشريح :

(٣) لا ترد شهادته بنفس القذف ما لم يحد عند أصحاب الرأى .

(٤) هو قبل الحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف تردونها فى أحسن حاله وتقبلونها فى شر حاله وهذا هو اعتراض الشافعى على أصحاب الرأى بل قال إن حد القذف يسقط بالتوبة وأن الاستثناء يرجع للكل كما تقدم .

(٥) لا يسقط الحد بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة وهذا مذهب عامة العلماء وقوله « أبدا » أى ما دام مصرا على القذف وذلك على مذهب من يقول بقبول شهادته بعد التوبة وتكون الأبدية فى كل شىء بحسبه فالقاذف أبديته حتى يتوب وأبدية الكافر حتى يؤمن أى لا تقبل ما دام على كفره .

﴿ اللطيفة الثانية « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله » إلى آخر الآيات ﴾ .

فقوله « إنه لمن الصادقين » معناه على أنه من الصادقين فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل باللام تأكيدا . روى عن سهل بن سعد الساعدى « أن عويمر العجلانى جاء إلى عاصم بن عدى فقال لعاصم أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل لى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع عاصم الى أهله جاءه عويمر فقال يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عاصم لعويمر لم يأتنى بخير، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة التى سألت عنها فقال عويمر والله لا أنتهى حتى أسأله عنها فجاء عويمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله إلى آخر ما تقدم فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم باللعان فتلاعنا فلما فرغا من التلاعن طلقها عويمر ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك قال شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين » هذا ملخص ما جاء فى الصحيحين ومثله ما جاء فى البخارى فى مسألة هلال بن أمية « لما قذف امرأته بشريك بن سمحاء وذكر أن جبريل نزل بالآية بعد أن قال هلال

وليزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فقام هلال بن أمية فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفها وقال إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت فقال النبى صلى الله عليه وسلم انظروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن » . وخدلج الساقين ممتلئ الساقين غليظهما .

﴿ اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا» ﴾

يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى فى هذا المقام إنه شرع الحدود وشرع التوبة والتوبة من نوع التهذيب والعقوبة من نوع التعذيب . فانظر كيف كان التهذيب مع التعذيب سببين لزكاة الناس وطهارتهم . ومعنى هذا أن الله فضله عم الناس ولولا فضله ورحمته لم يطهروا وعليه أصبح كل هم وغم ومصائب وأمراض كل ذلك مما يزكى ويطهر ، وأيضا كل علم وكل حكمة وكل خلق شريف كل ذلك مطهر . فالمطهرات التى أنزلها الله فى الأرض نوعان التهذيب والتعذيب فأضحت المدارس التى فى الأرض للتطهير قسمين : قسم الحوادث التى تصيب الناس وقسم المرقيات للعقول الانسانية وقد شرحت هذا فى أماكن كثيرة فى هذا التفسير .

﴿ اللطيفة الرابعة : فى قوله تعالى « الخبيثات للخبيثين » الخ ﴾

اعلم أن هذه الآية تشرح الغرائز والأخلاق والطباع وبهجتها وعجائبها وتبين أن هذا الإنسان بل هذا الوجود لا تلازم فيه إلا بالتناسب ولا اتحاد إلا بصفات متناسبة فكرة الأرض متجاذبة الأجزاء هكذا كرة الهواء وكرة النسيم فكل جزء من أجزاء هذه المواد لاحقة بأصلها مطيعة لمجموعها ذلك للتناسب والتشابه فى الصفات ، هكذا أخلاق الناس أنهم إذا تشاكلت صفاتهم اتفقوا وإذا اختلفت تفرقوا وهكذا يوم القيامة فالناس لا يجتمعون إلا حيث يتفقون ولذلك تفرق المسلمون اليوم للجهل الذى فشا بينهم ولو تناسبوا فى العلوم والمعارف لجمعتهم ووحدتهم ولكنهم جهلوا فالجهل فرقهم « والله هو الولى الحميد» .

ثم اعلم أن هذه الحكمة ألهمها الله للأمم وثبتها فى العقول فنطقت بها الألسنة وكتبت فى الكتب وذاعت فى الأمم وانتشرت فى الأقطار قديما كما ترى فى كتاب [كليلة ودمنة] فقد جاء فيه ما نصه :

﴿ حكاية العابد والفأرة ﴾

حكى أن عابدا قتل فأرة ثم ندم على ما فعل وحزن حزنا شديدا على هذا الذنب ولم يجد سبيلا إلى التوبة فى نظره إلا أنه يعلق الفأرة فى عنقه مدة ثم دعا الله أن يحييها فتصير بنتا فأجاب الله دعاءه فصارت بنتا ورباها وترعرعت وآن زمن الزواج فسألها أى الأزواج تختار فقالت أختار أقوى الأزواج فقال لها إذن تختارين الشمس قالت كلا . فالسحاب أقوى من الشمس لأنه يحجبها قال إذن أزوجك السحاب قالت كلا . فالريح أقوى منه لأنها ترفعه وتحمله إلى الجهات قال فلأزوجك للريح قالت . كلا . فالجبل أقوى بصده ومنعه قال فلأزوجك بالجبل قالت كلا . فالفأر أقوى من الجبل لأنه يحفره ويفتح فيه جحراً فعرف عند ذلك أنها لا ترغب إلا فيمن هو على شاكلتها فدعا الله فرجعت فأرة وتم الأمر وهذا قول الشاعر :

* إن الطيور على أشكالها تقع *

وقوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين » الخ انتهى الكلام على القسم الأول من السورة .

(القسم الثانى)

يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون • فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم • ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون • قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون • وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون • وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم • وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم • ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين •

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) التى تسكنونها فليس مؤجر الدار ولا الذى أعارها لهما حق الدخول إلا بإذن فالمدار على السكنى لا على الملك (حتى تستأنسوا) تستأذنوا أى تستعلموا . يقال آنس الشىء أبصره. ويصح أن يكون من الأنس على وزن فعل فإن المستأذن مستوحش قبل الإذن مستأنس بعده وأن يكون من الأنس على وزن تبر أى تتعرفوا هل ثمة إنسان (وتسلموا على أهلها) فتقولوا لهم « السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات » فان أذن له دخل وإلا رجع (ذلكم) أى ما ذكر من الاستئذان والتسليم (خير لكم) من أن تدخلوا بغتة وتحيوا تحية الجاهلية فتقولوا « حييتم صباحا . حييتم مساء » وربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف لعدم الاستئذان وإنما أنزل عليكم هذا إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم وهذا قوله (لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً) يأذن لكم (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) حتى يأتى من يأذن لكم (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) ولا تلحوا (هو أزكى لكم) أى الرجوع أطهر لكم من الإلحاح والوقوف على الباب فذلك مناف للمروءة (والله بما تعملون عليم) فيعلم ما تأتون وما تذرون فيجازيكم عليه (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) كالربط والخانات والحوانيت (فيها متاع) منفعة (لكم) كإيواء الأمتعة بالحوانيت وكاتقاء الحر والبرد فى المنازل المبنية للسابلة وكالدخول فى بيوت التجار والحوانيت فى الأسواق يدخلها الناس للبيع والشراء . فهذه كلها ليس فيها استئذان (والله يعلم ماتبدون وما تكتمون . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) عما لا يحل النظر إليه (ويحفظوا فروجهم) « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » (ذلك أزكى لهم) أنفع لهم وأطهر لما فيه من البعد عن الريبة (إن الله خبير بما يصنعون) لا يخفى عليه ما يقصدون من استعمال الأبصار وكل جارحة من جوارحهم فليحذروه (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن. روى عن أم سلمة قالت« كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحارث إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلنا يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه ؟ » رواه الترمذى وأبو داود ، ثم قال تعالى (ولا يبدين زينتهن) أى ولا يظهرن لغير المحرم الزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الأذن والقلائد فى العنق فلا يجوز للمرأة إظهارها كسائر الحلى والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها فلا تبدى منها شيئاً (إلا ما ظهر منها) عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم والكحل والخضاب فى الكف وكالوجه والقدمين ففى ستر هذه الأشياء حرج عظيم فإن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها لا سيما فى مثل تحمل الشهادة والمعالجة والمتاجرة وما أشبه ذلك وهذا كله إذا لم يخف الرجل فتنة فان خافها غض بصره (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) الخمر جمع خمار أى ليضعنها وذلك كما تقول ضربت بيدى على الحائط إذا وضعتها عليه أى ليلقين عقانهن على مواضع الجيب وهو النحر والصدر ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن ، ولقد كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حوالها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن أن يسدلها من قدامهن حتى تغطيهن (ولا يبدين زينتهن) هذا بيان لمن يحل لهم الابداء فيرون الزينة الخفية منها ومواضعها كالصدر والساق والرأس ونحو ذلك (إلا لبعولتهن) لأنهم المقصودون بالزينة فيجوز لهم النظر إلى جميع البدن ويكره النظر للفرج (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن)

لأن الطباع تنفر من مماسة القرائب فلهم أن ينظروا منهن إلى ما عدا ما بين السرة والركبة ومثل المذكورين الآباء والأبناء والإخوة وبنو الإخوة وبنو الأخوات من الرضاع . ثم قال تعالى (أو نسائهن) أى المؤمنات من أهل دينهن فيجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلى ما بين السرة والركبة ؛ ولا يجوز للمرأة المؤمنة أن تتجرد من ثيابها عند الذمية أو الكافرة (أو ما ملكت أيمانهن) من الإماء والعبيد فينظر العبد من سيدته ما عدا ما بين السرة والركبة كالأمة فهو كالمحارم وكالنساء للسلفات وهذا ظاهر القرآن وحديث أنس « إذ وهب النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة عبدا وكان عليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك أو غلامك » . وقال سعيد بن المسيب هو كالأجنبى معها وتحمل الآية على الإماء دون العبيد ، ثم قال تعالى (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) أى الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء كالبله الذين لا يعرفون شيئا من أمر النساء والشيوخ والصلحاء وكالعنين والخصى والمخنث والمجبوب . وفى حديث مسلم « أنه كان يدخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت بثمان فأمر صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل عليهن وأخرجوه إلى البيداء يدخل كل جمعة ليطعم » . وأراد بالأربع أن لها فى بطنها أربع عكن فهى تقبل إذا أقبلت بها ، وأراد بالثمان أطراف العكن الأربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسمن ، ثم قال تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى لم يعرفوا العورة من غيرها لصغرهم وعدم بلوغهم حد الشهوة والظهور والاطلاع والطفل جنس وضع موضع الجمع والوصف يدل عليه (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وهذا أبلغ من النهى عن إظهار الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت . وقد كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها فنهين عن ذلك . ثم قال تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) وإنما نبه على التوبة هنا لأن آداب هذه السورة لا يخلو أحد من التفريط فيها (لعلكم تفلحون) بسعادة الدارين لأن النفس الإنسانية أشبه بماء نهر النيل مثلا والقوى الإنسانية من الشهوة والغضب والعقل أشبه بجداول تجرى من ذلك النهر والشهوة والغضب أشبه بالبحر الأبيض المتوسط يصب ماء النهر فيه سهلا بلا فائدة ، والكف عن الشهوات كغض البصر وتجنب النساء وقلة الإفراط فى الشهوات حلالا أو حراما وما أشبه ذلك أشبه بالسدود والحبوس والقناطر الموضوعة فى مجرى النيل وسقى الأرض من الجداول النيلية فى الوجهين القبلى والبحرى ، وخروج النبات والأثمار والحدائق الغناء والأشجار والأزهار والبهجة والنماء أشبه بتصريف عقولنا فى أنواع العلوم والحكم وازدهار الآراء وجمال النفوس وإشراق القلوب فكل ما حفظناه من قوانا رجع إلى قوة العقل وكل ما أضعناه من قوى النفس فى المبصرات والمذوقات والملموسات وجميع اللذات نقص من قوة العقل والفلاح يكون بالقوة العقلية والخيبة بالتمادى فى القوة الشهوية .

وبهذا عرفت الحكمة فى غض البصر والكف عن المحرمات . فالله تعالى وضع هذه القوى أمانة عندنا فاذا صرفناها فى أسفل الأمور سفلنا وإذا صرفناها فى أعلاها علونا . وهذه اللذات المذكورة ونحوها لم تخلق إلا لبقاء النسل فهى مقدمات وللمقدمات نتائج إذ لا عقول إلا لمولود ولا ولادة إلا بهذه الشهوات . فاذا جعل الإنسان حياته مقصورة على المقدمات صار آلة ضائعة كما يضيع ماء النيل فى البحر الأبيض وإذا حفظها سقى بها حقول العلوم وبساتين المعارف وجنى ثمار اللذائذ العقلية والثناء العاجل والثواب الآجل بل الأمر فوق ذلك فان أعلى الجنة لأولى الألباب والعلم أعلى لذة فى الجنة كما هو أعلى لذة للأنبياء والحكماء فى الدنيا .

فصبح

فتعجب كيف كان هذا التحريم مقصودا به رقى عقولنا والعامة لا يفهمون مثل هذه الأمور وما يعقلها إلا الحكماء الذين فكروا فى الدنيا وخلقها . فالعامة يخافون من عذاب يوم القيامة وحده والخاصة يخافون منها ومن عذاب الدنيا بالجهالة ونقص القوى العقلية ويرون الثواب والعقاب أمامهما فى هذه الحياة مقدمة لما سيرونه بعد الموت فيكون قوله « لعلكم تفلحون » معروفا لهم فى هذه الحياة يقرءونه فى نفوسهم وفيمن حولهم ويرون الزناة والمسرفين وأمثالهم قد طوحت بهم طوائح الدهر وقلب الدهر لهم ظهر المجن وأنزل بهم العذاب الهون كما أضل عقولهم ، فعذابهم معجل فى هذه الحياة وإن كانوا لايعقلون أنهم معذبون ويسجنون وهم لا يعلمون أنهم مسجونون . ولما فرغ من الكلام على النهى عما يفضى إلى السفاح المخل بالنسب المؤدى إلى انقطاع الألفة وذهاب الأسرات أعقبه بما يكون سببا فى بقاء النسل وهو المقصود فقال (وأنكحوا الأيامى) مقلوب أيائم كيتامى جمع أيم : وهو العزب ذكرا كان أو أنثى بكرا كان أو ثيبا .

قال الشاعر :

فان تنكحى أنكح وإن تتأيمى وإن كنت أفتى منكم أتأيم

أى زوجوا من كان أعزب من الرجال والنساء البنات والأخوات والبنين والاخوان (منكم والصالحين) للنكاح (من عبادكم) عبيدكم (وإمائكم) وهذا الخطاب للأولياء والسادة وهذا الأمر للندب :

(١) فيستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة أن يتزوج .

(٢) ومن لاتتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلى للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعى .

(٣) والنكاح أفضل له عند أصحاب الرأى .

(٤) تزويج الأيامى خاص بالأولياء وتزويج العبيد والإماء خاص بالسادات عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم كعمر وعلى وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبى هريرة وعائشة وسعيد بن المسيب والحسن وشريح والنخعى وعمر بن عبد العزيز والثورى والأوزاعى وعبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق .

(٥) يجوز للمرأة أن تزوج نفسها عند أصحاب الرأى .

(٦) إن كانت دنيئة جاز لها أن تزوج نفسها وإن كانت شريفة لم يجز عند مالك .

ولما كان الناس عادة يتركون الزواج ويتحاشونه خيفة الفقر إذا كان الخاطب أو المخطوبة فى فقر أردفه بما يفيد أنه سبحانه وتعالى يغنيهما عند الزواج إما بالقناعة والرضا وإما بالمال وإما بهما معا فقال (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ففضل الله يسعها : والمال غاد ورائح .

وكم يسر أتى من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجى

وورد فى حديث « اطلبوا الغنى من هذه الآية » ثم قال تعالى (والله واسع) ذوسعة إذ لاانتهاء لفضله ولاحد لقدرته فهو يسع الزوجين وجميع الناس (عليم) يبسط الرزق ويقدر على ماتقتضيه الحكمة (وليستعفف الذين لايجدون نكاحا) ليجتهد فى العفة وقمع الشهوة من لايجدون ماينكحون به من الصداق والنفقة مثل أن يصوم الشاب إذا لم يجد المال لحديث « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ومعنى الباءة النكاح أى أسباب النكاح ، والوجاء رض الأنثيين فليستعفف هؤلاء (حتى يغنيهم الله من فضله) فيجدون مايتزوجون به .

﴿ فصل : فى المكاتبة ﴾

المكاتبة أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمى مالا معلوما تؤدى ذلك فى نجمين أى موعدين أو نجوم فى كل نجم كذا فإذا أديت ذلك فأنت حر ويقبل العبد ذلك فاذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد المكاتبة . ومتى عتق بأداء المال فما فضل فى يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا فى الكتابة فى العتق ، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ ويرده إلى الرق وما فى يده من المال فهو لسيده وهذا قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب) المكاتبة (مما ملكت أيمانكم) عبدا كان أو أمة (فكاتبوهم) :

(١) والأمر للوجوب عند عطاء وعمرو بن دينار . وقد روى أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس ابن مالك أن يكاتبه وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين إلى عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له كاتبه فأبى فضربه بالدرة وتلا قوله تعالى « فكاتبوهم » الخ .

(٢) أو للندب وهو قول أكثر أهل العلم .

(٣) والكتابة تجوز إلى نجم واحد وحالة واحدة عند أبى حنيفة ولا تقل عن نجمين عند الشافعى

وقوله تعالى (إن علمتم فيهم خيرا) أى مالا أو قوة على الكسب أو صدقا وأمانة أو الاكتساب مع الأمانة وهذا رأى الشافعى ، أو أن يكون بالغا عاقلا . وجوز أبو حنيفة مكاتبة الصبى المراهق . وقوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) يقول الله: آتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى آتاكم فليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم وأموالكم ملكه ، وكذلك أعطوا أيها الحكام المكاتبين سهمهم من الصدقات العامة المذكورة فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء » فان عتق الرقاب داخل فى الصدقات وهذا الأمر عام لكل امرئ ، فهو يحض جميع المؤمنين على عتق الرقاب . واعلم أن السيد لاحد للمقدار الذى يحطه والحط واجب وقدره بعضهم بالربع وهو قول على وقال ابن عباس يحط الثلث وأنت خبير أنه لاحد للحط .

(فصل فى عدم إكراه الإماء على الزنا)

روى أنه كان لعبد الله بن أبى ابن سلول المنافق جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما . وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون إماءهم فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يك خيرا فقد استكثرنا منه وإن يك شرا فقد آن لنا أن ندعه ، ويقال إن إحدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحرم الزنا فأتتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه فأنزل الله قوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الزنا (إن أردن تحصنا) وذكر هذا الشرط لأنه على مقتضى السبب الذى نزلت لأجله الآية وإلا فالإكراه محظور سواء أردن التحصن والعفة أم لم يردن ذلك على أن الإكراه لا يمكن إلا إذا أردن العفة ، فأما التى لا تريد العفة فليست بمكرهة على الزنا بل هى راغبة فيه . يقول الله «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء» (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى لتطلبوا كسبهن وبيع أولادهن (ومن يكرههن) على الزنا (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) يعنى بالمكرهات والوزر على المكره . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول لهن : والله لهن والله (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى مثلا من أمثال من قبلكم أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم

وهى قصة عائشة رضى الله عنها (وموعظة للمتقين) ما وعظ به من الآيات والمثل . ولقد جاء هنا من العظات البالغات ما فيه مزدجر لمدكر كقوله تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم » الخ ، وقوله « ولولا فضل الله عليكم » الخ ، وقوله « ولا يأتل أولوا الفضل منكم » الخ . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى . وههنا لطائف .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم » الخ ﴾

عن قتادة إن الاستئذان : ثلاثة . الأول . يسمع الحى . والثانى ليتأهبوا . والثالث إن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ، فإنهم فى أول مرة ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن وفى المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التساوى فإذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع فيسن له الرجوع ويجب أن لا يكون الاستئذان متصلا بل يكون ، بين كل واحدة والأخرى وقت فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام لأنه يتضمن الإيذاء وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيهم من قوله تعالى « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » وقد كان ﷺ لا يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : السلام عليكم مرتين ومن جاء مع الرسول لا يحتاج إلى استئذان وكذلك من جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان ويستأذن الإنسان على أخته وأمه لقوله صلى الله عليه وسلم لرجل وقد سأله فى ذلك « أتحب أن تراها عريانة » .

واعلم أن الاستئذان مشروع : لثلاثة أمور الدخول فى منزل الغير ، والنظر إلى المحرم شرعا ، والاطلاع على ما يكره الإنسان الاطلاع عليه . فاذن دخول ملك الغير بغير إذنه محظور والاطلاع على المحرمات محظور شرعا هكذا فليكن محظورا على الإنسان الدخول على أمه وأخته وزوجته وأمته للخصلة الثالثة فانهن ربما كن فى حال لا يحببن اطلاع أحد عليها فلئن نجا من الحرمة مع هؤلاء بالنسبة لتحريم النظر وحظر الدخول فى ملك الغير فليكن ذلك للأمر الثالث وعليه صار الاستئذان على جميع الناس قريبا وبعيدا ومحارم وزوجات وهذا هو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « أتحب أن تراها عريانة » .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

قال صلى الله عليه وسلم « تزوجوا الولود الودود فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وقوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » قد أخذ منه بعض العلماء كما فى تفسير البيضاوى أنه يجب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبها ، ويقول عامة السلف : إن النكاح مستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبته ، كما تقدم . فلعلك من هذا أنه قد أوجب بعض العلماء على السيد تزويج عبده وأمته فى حال خاصة . ومن المعلوم أن الإنسان إذا خاف الفتنة ولم يجد سبيلا لدرئها وجب عليه النكاح . واعلم أن هذا الزمان الذى نكتب فيه هذا التفسير قد تغيرت فيه طباع أهل المدن فترى ، الشبان المتعلمين يغدون ويروحون وقد أسكرهم الصبا وخامرهم الجهل وأحاط بهم الشيطان فأسدل عليهم حجابا من الخزى والعار فترك بعضهم الزواج اكتفاء بالزنا واستخفافا بالدين فأصبح المسلمون المتعلمون فى الأمصار أشبه بأهل باريس الذين يفضلون الخلاعة على الزواج . ولما رأت هكذا حكومة الترك سنت قانونا تجبر فيه الشاب الذى لم يتزوج بعد السنة الثامنة عشرة أن يدفع مالا للحكومة لتنفقه على أبناء المتزوجين . ولقد بلغنا أن الأمة الروسية التى أصبحت اليوم (بلشفية) أى أنها تجرى على حكم الأكثرية تأمر الفتيان والفتيات بالتزوج بعد الثامنة عشرة فان لم تتزوج الفتاة قبل هذا السن زوجوها لمن يريدون هم . واعلم أن هذا الأمر يجب على علماء الإسلام أن يفكروا

فيه فإذا رأوا خلاعة منتشرة وفسوقا واضحا فلا حرج عليهم إذا أفتوا بما يحفظ الأعراض ويشغل الأرحام بالأجنة والذكور بالعفة والنساء بتربية الأولاد ولكن ذلك بحكمة وتفكر . ولقد نرى أئمتنا المتقدمين رضوان الله عليهم قد نظروا فى ذلك من عدة وجوه تارة من حيث التخلى للعبادة بترك النكاح وتارة بغير ذلك كما تقدم.

فلينظر اليوم علماء الإسلام إلى الخطر المحدق بالمسلمين وليعلموا أن الله خلق الذكور بقدر الإناث تقريبا ودليل ذلك تعداد المواليد فإنك تراه متعادلا تقريبا فى جميع الكرة الأرضية . وإذا كان التعداد جائزا ليكون اللواتى لا عائل لهن يجدن من يعولهن . فإذا تزوج جميع الصالحين للنكاح لم يبق هناك نساء لا عائل لهن فاذا نفذ قانون على هذا الوضع وحتم على كل صالح للنكاح أن يتزوج صالحة للنكاح فذلك لايمنع منه ديننا فإن قوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين » الخ قد قال بعض العلماء بحمله للوجوب فى مسألة الإماء والعبيد ولم يبق إلا أن نعممه فيكون للجميع . وإذا صح ذلك أصبح الزواج فرضا لازما للصالحين له كفرض الصلاة والصيام . وإذا قلنا يمنعه الفقر فالحكومات اليوم أصبحت تساعد الذى لا زوج له فقد زال هذا المانع وإذا كانت فيه عاهة فينظر فى أمره . وانى لست أقطع فى هذه المسألة . وإنما أقول إن المجال فيها متسع وديننا صالح له . فهنا أمر بقوله « وأنكحوا الأيامى » وفى الحديث . والترغيب فى النكاح كثير فى الشرع وإذا كانت ألمانيا وتركيا والروسيا يحرصن على إكثار نوع الإنسان . ويفرض الزواج عند البعض على كل صالح له وصالحة .فهل هذه الأمم تكون أحرص على إكثار النسل من الإسلام؟ كلا . فالنبى صلى الله عليه وسلم . يقول « تزوجوا الولود الودود فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » ولعل فى قوله تعالى « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » رمز إلى ما تفعله دولة تركيا اليوم من تغريم الأعزب وإعانة المتزوج ، وانظر إلى امبراطور ألمانيا (غليوم) الذى كان السبب فى الحرب كيف كان يحرض قومه على إكثار النسل وكيف أمر العلماء فاخترعوا صورا للمتزوج وصورا للأعزاب فجعل الناس يدخلون فيرون رجلا أشمط وامرأة شمطاء منزويين فى ركن المنزل قد آذاهما البرد وهما منكمشان وآخرين معهما أولادهما هذا يعمل وذلك يلعب وهذه تطبخ وهذا يصنع الخبز وهذه ترتب البيت وهكذا والأبوان مستبشران فرحان فيرغب الناس فى النكاح ولذلك صارت ألمانيا نحو (٧٠) مليونا . أما فرنسا فإنها صارت أقل من أربعين مليونا . فالمسلمون أولى بإكثار النسل . واعلم أن التعدد المذكور فى الآية لا يكون إلا حيث يتخلى قوم عن الزواج لهوا ولعبا أو فقرا . فأما إذا أمر الناس جميعا بالزواج فلا تعدد إلا نادرا جدا . واعلم أن التعدد اليوم فى الإسلام لا يزيد على ثلاثة أو خمسة فى المائة ، فإذا تم ما ذكرته نقص التعدد بل ينعدم وأمة الإسلام قابلة لذلك لأنه إذا كان كل امرأة لرجل والله قد جعل العدد على هذا المنوال ولم يخلق إلا بقدر فخلق الذكور على عدد الإناث كما تقدم فيكون التعدد إذن نادرا جدا بل يكون خارجا عن العدل لأنه إذا كانت عندك امرأة صالحة للنكاح فكيف تحجبها عن رجل صالح للنكاح ويكون قوله تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » الخ مقربا لذلك لأنه إذا كان خوف عدم العدل بين الزوجتين يمنع التعدد فليكن خوف حرمان الأعزب من امرأة صالحة للنكاح غير عدل . واعلم أن هذه المباحث أوردتها ولم أعط فيها رأيا . ولكن عرضتها لبحث العلماء وتفكير الحكماء ومراعاة مقتضيات الأحوال وتكون الفتيا على حسب الأحوال وهذا يحتاج إلى إجماع أهل الحل والعقد فى الممالك الإسلامية فما أجمعوا عليه بعد البحث والتروى يصبح دينا ومباحث هذه مقدمات لمباحثهم المستقبلة إن شاء الله تعالى وسيكون فى الأمة الإسلامية من قراء هذا التفسير من يشرون هذه المباحث وستكون مباحثهم إجماعية فما استقر الرأى عليه فلا خلاف فيه . اللهم اهد أمتنا الإسلامية إلى سواء الصراط . انتهى الكلام على القسم الثانى من السورة .

(القسم الثالث)

الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم * في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب * والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور * ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون * ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير * ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار * والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير * لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه

مذعنين • أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل
أولئك هم الظالمون • إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم
أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون • ومن يطع الله ورسوله ويخش الله
ويتقه فأولئك هم الفائزون • وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل
لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون • قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا
فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ
المبين • وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما
استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم
الفاسقون • وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون •
لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير • يا أيها
الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم
ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة
العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم
بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم • وإذا بلغ
الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته
والله عليم حكيم • والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن
يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، وأن يستعففن خير لهن، والله سميع عليم • ليس
على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن
تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم
أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو
بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن

تأكلوا جميعا أو أشتاتا ، فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون * إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم * لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (الله نور السموات والأرض) مزين السموات بالنجوم والأرض بالنبات والمياه ومنور قلوب أهل السموات والأرض من الملائكة والمؤمنين (مثل نوره) نور الله فى قلب المؤمن (كمشكاة) كصفة مشكاة وهى الكوة غير النافذة . ويقال أيضا الأنبوبة فى وسط القنديل (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) فى قنديل من زجاج (الزجاجة كأنها كوكب درى) نجم مضىء من هذه الأنجم الخمسة : زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد وهذه هى الأنجم الدرية منسوبة للدر فى الصفاء (يوقد) المصباح أو توقد الزجاجة أى مصباحها (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) أى أخذ دهن هذا القنديل من شجرة الزيتون بفلاة لايصيبها ظل الشرق إذا غربت الشمس ولاظل الغرب إذا طلعت الشمس بل هى مصاحبة الشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وغروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وأصفى أو لانابتة فى شرق المعمورة ولاغربها بل هى فى الشام وزيتونه كما يقال أجود الزيتون (يكاد زيتها يضىء) من وراء قشرها (ولو لم تمسسه نار) فالزيت لصفائه وتلألؤه يكاد يضىء من غير نار وباجتماع المشكاة الجامعة للنور والزجاجة المقوية له والمصباح المتقد والزيت الصافى يكون النور أقوى، فلولا المشكاة لتفرق فى الجهات الست، ولولا صفاء الزيت لم يكن الضوء باهرا ، ولولا الزجاجة لم يكن متضاعفا وهذا معنى قوله تعالى (نور على نور) وقوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) لنور المعرفة ودين الإسلام ونور البصيرة ، وهذا النور الثاقب (ويضرب الله الأمثال للناس) تقريبا لأفهامهم ليعتبروا (والله بكل شىء عليم) فيبين كل شىء بالطرق التى يعلم أنها توصل إليه ، وقوله (فى بيوت) أى تلك القناديل المدلول عليها بالمشكاة والمصباح والزجاجة والزيت معلقة فى مساجد (أذن الله أن ترفع) أمر الله أن تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول وتطهر من الأنجاس والأقذار (ويذكر فيها اسمه) يتلى فيها كتابه ويباحث فى أحكامه وأفضاله (يسبح له فيها بالغدو والآصال) يصلى له بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ووحد الغدو لأن صلاته واحدة وفى الآصال صلوات وهى جمع أصل ككتب جمع أصيل وهو العشى ، وقوله (رجال) فاعل

يسبح ، ومن قرأ « يسبح » بالبناء للمجهول فيكون مسندا لقوله « له » ورجال فاعل لما دل عليه يسبح أي يسبح له رجال (لاتلهيهم تجارة) لا تشغلهم تجارة فى السفر (ولابيع) فى الحضر (عن ذكر الله) باللسان والقلب (وإقام الصلاة) أى وعن إقامة الصلاة وحضور المساجد لذلك (وإيتاء الزكاة) المفروضة (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) أى هؤلاء الرجال وإن بالغوا فى الطاعات من الصلاة والزكاة وذكر الله وجلون خائفون لأنهم يعلمون أنهم ما عبدوا الله حق عبادته وما قدروه حق قدره ، ويخشون يوما تضطرب فيه وتتغير القلوب فتفقه مالم تكن تفقه وتبصر الأبصار مالم تكن تبصر وتخشى الهلاك وتطمع فى النجاة (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يقول اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا وهى الحسنات كلها وهى الطاعات فرضها ونفلها . وأما غير الأحسن وهى المساوى فهو يغفرها لهم أو يجازيهم جزاء أحسن من أعمالهم من عشرة إلى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) فهو لا يقتصر على مكافأتهم على أعمالهم (والله يرزق من يشاء بغير حساب) لكمال قدرته وسعة إحسانه وفضله (والذين كفروا أعمالهم كسراب) وهو مايرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب أى يجرى على وجه الأرض كأنه ماء يجرى (بقيعة) جمع قاع وهو الأرض المستوية (يحسبه الظمآن ماء) يظنه العطشان ذلك (حتى إذا جاءه) أى جاء إلى ماتوهم أنه ماء (لم يجده شيئا) كما ظنه (ووجد الله) أى جزاء الله (عنده) عند الكافر (فوفاه) أعطاه (حسابه) جزاء عمله وافيا كاملا (والله سريع الحساب) لايشغله حساب عن حساب . روى أنها نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية تعبد فى الجاهلية والتمس الدين فلما جاء الاسلام كفر ، وقوله (أو كظلمات) عطف على « كسراب » يقول الله إن أعمال الكفار إن كانت حسنة فهى كسراب الخ وإن كانت سيئة فهى كظلمات (فى بحر لجى) ذى لج أى عميق واللج معظم الماء (يغشاه) يغشى البحر (موج من فوقه موج) أى أمواج مترادفة متراكبة (من فوقه) من فوق الموج الثانى (سحاب) غطى النجوم وحجب أنوارها هذه (ظلمات بعضها فوق بعض) أى إن البحر يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة حدا لايطاق (إذا أخرج يده) وهى أقرب مايرى إليه (لم يكد يراها) لم يقرب أن يراها فضلا عن رؤيتها (ومن لم يجعل الله له نورا) ومن لم يوفقه لأسباب الهداية (فماله من نور) وأما الموفق فله نور على نور كما تقدم فى مثل المشكاة . واعلم أن الآيات المتقدمة قد اشتملت على نمطين : [النمط الأول تسبيح الرجال الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فى مثل المشكاة [والنمط الثانى] السحاب المتمم فى مثل أعمال الذين كفروا إذا كان فوق الأمواج المائجة فى البحر اللجى الخ . لذلك أخذ يذكر مايناسب الأول قائلا سبحانه إن كل من فى السموات والأرض يسبحون له وخصص نوعا منها بديع الصنع عجيب الوضع والإحكام وهى الطير حال كونها صافات باسطات أجنحتها فى الهواء مع ثقل أجسامها فبالحكمة ارتفاعها وبالنظم البديع طيرانها مخالفة لسائر الدواب الأرضية إذ قويت على مخالفتها ومغالبة القوة الجاذبة الأرضية ؛ فعلت إلى الجو وعاشت فى الهواء الطلق فدلالتها على المبدع الحكيم أقرب وإبداعها أحكم كل واحد مما ذكر (قد علم) الله (صلاته وتسبيحه) دعاءه وتنزيهه وذلك إما باختياره كالانسان وإما بطبعه كسائر الحيوان والطير فانها وإن لم تصل كصلاة الإنسان فان غرائزها المستمدة من النور الأعلى تستمد الرزق والأحوال من المبدع وهذا الاستمداد والطلب فى معنى الدعاء بالغريزة والطبع وهى بما ركب فيها من دقائق الصنعة وبدائع الحكمة وما حليت به من الريش الناعم البهج الجوف الخفيف والمناقير المحدبة المساعدة على النهوض فى الهواء ، بذلك كله تدل على حكمة نظمها وحكم أبدعها . ألم تر إليها كيف كتب الحمل والارضاع على ذوات الأربع ولم تحمل هى مالا طاقة لها به بل حكم عليها أن تبيض ولم تحمل أذى الحمل والإرضاع خيفة أن يعيقها عن الطيران وخف

ريشها وكان مجوفا ولم يكن لها كرش ولا أمعاء واستغنى عن ذلك كله بغيره من الحوصلة والقانصة . كل ذلك إبداع وإتقان ليتم أمر الطيران بخفة الأجسام «فتبارك الله أحسن الخالقين» (والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض) فهو يشملها بعلمه ويملكها بقدرته ، فبالعلم يقدر المصالح وبالقدرة يعمل مايقتضيه العلم من الحكمة فلذلك كان تدبيرها محكما بحيث خصص كلا بخاصة لايشركه فيها سواه (وإلى الله المصير) المرجع . ثم أخذ سبحانه يذكر مايلائم النمط الثانى فقال : (ألم تر أن الله يزجى سحابا) يقول الله بعد أن ذكر فى المثل الثانى إن السحاب فوق الأمواج المتراكمة يزيد الجو ظلمات ويوقع الراكب فى حيرة ألم تر أن الله يسوق سحابا (ثم يؤلف بينه) أى يضم بعضه إلى بعض (ثم يجعله ركاما) متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من فتوقه جمع خلل كجبال فى جبل (وينزل من السماء) من الغمام وكل ماعلاك فهو سماء (من جبال فيها) من قطع عظام تشبه الجبال فى عظمها وألوانها (من برد) من للتبعيض والثانى قبلها للابتداء أى أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها ، وذلك أن الأبخرة إذا تصاعدت فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد هناك اجتمعت وصارت سحابا ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطرا وإن اشتد فان وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجا وإلا نزل بردا وقد يبرد الهواء بما فيه من البخار بردا مفرطا فينقبض وينعقد بخاره سحابا وينزل منه المطر أو الثلج . وهذا المقام قد أوضحته فيما تقدم فى [سورة الرعد] وسيتضح قريبا (فيصيب به) بالبرد (من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه) ضوء برقه (يذهب بالأبصار) بأبصار الناظرين إليه من فرط الاضاءة وذلك من العجائب أن السحاب الذى ضرب به المثل فى تقوية الظلمة يكون منه نور يكاد يذهب بالأبصار فهذا قد اشتق النور من الظلام والهداية من الضلال . فالسحاب الذى ذكر مثلا لظلمة أعمال الكافرين أضاء الجو بنور وأشرق فى سائر الأقطار وكاد يخطف الأبصار ولذلك أعقبه بما هو من قبيله فقال (يقلب الله الليل والنهار) بالمعاقبة بينهما وبأن ينقص من أحدهما مازاد فى الآخر وبتغير أحوالهما نورا وظلمة وحرا وبردا وغير ذلك كما كان السحاب ظلمة واشتق منه نور البرق الذى يبهر الأبصار (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) لدلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وحكمته .

﴿ فصل : فى علم الحيوان ﴾

اعلم أن الله تعالى لما ذكر مثل المؤمنين بالمشكاة ومثل أعمال الكفار بالسراب وبالظلمات وذكر منها السحاب ثم جعل ذلك السحاب موضوع نظر وبحث وبين نظامه وعجائبه وأن الماء ينزل منه أتبعه سبحانه بذكر الحيوانات لأنها من الماء النازل من السحاب . وذلك أنه مامن حيوان إلا وهو مركب من مواد أحدها الماء فالماء نزل من السحاب وجرى فى النهر وتفرقت منه أجزاء فدخلت فى جسم كل حيوان .

(١) فمن الحيوان مايتكاثر بالانقسام بمعنى أنه إذا بلغ أشده انقسم إلى اثنين كل منهما إلى اثنين وهكذا على التعاقب .

(٢) ومنه ماينقسم الحيوان منه إلى عدة حيوانات .

(٣) ومنه ما إذا بلغ أشده انفجر فخرج منه حيوانات صغيرة تنمو وتتناسل ويموت هو .

(٤) ومنها مايتناسل بالتبرعم وذلك أنه ينبت على جسم الحيوان نتوء كالبرعم ثم يبلغ فينفصل ويصير حيوانا مستقلا .

(٥) ومنها مايتناسل بالبيض إذ يتكون الجنين فى البيضة كما يحدث فى ذوات الفقرات . فمنه ماتخرج فيه البيضة من الأنثى قبل بلوغ الجنين وتتم حضانتها فى الخارج كالطيور وبعض السمك ، ومنها ماتبقى البيضة

فى الرحم ويشكون الجنين فيه ثم يولد كاملا كالانسان وذوات الأربع من البهائم والوحوش والسباع ومأأشبه ذلك ، فكل هذه تلد الجنين بعد أن يترقى فى بطنها وهذه الحيوانات على اختلاف أنواعها مكونة من الماء مختلطا بغيره ممتزجا به متحدا معه وهى :

(١) إما حيوانات فقرية ذات عظام ودم وهى :

(ا) الانسان . (ب) وذوات الأربع . (ج) والطيور . (د) والسمك .

(ه) والزواحف كالحيات .

(٢) حيوانات حلقية قد تركب جسمها من حلقات : (١) وهى الحشرات كالذباب وأبى دقيق من كل ماله ستة أرجل . (٢) والعناكب وهى ذوات ثمانية أرجل . (٣) وماله أكثر من ٤٠ رجلا .

(٤) والأرض الخشب . (٥) والدود .

(٣) وإما حيوانات قشرية ليس لها عظام ولا دم ولا حلقات تركب منها جلدها وإنما جسمها هلامى قد يحفظ فى قشر يحيط به وذلك كالقوقعة وغيرها مما تقدم شرحه فى هذا التفسير .

(٤) وإما حيوانات شعاعية تظهر على شواطىء البحار كالحيوان المسمى (سمك النجم) وغيره مما تقدم شرحه موضحا ولعلها تتضح بأوسع من هذا قريبا .

هذه هى أقسام الحيوانات وقد علمت أنها كلها خلقت من ماء أى إن الماء داخل فى تركيبها . فتعجب كيف ذكر الله السحاب فى مثل أعمال الكفار ثم شرح السحاب وعجائبه ثم ذكر الحيوان المخلوق من الماء من حيث تركيبه منه وكذلك أكثر الحيوان يتولد من نطفة وإنما قلنا أكثر لأن بعضه قد رأيت أنه يتولد من نتوء فى الجسم أو بالانقسام . فهذا ليس تولده من نطفة بل ذلك بالانقسام « وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » وإذا فهمت هذه المقدمة عرفت أيها الذكى قوله تعالى (والله خلق كل دابة) حيوان يدب على الأرض (من ماء) وهو جزء مادته أو ماء مخصوص وهو النطفة وقد علمت شرحه وافيا كاملا (فمنهم من يمشى على بطنه) إشارة إلى الزواحف التى هى من ذوات الفقرات كالحيات (ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) وذلك كالطيور وكذوات الأربع كما تقدم (يخلق الله مايشاء) مما ذكر ومالم يذكر ومنه ذوات الحلق وذوات القشر والحيوانات الشعاعية ومايمشى على ستة أرجل وعلى ثمانية أرجل وعلى أربعين رجلا . وهذه تقدم أنها من ذوات الحلق (إن الله على كل شىء قدير) وهو بقدرته نوع الحياة فلم يخص بها ذوات الفقرات ولاذوات الحلقات ولاالحيوانات ذوات القشر التى جسمها رخو فتراه جعل الحياة سارية عامة فلا يحجبها فقد العظم ولا فقد الدم ولا فقد الحلقات ولا فقد القشر . وترى الدودة العارية التى لا عظم لها ولا جلد عائشة فرحة . وترى نوع الحشرات وحده كالنمل والذباب والبعوض والناموس والجنادب والخنافس والنحل والجعلان ودود القز ونحوها أصنافا كثيرة ربما زاد عددها على مجموع سائر أصناف الحيوان من الدود إلى الانسان . ولقد وجدوا أن الخنافس وحدها نحو (٨٠٠٠٠) صنف ولذلك يقدرون الحشرات المعروفة بنحو (٢٠٠ر٠٠٠) ويتوهمون أن تبلغ بما يكشفونه من أنواعها الصغيرة مليون صنف . وهذه الحشرات كلها ما علم منها ومالم يعلم يمر فى دور التكوين على ثلاث درجات فهو يكون دودة لدنة الملمس تنسل بين التراب أو الأعشاب ثم تصير جندبا صلب القشر يثب وثبا ثم تصير فراشة ذات أجنحة تتلألأ بالألوان الزاهية . وقد تأكل فى دورها الأول التراب فتهضمه وتصبح فى دورها الثانى لا تهضم إلا أوراق العشب الندية . ومنها دود الحرير فهو يكون دودا فشرنقة ففراشة ثم تبيض الفراشة بزورا والبزور تصير دودا والدود يفرز لعابا واللعاب يصير خيوطا وهو الحرير يصنع به غلافا يكمن

فيه

فيه وهى الشرنقة ثم تخرج من الشرنقة فراشا بأجنحة يتزاوج ويبيض . ومنها الذباب الاعتيادى فهو يلقى بزورا صغيرة بيضاء تصير دودا أبيض وهو الدود المعروف الذى يشاهد فى اللحم النتن والجبن والمش القديم ثم يتحول ذلك الدود الى جنادب تدب لا أجنحة لها ثم يتحول إلى فراش يطير ومنه الذباب الفارسى فانه يكون فى الدور الأول دودا ثم يخلع ثوبه ويصير جندبا يدب تحت الماء يتسلق الأعشاب المائية وله قوائم قصيرة بلا أجنحة ولا يعيش إلا فى المياه أو الأوحال فاذا جاء أجل انتقاله إلى فراش تسلق أوراق العشب وخلع ثوب (الجندبية) فاذا هو خارج من تحتها ذا أجنحة صغيرة جميلة وبعد قليل تصير كبيرة يطير بها إلى حيث يشاء . وكان الناس قبلا يظنون أن كل دور من هذه الأدوار حيوانا مستقلا ، فالدودة غير الجندب والجندب غير الحشرة الطائرة وهكذا . واعلم أن الناس يأكلون الجبن واللحم ويرون فيهما الدود ولا يخطر ببالهم أن هذا الدود هو عين الذباب الذى يطير على وجوههم وطعامهم أنه هو هو وهذا الدود هو الذى يصير جندبا أو شرنقة ثم يصير حشرة طائرة وهى التى تبيض وبيضها يصير دودا . ومن ذلك الناموس فانه يضع بزورا فى الماء تصير دودا فيه وذلك الدود يصير شرنقة وهى تصير ناموسة وهكذا . والطريقة لإبادة الناموس ردم المستنقعات والآجام أو تغطية سطوحها بالسائل المسمى بترول . وهذه الأدوار الثلاثة لهذه الحشرات مختلفة . فالدودة لا عمل لها إلا الاغتذاء كالأطفال فى بنى آدم فهى تنمو وتزيد ثم تنكمش كما نرى دودة الحرير وقد تكتسى ثوبا تنسجه على نفسها من خيوط فهى حينئذ الشرنقة وهى كجثة محنطة ملفوفة بالأكفان ثم لا نلبث أن نرى الحياة أخذت تدب فى تلك الجثة رويدا رويدا حتى تبث من مرقدها وتخلع أكفانها وقد لبست ثوبا جديدا زاهى اللون من أزرق أو أخضر أو أحمر أو ذهبى أو عقيق أو بنفسجى . فتعجب من حشرة بهيجة اللون بديعة التركيب منقشة مرقشة نشأت من رمة جافة لا يظهر للحياة فيها أثر . ومن هذا نشأ تقديس المصريين القدماء الجعلان (جمع جعل) فانها تنشأ من رمم مائتة فرمزوا بها للحياة والخصب وأكثروا من رسمها فى كتاباتهم ونقشوها على الهياكل وصنعوا لها التماثيل بأقدار مختلفة وكانوا يصلون لها . فاعجب لصنع الله وكيف خلق هذه العجائب ولون الألوان وأبدع الأشكال وحير الألباب حتى جعل علم الحشرات مدهشا . وقد تقدم بأوسع من هذا فى آخر [سورة الحج] ولعمرى إن المسلمين أحق الأمم بفهم هذه العجائب .

أى عذر للمسلمين فى جهالتهم . يقول الله فى هذه الآيات « فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » . فانظر كيف قال إنه يخلق ما يشاء ، وقال إنه على كل شىء قدير مشيرا بذلك إلى الاختلاف وحسن الصنع الذى رأيته وكيف كانت الحشرات موضع العجب للأمم حتى قدس المتقدمون من الأمم بعضها لأن علماءهم لم يبينوا لهم عجائب إلا عجائبها ، ولو أنهم فتحوا لهم باب العلم على مصراعيه كما فتحه القرآن لم يقفوا فى العجائب عند حد الجعلان فقدسوه بل التقديس لصاحب الصنعة الذى زين ونقش وزخرف وأبهج صنعه وأبدع إتقانه وجعل دودة ربما هضمت الطين فتصير فراشة لا تهضم الطين ولا تأكله بل تأكل ما هو ألطف . إن هذا العالم عجيب « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » وههنا أربع لطائف

(١) فى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » إلى قوله « كمشكاة فيها مصباح » الخ .

(٢) وفى قوله « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

(٣) وفى قوله « والطير صافات » الخ

(٤) وفى قوله « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » إلى قوله « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »

﴿ اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » ﴾

اعلم أن هذه السورة قد بين الله فيها أحكام الزانية والزانى وجلدهما ، وبين حكم من رمى زوجته بالزنا وعقابه ، وبين حكم الملاعنة وكيف يتفرق الزوجان بها ثم قصة الإفك وكيف خاض الناس فيه وجعل هذا الحديث كحديث مريم ابنة عمران فى عفتها وأنها أحصنت فرجها . ثم أبان كيف يجب أن يعفو الانسان عمن ظلمه كما امتثل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فعفا عن مسطح ؛ ثم أمر الرجال والنساء بغض الأبصار وحرم عليهن أن يظهرن زينتهن لغير المحارم. ثم بين حكم النكاح والمكاتبة تكثيرا للنسل فى الأول وحفظا للفرج وعتقا للعبيد الذين هم عباد الله وبين أنه يجب أن ينفق من المال فى سبيل العتق فان المال مال الله والخلق عباده فتحا لباب الحرية لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين ومن رحمته لهم أن يكون دينه فاتحا لباب الحرية وإطلاق العبيد من رقهم . ثم ختم ذلك بأن هذه آيات مبينات ومواعظ للمتقين . ولما كانت هذه الأحكام إنما أتى بها لتعليم الأخلاق والآداب وحفظ المجتمع مما يقوض دعائمه وتقويته بما يكثر النسل فيه وكان ذلك مقدمات لما هو أعلى مراما وأجل وأعظم وهى المعارف والعلوم أردفه بقوله « الله نور السموات والأرض » كأنه تعالى يقول أيها الناس لاتلهكم الأحكام الشرعية من الحلال والحرام وأحكام الزنا والنكاح والقذف وما أشبه ذلك لا تلهكم عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، كما قال فى آية أخرى « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله » . فههنا كان الله يقول لاتلهكم أيها الناس أحكام النكاح والقذف والعتق وحده والزنا وعقابه عن عظائم الأمور وجلائلها . أيها الناس ارفعوا رءوسكم إلى أعلى . انظروا إلى جمالى ونورى فى شمسى وفى قمرى وفى النبات والزهر والنهر . أنا لم أخلقكم فى هذه الأرض لتكونوا فيها خالدين وإنما خلقتكم لتعيشوا آمنين أمدا ثم أنقلكم إلى دار أجمل من هذه ولن تنالوا تلك الدار الجميلة إلا إذا نظرتم جمالى وفهمتم بعض حكمى وابتدأ ذلك بقوله « الله نور السموات والأرض » الخ .

واعلم أن الله جعل هذا المثل نبراسا للعوالم المشرقة ؛ ضربه بما نشاهده كل يوم فى مساجدنا . يقول الله أى عبادى أتريدون أن تعرفوا حكمى فى خلقى ؟ انظروا القناديل المعلقة فى مساجدكم : انظروها ألا ترون أنبوبة فيها زيت أحاط بها زجاجة اشتعلت فيها نار فأضاءت للمساجد وأنتم تصلون فيها . فهذا نظام مركب تركيبا أنتج هذا النور الذى أشرق على أبصاركم فأضاء لكم مساجدكم هكذا نورى المشرق فى عجائب خلق وههنا أخذ الناس يفكرون فى ذلك التمثيل ، فقوم خصصوه :

(١) فقالوا ذلك تمثيل لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) وقوم قالوا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٣) وقوم قالوا ذلك لكل مؤمن عموما .

(٤) وقوم قالوا كلا . بل هو لكل إنسان أى لقواه المدارِكة .

(٥) وقوم قالوا بل هو لقواه العاقلة .

(٦) وقوم قالوا هو القرآن .

اختلفت أنظار العلماء فى هذا التمثيل على مقدار هممهم ومقتضى نظرهم ومقامهم فى العلم ، فمن كان لايعرف إلا الإيمان قال به . ومن كان مغمورا فى نور النبوة قال بها . ومن كان ذا نظر فى السموات والأرض والعالم عمم المثل ، فتارة أرجعه لنفس الإنسان وتارة لقواه المدراكة . وتارة لقواه العاقلة وهذا أعم الأقوال لأن الإنسان

يشمل الأنبياء والإيمان القائم بالقلوب . واعلم أن هذا المثل اللفظى الذى جعل مشاكلا لعجائب أجسامنا وعقولنا وإدراكنا أشبه بما نصبه الله فى الأرض من الأجسام الإنسانية إذ أحكم صنعها ونظم أعضاؤها وخلق وسوى وقدر وأحكم فجعلها الغطاء تمثيلا لأمور وهى :

(١) كالسفينة تركبها الروح فى بحر الحياة اللجى حتى تصل إلى شاطئ الموت .

(٢) أو كالدار فيها السكان المختلفون من القوى الدراكة وأعضاء الحس وأعضاء الحركة والهاضمة والمصورة والغاذية وماأشبه ذلك ، وفيها أمتعة كالصفراء والدم والبلغم ونحوها .

(٣) أو كاللوح والنفس تنقش فيها وترسم وتتعلم حتى إذا علمت ماتطيقه رمت باللوح وراحت إلى ربها ، كما أن الطفل يقرأ فى اللوح ويتعلم حتى إذا عرف القراءة المطلوبة ترك اللوح وذهب إلى مايريد .

(٤) أو كالمدينة والروح ملكها والأعضاء منازلها الخ .

(٥) أو كالدكان والروح صاحبها والأعضاء الباطنة متاعها والأعمال تجارتها والربح والخسارة فى آخرتها وهكذا . هكذا هذا المثل وهو قنديل المسجد .

﴿ الوجه الأول من الوجوه السابقة ﴾

إن هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم ، فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار .

﴿ الوجه الثانى ﴾

المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله فيه « لاشرقية ولاغربية » لايهودى ولانصرانى « توقد من شجرة مباركة » وهو إبراهيم عليه السلام « نور على نور » نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذان الوجهان متقاربان فلذلك عدا فى الإجمال وجها واحدا .

﴿ الوجه الثالث ﴾

المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم . سمى الله محمدا مصباحا كما سماه سراجا منيرا والشجرة المباركة إبراهيم لأن أكثر الأنبياء من صلبه « لاشرقية ولاغربية » يعنى إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لأن اليهود تصلى إلى الغرب والنصارى تصلى إلى الشرق .

﴿ الوجه الرابع ﴾

إنه لكل مؤمن وهذا أرقى مما قبله وأوسع مدى على حسب ارتقاء النظر واتساع الفكر ، فالمشكاة نفسه . والزجاجة قلبه والمصباح الإيمان فى قلبه ، والقرآن يوقد من شجرة مباركة هى شجرة الإخلاص لله وحده وهذا التمثيل وإن كان أعم مما قبله فهو قاصر على قوم مخصصين .

﴿ الوجه الخامس ﴾

إن هذا تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الدراكة الحس التى بها المعاش والمعاد وهى الحساسة التى تدرك بها المحسوسات بالحواس الخمس ، والقوة الخيالية التى تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العاقلة متى شاءت ثم العاقلة التى تدرك الحقائق الكلية وتستنتج . ثم القوة القدسية التى تتجلى فيها لوائح الغيب الخاصة بالأنبياء . فهذه مثل لها بالمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت . ألا ترى رعاك الله أن المشكاة بمعنى الكوة قد شابهها محال الحواس التى قد وضعت فيها ووجهها إلى الظاهر ولا تدرك ماوراءها كالعين فإنها لاتدرك ماخلفها ولكن تدرك ماأمامها . ثم إنك تعلم أن الإنسان إذا أدرك المحسوسات وصورت فى نفسه

صارت في القوة الخيالية كما يحس به كل إنسان، فاننا إذا أغمضنا أعيننا فانا ندرك في أنفسنا تلك الصور التي رأيناها فهذه القوة التي حفظت تلك الصور نسميها الخيالية فهي كالزجاجة تقبل صور المدركات وتضبطها ، ثم إن قوتنا الفكرة أكبر من هذه القوة الخيالية فان هذه القوة الكامنة فينا تتصرف في الصور التي في قوة الخيال فتقول هذا حسن وهذا قبيح وتستنتج فهي كالمصباح ، فأما القوة العاقلة فهي كالشجرة المباركة لأنها تؤدي إلى ثمرات لانهاية لها . فأما كونها زيتونة لاشرقية ولا غربية فذلك أنها تجرد المعاني عن الصور وتخترع القضايا الكلية التي لاتخص شيئا بعينه أي لاتتقيد بالجزئيات . فاذا أدركت أن الكل أكبر من الجزء وأن الشيئين المساويين لشيء واحد متساويان فلم يكن هذا المعنى خاصا بشيء دون شيء فهو لاشرقي ولا غربي بل هو عام . فأما الزيت فهو كالقوة القدسية الخاصة بالأنبياء فهي لشدة صفائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تعليم ولا تفكر .

﴿ الوجه السادس ﴾

إن هذا تمثيل للقوة العاقلة وحدها ، فهي في بدء أمرها خالية من العلوم ثم تنقش فيها العلوم بالحواس الخمس فتصير كالزجاجة متلألئة في نفسها قابلة للأنوار، ثم تعرف العلوم بفكرها كالشجرة الزيتونة أو بالحدس كالزيت أو بقوة قدسية كالتي يكاد زيتها يضيء فانها تكاد تعلم وإن لم تتصل بها العلوم . فان اتصلت بها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت فهي كالمصباح فاذا استحضرتها كان نورا على نور .

﴿ الوجه السابع وهو أسهلها ﴾

قال ابن عباس [هذا نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور] .

هذه هي الوجوه السبعة التي ذكرها العلماء . وأنت ترى أن الآية صالحة لها جميعها لأن الأنبياء ونوع الإنسان والعقول كلها تشابه تلك القناديل المعلقة في المساجد ، وكأن الله يقول لعباده بهذا المثل انظروا إلى هذه القناديل المعلقة في مساجدكم التي نورت أرضها وحيطانها . هكذا أنا أنرت قلوبكم وقلوب أنبيائكم وعقولكم وحواسكم وأنعمت عليكم بنعمة الحواس والخيال والعقل والقوى المدركة . فابراهيم ومحمد والمؤمنون ونوع الإنسان وحواسكم وعقولكم وخيالكم وقواتكم العاقلة كل هذه أنوار مثلت لها بهذه القناديل . إني نور السموات والأرض . أنرت السموات بالكواكب والشموس وأنرت السبل والطرق بالنجوم وجعلتها علامات لكم وجعلت كل شيء بحساب ونظام ، وجعلت هذا القنديل مثالا لكم وأنتم تصلون في مساجدكم فبهذا القنديل أذكركم بنوري في سمواتي بالكواكب والشموس والأقمار ، وهو مثال أيضا للأنوار المشرقة في نفوس أنبيائكم كمحمد وإبراهيم وقواكم العاقلة والحاسة والخيالية وعجائب نفوسكم . إن نوري مشرق في العالم العلوي والسفلي .

عجائب القرآن في قوله تعالى أيضا «الله نور السموات والأرض »

انظر أيها الذكي إلى نظم القرآن وعجائبه . انظر وتعجب ، انظر كيف أتى بعد آيات العتق والنكاح والقذف والملاعنة بآيات النور . يقول الله أيها المسلمون . إياكم أن يشغلكم أحكام الشرع وإقامة الحدود ونظام الأسرات والزواج والعتق والمكاتبة وأحكام الحرام والحلال عن النظر إلى عجائب خلقي . إياكم أيها المسلمون أن يصرفكم صارف عن عجائب صنعي . إياكم أن يصدكم علم الفقه عن علم الكائنات . انظروا إلى السراج الموضوع أمامكم في كوة المسجد . انظروا إن سمواتي فيها سرج من الشموس والأقمار والسيارات ، إن عقولكم

فيها سرج . إن حواسكم وقواكم الداخلة فيها سرج ، إن دينكم سراج . إن أنبياءكم سرج . إن المؤمنين سرج . إنى أضأت كل شىء بأنوارى وعلومى ظاهرا وباطنا . إن مساجدكم يسبح فيها قوم بالغدو والآصال فلا تلهيهم تجارة ولا بيع . هكذا لايشغلكم ماتقدم من علوم الفقه فى هذه السورة وغيرها عن النظر إلى عجائب صنعى . هذا هو الذى فهمته أيها الذكى من هذه الآية وقوله «رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» الخ .

اللهم إنى أسألك أن تقدرنى على إتمام تفسير القرآن وأن تنشره بين المسلمين . اللهم إنى أسألك أن تنير بصائرهم كما أنرت السموات والأرض وأشرقت الأرض بنورك . اللهم ابعث فيهم رجالا منهم يرشدونهم إلى مقاصد القرآن فترتقى الأمة إلى سبل النجاح وطرق الفلاح .

﴿ إيضاح الكلام على القنديل والمشكاة فى المسجد ﴾

تبين لك فيما تقدم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن ضعف النوع الإنسانى وأن المسلمين بعد القرون الأولى سيصبحون قاصرين على الأحكام الشرعية وهم فيها غير ملومين ولا مذمومين ولكن اللوم والذم إنما يتوجه إليهم لقصورهم واقتصارهم على الأحكام الشرعية . لذلك تراه فى (سورة البقرة) لما ذكر الحيض والرضاع والنفقات والطلاق والعدة والرجعة وما أشبه ذلك فاجأ المسلمين بقوله «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» ولقد بينا هذا القول هناك فارجع اليه كأنه يقول للمسلمين إياكم أن تشغلكم القضايا والشهود والزواج والطلاق والعدة والمهر والنفقة والعدة وسائر الأحكام الشرعية عن التوجه لله فان هذه أمور لحفظ نظامكم وارتقاء مدنكم وإسعادكم فى الحياة الدنيا . فأما ارتقاء العقول فانما يكون باتجاه النفوس إلى خالق الكون وذلك بالمحافظة على الصلاة والتوجه إلى الله فيها . هذاماكان هناك ، ولكن اسمع ماهو أعجب هنا . هناك ذكر الصلاة وهنا أتى بما هو أعظم مقاما وأبدع إحكاما . لم يكتف بالصلاة بل ذكر المقصود الأعظم من الصلاة ومن جميع هذه الحياة إذ عبر بالنور الذى عم السموات والأرض نور الشمس ونور القمر ونور السراج . ومانور السراج إلا أثر من آثار أنوار الشمس . ألا ترى إلى الزيت كيف كان فى الشجر والشجر كيف كان عناصر أرضية والعناصر الأرضية كانت مادة ساذجة لا نور فيها واللذة قبس من نور العقول المجردة فاضت من ذلك العالم الأقدس بالنظام الأكمل فذكر نور السموات والأرض بالكواكب ومثل بالسراج الذى هو أثر من آثار النور العام مثل به لما هو أتم وأكمل وهو نور العقول والبصائر . وإيضاحه أن نقول :

اعلم أن العقل عند الحكماء كأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط والفارابى وابن سينا والغزالى والرازى وابن رشد وأضرابهم إما عقل بالقوة وإما عقل بالفعل وإما عقل مستفاد وإما عقل فعال وهذه هى التى ضرب لها مثل المشكاة على حسب الحقيقة وماتقدم إنما هو إجمال وهذه المباحث لايعقلها إلا الحكماء . ولكنى سأضرب لك مثلا يوضح المقام لك حتى تطلع على عجائب الحكمة وبدائع العلم وتقف على السر المصون والجوهر المكنون فأقول :

تصور شابا ذكى الفؤاد رائع الفكر قوى الذهن مستعدا للتجارة فهذه حال أولى وهو فى صغره ثم إن هذا الشاب تعاطى التجارة وأخذ يقصد المال لقصد الربح فكسب ألفا وبالألف كسب ألفا أخرى وبهما كسب ألفين وهكذا فهذه حال ثانية . ثم إنه إذا اجتمع عنده آلاف ونال الغنى على مقدار طاقته بحيث لايقبل الزيادة وأخذ يقلب المال كله مرة بعد أخرى فهذه حال ثالثة . فهذه الأحوال الثلاثة يمكننا أن نسميها على الترتيب غنى بالقوة وغنى بالفعل وغنى مستفاد . فهو قبل أن يملك شيئا غنى بالقوة : أى أنه فى إمكانه أن يكون غنيا ومتى

ملك شيئاً بعد شيء يقال إنه غنى بالفعل بالنسبة لما ملكه وبالقوة بالنسبة لما يملكه فاذا تم غناه يقال إنه غنى بالفعل ولم يبق هناك ماهو بالقوة بالنسبة له، فاذا قلب المال كرة بعد أخرى يقال إن هذا غنى مستفاد . هذا مثال أول . [المثال الثانى] شاب ذكى كالمتقدم هو ابن ملك فهو قبل أن يملك يقال له ملك بالقوة فاذاماملكه أبوه ولاية يقال له قد ملك بالفعل شيئاً وبالقوة شيئاً آخر فاذا مات أبوه وولى مكانه قيل إنه ملك بالفعل فاذا ألقى الأوامر مرة بعد أخرى قيل ملك مستفاد مثلا . هذان المثلان إذا عقلتهما أدركت ماسأوضحه لك الآن فأقول : اعلم أن العقول الإنسانية فى أول أمرها مستعدة لاقتناص الصور من هذه المادة التى نعيش فيها فكل امرئ فى أول حياته ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس وهذه المذوقات والمشمومات والملموسات والمسموعات والمبصرات صفات المادة وصورها وهذه الصور جلابيب للمادة وقد عدها الحكماء فكانت (٣٦) كالألوان والأصوات الخ ، فهذه الجلابيب التى كسيت بها المادة خلق العقل ليكتسى بها ويلبسها فان الطفل تراه مستعدا لفهم ماحوله ودراسته فهو قبل فهم الأشياء عقلها بالقوة لابالفعل أى أنه مستعد التعقل ، فإذا عقل صورة بعد صورة وعلما بعد علم يقال إنه قد عقل شيئا بالقوة وشيئا بالفعل فماعرفه صار معقولا بالفعل ومالم يعقله صار معقولا بالقوة فاذا انتهت معلوماته بأن درس جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والسياسية والأخلاقية بحيث وصل إلى مايطيقه نوع الإنسان يقال إن له عقلا بالفعل فاذا استحضر هذه المعقولات التى خزنها عنده بعد أن صارت بالفعل يقال إن هذا العقل مستفاد .

هذه هى المراتب الثلاث التى تقدمت فى مثال التاجر وفى مثال ابن الملك . فهذا العقل المستفاد فى نوع الإنسان الذى لا يكون إلا لأكابر العلماء له نظير فى عالم غير عالمنا وهو العقل الفعال . ومعنى العقل الفعال العقل الذى لم يقتنص علومه من المادة بل علومه مغروسة فيه بفطرته فان المادة قد كسبت الصور اللاحقة بها من ذلك العقل ورسم فيها ماكان مرتسما فيه وجميع الأحوال القائمة به ترتسم فى المادة مقسمة عليها وتلك العلوم فى العقل الفعال غير منقسمة فيه ، لكنها منقسمة فى المادة موزعة عليها فتراها جمعت بين الزرع والحجر والنهر والكوكب الخ ولكن العقل الفعال جمع هذا كله غير مفرق ولا منقسم كما أن عقولنا تجمع هذا وهى غير مقسمة ولا مجزأة بل هى واحدة منزهة عن التقسيم كما هو مبرهن عليه فى كتب الحكمة . وهذا العقل الفعال نسبته إلى عقولنا كنسبة الشمس إلى أبصارنا . فإذا كانت أبصارنا مستعدة للابصار ، ومعنى كونها مستعدة أنه لو أشرق نور فى الهواء ، وعلى قرنية العين وعلى عدسيتها وأحضر الصور على شبكيتها أدركته ووصلته للمين فهكذا عقولنا إذا أشرق العقل الفعال عليها إشراقا معنويا كإشراق الشمس فى الهواء وفى العين فإن المعانى تتمثل فى عقولنا كما رسمت الصور فى القوة الباصرة ، فالعقل الفعال كالشمس والعقول كالعيون وإشراق العقل الفعال المعنوى كإشراق الشمس الحسى . فحصول الصور فى العقول كحصول المرئيات فى أبصارنا فإذا حصلت المعقولات فى نفوسنا وامتحنا بها علوما أخرى وهكذا فإنه يقال إن العقل عندنا بالفعل بالنسبة لما عرفناه وبالقوة بالنسبة لما لانعرفه . فاذا ارتسمت العلوم فى نفوسنا يقال إنها عندنا بالفعل ثم يكون العقل المستفاد ، ثم إن العقل بالقوة كأنه مادة للعقل بالفعل والعقل بالفعل كأنه مادة للعقل المستفاد والعقل المستفاد كأنه مادة للعقل الفعال والعقل الفعال كأنه صورة له .

وعلى ذلك يكون هذا الوجود مرتبا فى عقولنا من الأدنى إلى الأعلى فإننا ندرك البسائط ثم المركبات وندرك الصور المحسوسات التى هى أخس من المعقولات ثم ندرك الكليات ثم تتم عندنا وتكمل وتكون عقلا مستفادا فأما فى العقل الفعال فإن العلوم فيه تنزل من الكليات إلى الجزئيات بلا زمان بل هى فيه هكذا أبدا وهى تكون فى المادة من الأدنى للأعلى .

﴿ الصورة والمادة والمعانى والعقول ﴾

إياك أن تظن أن المعانى التى تنقش فى عقولنا مثل الصور التى فى المادة سواء بسواء . كلا إن الصور التى فى المادة منقوشة فيها . ولقد اعتاد الناس أن يقولوا إن الصورة غير المادة . ألا ترى أن نقش الخاتم شىء والمعدن الذى نقش عليه شىء آخر كما أن الإنسان شىء واللباس الذى يلبسه شىء آخر فما هنا ليس كذلك فان المعانى التى تقتنصها عقولنا من المادة تصبح هى نفس عقولنا . وكما أنك إذا رأيت صورتك فى المرآة لم يكن هناك شىء غير الصورة فالصورة هى عين المصور (بالفتح) إذ لامادة هناك فالصورة والمصور شىء واحد هكذا عقولنا . فكل معنى عقلناه أو قضايا اقتبسناها فهى هى عقولنا . فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لانعلم شيئا وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة فاقتنصنا من المادة معلومات وتلك المعلومات أصبحت نفس عقولنا لاشىء وراءها فليست صفات لعقولنا بل هى نفس عقولنا ، كما أن صورنا فى المرآة ليست شيئا سوى الصورة فإذا نحن عقلنا أنفسنا فالعقل الذى عقلنا به هو نفس المعقول . فاذن يكون عقلنا عقلا وعاقلا ومعقولا فاذا تعقل الإنسان نفسه فالعقل هو العاقل وهو المعقول إذ ليس هناك شيئان متغايران كالجسم واللباس عليه وكالمادة والصورة بل هما شىء واحد . هذا هو السر الذى تراه فى ثنايا الكتب الفلسفية قد أوضحته لك على قدر الإمكان وبه تعرف كيف انتقل الناس من أدنى الأمور إلى أعلاها . فبينما هم ينظرون الألوان والأصوات إذا هم يرتقون إلى الكليات إذا هم يفكرون فى العقول وقد استكملت علومها إذا هم يقولون بالعقول المستفادة التى تحضر المعقول متى شاءت إذا هم يرتقون إلى العالم الأعلى أى الذى ليس فى مادة ويقولون إذا نحن قدرنا هنا فى الأرض أن نكون عقولا بمجرد الاطلاع على هذه المادة وأخذ صورها والتصرف فيها وأننا نلبس ملابسها وتصبح حللا لعقولنا ونذهب بها إلى عالم آخر فأحرنا أن نقول إن هناك عوالم لم تكتسب علومها من المادة بل علومها فيها كامنة . وإذا كنا نقول ههنا مادة فيها صور تعلمنا منها وأخذنا العلم عنها وهى حاضرة أمامنا وأصبحنا عالمين بها فما بالنا ننكص على أعقابنا ولا نقول إن هذا العقل الذى كسبناه منها على منوال العقل الذى أكسبها هذه الصورة ولذلك نرى أنفسنا نحذو حذوه فتنطبع بهذه الصور التى طبعها ذلك العقل فى المادة وهذه العقول التى غرست فينا واستعدت لدرس هذه المادة مستمدة من ذلك العقل الفعال والعقل الفعال قد جعل هذه المادة كلوح تقرؤه نفوسنا فتقلدم وتدرس ماخطه فى لوح الطبيعة وتنحو نحو العقل الفعال لأننا نرى أن الأبناء يسيرون على طبيعة الآباء . فإذا كنا نرى جميع صغار الحيوان تتبع فى نظامها وسيرها نظام آبائها ووجدنا عقلنا لما كان عقلا بالقوة أخذ يسعى سعيا حثيثا حتى استكمل المعقولات فما الذى يمنعنا أن نقول إن العقول الإنسانية تحتذى حذو عقل ليس فى مادة وتقلده وتستكمل العلم لتبلغ شأوه أو تقرب من ذلك الشأو كما كان صغار الحيوان يتبعن آباءهن وأن ذلك العقل الفعال فيه النظام غير مستحدث من المادة لأنه لايحتاج إليها . أما عقلنا فهو إليها محتاج وعليها يعول ولقد أوضحت لك المقام والله هو الولى الحميد .

أفلا تنظر وتعجب كيف ذكر الله قنديل المسجد ونور الكواكب وأشار بنور القنديل إلى أنوار القلوب وإلى ماينقش فى العقول من المعانى وكيف انتقلنا من مقام إلى مقام حتى وصلنا إلى عالم الملائكة . ولعمرى ماضياء القنديل فى المسجد إلا الظواهر الحيطان والسقف والأرض وأن الحقائق فى العقول لتفصل تفصيلا وتعرف تحقيقا وقد بين الله ماهو أجل عما هو أقل لأن ماهو أقل أعرف عندنا وماهو أجل مجهول لدينا وها نحن أولاء وصلنا من هذا المثال لعالم الملائكة «والله من ورائهم محيط» وقال الشاعر :

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

﴿ قطرة ماء فى تفسير قوله تعالى أيضا «الله نور السموات والأرض» ﴾

اعلم أن الناس اعتادوا أن يعرفوا عظمة هذه الدنيا بالنظر فى السموات والأرض . والقرآن طافح بذلك وهذا التفسير قد عنى بهذا الشأن أشد عناية . الله أكبر . جل العلم . فهل لك أن أحدثك حديثا جميلا عجيبا فى هذه الدنيا التى نعيش فيها تطبيقا على هذه الآية ومن هذا الحديث يتجلى لك أن العلم الحديث أظهر أن جميع ذرات هذه العوالم تفسير هذه الآية وأن هذه الدنيا كلها نور خلقه الله وأن هذا العالم كله نور وأننا نعيش فى وسط النور وأن ماتراه من حيوان ونبات وسماء وأرض وحجر ومدر . كل هذا ماهو إلا نور متجمد كما تجمد الماء فصار ثلجا . فهذه العوالم التى شرحتها الأمم كلها وذكر مجملها القرآن تدخل فى هذه الآية . ومتى سمعت ماأقوله لك الآن وتحققته انشرح صدرك وتمنيت أن ترى هذا النور عيانا وأن تحجب عنك هذه الدنيا وصورها الزائلة وتتمتع بجمال لانهاية له . فهاك اسمع مايقوله العلم (هنشو) الذى يكتب فى [مجلة هاربر] الأمريكية فى سنة ١٩٢٦ وهذا القول نشر فى مجلات أخرى فأريد أن أسمعك ملخص مايقوله ولكنى أحافظ على الحقائق العلمية والمقادير تماما وأورد القول بإيضاح يناسب هذا التفسير حتى تعرف نور الله وجماله الذى أشرق فى الأرض اليوم وأصبحت علوم الأمم فى الشرق والغرب مفسرات القرآن وهم لايشعرون .

يقول (هنشو) إن بعض قطرات الماء قد يكون قطرها ثلث سنتيمتر . ولا جرم أنك أيها الذكى تعرف هذا القياس فهو مشهور لأن السنتى جزء من مائة من المتر قال فلنكبره .

(١) وأخذ يكبره تقديرا مرارا حتى أوصل قطره إلى (١٥) سنتيمترا . يقول ومتى صارت قطرة الماء هكذا أصبحت كثيرة الارتجاف وظهرت عليها ألوان قوس قزح .

(٢) وإذا كبرناها حتى صار قطرها (١٧٠) مترا زال ظهور قوس قزح ولا نرى فيها إلا الماء لاغير .

(٣) وإذا كبرنا قطر نقطة الماء فصار مائة ميل . قال فحينئذ تظهر جواهر الماء الصغيرة ويكون كل جوهر صغير من الماء قد صار مثل (الجوزة) حجما وقياس قطره سنتيان ونصف، ومعنى هذا أن جوهر الماء المذكور لايمكن قسمته إلى قسمين كل منهما ماء بل لايمكن إلا تحليله إلى العناصر التى تركب منها . فهذا هو الجوهر المائى فى حده الأدنى الذى لايقبل القسمة إلى قسمين مائيين بل يحلل إلى عناصره الأصلية التى لاتسمى ماء وهما الأكسوجين والأدروجين . وهذا الجوهر المائى الذى كبرناه وقلنا إنه لايقسم إذا أمسكناه فرضا وجدناه أشبه بالحجر صلابة لاتحاد الاكسوجين بالادروجين اتحادا قويا جدا لايمكن انفصاله إلا بأعمال كيمائية لامحل لذكرها ولكن هذا الجوهر المذكور يجب علينا أن نعرف مافيه لأن العلم لاحد له وشوق النفس لانهاية له «وفوق كل ذى علم عليم» فما أشوقنا إلى أن ندخل هذا الجوهر الصغير من النقطة كما دخلنا النقطة وتفرجنا عليها ونحن راكبون فى سفينة تجرى فى فلك البحر اللجى ، قال فحينئذ نكبر النقطة مرة رابعة .

(٤) فنجعل قطرها مائة ألف ميل فيصير قطر كل جوهر مائى من النقطة المذكورة أكثر من أربعين قدما بعد أن كان سنتيين ونصفا ، ولكن هذا التكبير لايفيدنا إلا أمرا واحدا وهو أننا نرى كل جوهر مائى مؤلفا من [ثلاثة جواهر: أحدها] وهو الاكسوجين فى الوسط والآخران واحد عن يمينه وواحد عن يساره وهما من الأدروجين . وهذه الثلاثة جواهر فردة: أى أنها لاتنقسم، ومعنى أنها لاتنقسم أنها إذا حللت لاتكون أجزاؤها أكسوجينا وأدروجينا بل أشياء أخرى سنعطيها، هذه الجواهر الثلاثة أشبه بخلاء ومسافات لاغير لامادة فيها وجوهر الاكسوجين الذى فى الوسط عبارة عن قنديل فى المركز تحيط به ست دوائر تبعد عنه (٢٠) قدما وهذه الجواهر هى سطحه والجوهران اللذان من الهيدروجين حوله ماهما إلا دائرتان من

النور قطر كل منهما سبعة أقدام تدوران حول مركز من النور . إذن نحن الآن عرفنا الجوهر المائى أولا ولما كبرناه وجدناه مركبا من أشياء ليست ماء ولكنها أشياء أخرى فى علم الكيمياء يحلل الماء إليها فى جميع المدارس فى العالم وتكون عبارة عن مواد أشبه بالهواء وهذا معلوم مستفيض ولكن النفس لا تزال تريد الزيادة فى العلم كما قال تعالى «وقل رب زدنى علما» وقال ابن سينا فى قصيدة النفس :

أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

حينئذ علينا أن نعرف ماهذا الأكسوجين وما هذا الأدروجين بعد أن عرفنا نقطة الماء وعرفنا أجزاء كل جوهر منها .

(٥) إذن نكبر نقطة الماء المذكورة مرة خامسة ألف مرة أخرى فتصير أكبر من فلك الأرض حول الشمس وحينئذ يصير قطر الجوهر المائى الذى حدثناك عنه وقلنا إنه مركب من الجواهر الثلاثة المذكورة الفردة ثمانية أميال . فماذا نرى إذن ؟ نرى أن الدوائر التى حدثناك عنها فى الأكسوجين والأدروجين ماهى إلا خطوط وهمية من النور ترسمها نقطة صغيرة من النور تدور حول مركزها فى الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون دورة وهذه النقطة الدائرة هى (الكهرباء السالبة) ومركزها النورى يسمونه (الكهرباء الموجبة) وهذه الدوائر التى رسمتها النقطة فى الأكسوجين والأدروجين ماهى إلا كالدوائر التى ترسمها شعلة نحركها نحن بسرعة فترسم دائرة بحسب نظرنا نحن ، وفى الواقع لاشىء سوى الشعلة . وبهذا البيان عرفنا أن الجوهر المائى رجع إلى أكسوجين وأدروجين . وهذان الجوهران الفرديان رجع كل منهما إلى نقطتين من النور نقطة يسمونها (سالبة) تدور حول أخرى يسمونها (موجبة) وهذه التى تدور حول الأخرى تكون أكثر من واحدة وتكون الدوائر على مقدار تعداد النقط الدائرة . إذن الأمر واضح لا موجود إلا النور ، فالأكسوجين والأدروجين نقط من النور لاغير وبالدوران السريع صار كل منهما غازا وبالاتحاد بينهما صار ماء والحقيقة واضحة . ماذلك كله إلا نور . بقى علينا أن نعرف عدد الجواهر المائية (١) فى النقطة الواحدة من الماء . يقول العلامة (هنشو) المذكور إن فى النقطة من الماء عدد (خمس) وأمامه عشرون صفر أى خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف جوهر مائى وهذا العدد العظيم من النقط المائية ليس مندمجا . كلا ولامصمتا ، فهناك أبعاد شاسعة كالأبعاد التى بين الكواكب والشمس والأرض بالنسبة لأحجامها فاذا ألصق بعضها ببعض لم تملأ إلا جزءا من مائة ألف ألف ألف ألف جزء من النقطة . إذن قطرة الماء المذكورة عبارة عن نقط من النور وهذه النقط يدور بعضها على بعض وبشدة السرعة ترى مواد غازية وهذه باتحادها تكون ماء وهناك فضاء بينها بحيث تكون النقط بالنسبة الفضاء أشبه بالنجوم فى مداراتها مع البعد الشاسع بينها كالذى بين الأرض والشمس وليس هذا خاصا بالماء وأجزائه . كلا . بل جميع الأجسام من جبل ونبات وحيوان أنوار أو كهرباء متحركة فى شكل عناصر متحدة قد بلغ عددها (٩٢) فى وقتنا الحاضر مركبات من نقط النور المذكورة ، إذن جميع عالمنا نور وأى قطرة من الماء أو أى قطعة من حديد أو حجر أو طين ماهى إلا نقط من النور تدور فى فضاء ترسم دوائر من النور الخ . فقطرة الماء مثلا أشبه بالمشكاة وهكذا كل قطعة فى المادة ودوائر الأنوار الحادثة داخلها بسرعة جرى النقط النورية فى عناصرها أشبه بزجاجة المصباح والمصباح أشبه بالنقط النورية التى فى مركز كل من الأكسوجين والأدروجين فيما تقدم وهكذا بقية العناصر . فههنا ظهرت المشكاة وظهرت الزجاجة وظهر المصباح وبقى مايوقد منه المصباح فجعله يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية الخ . وهذا هو الذى غاب عن الناس الآن . نعم إن وصف شجرة الزيتونة بأنها لاشرقية ولاغربية ربما يفيد أنها ليست من عالمنا الأرضى بل من العالم الألهى الذى لا ندركه . اللهم إن قطرة من الماء أصبحت

نور وقطعة من الحجر أصبحت نورا وهذا النور ما أشرق إلا من نورك ولا ظهر إلا من جمالك ولكنك أريته لنا غير نور فقد حبستنا فى حواسنا فرأت الجمال غير جمال ولا سبيل لنا إلا أن ندرس جمالك الظاهر فى عالم الطبيعة الذى حجبنا عنك ولعلنا إذا فارقناه نرجع لعالم النور ونشاهد جمال وجهك المحتجب عنا وسناء كمالك وبهائك الذى توارى بحجاب الحس ونكون «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» فنشاهد تلك المناظر الحسنة البهجة إذن هذا العالم ماهو إلا نور متراكم وجمال احتجب وسعادة اختفت ولا سبيل إلى السعادة إلا بادراك الحقائق وذلك بالعلوم . ولقد استبان من هذا البحث أن قوله تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين» قد وصلهنا إلى قرار مكين ، فالكهرباء الموجبة والكهرباء السالبة المذكورتان كل منهما زوج وهما زوجان كالذكر والأنثى وهذان الزوجان أحدا كالذكور والإناث من الحيوان والنبات . وهذا السر الذى ظهر الآن هو الذى ظهر فى الدين المجوسى قبل دخول الخرافات عليه كما تقدم فى (سورة الأنبياء) إذ جاء فيه أن الله خلق أصلين وهما الخير والشر وليس يقوم العالم إلا بهما ، ثم جاء المتأخرون منهم فجعلوا الخير والشر إلهين لا الواحد كالمتقدمين وهكذا طبع العدد زوج وفرد ، وعلم الحساب جمع وتفريق والعالم مركب من التنافر والمحبة : فكل هذه عبارات ترجع إلى معنى واحد وهو الذى جاء فى قوله تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» فمن علماء اليونان من قال أصل العالم العدد . ومنهم من قال الكراهة والحب . هذا مافتح الله به فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

﴿ النور قديما وحديثا فى أرضنا ﴾

(١) المشاعل .
(٢) مصابيح الزيت .
(٣) قناديل الشمع .
(٤) زيت البترول المعروف .
(٥) الغاز الذى هو خلاصة الفحم المحترق الجارى فى الأنابيب لانارة المدن .
(٦) خلاصة المادة الكحولية المسماة (اسبيرتو) أى بخارها الذى يغشى عادة بغشاء يحفظ ضوءه .
(٧) ضوء الكهرباء الذى عم الأقطار الآن أيام كتابة هذا التفسير . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى :

﴿اللطيفة الثانية﴾ فى قوله تعالى «والله يرزق من يشاء بغير حساب» انظرها فى (سورة آل عمران)﴾

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى «والطير صافات» وهى جوهرتان ﴾

﴿الجوهرة الأولى : فى تسبيح الطير﴾

إن مقام تسبيح الحيوانات وغيرها قد تقدم فى (سورة الإسراء) عند قوله «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن» وهكذا فى (سورة هود) واستبان هناك أن التسبيح والتحميد من المخلوقات لايعرفان إلا بقراءة جميع العلوم ومن ذلك دراسة الألوان التى وضحت فى (سورة المؤمنون) ومسألة نغمات الأحجار فى (سورة الرعد) وبيان أن التسبيح والتحميد لغز الوجود وفيهما مسألة الخير والشر وأن المجوس تخلصوا منها بأن للعالم إلهين والإسلام أرجعها للتسبيح والتحميد . وبيان أن المسبح والحامد وهو جاهل كالحشرة المستدفئة بالزهر المتفحة للشجر ولا علم لها . وبيان أن هذه الإنسانية اليوم جاهلة هذا الوجود . وبيان أن الصوفية الذين يتبعهم أكثر المسلمين ينهونهم عن العلم فأرسل الله على لسان الشيخ الخواص وهو منهم مايفيد أن الجماد يعقل وأن الأشجار تتعاشق وقد ظهر فى الكشف الحديث ووضح فى هذا التفسير تعاشق الأشجار

أما أن الجماد يعقل فهذا لم تصل له عقولنا . نعم عقولنا عرفت أن النبات يحس ويتحرك كالحيوان كما أثبته العالم الهندى بمصر وتقدم فى (سورة الحج) أما كونه يسبح وكون الجماد يعقل فهذا لم نصل له ، غاية الأمر أن الأمم اليوم تعرف أن كل جماد متحرك حركات سريعة تعد بمئات الألوف فى ثانية . وقد استبان فيما تقدم لماذا ظهر هذا على ألسنة الصالحين من المسلمين وأن حكمة ذلك إقامة الحجة على الصوفية فى زماننا إذا هم قصروا فى معرفة العلوم التى هى فروض كفايات . وبيان أن المفتوح عليه منهم نادر وهم كالمتبتلين من أهل الهند البوذيين الذين رفعوا أنفسهم عن الشعب (انظره هناك فى سورة الإسراء) انتهت الجوهرة الأولى .

﴿ الجوهرة الثانية : فى الطيور الرحالة مترجم عن الإنجليزية ﴾

إن الطيور على [نوعين] نوع يصرف حياته فى مكان واحد ولا يفارقه ولا يذر شجرته أو المستنقع الذى بنى فيه بيته ويعيش فيه أكثر من خطوات معدودات إلا نادرا جدا . [ونوع آخر] لا يألو جهدا فى الحط والترحال مدة الحياة وفى جميع العصور فيكون فى مكان بضعة أشهر ثم يرتحل آلافا من الأميال ليصرف بقية السنة فى مملكة أخرى . وهذه الطيور تسمى (طيورا رحالة) لأنها دائما على هذه الحال . وهذا النوع طائفتان : طائفة تألف رحلة الشتاء ، وأخرى تألف رحلة الصيف . فالأولى تسكن البلاد الحارة وترحل إلى الباردة شمالا والثانية تسكن البلاد الباردة وترحل للحارة جنوبا طلبا لحرارة الشمس . إن الإنسان عند سفره يدفع أجرة السفينة فى البحر أو القطر فى البر . ولكن الطيور الرحالة لا يعوزها إلا أجنحتها . فلا أجرة تدفعها ولا سفينة تقلها ولا قطر يحملها فى البر . فتراها أسرابا تطير فى جو السماء مارة بالبحار وبالممالك المختلفة . إن ارتحال الطيور من أعجب العجائب العظيمة المدهشة فى هذه الدنيا وبدائعها وعجيب نظامها . ففى فصل الربيع من كل سنة فى يوم معين يصل إلى أوروبا طوائف من الطير وتبتدئ فتبنى أعشاشها فى الأمكنة التى بنت فيها فى السنة الفائتة وقد يبنى العش طير صغير على الطريقة التى بنى أبواه بها العش الذى تربى هو فى العام السابق بحيث يكون قريبا منه . وقد يقوم بعض الناس بتجارب لمعرفة بعض عادات هذا الطير فيصطادون منها جماعة ثم يعلمونها بعلامات خاصة كدوائر وغيرها ليعدوا هل هذه هى التى تصل فى العام القابل . وقد ثبت لهم بهذه الطريقة أن الطائر المسمى (الخطاف) بالعربية و (سولو) بالإنجليزية الذى يصرف زمن الشتاء بالقرب من (بحيرة تشادو) فى أواسط أفريقيا يبنى أعشاشه لتربية صغاره سنة بعد سنة فى حائط من منزل مخصوص فى قرى الفلاحين ببلاد الانجليز . إن طرق السفن البحرية الرئيسية فى البحر الأبيض من أوروبا إلى أفريقيا ثلاثة مبتدئة من شبه جزيرة أسبانيا وإيطاليا واليونان . والمسافرون فى هذه الطرق على السفن بالبحر الأبيض المتوسط زمن الخريف غالبا يرون أسرابا كثيرة من (الطيور الرحالة) طائرات جنوبا إلى بلاد الجزائر وبلاد تونس وبلاد مصر .

﴿ ماسبب رحلة الشتاء والصيف ﴾

وهنا يرد هذا السؤال فيقال : لم رحلت هذه الطيور ؟ ولقد أجاب على هذا السؤال علماء الحيوان الذين هم أقرب إلى العلم بأحواله من سائر الناس ، فقالوا إن تلك الأقطار التى يرحل لها ذلك الطير أوفق إلى تربية صغاره وتغذيته بالأغذية الموافقة لها . وهذا السبب ذهبوا إليه لأنهم لم يعرفوا الحقيقة ببحث أو فى طريق أقرب ، فليس من الناس من يعرف السر فى ذلك على حقيقته والله أعلم . انتهى (ترجم من الإنجليزية)

﴿ حكمة ﴾

إن سفر هذه الطيور الأوروبية إلى افريقيا وسفر الطيور الافريقية إلى أوروبا أشبه بسفر الناس من إحدى الجهتين إلى الأخرى ارتيادا لطلب الرزق وجدا في طلب العلم ، وذلك كله مما يعلم الإنسان أن الأرض كلها منزل واحد وقد عرف هذه الحقيقة الطير فعمل بها وقال لي رحلتان رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ولكن الناس يقاتل بعضهم بعضا على الأمكنة وفاتهم بل جهلوا أنهم أسرة واحدة وسيعرفون هذه الحقيقة في مستقبل الزمان حينما تعم الرحمة أهل الأرض انظر (شكل ١) و (شكل ٢) .



(شكل ١ — صورة الخطاف)



(شكل ٢ — صورة ورود الطيور المهاجرة من كتاب [علوم للجميع] المسمى (سايِنس فورال) تأليف العلامة (روبرت برون)

وههنا (فائدتان : الفائدة الأولى) .

﴿ أسرع المخلوقات الحية ﴾

كشف منذ مدة قصيرة الدكتور (تشارلس تونسند) الرحالة الأمريكي الشهير حشرة غريبة في البرازيل تعد أسرع المخلوقات الحية لأنها تقطع ٨١٨ ميلا في الساعة أو نحو ١٤ ميلا في الدقيقة وهي ٤٠٠ ياردة في الثانية فتكون سرعتها نحوا من نصف سرعة رصاصة البندقية التي تجتاز ٩٠٠ ياردة في الثانية بينما الطيرة لا تجتاز أكثر من ١٣٠ ياردة في الثانية وأسرع إنسان لا يجتاز ١١ ياردة في الثانية . أما اسم هذه الحشرة فهو

(سموميا)

(سفنوميا) وهى موجودة فى أمريكا الجنوبية والشمالية وبعض أنحاء أوروبا ، وإلى الآن لم يتمكنوا من معرفة مصدر سرعتها الحقيق ، وقد قدروا أن جناحيها يدوران عدة آلاف من المرات فى الثانية بينما أسرع طيارة لايدور دولابها الأمامى أكثر من ٢٠٠٠ مرة فى الدقيقة . وقد قال الدكتار (تشارلس تونسند) المذكور ماياتى [لو أتيح للانسان أن يطير بسرعة هذه الحشرة لتمكن من الدوران حول الأرض فى ١٧ ساعة فقط فانه يترك (نيويورك) الساعة الرابعة زوالية صباحا ويفطر فوق (ريو) ثم يجتاز (باكين) ويتناول الشاى فوق (الاستانة) والغداء فوق (مدريد) ويصل (نيويورك) الساعة التاسعة زوالية مساء وهذا ميعاد دخول الأوبرا] . وقد حرك اكتشاف هذه الحشرة اهتمام المهندسين والمخترعين وأخذوا يتحدثون متسائلين لماذا لاتعمل الفكرة فنصطنع طيارة بسرعة هذه الحشرة أو أسرع ، وعسى أن يحقق اهتمامهم رغبتهم هذه فيقوموا للانسانية بخدمة جليلة لاتقدر ولا تثمن .

﴿ مقاييس السرعة ﴾

نظم القائد (ارنولد) الأمريكى قائمة بمقاييس السرعة وهى كما يلى :

(١) أعظم سرعة للانسان الراكض ٢١ ميلا فى الساعة .

(٢) سرعته على الزلجة ٢٢ ميلا فى الساعة .

(٣) أعظم سرعة للحصان ٣٩ ميلا فى الساعة .

(٤) أعظم سرعة للدراجة (بيسكلت) ٥٠ ميلا فى الساعة .

(٥) أعظم سرعة للدراجة البخارية ١١٢ ميلا فى الساعة .

(٦) أعظم سرعة للقطار الحديدى ١٢٠ ميلا فى الساعة .

(٧) أعظم سرعة للطيارة ٢٨٨ ميلا فى الساعة .

﴿ أسرع طيارة فى العالم لاجناح لها ولا مراوح ﴾

صنع المسيو (شبادلين) وهو مهندس فرنسوى شهير نموذج طيارة بلا جناحين ولا مروحة فى مقدمتها ومع هذا فهى تطير . ويعتقد هذا المخترع أن الطيارة التى تصنع على نمط نموذجه هذا يمكنها أن تقطع من سبعمائة إلى ألف ميل فى الساعة . فهى والحالة هذه تسبق الشمس إذا باريتها فى شوط بين باريس ونيويورك ، وقد قال المخترع ضاحكا [إنه يتسنى لركاب طيارتى أن يتناولوا الغداء فى الجراند بولفارد بباريس ويشربوا الشاى فى برودواى بنيويورك] .

والمسيو (شبادلين) مقتنع بأن طيارته التى أسماها (جيروبتر) ستكون طيارة المستقبل القريب . وقد أيد النموذج الذى صنعه لهذه الطيارة أقواله بكيفية مدهشة . ويبلغ طول نموذجه هذا نحو عشرين قيراطا ولايزيد ارتفاعه على قدم واحد وهو يحاكى الطيارات العادية فى هيكلها . وعلى كل من جانبيه دولاب كرف البواخر النهرية أو كالتى كانت مستعملة لبواخر البحار فى أول عهد البواخر . وكان يقتضى لهذا النموذج محرك تكون قوته ١ من ٧ حصان ووزنه أوقية وربع ، ولما كان محرك كهذا معدوم الوجود جهز المخترع نموذجه بمحرك كهربائى وأوصل إليه التيار بأسلاك لينة من دنيمو صغير وضعه على المائدة وما كان يوصل التيار به حتى أخذ رفاساها يدوران بسرعة ٧٠٠٠ دورة فى الدقيقة وأخذت تلك الطيارة الصغيرة ترتفع وتدور فى الحجرة . وقد جعلت مغالق متحركة حول أغطية الرفاسين تستخدم لتحويل مقدم الطيارة إلى أعلى أو إلى أسفل . ومبدأ المخترع فى طيارته هذه العجيبة هو من قبيل مبدإ الركبة الألمانية المسماة (روكن) فالرفان فى الطيارة التى نحن بصددها يقومان مقام المروحة التى تكون فى مقدمة الطيارة العادية وهما اللذان يدفعان

الطيارة وسيرانها . ويقول المخترع [إن سرعة هذه الطيارة يمكن أن تزداد إذا استعمل الغاز الهالك الذى ينساب من المحركات على مبدإ الصاروخ] . ولهذه الطيارة ميزة أخرى كما يقول مخترعها وهى أن رفاسها وأعطيتها تقوم مقام المظلة الواقية (الباراشوت) فى حالة إصابة المحرك بعطل فتنزل الطيارة إلى الأرض ببطء يقيها خطر الاصطدام الشديد، ولا يخفى ما لهذا الاختراع من الأهمية الكبيرة فى عالم الطيران . انتهت الفائدة الأولى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾

جاء فى الأنباء البرقية فى ١٠ يونيو سنة ١٩٢٧ مانصه :

ارتياد القطب الشمالى

عاد الكابتن (جورج ولكنس) بعد ماضلله ضباب الدائرة المتجمدة الشمالية ورده على أعقابه وترك وراءه إحدى طياراته وسط الثلوج المتجمدة فى ساحل (ألاسكا) الشمالى وقد قال [إن دليله جرايهام طار فى ٢٨ مايو إلى أبناه فى جرينلند ومن هناك إلى مستودع الوقود والمئونة فى رأس بارو ليحاول حل المسألة الغامضة عن مهاجرة الطيور إلى أقصى الشمال ويتثبت مما إذا كانت قارة الاتلنتيك التى ورد ذكرها فى الأساطير موجودة فى مكان لم يصل إليه بنو البشر ولكن البعثة عدلت عنها الآن كما عدلت فى السنة الماضية من جراء الضباب الكثيف وطبقات الثلج المستترة والطياران يطيران فى عالم كله ضباب لا يخترق] . انتهت الفائدة الثانية .

وإنما نقلت لك هذا الخبر البرقى لتطلع على غرام الأمم التى يعيش معها المسلمون ، أولئك الذين يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها للتهلكة فى سبيل العلم . وأى علم هو ؟ هو علم الطيور فى مهاجرتها . تلك الطيور التى ذكرها الله فى القرآن أنها مسبحات مصليات فكان على المسلمين أن يعشقوا العلم ليعرفوا عجائب صنع ربهم وليبتهجوا بالجمال والبهاء والحكمة والنور . فهل الأمم التى تدرس كل علم كالأمم النائمة ؟ يقول الله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » ، ويقول : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

﴿ اختراع الطيارات ﴾

فى سورة (المائدة) فى آية الغراب وفى (النحل) عند قوله تعالى « ويخلق مالا تعلمون » تقدم الكلام على البالون والطيارات ورسم بعضها فى سورة النحل اهـ .

﴿ اللطيفة الرابعة : فى قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » الخ ﴾

لقد ذكرت لك فيما تقدم فى (سورة الرعد) مايناسب قوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » من أمر الثلج . وذلك أنك ترى هناك أشكالا منظمة عجيبة مسدسة الشكل مرسومة فى القرن الماضى بهجة الناظر حسنة الأشكال . ولكنى هنا أريد أن أريك مايناسب هذا المقام من عجائب العلم فى هذه الآية .

(أولا) أبين لك ما كان يعلمه علماء القرن الثانى عشر الهجرى من أمم الاسلام إذ كان العلم لديهم قليلا وقد جاء على لسان صلحائهم مايناسب كشف العصر الحاضر . (ثانيا) أذكر تلك الجبال الثلجية من كتاب [علوم الجميع] تأليف العلامة (روبرت براون) الانجليزى ومالا لغيره فى ذلك (ثالثا) أذكر ماأبدعه صديقنا مصطفى بك منير فى الجمعية الجغرافية أمام ٢٥٠ عالما من علماء أوروبا تفسيرا لهذه الآية . فهذه ثلاثة فصول .

(الفصل

﴿ الفصل الأول : فيما جاء في أقوال علماء الاسلام في القرون المتأخرة ﴾

قد ذكرت سابقا في هذا التفسير أن الشيخ أحمد بن المبارك الذي عاش في القرن الثاني الهجري كان عالما من أكابر علماء الاسلام وقد لقي الشيخ عبد العزيز الدباغ الذي لم يدرس ولم يتعلم، وأن الأول قد أدهشه الثاني بعلمه . فلأسمعك ما أجاب به في هذا المقام وأقدم لك مقدمة فأقول :

لقد ذكرت في هذا التفسير أن العالم الديني في الاسلام يجب أن يكون علمه أوسع من علم الفقه وهاهي ذه الحادثة الآتية تبين لك كيف كان الناس في العصور المتأخرة يسألون علماء الاسلام في أغور وأصعب مسائل الطبيعة العويصة . فانظر كيف سئل ابن المبارك المذكور في ذلك . وكيف بحث عن الجواب في كلام الفلاسفة الاسلاميين وعلماء الحديث وغيرهم فلم يجد طلبته ثم كيف سأل الشيخ الدباغ فأجابه بعالم بعلمه إلاعلماء العصر الحادث . فهاك البيان وهذا هو السؤال الذي ورد اليه .

[الحمد لله . ساداتنا الأعلام . أدام الله بكم النفع للأنام (١) جوابكم في الثلج ما أصله ؟ (٢) هل ينزل كذلك من محله منعقدا ؟ (٣) وما محله الذي ينزل منه ؟ (٤) ولأى شيء خص بالبلاد الشديدة البرودة ؟ (٥) ولأى شيء خص بالجبال (٦) ولماذا نراه تارة مجتمعا مع المطر وتارة وحده وهو الأغلب (٧) ولأى شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل (٨) وأيضا الصاعقة لا تنزل إلا في البلاد الباردة والجبال ومواضع الشجر ، بخلاف الأرض المستوية الحارة مثل الصحراء فان أهلها يقولون إنها لا تنزل فيها فماذا ﴾ هذا ملخص السؤال . فلما أخذ يبحث في كلام علماء الاسلام رأى ما يأتى :

(أولا) أن أهل السنة والجماعة لم يفيدوا في هذا فائدة . قال إنه قرأ كتب التفسير والحديث وعلم الكلام فما عثر على شيء فيها . ومن هؤلاء الحافظ السيوطي مع علو درجته في الآثار لم يتعرض لذلك لا في كتابه المسمى [الهيئة السنية في الهيئة السنية] وقد وضعه في علم الهيئة لأمثال هذه المسألة ولا في حاشيته على البيضاوى ولا في [الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور] ولا في كتبه الأخرى مع أنه أكثر فيها من الكلام على الرعد والصواعق والمطر والسحاب والبرق . وأيضا لم يتكلم على الثلج والبرد ولا على سببهما . قال وإنما رأيت ذلك في كلام البيضاوى نقله عن الحكماء . وملخص ذلك أن البخار المائي إذا وصل إلى الطبقة الباردة صار سحابا ونزلت الأجزاء المائية فهى على أحوال : إما أن يكون بردها قليلا فتكون مطرا، وإما أن يكون بردها شديدا فإن جمدت قبل الاجتماع فهى ثلج وإن جمدت بعد الاجتماع فهى البرد . ولما نقل كلامه كله اعترض على البيضاوى في نقله كلام الفلاسفة . هذا هو الذي رآه ابن المبارك في كلام المتقدمين . ثم رجع إلى الشيخ الدباغ فسأله وأجاب بما يأتى :

(١) « إن الثلج ماء عقدته الرياح وأصله غالبا من ماء البحر المحيط . وهنا أخذ يشرح ارتفاع البخار في الجو وأنه يصير مثل الهباء ثم تجتمع أجزاؤه لأجل ما فيه من النداوة وينزل على هيئة الصوف أحيانا وعلى هيئة أخرى أدق منها أحيانا . فهذا أصل الثلج . أما البرد فان المسافة بين انعقاده ونزوله غير طويلة وهو من مياه البحور والغدران وإنه إنما ينزل على هيئة الطعام المفتول الغليظ وإنما غلظ لأجل مصاكة الرياح له فراجت أجزاؤه في الهواء تحت أيدى الرياح مثل روجان أجزاء الطعام تحت أيدى المرأة في الصحفة فحصل فيه مثل ما يحصل في الطعام . قال ولو أنه تأخر نزوله ودامت المصاكة لاندهقت أجزاؤه وصار ثلجا » فهذا بيان أصل الثلج وبيان الموضع الذي ينزل منه وبيان البرد .

(٢) وأما قولكم (لأى شيء خص بالبلاد الشديدة البرد الخ) فجوابه أن الثلج لا يزال على انعقاده حتى يطرأ عليه مانع والمانع يحله مطرا وذلك المانع هو الأجزاء البخارية الصاعدة من الأرض الحاملة للحرارة

فإذا لقيت الثلج كسرت برودته فصار مطرا وهذا البخار الحار يكثر فى البلاد الحارة والسهول ، ولذا لا يرى فيها ثلج . ولو فرض أنه رؤى ذلك لا يطول مكثه بخلاف البلاد الباردة والجبال المرتفعة فانه لامانع فيها من بقاء الثلج على انعقاده .

(٣) فأما كونه ينزل مع المطر أو وحده فذلك لما يأتى : إما ذوبان بعض أجزائه بالأجزاء البخارية المذكورة فينزل الذى لم يذب ثلجا والذى ذاب مطرا ولذلك يكون المطر النازل معه فى الغالب ضعيفا رقيقا مسحوقا مثل الثلج . وإما إنه نزل قبل تمام انعقاده فان الرياح تحمل ماء فينعقد ثم تحمل ماء آخر فإذا نزلا نزل الأول ثلجا والثانى مطرا .

(٤) وأما اختصاص الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل . فجوابه أن ذلك لقرب الجبال والأرض العالية من الجو الذى هو فى غاية البرودة . فأما السهول فهى بعيدة منه .

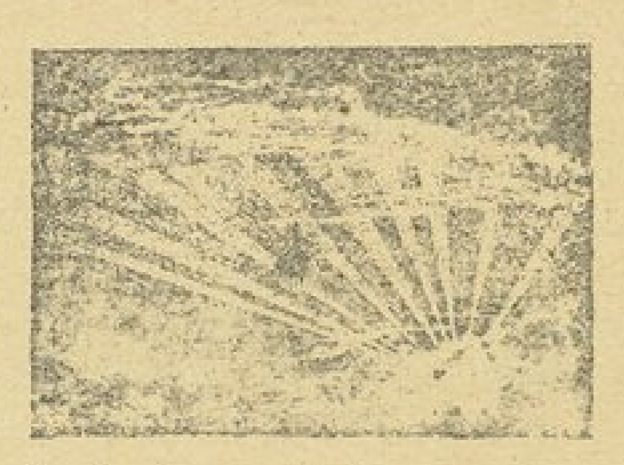
(٥) وأما الصاعقة التى ذكرتموها فإن القول بعدم نزولها فى الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح فانها نزلت ببلاد (سلجماسة) وهى أرض مستوية سهلة كانت صحراء . ولما أتم الجواب قال : واعلم أن هذا أخذ به من عاين الأمر على ما هو عليه من أرباب البصيرة الخ (يريد الشيخ الدباغ) وقد سأل الشيخ الدباغ أيضا قائلا : هل فى السماء جبال من برد كما قاله بعض المفسرين . أجاب ليس فيها ذلك ، والمراد بالسماء فى الآية ما علاك فكأنه يقول من جهة العلو وجبال البرد تكون فى جهة العلو بحمل الرياح لها من الأرض إلى الجهة المذكورة . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى : فى مقال بعض علماء الطبيعة فى عصرنا وما دبجه العلامة (روبرت براون) الانجليزى فى كتابه علوم للجميع ﴾

قد جاء فى كتاب « الفلسفة الطبيعية » فى تعريف البرد أنه قطع من الجليد متفاوتة الحجم ، فمنها ما هو أصغر من الحمص . ومنها ما هو بقدر البرتقال . ومنها ما هو بين هذين الحجمين . ولا يعرف كيف يكون ، والظاهر أنه يحدث من هبوب ريح شديدة البرد وتتخللها ريح أخرى أحر منها جدا وهى مشبعة رطوبة تقريبا ولكن تعليل هذه الرياح الباردة عسر وغير معروف . فانظر إلى علماء الطبيعة فى عصرنا الحاضر كيف تحيروا فى تعليل البرد ووازن بين هذا وبين كلام (الشيخ الدباغ) الذى قال إن السماء ما علاك وإن البرد ما هو إلا مادحرجته الرياح من المواد المائية ولم يطل زمنه وشرح شرحا طويلا ضافيا . فلنفض القول فى مسألة الثلج والبرد من كتاب (علوم للجميع) فنقول :

اعلم أنى قدمت لك فى (سورة الرعد) عند الكلام على الثلج أنه عند القطبين يكون دائما ويأخذ فى الارتفاع شيئا فشيئا . ومعنى هذا أن الثلج دائم فى جميع أنحاء الدنيا غاية الأمر أنه مرتفع عند خط الاستواء وهو على الأرض عند القطبين وما بينهما يكون بالنسبة لهما ارتفاعا وانخفاضا . فاقرأ ما ذكرته هناك ثم انظر هنا ما يقوله فترى عجبا عجيبا . سترى ما قاله الله فى القرآن يشاهد عيانا . وبعبارة أخرى : سترى ما عجز عنه فحول العلماء سابقا وإنما شرحه (الشيخ الدباغ) الذى لم يتعلم ، قد ظهر له بالمعاينة . سترى أيها الذكى ما جاء فى القرآن من أن هناك جبالا فيها من برد حقا وصدقا . ومعنى هذا أنك الآن ستشاهد صورة الجبال الثلجية المرتسمة فوقنا ، وتعجب من المسلمين الذين تركوا جميع العلوم وجهلوها حق الجهل ، وإذا قرأ المتعلم هذه الآية تحير وقال فى نفسه هل السماء فيها جبال من برد . وإذا كان المطر ليس من نفس السماء فكيف يكون البرد منها . وكيف تكون هناك جبال فوقنا من برد . كل هذا كان

يخبرني أنا ولم أعرف تمام هذه المعاني إلا من إيضاح (الشيخ الدباغ) ومشاهدة المناظر التي ستراها الآن وهي منقولة من الكتاب الانجليزي المذكور . أفلست بعد ذلك أيها الذكي توقن أن ذل المسلمين اليوم إنما جاء لجهلهم الفاضح وأنهم معاقبون في الدنيا والآخرة على هذه العلوم . فاسمع إذن كلام ذلك العلامة . قال [إن الثلج يظهر في أعلى الجو في كل مكان في الأرض وعند كل خط من خطوط العرض ، غاية الأمر أن ذلك الثلج قد يذوب قبل نزوله إلى الأرض إذ يقابل الطبقات المنخفضة الحارة فهذه الحرارة تذيبه . إذن ما من بقعة في الأرض إلا وفوقها ثلج . فمنه ما ينزل إذا لم تقابله الحرارة في الأماكن المنخفضة . ومنه مالا ينزل] وهذه صورته (شكل ٣) .



(شكل ٣ ـ صورة ألواح الثلج في الأقطار العالية من الجو قد تخللتها أشعة الشمس)

ويقول المؤلف قبل ذلك في صفحة ١٧٩ مانصه : [إن جسم الثلج لطيف جدا حتى إنه يشغل مسافة أكبر من المسافة التي يشغلها الماء (٢٤) مرة . أما عمق الثلج فان الماء الذي يكون منه لايشغل إلا عشر عمق الثلج . فاذا كان مقدار الثلج عشر بوصات فهذا القدر لايعادل إلا بوصة واحدة من الماء] هذا كلامه .

إذن بهذا عرفنا السر في أن الثلج مرتفع في أعلى الجو . ذلك لأنه خفيف جدا فارتفع ، هذا ومن عجب أن الشيخ عبد العزيز الدباغ المتقدم ذكره يقول فوق ماتقدم في صفحة ١٣٩ من الكتاب المذكور مانصه :

[وكم مرة أنظر إلى طرف الماء الموالي للجو الذي فيه الرياح فأرى فيه جبالا من الثلج لايعلم قدر عظمها إلا الله] ونرجع إلى مانحن فيه فنقول : ثم إن هـذا الثلج الذي رأيته في الشكل المتقدم معرض لأن ينزل إلى الطبقات المنخفضة الحارة فيرجع بخارا . فماذا فعل الله لحفظه . خلق له الجبال فمتى صادف ذلك جبل مرتفع اختطفه وضمه إليه ورسا فوقه حتى لاينزل ويبقى ثلجا دائما فوق الجبل وهذه صورته في الصفحة التالية (شكل ٤) .



(شكل ٤ هذه صورة هضبة (موت بلانك) من جبال الألب والجبال المتصلة بها والثلج الدائم المغطى لها)

(جبال الألب تمر بإيطاليا وفرنسا وسويسرا وهذه الهضبة بالأخيرة)

ولعلك تقول عرفنا أن الثلج مرتفع وهو كالجبال . وعرفنا أن الجبال تحفظه ولكن مافائدة هذا الثلج وما فائدة حفظه ؟ أقول لك : فائدته أن يحيا الانسان والحيوان والنبات بذلك الثلج الذى نزل من الجو على الجبل ومن الجبل نزل إلى النهر ثم ذاب وجرى وهذه صورته (انظر شكل ٥ فى الصفحة التالية) .

هذه هى معانى الآية . فالثلج شاهدته وشاهدت نظام الله وحفظه له ثم إنزاله فى النهر ، أليس هذا معنى قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» وقوله «ثم إن علينا بيانه» وقوله « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» . اللهم إنا نحمدك فقد أريتنا الآيات وعلمتنا على مقدار درجتنا الأرضية التى خلقتنا فيها فلك الحمد ولك الشكر . كل ذلك أيها الذكى جاء فى الثلج ولكن الآية لم يذكر فيها الثلج بل المذكور فيها هو البرد فأين البرد إذن . نقول : لقد علمت مما تقدم أن الماء يكون مطرا وبردا وثلجا . فهذه الثلاثة متجاورة، وغاية الأمر أن البرد يكون نزوله أسرع . لقد علمت أن أمر البرد من الصعوبة بمكان . لقد حار فيه القوم حيرة شديدة : فتارة تراهم :

(١) يقولون إن الفكرة الأولية فى ذلك أن يقال : كما أن نسبة الصقيع إلى الندى كنسبة الثلج إلى المطر هكذا يقال إن البرد ماهو إلا ممثل لصقيع المطر . وبعبارة أخرى : هو مطر منعقد .

(٢) ثم تراهم يتعمقون فى البحث فيقولون : إن البرد لايكون مباشرة من نفس المطر . ذلك لأنهم رأوه عبارة عن كرات صغيرة جدا من الجليد الصلب منسوجة متجانسة مصمتة ذات سطح أملس وقد عللوا ذلك بأن المطر كان أولا فى طبقة حارة من الجو الأعلى ثم سقط فجأة إلى جو أدنى منه فيه تيار شديد البرودة فأثر فيه

(شكل ٥

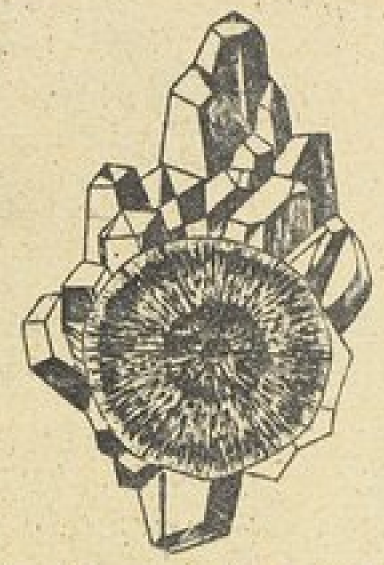
(شكل ٥ ـ صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجى فى (الرون) بجانب (فركا) (منحدرا إلى رأس واد من الأودية حيث يبتدئ منه النهر)

فكوره مرات جليدية ثم نسجه نسجا كما تقدم .

(٣) ثم إنهم شاهدوا أنواعا من البرد بهيئات حبوب بيضاء غير شفافة أى أنها لا ترى ما وراءها كأنها صور صغيرة لكرات الثلج لا أنها صور لقطرات المطر وهذه تشاهد كثيرا نازلة مع قطرات المطر والقطعة من البرد إذ ذاك مركبة من حبات صغيرة منه بحيث لا تزيد قطر الواحدة منها عن عشر البوصة أى نحو ربع سنتيمتر وقد غطيت بطبقة من الجليد . وقد عللوا ذلك بأن البرد أولا كان ألواحا ثلجية فى أعلى الجو الذى اشتدت برودته ثم نزل إلى جو حار فأخذ يذوب فيه وقبل أن يتم ذوبانه نزل إلى جو بارد قرب الأرض . هنالك جمد فصار بردا ولكن آثار الثلج لا تزال ظاهرة فى خلال أجزائه . هذا آخر ما ذكروه . إذن يكون الأمر دائرا بين هذه الأحوال . مطر جمد فصار ثلجا . مطر جمد فصار جليدا . والجليد اجتمع فصار بردا متجانس الأجزاء الداخلة فيه . ثلج تكوّن ثم ذاب ثم برد ثانيا قبل تمام ذوبانه فصار بردا . هذا ملخص ما جاء فى كتاب [علوم الجميع] .

والدليل على أن البرد كان أولا ثلجا ماستراه فى هاتين الصورتين الجميلتين الحسنى الشكل البهجى المنظر اللألئتين المشرقتين اللتين هما من أعاجيب آيات الله تعالى اللتين رآهما المستر (ه . ابك) الروسى المغرم بالعلوم وقد نزلا فى أثناء عاصفة قوية فى جبال (اثر بلث) بالقرب من (بجيلوى كلبتسك) فى القوقاز بالقرب من (تفليس) فى (جورجيا) فى التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٦٩ فرسمهما ونشرهما فى المجلة الروسية العلمية فى تلك السنة ونقلهما العلامة (روبرت براون) الانجليزى ومنه نقلتهما . وقد قال فى وصفهما إنهما صورتان بلوريتان هندسيتان مرسومتان بشكلهما فى الطبيعة وهما ربما كانا أبهج وأكثر تأثيرا فى النفس من كل ما رآه الناس من أنواع البرد على الأرض إلى اليوم (انظر شكل ٦) و (شكل ٧) .

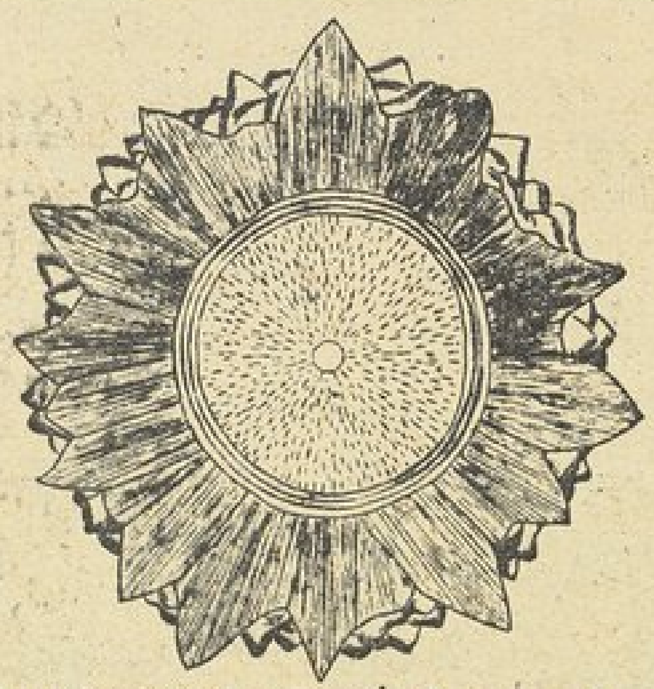




(شكل ٦ وشكل ٧ - صورة البرد الحجري البلوري الشفاف الذى سقط على الأرض في ٩ يوليو سنة ١٨٦٩م بالقرب من تفليس)

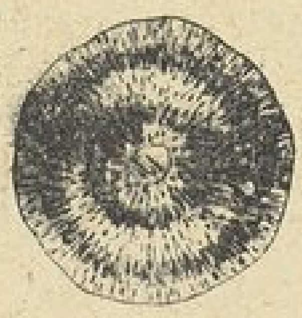
ثم قال « إن هاتين الصورتين قد ركبتا من جزأين القلب والغلاف . أما القلب أو النواة فهو عبارة عن مادة ثلجية تضامت واجتمعت بهيئتها المسدسة . وأما الغلاف الخارجي فليس بثلج كالأول وإنما هو جليد بلوري الشكل طويل الحجم بهيئة صور هندسية منظمة جميلة جدا . وكثيرا ما نرى لباسا صغيرا من الجليد المسطح الهيئة في داخل البلورات الخارجة . وهاتان القطعتان المرسومتان قد سقطتا في إناء من الحديد والتقطتا وأخذت صورتهما فورا وهما مصمتتان في النواة الداخلية وفي الغلاف الخارجي، فأما ما بينهما فانه جليد شفاف ذو خطوط ست متقاطعات على هيئة ست زوايا كل زاوية ستون درجة وهذه الخطوط تنعدم عند التقائها بالقلب الداخلي وعند اتصالها بالغلاف الخارجي ويحيط بكل منهما أعمدة مسدسات منتهية بأجسام منشورية الشكل ذات زوايا مختلفة وأضلاع يتساوى كل اثنين متقابلين بها . وهناك قطعتان برديتان أخريان جميلتان . أما أولاهما فقد رسمها الضابط (الكابتن ديكلكوز) الأستاذ الفرنسي في الهندسة سنة ١٨١٩ ونشرها في ذلك التاريخ في المجلة العلمية الأستاذ (اراجو) وهذه صورتها في الصفحة التالية (شكل ٨) .

(شكل



(شكل ٨ ـ صورة الرسم الهندسى الذى أبان قطعة من البرد الصخرى البلورى الذى سقط فى كورة (مديرية) من كورات فرنسا الغربية فى الرابع من شهر يوليو سنة ١٨٩٩ .)

ولما سقط ذلك البرد الصخرى فى تلك المديريات كسر سقوف المنازل والشبابيك وأضر بأغصان الأشجار ودمر مزارع الحقول وقتل الحيوانات وهى ترعى فى مراعيها . وهذه القطعة البردية الحجرية مركبة من جليد أبيض غير شفاف متضام بهيئة بلورية الشكل ذات نواة صغيرة يحيط بها حجم كبير أزرق ذو خطوط لامعة تمتد من المركز إلى محيط الدائرة وفوق ذلك يحيط بها طبقات متضامات وهذه الطبقات الخارجية المحيطة ذات أشكال هندسية ظريفة متصلات بأشكال صغيرات بارزات بينهما . أما ثانيتهما فهى مركبة من طبقات بعضها فوق بعض كطبقات البصلة طبقة زرقاء صافية تليها طبقة بيضاء غير شفافة من الجليد وهذه الطبقات المتعاقبات وصفها العالم الألمانى فى الظواهر الطبيعية (كيمتز) بأنها من جليد وثلج وتحيط بها طبقة من الجليد . وهذه صورتها (شكل ٩) .



(شكل ٩ ـ صورة البرد الصخرى ذى الطبقات المتحدات المركز المركبات من جليد أزرق صاف وأبيض غير شفاف الذى رسمه العلامة (ابك) المتقدم ذكره وتاريخ رسمه)

بهجة العلم فى البرد الصخرى

قال المؤلف المذكور أيضا [إن بعض القطع البردية التى رآها الناس كانت تزن ثلاثة أرطال إنجليزية تقريبا] ثم قال فى صفحة ٢٩٤ من المجلد الثالث : (وقد قيل إن بردا صخريا سقط فى (كازورتا) فى بلاد اسبانيا سنة ١٨٢٩ كان وزنه أربعة أرطال ونصفا انجليزية تقريبا) وقال العالم الألمانى بالظواهر الطبيعية (كيمز) « إن قطعة من البرد سقطت سنة ١٨٥٢ فكانت مساحتها (٣٩) بوصة من ناحيتين وسمكها (٢٨) بوصة) انتهى .

وإذ فرغت من الكلام على جبال الثلج وعلى البرد فهاك تفسير الآية بالصور الطبيعية المرسومة فيما تقدم والتى سترسم الآن . قال الله تعالى «ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه» هذه صورته (شكل ١٠)



(شكل ١٠ ــ صورة السحاب المتجمع من قطع منفصلة . منقولة من كتاب روبرت براون)

وقوله تعالى «ثم يجعله ركاما» هذه صورته (شكل ١١)



(شكل ١١ ــ صورة السحاب المركوم منقولة من الكتاب المذكور)

وقوله

وقوله تعالى « فترى الودق يخرج من خلاله » هذه صورته (شكل ١٢)



(شكل ١٢)

وقوله تعالى « وينزل من السماء من جبال » انظر فى شكل (٣) و (٤) و (٥) فهناك جبال الثلج الدائم فى شكل ٣ ونزولها على جبال الأرض من السماء أى أعالى الجوّ . شكل ٤ وهذه الجبال تحفظها واستمداد الأنهار منها تراه فى شكل ٥ إذ يخرج منه نهر الرين . وقوله « فيها من برد » انظره فى شكل ٦ و ٧ و ٨ و ٩ فهناك أشكال البرد المذكور وقوله « فيصيب به من يشاء » الخ .

قد تقدم كيف كان البرد يفتك بالبهائم فى مراعيها ويكسر الشبابيك وسقوف المنازل والمزارع ، وقوله « ويصرفه عمن يشاء » هذا هو الأعم . وأما قوله تعالى « يقلب الله الليل والنهار » الخ فهو ظاهر فيما تقدم فى التفسير . وهنا جوهرتان :

﴿ الجوهرة الأولى : فى قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » ﴾

قد قدمت لك أن العقول لا تقبل أن يكون فى السماء جبال . وأزيدك على ذلك أنى حينما كنت أقرأ هذه الآيات أقول لعل الجبال جعلت مجازا عن السحاب . أما الآن فقد ظهر أن جبال الثلج دائمة فى الجوّ ولكن العجب أن يقول « فيها من برد » فلم يقل جبالا من البرد لأن الحقيقة أن الجبال المتقدمة من الثلج لامن البرد ، والبرد كما تقدم داخل فى الثلج كما شرحه العلماء وأوضحه العالم الألمانى فى الظواهر الطبيعية فيما تقدم آنفا ، إذن قوله تعالى « فيها من برد » لم يتضح إلا فى هذا العصر لأن جبال الثلج إنما يكون البرد محولا عن بعضها لا كلها . إذن ذكر « من » فى الآية قد ظهر سره الآن . انتهت الجوهرة الأولى .

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

اللهم إنك أنت ذو الجلال وذو الجمال . خلقت الإنسان من الجمال على الجمال في الجمال فعالمنا كله جمال ولكننا غافلون . فماذا يفعل الله معنا ؟ هو بر رحيم . فتح لنا أبوابا كثيرة وهدانا إلى كل سبيل عسى أن نرى ذلك الجمال . أذكر أنى بعد ما كتبت هذا الموضوع خرجت للرياضة مساء على شاطىء النيل فلمحت الدرارى الحسان لامعات في جو السماء ترقص وهي في جلابيب لازوردية مشرقة اللون . فماذا خطر لى ؟ قلت في نفسي عجبا وألف عجب . أنت يا الله حكيم ورحيم . أعطتنا بكرة سميناها سماء وكلها مرصعة بالدرارى وهي أثمن من الدر فلم ندرك الجمال وأغلبنا غافلون ، فأخذت تفتح لنا أبواب النظر . ومنها أنك عمدت إلى بخار الماء في الجو فجمدته بالبرودة وصنعت منه حجارة لامعة سميناها بردا وأخذت تكسر بها الشبابيك والسقوف في المنازل وتقتل بها البهائم في مراعيها . لماذا هذا . لأنك لم تخلق هذا العالم إلا للبحث والعلم . هذا نتيجة هذه الدنيا وإذا خربت بيوت وماتت نفوس وهلكت حقول فذلك باب العلم . لولا هذه المزعجات ماتنبه الناس لهذه الحوادث ولذلك رسمها العلامة (ابك) الروسى سنة ١٨٦٩ والضابط (ديكاسكوز) الفرنسى سنة ١٨١٩ وبقى ذلك للناس ليذكروا . أهلك البرد بعض ماينفع الناس في الأرض ليوقظهم فاذا رسموا هذه الصور كما رأيت فقد أتوا بعلم دائم نشره القوم في أوروبا ونحن هنا نفسر به القرآن . إذن كل هذه العوالم إنما يراد بخلقها في النهاية العلم ولا حادثة تحدث في الأرض إلا لها قسم صدق في العظة والاعتبار ، والاعتبار هنا أكثره على كما عرفت ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ إتمام الجمال في هذا المقال ﴾

لقد تبين في هذا المقال وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير أن جبال الثلج تكون على الأرض عند القطبين وكلما تباعد الانسان عن القطبين واقترب من خط الاستواء ارتفعت تلك الجبال ، فأعظم ارتفاع لها يكون عند خط الاستواء ، أى إن جبل الثلج الذى تقدم أنه كالقطن المندوف وشاهدت رسمه يكون بعيدا عن سطح الأرض جدا ولا يزال يقترب منها حتى يكون على سطحها عند القطبين فأريد الآن أن أزيد هذا المقام جمالا فأقول :

ورد في كتب الجغرافيا الحديثة أن تكوّن الشواطىء الشمالية القصوى من آسيا وأوروبا وأمريكا أشبه بتاج حول القطب الشمالى . ولقد اتجه العلماء لكشف تلك الأقطار من ابتداء القرن السادس عشر الميلادى إلى الآن ولم ينالوا من العلم بها إلا قليلا لأن الثلج الذى نحن بصدد الكلام عليه يصد السائحين أو يهلكهم وغاية الأمر أن (دافيس) كشف البوغاز المسمى باسمه في القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر كشف (بفان) بوغاز (لنكاستر) ولكن الثلوج قامت عقبة في طريقه فارتد إلى أوروبا . وفي القرن التاسع عشر توجه (جون فرانكلين) إلى القطب الشمالى ومات . وهكذا قصدت بعثة القطب عن طريق (بوغاز بهرنج) فهلكت بين الثلوج . وفي سنة ١٨٦٩ قصدته بعثة أخرى على سفينة ألمانية فحطمت الثلوج السفينة وألقت العناية الإلهية بركابها إلى ظهر جزيرة سابحة من الجليد سارت بهم حتى ألقتهم على شواطىء جرونلنده الجنوبية سالمين وفي سنة ١٨٧٢ كشف (وايبر) و (تايبرخت) جزائر (فرانسوا جوزيف) ولم يقدرا أن يجتازا أكثر من الدرجة (٨٢) والدقيقة (٥) . وقصد (كان الأمريكي) القطب سنة ١٨٥٨ فصادفته المصاعب فرجع وقال : هناك بحر سائل في القطب الشمالى . والدكتور (هيس) قصد القطب في مركبات تجرى على الثلج سنة ١٨٧١ فمات عند الدرجة (٨٠) والدقيقة (١٦) فرجع أصحابه بعد ماحطمت سفينتهم فتلقتهم جزيرة من الجليد

عائمة فلبثوا عليها ستة أشهر وهى سابحة حتى صادفتهم سفينة على شواطئ (البرادور) فنقلتهم إليها وقد كادوا يهلكون . وفى هذه الأقطار يرى البحر ذا بياض ناصع لكثرة الثلوج وترى سطحه مغطى بقطع ثلجية مختلفة الأشكال وقد يكون شكل جبال بمفاوزها ومضايقها ووديانها وقممها . ومنها ماهو على شكل سهول واسعة لامعة . وفى الصيف قد يبلغ سطح بعض هذه الثلوج مئات من الكيلومترات المربعة وارتفاعها ينوف على مائة متر وحجمها جملة آلاف آلاف الآلاف من الأمتار المكعبة وبخطرها ثقلها أن تغطس فى الماء ، وقد يكون المختفى منها فى الماء ثلاثة أمثال ما على ظاهره . وتأتى الرياح والتيارات بهذه الجبال الثلجية إلى بلاد المنطقة المعتدلة فيشاهدها سكان الأرض الجديدة بأمريكا (٤٥) درجة وغيرهم ، والبر مغطى بالثلج كالبحر هناك . فترى الرياح تأتى مشبعة ببخار الماء من البحار فيتكاثف بخارها فينزل على الأرض كأنه نديف القطن فيجتمع ويصير جليدا . ومن العجائب أن هذه الأقطار إذا كان الليل فيها (ومعلوم أنه ستة أشهر كالنهار) تلطف حاستا السمع والبصر فتظهر للعين مناظر غريبة كالسراب والهالات والشموس والأقمار الكاذبة والشفق الشمالى المتقدم ذكره ورسمه فى (سورة الكهف) ويكون لهذا الشفق كما تقدم هناك ألوان بهجة وأشكال عجيبة فيظهر كأنه زينة فى الأفق أو باب من نور فتح فى السماء . فأما قوة السمع فانها تكون عجيبة فإذا سقط حجر كان له صوت كصوت المدفع وإذا تكلم إنسان سمع صوته وفهم كلامه على مسافة ألف متر . وليس هناك أبهج من شروق الشمس والقمر فتظهر أنوار الشمس أولا شفقا ثم تعظم بالتدريج ولا تعلو الأفق بل تدور حوله ، والقمر يظهر نوره جليا جدا حتى يستطيع الانسان أن يرى على مسافة (كيلو متر) وسكان تلك الأقطار يحتفلون بظهور الشمس فيوقدون النيران ويقيمون الأعياد . وأما القطب الجنوبى فان المعروف عن أرضه قليل جدا . وأهم الرحلات إلى القطب الجنوبى كانت فى القرن الثامن عشر فكشف ثلاثة من الفرنسيين بعض الجزائر . وتبعهم (كوك) وكشف جملة أرضين . وأثبت أن هناك قارة عظيمة . وآخر درجة وصلوا لها (٧٨) والحقيقة (٩) والثانية (٣٠) (١٨٣٩ - ١٨٤٣) وقطع الجليد أضخم ، وضخامة الطبقة الثلجية أكثف فيه والضباب هناك مخيم دائما . والقول العام أن هناك أرضا بالقرب من القطب الجنوبى ، واستنتجوا من بعض الظواهر أن هناك جبالا ورأوا بعض براكين . وكل ذلك يدل على قارة جنوبية كما عرف علماء طبقات الأرض أن الأقطار الشمالية المتقدمة فيها مناجم للفحم الحجرى مما يدل على أن الغابات كانت فى قديم الزمان موجودة بهذه الأصقاع .

﴿ بهجة العلم وظهور سر من أسرار القرآن فى قوله تعالى :
« ألم تر أن الله يزجى سحابا » الخ ﴾

خرجت من المنزل صباحا للرياضة منذ شهور هذه السنة ١٩٢٨ م وكانت المطبعة لم تصل فى طبع التفسير إلا إلى (سورة الإسراء) فوقفت على شاطئ نهر النيل بالقرب من (جزيرة المنيل) وكان نظرى مبتهجا بالأنوار الشمسية المشرقة على سطح ماء النهر المنعكسة على الشاطئ القريب من سطح الماء فكنت أرى الضوء المنعكس وقت الصباح يعطى ضوء الشمس الأصلى ضوءا أظهر بياضا وأحسن إشراقا . فأما فكرى فقد كان مبتهجا بمسألة (المحار) وتناسله فى البحر ، وأن (المحارة) تلد آلافا من صغارها بلا ذكر ، وهذه المسألة تناسب مسألة المسيح وأمه ، فبينا أنا كذلك إذ قابلنى هناك صديق مصطفى بك منير ذاهبا إلى ديوان التنظيم فسألنى قائلا : فيم تفكر ؟ فأجبته بما ذكرته فسر وقال : هذا أمر لم أسمع من تفكر فيه من قبل . هناك أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، فأخذ يقص لى قصصا عجيبا . قال : لقد اجتمع

سنة ١٩٢٥ أى منذ ٣ سنين ببلادنا المصرية باسم الحكومة المصرية نحو (٢٥٠) عالما من علماء الأمم الأوروبية كلهم أعضاء الجمعية الجغرافية التى أنا من أعضائها . ولما التأم جمعهم وتكامل وانتظم الاحتفال ألقى كل واحد منهم خطبة فى موضوع جليل جيل . ولما كنت أنا منهم ألقيت موضوعى فى أمر النيل وخروجه من خط الاستواء، وأن آية « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » الخ منطبقة على نيل مصر انطباقا تاما :

(١) ألم تر أن الله لم يخلق نهرا مبدؤه يمر به خط الاستواء إلا النيل .

(٢) ألم تر أن تلك الأقطار الاستوائية لاتفتأ أنواع البرق تتلألأ فيها بهيئة فوق المعتاد تمتاز عن برق الدنيا كلها بحيث تكاد تخطف الأبصار وتبهرها مدة عشرة أشهر فى السنة .

(٣) وأيضا هناك أخاديد فى الأرض غائرة ينزل فيها ماء غزير جدا لايدرى الناس أين يذهب وهكذا .

(٤) يخرج البخار من المحيط الاطلانطيق والمحيط الهندى، أى من جانبى أفريقيا فيلتقيان فى الجو فيمطران فى خط الاستواء . وللأول الاشارة بقوله تعالى «يقلب الله الليل والنهار» ومعلوم أن ذلك التقليب فى خط الاستواء لأن حركة الشمس هناك . وللثانى «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» وللثالث «يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء» وللرابع بقوله «ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه» الخ . قال : وكانت الخطبة لكل خطيب لا تتجاوز (٢٠) دقيقة فلما سمعوا هذه الخطبة أمنوا بالإجماع على قولى واعتبروا هذا نورا إسلاميا . فقلت له : أيها الصديق كيف تقول إن نهر النيل هو الوحيد الذى يمر منبعه بخط الاستواء مع أن هذه المنطقة ينبع منها أنهار كثيرة . فقال تنبع أنهار ولكن ذلك ليس من نفس خط الاستواء، أى إن نهر النيل هو الوحيد الذى يمر فى خط الاستواء فعلا بمنبعه . أما غيره فيميل قليلا أو كثيرا، ثم تبسم وقال لا تنس أن هؤلاء علماء الجغرافيا الذين يفطنون لكل ما يقال على علمهم . فقلت له فماذا عملوا بعد ذلك ؟ قال لما رأوا انطباق نهر النيل على الآية وقد كنت رسمت خريطة رسما مجسما بحيث صارت الخريطة أطول من ثلاث حجرات فى الأرض وقد رسمتها مجسمة وجبالها مرتفعة وبحيراتها منخفضة وكل ذلك بألوان . وها هى ذه أريكها الآن فى دار الجمعية الجغرافية التى مفتاحها بيدى فأخذنى إليها وتفرجت عليها ودهشت لخريطة عظيمة مرتفعة عن الأرض بقوائم مستطيلة ضخمة وليست فى حجرة بل هى فى بهو المكان ، فقال انظر فنظرت السقف ومنه تدخل أشعة الشمس فقال إن علماء الجغرافيا الذين أتوا من جميع ممالك أوروبا كما أخبرتك هم الذين نقلوها بأنفسهم من الداخل إلى هنا ، إعظاما لها وجعلوها ملاقية لأشعة الشمس إشارة لأنها مناط العلم والتقديس وسموها [الخريطة المقدسة] وذلك لأن لها آية فى كتاب مقدس ، وهو القرآن . قال وقد فرحوا فرحا عظيما، فقلت له : ياسبحان الله . أيكون هذا فى بلدى وعلى مقربة من منزلى ثم إنى أجهله مع أنك أنت صديق . إن هذه أحسن فرصة أن أقص هذا القصص فى التفسير وأن ترسم هذه الخريطة لى مع بعض المعلومات معها فتفضل ورسمها وأرسلها لى فشكرته على صنعه ورسمتها هنا ، وذكرت ما كتبه على مقتضى ما أفاد به علماء الجغرافيا . ومن عجب أن يجتمع فى هذه الصورة (ثلاث عجائب) الخريطة المقدسة هنا . ثم خطبة صديق الاستاذ (جاد المولى) فى شرف الدين الاسلامى فى جمع حافل من عظماء علماء أوروبا وقد أقروه ولم يناقشوه وذلك عند قوله تعالى « وكذلك أنزلناه آيات بينات » فسأذكرها هناك لأن هذا من التبيين الذى نزل به القرآن . ثم ما كتبته الجمعية الأسيوية الفرنسية على الدين الاسلامى بمناسبة كتابى (نظام العالم والأمم) فلأبدأ بالخريطة المقدسة وإن كان ما فسر به ليس على النهج الذى قدمناه ولكنى أردت أن يقف الناس بعدنا على آراء أهل عصرنا .

الخريطة المقدسة

لما أرسلها لى صديق مصطفى بك منير قال بعد الديباجة: وبعد، فمرسل معه صورة لوحة (خريطة منابع النيل) التى أبصرتموها فى دار الجمعية الجغرافية ومعها نسخة من مختصر المحاضرة التى ألقيتها فى الجمعية على أساتذة المدارس والله يحفظكم ويهدينا إلى العمل بارشاداتكم .

المخلص
مصطفى منير أدهم

وهذا نص الخطبة المذكورة :

(القرآن الكريم ومنابع النيل)

من ألطف الخارطات المعروضة فى دار الجمعية الجغرافية الملكية المصرية لوحة مجسمة تمثل منابع النيل عند خط الاستواء . فترى جبال (رفنزور) الشاهقة التى ارتفاعها (٥٥٠٠) متر وفى جنوبها جبال (اريزمى) وارتفاعها (٤٥٠٠) متر، وفى شرقها (جبال الجون) وارتفاعها (٤٣٠٠) متر وقد كساها البرد طيلسانا أبيض حتى إذا ما أزجى السحاب وتألفت أجزاؤه وتراكمت خرج المطر من خلالها ونزل من السماء من تلك الجبال الشامخة بلمعان له بريق يخطف الأبصار . وترى على هذه الجبال تجاويف الماء وقد انحدر منها وجرى إلى مجار تنتهى إلى بعض البحيرات وتنصرف عن الأخرى ، ترى بحيرة (فيكتوريا نيانزا) ومساحتها (٦٠٠٠٠٠) كيلومترا مربعا وارتفاعها عن البحر (١١٤٥) مترا، وقد أصابها ماء تلك الجبال لأن البحيرة وقعت بينها . وترى بعض هذا الماء وقد انصرف من جبال (رفنزور) و (اريزمى) إلى بحيرات (تنجانيقا) وارتفاعها (٦٧٣) مترا و (كيفو) وارتفاعها (١٤٥٠) مترا و (ادوارد) وارتفاعها (٩١٥) مترا والبرت ومنسوبها كمنسوب بحيرة (ادوارد) . وكذلك انصرف بعض ماء (جبال الجون) إلى بحيرة (رودلف) وترى الماء فى بحيرة (فيكتوريا) يجرى شمالا إلى مجار تصب فى بحيرة (كيوجا) وارتفاعها (١٠٣٠) مترا ويخرج من هذه البحيرة نهر فيكتوريا فيصب فى بحيرة البرت . ثم ترى نهر البرت وقد خرج من بحيرة البرت وانتهى إلى أول مجرى النيل السعيد . وتجد فوق اللوحة خط الاستواء حيث يستوى الليل والنهار مارا بالجزء الشمالى من بحيرة (فيكتوريا نيانزا) قاطعا جنوب جبال الجون الواقعة شرقى البحيرة وجبال (رفنزور) و (اريزمى) التى فى غربيها . اختارت الجمعية لهذه اللوحة أحسن مكان عندها فوضعتها تحت روشن قاعة المحاضرات الكبرى ، فترى أشعة الشمس وقد سقطت عليها نهارا فأكسبتها هيبة ووقارا . ويخيل إلى الناظر إليها كأنه فى طيارة عالية عند خط الاستواء، وتحته تلك الجبال الشامخة وقد كساها الثلج وتراكمت عليها السحب وخرج من خلالها المطر ونزل من أعلاها بلمعانه اللجينى الذى يخطف بالأبصار متجها إلى بعض الجهات ومنصرفا عن الأخرى بحسب ماهيأته له يد القدرة من مرتفعات ومنخفضات وأخاديد كانت غامضة علينا لولا أن كشفها أخيرا المستر هرست مدير مصلحة الطبيعيات سنة ١٩٢٧ .

هذا المنظر الهائل بل السر الإلهى المعظم يستمر على هذه الحال عشرة أشهر فى العام . وضع بطليموس سنة ١٥٠ ق . م خارطة النيل الموجودة صورتها فى دار الجمعية الجغرافية ورسم عليها منبعا واحدا للنيل حسب لم جاء بعده بنحو اثنى عشر قرنا الادريسى ذلك الجغرافى الشهير وقال إن النيل يخرج من بحيرتين تصبان فى بحيرة ثالثة وهو أقرب إلى الحقيقة ومطابق للوصف المبين على لوحة منابع النيل المذكورة

هذا ماأمكننى على قدرطاقتى أن أصفه لك أيها القارئ الكريم عن هذه اللوحة ، وإخالك ملت وصفى وإن كان قرب لك على قدر الامكان تصوير اللوحة . ولكن انظر إذن إلى ماوصفها الله تعالى به منذ ١٣٤٧ عاما فى كتابه العزيز : فقال تعالى وهو أصدق القائلين « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق (المطر) يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

لم تترك هذه الآية الكريمة نقطة واحدة من وصف اللوحة وما يحصل عند النيل من العوامل الطبيعية من أول مايزجى السحاب إلى أن يجرى ماءه فى النيل إلا وذكره . ولاسيما مايحصل من الليل والنهار لمناسبة مصادفة خط الاستواء لمكان تلك المنابع وما ينصرف من الماء إلى تلك الأخاديد التى كشفها المستر هرست وما يحصل لأهل إقليم (فيكتوريا نيانزا) من تأثير لمعان البرق على إبصارهم . وهذا الوصف لاينطبق على منبع أى نهر آخر غير النيل السعيد قال تعالى « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرأ انتهى خطابه (انظر شكل ١٣) .



(شكل ١٣ ـ صورة الخريطة المقدسة لنيل مصر رسم مصطفى بك منير أدهم)

﴿ مقال عام فى هذه الآيات من قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » إلى قوله تعالى « يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » وبيان أن هذه الآية هى سر ملخص ديانات الأمم القديمة لاسيما دين قدماء المصريين ﴾

انظر أولا فى دين الصابئين وهم عباد الكواكب وتعجب لما فى لغة العائلة (الآرية) أو الهند الجرمانية فإن الله عندهم هو النور أو الشمس ، ونجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور أو اللامع ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله . ففى لغة (السنسكريت) (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذيوس) وعند اللاتين (دووس) أو (ديوفيس) ثم قالوا (جوفيس) ومنه (جوبتر) وفى الألمانية القديمة (ذيو) وفى السلان (ديواس) ولفظة (تير) المشتقة منها معناها إله الحرب عند أمم الشمال والفرنسيون يعبرون عن الخالق (ديو) مترجمة والإيطاليون (ديو) والأسبانيون والبرتغال (ديوس) وكلها مشتقة من أصل واحد ولاجرم أن نار الفرس ذات علاقة بالنور فترى هذه الأمم فى مبدإ أمرها لما بهرها من جمال النجوم عشقت مبدعها وعبدته وسمته باسم النور على مقتضى تعاليم أنبيائهم ثم طال عليهم الأمد فنسوا تلك التعاليم فعبدوا العوالم المنظورة المضيئة ثم عبدوا الأصنام . انتهى من كتابى [أصل العالم] مع إيضاح أتم .

فانظر لتعاليم القرآن وكيف أنزل الله هذه الآية ليدلنا على أصل فطرنا . إن فطرة الإنسان كلها عاشقة للنور لأن النور جميل والنور مبدأ الحياة . فلولا أنوار السماء والحرارة المنبعثة من الشمس لم يكن على وجه الأرض نبات ولا حيوان . لذلك كان الناس مغرمين بالأنوار سواء أعرفوا الحقيقة أم لم يعرفوها . فإذا أسموا الله بالنور فهى تسمية أقرب الى الفطرة . فانظر جميع أديان الصابئين التى ذكرتها لك فانها ترجع إلى النور المذكور فى هذه الآية ، فهى آية جمعت ديانات الأمم الفطرية التى تلائم عقول الناس جميعا ثم اعتراها ما يعترى كل حى من البوار فاختلطت تلك الديانات وعبدوا الشمس والكواكب ثم الأصنام ثم ذهبت وحل محلها الإسلام ذلك دين الانسانية جميعها . فانظروا عجب لهذا الدين . نبى أمى فى جزيرة العرب تنزل عليه آية « الله نور السموات والأرض » ونفس هذا المعنى هو ملخص كل دين نزل على نبى قبله . وإياك أن يصدك عن هذا المعنى أن الأديان ضالة أو خاطئة أو منسوخة . كلا . ثم كلا . فهذه الديانات كلها كانت فى أول أمرها حقا صحيحة والله عز وجل أشرق نوره العلمى على كل طير وكل دابة وكل حشرة وهكذا على الأمم الانسانية . الله لم يستثن من رحمته أحدا وكيف يستثنى وهو نور السموات والأرض ؟ هو رحم كل مخلوق ورحم الأمم السابقة وأسبغ النعم عليها ظاهرة وباطنة . ولكن كلما اختلط دين وضل أهله أرسل رسولا آخر حتى جاء الإسلام فشرح كل دين وقال الله فيه « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة » الخ أى فلا تظنوا أن الله هو الشمس أو الكواكب . كلا . بل هذه ضرب أمثال ، ثم ضمن حفظ هذا الكتاب وبقاءه باللغة العربية ثم خلط أمم الشرق بأمم الغرب وقال لهم أيها الناس لا تخافوا من الضلال فكل من حصل له شك فى دينه فوجده غير معقول عنده . فها هو ذا حصن وهو القرآن فاقرءوه أيها الناس فى هذه الأرض . ولقد كنت أرسلت آلافا من الأنبياء ومئات من الرسل فغيرتم أديانهم « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ــ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا » .

﴿ الكلام على دين قدماء المصريين وظهور أسرار هذه الآية فيه ﴾

اللهم إنك قد سحرت بجمالك الذى أشرق فى الآفاق عقول العقلاء من جميع الأمم وأنه يظهر لى فى أن لله أناسا فى كل جيل وأمة يحنون إليه ويطربون لمنظر جماله الذى أشرق فى هذا الكون العظيم . اللهم إن نجومك الجميلة وشموسك المشرقة وأقمارك الباهرة وعلومك الساحرة وبهجتك الساطعة قد امتلأت بها قلوب وقلوب فظهر على ألسنتهم وصف ذلك الجمال . اللهم إن هذه الدنيا كلها مشهد عرس وموسم أفراح قد نصبت فيه الثريات المشرقات وهن يرقصن بتلألؤ ويتواجدن بترنح حتى إن أرضنا فى الحقيقة لا تزال راقصة آناء الليل وآناء النهار فهى كمن قال الله فيهم من الملائكة « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فهى لا تهدأ ولا تفتر عن الجرى بما حملت على ظهرها حول الشمس وحول نفسها فرقصها مزدوج كأنها فى عرس دائم وفرح عام . تدور الدورتين على نغمات الراقصات الحسان من كواكب السماء وهى فرحة بما حليت به من ثلج كالماس فى قطبيها وجبال منه كأنها القطن المندوف فى جوها وفوق أعلى جبالها ، فهى حسناء وشحت بالماس والجواهر من جميع جوانبها قد كللت آنافآنا بقوس قزح والأزهار الجميلة وأرج الزهر وبهجة السحاب ولطف الهواء زينة وبهاء . الكون كله فى عرس مق لحظه العقلاء . كله نور عند من يعقلون . ليس يشهد هذا العرس من الناس إلا القليل أولئك هم الذين يعقلون لم خلقوا ويدركون لمحة من جمال مبدع هذه الكائنات ، فلذلك ترى جميع الديانات بحسب حقائقها ترجع إلى هذا المبدأ الذى وصفناه ولذلك قال الله تعالى « قل ما كنت بدعا من الرسل » فهذا الدين شأنه شأن الديانات الحقة السابقة قبل تبديلها . انظر ماذا ترى فى دين قدماء المصريين فانه قبل أن يشتد فيه التبديل جاءت أناشيد على منهج هذه الآية « الله نور السموات والأرض » فانظر ما نقلته لك عنهم فى (سورة البقرة) من كتاب [الأدب والدين] عند قدماء المصريين المترجم حديثا عن كتب الأوربيين وذلك فى أواخر السورة عند قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة » الخ فهناك وصف الله بأنه قد أشرقت شمسه فى الأرجاء وتبع ذلك وصف الشمس ونورها وبهجة الحيوان بها إلى آخر ما هناك . هذا ما كتبته هناك فاقرأه تجد العجب . وأقول هنا قد جاء فى الكتاب المذكور ما نصه [ومن رأى بعض المؤرخين أنه لم يكن اعتقادهم أن توت هو الشمس نفسها بل هو الجوهر الذى لا شكل له وهو أصل كل شىء والذى أنزل المحبة على الأرض . وقد مثلوا (توت) على شكل قرص الشمس » انتهى .

أقول : إذن هؤلاء أصل دينهم كديننا ، فاننا نقول : إن الله مقدس عن كل الحوادث ولكن هم جعلوا الشمس ضرب مثل له وأتون اسم من أسماء الله عندهم .

وقال فى صفحة ٩٢ [وقد وصفوا أتون بالرحمة والشفقة وحب الخير والملاطفة مع خلائقه وأنه أب لهم عطوف جميل يملأ السموات والأرض بالخير والبركة ولطيف بخلائقه يأسرهم بمحبته ويلطف بالطفل فى الرحم وفى المهد ويعطف على الفرخ فى البيضة وأجرى النيل وأنزل الأمطار وعم النافع لسائر البلاد وجميع العباد) اه .

وجاء فيه أيضا فى صفحة ٦٧ [إن قدماء المصريين وإن عددوا الآلهة قد وحدوا فملا أيام الملك مينا فالله فى مدينة (عين شمس) أتوم وفى مدينة منفيس (فتاح) وفى مدينة الاشمونين (تحوت) وفى مدينة طيبة (أمون) وفى الأقصر (حورس) وفى جزيرة أسوان (ختوم) وهذا كان سبب تعدد المعبودات عندهم وإلا فالأصل هو التوحيد] انتهى .

وجاء فى هذا الكتاب صفحة ٦٧ ما ملخصه :

[من

[من هنا يتضح أن معبود الجميع فى الحقيقة إله واحد وما هذه الأسماء إلا رموز ومظاهر للإله الحقيق الواحد الجامع فى ذاته كل الصفات الإلهية] وإلى القارىء أنشودتان من أناشيد أهل طيبة للمعبود (أمون) ومنها يتضح حقيقة عقيدتهم فى الله الفرد الصمد وهما :

(الأنشودة الأولى)

(الإله العظيم سيد جميع الآلهة (لعل القصد جميع الملائكة) أمون رع الأزلى الحق الواحد الخالق كل شىء السيد المسيطر الذى لم يكن قبله شىء بل هو الموجود قبل كل شىء وكان منذ الخليقة هو قرص الشمس الذى يحيا جميع البشر بظهوره) ترجمت من كتاب (نافيل) .

(الأنشودة الثانية)

(الإله الذى أوجد العشب للحيوان وثمار الأشجار للانسان ويرزق الأسماك فى البحور وهيأ الغذاء للطيور ووضع الروح فى البيضة وأطعم البرغوث والبعوض وحنانه شامل لكل ملتجىء إليه . حمى الضعيف من القوى وهو المجد المحبوب فى السماء والأرض والبحار وتخضع له الآلهة (أقول أى الملائكة) لجده تعظيما لخالقهم وتبتهج بقربهم منه وتمجده الحيوانات الضاربة فى فيافى الصحراء . بهر جمالك العقول وخلب القلوب) (ترجمت من كتاب أرمن الألمانى) انتهى ما أردته من الكتاب المذكور .

أفلست ترى أن هذا الهيام وهذا الحب والغرام بمبدع هذا العالم ناشىء من قلوب أدركت جماله فى هذا الوجود ورحمته الشاملة . فالأوصاف فى هاتين الأنشودتين ترجع للجمال الظاهر الذى أبرزوه بهيئة الشمس وللجمال الباطن الذى يرجع للرحمة الشاملة لما فى الأرحام ولكل من على الأرض . ومن عجب أن آية « الله نور السموات والأرض » وماتبعها من أن الطير صافات تسبح لله وتصلى له فيها كثير من معانى هذه الأنشودة بل فيها جميع معانيها لأنه ذكر ما يمشى على رجلين وما يمشى على أربع وما يمشى على بطنه بعدما ذكر الطير فنى هذه الآيات معانى هذه الأنشودة والأنشودة التى ذكرتها فى (سورة البقرة) فمعانيها تقرب مما هنا ولولا خوف التكرار لذكرتها هنا ولكنى أقول إنهم فيها (أولا) وصفوا الليل وظلامه وأن الله يحفظ أرواح الناس وهم نائمون (وثانيا) وصفوا طلوع الشمس وفرح الناس به فيتوضئون ويلبسون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء (وثالثا) ذكروا أن المواشى تستقر فى مرعاها والأشجار تزدهى والطيور ترفرف تمجيدا لك وتنهض الحيوانات على قوائمها (ورابعا) أن الشمس إذا أشرقت تسبح الأفلاك فى بحارها وتمرح الأسماك فى لججها وتتلألأ الأنوار على صفحات الماء (وخامسا) ذكروا تصوير الأجنة كما تقدم وإرضاع الأم لهن بعد الولادة ثم تعليمهم اللغات . ثم ذكروا أنه خلق سائر البلاد لا مصر وحدها وهكذا ذكروا النيل الذى يحيا به المصريون ونزول الأمطار على الجبال وتقسيم الفصول بأضواء الشمس . وانتهى النشيد بهذه العبارة (خلقت الأرض لأبنائك (يريد عبادك) ومتى أشرقت علينا تشخص العيون لجمالك) انتهى .

فهذا المعنى الذى تضمنه ذلك النشيد يرجع إلى النور وإلى الحياة وإلى الحيوان والطير وأنه كله مسبح بحمده . إذن هذه الآيات تضمنت هذه المعانى . وهذا عجب أن تتجه الأفئدة فى الأمم قديما إلى المعانى التى نزل بها الوحى حديثا على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم لهذا ولغيره قال الله له « قل ما كنت بدعا من الرسل » .

ثم اعلم أن هذه المعانى التى تنشرح بها قلوب عقلاء وحكماء الأمم غذاء لهم وبهجة فى الحياة الدنيا بل هى السعادة العظمى ، اللهم إن أمثال هذه البدائع والدر والجواهر نم عجلت لأناس أنت اصطفيتهم فى الدنيا محبونك حبا جما وقلوبهم والهة بك وامقة لك بهجة بأنسك مشرئبة للقائك ، ترى الدنيا عروسا أنت جلوتها

وكؤوسا أنت أدرتها ونورا أنت أبدعته وعرسا أنت أقمته وزينة أنت نصبتها . سبحانك اللهم جعلت هذه الدنيا دارا تجمع بين حالين حال الجنة وحال النار . فأما الأمم والدول والممالك وأكثر الناس فكل هؤلاء يكتوون بنارها فى احتدام وخصام وجدال وحسد على متاع قليل . وأما الحكماء الذين اصطفيتهم فوالله إنهم مع الناس بأجسامهم وظواهرهم وهم الآن فى جنة المعارف . فهم فى الدنيا معك فى أنس وحبور وجمال وبهاء بك يأنسون وبقربك يفرحون وشموسك وأقمارك ونجومك بهم يطوفون . فهؤلاء هم صفوة الإنسانية ومقر الأنوار الإلهية . فهم مع الناس فى شقاء بظواهرهم ومعك فى جنة ببواطنهم . إن الحسد والحقد والغيظ والعداوة والطمع والحرص قد أحاطت بالناس فسلبتهم السعادة . فأما هؤلاء فانهم غلبت عليهم تلك الأنوار المشرقات فازدانت قلوبهم . فهم فى جنة يحبرون . وهؤلاء وحدهم هم الذين يعقلون قولك « الله نور السموات والأرض » .

﴿ بهجة العلم : فى تفسير قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » الخ ﴾

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم والعرفان وجمال الإتقان وأبدع النظام . هذه الآيات أبانت لنا جمالين : جمالا يدرك سببه بالأبصار وجمالا يدرك سببه بالبصائر . فأما الجمال الذى يدرك سببه بالأبصار فهى هذه الأنوار المشرقات من الكواكب المحيطة بأرضنا كما أوضحناه . فهذه تدرك أسبابها أبصارنا وهى التى ضربها الله لنا مثلا للأنوار الباطنة التى مصدرها هو الله بلا واسطة هذه المشرقات . وأما الجمال الذى يدرك سببه بالبصائر فهو ذلك الابداع الذى ظهرت آثاره فى جمال الوجود وإتقان الصور والعطف واللطف والرأفة والرحمة وإلهام الحشرات والأمهات وخلق الأجنة فى البطون والرحمة التى لاحد لها والتى قد وضحت فى هذا التفسير أيما وضوح وهذه هى التى ضرب الله المثل لها . فالشمس والكواكب وأنوارها ضربت مثلا للنفحات الباطنة والهامات العجيبة وإحسان التصوير والنقش والابداع . فقوله « مثل نوره » الخ هو الذى ضرب به المثل . وذكره الطير صافات وإزجاء السحاب والتأليف بينه وجعله ركاما وإنزال الودق منه وكذلك البرد وتقلب الليل والنهار وخلق الدواب كلها وتقسيمها إلى من يمشى على بطنه ومن يمشى على رجلين ومن يمشى على أربع . كل هذا التدبير لاتصلح الشمس ولا الكواكب لاحداثه كلا . إذن الشمس والنجوم والكواكب أسباب الأنوار الظاهرة . فأما ذلك التدبير والإبداع فأسبابه خفية تدركها العقول والأفهام .

ولقد ذكرت لك آنفا أن قدماء المصريين ذكروا الأمرين معا أمر الأنوار الظاهرة فى أناشيدهم من إشراق الشمس وظهور الحركات الحيوانية بها . ومن ظهور اللطف والرأفة والتدبير فى خلق الأجنة فى الأرحام . وأزيد عليه الآن بأنهم لم يكتفوا بذلك النشيد بل إنهم فوق ذلك أبدعوا رقصا دينيا فى معابدهم . وذلك الرقص ليتشبهوا بالكواكب الجاريات حول الشمس ، لأن أظهر الأنوار ما تراه العيون من الكواكب فإذا تشبهوا بها فقد نسجوا على المنوال الربانى فى نظرهم وذلك ليكون ذكر الله قولا بالأناشيد وعملا بالرقص الدينى وهذا (مع وجود الفارق) كما أننا نذكر الله بألسنتنا ونصلى له بحركاتنا فى القيام والقعود والصلاة أقوال وأفعال ، فهم كذلك أقوالهم النشيد وأفعالهم ما يشبه الرقص . ولا ندرى هل ذلك كان عن أنبياء مثل سيدنا إدريس (سيزوستريس) وغيره ، أم من اختراع علمائهم استنادا على دينهم ونصوص أنبيائهم ؟ . وسيأتى إيضاح هذا الرقص فى (سورة الفرقان) عند قوله تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا » ولقد عرف الناس الآن أن تاريخه يرجع إلى (٥٠٠٠) سنة . جاء فى كتاب (الأدب والدين) المتقدم أن ذلك لم يكن خلاعة وشهوة بل جعلوه نموذجا للحركات الفلكية وتمثيلا للأنغام الموسيقية . ونقل فى هذا الكتاب عن (كستيل بلاذ) أن تمجيد الخالق عند قدماء المصريين أداهم إلى إنشاد

الأناشيد المقدسة وإحداث الرقص إظهارا لسرورهم وأفراحهم وقياما بشكر النعم وإظهارا للعبودية والخضوع لمقام الربوبية حتى اعتبر قدماء الشعوب أن الرقص جزء جوهرى من دياناتهم بل اعتقد المصريون أنه من التعالم المنزلة . انتهى ملخصا .

ثم انظر ماذا جرى فى الأمم الاسلامية فى هذا المقام فانك تجد الرئيس (ابن سينا) فى كتاب الاشارات يقول ما ملخصه [إن مما يعشق النفوس الانسانية فى الحضرة الإلهية ويجذبها إليه العشق العفيف والصوت اللطيف والعبادة مع الفكر] وقال شراحه : إن المراد بالعشق عشق الشمائل لا عشق الصور فإن عشق الصور موجب للفسوق والهيام بالمحسوسات . أما عشق الشمائل فهو الذى يدعو إلى الجمال الإلهى · وأضرب لك مثلا الآن فأقول (إننا نرى الزهرة والشجرة والكواكب فلا تهيج شهواتنا ونفرق طرا بين هذه وبين الصور الجميلة الانسانية · فالزهرة نحبها ولكنها لا تثير شهواتنا مباشرة بخلاف منظر النساء فانه مثير للشهوات مباشرة فحبنا الشمائل بعقولنا أشبه بحبنا للزهرة المبصرة . ثم إن الصوت اللطيف الذى ذكره (ابن سينا) شرحه العلامة الغزالى فى الإحياء فى [كتاب السماع] فى الجزء الرابع منه فأباح السماع ولم يحرمه ولكنه شرط له شروطا كلها ترجع إلى أمر واحد وهو أن لا يثير الشهوات ، فقد ذكر شروطا فى السامع وشروطا فى المغنى وشروطا فى نفس القول المسموع وأبان أن السامع لا يكون فتى يهتاج بالسماع وأن المغنى إذا كان امرأة هيج الشهوة وأن القول إذا كان فيه خلاعة كذلك ، وقد أطال لك ذلك وفصله تفصيلا فارجع إليه . ومن عجب أن العلامة (ابن الطفيل) فى نحو القرن الخامس على ماأذكر فى كتابه [حى بن يقظان] الذى لخصته لك فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى «أولم تؤمن قال بلى» الخ ، قد ذكر أن (حى بن يقظان) لما ترعرع فى الجزيرة ونظر الكواكب مشرقة مغربة أدهشه جمالها وقلدها فى حركاتها ودورانها وصار يدور على نفسه تشبها بها حتى يغشى عليه لأنه لم يجد من يقتدى به فى حب خالقه وعبادته إلا هذه السيارات الجاريات ودورانها حول الشمس هو عين عبادتها لله . وهذا التخيل جعله يقلدها فى القرب من ربه . أفلا تعجب معى أيها الذكى كيف رأينا علماءنا السابقين قد بحثوا فى العالم العلوى والسفلى ودققوا وكتبوا لنا آراءهم فلم يذروا بابا من أبواب العلم إلا ولجوه وبحثوه . وإنما كتبت لك هذا لتعلم أن آباءنا لم يكونوا نائمين وأن سلسلة العلم قد انقطعت بيننا وبينهم ، وآراؤهم قد خبئت فى كتبهم وأن قراء هذا التفسير وأمثاله سيحدثون للشرق نهضة لم تحدث مثلها من قبل . ثم انظر قول العلامة (ابن سينا) : إن العبادة مع الفكر عند الفلاسفة موازية للعشق العفيف والصوت اللطيف . وذلك فى أواخر كتاب الاشارات وكيف كان الناس إذا لم يجدوا نبيا يعلمهم العبادة قلدوا الكواكب كما حصل لحى بن يقظان . هذا ماأردت ذكره فى هذا المقام استطرادا .

﴿ الأنوار الظاهرة والأنوار الباطنة التى ازدانت بها أرضنا ﴾

لقد ذكرت فى هذا المقال أن أرضنا قد أحاطت بها أنوار الكواكب والشمس والقمر وهكذا الهواء اللطيف والثلج والبرد والسحب . ثم أقول أيضا : هنالك أنوار الماء المتلألئة فى البحار الاستوائية التى تلمع أنوارها بأشكال كالقمر وهالته والبرق وأنواره المشرقات بما هنالك من الفسفور المتحلل من الحيوان البحرى وهذه هى الأنوار الظاهرة التى صارت مناطق تمنطقت بها أرضنا .

أما مناطق الأنوار الباطنية فهى الحيوانات والنباتات التى أحاطت بالأرض من جميع جهاتها كما فى (شكل ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧) .

هذه الأشكال الأربعة وما يليها إلى شكل (١٦) منقولة من (الأطلس الحديث) المقرر فى المدارس المصرية تأليف الأستاذين (لبيب أفندى العسال) و (محمد أفندى حمدان) .

المناطق وحاصلاتها النباتية



(شكل ١٤ ـ صورة مناطق النبات حول الأرض)

(أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون)

المناطق الخمس وحيواناتها



(شكل ١٥ ـ صورة مناطق الحيوان حول الأرض)

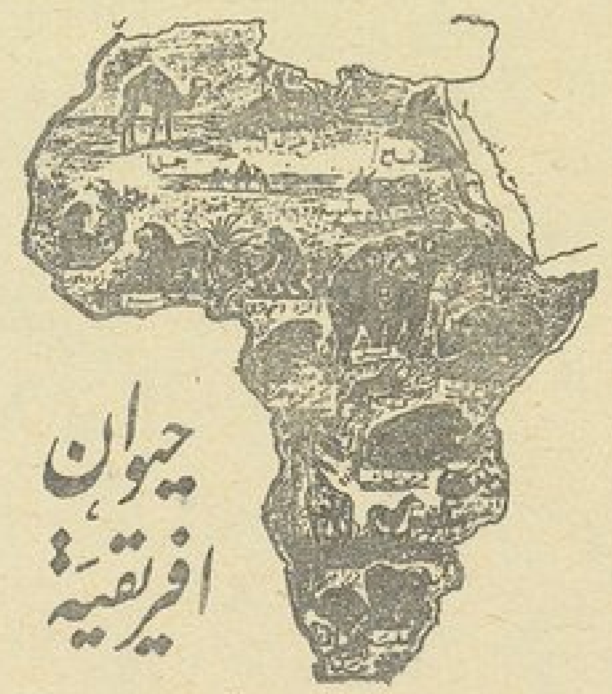
(فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم)

(شكل ١٦



(شكل ١٦ – نبات أفريقيا)

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها)



(شكل ١٧ – حيوان أفريقيا)

(وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)

وفى شكل ١٤ مناطق فيها أسماء النبات حول الأرض وهى ثلاثة أقسام : نبات فى المناطق القطبية ونبات فى المناطق المعتدلة ونبات فى المناطق الحارة . وفى شكل ١٥ مناطق فيها أسماء الحيوان حول الأرض وهذه تقسم الأقسام السابقة بعينها . والشكل السادس عشر فيه صور وأسماء نباتات أفريقيا . والشكل السابع عشر فيه صور وأسماء حيوانات (أفريقيا) . وسيأتى فى أشكال (١٨و١٩و٢٠و٢١و٢٢و٢٣و٢٤و٢٥و٢٦) صور وأسماء نباتات وحيوانات أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا .

فانظر كيف زين الله أرضنا (بزينتين) زينة أهم أسباب أنوارها ظاهرة وهى الكواكب السماوية، وهى الثلوج والسحب والأنوار وهكذا . وزينة أهم أسباب أنوارها باطنة وهى صور الحيوانات والنباتات التى أحدثت مناطق حول الأرض زينة لها . وإنما قلت إن السحب والثلوج وأمثالها أهم أسبابها ظاهرة لأن حرارة الشمس سبب لها ولكن هناك إحكام فى الصنع ونظام فى الوضع أسبابه خفية فلا يشتبه عليك . ثم إن المناطق الحيوانية والنباتية التى جعلها الله محيطة بأرضنا زينة لها بديعة . فظاهرها جميل ولكن باطنها أجمل لما فيها من التدبير والإحكام فى إدراكاتها ومنافعها فضلا عن صورها والاحكام فى تعقلها أمور معاشها وتدبير ذريتها مما ظهر كثير منه فى هذا التفسير . وفى هذا المقام خمسة فصول :

(الفصل الأول) فى ذكر أنواع الحيوان بطريق أوسع وبيان أجمل نهجا على طريق تقسيمه فى الآية .

(الفصل الثانى) بهجة العلم . إن الإنسان محبوس فى عاداته تاركا عقله كما حبس الحيوان فى غرائزه، وهو فى ذلك أقسام على منهج القرآن الكريم .

(الفصل الثالث) فى عجائب هذه الحيوانات وآثارها فى الانسان ، وأن الأرض كراقصة بما حملت حول الشمس .

(الفصل الرابع) فى أن الحيوان كتاب مفتوح للناس قاطبة . وفيه بيان نعيم الحرية وجحيم الاستعباد .

(الفصل الخامس) فى أن ما كتبناه هنا نسجناه على طريقة أكابر المتقدمين .

﴿ الفصل الأول : فى ذكر أنواع الحيوان بطريق أوسع وبيان أجمل نهجا على منهج التقسيم فى الآية ﴾

ها أنت ذا أيها الذكى رأيت بعض صور الحيوانات فى أفريقيا وأمريكا وتقيس عليها ماسواها . سبحانك اللهم أنت ضربت نور القناديل أمامنا مثلا لنورك الذى أشرق على قلوبنا وعلى كل حيوان ونبات وسماء وأرض ثم قلت «ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم» . نعم أنت تعلم كل شىء لأنك تعلم ماخلقت ، أما نحن فانك تضرب لنا الأمثال وليس ضرب الأمثال قاصرا على ماضربته لنا فى القرآن . كلا . إن النجوم التى نراها مشرقة فى أكناف السماء والقمر والشمس لم نر حقائقها وإنما رأيناها مصغرة جدا . فكوكب الجوزاء الذى نراه فى السماء أصغر من البرتقالة أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة والكواكب الثابتة كلها كبيرة كشمسنا أو أكبر أو أقل . فهذا الذى نراه فى الجو المحيط بنا ليس نفس الكواكب بل هو ضرب مثل لها . فاذا كان القنديل فى مساجدنا ضرب الله به المثل لنوره، فكم ضرب لنا مثلا لمخلوقاته بتصغير صورها فى أعيننا . ذلك لأنه يقول «وماأوتيتم من العلم إلا قليلا» والعلم بضرب الأمثال علم قليل . فاذا قيل لنا فلان كالبدر فليس فى هذا معنى إلا أن وجهه مشرق ولم نعرف صفاته . ولقد قرب الله عز وجل العلم للناس اليوم باكثاره ضرب الأمثال بالصور الشمسية مثل الصور التى رأيتها هنا (شكل ١٥و١٦و١٧ الخ) فما هى إلا صور للقرد وعجل البحر والنمر الأمريكى والببغاء، وأضرابها ولكنها لاتعطينا إلا ضرب مثل وهو علم قليل . فقوله تعالى « ويضرب الله الأمثال للناس » يفتح لنا باب الكواكب والحيوانات والنباتات التى ترسم

لنا صورها فى عصرنا . ذلك العصر الذى امتاز بأن الله يرينا آياته فيه إذ قال « وبريكم آياته فأى آيات الله تنكرون » وقال « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فنحن الآن مأمورون أن نحمد الله لأنه أرانا آياته بالعلوم المنتشرة اليوم · ولا معنى للحمد إلا بالعلم بالمحمود عليه بقدر طاقتنا . فلنقرأ علوم هذه الحيوانات والنباتات ، ولنعجب من تقسيم الحيوان إلى ماش على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع . وهذه الطريقة هى التى سار عليها علماء الطبيعة فى عصرنا ، إذ يقولون إن الحيوان أدناه خلق قبل أعلاه . فالماشى على بطنه قبل الطيور والطيور قبل ذوات الأربع .

﴿تفصيل الكلام على الأقسام الثلاثة : الماشى على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقى العالم المدقق الذى اعتاد أن يحاورنى فى المسائل الهامة فى هذا التفسير فاطلع على هذا فقال ما هذا التطويل ؟ أتريد أن تجعل هذه الآية كتابا ضخما ؟ فما هذا الاكثار . إن هذا يورث السآمة والملل . فقلت له أنا أسألك فى قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فهل تجد فى القرآن تفصيل الصلاة والزكاة ؟ . قال لا . قلت فمن الذى فصلهما ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم فقد بينت السنة الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وهكذا بين الزكاة فقال « فى كل أربعين شاة شاة واحدة » وهكذا . قلت ألم يؤلف علماء الإسلام فى ذلك كتبا شتى ؟ قال بلى ولو جمعت كتب المذاهب من الشيعة وأهل السنة فى الصلاة والزكاة وحدها لملأت مكاتب عظيمة تملأ مساحات واسعة . قلت الصلاة والزكاة فرض عين ، وعلم الحيوان والنبات يكونان فرض كفاية بحيث يكون فى الأمة من يكفيها بحيث يضارعون فى علمهم بهذه العلوم فى كثرتهم من يعلمون هذه العلوم فى أوروبا والصين واليابان وأمريكا أو أكثر . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يقتصر الوجوب على الوجوب الكفائى بل هناك وجوب عينى على كل قادر متفرغ الذهن للتوحيد والشكر . فشكر الله واجب وكل يشكر على مقدار وسعه ، لا تكلف نفس إلا وسعها . ولا معنى للشكر بغير علم بنعمة المشكور . إذن هذه العلوم تجب وجوبا كفائيا على مجموع الأمة وعينيا على أفراد ممتازين ذكاء وفراغ بال لمعرفة الله ولشكره ، ومعرفة الله بهذه العلوم وهكذا شكره وازدياد المعرفة واجب كازدياد الشكر ، قال تعالى « وقل رب زدنى علما » فهذا من ازدياد العلم الذى يجب علينا بنص الآية لأننا أمرنا أن ندعو الله بالازدياد ولا معنى للدعاء بأمر نحن لا نطلبه ولا نتوجه إليه ، فنحن أمرنا بالاستقامة كما قال تعالى « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » وأمرنا بالدعاء بالاستقامة فقلنا « اهدنا الصراط المستقيم » وأمرنا بالعلم قال تعالى « اعلموا أن الله يحيى الأرض » الخ وهكذا آيات كثيرة فقال صاحبى هذا القول موضح فى مواضع أخرى من هذا التفسير ونحن سلمنا به ولكنى أقول إنى أخاف سآمة القارئ فقلت قد ذكرت لك أن الصلاة والزكاة واجبان . فالصلاة على الجميع والزكاة على من عنده مال ، فمن ليس عنده مال لا تجب عليه الزكاة ، هكذا من ليس عنده قدرة على دراسة علم الحيوان لا تجب عليه . فأما القادر على الدراسة فعليه التعلم للشكر . إذن فلماذا نرى المسلمين ملئوا خزائنهم بالعلوم العملية ولم يملئوها بالعلوم العلمية التى عليها ينبنى أصل العقيدة وأصل الحياة الدنيا . فهذه العلوم تنفع من جهة ثبات العقيدة وازدياد الشكر . ومن جهة أخرى أنها تزيد الناس ثروة وغنى وسعادة فى الحياة الدنيا . وقد قال إمام الحرمين وبعض العلماء [إن هذه العلوم أفضل من علوم فروض العين لأن نفعها أعم] فلماذا اقتصر المسلمون على ما ينفع نفعا خاصا وتركوا ما ينفع نفعا عاما .

الصلاة تنفعنى وحدى ، والزكاة تنفعنى فى الآخرة وتنفع أناسا فقراء محدودين فى الدنيا . أما هذه العلوم فانها تنفع الأمة كلها . وعليه يكون قول إمام الحرمين ومن نحا نحوه وجيها ويكون بعض المسلمين هم وحدهم الأمة المقصرة النائمة الجاهلة الغافلة المسكينة الغارقة فى بحر لجى من الجهالة وهم ساهون .

فقال صاحبي : إن هذا القول حق وأحس بآثار في نفسي منه . ولابد من نتائج له تحصل في الاسلام. قلت: إذن لايسأم الانسان من بيان الحيوان . ولماذا لم يسأم من معرفة أركان الصلاة وتبيان الزكاة ؟ قال إنه لم يسأم لأنه يسمع ذلك من النبوة . فالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الذين شرحوا الصلاة والزكاة ونحوها فلذلك أقبل الناس عليها وألفوا كتبا جمة فيها . قلت والبيع والاجارة والرهن والقضايا . قال كذلك فهذه قد نقل الناس أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فرغبوا وحققوا ودققوا . أما هذه العلوم فلم يجدوا فيها نصوصا . قلت له قال الله تعالى «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» ألم يقل الله تعالى في القرآن «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر» قال بلى . قلت إذن الله لم يوجب علينا أن نقتصر على قول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كل شيء بل في الشرائع وحدها . أما النظر في هذه الدنيا فهذا علم عام . ألم تسمع قوله تعالى «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» فنحن ننظر وإذا جهلنا سألنا أهل العلم . ألم تتذكر ماقلته لك في (سورة البقرة) عند آية النسخ أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بقول سلمان الفارسي في حفر الخندق ولم يبال بأخذ العلم عن المجوس لأن حفر الخندق إنما كان من عمل الفرس . فها هوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل بعمل عباد النار وسمع كلام أهل العلم بالحرب في واقعة خاصة . أفلا يسعنا مايسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وندرس هذه العلوم ونأخذها عن أربابها مادامت ليست شرائع كما أن حفر الخندق ليس من الشرائع . قال حقا يجب علينا الأخذ عن أهل العلوم في كل علم وهم أهل الذكر فيه . قلت وأيضا يقول الله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » . إذن المؤمنون المبشرون هم المسلمون بعدنا الذين يقرءون علوم الأمم ويتبعون أحسنها وهؤلاء هم أولوا الألباب وهم المهديون وهؤلاء يكونون أرقى من المسلمين الذين في زماننا وفي القرون المتأخرة فقال نعم هذا حق . قلت إذن فلنفصل هذا المقام بعض التفصيل بحيث لا يكون مكررا مع ماتقدم في علم الحيوان من هذا التفسير .

﴿ أقسام الحيوان ﴾

إن الآية كما قدمنا جعلت الحيوان [ثلاثة أقسام] :

(١) ماش على بطنه . (٢) ماش على رجلين . (٣) ماش على أربع .

إني أذكرك أيها الذكي بما تقدم في (سورة الحج) عند قوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا» الخ . فقد تبين هناك أن الذبابة بدراسة جسمها أمكن تقسيم الحيوان إلى قسمين قسم له دم وعظم وهي الحيوانات الفقرية . وقسم لادم له ولا عظم وهي الحيوانات الحلقية والمفصلية والرخوة والنباتية . فقال صاحبي ليس هذا عين ماهناك بل هنا بعض تغيير في اللفظ . فقلت له إن القول هنا سيكون أوضح ، إنما أحب أن تقرأ ماهناك ثم تقرأ ماهنا ليحصل عندك من جمال العلم مابه ينشرح صدرك . فقال سأفعل إن شاء الله . فقلت إذن الحيوانات هكذا .

(١) فقرية (٢) حلقية (٣) مفصلية (٤) رخوة (٥) نباتية

(شكل ١٨



(شكل ١٨ – نبات أوروبا)

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا
متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان
مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم
لآيات لقوم يؤمنون)



(شكل ١٩ – حيوان أوروبا)

(ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)

الحيوانات الفقرية فيها الأقسام الثلاثة في الآية ممن يمشي على أربع وممن يمشي على رجلين وممن يمشي على بطنه . فهذا القسم استوفى أقسام الآية . قال وكيف ذلك ؟ فقلت إن فيه ١٢ قسما [الأول] الحيوانات ذات اليدين وهو الانسان الذى قسموه إلى الصنف القوقازى وهو الأبيض ، وإلى الصنف المغولى وهو الأصفر وإلى الصنف الافريقى وهو الأسود والى الصنف الأمريكى وهو الأحمر ، وإلى الصنف (الأيبر بورى) وهو ساكن القطب الشمالى الاسكيمو . [القسم الثانى] ذو الأربعة الأيدى وهى القردة وهى أصناف (الجيوان والاورانغ أوتان والغوريلا والشمبانزى) . [القسم الثالث] الحيوانات آكلة اللحوم وهى تشمل الحيوانات الكاسرة كالأسود والنمور ولها أسنان تامة وهى القواطع والأنياب والأضراس . [والقسم الرابع] الحيوانات الثدية البحرية وأطرافها قصيرة ولها أرجل قصيرة كفية كأنها المجاديف تعينها على السباحة وغذاؤها اللحوم وتخرج إلى الشاطىء للراحة ورضاعة أولادها . وهذه (نوعان) العجول البحرية والبقر البحرى . [القسم الخامس] الحيوانات ذوات الأيدى الجناحية وهو حيوان واحد وهو الخفاش يرضع أولاده وهو ليلى ويتغذى بالحشرات وهو يطير بسبب غشاء عريض ممتد بين أطرافه المقدمة والمؤخرة وكذا أصابعه المستطيلة على شكل أجنحة يطير بها ويقضى الشتاء وهو نائم . [القسم السادس] الحيوانات الثدية آكلة الحشرات ومنها القنفذ والفار الغيطى وغذاؤه الحشرات ولها أنياب وأضراس . [القسم السابع] الحيوانات الثدية . القراضة لا أنياب لها وأضراسها كحجر الطاحون مفرطحة ، وتعيش فى الأحجار وتتغذى بالنبات وبالثمار وهى تشمل ذوات الترقوة كاليربوع والسنجاب والكاستور وهذه تتسلق على الأشجار . ومالا ترقوة له ومنه حامل الشوك والأرانب وهذه لا تتسلق على الأشجار . [القسم الثامن] الحيوانات الثدية عديمة الأسنان ومنها آكل النمل والكسلان وأم قرفة وهو نوع مغطى بصفائح كقشور السمك وبعضه له درع مثل (التاتو) . [القسم التاسع] الحيوانات التى لا أظافر لها ذات الجلد الثخين وتتغذى بالنبات وهى : (١) ذات الظلف الواحد كالفرس والحمار وحمار الوحش والحرتيت . (٢) وذوات الأرجل المشقوقة وأطرافها تنتهى بأصابع من اثنين إلى أربعة مثل الخنزير وجاموس البحر . (٣) وذوات الخرطوم وهو الفيل . [القسم العاشر] الحيوانات المجترة . ليس لها ترقوة وتتغذى بالحشائش والنبات من غير مضغ ، ومعدتها أربعة أقسام تقدم رسمها وشرحها فى (سورة النحل) وليس لها قواطع فى الفك العلوى ولا أنياب لها إلا حيوان المسك الذى تتميز ذكوره عن إناثه بنابين طويلين فى الفك العلوى وتحمل تحت بطنها كيسا فيه مسك وعدد الأضراس ست من كل جهة لطحن الغذاء . والفك يتحرك حركات جانبية ، ولبعض هذه معدة خامسة لخزن الماء كالجمل واللاما . ويدخل فى هذا القسم الجاموس والبقر والغنم والماعز والزرافة وحيوان المسك والمها واللاما .

(شكل ٢٠



(شكل ٢٠ ـ نبات آسيا)

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين)



(شكل ٢١ ـ حيوان آسيا)

(ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم)

[القسم الحادى عشر] الحيوانات القيطسية وهى حيوانات بحرية تتنفس فى الهواء آنا فآنا وتضع أولادها أحياء، وهى إما أن تتغذى بالنبات مثل اللامنتين وإما أن تتغذى باللحوم مثل القيطس والكشلو والدلفين، أما القيطس فهو الذى يستخرج منه زيت يصنع منه شمع خفاف، وهو يتغذى بصغار الحيوان ويصعد الماء من أنفه كالنافورة . وأما الكشلو فهو كالقيطس ورأسه مقدار ثلث أو نصف جسمه ويستخرج منه العنبر السنجابى وهو فى الأعور فى هذا الحيوان . وأما الدلفين فهو الدرفيل المشهور يتغذى بالسمك والحكومات حرمت صيده لأنه ينقذ الناس من الغرق (القسم الثانى عشر) الحيوانات ذوات الرحمين وهى فى (هولاندة الجديدة) وهى تضع أولادها وهى أجنة لا تتحمل أحوال الجو فتضعها فى جيب خاص فى مؤخر البطن والثدى أمام هذا الجيب واللبن يسيل من ذلك الثدى بغير اختيار لتغذية الصغار وبعد أمد معلوم تترك أولادها ذلك الجيب وترجع إليه متى رأت خطرا . ومن هذه الحيوانات (القنقر) وهو كالأرنب الكبير إذا جلس معتدلا وهو فى استراليا وتسمانيا . هذه أنواع الحيوانات الثدية التى هى قسم من أقسام خمسة للحيوانات ذوات الفقرات .

﴿ القسم الثانى من الحيوانات : ذوات الفقرات الطيور ﴾

وهى : (١) إما دجاجية مثل الدجاج والطاووس والحجل والسمان والحلم والحمام . (٢) وإما ذوات أرجل كفية مثل البط والأوز والبجع (٣) وإما شاطئية مثل أبى قردان والقلق وأبى مغازل والنعامة والبشاروش . (٤) وإما دورية مثل البلبل والعندليب والخطاف والقنبر والغراب والهدهد . (٥) وأما متسلقة مثل الببغاء ونقار الخشب . (٦) وإما جارحة مثل النسر والحدأة والبوم والمصاص والعقاب والصقر .

﴿ القسم الثالث من ذوات الفقرات : الزواحف ﴾

وهى السلاحف والورل والثعابين . فالسلاحف لها درق على جسمها والورل مستطيل له ذيل وأربع قوائم قصيرة ، والثعابين مستطيلة اسطوانية عديمة الأطراف . ومن الثعابين ذو الجرس إذ له آلة رنانة فى ذنبه يعيش فى أمريكا وهو سام . ومن الثعابين ما لاسم له مثل (البوا) وهو كبير جدا ويتغذى بالحيوان بالضغط والازدراد ومثل الثعبان ذى الطوق وهو يتغذى بالسمك والدود والحشرات .

﴿ القسم الرابع ﴾

من الحيوانات ذوات الفقرات الضفادع .

﴿ القسم الخامس ﴾

السمك . انتهى قسم الحيوانات ذوات الفقرات .

ها أنت ذا أيها الذكى إذا تأملت فى هذا النوع من الحيوان تجده مرسوما أمامك والرسم مثل من الأمثال التى ضربها الله لنا فنجد فى حيوانات أمريكا الجنوبية مثلا النمر وهى من ذوات الأربع والأفعى وهى من التى تمشى على بطنها والببغاء وهى من التى تمشى على رجلين وبقية الحيوانات الفقرية المتقدمة ملحقة بهذه .



(شكل ٢٢ ـ نبات أمريكا الشمالية)

(وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون)



(شكل ٢٣ حيوان أمريكا الشمالية)

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم)

[القسم الثانى] من أنواع الحيوان (الحيوانات الحلقية) ومنها مايسكن البحار وماجاورها مثل السربيل له خياشيم ذات ألوان زاهية ومثل (السايل) وهويسكن أحجار الشواطىء ويعيش فرقا . ومثل (الامفتريت) ومثل (السكولوبندر البحرى) وهوالذى يبحث عنه الصيادون ليستعملوه طعما للسمك . ومثل (دودة السباخ) وتسمى دودة الأرض جسمها أبيض يميل للحمرة لماع لمانامعدنيا . ومثل (دود العلق) يسكن فى المياه العذبة ، ويقرب من هذا الدود : (١) الدود الذى يعيش فى أجسام الخنازير والأرانب والانسان وهكذا . (٢) والدود الكلوى وهو يعيش متطفلا على الحيوانات المختلفة وفى كلى الانسان . وهكذا أنواع كثيرة من الدود التى تسبب أمراضا مختلفة كما وضح كثيرا فى هذا التفسير فكلها من أنواع الديدان وكلها من الحيوانات الحلقية كالتى تحدث (البلهارسيا) و (الانكلستوما) وغيرهما . انتهى القسم الثانى من أقسام الحيوانات العامة وهى الحلقية . وهذا القسم دمه إما أحمرأو أصفر أو أخضر وهى خنثى فلكل حيوان عضوا التذكير والتأنيث معا وبعضها يحتاج لجماع متبادل . ومنها مايتولد بطريق الأزرار كأزرار النبات .

[القسم الثالث: الحيوانات المفصلية] وهى العنكبوتية والقشرية وذوات الأرجل الكثيرة والحشرات ، فالأولى منها العنكبوت والعقرب وأبو شبت والقراد وحيوان الجرب . والثانية منها أبو جلمبو والسرطان والجمبرى فلكل منها (٨) أرجل وهيكلهاصلب وتعيش فى الماء . والثالثة لها أرجل كثيرة وتعيش على الأرض ، ويدخل فى هذه ذات المائة رجل وأم أربعةوأربعين وذات الألف رجل . وأما الحشرات فهى معروفة فى هذا التفسير وتقدمت كثيرا فلا نعيد الكلام عليها فانظرها فى آخر (سورة الحج) وغيرها .



(شكل ٢٤ ـ نبات أمريكا الجنوبية)

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)



(شكل ٢٥ ـ حيوان أمريكا الجنوبية)

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين)

ومن الحشرات مالا جناح له . ومنها مستقيمة الأجنحة كالصرصار والجراد وفرس النبي والحفار . ومنها نصفية الجناح كالبق والقمل . ومنها ماأجنحتها غشائية مثل النحل والزنبور الأصفر والأحمر وزنبور الطين . ومنها غمدية الأجنحة مثل الجعران وخنفس الفول . ومنها مالها جناحان فقط مثل البراغيث والزعقومة . انتهى الكلام على القسم الثالث وهى الحيوانات المفصلية .

(القسم الرابع الحيوانات الرخوة) مثل المحار وصدف اللؤلؤ وأم الحلول وبعض هذه مشروح شرحا وافيا فى (سورة مريم) فى أولها (شكل ٢٦) .





(شكل ٢٦ ـ نبات وحيوان استراليا)

(والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون)

[القسم الخامس الحيوانات النباتية أو الشعاعية] ومنها الزيوفيت وتقدم شكلها فى آخر (سورة الحج) بهيئة خمسة أشعة منتظمة جميلة . انتهى الكلام على أقسام الحيوان .

وبدراسة هذه الحيوانات يعلم المسلمون معنى قوله تعالى « فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير » فهذا هو الذى يفهمنا القدرة أى قدرة الله على التنويع ، فهو ينوع الحيوان أنواعا لاحد لها ويعطى كل ذى حق حقه . وهذا هو الذى نزل لأجله القرآن وفتح باب علم الحيوان وتقسيمه بهذه الآية .

أما النبات فلم نذكره فى هذا المقام إلا استطرادا لأنه غذاء الحيوان ، ولقد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض » إلى آخره عند مسألة إبراهيم والطير وفى سورة الأنعام عند قوله تعالى «إن الله فالق الحب والنوى» وعند قوله تعالى «انظروا إلى ثمره إذا أثمر» وفى سورة الحجر عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » وفى سورة الحج عند قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» .

هذا ماأردت شرحه فى تفسير قوله تعالى «والله خلق كل دابة من ماء» فياأيها المسلمون أذلكم خير بحيث يرى الطالب حكمة الله واضحة له كأن يقرأ ذلك الحيوان المتقدم الذى ينزل اللبن له ليسقيه لضعفه لأنه لايزال جنينا لأن أمه ذات رحمين كما تقدم أم تضيع زمانه فى حفظ القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر وكونه قادرا وكونه مريدا وكونه عالما وكونه حيا الخ لا لا . أيها المسلمون هذا لاينفع أطفالنا وأنا الآن أكتب هذا ، وعندى اعتقاد تام أن تعاليم المسلمين ستكون على النهج الذى يوافق منهج أمثال هذا التفسير «ولتعلمن نبأه بعد حين» والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ محادثة مع أربعة فضلاء من رجال المعارف مفتش وناظر مدرسة ومدرسين ضحى يوم الأحد (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ أوردها هنا لغرضين : (الأول) أنها إيضاح لهذا المقام (الثانى) أن خير العلم ما أخذ من نتائج آراء المفكرين المجربين ﴾

قال المفتش بلطف وأدب : ـ وهو ممن أتموا علومهم فى أوروبا ـ أيها الأستاذ قد حمل كثير من المفسرين القرآن مالا يحتمل وأدخلوا فيه مالا سبيل لدخوله حتى إن بعضهم أخذ يستنتج من الآيات أن الفحم موجود فى القرآن . ولا جرم أن أمثال هذا التمحل ترفضه العقول وتنفر منه النفوس وقد رأيتك اليوم ترسم هذه الخرائط فى التفسير مبينا حيوانات ونباتات أفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا والاقيانوسية وهذا لاسبيل إلى إدخاله فى القرآن إلا بتكلف . فقلت له هناك فارق بين إثبات أن الفحم فى القرآن وبين بيان أن الحيوان مقسم على القارات فى الأرض . فقال أين البيان ؟ فقلت: إن الله يذكر لنا أن الحيوان منه مالا أرجل له ومنه ماله رجلان ومنه ماله أربع . هل هو يريد أن نقف على تعداد الأرجل ، كلا بل يقول العلماء إن العدد لامفهوم له ، وإذا عددنا للحيوان أربعة أرجل فهناك ماله (٦) وماله (٨) وهكذا، فقال أنا لست أعارض فى إتمام مبحث الأرجل ولكنى أعارض فى ادعاء أن معرفة تفرق هذه الحيوانات على القارات يطلبها القرآن، فقلت : إن هذا تقسيم للحيوان من حيث عدد أرجله وهو فتح باب للتقسيم . ولاجرم أن معرفة العلوم كلها ـ كما نص عليه علماء المنطق ـ ترجع إلى أربعة تحليل وتعريف أو رسم وتقسيم وقياس . فالتحليل للأشخاص كهذه التفاحة أو هذه النخلة لا يجوز أن تقول عرف هذه النخلة ولاقسمها ولا برهن عليها وإنما تقول حللها فالتحليل كتحليل للماء إلى الاكسوجين والادروجين هو السبيل إلى معرفة الأشخاص والتعريف وهو الحد ، ويتبعه الرسم وهو التعريف الناقص يعرف بهما الأنواع كما تعرف الانسان بأنه حيوان ناطق أو تأتى له برسم فتقول هو حيوان عريض الأظافر يمشى على رجلين وهكذا، وأما القياس كالبرهان والجدل فهو للأجناس كما تستدل بأن العالم محدث ، وأما التقسيم فهو لتمييز الكليات المختلفة كأن تقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وتقسم النبات إلى نجم وهو مالا ساق له وإلى شجر وهو ماله ساق وهكذا، والتقسيم مستعمل فى جميع العلوم ، فالتقسيم الذى ورد فى الآية إليه يرجع ربع العلم . وهنا نقول هل الله يريد أن ننظر تقسيم الحيوان من حيث عدد أرجله فقط أم يريد أننا نفكر فى أمره والتفكير فى أمره يحتاج إلى دراسته كله بقدر طاقتنا فلنقرأ علم الحيوان ونقسمه من كل جهة من جهات التقسيم . فنقسمه من حيث موطنه فى البحر وفى الهواء وعلى الأرض ومن حيث منافعه ومضاره وهكذا كما تقدم . فقال هذا حسن ولكنك قد استعنت بعلم المنطق على إيراد هذه الخرائط فى التفسير وفيه بعض التكلف ، فخير من هذا أن يكون نفس القرآن هو الذى يصرح بالتقسيم الذى أوردته هنا بلا احتياج لعلم وضعه الناس ، فقلت له إن الله ذكر الشى فهل يمشى الحيوان على الهواء أو فى الأثير بل هو يمشى على الأرض . فاذا رسمنا الماشى رسمنا أرضه معه . وإذا رسمنا بقعة من قارة لم يكن لها فضل على الأخرى وإذا رسمنا قارة يقال لنا ولماذا لم ترسم القارات الأخرى . فخير لنا أن نرسم الجميع . فقال هذا أحسن مما قبله ولكن فيه بعض تكلف . فقلت له يقول الله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من كل دابة آيات لقوم يوقنون » فها هو ذا سبحانه جعل الإيقان وهو أرقى من الإيمان مرتبطا بمعرفة الدواب المفرقة فى الأرض فقال هذا أقرب ولكن أريد ما هو أبين من هذا . فقلت إذن تريد أن تسمع قوله تعالى فى (سورة البقرة) « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة» فذكر الأرض وذكر أنه فرق الدواب فيها . فهاهى ذه

الأرض مرسومة أمامك وهذه هي الدواب وهل هذا غير القرآن ؟ وهل الآية التي نحن بصدد الكلام عليها فيها غير هذا . ألست ترى الله يقول « والله خلق كل دابة من ماء » فهاهنا ذكر الكل والكليات لاتعرف إلا بالتقسيم وهاهى ذه قسمتها على الناطق تارة وعلى القارات تارة أخرى ، وهكذا يقول الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » أفكفاك هذا البيان . فهذه هي الأرض أمامك في الرسم وهذه هي الحيوانات عليها . فقال نعم لقد انشرح صدرى له . فأقر الحاضرون على ذلك البيان وهم مستبشرون فقال لقد كنت في أوروبا ورأيت القوم يمثلون قصص أنبيائهم في مسارح السينما وهم يظهرون لهم قصص الأنبياء كموسى وعيسى عليهم السلام والرجال والنساء والأطفال يتأثرون من الوقائع والحوادث ويبكون . فبالله كيف يثبت الدين في القلب إلا بنقشه في النفس من الصغر كمثل ما رأيناه هناك . أما المسلمون فهم لذلك محرمون ومنه محرومون . فقلت التصوير الشمسى قد نشر في هذا التفسير وتلقاه المسلمون بالقبول ؛ وقد ذكرت في (سورة يونس) فتوى علماء المذاهب بالأزهر وأبنت أن ذلك يكون واجبا إذا كان لمتعلم . فهاهو ذا التصوير الشمسى أصبح في نص التفسير وقد قلت هناك [إن من حرمه فقد انخلع من دينه وعقله لأنه ظل مصور بتصوير الله صوره هو بشمسه ومن حرم الظل والنظر إليه فقد أصبح مجردا من العقل ومن الدين وأما إظهاره بطريق (السينما) وهى الصور المتحركة فليس يزيد شيئا عن ظهوره في هذا التفسير إلا أن التفسير يقرؤه آحاد . وأما في محال الصور المتحركة فانه يقرؤه مئات مجتمعون وإذا جاز ظهور الصور للآحاد جاز للآلاف] فهذا التحريم لامعنى له الآن . فقال آخر إن المرحوم الشيخ محمد عبده قال : [إن التصوير المجسم لا يحرم في هذا الزمان لأنه منع بالحديث الشريف في الأزمان الأولى حينما كان الناس أقرب إلى الوثنية . أما الآن فقد تنور الناس فلا يخاف عليهم ذلك] فقلت إني لم أطلع عليه ولست الآن منتظرا لهذا البحث فقد اكتفيت بما أحتاج اليه في هذا التفسير وهو التصوير الشمسى ، فأما كون قصص الأنبياء تظهر في الصور المتحركة عند الفرنجة فقد ألف قدماء المسلمين كتبا ضمنوها روايات تحبب المسلمين في الدين مثل ما جاء في كثير من حكايات (ألف ليلة وليلة) وخرافات سيف بن ذي يزن وأمثالها فقد جعلوها روايات تحبب المسلم في الدين وما أكثرها فلتهذب تلك الكتب ويشر أمثالها بين العامة ، وإذا كانت في الصور المتحركة لم يضر ذلك شيئا كما قدمناه . فقال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات اهـ .

﴿ هذا التفسير وأمثاله بأمثال هذه العلوم يرجع المسلمين إلى العصور الأولى ﴾

لما أتممت هذا المقال قابلني صديق العالم الذي اعتاد أن يحادثني في المسائل المهمة في التفسير مرة أخرى فقال ما أجمل ما اخترت هنا من الرسم الجميل والبهجة . ولعمرى لم أجد روضة أجمل ولا محلا أبهى من مجلس أطلع فيه على عجائب هذه الصور البديعة الحسنة . ماشاء الله كان . فبينا أنا أطالع منظر الصحراء في أفريقيا وجمالها وشجر جوز الهند وحقل القمح وشجر النخل والقطن إذا أنا أرى الخرتيت والتمساح والفهد وفرس الماء وأنواع القرود والنمر قوى العنق حاد الأسنان خشن اللسان مبطن الأقدام طويل الذيل يبلغ طوله على الأرض نحو (٣) أمتار . ذلك الذي يسبح في البحر فيعلو السفينة في النهر ويهاجمها وتقف الماشية أمامه حائرة إذا نظرها ومع ذلك كله يخاف من الصوت الغريب عليه كالخشخشة والجلجلة إن لم يكن جائعا .

﴿ الأسد ﴾

ولما نظرت الأسد تذكرت أنه سيد السباع . رملى اللون عظيم القوة حتى إنه ليقصم ظهر ثور حى وهو قنوع . حافظ للجميل معجب بنفسه كريم ، ولا يفترس إلا إذا جاع ، ينام النهار كالنمر ويسعى لقوت ليلا شديد البطش عظيم المهابة .

﴿ الثعلب ﴾

﴿ الثعلب ﴾

ولما رأيت الثعلب تذكرت أنه عدو الطيور والدجاج مشهور بالمكر والخبث والحيل مثل أن يتظاهر بالموت ليتخلص من الصياد وهو يجول للصيد ليلا ويختفي بالنهار ويحفر له حجرا منفرجا قريبا من جذور الأشجار العتيقة ؛ وهو سريع العدو، وإذا لم يجد نحو الدجاج تغذى بالفيران والضفادع وهو يأكل الفواكه كالعنب ولذلك يتلف الكروم .

﴿ الذئب ﴾

ولما رأيت الذئب تذكرت أنه هو الجبان الذي لايسوقه إلى الافتراس إلا الجوع وهو لجبنه يدخل مواضع الدجاج برجليه الخلفيتين وهكذا لاتصيد الذئاب غالبا إلا وهي قطعان فتفترس الغنم والحيوان الأضعف وقد تصيد الخيل والبقر والانسان، وقطعان الذئاب إذا جاعت لاتهاب خطرا، والذئب قوي ماكر كالثعلب . وإذا تعرض للانسان وعجز عنه استعان بالذئاب . وإذا رمى الانسان ذئبا أكلته الذئاب ولم تأكل الانسان وهكذا إذا مرض واحد منها افترسته ولذلك إذا مرض واحد منها اعتزل الباقي .

﴿ الجمل ﴾

ثم لما رأيت الجمل تذكرت صبره على العمل وعناده إذا أهين ، وحقده وانتقامه ممن ظلمه وتذكرت أنه يعيش (٢٥) يوما بلا شرب ماء إذا كان الورق الذي يأكله مملوءا بالعصير النباتي وهو لايعيش إلا في البلاد الحارة .

وهكذا تذكرت صفات البقر والجاموس والغنم والمعز المجترة التي لها أربع معدات تأكل الحشائش وتبلعها فتنزل في الكرش ثم تذهب إلى تجويف يسمى القلنسوة وتذهب إلى الفم وتمضغ ثانيا ثم تذهب إلى تجويف ثالث يسمى أم التلافيف ، ثم إلى تجويف رابع يسمى الأنفحة . كل ذلك تذكرته لما رأيت هذه الأنعام في هذه الصور وهي مرسومة في مراعيها . بذلك ذكرت قدرة الله وحكمته وكيف خلق لكل حيوان مايليق له . فلم يعط القرود ولا الانسان ولا الآساد هذه المعدات الثلاث لأن هذه ليست في حاجة إليها ولم يعط الطير أسنانا بل جعل له القانصة والحوصلة يهيئان الطعام عوضا عنها وعن المعدة والأمعاء . وجعل الحيوانات آكلة الحشائش طعاما لآكلة اللحوم وقلل هذه وأكثر تلك ولم يخلق سبحانه عضوا، إلا لمنفعة فترى الأنياب القوية في السباع لحاجة إليها ومنعت المجترات ذلك لعدم احتياجها إليها . هذه هي المعلومات الأولية التي تعلمتها في الصبا تذكرتها الآن بهذه الصور المرسومة أمامي ، تم الفصل الأول .

﴿ الفصل الثاني ﴾

(بهجة العلم : في صور هذه الحيوانات وما أعد لها من النبات في هذه القارات وخرائطها وفي عادات الانسان التي جعلته في سجين)

جل ملكك يا ألله وابتهج حيوانك بنباتك ، وابتهج كل مخلوق بنعمك فحرستهم برحمتك وحفظتهم بنعمتك ، لا إله إلا أنت ذو الجلال والجمال الذي ظهرت آثاره في الآفاق فعمرت بها القارات كلها آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا والاقيانوسية . هاهي ذه الحيوانات راتعة في بحبوحة النعم وأظللتها في كنفك وأبحت لها الحشائش والمراعي والأشجار وهي رافلات في حلل السعادة والنعم. هذه صورها ماثلة أمامنا نحن قراء هذا التفسير التي أنعمت به علينا بعد شوقنا إليه آمادا طويلة وألهمت أناسا رسموا خرائط أرضك بأقسامها وآخرين رسموا حيوانك ونباتك ثم هيأت هذا كله وجعلته تفسيرا لكتابك المنزل . الله أكبر . أحاطت آيات القرآن بالقارات وبحيوانها ونباتها إحاطة السوار بالمعصم . أصبحنا بالله نشاهد بعين اليأس آيات القرآن معانقات لقراءته

وحيواناتك ونباتاتك . يحيط كتابك المنزل بعجيب كتابك المبدع فى الطبيعة . ثم ظهر الآن كيف كان الاسلام دين الفطرة . حار هذا الانسان المسكين منذ أزمان فى أمر دينه وفى أمر دنياه . ظن المسلم وغير المسلم أن الطبيعة شئ والدين شئ آخر . ظنت الأمم كلها ذلك الظن لما رأوا مخالفة الديانات للعلوم والطبيعة، ولكن هذا الدين الاسلامى لكونه لم يتغير كتابه المنزل وأخذ الناس يوضحون علوم الطبيعة أصبحت هى تفسيرا له وهذه هى الحجة القائمة والآية البالغة . آيات قرآنية يكون تفسيرها نفس العلوم الطبيعية وإذا لم يتم هذا تكون الديانات مفتراة أومغيرة لأن القائل ينطق بما يعرف فاذا خالف القول العمل دل على أحد أمرين إما أن القائل كاذب وإما أن غيره كذب عليه . وهذه كانت فكرتى فى أول حياتى فكنت أقول إن لم يكن دين الإسلام ملائما الطبيعة فهو غير حق . هذه كانت فكرتى من غير معلم وأخذت أبحث فى الطبيعة وفى القرآن فامتزاج الآيات القرآنية بالعلوم الطبيعية أجل نعمة على وعلى قراء هذا التفسير . هى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة وخير سعادة لى ماشاهدناه اليوم من ازدواج آيات الوحى وآيات الكون . فهاهى ذه آيات القرآن تحيط بالحيوان والنبات والناس يشاهدونها فى هذا التفسير وستصير هذه أمرا شائعا بين المسلمين وسيكتبون هذه الآيات على حيطان حدائق الحيوان فى الحكومات المختلفة على طراز ما كتب هنا . وهكذا فى الحدائق العامة النباتية ويكون ذلك ديدننا المسلمين ؛

﴿ جهل أكثر هذا النوع الانسانى وغفلته بالتقليد الأعمى ﴾

اللهم إن أهل هذه الأرض من أنواع الحيوان والانسان عيالك فى ملكك . إن ملكك واسع وأرضنا كما عرفناه من آراء علماء الفلك ذرة منسية ليست فى العير ولا فى النفير . نسبتها إلى ملكك كله كنسبة الجوهر الفرد الذى يحق لنا أن نراه بالمناظير المعظمة إلى ألف مليون أرض كأرضنا هذه . لذلك كان علمنا وإدراك حيواننا ضئيلا ضعيفا . فأما الحيوان فانك أنت ألهمته منافعه فعاش بها وهو يسير بارشادك ووحيك على قدر ما قسمت له فالغريزة هى التى توجهه مدة الحياة . فأما الانسان وإن أعطيته العقل وهو به حر فهو مسكين منى بالتقليد . ذلك أنه وإن أعطيته ملك الأرض وأبحتها له ومنحته العقل والحرية قد حبس نفسه فى محابس التقليد وضل وغوى فقال فى نفسه بدل أن أفكر وأضنى عقلى وجسمى فمالى وما النصب والتعب فلأقلد الآباء فأنا لست خيرا منهم . هنالك هام الانسان أكثره على وجهه ووقع فى هاوية الجهالة . فرأينا أهل هذه القارات المرسومة فى هذه الآيات من نوع الإنسان قد اتخذت كل أمة من الأمم فيها عادات وديانات وأخلاقا بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير واتبع الأول الآخر فى الضلال وقلت أنت فيهم «ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » عيرته بالتقليد وأبنت محاجة الرؤساء والمستضعفين « فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار» الخ ، وأوضحت قيمة التمسك بآراء الآباء إذ قلت « قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون» فطبائع الانسان تكاد تشبه طبائع الحيوان . فالحيوان بالغريزة لايتزحزح عنها والانسان لكونه فى عالم متأخر مثل هذه الأرض أخذ يشابهه فدار فى مدار واحد بتقليد الرؤساء أو الآباء كأنه إذن اختط لنفسه خطة تشابه خطة الحيوان فالحيوان بالغريزة والانسان بالتقليد . هذا هو السبب فى أن الحيوان من نوع واحد يرى متشابها فى أفعاله شرقا وغربا كالثعالب والآساد . أما الانسان فلا تشابه بين عاداته بل هنالك اختلاف شاسع لأن العادات التى اتبعها والتقاليد التى رسمت له غير متفقة بل هى مختلفة اختلافا بينا ، فزئير الآساد فى الشرق والغرب واحد، ومكر الثعالب فى هذه القارات كلها لايتغير لأنها جارية كلها على مارسمت أنت لها بخلاف هذا النوع الانسانى ،

فقوم تراهم يتزوجون بناتهم وأمهاتهم وآخرون يحرمون ذلك وقوماً يأكلون مرضاهم وموتاهم وآخرون يدفنونهم مع أن الغربان مثلا جميعها تدفن جثث موتاها. فالفرق الشاسع بين أكل الآباء والأمهات عند المتوحشين في أواسط أفريقيا وبين احترامهم وإعظامهم ودفنهم وإجلالهم عند الأمم التمدينة ليس مثل اتحاد الأعمال عند الغربان في دفن الجثث الذى لا يختلف فيه أنواعها ولا مثل اتحاد الذئاب في أكل ما مرض منها ولا مثل اتحاد النحل في العطف والرأفة على ضعفائها ومرضاها. إذن هذا الانسان قد ضل عن فطرته لأن فطرته أن يفكر لا أن يكون ذا غريزة تسيره فهو حبس نفسه في سجن التقليد وكان من آثار هذا التقليد أن الناس أشتات كما قال شاعرهم :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

وهذا وإن كان مرادا به أخلاقه الفردية فهو منطبق على عاداته القومية التى طبع عليها بالتقليد فأنسته ملكة العقل والتفكير فانحط كثير من هذا النوع عن صاحب الغريزة وهو الحيوان. ومن آثار التقليد أن أهل الأرض الآن لما كان هذا دأبهم إذا اطلع غير المسلم منهم على ما كتبته الآن ورأى هذه القارات وعليها الآيات وفي داخلها الحيوان والنبات ورأى أن الطبيعة هي نفس الوحي المنزل وأن القول السماوى موافق للعلوم الطبيعية لا يستطيع أن يكتبه في كتاب ولا يرى في قلبه قبولا له ولا يحبه مع أن فطرته شاهدة أن كل قول منطبق على الطبيعة مناسب لها موافق لحقائقها يكون مقبولا لأن الانسان جزء من الطبيعة والطبيعة محبوبته ومنها وبها وعليها خلق وتغذى وتجمل وحمل، فهو بذكرها مغرم ولعلها محب ولكن التقليد الذى أخرجه عن دائرة عقله يمنعه من كتابة هذه الآيات أو الاستشهاد بها أو أعارته التفاتة فلا يصنع كما صنعت في هذا التفسير بل يراه جريمة ودليله التقليد. «قتل الإنسان ما أكفره – إنه كان ظلوما جهولا» بل كثير من المسلمين الذين تعلموا نصف تعليم يأنفون أن ينطقوا بهذا لأنهم يريدون أن يتظاهروا بأنهم أعظم من الأنبياء فيعظمون في أعين ضعفاء الأمم الشرقية الذين أخذوا الآن يقرءون بعض العلوم فيوهمهم رؤساؤهم بأنهم صاروا كرجال الأمم الأخرى الذين غلبوا الشرقيين بالمدافع ولا حيلة لهم في هذا الادعاء إلا أن يتظاهروا باحتقار الدين تظاهرا بالعظمة أمام صغار الأمم الشرقية. إذن أمثال ما كتبته الآن حول القارات من الآيات تختلف فيه الأمم ولا ينحو نحوه إلا المسلمون ومن على شاكلتهم وهم قليل بخلاف الشعر فان الشعر بأى لغة كان يفرح به جميع الأمم. فشاعر الشرقيين من مسلمين وبوذيين ويهود وغيرهم يسمعه كل غربى. وشاعر الغربيين من أى أمة كان يسمعه ويفرح به كل شرقى وحكماء الشرق وحكماء الغرب كشعرائهم كلهم محبوبون مقبول كلامهم عند جميع الأمم، فهذا (شكسبير) شاعر الانجليز وهذا (سبنسر) فيلسوفهم. وهذا (هوميروس) شاعر اليونان. وهذا (أرسطاطاليس) وهذا ابن رشد والغزالى وابن سينا. كل هؤلاء يسمع شعرهم وفلسفتهم كل أمة سواء أكانت على دينهم أم خلافه. أما الدين فلما كان له رجال يحملونه وكان لهم في تأييده وارتقائه وشيوعه في الأرض منفعة مادية كأن يزيدهم جاها ومالا لكثرة أتباعهم وكثرة الأتباع لا تتم إلا باحتقار كل دين سواه لذلك كانت أهل الديانات الأخرى إذا قرءوا ما أكتبه الآن لم يحلوه المحل الذى يحلونه الشاعر أو الفيلسوف الشرقى إذن التقليد في أمم الأرض يمنعهم عن فطرهم وهذا الدين الإسلامى الذى ينطبق على الفطرة كما نطقت به هذه القارات وحيواناتها وكما ستسمعه قريبا هنا في كلام فلاسفة أوروبا في تقريظ كتابى [نظام العالم والأمم] أن الاسلام بهذا التأليف ثبت أنه دين الفطرة لا يعيره غير المسلمين أدنى التفات مع أن فطرهم شاهدة به ولله الأمر وله الحول والقوة «ولو شاء ربك ما فعلوه» والحمد لله رب العالمين. كتب يوم السبت ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨.

﴿ الفصل الثالث: فى عجائب هذه الحيوانات وآثارها فى الإنسان وأن الأرض أشبه براقصة حول الشمس بما حملت ﴾

فاذا رأيت الأرض راقصة حول الشمس بحركتيها اليومية والسنوية لاتفتر ولا تهدأ والنجوم حولها والكواكب كأنها تصفق لها وهى دائرة فاتها وهى فى رقصها قد حليت بالمناطق الهوائية والسحابية والثلجية والنباتية والحيوانية . فهى أبدا راقصة وهى أبدا عليها حليها وحولها نعماتها وفيها قلت صباح يوم الجمعة (٧) ديسمبر سنة ١٩٢٨ ما يأتى من الأبيات :

الأرض ترقص حول الشمس من فرح	بنورها وبنور الشهب فى الظلم
تنأى وتقرب أحيانا بما حملت	من ناضر النبت أو من باهر النسم [١]
فالنور مؤتلق والطير مخترق	والنبت متسق يهدى إلى النعم
والحوت فى لجج الأمواج يقطعها	ويقطع الليث قفرا وهو فى قرم [٢]
والأرض أمهم طرا تسير بهم	خوفا عليهم وإشفاقا من العدم
فى الصيف تدفئهم بالنور محترقا	وفى الشتاء يرون السحب من أمم
سوطان حر وبرد سيق بينهما	ما فى الخلائق بين الحوت والرخم
والريح هزهزت الأشجار مائلة	تشدو مع الطير فى الروضات والأجم [٣]
فى كل أرض وفى كل البحار وفى	جو السماء أفانين من النغم
من كل مائسة الأغصان والهة	تختال فى حلل الأزهار كالعنم [٤]

﴿ نظرة: فى قوله تعالى «فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين» الخ فوق ماتقدم ﴾

(١) إن كون الحيوان يمشى على رجلين وكونه يمشى على أربع وكونه يمشى على بطنه . هذه أمور يشاهدها الجهلاء والعلماء ، فى الانسان مع الطير وفى ذوات الأربع وفى الحيات . واعجب من ذكر القرآن هذه الثلاثة التى يعرفها الخاصة والعامة . الله يرشدنا إلى أن الأشياء المشاهدة غض الناس عنها الطرف لأنهم فى هذه الأرض حكم عليهم بالسجن فى البحث عن أقواتهم وعن المال والولد . فاذن هم فى غفلة ساهون فقال الله : كلا . أيها الناس إن باب العلم هو التقسيم والتحليل . أما التحليل فقد جاء فى (سورة البقرة) عند ذكر الطير وإبراهيم فاقرءوه هناك وهو الذى يعرفه تلاميذ المدارس النظامية فى العالم كله فى علم الكيمياء . وأما التقسيم فهو الذى فتح بابه القرآن هنا اللهم إنا نحمدك على العلم وعلى الحكمة . أنت الذى فتحت لنا باب التقسيم . الله أيها المسلمون فتح باب التقسيم فقسم الحيوان إلى الأقسام المذكورة .

(٢) فانظر تقسيمه على المناطق فى سورة (١٥) فهو (ثلاثة أقسام) قسم فى المناطق الحارة . وقسم فى المعتدلة . وقسم فى الباردة وهكذا يقسم من حيث الأخلاق الإنسانية .

(٣) إن للانسان شهوة وله غضب وله حكمة وعقل ، فالحيوانات التى تأكل النبات تمثل فينا القوة الشهوية

---

(١) النسم : جمع نسمة . وهى كل ذى روح

(٢) شدة الشهوة لأكل اللحم .

(٣) الشجر الملتف .

(٤) نبت أحمر .

والحيوانات التي تأكل أمثال الغزلان والأرانب كالأسود والنمور تمثل فينا القوة الغضبية والقوة المودعة في العالم علوية وسفلية التي بها رتبت هذه الأنواع وحفظت وبقيت بحيث لا تفنى أنواع الأنعام وأمثالها بأكل الحيوانات التي تتغذى منها بل يبقى الآكل بقاء للأكول ولا يفنى المأكول مع تمادى الآكل في التغذية به. فهذه القوة المنظمة قد أودع نور يشبهها في عقول بني آدم سميناه عقلا. إذن عقولنا أشبه بالملائكة وقوتنا الغضبية أشبه بالآساد ونحوها وقوتنا الشهوية أشبه بالبهائم ونحوها. فهذه ثلاث مراتب كراتب الأرجل في الآية وكراتب للناطق فوق الأرض. فهذا يشير له القرآن ولهذا نزل الكتاب ولهذا وأمثاله جاء أمثال هذا التفسير من الكتب التي تؤلف في عصرنا. تباركت يا ألله في نظامك وعجائبك في هذه الدنيا.

(٤) ويلحق بهذا أمر اللذات فهي: [ثلاثة أقسام] لذات دنيئة سفلى ولذات وسطى ولذات عليا. فأما اللذات السفلى فهي مازاوله الحيوان من السفاد وضروب النزوان. فالانسان وهو يزاولها قد شارك الحيوان فيها وهي أدنى اللذات. ألا ترى أن هذه اللذة عمت النبات وسائر الحيوان واللذة كلما كانت أعم كانت أدنى منزلة وكلما كانت أخص كانت أرفع منزلة. وأما اللذة الوسطى فهي لذة الغلبة والقوة والسطوة وهي التي تمتعت بها الآساد والنمور والصقور فلها الحكم على الحيوانات الآكلة النبات ولها عليها فضل لأنها وإن أكلت من القطيع الذي يبلغ (٥٠٠) نعجة مثلا واحدة كل جمعة أو شهر أوسنة قد كانت سببا في إحداث ارتباط المجموع بروابط المحبة والإخاء والاتحاد لأن الخوف من المهاجم يجمع القطيع كله على رأى واحد فاذا آنست أسدا فرت الجموع من وجهه ولا يقع فريسة إلا الضعيف. هكذا جعل الله في الناس من هم أولو قوة وأولوا بأس شديد فيحفظون الأمم والدول والممالك ويساعدون في ارتباط المجموع واتحادهم بالقوانين والأوامر فهؤلاء الملوك وهؤلاء الأمراء لذتهم إذا خلت من الشهوات البهيمية أرقى من لذة الفتيان بالمطاعم والملابس والتزوج المقتصرين على ذلك. وإنما كانت هذه وسطى لأنها خاصة بطائفة من الحيوان ولم ترتق إلى الرتبة العليا وهي اللذة العلمية، وهي اللذة التي لا يعرفها إلا الحكماء والأنبياء والملائكة. فالانسان إذن إما بهيم وإما أسد وإما ملك.

فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

(٥) تقسيم الحيوان على حواس الإنسان وحاجاته:

(ا) فمنه ماينتفع الانسان من حيث حاسة اللمس فيلبس الجلود والأوبار والأشعار والأصواف كالإبل والمعز والنعم.

(ب) ومنه ماينفعه من حيث حاسة الشم كحيوان المسك في البر وحوت العنبر في البحر.

(ج) ومنه ماينفعه من حيث حاسة الذوق وحصول الغذاء بالألبان واللحوم وهذا معروف.

(د) ومنه ماينفعه من حيث حاسة السمع كالطيور المغردة من الفواخت ونحوها.

(ه) ومنها ماينفعه من حيث حاسة البصر كالطيور الجميلة من أمثال الطاووس، وهناك منافع عقلية لأنواع الحيوان تكسبه حكمة وعلما وذلك كالألوان التي شرحناها لك في أول سورة المؤمنون. فهذه تدهش عقل العقلاء وتدعوهم للتفكر والتأمل والاعجاب بما أبدع الله فيها.

(و) انظر ألوان الحيوان وصوره. هناك تر العجب العجاب. ترى الحيوان أعطى لونا خاصا لحفظه هوفانظر هناك حشرة تعيش على (البقدونس) كيف لونت بلون أزهاره حتى لا تمتاز عنها. وانظر هناك صورة لحشرة أشبهت غصنا من نفس الشجرة قد قطع حديثا وهي بذلك قد حفظت من الهلاك وكيف يكون بعض الحشرات مشبها في الشكل زرق الطيور الآكلات لها حتى لا تقع عليها فتفترسها. وهكذا مما شرحته لك

هناك ثم انظر من جهة أخرى صور أجسامها وتركيب أسنانها وجهازها الهضمى تجدها مفصلة بحساب متقن على حسب مصلحة نفس الحيوان لا على مقتضى الوسط، فلم يكن لون سواد الفأر ولا اللون الزاهى فى الزنبور رمية من غير رام كما أقربه فلاسفة القرن العشرين .

إذا علمت ذلك فى النظرات الست المتقدمة هناك تعرف لماذا يقول الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » وتعرف قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »هذا هو الذى نزل له القرآن وهذه العلوم التى أظهرها الله فى زماننا هى التى بها يفسر القرآن الذى جعل اختلاف الألوان لايعرفه إلا العلماء ولايدرك أمثال هذا إلا العلماء به لاعموم العقلاء ، والحمد لله رب العالمين انتهى الفصل الثالث .

﴿الفصل الرابع: فى أن الحيوان كتاب مفتوح للناس قاطبة ، وفيه
بيان نعيم الحرية وجحيم الاستعباد﴾

اعلم أن الله عز وجل خلق الحيوان قبل أن يخلق الإنسان وألهمه معايشه وعلمه صنائعه وقسمه أقساما وكل ذلك قبل أن يخلق هذا الانسان على الأرض . إن الله قد فعل مع الانسان ما فعله مع الطفل من إحضار مايحتاجه قبيل الولادة حتى إذا وضعته أمه وجد القابلة التى تساعده فى وضعه والثدى واللبن واللفائف وجميع أنواع الراحة له حتى يعيش فى الأرض . هكذا الانسان كله خلق له قبل أن يخلق الحيوان وخلق الحيوان النبات كذلك حتى يدرس الانسان هذا الكتاب المفتوح فضلا عن أن يكون غذاء له ومركبا وزينة ومتاعا إلى حين . ولقد مر فى (سورة طه) أنواع الصناعات التى تعلمها الانسان من الحيوان فى شئون الحياة فقلده فيها فانظرها هناك فانك تجد الانسان ما صنع مركبا فى البحر ولا طيارة فى الهواء ولا حصنا لمدينة ولاسردابا تحت الأرض فيها إلا وقد سبقه إليها الحيوان. وأقول الآن إن الحيوان على (قسمين) قسم يعيش فى الخلوات والغابات حرا طليقا سعيدا قويا معززا. وقسم يذله الإنسان ويستخدمه ويكون مساعدا له، فالأول كالغزلان والآساد، والثانى كالكلاب والغنم. فالأول بحريته صار أعز نفسا وأشرف وأجمل وأكمل وأقدر على التدبير من الثانى الذى حرم قوة الحيلة والتدبير لأن الانسان قام بحاجته وتكفل بغذائه فانحطت ملكاته وساءت حياته ففرق بين المعز والغزال. هكذا أنتم على الأرض (قسمان) قسم اعتاد التواكل والكسل فألهم الله من هم أقوى عقولا وأحسن تدبيرا فاحتلوا بلادهم وساموهم سوء العذاب وقالوا لهم أيها الناس عليكم العمل وعلينا التدبير فعيشوا كما تعيش الأنعام وكونوا خاضعين. وكما انقسم الحيوان إلى ذليل وعزيز حرّ، هكذا انقسم إلى ماأعطاه الله صناعة وإلى مالا صناعة له . فالأول كالنحل والعنكبوت فترى النحل عزيزا أينما حل فى البدو والحضر فهو معظم مكرم حتى إن الانسان إذا استأنسه قام له بكل خدمة وعظمه وأكرمه ذلك لصناعته العجيبة ، فأما العنكبوت فانه لقوته الصناعية يحتل كل مكان فى الحقول والمنازل ويصطاد الحشرات .

﴿إشارات القرآن لهذين القسمين﴾

اعلم أن الله عز وجل لم يسم فى القرآن السورة باسم (البقرة) وهى مما استذله الإنسان إلاوقد ذكر معها الذبح فقال «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» ثم قال «فذبحوها وما كادوا يفعلون» هكذا الأمم التى تركت مواهبها وعقولها سلط الله عليها من الأمم من يذودونها ويسومون بشؤونها، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . فهؤلاء المسلمون المستضعفون فى الأرض قد ضرب الله لهم مثلا فى الأنعام أمامهم فانهم يعرفون الفرق بين الأسد والكلب وبين الغزال والمعز، فالغزال أنق لونا وأحلى شكلا وأوفر ذكاء وأوسع حيلة من أخته المعز

التى استذلها الإنسان . ذلك هو كتاب الله الذى أنزله للناس قبل أن ينزل كتابا واحدا من السماء، وهكذا لم يذكر الحيوانات الصانعة فى التقسيم الثانى إلا مقرونة بما يشرفها ويعظمها . ألم تره لم يذكر النمل فى (سورة النمل) إلا وقد شرفها بأن سمعها نبى من الأنبياء، وهو سليمان « فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك » وقال الله فى النمل «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » كما أنه لما خاطب الهدهد وهو من نوع الطيور الحرة فى التقسيم الأول هنا بعد أن توعده بالذبح أو التعذيب الشديد لم يهنه ولم يذله لأنه سمع منه الجواب المحكم والعلم إذ قال له «أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » بخلاف (البقرة) فانها لم تفد العلم بالقتيل إلا بعد الذبح . يقول الله تعالى «فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى » فالميت لم يخبر بقاتله إلا بعد ذبح البقرة وهو هدد بالذبح ولكن لم يذبح وأتى بعلم وهو حى . ذلك فرق مابين الحر وغير الحر . الحر لا يذبح فتفيد حياته وغير الحر يكون طعاما للآكلين. فلذلك أفاد الهدهد سليمان بما لا يحيط به علما . هذا تشبيه ظاهر لأمم الاسلام أن سمو الفكر والحكمة وعلو القدر والعظمة كلها تابعات للحرية التى يتبعها صفاء الذهن وحضور البديهة والصدق فى العمل ولم ينزل القرآن لنا للتفكه بل نزل للحكمة ولم يختر الله الهدهد فى حكاية سليمان رمية من غير رام . كلا . ثم كلا . بل الهدهد رمز للنفوس الصافية التى ليست تحت إمرة غيرها حتى يكتموا أنفاسها ويذلوها، ولو كان علماء الإسلام فكروا فى هذا قبلا ماذل المسلمون ولا ضعفوا ولا استكانوا ولكن الله عز وجل هو الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء « وكل شىء عنده بمقدار» ولقد كان من الجائز أن يذكر الله بدل الهدهد حمامة ، فالحمام هو المعهود لتبليغ الرسائل فى السلم والحرب قديما وحديثا ولكن الله عز وجل يريد أن يعلمنا بطريق ضرب الأمثال بالحيوان فذكر الهدهد لهذا وأمثاله والله هو الفتاح العليم . ثم تأمل كيف ذكر الله الهدهد والنمل مع سليمان حتى يكون ذلك شاهدا على القسم الأول فى هذا المقال وعلى القسم الثانى فيه حتى يكون هذا المقال كله مقتبسا من (سورة النمل) مرتبطا بآية النور هنا عند تقسيم الحيوان إلى الماشى على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع وهكذا . ولا جرم أن التقسيم العام هنا يدخل فيه ذلك التقسيم الخاص فى (سورة النمل) الذى تضمنه حديث سليمان مع الهدهد وتبسمه من سماع النملة. فهنا عموم وهناك خصوص وهذا المقال خاص دخل فى العام . فأنا أحمدك يا الله على نعمة العلم وبديع الحكمة إنك أنت اللطيف الخبير . وهكذا لما ذكر الله العنكبوت أردفها بقوله «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» وقال فى النحل «وأوحى ربك إلى النحل » فهاهو ذا سبحانه أفادنا أن فى ذكر العنكبوت ونحوها ضرب أمثال وأن تلك الأمثال لا يعقلها إلا العلماء، وأفادنا فى النحل أنه يوحى إليه كما أنه فى (سورة المائدة) أفاد أن الغراب معلم للانسان إذ قال سبحانه وتعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » وعلى مقتضاه يقول ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الهدهد والغراب فأكون حرا طليقا قوى العزيمة أخاطب ملكا عظيما كسليمان فلا أخشاه لعلمى ولصدقى ولقوة عقلى ويقينى وتحريقى، وأيضا أعجزت أن أكون كالنحل وكالنمل وكالعنكبوت فى الصناعات حتى أستخرج مواهبى الكامنة فىّ وهناك يلهمنى الله رشدى ويزيدنى علما بما أزاوله كما أوحى إلى النحل لما زاولت عملها وإلى العنكبوت لتتقن نسجها وإلى النمل لتربى أولادها. هذا مافتح الله به صباح يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٨ والحمد لله رب العالمين .

﴿ حفظ القوة الشهوية فى الانسان حسن كما حفظها الحيوان ﴾

ولعمرى « إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » الله يقول « إن الإنسان لفى خسر » لماذا ؟ لأنه جهول « قتل الإنسان ما أكفره » . ويقول أيضا « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . اللهم إننا نحن سكان هذه الأرض أسرى التقليد والأوهام والجهالة أفكر يارب فى هذه السن فأرى أنك قويت صحتى وأتذكر أيام شبابى فأجد الأمراض كانت تحيط بى . ولما فكرت فى ذلك وجدت أن المرض فى الشباب كان بالجهل بعلم الصحة وأن الصحة اليوم بسبب أنك عرفتنى بعض علم الصحة وعملت بجزء منه . وكلما رأيت فى صحتى اعتدالا قليلا أو كثيرا بعد أن أكون عملت ببعض ما أكتب فى هذا التفسير من قوانين الصحة ، أقول : ياسبحان الله وسبحانه . إذن أمراض الناس بجهلهم ومرضى بجهلى وكل انحراف عقلى أو صحى أو خلقى عندى الآن أو من قبل ليس له سبب إلا جهلى . إذن شقاء الناس كلهم بالجهل . ومن عجب أن أرى عظماء الأمم وكبراءهم فى عصرنا يتبجحون بالاعلان عنهم فى الجرائد أنهم شربوا المرطبات أو الحلوى فى مجالسهم العامة وهكذا ، فاذا سمعت هذا الاعلان أقول فى نفسى . ياعجبا . مالى أرى هذا الانسان ساهيا لاهيا . شرب القوم المرطبات ، شربوها جميعا . هل كانوا عند الشرب جميعا مسوقين له بالعطش أم ذلك شهوة لاغير؟ فمن شربها للعطش فبها ومن شربها للذة أورثته مرضا دفينا واختلالا وهكذا مرة بعد أخرى حتى يظهر أمره بعد حين . فماذا لاينظر الناس إلى الحيوان . ذلك الذى لا يأكل إلا إذا جاع ولا يشرب إلا إذا عطش والانسان لغباوته وجهله يشرب لغير سبب إلا اللذة وهذا له عقاب عظيم فى هذه الحياة . هكذا فى أمر التناسل وقلة الوقاع يقول الأطباء [إن حفظ هذه القوة يقوى الجسم والعقل، وبقلتها تتميز الأشياء] . ومن عجب أن الناس يشاهدون الأنعام لايقرب الذكر أنثاه ما دامت حاملا كأنها قرأت نظام العالم وعرفت منه أن هذه الشهوة ليست مقصودة لذاتها فلذلك حفظت قوة تلك الحيوانات . أما هذا الانسان المسكين فهو أسير شهواته يواقع كثيرا لغير ماسبب إلا الشهوة وهى ترديه . نعم أنا لست أقول إننا نقلل الوقاع كما تقلل الأنعام أى عند إرادة الحمل فقط ولكن أقول الأفضل أن يكون ذلك تابعا لعلم الصحة حتى نقرب من حكمة الله فى أرضه التى أظهرها لنا فى الأنعام التى اقتصرت على طلب الولد والله أشار لذلك فقال فى (سورة البقرة) «وقدموا لأنفسكم» بعد قوله «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» .

اللهم إننا على الأرض أمامنا [كتابان] كتاب منظور وكتاب مسموع ، والكتاب المسموع الذى أوحيته وجه عقولنا إلى كتابك المنظور . فلتوجه برحمتك عقول المسلمين من الآن إلى نظامك فى كتابك المنظور حتى يعقلوه فيفرحوا بجمالك ، وليتخلقوا بأخلاقك العالية الشريفة وليقفوا عند حد أدبك الذى فرقته على حيواناتك فى أرضك وقلت « قل انظروا » فها نحن أولاء يارب نظرنا فوجدنا أن النوع الانسانى حاد عن الجادة فى تصرفه واتبع العادة ولم يشكر منه إلا الأقلون ، يشربون وهم لم يعطشوا ، ويأكلون وهم لم يجوعوا والحيوان لم يفعل ذلك وأكثر مايكون ذلك منهم فى ولائمهم وأفراحهم ومجتمعاتهم العامة .

ويدخلون دخان (التبغ) فى أفواههم يدور فى دورة الدم فيؤذيهم ويشربون المواد المتخمرة التى تضر أجسامهم ويفعلون مابه يستضرون . وقد غشينا بالجوع الكاذب بين الأكلتين أو العطش الكاذب بين الوقتين من الشرب فنطيع تلك الداعية فنستضر وإذ ذاك تضل القوة العقلية ويفتر الذهن وتقصر الآجال على حسب الأقدار الجارية . ولقد قلت فى كتابك «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» فهذا مما كسبناه بأيدينا وقلت أيضا «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله» وسبيلك يارب

فى كل

فى كل شىء بحسبه «إن ربى على صراط مستقيم» وقد ذمت التقليد فقالت «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون» إن هذه الأمة سيكثر فيها المفكرون فى أمر هذا الحيوان والاقتباس مما جبل عليه ليرجع المسلمون إلى الفطرة «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون» انتهى صباح يوم الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ نداء إلى أمم الإسلام ﴾

(تذكرة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وازدياد لليقين)

إن من أعجب العجب أنى بعد ما كتبت ماتقدم اطلعت على محاضرة مسهبة ألقاها الأستاذ (فينج فيشر) الأمريكى الاخصائى فى علم الصحة أظهر فيها بالبرهان الجلى المحسوس أن الناس فى القرن الحادى والعشرين سيكون متوسط أعمارهم (١٠٠) سنة على الأقل وقال إننا الآن نقصر أعمارنا باستعمال الكحول والتبغ والشاى والقهوة فضلا عن أننا نكثر من تناول الأطعمة ونقلل من ممارسة الألعاب الرياضية وننام قليلا ونرتدى ملابس غير صحية، وإن علم الصحة يقود إلى إطالة العمر ولايأتى الموت إلا إذا فقد الجسم النشاط الحيوى عند ما تصبح الحياة كعقرب الساعة المكسور . وختم محاضرته بقوله : [إن أحفادنا وأولادهم سيعيشون جيلا أو جيلين لأنهم سيدركون أكثر منا ويحافظون على الوسائل الصحية وينبذون استعمال المواد المهلكة لتلك الأجسام] انتهى .

أقول عجبى أن تنشر هذه المقالة فى بلادنا عند كتابة هذا الموضوع ولعمر الله كم من علم ينشر والناس به يستهزئون ، وليعلم المسلمون أن دين الاسلام سيأتى زمانه أما هذا الزمان فانما هو مقدمة لاغير . إن المسلمين قرءوا آيات الخمر وتحريمه والربا وتحريمه ولكن كان الخمر هو أجل مايفرح الأمراء ورؤساء الدول الإسلامية فضلا عن الفساق وأصحاب الخلاعة . كل ذلك لأنهم لم يدركوا السر فى هذه المحرمات ولم يعلم كثير منهم أن ذلك التحريم لاسعادهم فى الحياة الدنيا قبل الموت وصار شعراؤهم يتغنون بالخمر ويقول أبو نواس شاعر العباسيين ـ أيام صولتهم ومجدهم والقوم لايزالون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة ولم يبلغ الترف منهم مبلغا عظيما ـ :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

وكتاب الأغانى بما فيه من أحاديث الخلاعة والفجور المنقولة زورا عن الرشيد وأمثاله قد انتشر فى دولتهم ودولة الأمويين فى الأندلس فأفسد أخلاق القوم فساء صباحهم ومساءهم وخلت منهم الديار وبئست عاقبة الغافلين . فياليت شعرى أى أثر يتركه أمثال ما نكتبه الآن من النظرات فى الحيوان وعاداته وأنه كتاب مفتوح كتبه الله بيده لنا وقال «قل انظروا» وقسمه إلى زاحف وماش على رجلين وأربع ، وتبين لنا أنه مترفع عن الدنايا فى مطعمه ومشربه وملامسة أنثاه . هنالك يكون الخجل من الجهل ومن المرض وقصر الأعمار الذى كسبناه بأيدينا وسوء التربية والملكة ، فاذا انضم إلى ذلك قراءة أمثال ماألقاه (الدكتور فيشر) الأمريكى من إظهار جهل هذه الأجيال . هنالك يعلم أبناؤنا بعدنا أننا ماكان لدينا علم ولا دين اللهم إلا ألفاظ القرآن محفوظة ننقلها لمن بعدنا بأمانة كأن الله سخرنا لهم وهم الرابحون . أنت ياالله خلقت الحيوان وقلت «انظروا» وأنزلت القرآن وقلت افهموا وخلقت أمما وأمما ففكر الجميع ، فعرفت الروسيا ضرر الربا وأمريكا الخمر بعقولهم فأدوا محض ماجاء به القرآن والمستقبل أجمل وأكمل وسيرتقى المسلمون ، والحمد لله رب العالمين .

أيتها الأمم الاسلامية . اسمعى هذه هى صحيفة الحيوان أنزلها فى الأرض لتدرسوها وقال لكم إنه مقسم

إلى زاحف وماش الخ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر» كأنى بكم قرأتم هذه الصحيفة وأخذتم تعجبون من نظام وضعها وبهجة حكمتها فتقولون إن فى الحشرات كالدود والجراد والنمل والنحل لعبرة وكذلك فى الطيور كالحمام والغربان هكذا فى الأنعام وفى الآساد والفيلة . إننا نرى هذه الأنواع تجرى على وتيرة واحدة فكلما كانت أنقص مرتبة كان عملها قاصرا وكلما كانت أعلى مرتبة كان عملها متحديا . فاذا كانت الجرادة والذبابة والناموسة لاتربى ذريتها والنحل والنمل يعطف الفرد منها على المجموع ويربى ذريته ويحفظ دولته هكذا نرى هذين النوعين فى الطيور . فانا نرى الدجاجة والبطة والحمامة تربى أبناءها ولكن لاعلم لها بنظام الغربان وأمثالها من كل مالها به نظام عام يجمع طائفة ويساعد الفرد المجموع . هكذا نرى البقرة والشاة والمعز والجمل لايعرفن إلا أنفسهن وذريتهن إلى أمد معلوم ولكن الفيلة والذئاب والقرود وأمثالها قد كونت لها أمة وأقامت حكومة وانتظمت منها الجماعات ثم يقولون إن الشرف يتبع الفضل والنفعة العامة فنحن نرى النحل والغربان والقرود أفضل وأشرف من الجراد والحمام والأنعام ثم ينظرون فى هذا الإنسان نظرة فيقولون إن الطفل منه والشيخ الهرم كلاهما لضعفه يشبه الدود والجراد إذ لا هم له إلا حفظ حياته . والأقوياء من هذا الإنسان يرتقون فيلدون الذرية وتكون لهم أسرات ثم جماعات ثم أفخاذ وبطون وقبائل وهؤلاء أرقى ممن يقتصرون على أسراتهم وقياسا على جماعات الحيوان يكون الإنسان كلما ازداد جمعه ازداد شرفه . فاذا رأينا أمم أوروبا كالجرمان والانجليز وأهل فرنسا . وإذا رأينا أهل الشرق الأقصى كاليابان والصين ووجدنا أن هذه الأمم كلها يحافظ الفرد منها على المجموع قلنا لقد أحسنوا وهم أعظم شرفا ممن صغرت جماعاتهم بأن حافظوا على نظام القبيلة ولم يرتقوا عنه . ثم يقولون إن هذه الأمم جميعها لم تزد عن الغربان وعن الفيلة وعن النمل والنحل .

اللهم إنك أنت الذى ألهمت النحل وألهمت النمل وألهمت الفيلة وألهمت الغربان وألهمت هؤلاء جميعا نظام جماعاتهم وقلت لنا «ومامن دابة فى الأرض» كالفيلة والقرود «ولا طائر يطير بجناحيه» كالغربان والنحل «إلا أمم أمثالكم» فلهم نظام ولكم نظام . إنك تريد بذلك أن توجه عقولنا إلى دراستها . هانحن أولاء درسنا هذه الحيوانات باعتبار التقسيم كما قسمتها أنت هنا بالمشى على البطن وعلى الرجلين، فلما درسناها ووازناها بالانسان وجدنا أمما فى الشرق ارتقت كما ارتقى الحيوان ولكنا لم نرها ارتقت عنه .

أيها المسلمون . هذه مبادئ التفكير عند أبنائكم فى المستقبل . ثم هم سينظرون ويقولون مابالنا نرى آباءنا [يريدون أمثالنا وأمثال آبائنا وأجدادنا] لم يرتقوا فى الأسباب ولم يعقلوا ماعقلته الأمم فى الشرق والغرب لماذا نرى الأمم كلها قد أدركت هذه الحقائق من نفوسها وخطت خطوات واسعة فى الاجتماع وهم بقوا جامدين على القديم العتيق البالى من نظام الجاهلية الأولى حتى إن الأمم العربية مثلا متفرقة متشاكسة يجهل بعضها بعضا . فهم فى شمال أفريقيا متقاطعون متدابرون . فالمصرى والطرابلسى والتونسى والجزائرى والمراكشى كل هؤلاء يجهلون أنهم أمة واحدة كأمة الصين واليابان والألمان والانجليز . لا، لا . إن آباءنا كانوا غافلين نائمين لم يدرسوا الحيوان ولم يدرسوا الأمم، فلاهم عرفوا كيف يؤلفون أممهم كالغربان والفيلة والنحل ولا كالألمان والانجليز والصين واليابان . فهم إذن أقرب إلى طبائع الصبيان والشيوخ الهرمين الذين يحافظون على أقل أنواع الحياة .

﴿آراء فلاسفة المستقبل فى أمم الإسلام﴾

إلى هنا تقف آراء أهل العلم ورجال السياسة فى الأمم الإسلامية المستقبلة . أما فلاسفتهم وحكماؤهم فيرمون [غايتين] إحداهما أبعد من الأخرى . [الغاية الأولى] أن كل أمة من أمم الشرق تجمعها لغة أو دين أو وطن

تحافظ على مجموعها وهذه تضارع نظام أرقى الحشرات والطيور وذوات الأربع وهكذا أرقى نوع الإنسان الآن [الغاية الثانية] التي هي أبعد مدى أن يجمعوا أهل الشرق كله أمة واحدة بحيث يكونون متعاونين بينهم اتحادا أشبه بالممالك المتحدة في أمريكا الشمالية . وإنما يرون ذلك لأنهم يقولون إن الجماعة كلما كانت أكبر كانت أشرف والشرف لاحد له والأمم الحاضرة في الشرق والغرب لم يرتفعوا جميعا عن الحيوان شيئا . فأي فرق بين جماعات اليابان والصين والألمان ونحوهم وبين جماعات النحل والغربان . فنحل الشرق لا اجتماع له مع نحل الغرب لصوره وغربان الشرق لاصلة بينها وبين غربان الغرب . لا لا هذه الأمم الحاضرة لم يترقوا عن الحيوان ولكن نحن أرقى وأرقى منهم ومن الحيوان معا . ذلك لأننا أعطينا . (نعمتين) نعمة العقل ونعمة الدين . أما نعمة العقل فإنها هي الموهبة التي بها أدركنا أن آباءنا قصروا عن أعلى الحيوان وعن الأمم المحيطة بهم شرقا وغربا فنحن أعظم من أن نسير على منهج آبائنا الذين لم يجدوا من علمائهم من يوقظونهم ويخرجونهم من الظلمات إلى النور . من ظلمات الذل إلى نور الحرية . من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان . من ظلمات الاقتصار على نظام الأسرات والقبائل البدوية المتفرقة إلى نظام الأمم الكبيرة والجماعات العظيمة الوفيرة ونحن سمعنا الله يذم التقليد للرؤساء وللآباء إذا كانوا مخطئين إذ قال «فيقول الضعفاء الذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » ومعناه يقول « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فهذان البابان أقفلناهما فكل مايضر بنا من آراء أبنائنا ورؤسائنا نرفضه ولا نقبله لأنه ينزلنا عن مصاف أرقى الحيوان وأرقى الإنسان في زماننا ولكننا نحافظ على كل شرف ورثناه من المتقدمين ، وأما نعمة الدين فإنا سمعنا الله كما أنه قال لنا « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » قال لنا «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فهاهو ذا كتابنا المقدس في الآية الأولى يجعل الإنسان أمما كأمم الحيوان سواء بسواء والإنسان الذي نعيش معه قد وصل لهذه الرتبة وإن لم يصل لها آباؤنا المسلمون بعد العصور الأولى حين فرقت جموعهم وخضدت شوكتهم وملكتهم البطنة ومالوا للذة وشرهوا في المال ونسوا مجدهم القديم وعزهم الموروث لما غزوا فتوح البلدان وحقت عليهم كلمة التفريق والهوان التي أشار لها حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا ، الخ » فإن ماخافه نبينا صلى الله عليه وسلم قد تم فعلا وأيقنا به ووقعنا فيه تبعا لآبائنا في نحو ألف سنة بعد العصور الأولى . وفي الآية الثانية أرانا علما فوق علم أرقى الحيوان وأرقى الانسان الحالي ، إن الانسان في هذا العصر لم يرتق عن أرقى الحيوان كما قررناه ، إذن إنسانيته ضعيفة حقيرة والقوى الادراكية التي في أرضنا (ثلاثة أنواع) فهي إما غرائز كغريزة الحشرات وغريزة الأطفال والشيوخ وسائر الحيوان وإما فكر وروية كما هو شأن نوع الإنسان ، وإما قوة ملكية قدسية تسمو على قوى الحيوان وقوى الانسان .

فهذا الإنسان اليوم بفكره لم يصل إلى أرقى مما وصل له الحيوان ثم وقف فأين الفضل له إذن إذا كنا نجده لايزال طفلا في هذه الأرض بالنسبة لما ينتظر منه غدا . هاهو ذا يحارب بعضه بعضا كما يحارب النمل ويتخذ الأسرى مثلها ويسخر غيره لنفسه كتسخير النمل ، إذن هذا الانسان اليوم جد جاهل فوالله لافرق بين قبيلتين بدويتين في الصحراء تفتخر كل واحدة منهما بمجد آبائها الغافلين وبين أمتين في الشرق أو الغرب تمجد كل منهما السابقين فيها وتقتصر على ذلك . إن مفاخر الآباء محمدة لامذمة وأتباعها شرف لامنقصة ولكن الاقتصار على ذلك والوقوف عند حده صغر في النفوس وحقارة في الانسانية . فلتحافظ على شرف أسرتك الموروث وعلى فضل أمتك المعهود ولكن الوقوف عند ذلك نقص ومذمة وعار .

ثم يقولون إن ذكاء الإنسان لم يرق به فى النظام العام عن نظام أرقى الحيوان فانه يقبل موهبة أعلى أما الحيوان فلا . فغربان الغرب لاينتظر منها أن تتصل بغربان الشرق ولا نمل الغرب بنمل الشرق لأنه لامصلحة فى ذلك . أما أمم الغرب وأمم الشرق فمن مصالحهم جميعا أن يكونوا ممالك كالممالك المتحدة فى أمريكا الشمالية .

هذا هو الحق الصراح . هنالك تكون هذه هى الانسانية الحقة . ثم يقولون علم الله أن عادات الانسان وتقاليده تمنعه عن الارتقاء عن الحيوان فاصطفى رجالا قديما وحديثا حكماء تارة وأنبياء أخرى فذكروا الناس بما قررناه الآن وقالوا لهم أيها الناس أنتم ضالون ليخدم المجموع المجموع . وقامت فى الأمم الغربية جماعات الاشتراكية ومن بعدها البلشفية وكل هؤلاء يحاولون الارتقاء عن هذه الأمم التى لم ترتق عن نوع الحيوان ولكن هذه المحاولات لم نعرفها ولم ندرسها وليست منزلة بوحى ، أما الوحى فهو الذى يؤثر فى النفوس وهو الذى يكون نورا تهتدى به العقول .

إن عقول الناس فى الشرق والغرب مستعدة لقبول الفكرة ولكنها تحتاج إلى أمرين : أمر وحى جاء من قوة فوق العقل حتى تسوقه إلى هداه وإلى حكمة وعلم . أما الحكمة فها نحن أولاء درسنا العلوم التى عند الأمم المحيطة بنا من علوم الرياضة والطبيعة وغيرها لاسيما بعد ماشرحت كتب تحث على العلم والحكمة كما فى هذا التفسير . وأما أمر الوحى فإنا سمعنا قرآنا عجبا . سمعناه يقول « فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » فهاهو ذا القرآن يقول لنا إياكم والعصبية الناقصة بل اذكروا الله . ثم سمعناه يقول « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يذكر شرقيا ولا غربيا ولا عجميا . وسمعنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وسمعناه يأمر بلالا وهو غير عربى أن يؤذن فى الكعبة والعرب يسمعون ويعون ويرون القديم كله ينسخ مرة واحدة ويحل محله نظام جديد وهو نظام التقوى والكفاءة ، إذن مستقبل الأمم سيكون هكذا كل أمة تعمل فيما استعدت له وكل قوة من قوى النفوس لابد من استخراجها والله يقول « لايكلف نفس إلا وسعها » إذن جميع النفوس يجب توجيهها إلى الأعمال التى تناسبها فلا يكون فى الأرض كسل ولا بطالة . ولا تبقى فى الأرض أو الهواء أو الماء قوة يمكن استخراجها إلا وجب على الانسان استخراجها وهذا كله لايتم إلا بأن جميع الأمم فى المستقبل يراقب بعضها بعضا بهيئة مشكلة من حكماء مصطفين منهم ويحكمون على الأمم المقصرة فى استخراج المواهب العقلية والمنافع المادية من الطبيعة لأن الله يقول « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق » فاذا كان بنو آدم لا يستخرجون قوى نفوسهم ولا ما كمن فى المادة فهم لايزالون يلعبون وقدخالفوا حكمة من أنعم عليهم بهذه الحياة وتكون نتيجة ذلك أن يقول أبناؤنا فى نهاية مباحثهم لابد لنا من (أمرين : الأول) أن نجد فى تعليم كل ذكر وكل أنثى فى بلاد الاسلام العلوم والصناعات هذا أصبح فرضا لازما ويكون شعارنا « وقل رب زدنى علما » « وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » و « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ومتى أتممنا هذه الخطوة وهى قريبة المنال لايعوزها متى صدقت العزيمة أكثر من عشرين سنة نوجه همنا إذ ذاك إلى نظام النوع الإنسانى كله ونتفاهم مع جميع الأمم ونضع معهم النظام العام لإصلاح الأمم كلها شرقا وغربا . هذا هو الذى جاء له دين الاسلام . وهذا هو المقصود من قوله تعالى « وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله « وأرسلناك للناس رسولا » وقوله « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » وقوله « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » لأنه إذا جمعت الأمم كلها نظاما واحدا فأى حاجة إلى رسول ؟ إن الرسول يأتى بوحى والوحى أرقى من الغريزة

ومن

ومن العقل والفكر . والوحى محرك العقول ومخرجها من قيودها ومتى خرجت من قيود تعاقات وصلت إلى ماذكرناه وكان السلام العام .

﴿ تذكرة ﴾

ولقد أومأ الحديث الشريف لهذا المعنى فى رواية البخارى ومسلم عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة فلا يجد أحدا يأخذها منه» وورد أيضا: «تصدقوا فيوشك الرجل أن يمشى بصدقته فيقول الذى يعطاها لوجئتنا بالأمس قبلها منك فأما الآن فلاحاجة فيها فلا يجد من يقبلها منه» رواه البخارى ومسلم والنسائى . فياليت شعرى هل ذلك هو الزمان الذى ستظهر فيه الأمم الإسلامية بالمظهر الذى ذكرناه بحيث يقومون بنظام هـذه الدنيا مع عموم التعليم وحفظ الصحة ومعرفة قدر نعمة الحياة ويكونون مع الأمم إذ ذاك فى حال أحسن من هذه بحيث يقل الطمع ويعرف الناس ماالمقصود من المال .

﴿ عجيبة من عجائب أخبار اليوم ﴾

أليس من العجائب النادرة أن أقرأ اليوم عن [البلاغ السماوى] فى بمباى بالهند أن المسلمين فى شمال (البرازيل) كانوا سنة ١٩٢٥ ثلاثة آلاف وهم الآن أضعافهم نحو (١٧) مرة أى (٥٠) ألفا وهم الآن يبنون جامعا كبيرا وأن الإسلام انتشر انتشارا سريعا فى أمريكا وله مبشرون ما أكثرهم هناك . وقرأت أيضا أن المستر (ولز) الكاتب الإنجليزى الكبير كتب يقول [كل دين يسير مع المدنية فاضرب به عرض الحائط لأنه يضر المستمسكين به وأن الديانة الحقة هى الإسلام ، فالقرآن كتاب دينى علمى اجتماعى تهذيبى خلقى تاريخى حتى قيام الساعة . ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لانشبع » وهذا هو الأساس القوى لعلم الصحة ولم يستطع الأطباء أن يأتوا بخير من هذه النصيحة وصاحب الشريعة الاسلامية استطاع فى ربع قرن أن يقهر دولتى فارس والروم] انتهى .

وإنما ذكرت هذا هنا لأبين أن الاسـلام كما انتشر فى أمريكا ومدحـه بعض علماء أوروبا فربما كان ذلك مبدأ نهضة الأمم ورقى الإسلام فيتعاون المسلمون فى أوروبا والشرق على إصلاح الأمم كلها وإذ ذاك يحسب ما كتبناه هنا ترتقى العقول والأخلاق والصحة التى يطلبها علماء العصر . وهنالك لا يجد الناس من يأخذون الصدقة وذلك لأنهم جميعا يعملون ، لأن الفكرة التى هنا تؤذن بأن الناس جميعا يعملون والمادة تستخرج منها منافعها . فإذن يكون الناس جميعا إخوانا يساعد بعضهم بعضا كما فى كتاب [أين الانسان] .

كل ذلك لمناسبة تقسيم الحيوان الذى أصبح درسنا فى هذا المقال ومن هذا الدرس شرحنا مواهبه ومن مواهبه استخلصنا درجاته فى العمل لنفسه ولذريته وانتقلنا من هذا إلى أن الانسان الحالى لم يرتق عن الحيوان ثم زدنا عليه أن نبينا صلى الله عليه وسلم يقول المدار على التقوى لا على النسب . ومن هذا كله استخلصنا زبدة المقال المصطفاة منه كله وهو استخراج جميع قوى العقول ومنافع المادة وإذن يصبح الناس إخوانا فى العمل والحياة بفضل الإسلام لا بفضل البلشفية والاشتراكية لأن التعاون العام إذ جاء من طريق الدين عم انتشاره وإذن يكون نشر الإسلام بالإقناع وبالعقل، والحمد لله رب العالمين .

﴿ لطيفة ، صباح يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ﴾

فى الأرض أشرق (نوران) نور ظاهر ونور باطن ، أشرقت الكواكب وأشرقت أرواحنا . بنور الكواكب ازدان الأفق وبنور أرواحنا ازدانت قوانا الباطنة بالخيال والقوة المفكرة والذاكرة وأمثالها . فى الجو الذى نراه حول أرضنا صور النجوم صورت مرصعة فيه . وفى نفوسنا نقش هذه الصور . نحن

تخيلها وتتخيل كل ما حولنا . كل ما رأيناه أو سمعناه أو لمسناه أو ذقناه نجد له صورا فى نفوسنا إذن هناك عالم واسع نفوسنا كالعالم الذى نراه حولنا . النور المبصر والنور الذى لا يبصر كلاهما من السماء . لا نور حول الأرض إلا من السماء بالشمس والقمر والنجوم فهكذا ما الأنوار فى نفسى وفى خيالى وفى فوق الفكرة إلا من السماء . أبصرت يا رب حولى صورا جميلة فى جوك وفى سمائك ولكن هذه الصور لم تظهر لى إلا بأنوار أشرقت من السماء لا من الأرض . هكذا أحسست فى نفسى بصور تماثلها بنور آخر إذن هو حقا من السماء ، وعلى ذلك تكون هذه النفس لها إشراف عام على هذه العوالم المحيطة بى وإذا كنت أرى نور المشرقات مسيطرا على الأرض وأهلها فهكذا نور نفسى الذى هو من السماء مسيطر على هذه الأرض وماحولها بل على سائر الكائنات .

هذا محبوء فى نفسى أحس به من إبان صغرى وهوملازم لها وقد ازدراه أكثر الناس . إن أكثر الناس يحقرون ويزدرون مالم يتعبوا فى تحصيله . فهم لا يعبئون بما حولهم من هواء وماء وأنوار ولا يعدونها نعمة هكذا لا يعدون قواهم الباطنة نعمة ولا يحسون بأنها كرامة . إن الكرامة محصورة عندأكثر هذا الإنسان فيما منع عنهم . فشربة ماء وكسرة خبز أعطيا لهم بعد المنع أعظم نعمة يحمدون الله عليها وقنطار من ذهب لم يتعبوا فى تحصيله يبذرونه تبذيرا « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . والدليل على ذلك أن نفسى فيها آلاف الآلاف من الصور ولاقيمة لها عندى ولكنى إذا رأيت مصورا صور عصفورا أو شجرة أو إنسانا أعظمته جدا وأخذت أتفرج عليها بشغف عظيم . ذلك لأنها جاءت بكد ونصب وجاءت بعد منع فلها قيمة عندنا . فأما صورى المرسومة فى نفسى فلا قيمة لها لأنها مبذولة لى ولجميع الناس . إن نفسى من عوالم غير عالم الأرض نزلت إليها لتدرسها ولتدرس نفس قواها . ودراسة العوالم المحيطة بى تعيننى على درس قواى الباطنة التى هى المقصود الأعظم ، إذن هذه الأرض لوح كتبه الله وأظهره وقال اقرأ وارق فأنا أقرؤه اليوم ولكنى ما كدت أشرع فى القراءة حتى رأيت العقبات تحول بينى وبين نفسى ، فمنها ماهى صحية ، ومنها ماهى منزلية ، ومنها ماهى سياسية تعم أمتى كلها ولكنى مع هذا كله أحس بأن نفسى ليست من هنا بل هى من السماء . ونور السماء الظاهر الذى جاء لنا من الشمس إذا حجبه سحاب ساعة فإنه يضىء بعدها . إذن روحى لاحد لرقيها ولامانع لإسعادها ولا نهاية لإشراقها . وإذا كانت الشمس وهى النور الحسى لاحد لأنوارها فكيف تقف أنوار نفسى إذن فلأبحث فى قواها ولأستعد لإسعادها ولأعلم علما ليس بالظن أنى واصل إلى ما أريد . أما العقبات التى تقوم بين نفسى وبين مطلوبها فأنا لا أبالى بها . وأهم العقبات ما جاء من طريق الوراثة والتقليد : ورثت بعض آبائى الأولين وبعض الأشياخ الغابرين أن الأعمال الدنيوية لا تقرب العبد من ربه وأن أكثر من رأيتهم فى بلاد الإسلام لا يتقربون إلى الله إلا بالذكر وحده أو بقراءة الأوراد . ورأيت شيوخا فى كل قطر من أقطار الإسلام يوجبون على تلاميذهم أن يقرأوا أورادا فى أوقات خاصة وأكثرهم شغلوا عن معانى القرآن . أنا لا أذم الأوراد فهى تشغل الشرير عن الشر ولكن الروح أوسع من هذا . إن حصر الفكر باب من أبواب الجهل . إن روحى لاحد لها فكيف تقف عاكفة على ورد خاص قانعة بالجهل منتظرة أن يفتح لها العلم بالعوالم جميعها من غير تعلم . الإسلام أوسع من ذلك فاقرأ هذا المقام فى (سورة الكهف) ففيها بيان ما يقوله الشيخ الخواص والشيخ الدباغ فى قيمة الأوراد وحصر التلميذ فيها وكذلك فى (سورة الاسراء) فهناك ترى هذا المقام مشروحا شرحا مستفيضا فلا نعيده هنا . وعلى ذلك أنا لا أقف عند حد فى النظر والفكر ولا أحصر فكرى فى علم واحد بل أطلق نفسى لتعرف العوالم كلها ولكن نفسى وحدها لا تستطيع أن تعرف كل شىء ولا أن تعمل كل شىء ، فالعلوم لاحد لها والأعمال الدنيوية كثيرة فماذا أصنع إذن ؟ هنالك ظهر لى أن هنا فى الأرض معى نفوسا أخرى فنفسى

وتفوسهم

ونفوسهم أشبه بجسم واحد . والدليل على ذلك أن كل علم من العلوم ' كتبه فى هذا التفسير ظهرت مساعدة الناس لى فيه فأنا أستمد من الشرق والغرب وأصطفى من علوم الشرقيين وعلوم الغربيين ما أراه جيلا وأ كتبه . هنالك تبين لى أن هـذه الروح المرسلة من السماء التى أمدها الله بنوره لا يتم لها هـذا النور إلا باتحادها مع الأرواح المرسلة معها إلى الأرض . والآن عرفت لماذا دعا الأنبياء أممهم إلى العلم وهكذا العلماء والحكماء فإنى رأيت كل عالم وكل حكيم وكل نبى مغرمين بتعليم غيرهم لأنهم يعلمون أن النوع البشرى أشبه بجسم واحد شاءوا أم أبوا بدليل أن الدول القوية تغتصب حقوق الضعفة وتحاربها ولـكن العقلاء فى الأمتين يسألون بعضهم عن حص ، فالتعاون طبيعة فى الإنسان وليس يمنع هذا التعاون إلا نقائص وجهل يورث طمعا واعتيالا لحقوق الضعفاء .

ملخص هذا كله أن الأعمال والعلوم لابد فيها من اتحاد المجموع وتعاونهم وأن اقتصار الشيوخ على تلقين المريدين أورادا خاصـة وحجبهم عن العلم وعن الأعمال العامة خسران مبين . الأرض التى نسكنها قد خبئت فيها المعادن . خبأها الله عنهم فلم يعطها إلا لمن بحث عنها والإنسان عاش على الأرض كما يقال ثلثمائة ألف سنة وما أخرج من الأرض للناس نعمة إلا بعد بحثهم عنها وذلك ليعرفوا قيمتها . فالذهب والنحاس والحديد والكهرباء والمغناطيس عرفها الناس بعد الدأب على استخراجها ولذلك لم يتركوا استعمالها مع أن أكثر العمر الذى عاشه هذا الانسان على سطح الارض لم يستعمل إلا الحجرى فالعصر الحجرى هو الأصل أما عصور المعادن وما بعدها من الكهرباء والمغناطيس فهى قليلة . ذلك لأنه لايريد أن يعطيهم إلا بجدهم ليعرفوا قيمة مايعطيهم لأن ماأعطوه من غير نصب لايشكرون عليه كهذه الروح وقواها الجليلة التى هى أعظم من هذا العالم المادى فهم لايهتمون إلا بما نصبوا فى تحصيله .

﴿ القرآن والعالم المادى ﴾

وهنا نظرت فى أمر القرآن وفى عالم المادة كأرضنا هذه وقلت إن الأرض صنع الله وهكذا كل عالم المادة والقرآن كلام الله والمسلمون الذين نزل القرآن لهم قد ناموا نوما حقيقيا والأمم استيقظت الآن فهل خبأ الله لهم فى القرآن مايثير عزائمهم بحيث لاتقوم قائمتهم إلا إذا استخرجوه كما خبأ فى الأرض المعادن ولم يعطها الناس عموما إلا بعد استخراجها . وإذا علمنا أن القرآن والمادة من عند الله فليكن فى الكلام من الحكم المخبوءة مثل مافى المادة بل أعظم فلنبحث عنها الآن كما بحث الإنسان قديما فى الأرض فاستخرج المعادن فماذا ترى ؟ رأينا الله عز وجل لما أنزل القرآن ومضى له (١٣) قرنا نظر أكثر المسلمين للقرآن نظرة ضئيلة فهم قالوا إن القرآن جاء للأحكام الشرعية والأحكام الشرعية قام بها الأئمة المجتهدون ولا مجتهد بعدهم بل الذين عندهم مجتهدون كالشيعة يكون المجتهد هناك مراعيا عادات الأمة لئلا ينبذوه . وعليه أصبح القرآن يقرأ لمجرد التبرك والعبادة والإعظام . أما الاقتباس منه فلا والمقتبس إنما يتبع صاحب مذهبه فيما يقتبسه لاغير وتلاميذ الصوفية يتبعون شيوخهم فى بعض الآيات التى يسمعونها من شيوخهم مثل أن يقولوا لهم «قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون» ويفهمونهم أن يذكروا الله ويتركوا ماعدا الذكر ومثل أن يقولوا لهم «ليس لها من دون الله كاشفة» ويرجعونها للذكر وحده والله لم يقل ذلك وإنما يقول «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» فهو سبحانه جعل الذكر مقدمة الفكر ولـكن الجهلاء من هذه الطائفة وغيرها وقفت عقولهم عند آراء شيوخهم وأكثرهم جاهلون .

فى القرآن قصص وفى القرآن مواعظ وفى القرآن حكم . فلأذكر الآن مافتح الله به الليلة حتى إذا قرأه العقلاء أيقنوا إيقانا تاما أن الله لما أنزل القرآن فضل فيه ماضله فى العوالم المادية لأن المادة منه والوحى منه فهو

خبأ فى مادته معادن فبرزت فانتفع بها الناس قبل أن ينزل القرآن وخبأ فى القرآن حكما وسينتفع بها المسلمون بعد انتشارها فى أمثال هذا التفسير . فاعلم أن أعمال الانسان فى هذه الدنيا أربعة : زراعة وتجارة وصناعه وإمارة . هذا هو النظام المدنى وبه يكون نظام الأمة كلها . وإذن روحى باتحادها فى هذه الأعمال مع الأرواح الأخرى ترقى معهم مادمنا فى هذه الأرض فاذا فارقناها طرنا معا إلى عوالم أخرى لاندرى ماذا نفعل فيها . نرى الله فى (سورة النمل) أسمع سليمان عليه السلام النملة ، فلما سمعها « تبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ » .

جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة . إذن أنت يا ألله أسمعتنا هذه القصة لمقصد أشرف ومقام أعلى مما يفهمه الجهال فى أمة الإسلام الحالية . اذن هذه القصص ماتليت فى القرآن لمجرد البركة أو العبادة . هذا رأى خطأ . يا ألله أدركنا أن هذه القصص لأمر أعلى . غاية الأمر أن بعض أفراد الأمم الاسلامية تنظر إليها نظر الديك إلى الجوهرة فان الديك يطلب الحب ولايطلب الجوهرة . ولا جرم أن هذه الآية يراد بها العلم والمعرفة والحكمة . سليمان يقول إن سماع كلام النملة أوجب علىّ الشكر ، بل قال فى مسألة العرش واستقراره عنده إنه من الله لأن العلوم إذا أعطيها الانسان ولم يفهم قيمتها دل ذلك على حقارة قدره وأنه ليس أهلا لها فيسلبها كما يسلب الله الملك ممن ليسوا أهلا له والمال ممن ليسوا أهلا له . هكذا سمع سليمان كلام النملة فعرف قيمة هذا السماع فان هذا إدراك للحقائق وإدراك الحقائق أعلى مافى هذا العالم وطلب من ربه أن يلهمه الشكر وشكر النعمة لايتم إلا بمعرفتها أولا ثم قبولها والعمل لها ثانيا كما استخرج الناس المعادن وعرفوا قيمتها واستعملوها

﴿ قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد ﴾

ولما أرسل الهدهد إلى بلقيس ثم جاءت وجاء عرشها ورآه مستقرا عنده « قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » فمسألة الهدهد انتهت بالفوز السياسى كما أن مسألة النملة كانت فوزا علميا . إذن النملة والهدهد مع سليمان انتهيا بفوز علمى وفوز سياسى أوجبا الشكر وذلك بمعرفة أن هذه نعمة وجهل النعمة يوجب عدم قبولها وعدم العمل بها وإلا سلبها الله تعالى ولذلك لما خطرت لى هذه المعانى كتبتها اليوم خيفة أن تسلب منى إذا تركتها لأنها أعطيت لى الليلة وهذا من الله ليبتلينى أأشكرها بالكتابة والنشر أم أكفرها فلا أعيرها التفاتا ؟ كما أنى إبان صغرى لم أعر هذه النفس وقواها التفاتا ولم أشكر نعمتها بالبحث عنها ولم أشكر على نعم الأنوار والجمال فى هذا العالم المحيط بى .

إن (سورة النمل) متصلة بسبأ اتصالا علميا لاقرآنيا لأنهما غير متجاورتين فى الترتيب . وذلك لأن مسألة الهدهد متعلقة بأمر الملكة بلقيس وهى من سبأ والهدهد يقول « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » إذن نظرنا فى (سورة سبأ) فرأينا الله يذكر أن الشياطين « يعملون » لسليمان « مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » ثم ختم القول بهذه الآية « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » ثم ذكر بعد ذلك أمة سبأ وقال « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال » وأعقبه بقوله « كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » فههنا ذكر الشكر فى (موضعين) فى موضع أبان فيه الصناعة وإتقانها وموضع أبان فيه الزراعة فى الجنتين اللتين كانتا لسبأ وسيأتى بيانهما هناك . إذن شكر الله عز وجل جاء فى القرآن مقرونا بالعلم وبالسياسة فى سورة النمل وبالصناعة والزراعة فى سورة سبأ .

الله أكبر . جل الله وجل العلم . أيها المسلمون هاهى ذه أعمال الناس فى الدنيا والآخرة لاتخرج عن هذه الأربع العلم والزراعة والصناعة والإمارة ، والله قد ابتلانا بالأمور السياسية وبالأمور العلمية وبالأمور الصناعية وبالأمور الزراعية . ولقد قدمت ذكر التجارة ولم يذكرها لأن التجارة ماهى إلا تقليب المال لأجل الربح ولكن أصول الصناعة وأصول الزراعة هما اللذان بهما حياة الأمم .

أيها المسلمون . هل من مجيب ؟ هـذه بعض المعادن التي خبأها الله في القرآن وأذن باستخراجها اليوم وأرانا أن نفوسنا نفوس سماوية قد جاءت إلى الأرض ولن تستطيع العروج منفردة فلابد من تعاونها مع الأمة التي تسكون فيها والأمم كلها متعاونات ، وبهذا التعاون يقتسمون العلوم والزراعة والصناعة والإمارة وهذه هي التي بها الحياة في الدنيا والسعادة في الآخرة .

أيها المسلمون . تبسم سليمان ضاحكا لما سمع كلام النملة وطلب من الله أن يلهمه شكر هذه النعمة وإنما طلب من الله لعلمه أن النوع الإنساني محجوب بالعادات يحتقر مايصل اليه ومتى احتقره جهله ومتى جهل أصبح أدنى من الحيوان وعلم النملة وعلوم الحيوان كلها مزدراة عند الأمم الإسلامية المتأخرة التي نزل لها القرآن فأسمعهم دعاء نبي عظيم يطلب من ربه أن يلهمه شكر نعمة معرفة خطاب النملة . وبعبارة أصرح إن أكثر هذا الانسان جاهل لايهمه أمر هذه الحيوانات ولا يدرسها وليس يعرف الانسان قيمة هذه العجائب إلا إذا ألهمه الله وقد ألهم الله اليوم كثيرا من المسلمين أن يتعلموا هذه العلوم . فاذا جاء لهم أيضا من طريق القرآن لاسيما من قصة سليمان وسبأ كان ذلك أقوى وأوسع مدى .

استقر عند سليمان عرش بلقيس فلم يفرح بالنعمة ويبطر بل قال هذا امتحان من الله فان عرفت النعمة وحافظت عليها كنت شاكرا ومن لم يفعل ذلك فقد كفرها . وسبأ أعطوا سد العرم وأعطوا جنتين هناك فاذا فعلوا تركوا السد فلم يحافظوا عليه ولم يدرسوا العلوم التي درسها آباؤهم ولم يتحدوا للمحافظة على هذه النعمة فسلبها الله منهم وقال «فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق» .

هذا بعض السر في قوله تعالى «وقليل من عبادي الشكور» وقد اتصل بآية «الله نور السموات والأرض» الخ من وجهين : وجه أمر الروح التي هي نور من الله ووجه الطيور والدواب التي تشمل هدهد سليمان والنملة التي سمعها وتبسم ضاحكا والهدهد متصل بسبأ وفي هذه جماع نظام الأمم .

أيها المسلمون . في هذا المقال مجامع العلم في الأمم التي حولنا ففيه الصناعات والعلوم والسياسة فكل من نظم سياسة أمته وإمارتها فهو قائم بشكر الله وكل من رقي صناعتها فهو قائم بشكر الله وكل من نشر العلوم فهو قائم بشكر الله وكل من رقي زراعتها فهو قائم بشكر الله . هذه هي بعض كنوز القرآن . خبأها الله لكم وأبرزها الآن لما استعددتم لقيادة أهل الأرض بعد نوم آبائنا نحو (٨٠٠) سنة . فها هو ذا اليوم للوعود لإسعاد أمم الإسلام وإخراجهم من سجون الجهالة التي حبسهم فيها شيوخ غافلون ومنعوهم من التفكر في القرآن ومن التفكر في الأمم المحيطة بنا وفي الأرض التي سخرها الله لهم . فها نحن أولاء الآن عرفنا أن مقومات الممالك من زراعة وصناعة وسياسة وعلم . كل هذه تركها كفر للنعمة وإقامتها شكرا لها والله يقول « وإن تشكروا يرضه لكم » ويقول « واشكروا لي ولا تكفرون » ويقول علماء الأصول [شكر النعم واجب] فالشكر بأنواعه المتقدمة واجب على المسلمين وإن لم يشكروا حل بهم ما ذكره الله في نفس قصة بلقيس مع سليمان (التي جر إليها ذكر الهدهد الذي هو من الطيور المسبحات المصليات في هذه الآيات في سورة النور) إذ يقول الله « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » إذن ذل بعض الممالك الإسلامية اليوم إنما جاء من جهلهم بشكر النعم وأجل النعم هي ممالكنا التي سلبها الله لنا كما سلم العرش لسليمان فلما رآه مستقرا عنده قال إن هذا ابتلاء من الله لي وامتحان ، هكذا نحن بإعطاء الملك لنا ممتحنون فإن قومناه بما يلزمه (من صناعة أشار لها بالصرح الممرد من قوارير وصناعة المحاريب والتماثيل ، وبزراعة أشار لها بالجنتين في قصة سبأ وبسياسة تحفظ البلاد وبعلم أشار لها لما تبسم ضاحكا بقوله « رب أوزعني أن أشكر نعمتك » الخ) أبقاه لنا وإن أهملناه وتركنا مقوماته أدخل الملوك والأجانب

فاستولوا على عروشنا وأفسدوا بلادنا «وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» وأنا واثق أن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس إذ أقبل زمن نصر الله والفتح ، والحمد لله رب العالمين .

(بهجة العلم فى هذا المقال)

(فى يوم الجمعة ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٨)

أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والحكمة ، وأحمدك على الإلهام وعلى ما شرحت به صدرى وما أفضته من نورك للأمم الإسلامية التى يعوزها الصدق فى القول والجد فى العمل . لقد ذكرت فى المقال السابق أن الشكر فى الإسلام يرجع إلى جميع الأعمال فى هذه الحياة وإلى جميع العلوم ، وأقول الآن إنه من أعجب العجب أن المسلم فى كل صباح يخاطب ربه ويناجيه ويدعوه بنفس ما كتبته فيما تقدم . يناجي المسلمون ربهم فى صلواتهم بهذه العلوم التى أكتبها فى هذا التفسير ، نعم يخاطبون الله العظيم ولكن أكثر الناس يخاطبون ولا يعلمون بماذا يخاطبون . نعم أنا الآن فى تفسير (سورة النور) وهى الآن مقدمة للطبع وطال المقال فى آية « الله نور السموات والأرض » الخ وطال فى مسألة تقسيم الطير إلى ماش على رجلين وعلى أربع وعلى بطنه . نعم هو طال ولكن الحمد لله لم أخرج عن الموضوع كثيرا لأن المقصد هو الهداية وبهذا التقسيم أى تقسيم الحيوان على منهج القرآن وصلنا إلى كل ما يمشى وكل ما يطير وكل ما يدب وانتهى بنا المقال إلى الهدهد والنمل وأمرهما مع سليمان عليه السلام فنحن على حق إذا بحثنا فى هذه الحادثة لأن النمل يمشى على الأرجل والهدهد يمشى على رجلين ولهما حادثة تاريخية مع نبي عظيم له ملك لا ينبغى لأحد من بعده . نحن مهما طال بنا المقال لم نخرج عن نمط القرآن . لم نخرج عنه كما لم يخرج أصحاب المعلقات بوصفهم الناقة (التى تحملهم إلى محبوباتهم من النساء) بأوصاف ربما تصل إلى (٢٩) بيتا فى بعض القصائد . هذا أسلوب العرب والقرآن كتاب عربى . فنحن إذا بحثنا فى حادثة الهدهد مع سليمان عليه السلام لسنا خارجين عن سنن النظام والقرآن لاسيما بعد ما سمعناه صلى الله عليه وسلم يقول « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا » فالقرآن كله جوامع كلم ومختصر وهكذا الأحاديث الصحيحة وقد سمعنا الله يقول « ثم إن علينا بيانه » وسمعناه يقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فالآن أشرع فى شرح ما فتح الله به فى هاتين الليلتين . ذلك أن المسلم يقول فى صباح كل يوم « اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت » فهو ليس مهديا وحده ولا معافى وحده بل مع غيره ثم يختم الدعاء بقوله « ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت » فما هذا الشكر ، أليس هذا هو المذكور فى علم الأصول « إن شكر المنعم واجب » أليس هو الشكر المذكور فى قصة سليمان الذى ذكرته فى المقال السابق . سبحانك اللهم يا ألله أنت القائل « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

أنت يا ألله قد ضمنت بقاء الأمة ما دامت مصلحة . فياليت شعرى ما هو الإصلاح . الإصلاح يرجع إلى ماتقدم من نظام الأمة الذى اشتملت عليه قصة سليمان مع بلقيس وقصة سبأ والمحافظة على العروش أن تزول وعلى العلم وعلى الصناعة وعلى أمر الزراعة ومن لم يحفظ هذه النعم كأهل سبأ جعلهم حديثا ومزقهم كل ممزق .

الله أعطى آل داود صناعا يعملون لهم ما يشاءون من محاريب الخ فقال لهم « اعملوا آل داود شكرا » وسليمان شكر الله على نعمة العلم إذ سمع كلام النملة وعلى نعمة الملك فى حديث الهدهد وأهل سبأ مزقوا لأنهم لم يشكروا نعمة الجنتين وذلك بعدم المحافظة عليهما . جمع الله ذلك كله فى قول المصلى صباحا كل

يوم « فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت » وأنا أقول : أيتها الأمم الإسلامية . هلا كان من القرون المتأخرة من قبل عصرنا من شرحوا للخاصة والعامة معنى هذا الشكر الذى يقوله المصلى كل يوم وهو يناجى ربه . لماذا أيها العلماء لم تشرحوا للناس معنى الشكر كما شرحه الله فى (سورة سبأ) وفى (سورة النمل) .

نعم بعض القائمين بأمر الأمم الإسلامية مترفون فكأنهم اتبعوا ما أترفوا فيه وهذه الآية التى جاءت فى (يونس) خاطب الله بها المسلمين يريد بها توجيه الهمم إلى النهى عن الظلم الذى يقوم فى أمتنا بتوجيه النقم إلى الأمم السابقة . يقول لماذا لم يقم فيها هادون علماء حكماء « ينهون عن الفساد فى الأرض » ثم وبخ تلك الأمم قائلا إن الظالمين فى تلك الأمم مترفون واتبعوا الترف وتركوا النصيحة والتعليم .

الله قرن الظلم بالترف والمترفون ظالمون . إن التنعم وحب الراحة هو الذى أضر بأمتنا الاسلامية كما أضر الأمم السابقة وأنا أقول الآن ألا فليقم فى الأمم الاسلامية من يقولون لهذا المجموع الإسلامى أيها المسلمون الشكر الذى تكررونه كل صباح وكل مساء هو القيام بحفظ النعم التى أنعم الله بها عليكم جميعا وهى نعمة الأرض التى تسكنونها والممالك التى سلمت لكم فلا تعطلوا نعم المزارع والأنهار بترفكم وتنعمكم وإهمالكم وجهلكم بالعلوم والصناعات التى تحفظ تلك الأرض بل تعلموا كل علم وكل صناعة حتى تصير بلادكم كبلاد الأمم التى تعيش معكم رقيا وإلا فأنتم ظالمون مترفون والله يعطى أرضكم لمن هم أقدر منكم على نفع عباده بها، وأيضا هو القيام بأمر الصناعة التى لا تتم حياة إلا بها وأمر آل داود أن يشكروا الله عليها . وأيضا هو القيام بأمر الدولة التى منحكم الله إياها وعرش الملك الذى سلمت إليكم مقاليده والله ما سلمكم هذه الممالك إلا اختبارا لكم فحسب ، فإن قمتم به حق القيام أبقاه ، وإن أنتم قصرتم فى نظامه أخذه منكم وسلمه لغيركم ، وإذا كان سليمان الذى أعطى ملكا لم يعطه الله لأحد بعده وقد وعده الله بذلك يقول أنا مبتلى والله يختبرنى أأشكر أم أكفر فمن هو المسلم الذى ليس بنبى هو مختبر من باب أولى . لهذا نزل القرآن ولهذا أنزلت أمثال هذه الآيات بل ما نذكره الآن من أعجب ما جاء به القرآن . يقول سليمان الذى هو نبى وهو موعود من الله بالملك وأن هذا الملك لا يعطاه أحد بعده إنى مبتلى هل أشكر نعمة الملك بالمحافظة عليه أم لا ؟ .

فأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من على

فاذا كان الأنبياء يخافون وهم أنبياء فما بالك بالمسلم المسكين . من هذا تعلم السر فى قول المسلمين يارب نحن مسلمون وموحدون ولماذا أخذت ممالكنا وأعطيتها لغيرنا وأذللتنا فى بلادنا فيقال لهم لأنكم غير شاكرين ولو كنتم تفهمون ألفاظ الصلاة ما ضاعت ممالككم . أظننتم أن قول المصلى « ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت » أمر بسيط وذلك أن تنطق بها وكفى . الله لا يقبل إلا طيبا . وإلا فما معنى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أليست الصلاة مذكرة . أليس الشكر المذكور فى دعاء الصبح هو الذى يقوله علماء الأصول وهو الذى جاء فى قصة سليمان وقصة سبأ وكله راجع لحفظ الدولة كلها زراعة وصناعة وإمارة إلى آخر ما تقدم . هذا بعض معنى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فما الفحشاء والمنكر خاصين بالذنوب الفردية . إن الذنوب العامة بترك المنافع العامة أعظم جرما . وتجد الله يقول فى (سورة) هود يعبر بلفظ « ينهون عن الفساد فى الأرض » كما عبر فى الصلاة بلفظ « تنهى عن الفحشاء » الخ .

إن الصلاة ذكر فيها الحمد . والشكر والحمد لا يكونان إلا بالقيام بحق النعمة والقيام بحق النعمة

يوجب حفظها فلا يترك الإنسان مواهبه ولا النعم العامة وهذا كله واضح فى قول المصلي « اللهم اهدنى فيمن هديت » وفى قوله « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » لا صراطى وحدى وفى قوله « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » إنه لاسلام فى بلاد الإسلام أو فى أى بلاد أخرى إذا أهمل أهلها رقيها بالعلوم والصناعات لأننا قد أوضحنا فى كتاب [أبن الإنسان] أن الأرض يجب أن تستخرج منها جميع ما يمكن من النعم ومن مواهب عقول بنى آدم . فالأمة التى تهمل من أمم الاسلام تتحد الأمم التى حولها على اقتسام أرضها . ذلك أمر لا مفر منه . فكيف يكون فيها سلام ولا سلام إلا بمحافظة الأمم الاسلامية على أن تكون بلادهم مساوية لمن حولهم فى الرقى . فمتى انحطت عنهم جاء غيرهم وأخذ أرضهم . فاذن لا يسر النبي صلي الله عليه وسلم من أمة الاسلام ولا يسر الصالحون . فقول المسلم فى الصلاة « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يلزمه حفظ بلاده ورقيها فان لم يتم ذلك وتركت وضعفت عما جاورها من الأمم فلا سلام علينا ولا على عباد الله الصالحين وكيف يتم السلام إلا للشاكرين الذين حافظوا على تلك النعم الجسمية والعقلية والدولية والمدنية حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يتألم فى البرزخ لأجل أمته فكيف نخاطبه بالسلام عليه وأعمالنا ترفع له ناقصة لا شكر فيها بالمعنى الذى ذكرناه .

إن المسلم يستعيذ فى الصلاة من فتنة المحيا وأى فتنة أعظم من فتنة الجهل التى أوقعت المسلمين فى الذل وكيف يستعيذ من فتنة المسيح الدجال وقد أحاط الدجل فى السياسة وفى الدين بنا . وكيف يقرأ المسلم فى القرآن « واجعلنا للمتقين إماما » وهو عينه مستعد للامامة . مع جهله ما تقدم من أنواع الشكر ونظام الدولة .

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت الذى علمت وأرشدت وأوليتنا نعما لا تحصى فألهمنا اللهم شكرها حتى نقوم بما يجب علينا ولا تجعلنا ممن قلت فيهم « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ، وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » .

اللهم إنا نحن معاشر المؤمنين اليوم سكنا فى مساكن أمم قبلنا فيجب علينا أن نتبين ما فعلت بهم ولا يكون ذلك إلا بالعلم . فكل قطر من أقطار الاسلام اليوم حل المسلمون فيه محل أمم سبقت وهذه الأمم لم تسقط إلا بالظلم والظلم مقرون بالترف كما فى آية هود . والترف والتنعم مورثان ترك العلوم والصناعات ونظام الدول . اللهم ألهمنا الصواب وأرشد هذه الأمم أن تدرس نظم الأمم السابقة عليها بحيث يعقلون ما وصلوا إليه من الرفعة ثم ما حصل لهم من الترف فظلموا أنفسهم فهلكوا وبناء على ذلك يعتبرون « والسعيد من وعظ بغيره » .

اللهم إن الشكر لك المذكور فى الصلاة وكذلك الحمد موجبان حفظ جميع النعم التى أشارت لها قصة الهدهد مع سليمان وقصة سبأ وهذا الشكر لك أنت ، والمسلم إذا عرف ذلك وجه قصده لله وحده وعلى المسلمين جميعا أن يعلم ذلك حكامهم وبعبارة أوضح وأصرح : يجب على العلماء بعدنا أن يقولوا لشعوبهم الإسلامية إن الهندسة والحساب والفلك والطبيعة وعلم طبقات الأرض ونظام الترع والجسور . كل ذلك دين إسلامي عليه ثواب وتركه يوجب غضب الله على الناس فى الدنيا والآخرة وأن قصص الأنبياء موجهة لهذا القصد وحده وأن غضب الله على الناس فى الدنيا بسبب التقصير فى هذا، والله هو الذى يتوجه اليه المسلمون بهذا كله ، كما أن صلاة الوتر (١١) ركعة وختلمها ركعة واحدة إشارة إلى أن جميع الأعمال ترجع إلى واحد وهو الله .

إذا عرف المسلمون ذلك وشاعت فيهم هذه الآراء لم يقعوا فيما وقعوا فيه في القرون الأخيرة . ذلك أن أمراءهم إذا كانوا صالحين تراهم في ناحية والشعب كله في ناحية . فالأمراء الصالحون يعلمون مصالح الدولة وصغار العلماء يجهلون ما قلناه الآن فيفهمون الشعب أن هؤلاء ظلمة فجاروا أنهم هم والصوفية والذين يقطعون للصلاة والقراءة هم الصالحون وحدهم . بهذا وحده انحطت أمة الاسلام في القرون الأخيرة إذ أصبح الشعب في ناحية والأمراء في ناحية بهذا وحده ضاعت هذه الأمة .

لقد ذكرت لك أيها الذكي في (سورة الحجر) أن أمان الله خان ملك الأفغان قد كان في مصر وأنه سافر إلى الأقطار الأخرى وأنا قلت لك هناك ما ملخصه عند آية « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » أنه يريد الإصلاح وأن علماء الدين ربما يقاومون إصلاحه وذكرت النسبة بين ضعف أمم الاسلام ورقي أمم أوروبا وأن علماء الدين إذا قاوموه تأخرت الأمة .

ألا تعجب معي أني أنا الآن في تفسير (سورة النور) وبين طبع السورتين حوالى سنة . فانظر ماذا جرى ؟ رجع إلى بلاده بعد أن طاف أقطار العالم وعرف أن الترك قد قتل فيها بعض العلماء لأنهم يقفون في طريق الاصلاح . فانظر ماذا جرى . وقف العلماء في طريق الاصلاح الذي رآه (أمان الله خان) فقتل منهم طائفة مثل ما حصل ببلاد الترك سواء بسواء فأشاعت الجرائد في العالم والتلغرافات (البرق) أنه أتى بأشياء خلاف الدين وفي هذه الأيام بل في هذا اليوم نفسه أشاعوا أن الثورة قد طغت في بلاده وعمت وأنهم قد طلبوا منه أن يتنازل عن العرش . وها هي ذه الجرائد أمامي وفيها ما نصه :

[يبعث الموقف الحالي في أفغانستان على القلق في الدوائر العليمة في لندن . وآخر الأنباء الواردة من كابل مؤرخة بتاريخ مساء السبت ، وفي ذلك الحين وصل الثائرون إلى ضواحي العاصمة واحتلوا موقعين وأذيع حينئذ أن الملك أمان الله والملكة ثريا سالمان في قصرهما الخ]

ثم جاء نبأ آخر مقتضاه أن العصاة قاتلتهم الحكومة ففازت عليهم فأسر فريق منهم وقتل آخر . هذا ما جاء يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وأنا أكتب هذا يوم ٢١ ديسمبر أي بعد (٣) أيام من وصول هذه الأخبار .

أفلا تنظر إلى ما ذكرت لك في (سورة الحجر) وما توقعته ، إذن ظهر لك صدق قولي أن تعاليم الأمم الإسلامية منحرفة خاطئة وأن هذه الطرق يجب تغييرها حالا .

اللهم إني أحمدك إذ وفقتني لهذا التفسير . يا ألله هذا ما في طاقتي . إني ألفت هذا التفسير باعانتك وهو يساعد الصالحين في الأمم الاسلامية على رقيها . فأما القتال والحرب والضرب في هذه الأمم الجاهلة وقتل صغار العلماء فهو لا يفيد بل يضر ضررا بليغا ، فعلى من يطلعون على هذا التفسير أن يسرعوا بتربية ناشئة جديدة على هذا المشرب فأولئك يكون عامتهم وعلماؤهم وملوكهم على مشرب واحد وحينئذ يرجعون لعصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

إن هذه الأيام مبدأ نهضة تقوم بها الأمم الإسلامية . فليخلع المسلمون ذلك الخلق وليلبسوا ملابس جديدة ، وهل أتاك نبأ ما ذكرته الجرائد في هذه الأيام أيضا فإنه بينما تأتي بأخبار ثورة الأمة الأفغانية وقيامها على ملكها لأجل الإصلاح نجد جرائدنا المصرية تذكر تاريخ مصر منذ مائة سنة أيام (محمد علي باشا) بمناسبة وضع الحجر الأساسي لمدرسة الطب بالجزيرة لمدرسة قصر العيني لأنهم أزمعوا أن يوسعوها ولهذه المناسبة ذكروا الطب إذ ذاك وكيف قام العلماء واعترضوا على (محمد علي باشا) لأنه أجاز للأطباء أن يكشفوا على المرضى بالطاعون وأن يكون للبلاد محجر صحي كما تفعل الأمم كلها وكما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه وقد

روى له أبو عبيدة الحديث الدال على ذلك وقد تقدم ذلك الحديث فى (سورة الحج) عند آية « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » الخ . فأجابهم محمد على باشا بأن الأمم الإسلامية عملت هذا الحجر الصحى فقل الموت بالطاعون عندهم ومن رفع صوته بعد ذلك غربته عن البلاد . فانظر لأمم الإسلام كيف يتبع السابقون اللاحقين يقرءون قليلا من الدين ويعترضون على مالم يعلموه من نفس الدين . فالحجر الصحى فى حديث عمر وفى الإسلام وعند الأمم كلها والعالم علما ناقصا ينكره ، ثم الرجل الذى لا يعرف الدين وهو (محمد على) يأتى لهم بالحقيقة الموافقة لنفس الدين « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » فعلماء مصر منذ مائة سنة هم علماء الأفغان فى أيامنا هذه .

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

كل هذا من سوء التقليد وضعف التعليم والجهل العام فى أمة الإسلام . ومن عجب أن محمد على باشا أرسل للعلماء خطابا يقول فيه إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « فر من المجذوم فرارك من الأسد » فعرف مالم يعرفه أكثر علماء زمانه . فالحمد لله على نعمة العلم وعلى أن قيض الله للأمم الإسلامية نهضة حديثة بها سيكونون كلهم أمة مفكرة . وسينقرض ذلك الجيل الجاهل وتحل محله أجيال أعلى مراما وأوفى ذماما ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ الفصل الخامس : فى أن ما كتبناه هنا نسجناه على طريقة أكابر المتقدمين ﴾

سألنى صاحبى قائلا هذه هى العلوم التى يدرسها الناس للتلاميذ وهم صغار فهل تعتبر دينا إسلاميا وإذا قلت نعم كما هى طريقتك فهل تسمعنى ما يناسب من كلام القدماء . فقلت له قال الإمام الغزالى فى الإحياء [قد كان يطلق لفظ العلم على العلم بالله وبآياته وبأفعاله وخلقه حتى إنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمة الله عليه : لقد مات تسعة أعشار العلم] فعرفه بالألف واللام ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص الخ إلى أن قال [ولكن ماورد من فضائل العلم والعلماء أكثره فى العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وبصفاته الخ] .

وقال أيضا [إن أنس بن مالك قال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا ، إنما كنا نقعد فنتذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعد نعم الله علينا تفقها] قال الإمام الغزالى فسمى تدبر القرآن تفقها . فلما سمع صاحبى ذلك قال أريد من كلامهم أبين من هذا بحيث تكون الطريقة التى اتبعتها أنت سلكها بعض العلماء قبلك . فقلت اسمع ما قاله الغزالى فى الأحياء فى (باب التفكر) قال ما نصه .

[ومن آياته أصناف الحيوان وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى ، وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات . ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأهلية فإنك ترى فيها من العجائب مالا تشك فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة والنحلة والنملة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجاتها . لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا هندسيا

حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق أو الذباب ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله ــ أقول وستراه فى سورة العنكبوت مفصلا تفصيلا ــ ثم قال: وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لاهادى له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف . أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوان وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة ثم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد عجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب من الحيوانات وليس يتعجب من نفسه ولو نظر إلى الأنعام التى ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها، فسبحان من الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته] انتهى .

هذا نص كلام الإمام الغزالى فى هذا المقام . وقد جاء فى (كتاب التفكر) الذى ذكر فيه كما تقدم مانصه أيضا (قد أثنى الله على المتفكرين فقال تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » وذكر فى حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم بكى وهو يصلى بالليل حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة آية: « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » ونقل عن الحسن « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » وقال إبراهيم : الفكر مخ العقل . ونقل عن طاوس قال قال الحواريون لعيسى ابن مريم يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فإنه مثلى وقوله تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » قال الغزالى معناه أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكر فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال الغزالى بعد ذلك : إن ذكر القلب خير من عمل الجوارح . إذن التفكر أفضل من جملة الأعمال بل هو أشرف العمل ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة انتهى .

فلما سمع الأستاذ ذلك قال هذا القول يدل دلالة واضحة على أن التفكر أشرف من العمل . فقلت نعم وهذا إجماع العلماء ، إن العلوم أفضل من الأعمال ، فقال ولكن قولهم: تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، مبالغة ، ثم حديث عائشة الذى ذكرته هل هو صحيح . فقلت له أنا الآن لست فى مقام تصحيحه وتحسينه . إنك طالبت حتى آراء المتقدمين هل كانوا يجعلون أمثال ما كتبناه الآن ورسمناه بالتصوير الشمسى فى هذه الآية علوما دينية فأجبتك بما كتبوه أنفسهم وأنهم يقولون إن هذا أفضل من العبادة ، هذا هو إجماعهم ، فأما كون كلامهم فيه مبالغة أو أن الحديث صحيح أو ضعيف فهذا ليس مقام الكلام فيه وإنما ملخص ما فيه أن هذا رأى المتقدمين فأما الحديث فتشهد له الآيات كلها فاذا لم يصح فالآيات تدل عليه وعليه أصبح ما نكتبه فى هذه الآية وأمثالها إتماما لما ابتدأه علماء الإسلام منذ نحو (٩٠٠) سنة فهم ابتدءوا يرقون المسلمين بهذه العلوم ثم سلط عليهم أعداء من الداخل وهم صغار العلماء وصغار المتصوفة وأعداء من الخارج كأمة التتار وغيرها ، ثم لما أراد الله إنقاذ المسلمين من الذل وأنه سيرفعهم إلى العلا ألهم الأمم الإسلامية الحاضرة فهاهى ذه تريد إرجاع مجدها وكان من جملة نهضتها المباركة هذا التفسير الذى ليس بدعا فى هذه السبيل . فاذن نحن الآن نريد إعادة مجد ذهب وعلم ترك وهذه نعمة أنعم الله عز وجل بها على أنا وعليك أنت أيها الذكى وعلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ موازنة بين آراء المسلمين وعلماء أوروبا فى هذا المقام ﴾

أذكرك بما مضى أيها الذكى فى أول (سورة المؤمنين) فانى نقلت لك هناك عند ذكر خلق الانسان عشرين قولا من أقوال علماء القرن العشرين وهو القرن الذى نحن فيه . إن أكثر علماء القرن التاسع عشر كانوا بالنسبة لعلماء القرن العشرين أطفالا فى العلم ، فقد أثبتوا بالبرهان أن التعليلات التى عللوا بها ألوان الحيوان واختلاف أشكاله مقضى عليها بالفشل بل صرح بعضهم بأن تعليل أولئك العلماء بالانتخاب الطبيعى أو نحوه لايعلو عن قيمة أقوال المرضعات والعجائز وثبتوا إثباتا تاما أن هؤلاء العلماء قد أثبتوا عجزهم عن تعليل الغرائز المودعة فى الحيوانات وأبانوا أن الكون محكم الوضع وإحكام الوضع لابد له من عقل يدركه وأجمع على ذلك أكابر علماء الألمان والفرنسيين والانجليز وأبطلوا آراء صغار العلماء التى انتشرت فى الشرق ولم يصل لهم أمثال ما نقلناه عن العلماء المعاصرين لنا فهم مقلدون لمن ماتوا ولم يصلوا بعلوم من بعدهم من المعاصرين الذين يقولون إن الحشرات التى تنتقل من دودة إلى شرنقة إلى فراشة وتنتقل من عالم الماء إلى عالم الهواء مرة واحدة تكذب مذهب القائلين بالتحول التدريجى الذى لامستند له إلا الوهم لأن البط خلق منسوج الأرجل أولا ثم مشى لاأنه مشى على شاطىء البحر ثم خلق له النسيج بين الأرجل فارجع إليه هناك فهو واضح أشد الوضوح . أو ليس من العجب أنك ترى ما يقوله الامام الغزالى هنا وقد نقلته لك عنه آنفا هو بنصه وفصه ما يقوله علماء أوروبا .

فقل لمن يدعى علما ومعرفة   عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

وقل لأبناء الشرق إما أن تحرزوا العلم كله وإما تبقوا مقلدين ، فأما الاطلاع الناقص فهو ضار وهاهو ذا أصبح علماء الشرق وعلماء الغرب على اتفاق تام فى أمر نظام العالم وعجائب الخلقة وحكمة الخالق والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ إيضاح أتم لما تقدم ﴾

قال الامام الغزالى فى الجزء الأول من الإحياء ما نصه :

وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله تعالى عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا

لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها وأما أفعاله فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل على عظمته فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل فمن عرف الحق رآه فى كل شىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق ومن لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه ومن عرفه عرف أن كل ما خلا الله باطل وأن كل شىء هالك إلا وجهه لا أنه سيبطل فى ثانى الحال إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض وهذا مبدأ من مبادىء علم المكاشفة ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله تعالى « أفرأيتم ما تحرثون ـ أفرأيتم ما تمنون ـ أفرأيتم الماء الذى تشربون ـ أفرأيتم النار التى تورون » فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى صدرت منها هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع]. أقول: وهنا أذكرك أيها الذكى بما تقدم قريبا هنا من ذكر قطرة الماء وأنها عبارة عن ذرات تعد بمقدار آلاف الآلاف وبينها مسافات هائلة ثم نفس هذه الذرات عبارة عن كهرباء مضيئة والضياء حركات فى الأثير والحركات أعراض لا غير. إذن المادة غير موجودة بنفسها. فاعجب لقول الصوفية كالإمام الغزالى ولأقوال علماء العصر الحاضر. لقد تشابه القوم وإن لم يجتمعوا زمانا ومكانا. ومن هنا تعرف تقارب العلماء فى الأمم. ونرجع إلى كلام الإمام الغزالى فنقول:

ثم ذكر أن المانع من الفهم فى القرآن قد يكون.

(١) بسبب انصراف الهم إلى إخراج الحروف من مخارجها وهناك يتولاه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى القرآن.

(٢) أو بسبب أنه مقلد لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولهذا قالت الصوفية (إن العلم حجاب) وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم. والتقليد قد يكون باطلا كمن يعتقد فى الاستواء على العرش والاستقرار والتمكن، فإن خطر له مثلا فى القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك فى نفسه ولو استقر لانجر ذلك إلى كشف ثان وثالث ولتواصل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل، وقد يكون حقا ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن قال كما ذكرناه فى الفرق بين العلم الظاهر والباطن وأشار إلى أن الإصرار على الذنوب أو التكبر أو اتباع الهوى كل ذلك يمنع وصول الحقائق للقلوب وذكر أن الذى يفهم ذلك هو المنيب كما قال تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقال « وما يتذكر إلا من ينيب » وقال « إنما يتذكر أولوا الألباب »

(٣) أو بسبب أنه قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أن معانى كلمات القرآن لاتتناول إلا مانقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ماوراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار . قال فهذا أيضا من الحجب العظيمة مع أن ذم التفسير بالرأى لا ينافى قول على رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن، ولو كان المعنى هو الظاهر المنقول ما اختلف الناس فيه ثم أثبت هذا الفهم بقوله تعالى «لعلمه الذين يستنبطونه منهم» فأثبت لأهل العلم استنباطا ومعلوم أنه وراء السماع وذكر قول أبى الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها ، وقول ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » يعنى الفهم فى القرآن ثم أعقب ذلك بالأخبار التى ورد النهى فيها عن التفسير بالرأى .

ثم قال إن أريد الاقتصار على المنقول والمسموع وترك الاستنباط فهو باطل لأنه يشترط أن يكون مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لا يصادف إلا فى قليل من القرآن ، وأما تفسير الصحابة كابن عباس وابن مسعود فهو من أنفسهم فاذا أردنا أن كل ما لم يقله النبى صلى الله عليه وسلم فهو بالرأى وجب أن نقول إنه بالرأى أيضا لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قائل به . وأيضا أن الصحابة اختلفوا فى بعض الآيات بأقوال لا يمكن الجمع بينها ومحال أن يكون الجميع مسموعا من النبى صلى الله عليه وسلم ولو كان أحدها مسموعا لرد الباقى . إذن تفاسيرهم باستنباط منهم كما استنبطوا فى (الر) أنها حروف من الرحمن ، أو أن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وهكذا . والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا . وأيضاً قد دعا صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك . ثم بين أن النهى عن التفسير بالرأى يرجع لأمرين اثنين : أولهما أن يقصد مبدع التلبيس على خصمه وهو يعلم أن الآية لم يقصد بها المعنى ، أو يجهل ذلك وعلى كلا الحالين يميل فهمه إلى الغرض الذى يرمى اليه فهذا حتما اتبع القرآن هواه . وقد يكون غير مبتدع وله غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فان فى السحور بركة » ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى « اذهب إلى فرعون إنه طغى » يشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون ويستعمله الوعاظ فى المقاصد الصحيحة وهو ممنوع وتستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به . هذا هو الرأى الفاسد الموافق للهوى (وثانيهما) أن يفسر القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة وما فيه من الحذف والاختصار والإضمار والتقديم والتأخير ، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه انتهى ملخصا .

فيا أيها الذكى إنما أوردت لك هذا بناء على سؤالك لتطلع على طريق التفكير فى التفسير عند أسلافنا الكرام وعلمائنا الفخام وما هو التفسير بالرأى وما التفسير بالفهم وما التفسير بالنقل ؟ ولست أكتب هذا لآخذ بكل ما فيه ولكن لتقف عليه وتعرف الحقائق وطرق المتقدمين فينشرح صدرك وتبلغ أملك .

فقز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

فصل

﴿ فصل : فى قوله تعالى – لقد أنزلنا آيات مبينات – إلى آخر السورة ﴾

وهذا الفصل مفصل إلى أربع جواهر :

[الجوهرة الأولى] فى تقريع قوم وتوبيخهم من قوله «لقد أنزلنا آيات مبينات» إلى قوله «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» .

[الجوهرة الثانية] فى وعد الله المؤمنين بالتمكين فى الأرض ونحو ذلك من قوله «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات» إلى قوله «ومأواهم النار ولبئس المصير» .

[الجوهرة الثالثة] فى آداب عامة كالاستئذان فى الدخول وذم التبرج من القواعد اللاتى لايرجون نكاحا وكالإذن بالأكل من بيوت بعض الأقارب من قوله «ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم» إلى قوله «لعلكم تعقلون» .

[الجوهرة الرابعة] الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوجب عليهم أن يستأذنوه وأنهم إذا دعوه فليكن ذلك بأدب خاص الخ وذلك من قوله «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه» الخ .

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى «لقد أنزلنا» إلى قوله «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» ﴾

يقول الله تعالى بعد أن أبان جمال صنعه وبديع حكمه وحسن ابداعه وباهر نقشه ورقشه وأحاسن خلقه من الأنوار الباهرات والمحاسن الظاهرات وأضواء الكواكب وجمال الشموس وسناء البرق وأنوار القلوب وجمال العلم وبهاء الأفئدة العامرة بالمعارف الساطع إشراقها وزينتها بالعلوم العالية وكيف كانت النفوس الانسانية مشتملة على جواهر هذه العوالم مقتطفة مافيها من المحاسن وكأنها قائمة مقام المادة بحيث تحمل كل ماحملت من صور ونقوش وكأن الناس فى الأرض خلفاء ربهم قد كلفهم أن يعملوا ويعلموا متخلقين بأخلاق من خلقهم . لما ذكر ذلك كله سبحانه وتعالى شرع يذكرنا بأنه أنزل هذه الآيات مبينات للحقائق ودلائل الخالق وأنه يهدى من يشاء بتوفيقه للنظر فيها والتدبر فى معانيها ، وكأنه عز وجل يقول إن هذا المثل المضروب للمؤمن والمضروب للكافر وعمله وهذه العجائب فى الطير والسحاب والبرق . كل ذلك ليس لكل إنسان فهمه بل الناس (فريقان) فريق لايرفع عقله إلى هذا المستوى الرفيع ولا يعقل ذلك المعنى البديع وفريق استحق رتبة العلم فألهمه الله وعلمه (والله يهدى من يشاء) هدايته لأنه على استعداد للهداية (إلى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام وإدراك الحقائق . ثم أخذ سبحانه يوبخ طائفة كبشر المنافق الذى خاصم يهوديا فى أرض فقال اليهودى نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال المنافق بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فان محمدا يحيف فنزل قوله تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) يقولونه بألسنتهم من غير اعتقاد (ثم يتولى فريق منهم) أى يعرض عن طاعة الله ورسوله (من بعد ذلك) من بعد قولهم «آمنا» وهم يدعون إلى حكم غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) بالمصدقين (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) أى ليحكم النبى صلى الله عليه وسلم الذى حكمه فى الحقيقة حكم الله (إذا فريق منهم معرضون) أى فاجأ من فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم أنك لاتحكم إلا بالحق (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم (أفى قلوبهم مرض) كفر أو ميل إلى الظلم (أم ارتابوا) أى شكوا وهذا استفهام للذم والتوبيخ (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) فالأمر يرجع فى صدودهم إلى النفاق أو الريب فى أمر النبوة أو الخوف من الحيف ثم أبطل هذا الأخير بقوله (بل أولئك هم الظالمون) أى لايخافون ظلمه صلى الله عليه وسلم ولكنهم يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم والنبى صلى الله عليه وسلم يأبى عليهم ذلك فلذلك لايريدون أن يتحاكموا

إليه . ثم ذكر أخلاق المؤمنين في مثل هذه الحال فقال (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) « قول » خبر كان وأن يقولوا اسمها أي سمعنا قولك وأطعنا أمرك (وأولئك هم المفلحون) وأما من قبلهم فهم ليسوا بمفلحين لأنهم ظالمون (ومن يطع الله ورسوله) فيما يأمران به (ويخش الله) لما صدر منه من الذنوب (ويتقه فيما) بقي من عمره (فأولئك هم الفائزون) أي بالنعم المقيم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) جهد مفعول مطلق لفعل محذوف أي يجهد اليمين جهدا ثم حذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول فقيل جهد اليمين أي جاهدين أيمانهم فهو منصوب على الحال . يقول الله حلف المنافقون بالله جهد اليمين أي بذلوا فيه مجهودهم أي أقصى وسعهم (لئن أمرتهم ليخرجن) أي أقسموا لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لخرجنا (قل لا تقسموا) لا تحلفوا كاذبين لأنه حرام ، إنما المطلوب منكم (طاعة معروفة) لا اليمين والطاعة الكاذبة (إن الله خبير بما تعملون) فلا يخفى عليه سرائركم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أي بقلوبكم وصدق نياتكم (فان تولوا) أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فانما عليه) على الرسول (ما حمل) أي ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة (وعليكم ما حملتم) أي ما كلفتم به من الإجابة والطاعة (وإن تطيعوه تهتدوا) تصيبوا الحق في طاعته (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أي التبليغ الواضح البين .

﴿ لطيفة في قوله تعالى « لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ﴾

إن تبيين القرآن قد ظهر اليوم أشد الظهور عند علماء الغرب ولأكشفه الآن هنا بموضوعين :

الموضوع الأول محاضرة في القرآن الكريم
وأثره في اللغة والعلم والاجتماع والأخلاق

ألقاها في مؤتمر المستشرقين بأكسفورد الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف العمومية ومندوب الحكومة المصرية والمؤتمر كان فيه (٧٠٠) منهم (٢٠٠) تمثل الحكومات والجامعات العلمية والباقون أعضاء والمحاضرات التي ألقيت بشأن مصر والاسلام (٤٤) محاضرة والمراد بمصر قديمها وحديثها وحضر من الألمان نحو (٧٠) عالما . والخطبة ألقيت في يوم الجمعة آخر أغسطس سنة ١٩٢٨ في مدينة (أكسفورد) بانجلترا وكانت العادة أن كل محاضرة تتلوها مناقشة في موضوعها فكان من المعجزات أنها قوبلت بالاستحسان العام، إذن علماء أوروبا الرسميون أقروا ما في هذه الخطبة بالاجماع . وهاك نصها بالحرف لتعرف مقدار اعتراف علماء أوروبا بفضل الاسلام وعظمة نبينا صلى الله عليه وسلم وهاهي ذه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

﴿ القرآن الكريم ﴾

(١) وصفه . (٢) محتوياته . (٣) أثره في اللغة العربية . (٤) أثره في الأحوال الاجتماعية والخلقية والعلمية .

١ — وصفه

القرآن الكريم « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » آية الله الدائمة وحجته الخالدة « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

٢ — محتوياته

٢ — محتوياته

احتوى القرآن مايحتاج إليه الانسان فى معاشه ومعاده « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ويمكن حصر ذلك فيما يأتى :

(١) (العقائد) وهى مبينة فى الآيات التى توجب الايمان بإله واحد وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مثل قوله تعالى «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد» وقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» .

(٢) (الفرائض الدينية) وهى موضحة فى الآيات التى توجب الصلاة والصوم والحج الخ مثل قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله» (البقرة) .

وقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» (البقرة) .

وقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » (آل عمران) .

(٣) (الأوامر والنواهى الخلقية) وهى مفصلة فى الآيات التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل قوله تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (آل عمران) .

وقوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (سورة النحل) .

(٤) (الإنذار والتبشير) فى الآيات التى ذكر فيها ماأعد للكافرين والمؤمنين مثل قوله تعالى «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون» (سورة النحل أيضا) .

وقوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » (النساء)

(٥) (الجدل والتحدى) فى الآيات التى دعى فيها المخالفون إلى الإتيان بآيات ولو مفتريات فعجزوا مثل قوله تعالى «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (سورة البقرة) .

وقوله تعالى «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين» (هود) .

وقوله تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء) .

(٦) (القصص) كالذى ورد فى تاريخ الأنبياء والرسل وذى القرنين وأصحاب الكهف مثل قوله تعالى «ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير» (سبأ).

وقوله تعالى «واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا، قال كذلك قال: ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا، فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا، ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا، وجعلنى مباركا أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون» (مريم).

(٧) (التشريع الاجتماعى) وهو فى الآيات التى توجب الزكاة وإخراجها لمستحقيها مثل قوله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (التوبة).

وقوله تعالى «يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وماتفعلوا من خير فان الله به عليم» (البقرة).

(٨) (التشريع السياسى) وهو فى الآيات التى توجب الطاعة لأولياء الأمور والوفاء بالعهود والمواثيق مثل قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» (النساء).

وقوله تعالى «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون» (النحل).

(٩) (التشريع الجنائى) وهو ماجاء فى الآيات المبينة للحدود والقصاص مثل قوله تعالى «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» (المائدة)

(١٠) (التشريع المدنى) وهو ماتكفلت به آيات الربا والميراث وما أومأ إليها مثل قوله تعالى «وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلايربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» (سورة الروم) وقوله تعالى «يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم» (البقرة).

وقوله تعالى «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما. ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم

يكن

يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم» (النساء) :

(١١) (التشريع الحربى) وهو فى الآيات التى تؤذن بالقتال وتشير بالسلم وتبين معاملة الأسرى وتوزيع الفىء مثل قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين ، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لايعجزون ، وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم» (الأنفال) .

(١٢) (المواعظ والإرشاد) وهى فى الآيات المشتملة على الأمثال والحكم مثل قوله تعالى «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» (إبراهيم) .

وقوله تعالى «ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله» (فاطر) .

وقوله تعالى «قل كل يعمل على شاكلته» (الإسراء) .

وقوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون» (البقرة) .

وقوله تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر) .

وقوله تعالى «لايكلف الله نفسا إلا وسعها» (البقرة) .

وقوله تعالى «واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب» (الأنفال) .

وقوله تعالى «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شىء فان الله به عليم» (آل عمران) .

وقوله تعالى «وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى» (النجم) .

وقوله تعالى «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم» (الرعد) .

٣ — أثره فى اللغة العربية

(١) كان لقريش عظيم الأثر وكبير الفضل فى توحيد لهجات اللغة العربية لأنها كانت تسكن بلاد الحجاز التى كانت محط رحال الحجاج والتجار فكان يجتمع فيها أكثر أشراف العرب والشعراء والخطباء من الرجال والنساء للمفاخرة بالشعر والخطب فى الحسب والنسب والفصاحة وغير ذلك فأخذت قريش المستعذب من لهجات العرب حتى لطفت لهجتهم وجاد أسلوبهم واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام . وكان طبعيا أن ينزل القرآن بلغة قريش لأنها خلاصة اللغة العربية ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قرشى وليكون هذا الكلام زعيم اللهجات كلها ، قد امتازت قريش بكثير من خصائص الزعامة وأقر لهم العرب بذلك فأولى لهم أن يقرءوا مثل ذلك فى كلام الله تعالى .

(٢) لو نزل القرآن بغير لغة قريش التى ألفها النبى صلى الله عليه وسلم ماكانت تستقيم الموازنة بين أساليب القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ولكان ذلك مدعاة إلى أن قبائل العرب تجد كل واحدة منها مذهبا للقول فيه فتنشق الكلمة .

(٣) ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرءوه بلحونهم مع بقائه على فصاحته فى الوضع التركيبى وتلك سياسة لغوية جمعت العرب على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة .

(٤) من أجل ذلك كان للقرآن الكريم الأثر البين فى توحيد اللغة ونشرها وترتيبها من حيث أغراضها وألفاظها وأساليبها وفوق ذلك ضمن لها حياة طيبة وعمرا طويلا .

(٥) قد جمع القرآن العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هذه اللغة فأصبح عندهم مثلا كاملا ومن شأن المثل الكامل أن يجتمع عليه طالبوه مهما فرقت بينهم الأسباب المتباينة . وقد كانوا قبل ذلك تتوهم كل قبيلة منهم أنها أسلم فطرة فى اللغة وأوضح مذهبا فى البيان لعدم وجود مقياس عام يرجعون إليه ولم يكن فى طوق إنسان أن يقيس قدرة أقوام وعجزهم فى أمر معنوى كاللغة إلا إذا كان بالغا حد الكمال ولما كان الكمال لله وحده كان كلامه جل شأنه هو المثل الكامل .

(٦) لولا القرآن الكريم لما وجد على الأرض أحد يعرف كيف كانت تنطق العرب بألسنتها . وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها فتواتر أداء القرآن الكريم حفظ لنا كيفية الأداء العربى .

(٧) إن الشعوب العربية فى مصر وسورية وبلاد المغرب وغيرها يتكلمون باللغة العربية ولكن تختلف لغة كل شعب منهم عن لغات الآخرين اختلافا قليلا أو كثيرا بنسبة البعد بينهم والاختلاف فى أحوالهم ولولا القرآن لاستقلت لغة كل شعب حتى لم يعد الشعب الآخر يفهمها كما حصل فى فروع اللغة اللاتينية (الفرنسية والأسبانية والطليانية وغيرها) ولكن محافظة المتكلمين فى اللغة العربية على لغة القرآن والرجوع إليها فيما يكتبون ويخطبون جعل فى لغاتهم المولدة مرجعا يجمع لغاتهم إلى أصل واحد .

(٤) ـ أثر القرآن فى الأحوال الاجتماعية

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفرقة وتشتت الألفة واختلفت كلمتهم واضطربت أحوالهم فكانوا إخوان دبر ووبر ، أذل الأمم دارا وأجدبهم قرارا لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها فأحوالهم مضطربة وأيديهم مختلفة وكانوا فى بلاء عظيم من جهل مطبق وبنات موءودة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة . فلما استضاءوا بنور القرآن الكريم اجتمعت أملاؤهم واتفقت أهواؤهم واعتدلت قلوبهم وترادفت أيديهم وتناصرت سيوفهم وعقد بملته طاعتهم وجمع على دعوته ألفتهم وأصبحوا ينعمون فى ظل سلطان قاهر ثابت وصاروا حكاما على العالمين وملوكا فى أطراف الأرضين قد ملكوا لأمور على من كان يملكها عليهم وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصبية الجاهلية فما عدا أن سفه أحلامهم ونكس أصنامهم وذهب بجل ما ألفوه حتى كأنما خلقهم خلقا جديدا وكأنهم على آدابه نشئوا وهم أغفال وأحداث ، بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن فى أوليتهم المتقادمة وكانوا هم الوارثين لا الموروثين مصداقا للحديث الشريف « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » .

كان من أثره فيهم أن أذهب عنهم العصبية الممقوتة وأحل محلها التعصب لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور وخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكف عن البغى والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد فى الأرض .

لهذا كله انعقدت عليه قلوبهم وهم يجهدون فى نقضها واستقاموا لدعوته وهم يبالغون فى رفضها فكانوا يفرون منه فى كل وجه ثم لاينتهون إلا إليه . ذلك بأنه قد جاءهم بما لاقبل لهم به مما يشبه أساليب الاستهواء فى علم النفس فغلب على طباعهم وحال بينهم وبين قديمهم .

ولعمرى

ولعمرى لو كان القرآن غير فصيح أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها التى ألقيت إليهم لجلا عنه موضعه الذى هو فيه وكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص ولنقضوه كلمة كلمة وآية آية دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم .

بين القرآن لهم أن الطبيعة مسخرة لهم فعليهم كشف ما فيها واستخراج أسرارها « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون — والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون — وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » (الحجر) .

نادى فيهم القرآن الكريم أن النبى صلى الله عليه وسلم ابن يومه وابن عمله وعقله . فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر وخاطبهم بالآية الكريمة التى هى روح الثبات فى أمم العلم والعمل « وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » .

قد وصل العرب قبل نزول القرآن الكريم إلى هاوية الانحلال الاجتماعى بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم فكانوا فى جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ومبادىء السياسة والحياة الاجتماعية ولم يكن لهم فن يذكر أو صناعة تنشر ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها تتحفز لشن الغارة على جارتها . فما لبثوا أن جاءهم الكتاب الكريم حتى خالطت أحكامه قلوبهم وأيقظت أرواحهم وجعلتهم يتلمسون الحق وتصبو نفوسهم إلى رفع مناره ونشره فى أطراف الأرضين .

قد بلغوا فى العبادة مبلغا بذوا به أهل الرهبنة والتنسك وصاروا أولى قوة فى دين وحزم فى لين وإيمان فى يقين وحرص فى علم . وعلم فى حلم وقصد فى غنى وخشوع فى عبادة وتجمل فى فاقة وصبر فى شدة وطلب فى حلال ونشاط فى هدى وتحرج عن طمع . ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحية العالية لم يهجروا الدنيا وشئونها بل عملوا لها بصدق وإخلاص فأبدلهم الله العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكا حكاما وأئمة أعلاما .

وإن تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب فى أقل من مائة سنة . وفى هذا برهان قاطع على أن أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الانسانية وإعدادها لكسب الجانبين الدنيوية والروحية فقد جعل الأمة العربية تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها وتسلم له فى تاريخها وعاداتها . إن نظرة بإمعان فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات تدل على أنه ليس هناك فى الانسان من نقص إلا والقرآن كفيل بإصلاحه فهو طبيب الانسانية وليس أحذق الأطباء من يدعى هذه الصفة لنفسه فحسب بل من يستطيع مداواة أعظم الأدواء فى أكثر الحالات وكذلك فعل القرآن فقد بلغ من أثره فى العرب أنه حوّل طبائعهم وغير أخلاقهم فلم يشهد التاريخ جيلا اجتماعيا مثل الجيل الأول فى صدر الاسلام حين كان القرآن هو المنار الذى يهتدى به ولم تستطع الفلسفة على اختلاف ضروبها فى أى عصر من العصور أن تنشىء جيلا من الناس كالذى أخرجه القرآن الكريم فكانوا مثلا حسنا فى علو النفس وصفاء الطبع ورقة الجانب ورجاحة اليقين وطهارة الخلق وشدة الأمانة وإقامة العدل والخضوع للحق وما ماثل إلى ذلك من أمهات الفضائل .

﴿ محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مصلح ظهر ﴾

أما وقد بان أن الكتاب الكريم أحدث أوفر قسط من الاصلاح في أقصر زمن عرفه التاريخ فلا بدع أن كان الذي نزل عليه ذلك الكتاب أعظم مصلح . وإليك البيان :

(١) اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى كل أمة آنا بعد آن هاديا يرشدهم ويصلح حالهم فيدوم النور الذي جاء به زمنا ثم يخبو قليلا قليلا حتى إذا كاد ينطفىء أنقذ الله هذه الأمة برسول بعده يجدد لها الهداية .

وقد توالت الدهور والأحقاب والأمم منفصلة بعضها عن بعض زاعمة كل واحدة أن العالم كله تبعا وأنها أفضل من سواها لأن الله خصها بالرسالة والهداية ، فنجم عن ذلك القول بأن الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا حابى بعض الأمم وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها .

من أجل ذلك أرادت الحكمة الإلهية أن تقضى على ماخالج نفوس بعض الأمم من أنها أفضل من غيرها جنسا وخلالا ودينا وأن تجعل من الإنسان جسما واحدا فمن الله على الخلق جميعهم برسول عام معه رسالة عامة وهكذا كانت رسالته عامة لا يخصصها زمان ولا مكان «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم مثل المصابيح كل منها وضع في حجرة لا يضيء سواها . فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية لم يبق هناك من حاجة إلى هذه المصابيح المحدودة الذي وليس في مقدور أي نور آخر أن يخلف هذه الشمس .

بعث كل رسول ممن تقدموا المصطفى صلى الله عليه وسلم لتهذيب أفراد أمته وجعلهم صالحين لتكوين أمة متجانسة . ولعمرى هذا عمل جليل . غير أن محمدا وهو خير المرسلين أرسل ليجمع هذه الأمم ويجعلها أمة واحدة متكافئة مرتبطة برابطة الإخاء . جاء كل رسول لتقويم خلق معين في أمته فكانت حياته أسوة للخلق الذي أرسل لتقويمه . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لتنمية الفطرة الانسانية جميعها واستخدام ملكاتها وتقويم غرائزها وكانت حياته العملية صلى الله عليه وسلم ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بتقويم أخلاق بني الانسان جميعا ولذلك كان مثلا كاملا للانسانية اجتمعت فيه الفضائل التي كانت في أنبياء بني إسرائيل وغيرهم . تجمعت فيه شجاعة موسى وشفقة هارون وصبر أيوب وإقدام داود وعظمة سليمان وبساطة يحيي ورحمة عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام .

(٢) إن كانت العظمة تتحقق باصلاح أمة قد وصلت إلى غاية الانحلال الاجتماعي فليس هناك من يبارى محمدا في أنه أنقذ الأمة العربية من هاوية الدمار وجعلها مصابيح الحضارة والعرفان . وإن كانت العظمة تتحقق بجمع شمل أمة قد تأصلت فيها الفرقة وتمكنت منها العداوة والبغضاء فمن يجارى محمدا في أنه جمعهم تحت ظل الاسلام إخوانا متساندين «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

كان مثل العرب في تفرقهم كمثل رمال بلادهم فلاءم الاسلام بينها وجعلها من القوة بحيث لاتؤثر فيها الزلازل العنيفة . إن كانت العظمة تتحقق باقامة ملك الله في الأرض فمن يطمح إلى منافسة محمد صلى الله عليه وسلم في أنه نكس الأصنام وأبطل عبادة الأوثان وطهر الجزيرة العربية من الشرك وملأ القلوب بالتوحيد والنور .

إن

إن كانت العظمة تتحقق بمحسن الأخلاق فمن ذا الذى ينكر على محمد أن أعداءه وأصدقاءه أجمعوا على تسميته بالأمين.

إن كانت العظمة تتحقق بالفتح وبسط الملك فالتاريخ أصدق شاهد على أن أحدا غيره لم يبلغ مبلغه، فقد نشأ يتيما لاقوة له ثم صار فاتحا عظيما أسس أعظم دولة لبثت ترد مكايد الأعداء أكثر من ثلاثة عشر قرنا.

إن كانت العظمة تتحقق بما لصاحبها من روعة الاسم وانتشار الصيت فمن يجارى محمدا فى ارتفاع اسمه الذى تحبه قلوب أربعمائة مليون من الناس منتشرين فى أطراف الأرضين مرتبطين برابطة الإخاء مع اختلاف قوميتهم وألوانهم وألسنتهم.

﴿ أثر القرآن الكريم فى الأحوال الخلقية ﴾

لما كان المنزل هو المربى الأول الذى يتعلم فيه الانسان الآداب الخلقية وبأنفها أوجب القرآن الكريم طاعة الوالدين « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا» ولم يرخص فى عصيانهما إلا إذا أراد أن يحملاه على الاشراك بالله «وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا».

هذا الاحترام العظيم للوالدين هو الأساس الذى بنيت عليه فضيلة الطاعة لأولياء الأمور «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وليس المراد بأولى الأمر الحكام فقط بل يشمل كل من أعطى سلطانا ونفوذا. يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته»

ومن هذا يتبين أن دين الاسلام يطالب الناس جميعهم بالطاعة لمن فوقهم ليجتث بذلك أصول الفوضى والمخالفة ويثبت دعائم الطاعة. بنى القرآن الكريم الأخلاق على فضيلة واحدة هى التقوى ، وقد دل تصفح الآيات الكريمة التى وردت فيها هذه الكلمة وما اتصل بها من المشتقات على أن المراد منها أن يتقى الانسان كل ما كان فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره لتكون حدود المساواة قائمة فى المجتمع الإنسانى لاتحصل فيها ثلمة ولا يطرأ عليها وهن «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ، وقد جاء فى الحديث « لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » والآية صريحة فى أن الغاية الاجتماعية للناس شعوبا وقبائل هى التعارف وتلك كلة لاتشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ولا يمكن أن تدخل فى مدلولها رذيلة اجتماعية. وفى هذه الآية الكريمة أقام القرآن الأساس الخلقى المعظم فجعل أكرم الناس المتساوين فى الحالين الفردية والاجتماعية هو أتقاهم أى أعظمهم خلقا لاأوفرهم مالا ولا أكثرهم رجالا ولا أنقبهم فكرا ولا أعظمهم علما ولا شيئا من ذلك ، لايصح أن يكون سببا للتفاضل إلا فى إدبار الدول واضطراب الاجتماع وفساد العمران ، فالحقيقة أن التقوى هى الخلق الكامل ، ومن أجل ذلك كان العدل فى رأى القرآن أقرب شىء إلى التقوى ، إذ يقول الله جل شأنه «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» وقد رد القرآن مظاهر التقوى إلى (ثلاثة أشياء) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . وهذه الأشياء الثلاثة هى المبدأ والنهاية لكل قوانين الأدب والاجتماع ، قال تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» والمعروف كل مايعرفه العقل الصحيح حتما. ولا يتأتى الأمر بالمعروف إلا إذا توافر استقلال الادارة (كذا) وقوتها ، والمنكر هو ماينكره العقل الصحيح ، ولايمكن النهى عن المنكر إلا باستقلال الرأى وحريته، والإيمان بالله هو الاعتقاد بوجوده ووحدانيته ولايتم ذلك إلا إذا استقلت النفس من أسر العادات والأوهام بالنظر والفكر فى مصنوعات

الله ، وهذا هو الايمان الذى يحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بثقة إلهية لايعترضها شىء من عوارض الاجتماع التى تعترى الناس من ضعف الطباع الانسانية كالجبن والنفاق وإيثار العاجل وما إليها ، فان هذه الصفات لاتتحقق مع صحة الإيمان بل هى أنواع من العبادة للقوى وللستبد وللشهوات والنزعات وماشابهها وذلك لايتفق والايمان الصحيح بالله . ماتدبر أحد القرآن إلا وجده يمنح كل إنسان إرادة اجتماعية أساسها الحرية « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وماأنا عليكم بوكيل » ولذلك لما اتخذه الجيل الأول فى صدر الإسلام مثالا لهم واتخذوا آدابه الخلقية شعارا لهم حقق لهم هذه الإرادة الاجتماعية . ولوأن العلوم كلها والفلسفة وأهلها كانت لأولئك العرب مكان القرآن ما أغنت عنه شيئا لأن الفضيلة العقلية التى أساسها العلم لاتوصل حتما إلى الارادة العملية .

أما الفضيلة الخلقية التى جاء بها القرآن فانها تسوق إلى الارادة العملية لأن هذه الارادة مظهرها ولاسبيل لظهورها غير العمل . ومتى صحت إرادة الفرد واستقامت له وجهته فى الجماعة فقد صار بنفسه جزءا من عمل الأمة والأمة التى تتألف من مثل هذا الفرد تشغل مكانة سامية فى تاريخ الاجتماع .

والمتأمل فى القرآن الكريم يرى أن جميع آدابه وعظاته ترمى إلى بث الروح الاجتماعية فى نفوس أهله ، فكانت هذه الروح هى السبب الأول فى انتشاره حتى بين أعدائه الذين أرادوا استئصاله كالتتار والمغول وغيرهم ممن اشتدوا عليه ليخذلوه فكانوا بعد ذلك من أشد أهله فى نصرته والتعصب له . ليس للقرآن طرائف الدعوة إليه إلا الأسوة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » فالأسوة أو القدوة مظهر آدابه ولذلك كان كلما وجدت طائفة من أهله وجدت الدعوة إليه وإن لم ينتحلوها ويعملوا لها ، وماستحث أحدا بالعطايا لأنه الدين الطبعى للانسان تأخذ فيه النفس عن النفس بلا وساطة ولا حيلة فى الوساطة . وما أفصح ماورد فى صفة القرآن من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « فيه نبأ ماقبلكم وخبرمابعدكم وحكم مابينكم وهو الفصل ليس بالهزل » .

﴿ أثره فى الحال العلمية ﴾

من يدرس تاريخ العلم الحديث لايسعه إلا أن يستنبط أن القرآن الكريم كان أصل النهضة الإسلامية وأن النهضة الاسلامية هى التى لها الفضل فى حفظ علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها ، وهى التى أوسعت المجال للعقل يبحث ويناظر ويستدل . وبذلك كانت هذه النهضة أساس التاريخ العلمى فى أوروبا . انفرد القرآن بأنه هو الذى حرر العقول البشرية من أصفاد الجمود والرق وحفز النفوس البشرية وساقها إلى قراءة صحف الكائنات وتدبر مافيها من الصنع البديع . القرآن هو الذى ساق النفوس إلى تقصى غوامض الكائنات والتنقيب عن دفائنها وبين لهم أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ثم دلهم على مواطن التفكير والبحث وبين للناس بضرب الأمثال لعلهم يفكرون فقال جل شأنه « ومن كل شىء خلقنا زوجين — سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون — وجعلنا من الماء كل شىء حى — الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن — كل فى فلك يسبحون — ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق — تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا — ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر — ويوم تشقق السماء بالغمام — ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا — والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

القرآن هو الذى أعد العقول لفهم الفلسفة الإغريقية ودراسة العلوم الكونية فتصافى العلم والقرآن بضعة قرون لم يقع بينهما نفور ولامشادة ، فقد كرم العلم ونوه بالعقل وذم الذين يعطلون عقولهم ويتبعون أهواءهم

إذ يقول فى شأنهم « لهم قلوب لايفقهون بهـا ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون- إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون- ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون - ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا- قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون - نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد - إن عليك إلا البلاغ - قدبينا الآيات لقوم يعقلون - لاإكراه فى الدين - إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»

القرآن هو الباب الذى خرج منه العقل الانسانى الكامل بعد أن كان طفلا فقدهداه إلى النظر والاعتبار والاستنباط إذ يقول « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار- وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون - واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون - أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون - ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم».

كانت هذه الآيات وأشباهها سببا فى إطلاق الحرية العلمية للعقول البشرية فلما اقتبست منها أوروبانهضت وأصبحت تسوس العالم وترشده إلى مافيه صلاحه . القرآن هو الذى أوجد العدد الجم من أعاظم المؤلفين فى العلوم الشرعية والرياضية والطبيعية والفلكية وغيرها . ذلك بأن العلماء لما نظروا فيه تشعبت طرق تفكيرهم، فمنهم قوم عنوا بضبط لهجاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وهؤلاء هم علماء القراءة وقوم عنوا بالمعرب والمبنى وما إلى ذلك وهؤلاء هم علماء النحو . وقوم شغفوا بما فيه من الأدلة العقلية وهؤلاء هم علماء الكلام . وتأملت طائفة منهم معانى خطابه فرأت منها مايقتضى العموم ومنها مايقتضى الخصوص ومنها ماهو مطلق ومنها ماهو مقيد ومنها ماهو مجمل إلى غيرذلك وهؤلاء هم علماء الأصول. ولمست طائفة مافيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية وهؤلاء هم أهل التاريخ والقصص . وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ وهؤلاء هم الخطباء والوعاظ . وأخذ قوم علم الفرائض وحسابه من آيات المواريث . ونظر قوم إلى مافيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهؤلاء هم علماء الميقات .

من هـذا يتبين أن القرآن الذى نزل فى البادية على أمى وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم وكانت فنون القول التى يذهبون فيها مذاهبهم لاتتجاوز ضروبا من الصفات وأنواعا من الحكم مكن العلماء من أن يخرجوا من كل معنى علما برأسه ، وعلى ممر السنين أخرجوا من كل علم فرعا حتى وصلت العلوم إلى ما وصلت إليه فى الحضارة الاسلامية التى أنجبت الحضارة الحديثة .

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

لايزال الباحثون فى القرآن الكريم يستخرجون منه مايشير إلى مستحدثات الاختراع ومايحقق بعض غوامض العلوم . فمن ذلك قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» مما يؤيد ماحققه العلماء من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسى وقوله تعالى « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » مما يدل كما أثبته العلماء على أنه لولا الجبال لمادت الأرض ببحارها واضطربت بأمواجها ولما طاب للانسان بها مستقر .

وقوله تعالى «وجعل الشمس سراجا ـ وجعلنا سراجا وهاجا» مما يؤيد ماحققه العلم من أن الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلها إلى سياراتها المرتبطة بها .

وقوله تعالى « يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » مما يشير إلى حدوث الطيران وأنه سيكون منه نصيب للانسان .

وقصارى القول أن العقل هو القائم على فهم القرآن واستنباط مافيه من الأسرار على اختلاف الأحقاب والدهور لأن الذى جاء بهذا القرآن كان آخر الأنبياء من الناس ولا حاجة بالكمال الانسانى لغير العقول ينبه بعضها بعضا . ولذلك يقول الله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » فلو محصت جميع العلوم الانسانية ماخرجت فى معانيها عن قوله تعالى « فى الآفاق وفى أنفسهم » . وكلما تقدم النظر وتوفرت طرائق البحث ظهرت حقائق الكائنات ناصعة وتجلت الاشارات التى انبثت فى ثنيات القرآن « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » اهـ .

هذه هى الخطبة التى تضمنها قوله تعالى «لقد أنزلنا آيات مبينات» فهذا هو التبيين القرآنى الذى به أقر (٧٠٠) عالم من أوروبا فى هذه السنة أن القرآن سبب نهضة أوروبا وأنه صلى الله عليه وسلم أعظم العالم . انتهى الموضوع الأول .

(الموضوع الثانى) هو مانشرته [المجلة الأسيوية الفرنسية] من إعظام هذا الدين وإقرار هؤلاء العلماء بأنه دين الفطرة بمناسبة تقريظ كتابى [نظام العالم والأمم] وأنا اخترت أن أثبته هنا قبولا لنعمة الله وقياما ببعض الشكر له سبحانه على نعمة العلم ونعمة الحكمة والتأييد المعظم . ذلك أن هذا التقريظ الذى سأ كتبه هنا إنما كتب سنة ١٩٠٨ أى منذ عشرين سنة وفى ذلك الزمن لم يكن لى تفسير للقرآن وإنما هو كتاب [نظام العالم والأمم] وهو عبارة عن ملخص للعلوم العصرية ممزوج ببعض الآيات القرآنية فلقى من هؤلاء العلماء الآتية أسماؤهم إعظاما وإجلالا للقرآن وتقريظا للكتاب . أفلا أحمد الله عزوجل إذ عشت حتى وفقنى هو لهذا التفسير فلأثبت مقالتهم هنا تفسيرا لقوله تعالى «لقد أنزلنا آيات مبينات» فهذا التبيين فى خطبة صديقى (جاد المولى بك) وإجماع علماء أوروبا الرسميين على عظمة التبيين فى القرآن والتبيين الذى جاء فى كتابى [نظام العالم والأمم] كلاهما مصداق لقوله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وهاك نص هذه المقالة .

﴿ تقريظ كتاب نظام العالم والأمم ﴾
(الجمعية الأسيوية الفرنسوية والشيخ طنطاوى جوهرى والاسلام)

دهشت الجمعية الأسيوية الفرنسوية من ظهور الحقائق فى كتاب [نظام العالم والأمم] فلذلك نشرت الجمعية المذكورة التى تدار بجمع من فحول الدكاترة العظام والفلاسفة الكبار من بينهم حضرات الآتى أسماؤهم :

(١) للسيو بار بيه منار (٢) ا. بارت (٣) ر. باسى (٤) شاقاية (٥) كليرمون جانو (٦) هالق (٧) هيارت (٨) ماسبيرو (٩) ريبنس ريفا (١٠) سينار بمجلتها التى صدرت فى شهرى يناير وفبراير سنة ١٩٠٨ نمرة (١) مقالة ضافية الذيول تحت العنوان الآتى :

﴿ الشيخ طنطاوى جوهرى أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ونظام العالم والأمم ﴾
(أو الحكمة الاسلامية العليا (المجلد الأول) وعدد صفحاته ٤٣١
نشر فى القاهرة سنة ١٩٠٥ م)

إن كتاب [نظام العالم والأمم] الذى ظهر المجلد الأول منه هو أحد كتب عديدة ألفت للنشأة الحديثة الاسلامية وهذه الكتب بناها المؤلف على [نظريتين اثنتين : أولاهما] أن الدين الإسلامى دين الفطرة أى ملائم للعقول الانسانية وموافق للطباع البشرية [ثانيتهما] أن هذا الدين على مقتضى ما قرره المؤلف يسوق إلى استكناه جميع النواميس العلية وسائر القوانين الطبيعية الشاملة لهذا الكون كله الناظمة لعقده .

ولقد وضع المؤلف قبل هذا الجزء ملخص الكتاب كله فى مؤلف صغير سماه (الزهرة) وأبان فيه أغراض الكتاب بجزأيه وهى (تسعة مباحث) شرحها شرحا وجيزا فى زهرته التى هى خلاصة الكتاب حتى تشمل الفائدة من لم يتسع له الزمن لدراسة الكتاب ونبتدئ الآن بإيراد مافى الكتاب من المباحث باختصار فنقول إن مباحثه [تسعة : الأول] أن الانسان مسوق بغريزته للعلوم عاشق للحكمة وكيف أن هذا الميل العجيب أوحى إليه معرفة الأعداد المنطوية فى نفسه وقاده إلى استنتاج مضاعفات الأعداد وترتيبها من الواحد وإيصالها إلى أبعد غاية بل إلى مالايتناهى مع ما اندرج فيها من عجائب الجبر والأعداد المتوالية ثم طبق ذلك على حساب الخطوط والسطوح والأجسام وانتهى به إلى الفلك لحسب الأجرام السماوية بهذا الحساب ثم طبقها على النواميس الطبيعية وانتهى منه إلى الله عز وجل مبدع الخلائق كلها والنفس المتضمنة ذلك كله [الثانى] بحث واسع فى علم الفلك الحقيق والهيئة : [الثالث] درس علم الطبيعة مع إيضاح قوانين (نيوتن) و (كيلر) . [الرابع] مبحث واسع فى علم النبات وأعجب الخواص الغريبة لحياة النباتات . [الخامس] مبحث مسهب فى الحيوان وسلسلة ارتقائه مقارنا بين مذهب اليونان والعرب وبين مذهب (داروين) من علماء الافرنج فى ذلك وشرح فيه مسألة ترتيب الحيوان شرحا وافيا جدا حتى إنه لم يأل جهدا فى إيضاح مايسميه (داروين) بقاء الأصلح والأوفق للوجود والارتقاء الذى تسميه العرب دائرة الوجود وترتيب المواليد وارتقاء بعضها عن بعض بنسبة عجيبة وقد ذكر المؤلف أن مذهب (داروين) كان معروفا قديما عند علماء العرب واليونان وأنه كان يسمى دائرة الوجود وأنهم كانوا يقولون العالم مرتب هكذا (المادة الأثيرية . العناصر . المعدن . النبات . الحيوان . الانسان . الملك) والله فوق الدائرة . وكانوا يربطون الانسان بالحيوان فى القرد والفيل والبلبل والحصان ولكنه ليس بالاشتقاق الذى يذهب إليه (داروين) ويقول المؤلف إن مذهب (داروين) محصور فى الإنسان والحيوان فقط فهو لذلك قوس من الدائرة التى شرحها العرب وأن (داروين) ربط مابين الانسان والحيوان بالقرد وحده فاستنتج من ذلك قصور (داروين) عن العرب من [وجهين : الأول] ضعف الرابطة . [الثانى] قصور البحث على قوس من الدائرة . [السادس] علم التشريح أى تشريح الجسم الانسانى . [السابع] علم النفس وفيه شرح فوائدها وملكاتها وتأثيرها فى العالم فى جميع الأزمان . [الثامن] الوحدة العامة فى العالم وهى ظاهرة فى هيئة الأمة ونظام الكون بمعنى أن هيكل الأمة منطبق تمام الانطباق على هيئة نظام هذا الكون المتقن . وقد أثبت ذلك بإيراد آيات قرآنية وآراء قدماء الفلاسفة كفيثاغورس والعلامة الفيلسوف الفارابى. [التاسع] فى العمران الاسلامى والسعادة والحرية وجدول للعلوم والفنون التى يراها المؤلف موافقة لأن تعرض على بساط البحث والتمحيص لتنتشر فى هذا العصر الحاضر بين المسلمين وواجبات للمسلمين الذين يخصصون أنفسهم لهذا التعلم . وأهم هذه الواجبات هو الرجوع دائما إلى القرآن والسنة . وقد ختم هذا المبحث بالغاية

العظمى التى تنشأ عن السياحات شرقا وغربا طلبا لدراسة أحوال الأمم شرقية وغربية . وقد أنشأ المؤلف نظرية فى التوحيد أى (الوحدة العامة) عجيبة بفطنة وحكمة وذكاء عجيب ومهارة فائقة ودراية تامة منطبقة تمام الانطباق على مبادىء القرآن وملائمة كل الملائمة لما شرحه العرب من دائرة الوجود والنظريات الأفرنجية والدورة الفلكية وسلسلة المواليد الثلاثة فى الطبيعة وهى نظرية الترقى من البسيط إلى المركب ومن الجزء إلى الكل التى بنى عليها المؤلف طريقة الوحدة العامة . وكما أن الواحد نشأ عنه جميع الأعداد التى لا تتناهى فهكذا نشأت الأنواع التى لا تنتهى من فعل الله عز وجل (صفحة نمرة ٩٠ وما يليها) ولا جرم أن هذه منطبقة تمام الانطباق على دوران الأفلاك ومذاهب العرب والافرنج فى سلسلة الموجودات الطبيعية والمواليد الثلاثة . وللمؤلف عناية كبرى برد كل اعتراض يمكن وروده عليه فهو بهذا دائم الاحتراس .

ولقد أنحى المؤلف على جملة من العلماء المسلمين لا المحققين (صفحة نمرة ١٨) ورماهم بجهل مقصود القرآن وخرواه لقصورهم واقتصارهم على علم الفقه الإسلامى إذ ظنوا أنه وحده ينجى فى الحياة الدنيا والآخرة وذكرهم بأنهم فاتهم أن المسيحيين بنبوغهم فى العلوم العقلية والنواميس الطبيعية والحكمة والأدب قد سبقوا المسلمين شوطا بعيدا مع أن ماصرفوا فيه عنايتهم وأفرغوا فيه جهدهم هو مقصود القرآن والغرض الحقيق منه . إن القارىء لهذا الكتاب يصادف عجبا عجابا فيه وأمرا مدهشا غريبا . يرى أن المؤلف يقارن مابين معجزة خليل الله إبراهيم المذكور فى القرآن وهى آية الطير وإبراهيم « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » (السورة الثانية آية ٢٦٢) .

يقارن المؤلف بين هذه القصة وبين التحليل والتركيب الكيماويين للماء (صفحة نمرة ١٢٤) ذلك أن خليل الله إبراهيم طلب من الله دليلا ليطمئن قلبه ويصدق بطريق الحس والمشاهدة بمسألة البعث فأمره الله بذبح طيور معلومة فذبحها ثم قطعها ثم أمر بندائها فجيئت بإذن الله فكان ذلك اطمئنانا لابراهيم عليه السلام فمن مهارة المؤلف المدهشة مقارنته لهذا بالتركيب والتحليل الكيماويين . وحقيقة أنه لافرق بينهما وبذلك صار علم الكيمياء من دلائل اليقين فى التوحيد الاسلامى فصار طلبه من أهم علوم التوحيد والقرآن يأمر به .

وبالجملة فان المؤلف بتفسيره العجيب الدال على حكمة عالية وعلم غزير واقتدار تام لآيات القرآن يثبت اتحادا تاما بين الاكتشافات المتجددة العصرية ومعانى القرآن ويستدل على ذلك بآيات من الكتاب المقدس (القرآن) .

صرح المؤلف فى (صفحة نمرة ٦١) بأن من عرف تفسير القرآن والعلوم العصرية ولم يبين للناس اتحادهما ويفهمهم تلك الحقيقة فذلك آثم أشد الإثم لشدة حاجة المسلمين لذلك . وأكد فى (صفحة ١٢٤) أن المسلمين الذين يظنون تنافى القرآن والنواميس العلمية هم أجهل الناس بالأمرين وأبعدهم عن كلا الحقيقتين ثم تمنى المؤلف أن تغرس بذور الفضائل الاسلامية فى عقول المسلمين بعناية تامة حتى يجتنب الشبان المسلمون ما أورثته المدنية الغربية لابنائها والمفاسد الناشئة من إطلاق العنان للنفس وترك حبلها على غاربها بلا لجام يكبحها ولا زاجر يردعها .

وقد شبه المؤلف مجموع الأمة بآلة ميكانيكية لن تظهر نتائجها ويدوم عملها إلا بصلاح كل جزء منها أولا وحسن تركيبها وانتظامها ثانيا . فكما أن الآلة لاتدوم إلا بقوة كل جزء منها وبحسن تنظيمها وتركيبها فهكذا الأمة لادوام لها إلا بإصلاح أفرادها أولا وبالنظام الشامل والدستور المنظم لأجزائها المبنى على العلم وبالحكومة العادلة ثانيا . هذا مقصود كثير من تعاليم الكتاب .

نحن

نحن لا يسعنا إلا الاعتراف للشيخ طنطاوى جوهرى بسعة المدارك والاطلاع الواسع للقرون بعقل رزين وحكمة وذكاء ، فانظر كيف أتى بالفلسفة العالية والنواميس الطبيعية وفنون الآداب العربية الواسعة وأبرزها بمهارة وعبارة عالية ثمينة وبلاغة باهرة تترقرق حسنا وتتيه عجبا تكاد تسيل سلاسة ورقة كالماء الزلال سهولة وانسجاما مملوءة حياة وحكمة . وليس إجلالنا لهذا الأستاذ لما تقدم فقط بل لأنه أيضاً ترجم آراء مؤلفى الانكليز مثل (أنبرى) و (سبنسر) و (دازوين) وبحث فى الفلسفة الاغريقية واللاتينية وجمع زبدة آراء جميع العصور المختلفة وحصرها فى كتاب صغير بعبارة جميلة دقيقة كما وصفناها واتبع الفائدة أينما وجدها .

الشيخ طنطاوى جوهرى رجل فيلسوف حكيم بمقدار ما هو عالم بالدين وبهاتين الصفتين قد فسر القرآن الذى أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة لطباع البشرية وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية أيما موافقة ، بخلاف فريق من العلماء الغابرين الذين وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ جمودا معيبا أدى إلى انحطاط المدارك الإسلامية فى الأعصر المتأخرة فانحطت بذلك الأمم الاسلامية . فبهذه المباحث يخاطب المؤلف الأمم الإسلامية عموما وعشاق البحث من كل أمة ويحاول إزالة الغشاوة عن أعين الأمم الاسلامية وتحرير عقولهم من الجمود المخيم عليها فى جميع الأقطار وسائر الممالك على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم حتى إنه لا يخص مذهبا دون مذهب ولا مملكة دون مملكة بل إنه فوق ذلك يخاطب كل عاقل يريد الحياة والاطلاع على الحقائق من أى دين وأى نحلة ببلاد الشرق لأن بحثه عام فى الكائنات ونداءه عام حتى يلتحق الشرق الأدنى بالأمم الغربية فى المعارف والعلوم والمدنية والحضارة ، انتهى .

وبعد أن انتهت المجلة من تقريظها كتاب [نظام العالم والأمم] كتبت كلمة عن كتاب [التاج المرصع] ترجمنا منها ما يأتى :

هذا المؤلف أهدى إلى (الميكادو) ليقدم إلى مؤتمر الأديان الذى انعقد فى سنة ١٩٠٦م باليابان .
إن إحالة المؤلف بالإشارة ولسان الحال القارئ على كتاب [نظام العالم والأمم] فى كثير من مباحث الكتاب يدلنا على أن الكتابين يرميان لغرض واحد وأن الكتاب [التاج المرصع] كتتمة [لنظام العالم والأمم] .

وقد وعد حضرة محمود سالم بك المؤلف أن يترجمه إلى اللغات الأوروبية فى حين أن شابا قازانيا ترجمه فعلا إلى اللغة التركية ونشره فى فارس والروسيا وختم مقدمته بنشر صورة الجواب الذى أرسله إلى (الميكادو) وذكر موضوعه وسبب وضعه . إن القارئ لهذا الكتاب يستنتج أن من اطلع على الحقائق العلمية ودرس غوامض الفلسفة وخلا من الغرض والتعصب فانه يجدها منطبقة تمام الانطباق على الدين الإسلامى . انتهى التقريظ . وقد ترجم من الفرنسية بقلم محمد أفندى عبد العزيز والمرحوم صالح بك حمدى حماد .

﴿ أنواع تبيين القرآن فى الارشاد خاصة ﴾

اعلم أن ما تقدم من الخطبة التى ألقيت فى جماعة المستشرقين وما ذكرته الجمعية الأسيوية الفرنسية إنما ذلك فى التبيين العام ، أما التبيين فى الإرشاد خاصة فانه على [ثلاثة أقسام] تبيين هو موعظة وتبيين هو مجادلة وتبيين هو حكمة كما قال تعالى فى (سورة النحل) « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فهل تحب أيها الذكى أن أحدثك عن هذه الثلاثة . نعم أحدثك لأن الله اختصر الكلام فى القرآن وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد « أوتيت جوامع الكلم واختصر

فى الكلام اختصارا » فاذا أطلت الحديث فهو جميل وبيان قال تعالى « وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . أما الموعظة الحسنة فمثل « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة » الخ ومثل آية الكرسى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » الخ إذ ملخصها بيان عظمة الله من حيث قدرته ومن حيث علمه فعظمته من حيث قدرته فى قوله « له ما فى السموات وما فى الأرض » الخ . وعظمته من حيث علمه فى قوله تعالى « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » الخ وهذه تكفى للعموم . وأما المجادلة بالتى هى أحسن فمثل قوله بعدها « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » فان ملخصها محاجة إبراهيم عليه السلام للنمروذ ببابل . ولما كان الجدال يجب أن يكون فى موضوع يقربه الخصم إذا سمعه والقوم كانوا صابئين يعبدون الكواكب ذكر له إبراهيم عليه السلام سير الشمس فأعجزه إذ قال له إذا قتلت رجلا مجرما وعفوت عن آخر واعتبرت أن هذين إماتة وإحياء فماذا تفعل بالشمس ؟ إذ أتى الله بها من المشرق فلتأت بها أنت من المغرب . فهناك بهت الذى كفر وهذه المجادلة والمجادلة ترجع لالزام الخصم . وقد قال العلماء إنها لا تكون إلا مع المعاندين وهم ليسوا فى الدرجة العليا من التفكير ولم يبقوا مع العامة يؤمنون بالتقليد . أما أهل الحكمة فالحجة تقام لهم فاعجب كيف ذكر الله ذلك فى (سورة الأنعام) فقال « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » فذكر الكواكب والقمر والشمس وانتهى بقوله « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » وإنما وجهه له لأنه وجد الكوكب آفلا والقمر آفلا والشمس آفلة فقال « أنا لا أحب الآفلين » لأن الآفلين متنقلون والمتنقل حادث فكيف أحب من يغيب عنى والله لا يصح أن يغيب عنى لأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا وذلك لأن المادة كلها عبارة عن عناصر ترجع إلى ذرات كهربائية والكهرباء والنور حركات فى الأثير والحركات أعراض فلولا أن هناك ممسكا لها يدبرها ويثبتها لم يكن لنا وجود « كل شىء هالك إلا وجهه » فكيف أحب ما حركته وانتقاله دالان على أن وراءه من له الحكمة والجمال والعلم والقدرة والتصرف ، والحب إنما يتوجه إلى القوة والجمال والعلم ، وأى قدرة أعظم وعلم أحكم وجمال أبهى وغنى أوسع مع الدوام فى ذلك كله إلا فى الله . لذلك وجهت وجهى إليه ولذلك قال تعالى « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » فهذه الحجة المذكورة فى الأنعام هى المعبر عنها بالحكمة فى (سورة النحل) ولم يقل الله فى محاجة النمروذ ذلك فلا ذكر أنها حجة ولا قال بعدها « نرفع درجات من نشاء » بل قال « فبهت الذى كفر » وهذه من أعجب وأبدع ما جاء فى القرآن من اللطائف وإنما لم أكتبها فى (سورة البقرة) أو فى (سورة الأنعام) لأن الله لم يفتح على بها إلا الآن فى هذه الآية مع أنها بالبقرة والأنعام أولى وأحق والله هو الهادى القائل فى هذه السورة « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فلنشكر على هدايته ونكتب ما فتح الله به ، والحمد لله رب العالمين .

ومن الحكمة التى لا تعرف إلا بعد البحث والاستقصاء والتى لم تظهر ثمرتها إلا فى زماننا إظهارا لمعجزات القرآن الحكيم وقد كانت مجملة غير مفصلة فى الأزمان الغابرة ما جاء فى (سورة البقرة) أيضا بعد آية الكرسى ببضع آيات ، إذ يقول الله فى ثنايا الكلام على الإنفاق والتحريض عليه « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » فاعجب للقرآن الذى يبين للناس أمورا دقيقة مثل هذه المسألة ألم تر أن زماننا ظهر فيه هذا بأجلى بيان . اقرأ كتابى [أين الانسان] الذى أرسلته لمؤتمر الأجناس . ألم تر أن البرهان قام على أن سعادة الناس كلهم بأن تكون العقول كلها قد وصلت إلى أقصى ما يصل اليه الإمكان

وبأن الأرض كلها تستخرج منافعها وأن المجموع الانسانى يكون كله متعاونا وأن التقصير فى هذا ضار بالمجموع . إذن إنفاق المال للفقراء الوارد فى شريعتنا الغراء جزء من المساعدة العامة للانسانية ، فالشرق والغرب بظهور آثار عقولهم وآثار منافع أرضهم يصبحون فى سعادة لم يحلم بها الأولون ، وهناك يظهر سر قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وسر أنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وأى رحمة أعظم من أن تنزل آيات محرضات على بذل المال للمنافع العامة ثم يدخل فى غضون تلك الآيات ما يفيد أن الحكمة هى الخير الكثير وأن هذه الحكمة لا يتذكرها إلا أولو الألباب . فالحكمة أجل شىء يبتغى ، ولماذا يذكرها الله عند التحريض على الانفاق ولم يذكرها فى موضع آخر من القرآن مع أن الصلاة أفضل من الزكاة وقد قال فى الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » ولم يذكر الحكمة بعدها كما صنع فى آية الانفاق ولم يقل إن الحكمة خير كثير ولم يمدح أولى الألباب بعدها . فلعمرك ماذاك إلا لما اندمج فى مسألة الانفاق من المساعدة العامة ، والشيطان من عادته أن يفهم الانسان أن المدار على سعادته وحده وعلى منفعته الخاصة ، والله يحب منا منفعة العموم ومنفعة العموم ترجع لإسعادنا أيضا . فالنفع العام أدخل فى إصلاح الأفراد من اقتصار الأفراد على النفع الخاص . وملخص هذا أن الناس [قسمان] قسم لا يحب إلا نفسه فيسعى لها وهو لا يبالى بالمجموع ، وقسم يسعى للمجموع مع محافظته على نفسه . فالأول خال من الحكمة والثانى متصف بها ، والأول تعاليمه شيطانية والثانى تعاليمه حكمية ، والإسلام جاء للحكمة العامة لا للخاصة وقد نشر فى الشرق والغرب فى مدة قليلة ولكن لما اعتنق الاسلام أمم لا تعرف أسرار اللغة العربية خرج منهم ملوك وعلماء قنعوا من الدين بقشره وعكفوا على شهواتهم وسخروا الأمم لها . فقال الله لهم كفوا أيها المسلمون ودعوا حكم عبادى وسأنشر الإصلاح فى الأرض على يد من أشاء فظهرت حركة الإصلاح فى أوروبا وأمريكا واليابان وهناك جمعية تسمى جمعية الأمم بأوروبا وقد قدمت لك أن هذه لم تقم بالواجب لأنها جمعية لفظية لا معنوية وقد ذكرت هذا المعنى فى أول (سورة الأنفال) وقد طابق ذلك ما أعلنه محافظ كابول من (أفغانستان) فى خطبة له بمصر ذكرتها عند قوله تعالى «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات» إلى قوله «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » فارجع إليه فى (سورة المؤمنون) . فها هو ذا الزمان قد آن أن يستدير ويرجع الأمر للمسلمين ومن معهم ويقومون بإصلاح النوع الانسانى هم ومن معهم من الأمم ، وهناك تظهر الحكمة فى قوله تعالى فى (سورة البقرة) «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» الخ الذى هو قسم من أقسام الحكمة المذكورة فى (سورة النحل) الداخلة فى قوله تعالى هنا «لقد أنزلنا آيات مبينات» فهذا هو التبيين فى القرآن . ففى القرآن تبيين ولكن الله ادخر كثيرا منه لأمم تعقله وتلك الأمم ترجع الدين لحاله فى العصر الأول أولئك الذين كانوا يراعون للمنفعة العامة حتى إنهم إذا حاربوا أهل الكفر وقاتلوهم لم يراعوا إلا المصلحة العامة ، فقتل صناديد قريش فى واقعة بدر وأمثالها يرجع إلى إصلاح آلاف مؤلفة بقتل أفراد قليلة كما أن نهر النيل والفرات والهواء والنار والشمس نافعات للعموم ضارات للقليل كإغراق ناسك وموت صبى بهواء فاسد وإحراق عجوز وموت شيخ بضربة الشمس فهلاك هؤلاء لا يقدح فى إسعاد المجموع . ومن عجب أن (بنتام) الانجليزى مؤلف (أصول القوانين) قد نحا نحو هذا فجعل القوانين مبنية على أن العموم مقدم على الخصوص وأن قتل القاتل وإن آذى أهله فقد سر الناس كلهم ، والمسرة العامة خير من الخاصة . ولم يكن هذا الإهلاك مقصودا بذاته من خلق الهواء والماء والشمس . كلا . بل المقصود النفع العام . هكذا قتل بعض الكفار فى بعض الحروب قصد منه الحكمة التى قصدت فى خرق السفينة وقتل الغلام كلاهما لإصلاح أعم فخرق السفينة لتبقى فى يد أصحابها الأيتام فلا يأخذها الملك غصبا وقتل الغلام لأن العلم بمصلحة أعم لذويه أوجب قتله وقد راعى المصلحة عمر رضى الله عنه فلم يقطع

اليد أيام المجاعة بالسرقة فى قصة سرقة الإبل المذكورة فى سورة الكهف (راجع هذا المقام كله هناك) فسترى كلام علماء الاسلام وما كتبته مع كلامهم هناك لتعلم أن دين الاسلام جاء بالحكمة العامة وأن فيه أسرارا يبينها الله فى هذا الزمان وهذا هو الذى فتح الله به قبيل فجر يوم الخميس ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وفى نفس صلاة الصبح عند قراءتى فى الصلاة « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » والحمد لله رب العالمين .

﴿ الجوهرة الثانية من قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم » إلى قوله « ومأواهم النار ولبئس المصير » ﴾

قال تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته وأقسم (ليستخلفنهم فى الأرض) أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض تصرف الملوك فى ممالكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) مثل بنى إسرائيل إذ استخلف داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء وأورثهم هم وقومهم بنى إسرائيل أرض الجبارة وديارهم (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) وهو الاسلام بالتقوية والتثبيت (وليبدلنهم من بعد خوفهم) من الأعداء (أمنا) منهم ثم استأنف لبيان المقتضى للاستخلاف ، فقال (يعبدوننى لايشركون بى شيئا) الجملة حال من الواو فى يعبدوننى أى يعبدوننى غير مشركين (ومن كفر) أى كفر هذه النعمة (بعد ذلك) بعد الوعد أو حصول الخلافة (فأولئك هم الفاسقون) الكاملون فى فسقهم إذ كفروا تلك النعمة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول) فى سائر ما أمركم به (لعلكم ترحمون) أى أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول على رجاء الرحمة (لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) أى لاتحسبن يامحمد الكفار معجزين الله عن إدراكهم وإهلاكهم ، وفى الأرض متعلق بمعجزين (ومأواهم النار) عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل الذين كفروا ليسوا معجزين ومأواهم النار (ولبئس المصير) أى المأوى الذى يصيرون إليه ، وهنا [أربع لطائف] .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم » الخ ﴾

قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم مكث بعد الوحى عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لايفارق أحد منهم سلاحه فقال أحد منهم : أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية . ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها وقد أنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا فى الأرض ، روى البخارى عن عدى بن حاتم : قال بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل ، فقال ياعدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال فان طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لاتخاف أحدا إلا الله ، قلت فيما بينى وبين نفسى ، فأين دعار طيىء الذين قد سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت كسرى بن هرمز ؟ قال كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أوفضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدا يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن ألم أبعث اليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يارب فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى يارب فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم ، قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة قال عدى فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف إلا الله

وكنت

وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، قال ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهبا الخ . وعن سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا ثم قال أمسك» ولقد كانت خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر، وخلافة عثمان اثنى عشرة سنة، وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر فتكون خلافة الخلفاء الراشدين إذن تسعا وعشرين سنة وستة أشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن وهى ستة أشهر ثم نزل عنها لمعاوية .

(اللطيفة الثانية)

قال أهل التفسير فى قوله تعالى «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» إن أول من كفر بهذه النعمة وجحدها ولم يقم بواجبها أى بواجب نعمة النصر والتمكين فى الأرض والأمن الذين قتلوا عثمان ، فلما قتلوه غير الله مابهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانا .

(اللطيفة الثالثة)

أين وعد الله للمسلمين اليوم وهم فى الأرض خائفون وجلون ؟ . لأذكر لك ما كتبته فى كتاب (القرآن والعلوم العصرية) على هذه الآيات تحت العنوان الآتى :

(الإسلام دين علم وعمل)

أيها المسلمون . الاسلام دين علم وعمل . ولماضلت الممالك الاسلامية الكبرى سواء السبيل لجهلت العلوم الكونية والعقلية لم يصلحوا لهداية العالم المتعلم فتهدم الاسلام فلم ينصروا على أعدائهم من الأوروبيين وأصبح المسلمون يلتمسون العلوم من الأمم الأوروبية ويستضيئون بأنوارهم ويهتدون بهديهم ويرتوون من مواردهم ويكرعون من مشاربهم . أو ليس ذلك دليلا على أن الأمم الإسلامية الكبرى جهلت الحقائق وظنت أن المسلم لايعنيه العلم ، والجهل يكفيه والقوت يرضيه وهو غافل عما أبدع الله فى الأرض والسموات وبرأ فيهما من البدائع وأحسن فيهما من صنع وأبدع وأجاد وذرأ من كل زوج بهيج . لهذا السبب ذهبت الأمم الاسلامية فأصبحوا لاترى إلا آثار آبائهم لأن الجهل بالعلوم خيم فيما بينهم وضرب عليهم سرادقاته فضربهم الدهر ضرباته فذل العزيز وعز الذليل وخضع العظيم وعظم الحقير « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» .

كنا الجهابذة الكبار ... كم قائد سلك القفار
وبجيشنا قطع البحار ... وطغى على أعدانا
إنا ملكنا المشرقين ... إنا ملكنا المغربين
إنا قرأنا الحكمتين ... العلم والإيمانا *

ألستم أنتم السواد الأعظم فى الكرة الأرضية . ألم يأمركم الله أن تأخذوا حذركم وتبنوا مجدكم وترفعوا رءوسكم وتحلوا ماذرأ الله فى الأرض من علم وما أنتم به من صناعة .

(فصل فى وعد الله للمسلمين بالتمكين فى الأرض والاستخلاف فيها)

ألم يقل لكم فى كتابكم الكريم «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

أليس هذا كلام ربكم المنزل على نبيكم وأنتم المخاطبون به . فبالله عليكم يامعاشر المسلمين فى أقطار الأرض

أتم اليوم أكثر عددا وأعظم مددا فماذا جرى حتى عجبنا كل العجب من أنا مسلمون وقد تخطانا هذا الوعد بأن يستخلفنا الله فى الأرض ويمكن لنا فى الأرض ويبدلنا من بعد خوفنا أمنا والتمكين فيها وتبديلنا من بعد خوفنا أمنا وعد من الله لنا والله لايخلف وعده قال تعالى «ومن أوفى بعهده من الله» ؟.

عجب للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . المسلمون الذين يبلغون ٣٥٠ مليونا من بنى آدم يعجبون ويقولون نحن مسلمون ونحن نعمل الصالحات فأين استخلافنا فى الأرض ؟ ونحن أينا توجهنا فالقتل على رقابنا والذل محيط بنا ، وأمم الفرنجة يطاردوننا .

﴿ فصل فى أن المسلمين ينقصهم أمران : الاتحاد والعلم ﴾

أقول على رسلكم يامعاشر المسلمين لاتظنوا أن عمل الصالحات قاصر على ماتعملون فانكم ينقصكم أمران: الاتحاد فيما بينكم عربيكم وعجميكم وأبيضكم وأسودكم وأصفركم ، والعلم بما ذرأ الله فى السموات والأرض من عجائب الخلقة وبدائع الحكمة ونظام البرية وماأبدع فى السموات من كوكب ومابث فى الأرض من دابة ونبات . ودليلى على ذلك قوله تعالى «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون» . بهذا أنذركم الله إذ قال «وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم» فكأنه وعد بالاستخلاف المتقدم للأمة الاسلامية الناظرة فى ملكوت السموات والأرض المفكرة فيما خلق الله المتعلمة كل صناعة وحرفة حتى لايفوتها صنعة من المدفع إلى الإبرة ومن القطار إلى المنشار ومن علم الطبيب والبيطار إلى صناعة الموسيقار . ثم وعدنا الله بالاستخلاف فى الأرض إذا فقهنا وعقلنا كلامه .

أو ليس من العار أننا غفلنا عن السير فى الأرض والأخذ بماهو أجمل وأحسن وقد عقلت الأمم وتعلمت وجهلنا وارتقوا وانحططنا فلذلك جاء القرآن موبخا ومنكرا على الجاهلين (بما أبدعت الأمم من الصناعات وما أنشأت من المصانع وماأحكمت من بناء وماعممت من زراعة وماأحسنت من صناعة وما أقامت من سياسة ومانظمت من طرق وما أرسلت من قطار وماأطارت من بخار وماسيرت فى الجو من طيارات ومناطيد وما بنت من مدارس وماعلمت من تلاميذ ومارفعت من صروح) ، فقال الله تعالى «أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها» .

ولما كان المسلمون كثيرا مايسيحون فى الأرض ويرجعون إلى أوطانهم بخفى حنين ثم هم لاينذرون قومهم إلا قليلا ولايعتبرون بما رأوا ولا يرسلون جماعات منهم تتعلم إلا قليلا أردفه الله بقوله «فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» .

أيها المسلمون إنه لينقصكم [أمران] الاتحاد والعلوم فاذا اتصفتم بهما تم وعد الله لكم فى الأرض بالاستخلاف والتمكن فى الأرض وأن يبدل خوفكم أمنا فى الآية المتقدمة . وهاأناذا سأشرح لكم كيف تتحدون وكيف ينشر العلم بينكم .

ضرب مثل لحال المسلمين مع غيرهم

ألا إنما مثل المسلمين المتبصرين وغيرهم كمثل جماعة سافروا فى طريق طويل فأخذ جماعة يركبون الإبل والبغال والحمير والخيل ، وأخذ جماعة آخرون يركبون القطار فتخلف الأولون وفاز الآخرون وحجة الأولين أنهم يتبعون ماسن آباؤهم ويتغنون بحداثهم ويترنمون بأشعارهم فوق إبلهم . وحجة الآخرين أن العقل يقضى أن نأخذ بالأحسن والأقوى والأسهل ويقولون قال الله تعالى « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فالله عز وجل بشر العباد الذين يتبعون أحسن القول . ولاجرم أن القول بركوب القطار أحسن من القول بركوب الإبل . أفليس من العار علينا أن يسبقنا الأمم ونحن عاقلون مفكرون .

(معنى

﴿ معنى الجهاد ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب» .

هذه الآية ذكر فيها الله لنا تجارة ودلنا عليها وجعل تلك التجارة تنجينا من عذاب أليم . ؟ ماهى تلك التجارة ؟ هى أن نؤمن بالله ورسوله ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وضمن لنا بذلك أمرين : الجنة فى الآخرة ، والنصر فى الدنيا . طلب الله منا أمرين وضمن لنا أمرين . طلب الإيمان والجهاد وضمن الجنة فى الآخرة والنصر فى الدنيا . أما الإيمان فمعلوم . وأما الجهاد فأنا أشرحه لكم . يظن الجهال أن الجهاد إنما هو حرب الكفار وحده . كلا . إن الجهاد كما نص عليه علماء الفقه لايخص حرب العدو بل يشمل سائر الأعمال العامة فترقية الصناعة والزراعة ونظام المدن وتهذيب النفوس وإعلاء شأن الأمة كل ذلك جهاد لاينقص عن توجيه البندقية والمدفع إلى صدر العدو .

إن الصف المجاهد المحاذى للعدو لن يقدر على هذا الموقف إلا إذا كان وراءه حكومة فى بلاده منظمة فيها صناعات محكمة لتصنع له المدافع والبنادق ولتزرع الأرض ولتسمدها ولترسل له الذخيرة فمن ظن أن زارع الأرض المستخرج مافيها والحداد والصانع للمدافع والقطار والنجار المكمل لكل منهما والخباز الخابز لهما وللجندى . من ظن أن هؤلاء أقل أجرا فى الآخرة من الجندى الذى أحضرت له أعمال هؤلاء ، وهو فى معمعة القتال فقد جهل الدين وطاش سهمه وهو من الغافلين .

إن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من إحدى غزواته قال (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس) أفليس ذلكم يامعاشر المسلمين دليلا على أن جهاد النفس أرقى من جهاد العدو وجهاد النفس بترك الكسل وبإحكام الصنعة وبترقية شأن الأمة وبالسياحة فى الأرض وبترك الشر وتهذيب النفس . فالمهذب لنفسه مجاهد ، والمحكم لصنعته مجاهد والمسافر ليعلم المسلمين ماشاهد مجاهد والعالم مجاهد . ولقد ورد مامعناه أن مداد العلماء كدم الشهداء . ولعمرى لقد عظم أمر العالم وفاق شهيد المعركة . ذلكم العالم الذى يزرع العلم والبركة فى نفوس آلاف من الناس هو خير من آلاف من الشهداء .

هاأنا ذا قد بينت معنى الجهاد ، والإيمان واضح من نفسه . ولا جرم أن الله ضمن لمن جاهدوا هذا الجهاد أن يدخلهم الجنة وينصرهم على عدوهم . فليجاهد المسلمون وليعرفوا جميع العلوم والصناعات التى منها العدد الحربية والآلات الصناعية والخدع الحربية والسياسات المدنية فان الله ضامن لهم النصر . هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا . وليس النصر مضمونا لنا ونحن غافلون . إن الله أمرنا بالنظر والتعقل والتفكير ، أو ليس هو سبحانه القائل للمسلمين وهم يصلون صلاة الخوف فى الحرب «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة» فاذا كان الله يقول لنا ونحن فى الصلاة وقت الحرب : خذوا حذركم ، خذوا أسلحتكم ، فان الكفار ربما مالوا عليكم ميلة واحدة فقتلوكم . فهل منزل هذا يرضى عن أمة تنام عن العلوم والمعارف والصناعات . هل ينصر الله أمة غافلة إن الله وعدنا النصر بعد الجهاد الكامل بالعدد التى تناظر ماعند العدو التى صرح بها فى قوله «وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ولقد أطلت فى هـذا المقام لتبيين السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الرابعة . ايضاح قوله تعالى «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» ﴾

ليعجب المسلمون من هذا القرآن الحكيم كيف أخبر أن الله سيمكن للمسلمين فى الأرض وقد تم هذا كما تقدم، وكان الخلفاء الراشدون وغير الراشدين ثم كيف ملكوا أكثر المعمورة قديما وهذا معروف مشهور ثم انظر كيف كان الأمر بالعكس فى القرون الأخيرة ، وكيف أخبر الله أيضا بذلك إذ قال «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» . يخبرنا الله بما هو حاصل اليوم فى بلاد الاسلام . ولعلك تقول هل المسلمون كفروا . أقول لك هذه النعمة هى السبب فى الجهل العام فى الاسلام . يحمل الناس الكفر على كفر الدين . ولكن الكفر هنا كفر النعمة . ألا ترى كيف قال المفسرون رحمهم الله تعالى : إن أول كفر النعمة كان قتل عثمان ولو أن الصحابة والتابعين رأونا فى هذا العصر لقالوا قد كفر المسلمون بنعمة ربهم لأنهم قد تركوا الملك الذى أعطاه الله لهم . تركوه وما حفظوه . لم يحفظوا الملك أى لم يحفظوا النعمة أى تركوا بلاد الله فلم يعمروها وتركوا ما فيها من الكنوز والمنافع وناموا على بساط الراحة . فياعجبا للمسلم . أيظن أن الله يعطيه الأرض ويملكه إياها ثم هو ينام ولا يصلحها ولا يقوى عمرانها ويبقيها فى يده ؟ . كلا . إن الله قيوم أى قائم بتدبير الملك فمن لم يكن يتخلقا بخلقه خلعه من ملكه وأقصاه وهذا هو معنى قوله «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

سيقول جهول من الذين ينتمون للاسلام : حينئذ قد حكمت على أمة الاسلام اليوم بأنهم فاسقون . أقول أنا لم أحكم وإنما أذكر أمثال هذا بما قاله علماؤنا إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون اليوم عالة على أوروبا فلا كفاية لديهم من هذا القبيل وفرض الكفاية متى ترك كانت الأمة كلها آثمة لهذا الترك فإذن المسلمون اليوم آثمون بترك العلوم والصناعات وهذا الإثم قد عاقبنا الله عليه باحتلال الأمم الغالبة بلادنا وإذلالنا وهذا عذاب معجل وسنكون جميعا فى الآخرة ملومين . فهذا معنى كفر النعمة الذى سمى الله المتصفين به فاسقين ، ولم يسمهم كافرين كفرا مطلقا . فالمسلمون اليوم متمتعون بنعمة الإيمان الساذج وليسوا متمتعين بنعمة إصلاح الأرض والله عز وجل حكيم لا يعطى الشىء إلا لمستحقه ومستحقه هم العاملون لارتقائه فأصبحت الآية فيها [معجزتان] ضمدرها لصدر الاسلام وعجزها للأمم المتأخرة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، ولكم فى هذا القرآن من عجائب وغرائب وما كان ليدور بخلدى قبل كتابة هذا التفسير أن فيه كل هذه العجائب «إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم» .

وقبل أن أترك هذا المقام أشير إلى أمر آخر، ذلك أن الحديث أبان فيما تقدم كيف يكون الأمن فى الاسلام وقد تم ذلك كما تقدم ، وبقى هناك أمر وهو الذهب والفضة اللذان يحرصان فلا يقبلهما أحد فذلك لم يتم إلى الآن ولعل المستقبل كفيل به فان النوع الانسانى إذا أصبح وقد ترك النقود كما يقول (البلشفية) وأصبح التعامل بالمبادلة فان النقود إذن لا لزوم لوجودها . أقول ربما اضطرت الدول الحالية إلى الاتحاد شرقا وغربا (فقد تنبه الشرق) وتعاملوا بالسوية وألغوا النقود كدولة البلشفيك وهناك يتم معنى الحديث إذ لا فائدة للذهب ولا الفضة بل الرجل يعمل لمصلحة الجميع ويأخذ ما يكفيه . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

﴿ الجوهرة الثالثة من قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم »
إلى قوله تعالى « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » ﴾

روى عن ابن عباس قال وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك ، فأنزل الله هذه الآية .

وروى أيضا أن أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فأنزل الله هذه الآية . وملخصها أن العبيد والإماء والأحرار الذين لم يبلغوا الحلم ولكن عرفوا أمر النساء وهم فى سن التمييز يجب وقيل يسن أن يستأذنوا لأجل الدخول فى [ثلاث أحوال] وهى من قبل صلاة الفجر وفى منتصف النهار حين يضع الناس ثيابهم للقيلولة ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم ، فهذه أوقات ثلاث عورات لأن كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الانسان يختل تستره فيها . ومعنى العورة الخلل ومنها الأعور المختل العين ، وهذا هو قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) وهذا القول رجوع لتتميم الأحكام السالفة بعد ماذكر من الإلهيات مايشرح الصدور ويوجب الإذعان ويفتح الأذهان . والذين ملكت أيمانا هم العبيد والإماء (والذين لم يبلغوا منكم) يعنى الأحرار الذين ظهروا على عورات النساء ولم يبلغوا الحلم وهم فى سن التمييز ، وبلوغ الحلم يكون بالاحتلام فان لم يحتلم وبلغ خمس عشرة سنة فقد بلغ عند الشافعى ، ولايرى أبو حنيفة بلوغ الجارية إلا إذا بلغت سبع عشرة سنة ولا الغلام إلا إذا بلغ ثمان عشرة سنة . فأما أبو يوسف ومحمد وأحمد فقد وافقوا الشافعى فى أن الغلام والجارية يحكم ببلوغهما متى بلغا (١٥) سنة وقوله (ثلاث مرات) أى ليستأذنوا فى ثلاث أوقات هى (من قبل صلاة الفجر) إلى قوله هى (ثلاث عورات لكم) أى هى ثلاث أوقات يختل تستركم فيها (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) بعد هذه الأوقات فى ترك الاستئذان ، ولا تظن أن هذا ناسخ لآية الاستئذان لأن هذا فى الصبيان والمماليك المدخول عليه وتلك فى الأحرار البالغين . هم (طوافون عليكم) هذا مستأنف لتبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان ، وهذا التعليل يبين أن الأحكام تعلل (بعضكم) طائف (على بعض) أى يطوف بعضكم على بعض (كذلك) أى مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) أى الأحكام (والله عليم) بأحوالكم (حكيم) فيما يشرع لكم . واعلم أن هذه الآية غير منسوخة وإن تهاون الناس بالعمل بها . ويقال إن ثلاث آيات تهاون الناس بها ، وهى هذه الآية وقوله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» والناس يقولون أعظمكم بيتا ، وقوله تعالى «وإذا حضر القسمة أولوا القربى» الآية . ثم قال تعالى (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) أى الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا (فليستأذنوا) فى جميع الأوقات فى الدخول عليكم (كما استأذن الذين من قبلهم) أى الأحرار الكبار (كذلك يبين الله لكم آياته) من الدلائل والأحكام (والله عليم) بأمور خلقه (حكيم) بما دبر وشرع وهذا يوجب أن يستأذن الرجل على والدته وعلى جميع محارمه . ثم قال تعالى (والقواعد من النساء) أى اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلايلدن ولا يحضن (اللاتى لايرجون نكاحا) أى لايطمعن فيه لكبرهن ولأن الرجال يستقذرونهن . فأما من كانت فيها بقية جمال فهى محل الشهوة فلاتدخل فى هذه الآية (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أى الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الخمار حال كونهن (غير متبرجات بزينة) أى غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق أى لايقصدن بوضعها التبرج . والتبرج تكلف إظهار مايجب إخفاؤه (وأن يستعففن)

أى يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن (خير لهن والله سميع) لما يعلن (عليم) بما يقصدن ، قال سعيد بن المسيب كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون نخشى أن لاتكون أنفسهم بذلك طيبة فنزل قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) وقوله تعالى (ولا على أنفسكم) كلام غير ماتقدم فانه لما نزل قوله تعالى «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» قالوا لايحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فأنزل الله «ولا على أنفسكم» (أن تأكلوا من بيوتكم) أى لاحرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم ، ويدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله صلى الله عليه وسلم «أنت ومالك لأبيك» وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا «إن أطيب مايأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه» (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه) عن ابن عباس وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته فلابأس عليه أن يأكل من ثمرة ضيعته وأن يشرب من لبن ماشيته ولايحمل ولايدخر. وقيل بيوت المماليك . والمفاتح جمع مفتح (أو صديقكم) أى أو بيوت صديقكم وهو الذى صدقك فى المودة وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط .
واعلم أن هذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت باذن أو قرينة وخصص هؤلاء لأنهم اعتادوا التبسط بينهم فرجع الأمر فى الحقيقة إلى الرضا وإذن لا فرق بين هؤلاء وبين غيرهم فالمدار على الرضا ولم يذكروا فى الآية إلا لأن الرضا فيهم غالبا محقق . والحنفية لما رأوا ماجاء فى هذه الآية حكموا بأن لاقطع فى سرقة مال المحرم .
هذا ولقد كان بنوليث بن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة . ويقال أيضا إن قوما من الأنصار إذا نزل بهم ضيف كانوا لايأكلون إلا معه . وأيضا قد تحرج قوم عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطباع فى القزازة والنهمة لذلك أنزل الله هذه الآية (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) مجتمعين أو متفرقين (فإذا دخلتم بيوتا) من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أى ليسلم بعضكم على بعض . هذا فى دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن فى بيته ، قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته . حدثنا أن الملائكة ترد عليه ، وقال ابن عباس : إذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته . وعن ابن عباس فى قوله تعالى « فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم» قال إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقوله (تحية من عند الله) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه . ويصح أن يقال من عند الله متعلق بتحية التى هى منصوبة بسلموا لأنها مصدر بمعنى التسليم والتحية فى معنى طلب الحياة وهى من عند الله تعالى وقوله (مباركة) أى ترجى بها زيادة الخير والثواب وقوله (طيبة) أى يطيب بها قلب المستمع ، وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال « متى لقيت أحدا من أمتى فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الأبرار الأوابين » وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات) كرره لمزيد التأكيد وإعظام أمر هذه الأحكام (لعلكم تعقلون) الحق والخير فى الأمور . انتهت الجوهرة الثالثة .

﴿ الجوهرة الرابعة «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع» إلى آخر السورة ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم وهذا قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) إيمانا صادقا (وإذا كانوا معه على أمر جامع) كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة فى الأمور. وإنما وصف الأمر بأنه جامع مع أنه سبب الجمع لأنه هو الجامع المبالغة (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) أى حتى يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن لهم. ولما كان الاستئذان أمرا عظيما أكده فقال (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فالمستأذن مؤمن لامحالة والذاهب بغير إذن إذا استحل ذلك كان كافرا (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم) أى مايعرض لهم من المهام (فأذن لمن شئت منهم) فوض الله الأمر إلى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذن يكون بعض الأحكام مفوضا إلى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضهم يقول «فأذن لمن شئت منهم» إذا وثقت بصدقه فى العذر . وهكذا الناس مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن . ولقد كان المنافقون يوم الخندق يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان . وقال مجاهد : وإذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده . قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لايخالفونه ولايرجعون عنه إلا بالاذن : وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن وهذا كله إذا لم يكن حدث سبب يوجب عليهم الخروج وإلا فلا حاجة إلى الاستئذان ، ثم قال تعالى (واستغفر لهم الله) بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور (إن الله غفور) لفرطات العباد (رحيم) بالتيسير عليهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لاتجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا وبناديه باسمه الذى سماه به أبواه فلا تقولوا يامحمد ولكن يانبى الله أو يارسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض . وأيضا لايجوز الإعراض عند دعائه لكم ولا المساهلة فى الاجابة ولا الرجوع بغير إذن .

إذن المبادرة إلى إجابته صلى الله عليه وسلم واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) أى ينسلون قليلا قليلا من الجماعة (لواذا) ملاوذة بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج فيروغ أحدكم فى خفية فيذهب . وقال ابن عباس يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه (أن تصيبهم فتنة) أى لئلا تصيبهم فتنة أى بلاء فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى وجيع فى الآخرة .

هذا ، ثم إن الله ذكر فى هذه الآيات أنه يعلم الذين يتسللون لواذا ، وذكر العلم هنا إيذان بالمجازاة على مايفعلون فأعقبه الله بذكر أن علمه عام فكيف لايعلم أحوالكم الخاصة فقال (ألا إن لله مافى السموات والأرض قد يعلم ماأنتم عليه) من الإيمان والنفاق والاخلاص وضده (ويوم يرجعون إليه) يعنى يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) من الخير والشر (والله بكل شىء عليم) لايخفى عليه خافية . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة .

﴿ خاتمة ﴾

هذه هى (سورة النور) ولقد تبدى لى بعد ما أتممت الكلام عليها أن أذكر كلاما عاما يرجع لعموم هذه السورة فأقول :

انظر أيها الذكى كيف ذكر الله فى هذه السورة الحد والقذف ورمى المحصنات الغافلات وملاءمة أخلاق الطيبين للطيبات والخبيثات للخبيثين وللملاعنة والعفة وتحريم النظر للأجانب وحله للمحرم والاستئذان عند الدخول وغير ذلك من الأحوال العارضة للانسان . ولاجرم أن ذلك يدخل فيه علم القضاء فان الملاعنة وحد الزنا وحد القذف وما أشبه ذلك لايكون إلا بأمر القاضى الذى نصبه الخليفة للحكم بين الناس . فانظر كيف فصل هذه الأحكام بما هو غريب عنها وأدخل فى خلالها ماليس منها وفاجأ القارئ بقوله « الله نور السموات والأرض » وبين كيف يكون الكافرون وأعمالهم كظلمات البحار اللائجات فوق موجهن سحاب ، ثم أتبع ذلك بذكر عجائب السحاب والبرق وكيف اختلف الحيوان فى عدد أرجله وفى سيره فوق الأرض أو طيرانه فى الجو . أما الذى لابصيرة له فانه يرى أن ذلك مجرد اتفاق وأن وضع هذه الآيات أمر لايرجع إلى مقصد خاص وإنما هو من الآيات التى توضع وضعا لم يقصد فيه إلا مجرد الانتقال من حال إلى حال ولكنى أقول لك ما أعلمه :

اعلم أن الله عز وجل لما خص هذه السورة بالأحكام الشرعية أراد عز وجل أن يبين لنا أن هذه الأمور العادية المحيطة بنا لاينبغى أن تكون هى المقصد الأسمى عندنا وكأنه يقول كيف تكون هى المقصد الأسمى وماهى إلا أمور يستوى فيها الكافر والمسلم والجاهل والعالم . وما الأحكام التى فى القرآن إلا مهذبات لنفوس الناس حتى يعتدلوا فى شهواتهم ويقفوا فيها عند حد خاص فلايقذفون المحصنات الغافلات ولا يرمون زوجاتهم إلا إذا تحققوا ولايتركون أبصارهم ترتع فى شهواتها وتنظر لكل غادية ورائحة من النساء حتى تحفظ قواكم العقلية ، فان هذه النفوس الانسانية أشبه بشمعة قد جعل فيها فتائل كثيرة وكلما زادت الفتائل فيها واتقدت كان ذلك أسرع ذهابا وأبلغ ضياعا وأقرب نفاذا لها . وكلما قلت السرج المتقدة منها كانت أطول عمرا . والناس إذا لجوا فى طغيان شهواتهم وزادوا فى غلوائها واتبعوا خطوات الشيطان وأطلقوا لألسنتهم العنان ولعيونهم النظر وما أشبه ذلك كان ذلك أذهب لرجحان عقولهم وأضيع لنور أفئدتهم وأسرع هلاكا لأبدانهم . فليحفظ الناس الألسنة وليغضوا الطرف الذى يشغل العقول بالصور الجميلة فتتحول القوة العاقلة إلى صور مضمحلة فيقل الادراك ويذهب نور الفطنة وتضمحل القوى العاقلة . وهكذا يجب على الناس أن يستأذنوا إذا دخلوا البيوت وأن يسلموا على أهل الدار وعلى أهل منزلهم هم أنفسهم لتزول الوحشة ويدوم الأنس وتحصل الألفة فيقوم العقل بما خلقه الله له من التفكير ، وهكذا لتزوجوا الصالحين والصالحات للنكاح أحرارا وعبيدا لتصرف الشهوات إلى ما هو نافع وليقوم الناس بما أعدوا له من النسل وإكثاره لتسعد الجمعية الانسانية .

هذا هو المقصود من هذه السورة وفى أثناء ذلك قال الله تعالى إياكم أن تشغلكم هذه الأمور عن العلوم والحكم والنظر فى جمالى وحسن صنعى فإن ماذكر فى هذه السورة وغيرها من حفظ الفروج والآداب وحفظ النظر وما أشبه ذلك إنما هو لحفظ مدنهم وحسن معاشرتكم . وهذه ماهى إلا مقدمات لما هو أعلى . وبعبارة أجلى إن هذه آداب والآداب مقدمات للعلوم لأن العلم لا يكون إلا إذا صفت النفوس ولاصفاء للنفوس والعقل مضطرب بالجدال والخصام ونفور الجيران وشقاء النظرات وتفرق

الخواطر بما تجليه النواظر ، فاذا أنزلت عليكم مابه تهدأ الخواطر وتقر النواظر ويستتب الأمن فما أحراكم أن تنظروا فيما زوقت وأبدعت وزينت ورقشت ونقشت فذلك هو المقصود وماسواه فانما هو تمهيد ومقدمات والمقدمات غير المقاصد .

إياكم أيها الناس أن تظنوا أن القضاء وعلوم الشريعة كافيات لكم . كلا . إن هذه العلوم إنما أنزلتها لحفظ النظام ولقد حفظت نظام النحل فى خلياتها والزنابير فى بيوتها والغربان فى أعشاشها وطيور الكراكى فى أسرابها والآساد فى آجامها والحمر الحبشية فى جبالها ولم أذر صغيرا ولا كبيرا فى الخلق إلا جعلت له ناموسا معلوما وصراطا مستقيما يسير عليه « ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » علمتها أمور معاشها وأفهمتها كيف تلد وكيف تبيض وكيف تبنى لها الأعشاش وأفهمتها كيف تسكون سبل الحياة ، فاذا ظننتم أيها الناس أنكم بمعرفة هذه الآداب قد زدتم عن هذه الحيوانات فانكم واهمون فوعزتى وجلالى لن تفوقوها كلا ولن تعلوها علما إلا بنظركم فى جمالى واطلاعكم على بهائى وكمالى .

إنى أنا نور السموات والأرض ولن تعرفوا تنويرى لهما إلا بأمثال ضربتها لكم وآيات بينتها . فاتخذوا من ظلمات الحياة نورا ومن الآلام المتراكمة فى دنياكم نعما واقرءوا وجوه الكائنات وسطور المخلوقات وافهموا من السراج المتقد فى المساجد أمثلة تضىء لكم مشكلات الدجنات فتعرفوا أنوارى فى ملكوتى ، فلا القضايا ولا البينات ولا الملاعنات ولا الحدود مقصودة من حياتكم ، وإنما هذه آداب أوجبت أن تكون لتتفرغوا لمعرفة آياتى فى خليقتى . ومن ظن أن المقدمات مقاصد فقد جنى على عقله وعلى الجنس البشرى أعظم جناية فان الناس بهذه الشرائع لم يصلوا إلى ماوصل إليه الحيوان فى حسن نظامه فكيف يظن الناس أن ذلك هو مقصود الحياة .

إن الإنسان عليه واجب عظيم هو النظر والفكر وأن يطير بأجنحة الحكمة وطيارات العلم إلى جو من النور بهيج . إنى أشتق النور من الظلمات . ألم أجعل النور البرق يلمع من خلال السحاب ذلك السحاب الذى جعلته متمما لظلمات البحار فى دجنات الحياة . السحاب الذى زاد ظلمات الأمواج ظلمات قد أمرت البرق فلمع من خلاله وأشرقت أرجاء الأرض بأنواره . هكذا حياتكم المملوءة بالأخطار المدلهمة فى البر والبحر . إنى لقادر أن أجعل النور يلمع من خلالها كما لمع البرق من خلال ظلمات السحاب .

إياكم أن تشغلكم الأحوال المنزلية والشهوات البهيمية والقضايا فى المحاكم الاسلامية عن اطلاعكم على جمالى وحسن صنعى وجمال أعمالى الباهرات فى هذه الدنيا وبديع نظامها وحسن تقديرها وبهجتها فان السحب المظلمات يلمع النور من خلالها ؟ فلم لاتشرق أفئدتكم بنور المعرفة فى وسط هذه الظلمات الانسانية والحدود الشرعية والقضايا الاسلامية والعلوم الفقهية .

أيها الفقهاء . لماذا أجزتم التأليف فى الملاعنة والحدود وأطلعتم تلاميذكم على حقائق القضايا وأنتم أجهل الناس بعلم السحاب والحيوان واختلاف أنواعه والطير صافات فى جو السماء . فلماذا أيها الفقهاء أجزتم تلك القضايا ووقفتم عندها مع أن القضاء فرض كفاية وتركتم النظر فى معرفة أن « الله نور السموات والأرض » وتنوع الحيوان والطير الخ . أليس هذا كله كلام الله . أليس العلم

بهذه العجائب واجبا على كل مسلم إذا كان قادرا لازدياد الإيمان والشكر كما أوضحه الامام الغزالي وذكرته في (سورة المائدة) .

إن علم القضايا ليس بواجب إلا على فئة قليلة . إن علوم الجمال الإلهي غـذاء للأرواح والعقول وعلم الشريعة أشبه بدواء، فكيف جعلتم الدواء في محل الغذاء، والغذاء في محل الدواء .

أما آن للمسلمين أن ينظروا فيما كتبناه . أما آن لهم أن يتدبروا ماذكرناه . أما آن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا عن النهج الذي نهجوه . أما آن لهم أن يكفوا عن الجمود ويوقفوا الأطفال على عجائب ماصنع الله في الأرض والسماء . أما آن لهم أن يقووا أنفسهم بأجنحة من العلم والحكمة ليطيروا بها في جو السماء الصافي. إن الله قد أذن للمسلمين اليوم أن يتبوءوا منزلتهم بين الأمم وينالوا مكانتهم وليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» .

﴿ الجمال والنور في سورة النور ﴾

تناسبت السور الثلاث (الحج والمؤمنون والنور) في إظهار الحقائق العلمية والبدائع الحكمية . فيها جاء ذكر خلق الإنسان وأنه من نطفة فعلقة فمضغة الخ . ذلك جاء في سورة الحج وفي المؤمنون . فأما في سورة النور فقد فصل ما يحفظ حواسه وآدابه . وبيانه أن هذا الانسان خلق من طين مغمورا في الهواء والضياء ، الأرض تحته والهواء يحيط به والضياء فوقه فكان من الحكمة أن لايخلو عالم من هذه العوالم من فائدة له . فمن الأرض أغذيته وفاكهته ، ومن الماء شرابه وطهوره ، وبالهواء تطهيردمه بواسطة النفس وإعطاء دمه لون الحمرة بما يخالط من مادة الأكسوجين التي يجلبها النفس من الهواء وحاسة اللمس تشعر بالحرارة والبرودة اللتين يتصف بهما الهواء وحاسة الأذن قد اتخذته آلة توصل الصوت إليها من اللسان . فمن اللسان حركات في الهواء وبالهواء وصول تلك الحركات إلى الأذن . الإنسان لم يذر عالما مما أحاط به إلا انتهز الفرصة للانتفاع به، فلا أرض ولا ماء، ولا هواء، ولا ضياء إلا كان منه له منفعة لولاها لم يكن هذا الإنسان ولا الحيوان . فترى الفم للغذاء، وللماء فهو إذن معد لاستعمال ما يحصل من الأرض والماء والأنف للهواء وهكذا الأذن للهواء أيضا من حيث حركاته بأنواع الأصوات . والعين معدة لعالم النور الوارد من الكواكب ومن الأرض . اللهم إن هذا العالم جميل ومن أعظم إنعامك علينا أنك أريتنا هذه العجائب التي يجهلها أو لايقر بها كثير من العقلاء لأن أكثرهم غافلون . يعيش الإنسان في الأرض ويرى الشمس والقمر والماء والهواء ولا يريد أن يدرس هذا الوجود ليعلم مركزه فيه وليعلم نعمك علينا في هذا الوجود العجيب . مخلوق طوله ثمانية أشبار استخدم الأرض والماء والهواء والكواكب . فرقت هذه العوالم على أعضاء حسه . ينظر الانسان الشمس إذا هي معدة للإبصار في العين ، كما أن الهواء معد لحاسة اللمس والشم والسمع ، وعالم الأرض الذي منه أغلب الأغذية جعلت له حاسة الذوق التي تميز الخبيث من الطيب في الطعام والشراب . هذه الحواس الخمس كأنها نوافذ وفتحات منها يطل الانسان على هذا العالم كله . كل ذلك تضمنه ما جاء في (سورة الحج) من خلقه من نطفة فعلقة الخ وما جاء في (سورة المؤمنون) كذلك وقد جاء في آخر وصف خلقه « فتبارك الله أحسن الخالقين » فأحسن الخالقين هو الذي خلق الإنسان على هذا النمط بحيث يجعله مستفيدا من كل ما حوله من العناصر والمركبات . ولقد كان من إحكام صنعه أن خلق له لسانا واحدا يعبر عما لديه من القوى فهو ترجمان لكل مايحس به ويعلمه وزاوله ترجمان السمع والبصر والذوق واللمس وكان له آلة الإبصار بها يدرك كل صورة تقع عينه عليها وكان له أداة التناسل وهي العورة في الذكران والإناث . إن أكثر الآثام في نوع الإنسان يحدثها اللسان بالشتم

والقدم

والقم وإذاعة الفاحشة والتعير وقذف المحصنات وبحديثها الفجور بالزنا . ومما يعين عليه ويدعو له طموح العين لما تراه من محاسن النساء . فكأن الله يقول فى أول النور أيها الناس أنا صورتكم على أحسن صورة وأكمل تكوين . فهذه الحواس جعلتها أدوات صالحة لأن تتخذوها وسيلة للهدى بأضواء الشمس والكواكب والقمر ولتتناولوا مايصلح لأغذيتكم وإقامة بنيتكم وتشعروا بما حولكم من أصوات وصور وعوالم تحيط بكم ولم أحرمكم منها كما حرمت الدود الذى ألزمته أن يقنع بما حوله من الرطوبات . وهذا اللسان لم أجعله وسيلة للذم والقدح بل خلقته لينشر العلم بينكم وأنواع المحبات . وهذه البنية زوقتها وهندستها وأكملتها وجعلتها صالحة لإحداث ذرية تبقى بعدكم حفظا لذكركم وعمرانا لأرضنا فليس من الحكمة أن تجعلوا الشهوة البهيمية مقاصد وكيف تجعلون الوسائل مقاصد وما هذه الشهوات مقاصد فمن فعل ذلك ذات نفسه وباء بالوبال . فإياكم والزنا بل إياكم وكثرة تعاطى هذه الشهوات باتباع خطوات الشيطان . ولم أخلق الأعين فيكم لتقصروها على هذه الشهوة الضئيلة . إنما خلقت العين لتعرفوا بها أنوارى وتدركوا جمالى وبهائى ومحاسن أرضى وسمائى فغضوا الطرف عن النساء وتمتعوا بمن عندكم من الحلائل اللاتى يلدن منكم الذرية . أى عبادى أنتم (فريقان) فريق الأصفياء وفريق الأغبياء . أما فريق الأصفياء فهم أولئك الذين عرفوا أنى نور السموات والأرض فبهرهم الجمال والبهاء فى مشرقات الدجى والإصباح . أما فريق الأغبياء فهم أهل النار أولئك الذين أعطوا الأعين والعقول والآذان فظنوا أنى أطلقتهم فى أرضى كما أطلق الدواب فعكفوا على جنى اللذات التى لم أخلقها فيهم إلا لغاياتها فسارعوا إليها ووقفوا عندها وكلما نظروا فى جمال النجوم وجمال الشمس وجمال القمر وجمال الثمار والأزهار والأشجار والأنهار لم تحدثهم نفوسهم بأكثر مما يعرفه الحيوان فى البرية . وكلما سنحت لهم سانحة نحو العلا سلطت عليهم زبانية العذاب الجاثمين فى جبلتهم فضربوهم بمقامع الشهوات والعادات الحديدية فارتدوا على أدبارهم وعادوا لما نهوا عنه ورجعوا بخفى حنين . فكانت نظراتهم لشهواتهم وألسنتهم عاكفة على أذى قومهم من رجال ونساء كأصحاب الافك الذين رموا أم المؤمنين وبعض صلحائهم . أى عبادى أنا كلفتكم بالصلاة وفى الصلاة تسبيح وتحميد والتسبيح تنزيه والتحميد ذكرى بنعمى فنعمى تحيط بكم فى الأرض وفى السماء . أنا نور السموات والأرض والأنوار ظاهرة لكم وباطنة فى قوى الحيوان والنبات فأينما تولوا فثم جمال ونور . ترون فى السماء بهجة النجوم وفى الجو قوس قزح وفى الأرض أنواع الجمال فى كل حيوان ونبات . أنا لم أحسن الصور فى نوع الانسان لأجل التناسل فحسب . كلا ألم تروا أن شهوة التناسل تفتر بعد الوقاع وعند الفتور تذهب نشوة اللذة بجمال الوجوه . إنى نصبت ذلكم الفتور (الذى يحوركم بعد فراغكم من تلك اللذة) علما ليهديكم إلى المقصد الأعلى من جمال الوجوه الإنسانية والجمال فى العوالم العلوية والسفلية . إن بواهر الجمال فى تلكم العوالم داعيات تحثكم أن هلموا إلى وأقبلوا على هذا ماتقوله الشمس عند إشراقها والقمر عند بزوغه والنجم عند طلوعه والنهر وهو يجرى والطير وهو يطير . كل أولئك يا عبادى يدعونكم إلى العروج إلى العلا . ولن ينال هذه المنقبة منكم إلا أناس أدركوا مقاصدنا فى حواسهم وغاية ما خلقت له فنحن لم نخلق العين لتعكف على النظرات الحيوانية والشهوات البهيمية . إذن لمن زينت النجوم ولمن عممت الأشعة النورية ولمن نصبت الجبال ومحاسنها والأنهار وجواريها والحقول وأزاهرها . أنا قرنت التسبيح بالتحميد فى صلواتكم لتذكروا ولتعلموا أنكم إن لم تنزهوا اللسان عن النطق بالقبيح والفرج عن الفاحشة والعين عن النظر المحرم فلا سبيل إلى أن تعرفوا وتفقهوا أنى نور السموات والأرض . إن عقولكم خزنت فيها صور كثيرة لا تحصرونها، فإذا أخذتم تحدثون بكل ما لديكم شغلكم ذلكم الحديث عن مواقع النجوم

ومناهج العبر . هكذا إذا ظللتم تفكهون بشهوة الفرج صرفتم عقولكم وأضعفتموها بسبب النقص الدائم للتوافر فى صحة أجسامكم بما تصرفونه لهذه الشهوة الضالة . ومتى ضعفت القوة العاقلة عجزت عن أن تدرك الجمال . لذلك شرعت لكم أن تقولوا فى الصلاة فى الجلوس بين السجدتين (رب اغفر لى وارحمنى) والمغفرة التامة إنما تكون بحفظ الألسنة وحفظ الشهوات فلا تصرف إلا بحساب إبقاء لصحتكم وحفظا لعقولكم فتكونون متخلقين بأخلاق فأنا منزه عن الحوادث وأنتم منزهون بقدر الاستطاعة عن العيوب . هنالك تتوافر الأسباب لإدراك ما يحيط بكم من النور والجمال . أنا لم أحرم عليكم النظر إلى المحرمات حرمانا لكم أو بخلا عليكم ولم أمنعكم من مقارفة الشهوات بخلا عليكم بخزائن ملكى . كلا . أنا أعطيتكم عقولا وأعطيت الحيوان البرية غرائز وأودعت فى غرائزه أن لا يكون الوقاع إلا للولد ولم أجعل ذلك فى غرائزكم بل أعطيتكم عقولا وحرمت عليكم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأطلقتكم فى الأرض فيقول قائل منكم لم منع ربنا عنا لذاتنا وأطلق الحيوان يتمتع بما شاء وهو يشاهد أن الحيوان ممنوع بغريزته ولولا ذلك المنع لمات وضعف وهلك بكثرة الوقاع . ذلكم حاصل فى بعض الحيوان فى البرية . فأنا حرمت عليكم الفاحشة بل طلبت منكم عدم الإسراف فى جميع أحوالكم وجعلت عاقبة الاسراف ضعف أبدانكم وخسران عقولكم التى لا تستطيع عند الضعف أن تدرك الجمال الأعلى الدائم . ومن حفظ جوارحه من العين واللسان والفرج المذكورات فى (سورة النور) فإنى أحفظ له عقله وجميع قواه وأجعلها ذخيرة له فى هذه الدنيا يزداد بها علما ويدبر أموره ويكون ذكى الفؤاد قوى الذاكرة . إن فى إفلات ما أخزنه فى عقولكم بلا فائدة أشبه بمن يطلق ماء النهر فيغرق القرى ويضرها وحفظها أشبه بحفظ الماء فى الأنهار حتى يصرف ماؤها عند الحاجة إليها . لهذا كان الإنسان مسئولا عن عقله كما أنه مسئول عن أهله وعما علكه من المال وما يلده من الولد وعما يدبره من المالك بل ذخيرة الانسان المكنونة فى نفسه أقرب إليه مما عداها فإن عجز عن حفظها وتركها تتسرب إلى الخارج بلا ضابط يضبطها ولا حافظ يحفظها تركته ملوما محسورا . إن آراء الانسان والصور المخزونة فى عقله إن هى إلا أجنحة يطير بها إلى سماء الكمال وباحات الجمال فإذا أهملها بقى مقصوص الجناحين ضائع القوى خاسر الصفقة فترى بعينى رأسه أناسا مثله قد ارتقوا فى أعمال دنياهم وأعمال آخرتهم بحفظ قواهم الباطنة بترك مالا يعنى والانكماش فى الجد وحفظ القول فلا ينطق إلا بما يفيد ولا يتكلم إلا بما ينفع . هنالك يكون قوله حكمة وإشارته غنما وسكوته فكرا فلا يسكت ولا يتكلم إلا لفائدة تامة . إن الجنة والنار يتبعان الفكر والاعتبار كثرة وقلة . ألم تسمعوا قول الكفار «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير» .

أى عبادى المسلمين : ربما يظن أحدكم أنه خارج عن هذا القانون . كلا . «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» أنتم جميعا مسئولون عن السمع والبصر والفؤاد . فالقلب أمانة أودعتها عندكم وما العقل إلا نور انبعث من سماء الجمال وهو من نورى الذى انبعث منى فى السموات والأرض فإياكم أن تعطلوه أو تشغلوا أنفسكم بالحديث عما خزن فيه إلا لفائدة نافعة فأنتم عنه مسئولون والبصر جعلته بابا تلج منه الصور الواردات عليكم بنور المشرقات عليكم فإذا شغلتموه فيما يضعف قواكم البدنية من الصور الحسان لغير فائدة أو فيما لا فائدة فيه حرمتم النظر إلى بهجة جمالى فى سمواتى وأرضى فيكون أحدكم أيها المسلمون إذ ذاك قد خسر اللذة الدنيا وهى الحيوانية واللذة العليا وهى اللذة الملكية بالنظر إلى جمالى فيصبح الغافل منكم بالنسبة لهم أشبه بالذرات (الكروبات) والحشرات التى تطئونها بأقدامكم فهى وإن كانت تشارككم

فى الحياة لم تشارككم فى مزايا عقولكم وفضائل علومكم وبهجة نجومكم هكذا المفرطون فى أسماعهم وأبصارهم وشهواتهم .

يبصر الناس اليوم جمالى وهم لايبصرون ويبتهجون بمحاسن معانى وهم لايبتهجون فلهم أسماع ولكن لايعقلون ولهم أبصار ولكن لايبصرون . فاذا ظننتم أيها المسلمون أنكم بمنجاة من الحجاب وأن الحجاب إنما يسدل على الكافرين فقد أخطأتم المرمى ورجعتم بخفى حنين . ألم تقرءوا فى كتابى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» أى عبادى . أنا لم أنزل القرآن وقفا على اللعان المذكور فى آية النور ولا ولا على إقامة الحد على الزانى والزانية . إن هذه أحوال تعرض لكم مانعات من نظراتكم لجمالى فاذا جاوزتموها فهنالك أفتح لكم أبواب «الله نور السموات والأرض» وأعرفكم معانى ماتسمعون وما تبصرون . هنالك تفقهون تسبيح الطير فى جو السماء وتدركون عجائب الحيوان وأسرارى التى أودعتها فى غرائزه وبهذا تفرحون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» انتهى .

هذا مافهمته فى (سورة النور) يومى الخميس والجمعة وليلة السبت قبيل آخر سنة ١٩٢٨ والحمد لله رب العالمين .

سورة الفرقان مكية

وهى سبع وسبعون آية

وهى ثلاثة مقاصد

[المقصد الأول] فى إثبات النبوة وفى جزاء المكذبين من هذه الأمة والأمم السالفة من أول السورة إلى قوله «أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا» .

[المقصد الثانى] فى العجائب الكونية من قوله تعالى «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» إلى قوله «أو أراد شكورا» .

[المقصد الثالث] فى الآداب والأخلاق من قوله «وعباد الرحمن» إلى آخر السورة .

المَقْصِدُ الأَوَّلُ

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ

ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ
كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا
مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا *
قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ
مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا
الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا
وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ
اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ
لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ
وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا *
وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى
لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا * وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا *
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا *
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ

إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

تكاثر خير الله وتزايد على كل شيء وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله ودام ، وكل هذا معنى (تبارك الذى نزل الفرقان) وهو القرآن مصدر فرق بين الشيئين : إذا فصل بينهما، فانه نزل مفرقا وهو يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام، وتبارك كلة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده والمستعمل منه الماضى وحده، والبركة تتضمن معنى الزيادة كما تقدم ورتبه على إنزاله القرآن لما فيه من كثرة الخير أو لدلالته على تعاليه . ويقال أيضا دام كما تقدم من بروك الطير على الماء ومنه البركة لدوام الماء فيها (على عبده ليكون) أى العبد أو الفرقان (للعالمين) الجن والإنس (نذيرا) منذرا (الذى له ملك السموات والأرض) هو المتصرف فيهما كيف يشاء (ولم يتخذ ولدا) رد على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) رد على الثنوية وعلى عباد الأصنام (وخلق كل شيء) أحدثه (فقدره تقديرا) هيأه لما أراد منه من الخصائص . وقد تقدم فى هذا التفسير من عجائب الخلقة وبدائع الحكمة مايدهش الألباب، ومن الخصائص العجيبة للانسان والحيوان والنبات والكواكب مايظهر به إبداع الخالق وعجائب صنعه جل جلاله وعز كماله ولا إله إلا هو . ولما أثبت التوحيد والنبوة بما تقدم أخذ يرد على منكريهما فقال فى المشركين (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون) وذلك لأن العابدين لهم هم الذين ينحتونهم ويصورونهم (ولايملكون لأنفسهم ضرا) دفع ضر (ولا نفعا) ولاجلب نفع (ولايملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) ولا يملكون إماتة أحد ولا إحياءه ولا بعثه ثانيا. وقال فى منكرى النبوة (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك) كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه

عليه قوم آخرون) وهم اليهود أو عبيد بن الحضر الحبشى الكاهن أو جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب فقال المشركون إن محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم وقد سبق فى قوله تعالى « إنما يعلمه بشر » (فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد جاء قائلو هذه المقالة بظلم وزور إذ سموا كلام الله تعالى بالإفك والافتراء (وقالوا أساطير الأولين) ما سطره المتقدمون (اكتتبها) كتبها لنفسه أو استكتبها (فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) ليحفظها فانه أمى لا يقدر أن يكرر من الكتاب (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) ألا ترون أنه أعجزكم جميعا بفصاحته وإخباره بغيبات مستقبلة وأشياء لايعلمها أحد أفمثل هذا يكون أساطير الأولين ؟ ولولا عفوه ورحمته لعاقبكم ولكنه حلم عليكم (إنه كان غفورا رحيما) ثم أخذ يذكر الرد عليهم فيما اعترضوا به على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (وقالوا مال هذا الرسول) ما لهذا الذى يزعم أنه رسول (يأكل الطعام) كما نأكل (ويمشى فى الأسواق) كما نمشى لطلب المعاش . يقولون إن صح دعواه فما باله لا تخالف حالنا حاله (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) أى داعيا وبذلك نعرف صدقه (أو يلقى إليه كنز) فيستغنى عن تحصيل المعاش (أو تكون له جنة يأكل منها) أى إذا لم يلق إليه كنز أفلا يعيش عيشة المترفين أهل اليسر فى الدنيا فيكون له بستان كما لهم بساتين وهذا يستلزم أن يكون فى عيش رغد وسعادة جسمية وخدم وحشم حتى يكون ممتازا، ولما لم يكن متصفا بأحد هذه لم يكن ما يدعيه من النبوة صدقا فانما هو رجل سحر عقله وغلب عليه وهذا قوله تعالى (وقال الظالمون) وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا للظلم عليهم (إن تتبعون) ما تتبعون (إلا رجلا مسحوراً . أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) الأشياء التى لافائدة منها وادعوا عليك الأحوال الشاذة النادرة (فضلوا) عن الطريق الموصل لما يجب أن يكون عليه الأنبياء (فلا يستطيعون سبيلا) إلى النيل منك ولا إلى سبل الرشاد (تبارك) تكاثر خير (الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) وهب لك فى الدنيا خيرا مما قالوا وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك فى الآخرة من الجنات والقصور، وقوله (جنات) بدل من خيرا (تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) بيوتا مشيدة . ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب » وفى رواية أخرى « لو شئت لسارت معى جبال مكة ذهبا » الخ وهؤلاء قوم لايعرفون إلا الحياة الدنيا فقصرت أنظارهم عن الآخرة (بل كذبوا بالساعة) فقصروا أنظارهم على ماظنوه سعادة وهى الثروة فى الدنيا (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) نارا شديدة يبتدئ فى الدنيا سببها وهو قصر النظر على الأمور العاجلة فيحبسون فى سجن الأعمال والآمال المحدودة (إذا رأتهم من مكان بعيد) أى إذا قابلتهم النار وكانت بمرأى الناظرين فى البعد (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى سمعوا صوت غليانها كأنه صوت المتغيظ والزافر (وإذا ألقوا منها) من النار أى فيها (مكانا) فى مكان (ضيقا) لزيادة العذاب عليهم (مقرنين) أى مسلسلين مع الشياطين (دعوا هنالك) فى ذلك المكان (ثبورا) هلاكا يتمنون الهلاك وينادونه ويقولون يا ثبوراه : أى تعال فهذا حينك، ويقال لهم (لا تدعوا اليوم ثبوراً واحدا) هلاكا واحدا (وادعوا ثبورا كثيرا) لأنه كلما نضجت جلودكم بدلتم جلودا غيرها، ولأن أنواع العذاب كثيرة (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) أى الذى ذكرت من صفة النار خير الخ (كانت لهم جزاء ومصيرا) أى كانت لهم فى علم الله جنة الخلد ثوابا ومرجعا (لهم فيها ما يشاءون) أى أن جميع المرادات إنما تحصل فى الجنة وهناك لاتشتهى طائفة إلا ما يناسب حالها حال كونهم (خالدين كان) ما يشاءون (على ربك وعدا مسئولا) موعودا مسئولا سأله الناس فى دعائهم إذ قالوا « ربناوآتنا ما وعدتنا على رسلك » والملائكة إذ قالوا « ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم » وقوله « على ربك » يفيد معنى امتناع

الخلف (ويوم يحشرهم) للبعث (وما يعبدون من دون الله) وهم المعبودون من الملائكة والمسيح وعزير والأصنام، وغلبها فى التعبير عما وسينطقها الله الذى أنطق كل شىء كما ينطق الأيدى والأرجل (فيقول للمعبودين (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) لإخلالهم بالنظر والاعتبار بالقول والإعراض عن الهداة . وقوله « ضلوا السبيل » أى عنها وقد تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق والأصل إلى الطريق (قالوا سبحانك) تعجبا مما قيل لهم أو تنزيها لله عن الأنداد وإيذانا بأنهم مسبحون إما بالقول كالملائكة والأنبياء وإما بلسان الحال كالأصنام (ما كان ينبغى لنا) ما كان يصح لنا (أن نتخذ من دونك من أولياء) أى أن نوالى أعداءك بل أنت ولينا من دونهم (ولكن متعتهم وآباءهم) بطول العمر والصحة والنعمة فى هذه الدنيا (حتى نسوا الذكر) تركوا توحيدك وطاعتك والمواعظ والإيمان وغفلوا عن ذكرك (وكانوا قوما بورا) هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان (فقد كذبوكم) أى كذبكم المعبودون أيها المشركون (بما تقولون) إنهم آلهة (فما تستطيعون صرفا) دفعا للعذاب عنكم (ولا نصرا) يجيكم عليه . ومعلوم أن المحارب تكون نجاته إما بالهرب وإما بالنصر على عدوه وهؤلاء لا نصر لهم ولا انصراف فهم معذبون لا محالة . ثم خاطب الله الناس كلهم قائلا (ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) وهى النار الخالدة . وهذا القول عام لكل ظالم بكفر أو فسق . ولكن العلماء يختلفون فى الفاسق ، فمنهم من يجعله كالكافر وهم الخوارج والمعتزلة ، وبقية العلماء يقولون « إن الفاسق بالتوبة يغفر له بشروطها كلها وكذا بالعفو » (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) هذا جواب لقولهم « مال هذا الرسول يأكل الطعام » الخ . يقول الله « وما أرسلنا قبلك » يا محمد إلا رسلا « إنهم ليأكلون الطعام » الخ حذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه أى أن هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن «وما أنا إلا رسول» ، و«ما كنت بدعا من الرسل» وهم كانوا بشرا مثلى يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (وجعلنا بعضكم) أيها الناس (لبعض فتنة) ابتلاء فابتلينا الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم (أتصبرون) أى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيكم يصبر وفيه حث على الصبر على ما افتتنوا به (وكان ربك بصيرا) لمن صبر ولمن جزع . فى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه فى المال والجسم » لفظ البخارى ، ولمسلم « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يأملون الوصول إلى جزائنا (لولا) هلا (أنزل علينا الملائكة) رسلا دون البشر أو شهودا على نبوته صلى الله عليه وسلم (أو نرى ربنا) جهرة فيخبرنا برسالته (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى أضمروا الاستكبار عن الحق (وعتوا) وتجاوزوا الحد فى الظلم (عتوا كبيرا) أى أنهم بلغوا غاية الاستكبار إذ عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها وطلبوا ما تشتاق إليه الأنفس القدسية . واذكر (يوم يرون الملائكة) وهو يوم الموت ، ثم أخبر فقال (لا بشرى يومئذ للمجرمين) أى لهم وإنما وضع الظاهر موضع المضمر لوصفهم بالإجرام (ويقولون) أى الملائكة (حجراً محجورا) حراما محرما عليكم البشرى أى جعل الله البشرى حراما عليكم وإنما البشرى للمؤمنين وهذا من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) أى وعمدنا إلى ما عملوا من أعمال البر التى عملوها فى حال الكفر (فجعلناه هباء منثوراً) باطلا لا ثواب له . والهباء ما يرى فى الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدى، ولا يرى فى الظل. والمنثور المتفرق وكذلك ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار يقال له هباء (أصحاب الجنة

يومئذ

يومئذ خير مستقرا) أى خير مكانا يستقر فيه من هؤلاء المشركين المستكبرين (وأحسن مقيلا) أى مكانا يستروح فيه بالأزواج والتمتع بهن وذلك مجاز من مكان القيلولة وفى ذلك رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وغيره من المحاسن ، ويقال إن أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر ماهو من أول النهار إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم فى الجنة . ويروى إن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس (ويوم تشقق السماء بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو المذكور فى قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » (ونزل الملائكة تنزيلا) فى ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد فتشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الإنس والجن ثم تشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى السماء الدنيا ومن الجن والإنس . ثم كذلك حتى تشق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التى تليها ، ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى الملك الذى هو الملك حقا ملك الرحمن يوم القيامة فلا ملك يقضى غيره يوم القيامة (وكان يوما على الكافرين عسيرا) شديدا (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لأن عض اليدين من روادف الحسرات ، وأل فى الظالم للجنس فيتناول عقبة بن أبى معيط الذى كان سبب نزول الآية وغيره (يقول ياليتنى اتخذت) فى الدنيا (مع الرسول سبيلا) طريقا إلى النجاة والجنة وهو الإيمان (ياويلتا) وقرىء « ياويلتى » لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك (ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) فلان كناية عن الأعلام : والمراد كل خليل يصد عن الهدى ويوقع صاحبه فى الردى . فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لامحالة فجعله كناية عنه . ومن الأخلاء الشياطين فلا فرق بين شياطين الإنس ، وشياطين الجن ومن هؤلاء الأخلاء أبى بن خلف « وذلك أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت ، فقال لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله » وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد . ثم قال الله تعالى (لقد أضلنى) أى الخليل (عن الذكر) أى عن ذكر الله أو القرآن (بعد إذ جاءنى) من الله (وكان الشيطان) أى خليله لأنه واحد من شياطين الانس والجن (للانسان) المطيع له (خذولا) يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه (وقال الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أو فى الدنيا يبث شكواه إلى الله (يارب إن قومى) قريشا (اتخذوا هذا القرآن مهجورا) بأن تركوه وصدوا عنه . مأخوذ من الهجران ، وفيه تخويف لقومه وما شكا نبى قومه إلا حل بهم العذاب ، ثم أقبل الله عليه مسليا فقال (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) أى وكما جعلت لك أعداء من مشركى قومك جعلنا لكل نبى الخ والعدو يحتمل الواحد والجمع : أى لايكبرن عليك ذلك فان الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فانى ناصرك وهاديك ، وهذا قوله تعالى (وكفى بربك هاديا) إلى طريق قهرهم (ونصيرا) لك عليهم (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أى هلا أنزل عليه دفعة واحدة فى وقت واحد كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور (كذلك) يقول الله إجابة لهم أنزل كذلك أى مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة (لنثبت به فؤادك) لتقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فان الكتب السابقة نزلت على أنبياء يقرءون ويكتبون ، وهذا القرآن نزل على نبى أمى لايكتب ولا يقرأ فلو ألقى عليه جملة

واحدة ليستتب له فان التلقف لا يأتى إلا شيئا فشيئا . وأيضا نزل القرآن بحسب الوقائع فذلك يوجب زيادة البصيرة وغوصا فى المعانى وبنزوله منجما يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته فيزيده ذلك قوة فى قلبه ومن ذلك معرفة الناسخ والمنسوخ . ولقد عرفت حكمة الناسخ والمنسوخ فى هذا التفسير فى سورة البقرة فاقرأه هناك . ثم قال تعالى (ورتلناه ترتيلا) قرأناه عليك شيئا بعد شىء على تؤدة وتمهل، والترتيل التبيين فى ترسل وتثبت، ويقال فرقناه تفريقا آية بعد آية (ولا يأتونك بمثل) سؤال عجيب كأنه مثل فى البطلان أى يضربونه لك فى إبطال أمرك (إلا جئناك بالحق) الدافع له فى جوابه (وأحسن تفسيرا) وبما هو أحسن بيانا،أو معنى من سؤالهم وقال تعالى (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) أى يساقون ويجرون على وجوههم الخ مبتدأ خبره (أولئك شر مكانا) أى منزلا ومصيرا (وأضل سبيلا) أى أخطأ طريقا وكأنه قيل إنه ما حملهم على هذه الأسئلة إلا تحقير مكانه صلى الله عليه وسلم وتضليل سبيله وهم لايعلمون حالهم فليعلموا أنهم « شر مكانا وأضل سبيلا » وقوله تعالى « يحشرون على وجوههم إلى جهنم » الخ قد ورد فى الحديث مايناسب ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ، فقال عليه الصلاة والسلام الذى أمشاكم على أقدامكم يمشيهم على وجوههم » . ولما كان من عادة الله تعالى أن يذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأمم السالفة مع أنبيائها ليكون ذلك أنسا لقلبه ونبراسا للصلحين من أمته أردف ذلك بذكر موسى ونوح وعاد قوم هود وثمود قوم صالح وأصحاب الرس قوم شعيب وذلك لأنه ذكر أنه جعل « لكل نبى عدوا من المجرمين » وأن الله يهدى الأنبياء وينصرهم . فههنا أخذ يبين كيف نصرهم الله على أعدائهم وهداهم إلى ذلك النصر ولإرشاد أممهم فقال (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) يوازره فى الدعوة وإعلاء الكلمة مع مشاركته له فى النبوة ، والشريكان فى النبوة متوازران فيها (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) وهم فرعون وقومه (فدمرناهم تدميرا) أى فذهبا إليه فكذبوهما فدمرناهم . هكذا هؤلاء أرسلتك إليهم يامحمد فان كذبوك فانى أدمرهم تدميرا وقد تم كل ذلك (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) لأنهم بتكذيب نوح قد كذبوا سائر الرسل لأن دعوتهم واحدة (أغرقناهم) بالطوفان (وجعلناهم) وجعلنا إغراقهم أو قصتهم (للناس آية) عبرة (وأعتدنا للظالمين) من كل أمة (عذابا أليما) كما عذبنا هؤلاء (و) أهلكنا (عادا وثمود وأصحاب الرس) هم قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيبا فكذبوه فبيناهم حول الرس : البئر المطوية انهارت فخسف بهم وبديارهم (و) أهلكنا (قرونا) أى أمما (بين ذلك) المذكور (كثيرا) لايعلمها إلا الله أرسل إليهم أنبياء فكذبوهم فأهلكوا ، قيل القرن سبعون سنة وقيل مائة وعشرون سنة (وكلا ضربنا له الأمثال) بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذارا وإعذارا فأصروا على الاستكبار والكفر فهلكوا وهذا قوله تعالى (وكلا تبرنا تتبيرا) فتتنا تفتيتا، ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد أتوا) يعنى قريشا مروا مرارا فى متاجرهم إلى الشام (على القرية التى أمطرت مطر السوء) وهى سدوم التى هى أعظم قرى لوط وقد أمطرت عليها الحجارة (أفلم يكونوا يرونها) إذا مروا بها فى أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا . ولا جرم أن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم فى ممرهم إلى الشام (بل كانوا لايرجون نشورا) لايخافون بعثا أو لايأملون نشورا كما يأمله المؤمنون (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) مايتخذونك إلا موضع هزؤ أو مهزوءا به،إذ كان أبو جهل إذا مر مع أصحابه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا، إن كاد) أى إنه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) ليصرفنا عن عبادتها (لولا أن صبرنا عليها) أى على عبادتها، أو لو لم نصبر على عبادتها لصرفنا عنها (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) فى الآخرة عيانا (من أضل سبيلا) أى أخطأ طريقا (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى من أطاع هواه

فيا يفعل وفيا يترك فهو عابده وجاعله إلهه . يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الذى لايرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتحفظه من متابعة هواه وعبادة ماأدى إليه هواه فتكون عليه موكلا فتصرفه عن الهوى إلى الهدى فما عليك إلا البلاغ وهذا قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) ، يقال إن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد حجرا فاذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثانى . وقال الحسن : هذه الآية فى كل من اتبع هواه . ثم قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) أى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتقول سماع طالب الإفهام أو يعقلون ما يعاينون من الحجج . وهذا الذم أعظم مما تقدم فكأنهم لاسمع لهم ولا عقل حتى شبههم بالأنعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر بل هم أضل من الأنعام لأنها تهتدى لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها وهؤلاء الكفار لايعرفون طريق الحق ولايطيعون ربهم الذى خلقهم ورزقهم، ويقال إن الملائكة روح وعقل والبهائم نفس وهوى والآدمى مجمع الكل فان غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام. انتهى التفسير اللفظى للمقصد الأول من السورة . وفيه لطائف :

(١) فى قوله تعالى «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده» الخ .

(٢) وفى قوله «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» .

(٣) وفى قوله «ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا» .

(٤) وفى قوله «وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام» .

(٥) وفى قوله «لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا» .

(٦) وفى قوله « أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك » إلى قوله « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا» .

(٧) وفى قوله «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون» .

(٨) وفى قوله «وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

(٩) وفى قوله «ويوم تشقق السماء بالغمام» .

(١٠) وفى قوله «ويوم يعض الظالم على يديه» الخ .

(١١) وفى قوله « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا» .

(١٢) وفى قوله «وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين» .

(١٣) وفى قوله «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم» .

(١٤) وفى قوله «أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا» .

(١٥) وفى قوله «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» .

﴿ اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » ﴾

تقدم أن معنى تبارك يشمل تكاثر الخير والدوام والتعالى على كل شىء فهو عال فى صفاته وأفضاله ودائم فانظر إلى الصفات التى ذكرت فى حيز هذا الفعل إذا هى :

(١) أنه نزل الفرقان على النبى صلى الله عليه وسلم لينذر الناس .

(٢) وأنه له ملك السموات والأرض .

(٣) ولا ولد له .

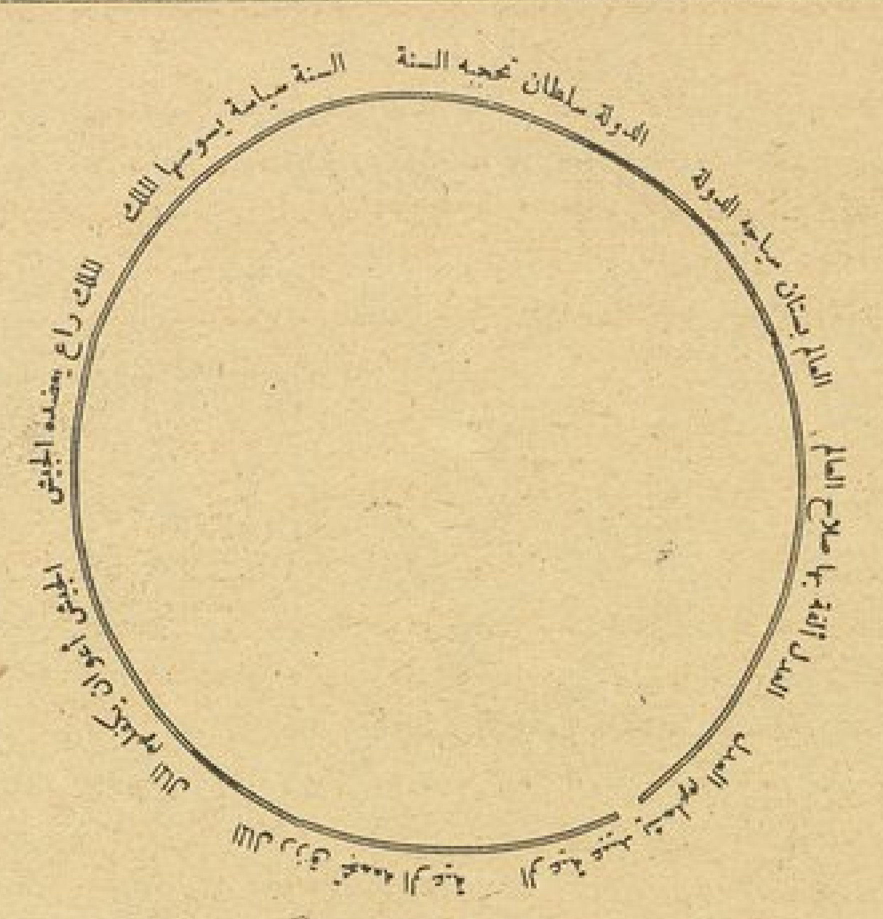
(٤) ولا شريك له .

(٥) وأنه خلق كل شىء .

(٦) وأنه قدره تقديرا وجعله على أبدع وأتقن الأوصاف .

فهذه الأوصاف هى الخير كله والبركة من نور ينزل إلى الأرض وهداية الناس وملكهم سائر الكائنات وجميع الملوك خاضعون فليس له ضد ولا ولد لأن الولد لمن يفنى فيقوم مقامه والشريك يدل على قوة مقاومة وليس الانفراد بالملك وعدم المنازع وعدم الفناء الذى دل عليه أنه لاولد له يغنى عن أنه قادر على خلق كل شىء فربما كان مالكا لكل شىء دائم الوجود لاضد له ومع ذلك لايقدر على خلق كل شىء بل ربما كان هذا الملك قد أخذه اغتصابا فقال « وخلق كل شىء » فكل مايملكه فى السموات والأرض هو خلقه لا أنه أخذه عن غيره ولم يخلق الأشياء اعتباطا بل جعل لكل شىء قدرا مقدورا وحدا محدودا ونظاما ثابتا وهذا هو السبب فى بقاء ملكه ودوامه ، لأن دوام الملك على مقتضى النظام . فكلما اختل النظام كان زوال الملك أسرع وكلما كان النظام أتم كان الملك أدوم ولذلك يقال [إن العدل أساس الملك] ويدلك على ذلك الدائرة المشهورة المثمنة الكلمات التى أرسلها (أرسطاطاليس) إلى الاسكندر المقدونى تلميذه لما فتح بلاد فارس ورأى أن الناس تقدم للاسكندر الهدايا المالية والتحف الغالية والذخائر الثمينة من الجواهر والأحجار الكريمة فرأى أن هديته إلى تلميذه الملك يجب أن تكون أرقى من كل شىء وذلك هو العلم فكتب له دائرة فيها ثمان كلمات يرجع آخرها إلى أولها وأولها إلى آخرها كما يرجع هذا الكون كله إلى دائرة يتوقف أولها على آخرها وآخرها على أولها وهذه صورتها فى الصحيفة التى تليها :

وقد



وقد تقدمت هذه الدائرة فى (سورة آل عمران) وأعدناها هنا لما نراه من الشرح عليها . ويقال أيضا إن (أرسطاطاليس) أوصى أن تكتب هذه الكلمات الثمان على مدفنه فى جهاته الثمان . هذه هى الكلمات الثمان، وهذه هى الوصايا التى عرف الناس قديما أن لابقاء للملك إلا بها . فتأمل أيها الذكى وانظر وتفكر وقل لى: ألست ترى أن الملك مضطر إلى شريعة وإلى جيش والجيش إلى مال والمال إلى رعية والرعية إلى العدل والعدل إلى دولة والدولة إلى سلطة وقوة والسلطة والقوة تحتاج إلى قانون والقانون إلى الملك . فانظر ألست ترى أن الفلاح محتاج إلى رئيس الدولة ورئيس الدولة محتاج إلى الفلاح . ألست ترى أن الناس فى الحقيقة كجسم واحد . وكما أن العين لابد لها من رجل ويد فاليد لاتعمل والرجل لا تنتقل بلا عيون مبصرة .

إن الأمم لا حياة لها إلا بنظام تام ودوام الملك على حسب ثبات النظام ولذلك نجد الأمم كلما اختل نظامها أسرع فناؤها .

هذا فى ممالكنا الأرضية . ولتعلم أيها الذكى أننا لم نكون دولا ولم نقم ممالك إلا على مقتضى القانون الإلهى، فإن الأدنى تبع الأعلى . ولما كنا عبيدا لله وضع فى نفوسنا قوانين الحياة والنظام ولكنه أعطانا القوانين على حسب قابليتنا . فكلما ارتقت العقول والأخلاق كان نظام دولنا أكمل . وكلما ضلت العقول والأخلاق كان نظام دولنا أضعف وأقرب إلى الزوال . انظر بعقلك إلى نظام النمل والنحل والزنابير وكلاب البحر والغربان وكثير من الطيور والسمك فى البحر وكثير من الحشرات . ألم تر أن الله أعطاها نظاما ثابتا بالهام لا بتعلم، فدام نظامها على مقتضى إلهامه . أما الانسان فإنه هو الوحيد الذى أمر أن يقتفى آثار الحكماء والعلماء ويفكر، فان شاء صار أقل من تلك الحيوانات، وإن شاء صار قريبا من الملائكة .

﴿ اعتراض على المؤلف ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع بعض الفضلاء على هذا فقال ياعجبا كل العجب نحن فى مقام إن الله له ملك السموات والأرض وليس له ولد ولاشريك ، وأنه خلق كل شىء فقدره تقديرا . فما لنا وما لأرسطاطاليس ونظام دول الأرض ، ونظام النمل والحشرات والطيور . ياعجبا كل العجب . إن الناس يقولون فيك إنك مغرم بالبحث فى الحيوان وفى الكواكب . فأنت فى كل مقام وبأدنى مناسبة ولأقل سبب ترجع إلى ما اعتدته ، ويظهر أن مسألة التفسير وغيرها ترجع إلى أذهان المفسرين والمؤلفين لا إلى القرآن وإلا فلماذا نراك دائما تخوض فى مواضيع لاعلاقة لها بتفسير القرآن .

فأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من على

غيره :

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

فقلت له يرحمك الله لاتعجل على قبل أن أبين لك ماأريده . ها أنا ذا ذكرت لك نظام الدول وأنها كلما كانت أقوى نظاما كانت أدوم . وأقرب شاهد على ذلك كلام (أرسطاطاليس) وهذا ملكنا الصغير فانظر إلى ملك الله الكبير . ألست ترى أنه دائم . أو لست ترى أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم والانسان والحيوان بين يديك . ألست تقرأ فى الكتب أن هذه الدنيا كانت من أزمان قديمة مسكونة بأمم وأن هذه الشمس وهذه النجوم كانت موجودة . قال بلى . قلت فهذا الدوام ناشىء من حسن النظام وقد جعلنا الدوام راجعا لحسن النظام فلولا حسن النظام فى هذا الوجود لاختل ولانهدمت الأرض والسموات كما تخرب الدولة بسوء سياستها . فكيف يمكننا أن نعرف أن نظام الله لا يضارعه نظام إلا بهذه الموازنة إذ أننا نرى دولا تسقط سريعا بسوء نظامها وأمما تبقى مئات السنين لحسن نظامها والتاريخ وعلوم السياسة كافلان بذلك . ثم إننا نجد نظاما ثابتا لايتدهور ولا يتداعى ولا يسقط فاذا هو نظام الله فقلنا إن هذا النظام بديع فوق كل نظام . إننا ونحن على هذه الأرض ضعاف مساكين جهال ، فاذا ادعينا أن نظام الله عظيم يقال لنا وكيف تحكمون بذلك وأنتم عبيده قصار الأعمار فلنحكم بالنتائج ونوازن ملكه علكنا ونظامه بنظامنا فاذا وجدنا دولنا تتسارع إلى الفناء وملكه قائم شامخ لاينقضى ولا ينهدم ولا يتساقط ووجدنا شمسه وقمره وكواكبه سائحة رائحة غادية دائرة ساهرة جادة لاتنام ولاتغفل عرفنا أن ذلك الملك الدائم دال على نظام فوق كل نظام وبهذا وحده نفهم هذه الآية . فاذا قيل لنا إنه له ملك السموات والأرض ولا ولد له ولا ند له وأنه خلق كل شىء فهذا كله لايعطينا أن الملك دائم ، فما قال «فقدره تقديرا» عرفنا دوامه ولا يستبين لنا ذلك إلا بما قدمناه وبهذا نعرف قوله «تبارك الذى بيده الملك» فهذا معنى تكاثر خيره ومعنى دوام خيره .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد أحسنت صنعا وأجدت معنى وأريتنا مالم نكن لنتوقعه وكأنك بذلك تريبنا أن مثل هذه الآية داعية إلى النظر فى أمور الأمة . قلت ولم لايكون ذلك ونحن أمرنا أن نتخلق بأخلاق الله وقد جاء فى القرآن « إن ربى على صراط مستقيم » فهذا من صراطه المستقيم وقد أمرنا أن نقول فى الصلاة «اهدنا الصراط المستقيم» والنكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول فكأننا أمرنا أن نسير على صراط الله المستقيم . ولقد صرح بذلك فى آية أخرى فقال «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» فهذه الآية تدعو حثيثا إلى أن نحذو حذو خالق العالم فى حسن النظام والتقدير . واعلم أن فهم مثل هذه الآية يحتاج إلى علوم الأولين والآخرين فان قوله « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » تدعو إلى البحث فى كل شىء . تدعو إلى البحث فى الأنهار . فى المزارع . فى أضواء الشمس . فى نفس الشمس

وفى القمر وفى الكواكب . انظر . انظر . انظر وتعجب ، انظر إلى الدائرة التى سبق ذكرها فى كلام (أرسطاطاليس) فانظر كيف جعل الأمة قد ارتبط بعضها ببعض وأنت متى تأملت العالم كله وجدته على مثل هذا النظام والتقدير ، ترى ضوء الشمس يحرك البخار من البحار ويحرك الهواء فى الجو فيصير الهواء رياحا هابة ويحمل البخار ويسير به بين جبلين ليحفظاه وهو جار حتى يحمل البخار إلى عشرات الأميال بعيدا عن البحر فيسقط مطرا على الأرض ويكون هناك الحب فينبت . والشمس التى أثارت البخار وحركت الرياح هى بعينها تلح على الحبة وعلى الأرض فتنبت وتخرج حبا آخر . والشمس لاتزال تلح بأشعتها فيخرج الحب فيأكله الناس . ولا حياة للناس ولا للنبات ولا للحيوان إلا بالماء والرياح التى تهب من وقت لآخر ثم يصير الماء الذى فى أرض الزرع وفى أجسام الناس بخارا يصعد إلى الجو فيرجع مطرا وهكذا تلك الرياح لاتزال دائرة . ولقد تقدم أن تنفس الحيوان لابد منه فى بقاء النبات وتنفس النبات لابد منه فى بقاء الحيوان ، فهناك تبادل سبق إيضاحه بحيث لايعيش الحيوان ولا يعيش النبات إلا إذا كان كل منهما موجودا على الأرض . وهكذا أيضا غذاء الحيوان لابد من أن يكون نباتا وإلا هلك وسماد النبات يكون من الحيوان والانسان متوقف عليهما والجميع متوقفون على الرياح والماء وهما متوقفان على الشمس والشمس لابد من سيرها وسيرها متوقف على شمس أخرى تدور حولها والشمس الأخرى تدور حول أخرى وهنا انقطع علم الناس . فاذا قال (أرسطاطاليس) هنا ثمان كلات . قلنا هناك كلات لاتحصى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا» .

•

بمثل هذا فليدرس هذا القرآن وليدرس الناس هذا النظام العجيب وإلا فلا معنى للحياة . فبمثل هذا فليعرف الناس تقدير الله الملك وكيف قال الله تعالى «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» فالتقدير يعرف فى الكليات وفى الجزئيات . فأما الجزئيات فقد تقدم فى هذا التفسير مافيه مقنع للبيب . ولقد ذكرنا فيه نظام الانسان والحيوان والكواكب وكتبنا فيه من كل فن ولم نذر النحل ولا النمل ولا العنكبوت إلا كتبنا فى عجائبها، فبعضها قد كتبناه فيما مضى وبعضها سيكتب إن شاء الله إن دامت الحياة فى حينه متى وصلت إليه ومن درس الدوائر التى فى الانسان من دائرة العقل إلى دائرة التنفس إلى الدائرة الدموية إلى الدائرة الغذائية رأى تعاونا بديعا جدا ، فان العقل به يدار نظام الجسم فاذا مست النار الجلد أسرع الانسان إلى مجانبتها وذلك بالحواس وهى هنا حاسة اللمس ، وإذا جاع الانسان احتال فى طلب الغذاء وذلك بالعقل والحواس والجوارح . ثم إن دائرة التنفس تدخل الهواء فى الرئتين فيصلح الدم ثم يخرج من الفم حاملا الكربون أى المادة الفحمية ليدفعها إلى الهواء وهذه المادة الفحمية تذهب إلى النبات فتغذيه فهى ضرر فى الانسان منفعة فى الحيوان . ثم إن الدائرة الدموية التى أصلحها التنفس عبارة عن دم يجرى فى الأذين الأيمن والبطين الأيمن والأذين الأيسر والبطين الأيسر فى القلب فالقلب عبارة عن . [أربع تجاويف] اثنان أعليان واثنان أدنيان ويقابل فى الرئتين الهواء الجوى فيصلح ويرجع للقلب وتتفرع الشرايين الممتدة فى أعلى الجسم وفى أسفله لكل منهما بعرق غليظ متفرع إلى فروع تمتد وتغور فى سائر أطراف الجسم . فانظر كيف احتاجت الأعضاء إلى الدم لتأخذ منه مايعوض مافقدته من المواد التى صارت فحما وكيف احتاج الدم إلى الهواء لينقى من المواد الفحمية وكيف احتاج الهواء فى دخوله إلى أن يكون فى الرئتين وكيف كانت الرئتان لايدخلهما الهواء إلا بعد مروره بالقصبة الهوائية ولا يمر بها إلا بعد دخوله فى الحنجرة ولا يدخل فيها إلا بعد دخوله من الخيشوم ، ثم إن الدم لايكون إلا من خالص الغذاء ، وخالص الغذاء يكون فى الأمعاء ، وخالص الغذاء فى الأمعاء يكون آتيا من المعدة والغذاء فى المعدة جاء من المرىء والمرىء أخذه من الفم والفم قد مضغه بالأضراس ، وقد تلقاه عن الشفتين وهما

عن اليد واليد تناوله من المائدة والمائدة مدينة للخباز والطباخ وهما مدينان للفلاح والفلاح يزرع الأرض .
فالزرع متوقف على الفلاح المتوقف على الطعام فصار الطعام متوقفا على الطعام والفلاح متوقفا على الفلاح
وهذه الدائرة هى عين التى قالها (أرسطاطاليس) إنما هذه أطول وأطول . وقد قدمنا لك أن هذه الدائرة
لانهاية لها بل هى متسلسلة تسلسلا يفوق إدراك البشر . فدوائر الناس فى مدنهم على مقتضى دوائر الله فى
نظام ملكه .

بهذا تفهم كيف قال تعالى هنا «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده» الخ ثم قال «الذى له ملك السموات
والأرض» كأن الله يقول لنا : أنا أنزلت القرآن على محمد ليفرق بين الحق والباطل والحرام والحلال ، وإذا
كنت أنا الذى أنزلت القرآن على محمد فأنا الذى قدرت كل شىء تقديرا ووزنته بميزان عدل . فأنا الذى
وزنت السموات والأرض فالزموا نظامكم على نظامى . فأنا إذا أنزلت الفرقان على عبدى فإنى أقصد أن
تجعلوا نظامكم على وفاق نظامى أى أن تجتهدوا أن يكون نظامكم أكمل نظام على قدر الإمكان . ألست أنا
القائل « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »
فأنا وزنت السموات و لأرض لأجل أن تسيروا على نظامى فى الوزن والعدل ،أى لأجل ألا تطغوا فى الميزان
أى لاتزيدوا فيه ولكن وزنكم بالحق ولا تنقصوه على مقتضى نظامى . هكذا هنا يقول الله تعالى : أنا أنزلت
القرآن على عبدى ليكون للعالمين نذيرا . ثم وصف نفسه سبحانه بصفات الملك الدائم الذى هو على أحسن
تقدير ، وبهذا تجلى المعنى فى أحسن زى وأبهى جمال وأبدع صلة وأوفى بيان .

﴿ حكاية عجيبة بديعة سارة شارحة للصدور فى اللطيفة الثانية ، وهى قوله تعالى «فقدره تقديرا» ﴾

لقد سبق الكلام على التقدير فى اللطيفة الأولى بما لامزيد عليه . ولأذكر لك حكاية بديعة شارحة
لصدرك وان كانت دقيقة المعنى فأقول :

بينما أنا أكتب فى هذا التفسير إذ قرأت فى الجرائد المصرية يوم الثلاثاء (٣) فبراير سنة ١٩٢٥ الموافق
(٩) رجب سنة ١٣٤٣ هجرية خبر رجل إفرنجى ألقى محاضرة فى بلادنا المصرية وهو ألمانى الجنس . وتلك
المحاضرة مناسبة لهذه الآية فأردت أن أثبت المقصود منها لتكون من عجائب العلم وبدائع القرآن والمصادفات
التى تدهش القارئين الأذكياء فأقول :

إن هذا العالم اسمه البارون (ولدمير اوسكول) ألمانى الجنس وهو روسى المنشأ وقد ساح العالم وألف كتبا
عن بلاد شتى . وقد دعاه أهل القوقاز وهم مسلمون فعاش بينهم أمدا طويلا وأعجب بهم ثم توجه إلى أسوج
ووقع فى يده كتاب فى جامعة (استوكهلم ولوند) عن مصر مشتمل على حكم (توت) المعروف باسم آخر هو
(هرمس تريس ماجستى) والحكم التى وردت فى ذلك الكتاب جاءت فى اثنتين وعشرين صورة رمزية كانت
مرسومة على جدران هيكل عنفيس تهدم ولكن بقيت أوصافه فألقى محاضرات شيقة من هذا الكتاب فى
أسوج وفى ألمانيا وفى الدانمرك وجعلها فى كتاب . ولهذه الصور اتصال بعلم الأرواح والمهم ماذكره فى إحدى
محاضراته بعصرنا مما يوافق هذه الآية . قال :

إن المصريين القدماء كان عندهم من الحساب (نوعان) نوع عام يعرفه الناس ، ونوع خاص لايعرفه إلا
رجال الدين . أما النوع العام فهو الجمع والطرح والضرب والقسمة . وأما الذى يختص برجال الدين فهما
الجمع المقدس والطرح المقدس . وبيان ذلك أن واحدا ليس من الأعداد وانما هو خاص بالله تعالى لأن العدد
كلمة دالة على التعدد والواحد لاتعدد فيه فهو خاص بالله تعالى وجميع الأعداد مركبة من الواحد فاذا زال
الواحد زال العدد وإذا زال العدد لم يزل الواحد وهكذا الكسر لايكون إلا بالواحد فلانصف ولا ربع ولا

جزء من (١١) ولا جزء من مئات الألوف إلا إذا كان الواحد فالواحد هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وهو كل شئ . ثم إننا إذا أضفنا إلى الواحد ٣ ثم ٣ على طريقة المتوالية العددية التى تكون بزيادة ٣ فنقول (١ - ٣ - ٧ - ١٠ - ١٣ - ١٦ - ١٩) .

هذه المتوالية العددية فيها سر تكوين هذه الدنيا عند قدماء المصريين بل فيها سر المبدإ والمعاد . فيها سر الأولين والآخرين . فيها سر الدنيا والآخرة . فيها الرفع والخفض والموت والحياة والعمارة والخراب فيها سر الله وسر الخلق . فيها سر كل شىء . وبيانه أنك إذا أضفت ٣ إلى واحد بطريق الجمع المقدس فان ذلك اشارة إلى آثار الله فى الطبيعة . فترى الفصول الأربعة وترى الصبح والظهر والعصر والمغرب يكون من مجموعهما الليل والنهار . وترى أكثر الحيوان الظاهر على أربعة أرجل . وترى هناك جهات أربعة ورياحا أصلية أربعة وهكذا من كل ماهو أربع . فاذا أضفنا (٣) أخرى صار العدد (٧) وهو الكمال فى كل شىء فى الفرد وفى المجموع . فأماعشرة فهو رمز إلى منقلبات الحياة من رفع وخفض فى الأفراد والأمم ، ورقم (١٣) إشارة إلى الموت موت الأفراد وموت الأمم ، ورقم (١٦) إشارة إلى الدمار العام والهلاك التام ، ورقم (١٩) اشارة إلى الحياة التامة ورجوع جميع الأحياء إلى حياة كاملة . هذه هى الرموز التى كانوا يقولون إنها تدل على هذه المعانى وكأنها صور رمزية دينية تقرب المعانى البعيدة . وأنا أزيدك على ماقاله أن هذه المتوالية العددية إذا أضفنا أولها إلى آخرها صار المجموع عشرين نصفها عشرة أى أن الحد الأول والحد الأخير منها يساويان الحد الأوسط مضروبا فى اثنين إن كان واحدا ، أو الحدين الأوسطين مجموعين معا إذا كانا اثنين كما إذا ابتدأنا بواحد وختمنا باثنين وعشرين فانك تضيف الواحد فيكونان (٢٣) وهما يساويان الحدين ١٠ و ١٣ متضامنين إلى بعضهما لأن الحدود فى هذا عددها ثمانية فيكون الوسط حدين فأمافيما قبله فان عدد الحدود سبعة ووسطها عدد (١٠) فيضرب فى اثنين . ولعلك تقول ومالآية ولهذه المحاضرة ؟ أقول إن الآية أفادتنا أن الله واحد لا شريك له وأنه لا ولد له . وكل هذه المعانى يرمز لها بعدد واحد لأن الواحد منه كل شىء . وأما قوله « نزل الفرقان على عبده » فقد رمزوا له بآثار الله فى الطبيعة . ومعلوم أن لله أثرين أثرا فى الخلق والتقدير وأثرا فى الهداية فهذا له الرمز عندهم بعدد أربعة . وأما كونه تعالى له ملك السموات والأرض وخلق كل شىء فقدره تقديرا . فذلك رمزوا له بالعدد سبعة كما تقدم وبالعدد (١٠) لأن الخفض والرفع من أنواع التقدير وبعدد (١٣) وبعدد (١٦) لأن الهلاك والدمار من نوع التقدير وأما عدد (١٩) فهو المرموز له بإعادة الخلق بعد العدم .

﴿ بهجة العلم فى قوله تعالى « تبارك الذى نزل الفرقان » إلى قوله « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » وفيه ثلاث ياقوتات : الياقوتة الأولى فى قوله « ليكون للعالمين نذيرا » مع قوله « ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك » (الياقوتة الثانية) فى نظام الآية من حيث ترتيب جملها إذ قدم تنزيل الفرقان فى الذكر على خلقه للسموات والأرض مع أن الترتيب العملى يخالف ترتيب نظام الآية « الياقوتة الثالثة » فى قوله تعالى « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ﴾

﴿ الياقوتة الأولى فى قوله تعالى « ليكون للعالمين نذيرا » مع قوله « ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك » ﴾

اعلم أن الحكماء من الأمم العظيمة أجمعوا أن الله لا يحكم عليه زمان ولا مكان وبرهنوا على ذلك بأن الزمان إنما جاء من دوران الشمس والكواكب ، والمكان إنما حصل بترتيب هذه العوالم . إذن الزمان يحكم علينا ، أما خالق العالم فالزمان حادث بفعله ولا حكم له إلا علينا . إذن الله لا يحكم عليه زمان ولامكان وقد تقدم هذا فى بعض هذا التفسير . والزمان بالنسبة للأفراد يعد بالسنين وبالنسبة للأمم يعد بالقرون . إن الله

يسد الطفل قبل ولادته كل ما يحتاجه حاسبا زمانه فلا يكاد يكمل خلقه فى الرحم حتى ترى دم الأم يأخذ فى التوجه لثديها وهناك يأخذ ذلك الجهاز الثديى فى تحويل الدم إلى لبن شيئا فشيئا ، وترى هناك أهل الطفل قبيل ولادته قد أعدوا له القابلات والثياب التى تكون وقاية له والحجرة التى يعيش فيها . فهنا يكمل الاستعداد لاستقبال ذلك الضيف الحبيب ، فالمال يبذل والدم يصير لبنا والحكومة تعد الدفاتر لقيده . كل ذلك لطفل قادم من الرحم نازل بهذه الأرض المباركة الطيبة . هذه أفعال الله فى طفل قادم إلينا . إذن الحكمة التى دبرت هذا العالم لا تذر فردا إلا أحاطته برحمة لا حد لها . فلننظر للأمم فنقول :

علم الله قبل أن يخلق هذا العالم أن هذا الإنسان الذى يخلقه على وجه الأرض لا يقدر عقله أن يفهم أن إله العالم بعيد عن المادة متعال عنها فأنزل أنبياء وعلم حكماء قديما وقال لهم قولوا إننى لا ترانى العيون ولا تحيط بى الظنون فقال ذلك (بوذا) و (خرشنا) بالهند وقالها (بو) و (كونفشيوس) بالصين وقالها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فما كان من الأمم إلا أن اخترعت [أمرين : الأول] أنه خيل لهم أن الإله كالأب والمادة كالأم وأن أحد القديسين كالابن فقالوا إن الله له ولد وولده بين ظهرانينا وقد أرسله وصلب لأجلنا ورفع وذلك ليسهلوا للناس أن لهم إلها وإلا فكيف يكون إله لا نراه ولا نرى له ابنا . أليس الله مثلنا يلد . أليس يجب أن يرسل ابنه لنا كما يرسل الملوك أولياء العهد فى البلاد التى يحكمها (الأمر الثانى) أنهم لم يقدروا أن يتصوروا موجودا لا يرى فعبدوا الكواكب ثم الأصنام التى ملأت السهل والوعر فى العالم الآن . وقد تقدم هذان الأمران فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أندادا » وفى (سورة المائدة) فى آخرها ، وفى (سورة إبراهيم) عند ذكر الأصنام ، وفى (سورة مريم) عند ذكر المسيح ، وفى (سورة الأنبياء) عند قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه » الخ .

علم الله أن الانسان ستكون هذه حاله وعلم أن دين المسيح الذى أصله توحيد سيقلبه أهل الأرض ويجعلونه كأديان الآشوريين والبابليين وقدماء المصريين وأهل مكسيكا القدماء وهكذا إذ جعلوا أبا وابنا وروح قدس . العالم الإنسانى كله كجنين فى بطن أمه وهذا الجنين عاش فى هذه الأرض إما (٥٠) ألف سنة وإما أكثر إلى (٣٠٠) ألف سنة . هذه الآلاف يمكننا أن نحسبها شهورا بالنسبة للأمم فنقول إذن الأمم لا تزال طفلة وهذا الطفل يريد أن يتعلم فسمع حروفا من كلمات العلم قديما وبقى جاهلا لأنه لم يستحكم عقله ودخل معابد الأصنام النائبة عن الإله وفرحوا بما عندهم من العلم . فماذا فعل الله للناس ؟ أرسل لهم رسولا من أمة جاهلة وهو لم يتعلم مثلهم فقال لهم لا أصنام ولا أبناء وكسر الأصنام وذم عقيدة الأبناء ورفع سيفه آونة وأعلن السلام فى الأرض ثم فارق هذه الأرض إلى ربه . مضى على إرسال هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ١٣ قرنا فلنا أن نحسب هذه القرون أعواما باعتبار آخر غير الاعتبار السابق ونقول إن هذا الإنسان لا يزال مراهقا وإن أهل هذه الكرة لم يتم التواصل بينهم ولا عرفوا تمام المعرفة حقائق الأشياء وهاهم أولاء الآن أخذوا يدرسون . فماذا تم فى ذلك ؟. نقول أذكر لك [حادثتين اثنتين] لا ثالث لهما (الحادثة الأولى) معابد بلاد الصين والاسلام المنتشر فيها (الحادثة الثانية) كيف انتشر الاسلام فى جهات أفريقيا المظلمة على نهر النيجر فنقول هذا الطفل الذى أرسل الله له معلما بعد الأزمان السابقة قد صنع الله معه ما صنعه مع الطفل المولود حديثا . فكما أن الطفل الحديث الولادة نرى الاستعداد له على ساق وقدم هكذا هذا الانسان الذى أخرجه الله فى هذه الأرض قد هيأ له اليوم نبيا ليخرجه من جهالته لأنه علم أنه أخذ يستعد للارتقاء فقد مضى ١٣ عاما فقط بعد نزول القرآن باعتبار أن القرآن عام . وهذه الأعوام بالنسبة لعمر هذا الطفل قليلة جدا لأنه سيعيش كثيرا .

الآن أخذت الحقائق تظهر فى أهل الأرض فانظر إلى أمة الصين . إن للصين آلهة معبودة يقدسها الشيوخ ويحقرها ويستهزئ بها الشبان . فترى هناك فوق جبل (تايشان) فى تلك البلاد القاصية معابد يحج اليها المتدينون بها بمشقة عظيمة لأن ارتفاع الجبل (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وترى السلم للوصل إلى المعبد له (٧٠٠٠) درجة وترى الحاج لا يبلغ هذه القمة إلا بمشقة عظيمة ولذلك ترى هناك حمالين يحملون الحجاج إلى الأصنام فوق الجبل وفى الطريق زوايا صغيرة للآلهة الصغيرة وزوايا كبيرة للآلهة الكبيرة ويجد الحاج بيوتا للشاى ليستريح فى الطريق من مشاق الصعود ، فهذه الآلهة (التى إذا حج إليها المؤمن بها رجع بعد طول الشقة ووعثاء السفر والجهد والنصب قرير العين لا يخشى الموت) قد باتت معابدها اليوم معرضة للاحتقار والاستهزاء والسخرية من الشبان الذين قرءوا الحكمة والعلم وتنورت بصائرهم إذ يرون أنها أحجار لا تضر ولا تنفع كما نطق به القرآن وتراهم يذهبون إليها لتنجيسها تحقيرا لشأنها وذلك العقل مطابق للقرآن .

﴿ الحادثة الثانية : كيف ينتشر الاسلام فى أفريقيا المظلمة ﴾

جاء فى الأخبار المنشورة فى الصحف فى أيامنا هذه أن (تشارلس ريد) السائح الانجليزى يقول إنه وجد زنوجا فى (نيجيريا) يعرفون اسم (أرسطاطاليس) ويجادلون فى فلسفته . وذلك بسبب ما قرءوه من الكتب الاسلامية التى دفعهم الاسلام إلى قراءتها وأن الاسلام بدخوله بين القبائل يزول نظامها المجحف القديم والعسف والظلم بسبب نظام إسلامى جميل فيه الولاة والحاكم وكل امرئ من هؤلاء الحكام يشعر بأنه مسئول أمام ربه . وهؤلاء الزنوج فى حال همجيتهم ووثنيتهم يقيمون على عادات جاهلية فيأكلون لحم الميتة ولا يبالون بالأقذار ولا يعرفون المحارم فى الزواج وقد يأكل الابن أمه إذا ماتت فإذا دخلوا فى الاسلام رأيت الأمر غير ذلك فيعرفون معنى النظافة ويتفقهون فى الدين ويقرءون الكتب التى ألفها المسلمون .

فهاتان الحادثتان من الحوادث الكثيرة اخترتها لتقف أيها الذكى على مقدار جهل هذا الإنسان اليوم . فها هو ذا الصينى العريق فى المدنية والصناعة والعلم لما ظهرت بوارق إشراق شمس العلوم أخذ يدنس الأصنام محتقرا بها معابده . وهاهو ذا الأفريقى المتوحش لما بلغه دين الاسلام بطريق مقبول تدين به واتقى ربه وهذا فى آخر الدنيا شمالا وهذا فى آخرها جنوبا . ثم إن هؤلاء المسلمين عند (نهر النيجر) لا يخلو إسلامهم من خرافات تبعا لعوائدهم . ولقد يسمع الإنسان كثيرا بحجاج يسمون (التكارنه) فهم هؤلاء أنفسهم يمشون على أقدامهم إلى مكة يسألون الناس تكففا ويموت أكثر من نصفهم فى الطريق . ثم إن سلطان الزنوج فى (بروه) فى (نيجيريا) الفرنسية مسلم لا تفوته صلاة ولا يهمل فرضا ولكنه مقيم على عوائده الأفريقية فهو يأكل تحت شجرة من أشجار (النجة) ورعاياه لا ينظرون إليه ولا يخاطبونه إلا إذا ولاهم ظهره والجوقة الموسيقية كذلك لا تعزف إلا إذا ولت ظهرها إليه .

هذا هو الاسلام يهدى الأفريقى . وها هو ذا فى بلاد الصين الكثيرة الأصنام . تلك الأمم التى عند أهلها نار من العلم وقد اتضح العلم لهم الآن فحقروا الأصنام . فياليت شعرى ماذا يصنعون الآن . أقول إن لهم ملجأ يلجئون إليه كما أن للطفل عند ولادته ملجأ يلجأ إليه . فملجأ الطفل القابلة ولبن أمه والعطف العام عليه ، وملجأ هذه الأمم الوثنية وحشية كانت أو متمدينة إن ربها ليس بغافل عنها كما لم يغفل عن الطفل . وهؤلاء الأطفال وهم أبناء آدم فى الشمال والجنوب قد أعد لهم الله اللفائف قبل ظهورهم أو الأساتذة قبل زمن تمييزهم غاية الأمر أننا نعقل عمل الله فى الطفل لأنه أمر سهل ولسنا نعقل عنايته على الأمم

فنظن أن عطف الله على الطفل قد بلغ النهاية وعطفه على الشعوب قليل ولكنا عند النظر بالحكمة نرى عطفه على الأمم أبلغ من عطفه على الطفل لأن الأمم مجموع أفراد . أفلا ترى أنه أنزل القرآن وقال للمسلمين اقرءوه وانشروه فقرءوه ونشروه . ولما انتشر فى بلاد الصين لم يف هذا الدين الاسلامى بحاجات تلك الأمم لأنهم قوم علماء وحكماء حكمة قديمة غامضة والمسلمون هناك (٧٠) مليونا ودين الإسلام الشائع بينهم لم يخرج عن الأحكام الشرعية التى اجتهد فيها أبو حنيفة ولذلك تجد الوثنيين الذين يحقرون هذه الأصنام يقولون للمسلمين إن دينكم لم يخرج عن كونه دين طلاق وفسخ وإجارة وعقد وما أشبه ذلك . أما الحكمة والعلم ونظام الله فى الأرض وعجائب الشمس والقمر وما أشبه ذلك مما نعرف نحن فإن دينكم خال منه فلا فكر لكم معاشر المسلمين إلا فى الصلاة والوضوء والغسل والحيض والنفاس والولادة وأحكام ذلك كله وأنتم أيها المسلمون عن العلم محجوبون .

هذا هو الذى أخبرنى به العالم الصينى المسمى (وان ون كين) حينما زار مصر وقد ذكرت خبره فى مواضع من هذا التفسير وقال إن أربعة قواد من قواد الجنود الصينيين المسلمين أرسلونى لأبحث فى أقطار الاسلام لعل هذا الدين حقيقة عدو للعلم كما يقول علماء الصين وهم حنفية المذهب أم الأمر على خلاف ذلك ولقد قال لى « لقد وجدت فى مصر حركة عظيمة وقد اطلع والحمد لله على تفسير (سورة الفاتحة) وعلى تفسير (سورة البقرة) ولقد قال لى إنه سيترجم الفاتحة وكتاب القرآن والعلوم العصرية » وسافر وأنا لا أدرى الآن ما فعل .

إن هذا الدين الإسلامى لما انتشر فى الأرض وأخذته أمم بعد العصر الأول لم تفهم ما يراد منه فأخذوا يتلونه بلا عقل وحصروا العقل الإنسانى فى أحكام الفقه وفروعها . إذن هذه الأمم التى حملت هذا الدين بعد العصر الأول ليسوا كفؤا لهذا الدين، ولما أدرك الحقيقة الإمام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ألف كتاب [الإحياء] وقال إنى أريد أن أحيي به عصر الصحابة أولئك الذين كانوا يفهمون من الإسلام ما لا يفهمه من بعدهم . ذلك أنهم كانوا يعلمون أن معرفة الله بالنظر فى العجائب والمخلوقات هى أصول هذا الدين وهكذا علم الأخلاق وتهذيب النفس تهذيبا عمليا وذم أهل زمانه ذما شنيعا ونقل ما قاله ابن مسعود يوم موت عمر [قد مات تسعة أعشار العلم] فقالوا له نحن أصحاب رسول الله نحمل العلم فقال لست أريد هذا ولكن أريد العلم بالله تعالى .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى معضلات هذا التفسير فقال لقد أطلت المقال فما ملخصه ؟ فقلت :

(١) إن الأمم كلها أطفال .
(٢) وأن رحمة الله تشمل الأمم كما تشمل الأفراد .
(٣) وأن الله مهد لهؤلاء الأمم بدين الإسلام كما يمهد للصبى ثدى أمه .
(٤) ومن ذلك أنه نشر الإسلام فى الصين عابدة الأصنام وفى نيجيريا المتوحشة .
(٥) وأن المسلمين فى الصين كبقية المسلمين ليسوا يعرفون من الدين إلا ألفاظ القرآن فهم له قراء وإلا الأحكام الحنفية والشافعية الخ .

(٦) وأن هذه الأمم استعدادهم لحمل هذا الدين ضعيف فلم يكونوا كالصحابة فى العصور الأولى ولا التابعين .

(٧) وأن الإمام الغزالى رحمه الله أدرك هذه الحقيقة فنادى فى الناس بكتابه [الإحياء] يقول «أيها الناس دين الإسلام أن تعرفوا جميع العلوم فى هذا الوجود وأنتم ما علمتم اليوم إلا القليل جهالة وبلاهة » وقد مضى

بعد

بعد قوله ما يقرب من ألف سنة والمسلمون نائمون ولذلك لن يقدروا أن يهدوا أكثر الأمم الضالة التي تعبد الأصنام .

فقال : وما دواء هذا الداء . فقلت : دواؤه في (الياقوتة الثانية) وهي أنه ذكر تنزيل الفرقان قبل قوله «له ملك السموات والأرض» . فقال وأي شيء في هذا التقديم والتأخير وهل لهذا أهمية في هذا الموضوع ؟ فقلت : إن الدواء في هذا التقديم والتأخير . فقال : اذكر حادثة توافق هذه حتى نستأنس بها ، فقلت : قد تقدم في هذا التفسير أن أبا بكر رضي الله عنه وقف خطيبا في سقيفة بني ساعدة ، وقال للأنصار أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، فبهذا التقديم في الآية حكمت قريش العرب وأمم الإسلام قرونا وقرونا فكان منهم العباسيون والأمويون والعلوية وهكذا كل هذا لتقديم كلمة على كلمة . وهكذا نرى الإمام الشافعي يقول : [يجب في الوضوء تقديم الوجه على اليدين] ولماذا هذا لأن الله قدمه في الذكر في آية الوضوء واستدل بالحديث « ابدءوا بما بدأ الله به » .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : أما الآن فقد آن أن أسمع ما تقوله في هذه الآية من حيث التقديم والتأخير لأن الحجة قائمة . فقلت : إن الله خلق السموات والأرض قبل أن ينزل القرآن . قال نعم . قلت ولذلك يقول : « الذي له ملك السموات والأرض » وهذه جملة اسمية تقتضي الثبوت والدوام ، أما نزول القرآن فقد ذكره بجملة فعلية تقتضي الحدوث . قال : هذا حق . قلت فلو أن نظم القرآن مشى على سنن آية الوضوء وعلى سنن آية المهاجرين والأنصار (وبعبارة أخرى) لو أن نظم الآية هنا اعتبر فيه مجاراة ما هو موجود لكان هكذا تبارك الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ونزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الله لم يفعل ذلك هنا مع أنه مقتضى الترتيب الوجودي وإنما عدل الله عن ذلك بسر ظهر في عصرنا وحكمة بهرت في أيامنا . ذلك هو ما عليه المسلمون الآن . المسلمون الآن يقرءون القرآن ولا يعرفون إلا التنزيل فهم يبتدئون بحفظه عن ظهر قلب ثم يقرءون الأحكام الشرعية فلذلك صاروا أجهل الأمم مع أن القرآن من كلام الله وملك السموات والأرض فعله وقول القائل يفسره ويبينه فعله ونحن نسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ونتبع فعله وقوله : أفلا نفعل مع الله ما نفعله مع نبينا ومع الناس . نحن ننظر لأفعال الناس أكثر مما ننظر لأقوالهم . أفلا نجد في تتبع أفعال الله كما قرأنا أقواله . وبناء عليه يجب في إصلاح المسلمين أن نمزج قول الله بفعله في التعليم . إن قول الله أشبه بما يجري الجسد الإنساني من الدم وهذا الدم الجاري في جسم المرأة لتغذية الجنين يفيد الجنين ولكنه لا يفيد الطفل كما قدمنا آنفا فاقتضت الحكمة أن يكون هناك جهاز يصنع فيه الدم فيكون لبنا ليتغذى به الطفل الذي كان جنينا . هكذا الأمة الإسلامية التي كان أهلها أجنة يحيون بالقرآن حياة الجنين في رحم أمه فلذلك لم يصلحوا لقيادة الأمم العظيمة ولا تفهيم الناس الحكمة حتى إن المسلمين في الصين لم يغيثوا عباد الأصنام بمعرفة حقائق الدين الحكمية لجهلهم بها فهم يتخبطون في عبادة الأصنام بالسنين من دين حق في الأرض .

المسلمون أصبحوا اليوم غيرهم بالأمس . فإذا كانوا بالأمس أجنة فهم اليوم في حال الرضاع فحق لهم أن يعطوا الدين مصحوبا بالعلم وذلك هو المعبر عنه بدين الفطرة وهو الوارد في الحديث إذ خير صلى الله عليه وسلم بين الخمر واللبن ليلة الإسراء فاختار اللبن لأنه الفطرة وإنما عبر بأنه الفطرة لأن الفطرة تقتضي التدريج في التربية . فقال صاحبي : هذا القول غامض ، أي تدريج تريد وكيفية هذا التدريج ؟ فقلت إن الأمة إما أن تحفظ القرآن وتعرف الأحكام وهي تجهل العلوم كلها فهذه أشبه الجنين وإما أن تعرف ذلك كله ممزوجا بالعلوم

فهذه أشبه بالطفل يرضع ثدى أمه وهذه ليست حالا غريبة على الطفل فقد كان بالأمس يتغذى بدم أمه فلما ولدته أخذ يتغذى بنفس اللبن الذى كان يتغذى منه بالأمس ولكنه بحال جديدة فهو لم يغير غذاءه إلا عرضا ولو أنه أعطى بعد الولادة خبزا لمرض ومات . هـذه حال الطفل فإذا كبر أخذ يأكل الخبز وغيره . هكذا حال الأمة :

(١) حفظ عن ظهر قلب .

(٢) ثم دين مع العلم .

(٣) ثم دين مستقل عن العلم وهذه هى الحال الثالثة .

فدين الفطرة أن يمزج العلم بالدين وهى الحال الثانية . فأما الحمرة فهى غير موافقة لمزاج الجسم فهى ضارة به . فهذه الأحوال الثلاثة أشبه بأحوال الإنسان الثلاثة فى التغذية . فقال صاحبى إذن أنت تقول إن قوله « له ملك السموات والأرض » بعد قوله « نزل الفرقان » أشبه باللبن وذلك بمزج العلم بالدين بالطريق التى اتبعتها أنت فى التفسير . وبعبارة أخرى . أنك الآن تقول تنزيل الفرقان أشبه بحال المسلمين العادية ومزج العلم بالدين هى الحال التى ينقلون إليها الآن . فقلت نعم . فقال ولكن فاتك أن مصطفى كمال باشا نقل تركيا من حال إلى أخرى وقال : [العلم شىء والدين شىء] أعنى أنه فصل العلم عن الدين كما فعلت فرنسا ويظهر أنه نجح فى ذلك بدليل أن الأمم كلها تهابه الآن . فقلت هذه طريقة نافعة ولكنها خطرة والطريقة التى أقولها الآن لا خطر فيها وما هذه الطريقة إلا كطريقة أطباء عصرنا الذين يستعملون المسهلات والمركبات فى الأدوية ولا يسيرون على النظام الطبيعى وأحسن الطب ما كان جاريا على الناموس الطبيعى فإذا أكل الإنسان الفواكه والخضر وترك ما يضر استعماله وبرز فى الهواء والشمس فان ذلك أفضل من استعمال الأدوية التى تنفع مؤقتا ثم تترك أثرا فى النفس تتبعه آثار ثم ينتهى بالموت . وما مثل المسهلات والأدوية المركبة فى المرضى إلا كمثل الاتكال فى الدين على المعجزات وخوارق العادات كما تقدم فى (سورة طه) . فكما أن الشفاء فى المسهلات والمركبات وقتى يعقبه مرض آخر هكذا الاتكال على خوارق العادات يعقبه رد فعل ويقول الله تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » إذن فمالهم يطلبون خوارق العادات . قال صاحبى إذن هنا [ثلاث مسائل] مسألة فصل الدين عن السياسة كما فعلت فرنسا وتركيا . ومسألة الأدوية المركبة والمسهلات . ومسألة خوارق العادات . ولقد جعلت هذه المسائل الثلاث من واد واحد . وهنا مسائل ثلاث مقابلات لها وهى إعطاء الأمة الدين مع السياسة فهو إذن كاللبن وهو موافق للفطرة كما فى الحديث وإعطاء المريض الأغذية اللطيفة بدل المسهلات وتعليم الأمة العلوم العقلية مع الدين بدل الاتكال على خوارق العادات كالمسألة الأولى . فقلت نعم هو كذلك وأريد أن أوضح مسألة هنا وهى مسألة الطب فقد قال :

(١) الدكتور (غرانيشتاتن) الذى هو من أقطاب الطب فى ألمانيا [إن الضعف فى درجاته إنما هو نتيجة العلاج بالعقاقير سواء أكانت رديئة أم طيبة فهى إذا استعملها الطبيب بحذق ومهارة تغلبت على المرض حقا ولكن تترك هناك بقايا تظهر عاجلا أو آجلا فى الجسم فلا تقبل الشفاء] فهذا هو الضعف العلاجى ونسب ذلك الضعف إلى المركبات مثل (حمض البروسيك) والرصاص والزرنيخ والكبريت الخ .

(٢) ويقول الدكتور (كيسر) ونقله عنه الأستاذ (بلز) [إن الحكمة القديمة القائلة بأن الدواء قد يكون شرا من الداء والطبيب شر من المرض هى صحيحة فى أكثر الأحوال] .

(٣) وقال نحو ذلك الدكتور (صميث) الذى قال (إن كل دواء يدخل الجسم يعطى الدورة الدموية سما كما يعطيها السم تماما) .

(٤) وهناك

(٤) وهناك نحو ثمانين عالما من الأطباء الرسميين نقل عنهم الأستاذ (ولز) وقد قالوا مثل هذه الأقوال فقرر هؤلاء جميعا أن الصحة فى الاقتصار على استخدام قوى الطبيعة كالهواء الطلق والغذاء الجيد الصحى وترك اللحم والمهيجات وأن يعمل الانسان عملا جسديا معتدلا وأن يستحم بالماء الفاتر والبارد وهكذا مثل ما تقدم فى (سورة طه) فى أواخرها .

فقال صاحبى ما الذى أصاب الناس من استعمال الأدوية ؟ فقلت يقول (كيسر) المتقدم ذكره (إن الأطباء يرضون المرضى ويتبعون شهواتهم ويحققون نظرياتهم ووسوستهم فيعطونهم الأدوية ولا يقفون عند حد إبعاد المؤثرات القاتلة للمريض فلذلك تحدث أمراض مزمنة بهذا الفعل وسببها هم نفس الأطباء) .

فقال وما الذى يناسب ذلك من أمر سياسة الأمة إذا عزلت الدين عن السياسة . فقلت إن عزل الدين عن السياسة دواء خطر كالأدوية المركبة يستعمله المستعجل لرقى أمة ولكنه يكون عرضة للاعتراض عليه وقيام طائفة وراء طائفة كلهم يريدون أن يثوروا فى وجهه فمن الملوك من يفوز ومنهم من لا يفوز وإذا تم الفوز فالأمر لا يزال خطرا يعقبه رد فعل بعد حين ، وخير السياسة ما كانت بطريق الطبيعة . فالأمة الاسلامية اليوم تقرأ الدين ولا علم عند كثير منها فليمزج العلم بالدين كما فعلت فى هذا التفسير فيكون لبنا خالصا سائغا للشاربين وبه يبتهج العلماء فى أمة الاسلام ويحبون رقى أممهم ويعاونون الملوك والأمراء ولا يثيرون الشعوب عليهم . فهذه هى الطريقة المثلى لا سيما أن علماء الاجتماع يقولون (إن الإصلاح الدينى أعظم أثرا فى رقى الأمة من الاصلاح السياسى) ، فإصلاح مصطفى كمال باشا نافع ولكن هذا الإصلاح الذى اتبعناه عاقبته حميدة وهو سريع الأثر بعيد المدى يريح الملوك والأمراء ويجعل الأمة روحا واحدة . هذا هو الذى هدانى الله إليه وأريد به إراحة ملوك الاسلام والمصلحين منهم بعدنا فذلك خير من الثورات والدسائس « وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . ومن العجائب أن الأخبار وردت اليوم ١٦ يناير سنة ١٩٢٩ أن ملك الأفغان المتقدم ذكره لإسراعه فى الإصلاح تنازل عن العرش . وقد قدمت فى (سورة الحجر) منذ سنة أنه زار مصر إذ ذاك وإنى أشعر بكراهة الشعب له لا سيما العلماء ، وقد حصل هذا فعلا الآن .

فقال صاحبى وأى دخل لمسألة خوارق العادات هنا ؟ . قلت إن خوارق العادات تقدم شرحها فى (سورة طه) وأن فعلها وقتى إذ عبد بنو إسرائيل العجل بعد أن رأوا العصا والحية والله يقول « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » والتخويف إنما يكون للأطفال ، والقرآن يراد بنزوله أن يكون لأمم تعقل وتفهم لا أنها تخوف كالصبيان .

(حكاية)

كان لى صاحب وهو مجاور لى فى المنزل وهو شيخ طريقة مشهور فى مصر وكنت أجلس معه فى بعض الأيام وقد علمت أنه إذا توجه إلى بلاد الصعيد تلقوه أفضل مما يتقبلون الملوك ويجعلون يومه عيدا ولاعتقادهم فيه كان اللصوص يخافون منه فلا يسرقون . وقد حادثه أحد إخوانى فى ذلك فقال إنى إذا وصلت إلى البلد فانه يأتى إلى واحد فيقول لى ياسيدى أنا أخطأت ويرد له كل ما حصل من السرقة ويذكر جميع الذين كانوا معه فاذا حضر واحد منهم قال له ارجع لا تدخل على فيعتقدون أنه يعلم الغيب فبهذه الحال اشتهرت مخافة الناس من الشيخ لا من الله . وهذه حال لا تفيد الأمة إلا مؤقتا وإنما هى أشبه بالمخدرات أو المسهلات أو الأدوية المركبات . وإنما السبيل لرقى المسلمين حقا أن يعمل العلماء بمعنى هذه الآية فانه قال « نزل الفرقان على عبده » وأتبعه بذكر أنه له ملك السموات والأرض . فبمزج العلم بالدين ترتقى الأمة . أما الأدوية الوقتية للأمة كذكر معجزات الأنبياء أو كرامات الأولياء حقا كانت أو باطلا كما فى صاحبنا الذى ذكرناه سابقا

وكذلك نشر الخطابة وحسن البلاغة بدون إقناع عقلى فانه لا يدوم أثره فى الأمم مالم تصبح الفضيلة لها عادة ولكن يبقون فى العلوم والمعارف عالة على الأمم فلابد حتما مما قلناه . والى هذه الحال يشير قوله تعالى « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه» فعبر بثم للاشارة إلى تأخر زمن البيان عن زمان التنزيل وبيان القرآن حق البيان قد ابتدأ فى هذا الزمان الذى عبر عنه بثم فى الآية . وكذلك قدم الله تنزيل الفرقان هنا على قوله « له ملك السموات والأرض » وعبر بالفرقان ولم يعبر بالقرآن لأن الفرقان للفرق بين الحق والباطل ولن يكون كذلك إلا بادراك الحقائق التى تعرف بملك السموات والأرض فالأمم الاسلامية السابقة أكثرها قرآنية والأمم الإسلامية اللاحقة أكثرها فرقانية . فاقرأ هذا التفسير وبعده تعرف هذه الحقائق ، والحمد لله رب العالمين كتب ليلة الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ الياقوتة الثالثة فى قوله تعالى « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ﴾

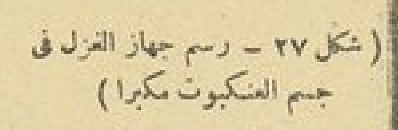
من اطلع على هذا التفسير أو أكثره استقر فى ذهنه أن الله عز وجل مشرق نوره مطلع بعلمه على كل مادق وجل . وما مثل الحكمة والنظام والتقدير فى هذا العالم إلا كمثل ضوء الشمس واشراقه . إننا نرى كل بيت فى هذه الأرض إن لم يشرق عليه النور ويشمل جميع حجراته تكون سكناه ضارة بالصحة ؛ فعلى مقدار اشراق نور الشمس فى أركان البيت تكون صحة سكانه . وعلى مقدار ابتعاد نورها عن الحجرات فى المنزل أو عنه جميعه يكون المرض والموت . وعلى قدر المرض تكون قلة العلوم والعبادات والأعمال والرقى والفلاح

هذا حكم نور الشمس . فلننظر إذن لنور الله وحكمته . الله عز وجل كما جعل نور الشمس عاما وجعله محيطا بالكرة يدخل فى كل منزل وثقب وحجرة . هكذا نراه فى الإحكام والإتقان بل الاتقان أعم وأبدع وإذا أردنا أن نذكر هنا مثلا تواردت آلاف وآلاف من الأمثال . فأى الأمثال نضرب والعالم كله مضرب أمثال من ذراته الصغيرة إلى شموسه العظيمة ومن الدقائق والجواهر الفردة إلى المجرات وأنواع السدم فى أقطار السماء فلاكتف (بمثلين صغيرين) مثل النحلة ومثل العنكبوت وإنما ضربت هذين المثلين لتعجب من جمال وإتقان وإبداع وحسن وجمال وكمال ونظام وما شاء الله كان فى حيوانين حقيرين منبوذين صغيرين قد اختلفا وصفا وتباعدا طبعا وفيهما من دقة الصنع ما يحير العقول

﴿ حكاية ﴾

لنا مزرعة ببلدة (البركة) فى الأرض التى تقرب من الجبل الشرقى المصرى فاقتضت الحال أن أخرج من القاهرة آنا فآنا لأجل هذه المزرعة والنظر فى أمرها . ولقد عزمت يوما أن أتوجه إليها ماشيا على القدم من بلدة المرج لأبتهج بمنظر أرض واسعة خالية فى طريقى إلى المزرعة . فهناك آلاف من الفدادين لازرع وإنما هى مسرح البهائم ترعاها فلما توسطت تلك المزارع وجدت أرضا ذات حشائش قد عمها كلها نسيج العنكبوت هنالك أدهشنى هذا الصنع وقلت فى نفسى إذا ترك الناس هذه الأرض فلا بناء ولازرع أرسل الله لها سكانا نصبوا خيامهم فيها وأخذوا يصطادون أنواع الذباب وهم فى أمن ودعة وسعود . فههنا أذكر صفة العنكبوت وصفة النحل إجمالا . أما العنكبوت فانها هى والعقارب لها ثمانية أرجل . وأما النحلة وما ماثلها وهو جميع الحشرات كالذباب والناموس فلكل منها ٦ أرجل . إذن العنكبوت ليست من الحشرات ثم أكثر الحشرات غير سامة وأقلها كالنحلة والزنبور سام . ولكن العناكب والعقارب وأبو شبت كلها ذوات سم وإبرة الحشرة السامة تكون من خلف . أما إبرة العناكب فمن الأمام . وحيوان العنكبوت ينسج بيته ومتى مرت به ذبابة عمل معها [أمرين : أولهما] أنه ينسج خيطه عليها لئلا تفلت منه [ثانيهما] أنه يفرغ فيها سمه بطريق الحقن

فيخدرها أو يميتها . وللشبث سم قوى ولكنه غير مميت كما هو المشهور . أما النحل فوظيفته صنع العسل . فههنا (حيوانان) حيوان يتغذى بالذباب وهو غزّال نساج ، وحيوان يتغذى بالنبات وهو يعطينا العسل . هذان الحيوانان فى كل منهما مصنع . هذا للعسل وهذا للنسج . وفى كل منهما مصنع آخر أيضا للمادة السامة إذن الحيوان الصغير قد أعطى صناعة المواد السامة قبل أن يصنعها الانسان فى الحرب العامة الكبرى وذلك لمنفعته هو وكل منهما قد ألهم صناعة تنفعه فهذا له مصنع للعسل وهذا له مصنع للغزل والنسج . إذن الحيوان سبق الإنسان الذى استخرج العسل والسكر من القصب والبنجر وأوجد مصانع للغزل وأخرى للنسج . كل ذلك فى حشرات حقيرات ملأت بيوتنا وعقولنا . هذه العنكبوت التى نراها فى المنزل متى قل كنسه وتنظيفه ورأيتها فى الحقول التى فى ضواحى القاهرة أعطيت هذه الصناعات قبل الانسان . يراها الجاهل فلا تهمه ولكن الحكيم المتبصر يرى فيها جمالا كالذى يراه فى الشمس والقمر والزهر والشجر بل يرى الحكمة هنا واضحة بعد الدراسة . فللنحل (مصنعان) مصنع لجلب المنافع ومصنع لدفع المضار وهكذا العنكبوت . ولاجرم أن الأرض اليوم امتلأت بالمصانع وهى إما لدفع المضار وهى مصانع الذخيرة والآلات الحربية من مدفع وسفينة حربية وطيارة وسوائل أو غازات ضارة وما أشبه ذلك . وهل هذا كله إلا تكرار لمصنع السم فى النحلة والعنكبوت . وإما لجلب نافع كمصانع النسج والغزل والخبز وما أشبه ذلك . وهل هذا إلا تكرار لمصنعى العسل والنسج فى النحل والعنكبوت . فهل لك أن ترسم رسم إبرة النحلة مكبرة وجهاز الغزل فى العنكبوت مكبرا كذلك (انظر شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) و (شكل ٢٩) .



(شكل ٢٧ ـ رسم جهاز الغزل فى جسم العنكبوت مكبرا)



(شكل ٢٨ ـ رسم إبرة النحل مكبرة جدا)



(شكل ٢٩ - رسم العنكبوت وله إبرتان فى طرف رأسه يلسع بهما وتحته إبرة مكبرة وإلى يمينها الغدة التى تفرز السم)

انظر إلى هذين الصنعين . مصنع السم فى جسم النحلة ومصنع الغزل فى جسم العنكبوت واعجب لمخزن النحلة الذى امتلأ سما وللأنابيب التى تفرز السم وترسله إليه ثم لإبرة دقيقة منها يخرج السم . أنابيب خمسة خارجات من الجهات الثلاث وهى تفرز السم ثم ترسله إلى المخزن والمخزن . يوصله إلى الابرة والإبرة تدخله الجسم ، عمل والله عظيم وإحكام وتدبير ليس له نظير . وأى فرق بين هذا المخزن ومعداته وبين مخازن الذخيرة ومصانعها ؟ إن هذا والله أدق وأدق وأعجب فان هـذا كله لا يشاهده البصر ولا تصل إليه آلاتنا مع دقتها ورقيها وانتظامها .

وانظر إلى جهاز الغزل ؟ فماذا فى جسم العنكبوت من الإبداع الذى حول الغذاء إلى غزل ينسج ؟ وما الذى فى هذا الجهاز حتى قلب الغذاء فجعله خيوطا بديعة . ثم ماذا فى مصنع السم الذى تشاهده الآن فى جسم النحلة وما هذا الذى جعله يحول الغذاء إلى سم . فانظر لمصنعين أمامك . مصنع لسم ومصنع لغزل . هذا مهلك وهذا معين على الحياة بها يصطاد الذباب . فياليت شعرى ماذا جرى فى أجسام تلك الحيوانات وما هذا التدبير ؟ ذلك التدبير الذى به قدرت النحلة أن تؤذى عدوها وقدرت العنكبوت أن تنسج بيتها وكيف ألهمت كل منهما أن تعمل على مقتضى ماوهبت من المصانع . فهذه ألهمت اللدغ وهذه ألهمت النسج . ومثل هـذا يقال فى مصنع العسل فى النحلة ، ومصنع السم فى العنكبوت . هذا شرح الحكمة الإلهية المعدة فى هذين الحيوانين .

﴿ الحكمة العملية ﴾

علمت مما تقدم معنى قوله «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» فهذا هو التقدير . هاأنت ذا ياصديقى أصبحت تراه بعينك . هاأنت ذا تراه فافرح بالعلم . إن الأمم حولنا درست هذه العوالم ونحن نزل القرآن بلساننا فقرأناه وقد كنا عند قراءته كسائر الأمم عند نظرهم العنكبوت والنحل فكنا نقرأ «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» ونمر عليها مرور الجهلاء على أمثال الحقل الذى قلت لك إنه مملوء عناكب . فاذا كنا نحن نمر على هذه الجملة مرور الجاهلين فهكذا نحن وجميع الأمم كان أكثرنا يمر على العناكب وأمثالها غافلين . ولكن هذا هو الزمان الذى فيه ظهرت أنوار الله «وأشرقت الأرض بنور ربها» ونشرت العلوم . فالآن نفهم آى القرآن على قدر الإمكان ونرى حكمة بديعة وآيات جليلة جميلة . هذا ملخص الحكمة العملية .

أما الحكمة العلمية التى عقدنا لها هذا الفصل فاعلم أن أعظم الأمم هى التى تقتدى بالله عز وجل . فاذا كان الله قد علم العنكبوت النسج فلم تتكل على نبات ولا حيوان بل كان صنعها من نفسها هكذا يجب أن

يكون

يكون الإنسان . وأعظم الأمم اليوم هي التي تستغني بصنعها وإتقانها . فهم يكونون في نوع الإنسان كنوع الإنسان في سائر الحيوان . والأمم الصانعة تستعبد الأمم التي لا صناعة عندها وقد اكتفت بالزراعة . إن الحرير اليوم يصنع من الخشب وبيع في القاهرة أنسجة حريرية رخيصة مصنوعة من خشب التوت والقطن وهي أرخص من الأنسجة المصنوعة من دود القز . وإذا دامت هذه الحال انقرضت دودة القز من الدنيا . إذن الإنسان يقدر أن يستغني عن دود القز بصناعاته . والناس عادة يصبغون (بالنيلة) وهي مادة تستخرج من نبات في الهند يزرع في مليون فدان فابتدع الألمان طريقة بها استخرجوا مادة الصباغة من الفحم ونحوه فبارت تلك الأرض . إذن الصناعة أغنت عن الزراعة ، وكأن الله يقول أيها الناس إن رقيكم يكون بعملكم لا بما أودعته أنا في الطبيعة . وإذا قام قائم واستخرج مادة قطنية كالقطن المصري أصبح قطننا لا فائدة منه . الله الآن يسوق الناس إلى استخراج ما يحتاجون إليه بالصناعة ويقول لهم افعلوا ما يفعله الحيوان يستخرج منافعه بصنائعه فأنا فعلت ذلك له فلتفعلوا ذلك أنتم باجتهادكم . أنا قدرت كل شيء تقديرا وإذا تشبه بي الناس في التقدير والنظام كان قربهم مني على مقدار ما نالوا من دقة في العمل وإتقان في الصنع . وفي الأثر « إن الله يحب الصانع المتقن في عمله » وفي القرآن « إن الله يحب المحسنين » وفيه أيضا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » وإذا كان الله يرى عملنا فهو لا يحب إلا ما كان متقنا .

﴿ بماذا يشير الله للناس إذ أراهم صنع أمثال العنكبوت والنحل وتقديرها ﴾

قلت إني شاهدت آلافا من الأفدنة في ضواحي القاهرة ليس فيها من السكان إلا تلك العناكب قد نصبت خيامها لأنها لما خلت من عمل الإنسان شغلها الله بجنوده فنصبوا خيامهم واستعدوا لاصطياد الذباب . علم الله العنكبوت صناعة الصيد وأعطاها جهازا يستخرج منه الخيوط وأعطاها فكرا به تدبر ما فيه من صناعة ولم يهمل ذلك كله بل خلق له الذباب . هذا الذباب إنما خلق ليطهر الأرض من القاذورات والرطوبات فتحال تلك في جسمه من حال الضرر إلى حال لا تضر ، وهذا الذباب ضرره على الإنسان أقل من الرطوبات التي تحال فيما بعد إلى جسمه ولكن لا تزال بعض المضار عالقة بتلك الحشرات . ألم تر أنها هي التي تنقل العدوى من المريض إلى الصحيح . ولقد تقدم شرح هذا في (سورة الأعراف) وأن الذباب ينقل جراثيم (الرمد الصديدي) من العين المريضة إلى الصحيحة وجراثيم الإسهال و (الحمى التيفوذية) و (الطاعون) و (السل) و (الدودة الوحيدة) . إذن الذباب وإن منع ضررا كثيرا وهلاكا عاما هو والحشرات بإحالة الرطوبات والعفونات إلى جسمه بقي حافظا لأصله ناقلا للمرض فسلط الله عليه أمثال العنكبوت ليقتنصه . إذن العنكبوت نعمة لأنه أزال عنا شرا وبيلا ، والذباب نعمة لأنه أزال عنا شرا كثيرا . إذن العنكبوت مساعد للانسان في حياته .

الله أكبر . يا الله أنت جعلت هذه الدنيا جنة المفكرين ونارا على الجاهلين . اللهم إني وأنا أكتب هذا أحس بأن نفسي في جنة عرضها السموات والأرض . وكيف لا يكون كذلك وأنا أنظر الجمال واضحا في الحشرات الحقيرات فضلا عن الكواكب في السموات . يا الله ها أنا ذا وهاهم أولاء قراء هذا التفسير معي ها نحن أولاء نشاهد التقدير والإبداع فيما يزدريه الناس ويحقرونه ولا يأبهون له .

يغشى الطالب حلقات العلم ويرى خشوعا وكمالا وأدبا عند المستمعين . ولكن العجب أن يكون طالب العلم في حضرة هذه الحشرات المنبوذات عند المفكرين أعظم أثرا وأبهج حكمة وأقوى تصديقا . وكأنهم يشاهدون المبدع في إبداعه ويرون الحكيم في حكمته . يضحك الناس منهم وهم ينظرون « وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » . كلا . كلا .

نظام محكم وإبداع متقن . ذباب يحيل الرطوبات . وعنكبوت تقتل الذباب وخيام فيها آلات صيد الذباب . بهذا يخاطب الله الناس وكأنه يقول أيها الناس كل امرئ منكم له (حالان : الحال الأولى) وهو طفل يرضع ثدى أمه (الحال الثانية) الاستقلال فى طلب الرزق وأكل الحلال وآخرهما خيرهما ، هكذا للأمم (حالان) حال الإرضاع من أثداء الطبيعة . فمن الزرع يلبسون ومنه يأكلون . وحال الاستكمال فى الصناعة إذ يكون الإنسان فى تمام كماله كالحيوان فى نشأة حاله .

هاهم أولاء أهل الأرض الآن (فريقان) فريق عرف الصناعة وفريق بقى على الزراعة والمواد الأولية وقد غلب الفريق الأول الثانى . إنى أنا الذى سلطت الأولين على الآخرين فغلبوهم وأمرتهم فقهروهم . هاهى ذه الأمة المصرية وأمثالها من الأمم الزراعية التى لا علاقة لها بالصناعة إلا قليلا . هذه أمم بقيت فى حضانة الطبيعة كما تحضن الأم ولدها ولكنى أيها الناس لا أريد منكم أن تكونوا أطفالا بل أريد أن تكونوا رجالا وذلك بالصناعات . لذلك أنزلت لكم فى القرآن « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . فكل من كان أقدر على النظام والإحكام وكان أقرب إلى العمل بهذه الآية فهو منظم مقدر محكم عمله وأنا أحب المتقن عمله وأسلطه على من بقى فى حضن الطبيعة لا يبرحها . لذلك غلبت الأمم الصناعية الأمم الزراعية . وما مثل الأمم الصناعية إلا كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وهذا البيت وإن كان أوهن البيوت وأضعف الحصون قد علمكم درسا متقنا إن أهل الصناعة يغلبون من لا صناعة عندهم . فتكت العنكبوت بالذباب . هكذا فتكت الأمم الصناعية بالأمم التى لا صناعة عندها . أفلا تعقلون ؟ .

ليس كل من كان موفور الغذاء مكرما . وليس كل مكدود منهمك فى العمل شقيا . كلا . بل الأمر بالعكس . إن الذباب موفر الغذاء فى كل مكان ولكنه مهان . الذباب لا يعوزه صناعة ولا زراعة ولا تجارة . يأكل من رطوبات الأرض ولكنه ذليل . والعنكبوت حكم عليها أن لاتأكل إلا من كد يدها وأن لاتعيش إلا من صناعاتها لذلك مدت الشباك فاصطادت الذباب .

لله (كتابان) كتاب مسموع بالوحى ، وآخر مشاهد بالبصر والكتاب المسموع يوحيه للأنبياء على مقدار عقول الأمم فيكون فيه الكناية والمجاز والإيجاز . وأما الكتاب المشاهد فهو نص صريح يشهده المقربون فيعقلون عن النحل والذباب والنمل من العلم ما تخر له العقلاء سجدا وهم موقنون .

الله أكبر . إن الأمم التى أضحت فى خفض العيش ودعته موفورة الرزق تصبح ذليلة كما ذكرناه سابقا فى كتاب أرسطاطاليس والإسكندر . والأمم التى تألب عليها الأعداء وذاقت أنواع النصب والتعب يظهر فيها المخترعون والمفكرون . أولئك الذين لا ينبغون إلا حيث تكون الأحوال مضطربة والأجواء مكهربة وقد أحيط بالأمة من كل جانب وبهذا يظهر سر قوله تعالى « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا » فالذباب ابتلاه ربه بنعمه ولكنه مهان والعنكبوت اضطرت إلى صنع البيت لصيد الذباب وهى أرقى من الذباب . الذباب لاصنعة له والعنكبوت صانع ماهر وآخرهما أرقى . هكذا فلتكن الأمة الإسلامية أمة صناعية زراعية تجارية وإلا ذلت للصانعين وخضعت للغاصبين .

لقد عرف هذه الحقيقة (السلطان سليم) لما حل بساحات مصر فاغتصب منها رجال الصناعة وهم نحو ألفين وأخذهم منها كرها لبلاد الترك فرجعت الأمة المصرية زراعية لاتعرف الصناعة . ذلك لتبقى ذليلة للترك كذل الذباب للعنكبوت .

أيها المسلمون . ألم تقرءوا نبأ إبراهيم عليه السلام إذ وبخ قومه على مايعبدون فاحتجوا بأنهم وجدوا

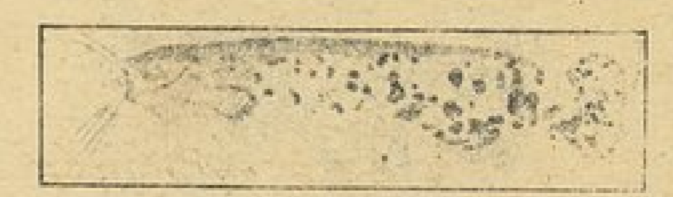
آباءهم لها عابدين فكسر الأصنام إحقاقا للحق ونبذا لآراء الآباء . هكذا فليفعل الجيل المقبل من أمم الاسلام فاذا وجدوا آباءهم عكفوا على جهالة أو نبذوا أمرا نافعا أقلعوا هم عن الضلال « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ .

هذه عجائب العلم والحكمة فى حشرات ثلاث النحل والذباب والعنكبوت . علم الله ذلك قبل أن ينزل القرآن . وعلم أن المسلمين ستمضى عليهم قرون وهم مغمضون عيونهم عن هذه العجائب . فى هذه الحشرات فقال « إن الله لايستحي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين» وقال فى (سورة العنكبوت) « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام ردا على الكفار الذين كانوا يقولون : ماذا أراد الله بذكر الذباب والعنكبوت ؟ . يشير بذلك إلى ماتراه فى هذه العجائب فى النحل والعنكبوت فإن هذه لايعقلها إلا العلماء الدارسون لهذه الدنيا العارفون بنظامها . ومن عجب أنه سبحانه سمى سورتين باسم النحل والعنكبوت ولم يسم سورة باسم الذباب مع ذكره فى القرآن تنبيها على أن المسلمين يجب أن يكونوا أمة ذات صناعة وذات بأس وقوة فان كلا من النحل والعنكبوت لهما قوة بأس كما تقدم ولهما صناعتان قد علمتهما فيما ذكرناه « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » هذا مافهمته اليوم من قوله تعالى «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» انتهى ليلة الجمعة ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٨ .

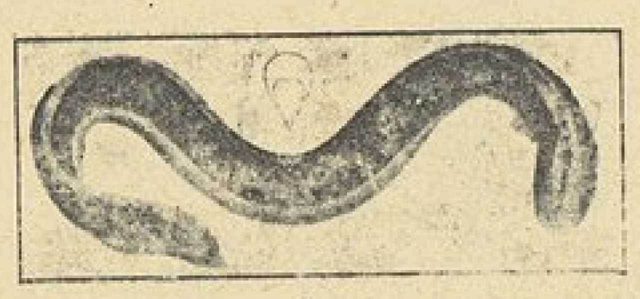
﴿ نور على نور فى قوله تعالى أيضا «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» ﴾

هذا تقدير الله وخلقه فوق الأرض بالعنكبوت وفى الجو بالنحل ، ويقول الله تعالى «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» فالتقدير الذى نراه على وجه البسيطة هو بعينه الذى نراه فى قاع البحار وعلى سطح الماء وفى الجو . فهاك لذلك أمثلة ثلاثة حتى تكون لنا نموذجا ودليلا على غيرها فنقول كما نرى النحل قد أعطى قوتين قوة للنفع وقوة للدفع أى العسل والسم وكذا العنكبوت الغزل والسم . هكذا نرى الحيتان فى قاع البحار أوتى بعضها قوة الكهرباء بحيث يهجم على فريسته فيقتلها بها وذلك مخلوق فيه قبل أن يعرف الناس الكهرباء على وجه الأرض . وأوتى قوة الجرى حتى يفر من عدوه إذا فاجأه . وهكذا نرى هناك حكمة وعلما بهما ظهر التدبير والنظام على وجه الماء فى الحيوان (صاحب السفينة) المسمى (نوتيلوس) .

هاهوذا صاحب السفينة الذى يديرها على وجه الماء كما تقدم فى (سورة طه) عند قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فقد ذكرت لك هناك نحو (٤٠) نوعا من أنواع الحيوان قد أعطيت صناعات تعلمها الانسان ومنها هذا الحيوان الذى اتخذ له سفينة فى البحر قبل أن يصنع نوح عليه السلام سفينته ولكن القول هناك كان بلا رسم فلأرك هنا شكل السمك الذى جعل سلاحه الكهرباء وشكل الحيوان صاحب السفينة (انظر شكل ٣٠) و (شكل ٣١) .



(شكل ٣٠ سمك كهربائى يكون فى البرازيل ويشبه الإنكليس)



(شكل ٣١ سمك كهربائى من نهر الكنغو)

اعلم أن السمك الرعاد قليل جدا ومنه مايسمى عند الفرنجة بالتربيد وهو كثير فى بحر الروم والأوقيانوس الهندى والاتلانتيكي وهو قد يصرع الانسان بقوته الكهربائية . ومنه مايسمى (الانكليس الكهربائى) وهو أقوى السمك الكهربائى ويكون فى البرازيل وغينا ويقتل السمك والحيوان الصغير بكهربائيته . ومنه سمك القط الكهربائى وهو فى النيل ويكثر فى بحيرات أفريقية . والكهرباء المذكورة فى السمك تتولد من صفائح عضلية منشورية الشكل أشبه بخلايا النحل كالمناطر المسدسة الأضلاع بعضها منضم إلى بعض بينها نسيج ليفى وأوعية دموية وأعصاب وهذه القوة أعدت لقتل الحيوان الصغير ليأكله هذا السمك ، وتذكر ماتقدم فى سورة الرعد فقد شرحت لك هناك البطارية الكهربائية . فانظر كيف ترى هناك شكل البطارية وأنها طبقات بعضها فوق بعض مرسومة هناك أشبه بهذه الطبقات التى فى هذا السمك . فانظر وتعجب كيف وصل الانسان بعد الجهد الجهيد فى العلم إلى ما أعد للسمك فان البطارية هناك تراها مشروحة كالبطارية هنا طبقات بينها مواد موصلات كما هنا سواء بسواء . واعجب كيف يعطى كل حيوان سلاحا يوافقه « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فللعنكبوت شبكته المناسبة لاصطياد الذباب ولكن السمك الرعاد لاتنفعه الشبكة فأعطى قوة الكهرباء ذات البطارية المتقدمة . أفليس هذا من العجب أن يظهر سر قوله تعالى « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سمكة فى البحر وفى نحلة فى الجو وعنكبوت فوق الأرض . وترى الأمر غير ذلك فى صاحب السفينة (انظر شكل ٣٢) .



(شكل ٣٢ ــ صورة النوتيلوس أو صاحب السفينة)

هذا الحيوان المرسوم أمامك من الحيوانات التى لافقرات لها . إن الفقرات تكون فى الإنسان وفى البهائم والسباع والأنعام والسمك والزحافات . والذى لافقرات له كالهوام والدود والحيوانات الرخوة . وهذه الأخيرة لها كساء من الخارج . هذا الكساء قد يكون جلديا تتصل به عضلات الحركة ونحوها وقد يكون غضروفا وقد يكون (كلسيا) أصلب من العظم . فهذه هى الحيوانات ذوات الصدف ومنها الأخطبوط والقواقع التى منها الحلزون الصغير والبوق العظيم الهائل . فمن ذوات الصدف (صاحب السفينة) المرسوم أمامك فيه استقر الحيوان المتقدم المسمى باليونانية (نيوتس) أى سفينة . ومعلوم أن صاحب السفينة بالعربية يسمى (نوتى) فهما متوافقان يونانية وعربية . وهذا الحيوان يستخدم هذه الصدفة كالنوتى سواء بسواء . فبها يعوم على سطح الماء ويديرها بأصابعه الست فيرسلها إلى الجانبين كالمجاذيف وقد استعمل الغضون الغشائيين كأنهما شراع السفينة . فمتى أراد السير جذف بأصابعه هذه وأدار السفينة يمينا وشمالا وحول الشراعين نحو الريح كما يفعل الربان سواء بسواء فاذا أحدق به الخطر بأن أتاه النوء مثلا قبض أصابعه وشراعيه ودخل الصدفة وغاص فى قاع البحر فينجو من الخطر . ومن العجب أن يكون جسمه غير ملتصق ببيته . وهذا الحيوان يكون فى بحر الهند بالقرب من (جزيرة ملقا) .

فانظر كيف كانت سفينته نفعا له فى أسفاره ودرأ للخطرعنه ، وهذا قوله تعالى «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» فلم يعط صاحب السفينة نسج العنكبوت لأنه لاينفعه ، ولا الكهرباء كالسمك ولا العسل لأن هذا كله لايلائمه بل أعطاه مايناسب سطح الماء ، وماهو إذن ؟ هو السفينة «إن ربك هو الخلاق العليم» .

وكما رأيت فى البحر ماله سفينة فان فيه ماهو طيار حتى تتم الحكمة فله فى جنبيه زعانف كالأجنحة وهو أشبه بشكل أسفل السفينة وزعانفه كالشراع وطوله يزيد على نصف متر وهو فى البحار الجنوبية من أوروبا وفى البحر الأحمر وعلى شواطىء البرازيل والولايات المتحدة وبعضه لونه زاه بين أزرق سماوى وفضى وتطير أسرابا ثم تخوض الماء وتعود فتطير ولحمه لذيذ وصيده سهل لأنه كثيرا مايطير ويقع فى المراكب .

أفليس هذا من العجب أن يكون النظام فى قاع البحر وفوق سطح الماء وفى الجو . ومن العجب أن العنكبوت كما ينصب بعضها الخيام على الأرض فتقتنص الذباب هكذا ترى مئات منها فى يوم العواصف طائرات فى الجو فى طيارات من غزلها قد صنعتها كما تصنع الشبكات على الأرض . ومنها ماتتخذ من الورق ومن غزلها سفنا تجرى بها على وجه الماء ومتى لمحت حشرة فوق سطح الماء أسرعت لالتقاطها وجعلتها فى سفينتها وأكلتها بهدوء وسكينة .

هذاهو التدبير والنظام العجيب . فاعجب لسمك يطير ، ولآخر يصنع السفن ، ولعنكبوت كذلك صنع السفن وصنع الطيارات قبل أن يعرفهما الانسان . وللعنكبوت شأن عجيب استعملت سفن الصيد فى البحر قبل أن يصنع الإنسان سفن صيده . فاذا رأينا نحن الصيادين بجوار الاسكندرية قد أخذوا سفنهم وجدوا بها فى الصيد فقد سبقتهم بها العنكبوت . وهكذا إذا رأينا الأمم الحاضرة تصنع الغواصات لإهلاك سفن العدو فقد سبقها السمك فصنع ذلك وأخضع فريسته .

فهذه نبذة يسيرة جميلة فى قوله تعالى «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» فاقرأها واقرأ ماتقدم فى قوله تعالى «الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وانظر مواضع أخرى تناسب هذا المقام كالذى تقدم فى سورة البقرة عند قوله تعالى «إن فى خلق السموات والأرض» ونظيره فى آخر (آل عمران) فى نفس هذه الآية هناك وهكذا فى (آل عمران) أيضا عند قوله تعالى «وترزق من تشاء بغير حساب» وفى (سورة الأنعام) عند قوله تعالى «ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء

ثم إلى ربهم يحشرون » وفيها أيضا عند قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » وفى (سورة هود) عند قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » وفى سور أخرى ، كل ذلك مناسب لما كتبناه هنا فى آية « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » .

ولما اطلع صاحبى على هذا المقام قال لقد أبنت فى هذا المقام الخلق والتقدير فى قاع البحر وفوق سطح الماء وفوق الأرض وفى الجو واستبان السمك ذو الكهرباء والحيوان صاحب السفينة والعنكبوت وشبكاتها فى البر وسفنها فى البحر وطياراتها فى الجو والنحل وماأودع فيه من عسل وسم زعاف . وهذه المجموعة التى كتبتها هنا بديعة وصورها مشوقات للمباحث العلمية فهل خطر لك هنا خواطر تدعو إلى هدى أو ترد عن ردى فانى أرى هذه سطورا سطرت فى لوح الطبيعة ، والله إنى ليخيل إلى تلك الطيارات التى طارت بها العنكبوت وتلك السفن التى أدارها بأصابعه الست صاحب السفينة وبالشراعين اللذين بهما تجرى فى البحر وذلك السمك الطيار فى الجو بلونه الزاهى الزاهر الفضى . أقول إنه يخيل إلى أنها تحمل حكمة تلوح لأولى الألباب فهل خطرت لك خطرات فى هذا المجال ؟ فقلت : نعم ههنا .

﴿ بهجة العلوم المسطورة فى لوح الطبيعة ﴾

وهى [ثلاثة فصول : الفصل الأول] فى خطاب الله للأمم . [الفصل الثانى﴾ فى خطابه تعالى للمسلمين [الفصل الثالث] فى خطابه تعالى للأمم الاسلامية المتحيرين فى خوارق العادات فلا يفرقون بين الأولياء والكهان ، فلما سمع صاحبى ذلك قال نحن الآن فى مقام جمال العلم والحكمة [وبعبارة أخرى] فى علم اليقين لافى ظنون وأوهام ، فقلت ماالذى رابك فى قولى هذا ؟ قال رابنى أنك قلت خطاب الله للأمم وخطاب الله للمسلمين وخطاب الله لمن لايفرقون بين الأولياء والكهان . فهذا التعبير يوهم أن الله يخاطب الناس مع أن هذه أفعال الله وأفعال الله ليست خطابا . فهذا التعبير من أول وهلة يشعر بخروج عن المألوف فالله إنما يخاطب بالكلام الموحى به على الأنبياء ، ولا وحى هنا . فقلت خير لك أن تصبر حتى أتم هذه الفصول الثلاثة ثم أبرهن لك على أن ما أقول مأخوذ من القرآن . فقال «ستجدنى إن شاء الله صابرا » حتى تتم هذه الفصول الثلاثة . فقلت :

﴿ الفصل الأول فى خطاب الله للأمم ﴾

الله خلق الحيوانات الفقرية كالسمك والإنسان والزواحف وما أشبهها وخلق الحيوانات الصدفية التى منها (صاحب السفينة) وخلق النحل والعنكبوت . كل هذه فى هذه المقالة . وهذه جمعت أنواع الخلق .

إن الناس اعتادوا أن يبنوا بيوتهم محاطة بحائط متين قوى يدفع عنهم الطوارىء والحيوانات المفترسة وأقرب الحيوانات إلى بناء منازلنا ذوات الأصداف فكان القياس أن يكون على هذا المنوال كل حيوان ولكن الله بحكمته خاطب الناس قائلا أيها الناس « انى لا يحكم على نظام ولا حال فانكم اذا فكرتم بعقولكم وجدتم أن الحيوان إما أن يشتمل جسمه على جسم صلب أولا يشتمل فان لم يشتمل على جسم صلب فهو الحشرات ونحوها فكلها أجسامها مخلخلة لاعظم لها من داخلها ولا من خارجها جسم صلب .

والذى له عظم إما أن يكون من داخله وإما أن يكون من خارجه ، فالذى عظمه من داخله هى ذوات الفقرات كالانسان والسمك وذوات الأربع والطيور وهكذا . والذى يكون جسمه الصلب من خارجه فهى ذوات الأصداف ومنها ذو السفينة المتقدم ذكره وهذه قسمة عقلية . فاذا ظن الناس أن حياة

الحيوان تتوقف على جسم صلب قلنا لهم كلا فهذه النحل ونحوها لا صلابة لها فان قالوا إن الجسم الصلب يكون من خارج كما فى منازلنا ، قلنا لا فهذه عظام ذوات الأربع فانها من الداخل واللحم والجلد من الخارج والحكمة العليا هى التى قضت عكس ما نصنع فى بيوتنا وقيل لنا انظروا هذه بيوتكم وبلدانكم يحيط بها حوائط وأسوار متينة البناء لحفظها من الخارج ولكن أجسام الإنسان وذوات الأربع ونحوها جعل الجسم اللطيف خارجا وحافظنا عليه بالحواس والمحافظة عليه مع أن القياس كان يقتضى أن يكون محيط الجسم صلبا كهيئة ذوات الصدف حتى يتسنى للجسم أن يقاوم الجو والطوارىء وهذا هو السر فى قوله تعالى ـ خلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » الخ ثم أعقبه بقوله « فتبارك الله أحسن الخالقين » وإنما قال « فتبارك الله أحسن الخالقين » بعد قوله « فكسونا العظام لحما » الخ لأن كسوة العظام باللحم تخالف المألوف من أعمال الخلق لأنه أشبه بمن يبنى منزله ويجعل مخزن الطعام والملابس وحجر النوم خارج سور المنزل . فالعظام الصلبة يجب أن توضع محيطة بالجسم لتحفظه كالحيوانات الصدفية لا أن يجعل اللحم الطرى والجلد الرقيق حافظين للعظام . كلا فلما كان هذا الوضع خلاف المألوف المتعارف وكان مع ذلك متقنا وأفضل من العكس علم أن هذه الصنعة أكثر إتقانا من صنعة البنائين فى الأرض فلذلك جاء فى القرآن « فتبارك الله أحسن الخالقين » وبهذا تبين أن الأحوال الثلاثة للخلق قد ظهرت فى عالم الخلق وكأن الله عز وجل يقول : أى عبادى أنا لم يعقنى عن الخلق شىء فلا عدم العظام منعنى عن الخلق ولا وضعها داخل الجسم مع لطافته وصلابتها . ولقد فعلت فى أجسامكم ، وأجسام الحيوانات هذه التنوعات كلها كما فعلت فى ثمرات الشجر فتارة أجعل الشحمة فى الثمرة وهى طرية خارجا والنواة الصلبة داخلا كالحم السمك والانسان . وتارة أعكس فأجعل الصلب خارجا واللطيف داخلا كاللوز والجوز ، فأنا لا يعجزنى شىء . وهذا درس لكم لتعلموا أن سعادتكم لا تتوقف على حال . فاذا كانت الحياة لم تتوقف على وضع ما بل جميع الاوضاع ظهرت فيها الحياة فهكذا سعادتكم لا تتوقف على حال واحدة فكونوا ملوكا أو سوقة وكونوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء فكونوا كما تشاءون . فهذه الأحوال لا تحجب السعادة عنكم كما لا يحجب الحياة نوع من أنواع الصور والأوضاع . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى فى خطاب الله للمسلمين ﴾

يقول الله للمسلمين : ها أنتم أولاء رأيتم العنكبوت قد صنعت لها طيارة فى الهواء وسفينة فى البحر ، ورأيتم السمك يطير فى الجو والصدف يسير سفينته فى البحر . فيا أيها المسلمون أنا لم أرسل رسولا إلا ليرشد عبادى إلى الأعمال الصالحة وأى سنة أعظم من سنتى وأى سبيل أهدى من سبيلى ؟ . إن سبيلى تنوع العمل وإبراز أجمل الصناعات وأبدع الحكم فاذا رأيتم لطفى فى إبداع الحرير فى جسم العنكبوت وتعليمها أن تطير به وفى جسم النحل فى إبداع العسل وفى جسم السمك فى إظهار الكهرباء وفى حيوان السفينة فى إعطائه سفينة فمعناه أنكم يجب أن تبرعوا فى الصناعات لا سيما إذا رأيتم الأمم حولكم قد برعت فيها فأى نبى من أنبيائى يأمر أو يبيح لعبادى أن يحرموا على أنفسهم اتباعى فى الإبداع وفى إتقان الصنعة . فليلبس المسلمون لكل حال لبوسها وليبرزوا للناس صناعات تناسب أزمانهم وإلا فهم الأخسرون أعمالا « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

برعت الأمم فى غزل المنسوجات وفى تدبير الحرب وفى نظام الحياة . فعلى المسلمين أن يكونوا أرقى فى سائر الصناعات . انتهى الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث فى خطاب الله للأمم الاسلامية المتحيرين فى خوارق العادات فلا يفرقون بين الأولياء والكهان ﴾

إن الله يخاطب المسلمين بهذه المخلوقات وصنعها . يقول أيها المسلمون ليس امتياز طائفة من أهل دينكم بالإخبار بالغيب فرضا أو بظهور بعض الخوارق على يديهم تفضيلا لهم عن سواهم . إن الاخبار ببعض الغيب مشوب بالكذب لم تخل منه أمة . ألم تروا المنوّمين تنويماً مغناطيسيا . ألم يثبت يقينا أنهم يخبرون ببعض الغيب ألم تظهر بعض الخوارق للعادات فى مجالس تحضير الأرواح (اقرأه فى كتاب الأرواح) تأليفى وتقدم بعضه فى (سورة البقرة) وفى سورة أخرى وأن غلاما صيرفيا جاهلا أتم رواية ديكنس بعد وفاته والإنشاء هو هو لم يتغير وهذا الغلام غبى لا يعقل شيئا مما كتبه ، فهل هؤلاء الوسطاء فى التنويم المغناطيسى أفضل من أنبيائكم وعلمائكم ؟ . كلا . ثم كلا . وما مثل هؤلاء إلا كمثل الهدهد إذ قال لسليمان « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » فهل هذا الهدهد أفضل من سليمان ، أو كمثل الخضر مع موسى فالخضر عرف حال السفينة وأمر الغلام والجدار وعلم موسى ولكن موسى أفضل من الخضر وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله على لسانه « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . إذن الأنبياء لا يعلمون الغيب وعلمهم بالغيب فى مثل هذا نقص وكيف لا يكون نقصا وهم إذا علموا الغيب أصبحوا ولا عمل لهم ولا فكر . إذن كيف يقتدى الناس بمن لا فكر لهم ولا تدبير وأين العقلاء إذن ؟ . فالأنبياء مكلفون وهم لا يعلمون الغيب وإنما يوحى إليهم الشرائع والتوحيد وما عدا ذلك هم فيه مجدون . وما مثل الشيوخ الذين ظهر صلاحهم وجرت على أيديهم بعض الخوارق فرضا أو أخبروا ببعض الحوادث (إن صح) إلا كمثل العنكبوت طارت فى الجو بلا أجنحة . فهل أدهش هذا سائر الحيوانات فعدتها سيدتها جميعا . كلا إن امتياز بعض السمك بأن يطير أو بأن يكون فيه كهرباء ، وبعض العنكبوت بأن تطير وأن تجرى المراكب يشابه امتياز بعض المسلمين بخوارق العادات إن صح ذلك فليس لمن خرقت له العادات فضل إلا كفضل العنكبوت على سائر الحيوان مثلا . فهذه صناعات وخواص لا أثر لها فى الفضل . وكأن الله يقول أيها المسلمون لما علمت أنكم تركتم سبيلى وجهلتم قدرى ولم تعقلوا قولى « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » سلطت عليكم شيوخا جاهلين جعلوا الدين شركا واتخذوكم ذبابا واصطادوكم بهذا الشرك فهم عنكبوت وأنتم صيدهم .

أيها المسلمون ما دمتم جهالا فانى أرسل هؤلاء ليمتصوا دماءكم لأنكم نسيتمونى فأنا أيضا أنساكم وأتركـكم فى أيدى الجهال منكم وهم لكم أعداء وجعلتهم قناطر يمر عليها المستعمرون لبلاد الإسلام فيكون أولئك الشيوخ سلما يصل عليه المستعمر إلى رقاب أهل البلاد واستعبادهم . ألا ساء مثلا المسلمون المغفلون الجاهلون (اقرأ ما تقدم فى سورة الحج عند قوله تعالى «وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى» الخ من كلام الشيوخ الخواص والشيخ الدباغ) .

إن من فتح عليه بسبب العبادة ثم نصب نفسه لقيادة الناس وجعل هذه الخوارق بابا للرزق فهو من « الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وهو عند المستعمرين لبلاد الإسلام أشبه بالمثل المشهور ﴿ أكل بيد القط ﴾ وسببه أن القرد استعمل يد القط فى أخذ الفاكهة المسماة (فروة) من النار المتقدة فصرخ القط فسمع صاحبه الصرخ والولولة فجاء فوجد هذه الحال فذهبت مثلا افرنجيا . فهؤلاء الشيوخ استعملهم الفاتحون لبلاد بعض أمم الإسلام ويأمرونهم بالأوراد ليلا ونهارا ولا

يأمرونهم بالتفكر والتعقل ليظلوا لهم خاضعين . هنالك قال صاحبي لقد تم القول الآن في الفصول الثلاثة فأرجو إجابتي على ما سألت من قولي لك كيف تقول قال الله مع أن القائل أنت . فقلت قد آن أن أجيبك عليه . اعلم أن الله عز وجل يقول « ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان » فالله وضع النظام في السماء والأرض المعبر عنه بالميزان لنزن نحن بالصدق بلا زيادة ولا نقص وقد وضح هذا في أول (سورة يونس) فارجع إليه فإنك ترى هناك حساب هرم مصر الأكبر وكيف كان حسابه على مقتضى حساب الدائرة الشمسية السنوية وهذا الحساب على مقتضاه بنى الهرم وعلى مقتضى الهرم عرفنا الوزن والكيل والمساحة بالدقة . إذن الناس يقلدون ربهم في فعله ولولا هذا ماعرفوا رطلا ولافدانا ولا أردبا . قال صاحبي هذا حسن ولكني أريد أقرب من هذا . قلت في موضوعنا . قال نعم . قلت قال الله تعالى في (سورة هود) « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فها هو ذا سبحانه بعد أن ذكر تربيته لكل حيوان وأنه آخذ بناصيته أبان أن هذه التربية في غاية النظام ولم يقف عند هذا الحد بل أمرنا في (سورة الفاتحة) أن ندعوه فنقول « اهدنا الصراط المستقيم » والنكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول فهو يقول : اهدنا صراط الله المستقيم المعروف ، وكيف نهدى إلى طريقه إلا بدراسة نظامه في خلقه . فكما درسنا نظام الأفلاك وسرنا في سفننا على مقتضاه في البحر وفي القطرات على وجه الأرض ووزنا ومسحنا وكلنا . هكذا ندرس نظام الحيوان لتتسع عقولنا لنظام حياتنا . إن الحياة الحيوانية مقدمة للحياة الإنسانية ومن جهل المقدمة جهل النتيجة

إن العلامة (سبنسر) يقول (إن الناس قرءوا قبل أن يكتبوا) فليعلم الأساتذة التلاميذ القراءة قبل الكتابة مشاكلة للطبيعة ليكون النجاح ، فعلى المعلمين أن يبتدئوا بالقراءة ثم بعد ذلك يكتبون . هكذا ترى الله خلق الحيوان قبل الإنسان . فليدرس الناس الحيوان وتشريح الانسان وتاريخ حياة الأمم وتاريخ أممهم أنفسها . فمن جهل تاريخ أي علم فقد جهل نفس العلم ومن جهل علم الحيوان وعلم النبات فقد جهل نظام الإنسان لأن دراستهما أسهل من دراسة الإنسان ومن درسهما الإنسان استحق أن يفهم عالم الإنسان إذن الله تعالى بخلقه هذه العوالم يخاطبنا كما قلت لك لأنه أمر أن نقول « اهدنا الصراط المستقيم » وهو نفسه على صراط مستقيم في خلق عالم الحيوان وغيره فلا بد من دراسة هذا الصراط ثم ندعو الله أن نسير عليه . إذن ظهر لك أن قولي : إن الله يخاطبنا بمصنوعاته حق فكيف ندعو إلى صراط مستقيم نجهل بعضه ، وصراط الله المستقيم يتبع .

فلما سمع صاحبي ذلك قال أنا لا أجادلك في هذا القول بل أقول إنك أثبت بحجة وقطعت بصدق وقول حق فإن قوله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » ... الخ وقوله « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » بعد هذا البيان دلانا على أن هذه العوالم كلها طرق ذللت لننهجها وسبل لنسير عليها ولكن هذا كله كلام إجمالي فإن مسألة العنكبوت والنحل والسمك الكهربائي وكل ما ذكر فيها كلام عام واستنتاج إجمالي فإذا ذكرت لنا مثلا بعض هذه العوالم وتشرحه شرحا جيدا من العلم ثم نجد القرآن نص عليه نصا فإن ذلك يكون نموذجا لجميع العلوم ويصبح المسلمون بعد قراءة ذلك مسرعين إلى أن يتخصصوا في العلوم ويوقنوا إيقانا تاما بأنهم في قراءة الحشرات والذرات في أجل عبادة ويعكفون على أعمال التجربة في الأعمال الكيمائية والأعمال التشريحية وهكذا . فقلت إن الله تعالى يقول في قوم فرعون « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » .

انظر العجب . انظر كيف يقول الله في الطوفان وفي الجراد وفي القمل وفي الضفادع . ماذا يقول ؟ يقول

« آيات مفصلات » فجعل الماء الذي يغرق أرض مصر وغير أرض مصر آية مفصلة وجعل الحشرات التي منها الجراد والقمل « آيات مفصلات » وجعل الضفادع من الحيوانات الزاحفة ذوات الفقرات «آيات مفصلات»

ألا تعجب معي كيف جهل المسلمون هذا الدين. الله يقول « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » فهو كتاب مفصل الآيات باللغة العربية ولكنه إنما يفهمه أهل العلم ، والله هو نفسه يجعل الماء والحشرات والضفادع «آيات مفصلات» . إذن الآيات المفصلات كما تكون قولا تكون فعلا ومن الفعل الحشرات والماء. وهكذا ولم يكتف الله تعالى بذلك بل قال عند الكلام على العنكبوت « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (بكسر اللام) فالعالمون جمع عالم . إذن الله يقول إن القرآن وآياته المفصلة نزل لأولى العلم ، ويقول إن العنكبوت وأمثالها ضربت أمثالا لأولى العلم. إذن ظهر الأمر واتضح وأصبحت الحشرات وأمثال الحشرات آيات كما أن القرآن آيات . فقال صاحبي هذا أمر عجيب وبديع . إن الناس يشاهدون الجراد والقمل والضفادع ويحسون بالدم في أجسامهم ويشاهدونه في ذبائحهم فلا يأبهون لها ولا يقيمون لها وزنا، وغاية الأمر أن يدفعوا الجراد والقمل عن زرعهم وأجسامهم . أما كونها تحتاج إلى علم وأنه لا يفهمها إلا العلماء فهو غريب على المسلمين وهكذا الآيات المقروءات المتقدمات ، فاذا سمع المسلم قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد » الخ مر عليها كما يمر على أكثر القصص يحترمها احتراما دينيا . أما إنها تحتاج إلى تعقل وفكر فهذا بعيد وغريب .

سل عامة المسلمين من علماء وجهال وقل لهم : هل الجراد والقمل والضفادع والدم المذكورة في القرآن تحتاجون في فهمها إلى عقل وعلم ؟ وهل نفس هذه الحيوانات يحتاج الناس في فهمها إلى علم وعقل فانهم جميعا يجيبونك بلسان واحد . هذا أمر معقول مفهوم نحن نعرفه ونفهمه ولا نحتاج إلى علم ولا تعقل . فقلت سترى الآن كيف يحتاج ذلك كله إلى علم وأن أكثر المسلمين مخدوعون وأن مثلهم مع أمثال هذه المباحث كمثل رجل سار في أرض عراء فلمح جبلا فظن أنه يصله في عشر دقائق ولكن الجبل المرتفع يوهم الإنسان أنه قريب وهو بعيد كما يرى الناس أن الشمس قريبة رأى العين وهي بعيدة فيظل المسكين سائرا أكثر يومه حتى يصل إليه بعد طول الشقة . فالمعلومات قد أبرزها الله للناس وجعلها تحيط بهم فظنوها معلومة كما ظنوا أنهم عرفوا حقيقة الشمس بالنظر إلى ظاهرها ولكنهم عند الامتحان يتحققون أنهم جاهلون وأن هذه أمثال والأمثال لا يعقلها إلا أولو العلم .

فهناك الطوفان المذكور في الآية . يقول الله في قصة موسى إني أرسلت الطوفان على أهل مصر لماذا؟ ليخافوا الله ويؤمنوا . فهنا [أمران] إعظام الله بسبب ظهور جبروته وسطوته والإيمان به فإرسال الطوفان يهلك الأمم فهذا القهر يورث القلوب إعظاما وإجلالا لله وينتج منه الإيمان به والتصديق . وهذا مثل من الأمثال التي لا يعرفها إلا العلماء فلم ينزل الله القرآن إلا لنا نحن، ونحن ننظر فنقول إن الماء ينزل من السماء في خط الاستواء ويجرى في النيل سائرا الى البحر الأبيض المتوسط فاذا زاد زيادة فوق العادة أغرق البلاد فكان آية مفصلة . هذا ظاهر الآية ولكن الحقيقة أن هذا النيل وأمثاله كدجلة والفرات وسيحون وجيحون والنيجر في السودان وأمثالها وكالطونة وفلجا والتيمس في أوروبا . كل هذه إذا تركت وشأنها أهلكت الحرث والنسل في كل سنة فلولا أن الناس يعملون لها جسورا وقناطر لكانت وبالا عليهم فتغرقهم تارة وتجعل أرضهم قفراء تارة أخرى (والدليل على ذلك . أولا) أن نهر النيل الذي يجرى في بلادنا المصرية ما كان ليعيش به قبل أيام محمد علي باشا أي نحو سنة (١٨٠٠) ميلادية وما قبلها إلا نحو ألفي ألف إنسان (مليونين) لا غير وذلك بسبب إهمال الحكام وجهلهم إذ ذاك أيام انحطاط الأمم الاسلامية فكان فيضان النيل يغرق

البلاد تارة ويتركها أرضا قفراء تارة أخرى . فأما فى هذه الأيام (سنة ١٩٢٨ م) فان البلاد تعدادها نحو (١٤) مليونا وماء النيل لايزال قابلا لسقى أرض أوسع مما يسقى الآن فيغتذى بالزرع عشرة ملايين أخرى على طول الزمان . إذن الله عز وجل ذكر الطوفان فى الآية وقال إنه آية مفصلة وقال إنه لا يفهمه إلا العلماء لهذه الحكم العجيبة .

أليس من العجب أن تكون أرض اليمن ملك أمة إسلامية وقد سمى الله سورة باسمها وقال إنه كان فيها سد العرم وأنه كان فيه جنتان . فياليت شعرى أين ذهبت الجنتان الآن وأين السدود الأخرى هناك ؟ . إن هذه البلاد وبلاد حضرموت وغيرها قد أنزل الله لأهلها مطرا فى فصول السنة وهم لا يحفظونه فيترك الأرض قاعا صفصفا لا تنبت نباتا . أليس من العجب ومن المؤلم أن تكون هذه الأمة الاسلامية لم تصل فى عمران بلادها إلى ما وصل اليه أمم قبلهم عباد أوثان فى اليمن وفى حضرموت وفى غيرها والله يذكر الطوفان فى الآيات ويذكر سد العرم ويقول « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » وما الإعراض المذكور إلا جهل العلوم التى بهـا إصلاح السد كما حصل فى مصر قبل أيام محمد على باشا كما تقدم . فهل يتفكر المسلمون حتى يكونوا من الذين قال الله فيهم « وما يعقلها إلا العالمون » . اللهم إنك أنت المعلم والهادى وعلى من اطلع على هذا أن يرشد الأمة إلى سواء الصراط (ثانيا) إن الحشرات التى ذكر منها الجراد والقمل فى الآية ليس يعرف الناس منها إلا أن الأول يهلك الزرع والناس يطاردونه . ويقول شاعرهم :

مر الجراد على زرعى فقلت له	لا تأكلن ولا تشغل بإفساد
فقام منهم خطيب فوق سنبلة	إنا على سفر لا بد من زاد

وأن الثانى يؤذى الناس فى فراشهم فينظفون ثيابهم ليبعدوه عن أبدانهم لأجل صحتها . ويقرءون فى كتاب [كليلة ودمنة] أن البرغوث حل ضيفا عند القملة فى فراش رجل غنى فلدغه البرغوث ليلا ففر البرغوث وبحث الرجل فلم يجد إلا القملة فقتلها وجعلوه مثلا لمعاملة الرجل المجهول فانها ترجع على الإنسان بالوبال .

هذا ما يعرفه الناس فى القمل وإخوتها البراغيث ولكن الآية لا تقف عند هذا الحد فان هناك فرقا بين الخيال والحقيقة . فالذى فى [كليلة ودمنة] ضرب مثل خيالى والقرآن يقول إن هذه حقائق علمية أى إنه لا يعرف هذه إلا العلماء . وأما هذه فهى أمثال سهلة يعرفها العلماء والجهال متى ألقيت إليهم . فقال فما علم هذا عندك . فقلت إن البراغيث المذكورة يظن الناس إيذاءها قاصرا على لدغهم فى الفراش ولكن العلم اليوم أثبت بعد البحث والتنقيب أن البراغيث تجلب الطاعون والأمراض العامة . ولا جرم أن القمل المذكور فى الآية لا يراد بها خصوصها بل المراد هى وأمثالها من مؤذيات الحشرات وأقربها إليها البراغيث التى قرنت بها فى كتاب (كليلة ودمنة) فأمثال القمل كالطوفان سواء بسواء . فكما أن الطوفان يهلك آلافا دفعة واحدة هكذا البراغيث تفعل ذلك . وكما أن ماء النيل وأمثاله معرض فى كل وقت إذا أهمل أن يكون إهلاكا عاما وأن يكون طوفانا هكذا نحو البراغيث تفعل ذلك إذا تركت وشأنها . قال فاذكر لى برهان ذلك من العلم . قلت اعلم أن الله عز وجل قد أمد هذا التفسير بالعلم وأيدنى فيه تأييدا لم يكن ليخطر لى ، ومن عجيب أنى لا أتكلف ما أكتبه بل تساق إلى العجائب من حيث لا أحتسب فانظر كيف أصدرت مصلحة الصحة المصرية نشرة فى هذه الأيام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٨ م أثناء كتابة هذا المقال وفيها أن البراغيث رسل الموت ، إذ تنقل الأمراض المهلكة من الفيران الى الإنسان تبيانا لما قلناه وهذا نصها :

﴿ خطر الفيران ﴾

(تاريخ حياتها)

تعيش الفأرة سنتين تقريبا وتبلغ سن الحمل قبل أن تصل الى الشهر الثالث من عمرها ومدة حملها ٢١ يوما ، وقد تلقح بعد بضع ساعات من الولادة ، والفأر يولد عاريا من الشعر وأعمى وآذانه مغلقة ويستمر كذلك مدة أسبوعين ويكبر حجمه فى الأسبوع الرابع من عمره . وتحمل الفأرة من ثلاث إلى خمس مرات في السنة وفي كل مرة تلد من ٦ الى ٩ فيران ، وقد يصل عدد ما تلده فى المرة الواحدة إلى ٢٣ فأرا ويتوقف ذلك على مقدار غذائها وملاءمة الجو ، فكلما ازداد الغذاء وكان الجو ملائما ازداد عدد مرات حملها وعدد ما تضعه فى كل مرة .

﴿ طبائع الفيران ﴾

الفأر لا يخرج من جحره إلا بالليل ويقضى معظم يومه نائمـا داخله . والفيران تخزن مأكولاتها داخل جحورها حتى إذا وجدت صعوبة فى الحصول على قوتها فى وقت من الأوقات أمكنها أن تعيش بمـا خزنته حتى تجد موردا آخر للقوت . وهى تحفر جحورها قريبا من الجهات التى تحصل منها على طعامها ولكنها فى بعض الأحيان قد تقوم برحلات طويلة للحصول على غذائها وتتبع فى رحلاتها طريقا خاصا لا تحيد عنه عادة ، ومن طبائعها التنقل فى فصول السنة المختلفة فقد تهجر المنازل فى الربيع الى الغيطان حيث يمكنها الحصول على غذاء أشهى مما تجده فى المنازل فى ذلك الوقت ثم تعود إلى المنازل فى الخريف لتقضى فيها مدة الشتاء . وهى كثيرة الدهاء وشديدة الاحتراس من وقوعها فى المصائد وتصبح أحيانا مفترسة سيما إذا قل مورد غذائها، وقد تأكل صغارها أو الضعاف من ذريتها ، وقد تهجم فى بعض الأحيان على الإنسان بتوحش خصوصا إذا كان نائما وتنهش الجثث فى مقابرها وتهجم على بعض الحيوانات فتنهش لحمها . وقد عثر عليها تفعل ذلك مع الفيلة فتعض أرجلها ومع الخنازير فتأكل من آذانها وأثدائها ، وهى تقتل صغار الأرانب فى جحورها وتستولى على بيض وصغار الطيور لتأكلها ، ولها قدرة غريبة على سرقة البيض وقد تسرق البيضة من تحت الدجاجة بدون أن تشعر بها .

﴿ الخسائر التى تسببها الفيران ﴾

إن الأضرار المادية التى تسببها الفيران لا تخفى على أحد ، فاذا حسبنا أن مقدار ما يأكله الفأر الواحد فى اليوم يقدر بربع مليم فقط وأن عدد الفيران الموجودة بالقطر المصرى (١٤) مليونا أى بنسبة فأر لكل شخص (وهذا التقدير قليل بالنسبة للواقع) لبلغ مقدار ما يضيع سنويا فى غذاء الفيران فقط مليون ونصف مليون جنيه تقريبا . هذا فضلا عما تسببه من الخسائر والأخطار بحفر جحورها فى جدران المنازل وبين السقوف ، فقد تداعت مبان كبيرة إلى السقوط لهذا السبب وقد نتجت عن قرضها لمواسير المياه والغاز حوادث خطيرة . ومن أضرارها أنها تحمل عيدان الكبريت إلى جحورها وتقرضها فتسبب أحيانا حرائق كبيرة .

﴿ الفيران والأمراض ﴾

فضلا عما تسببه الفيران من الخسائر والأضرار والحوادث الخطيرة تحمل جراثيم عدة أمراض فتاكة تنتقل إلى الانسان بواسطتها . وأهم تلك الأمراض الطاعون وهو فى الأصل يصيب الفيران ويقتل منها عددا كبيرا

وينتقل منها إلى الإنسان بواسطة لدغ البرغوث . وداء الاسبيروتيتا المصحوب بيرقان ونزيف والتولاريما والمرض بالدودة الخيطية وعدة ديدان معوية أخرى والحمى المتسببة من عضة الفأر .

﴿ طرق إبادتها ﴾

(١) يجب إحراق القمامة (الزبالة) والفضلات المنزلية يوميا أو وضعها في وعاء له غطاء محكم .

(٢) يجب بناء المحلات التي تخزن فيها المأكولات والتي تغشاها الفيران عادة من مادة تمنع دخولها إليها كالأسمنت .

(٣) يجب سد الجحور بقطع من الزجاج ثم بقطع من الحجارة والأسمنت حتى لاتقوى الفيران على ثقبها .

(٤) يجب سد نوافذ البدرونات السفلى والفتحات الصغيرة التي تدخل منها الفيران بقطع السلك أو الزنك .

(٥) استعمل مصايد الفيران في المحال التي تغشاها هذه الحيوانات ، ويجب غسل المصيدة جيدا بعد كل مرة وتغيير الطعم يوميا .

(٦) استعمل طرق التسميم للفيران ، وأحسنها خلط ملح كربونات الباريوم بقطع من الخبز أو الدقيق أو السردين أو البيض أو البطيخ أو الطماطم . ولكن يجب الاحتراس من وصول هذه السموم إلى الحيوانات والطيور أو الأطفال .

(٧) يمكنك الاستعانة بالحيوانات الأليفة لصيد الفيران وأهمها الكلاب والقطط فانها تقتل عددا كبيرا منها .

(٨) انثر قطعا من النفتالين أو مسحوق الكبريت في الأماكن التي تغشاها هذه الحيوانات فان الفيران تكره رائحة هذه المواد ولا تقترب من الأماكن الموجودة بها اه .

فانظر إلى مرض اليرقان والنزيف ومرض الدودة الخيطية والديدان المعوية والطاعون فهذه كلها أمراض مهلكة تنقلها البراغيث إلى الإنسان . فالبراغيث من الحشرات ذوات الأرجل الستة كالجراد وكالقمل ، والفيران من ذوات الفقرات والدم والعظام . فانظر كيف اتحدت كلها على إهلاك الإنسان .

ألا ترى أن هذا لايعقله غير العلماء به . كلا . وهل تظن أن الناس وهم على حالهم بدون قراءة العلوم يعرفون خطر الفيران وخطر البراغيث . كلا . إذن هذا هو الزمان الذي تظهر فيه حقائق القرآن ويعلم الناس لماذا ذكر الله الجراد والقمل والطوفان والعنكبوت والذباب ثم لماذا يقول إن هذه الأمثال لايعقلها إلا العلماء .

إن هذه الأسرار هذا زمان ظهورها ، والفضل كل الفضل لظهور هذه الأسرار في زماننا انتشار العلوم في الأمم حولنا ، فهذا هو الزمان الذي يظهر فيه معنى «وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون» فهذه من مبادىء العلوم التي سيعرفها المسلمون بعدنا وهم الذين يدرسون هذه الدنيا ويعرفون أن هذه المخلوقات آيات مفصلات . فاذا درسوا حشرة كالذبابة أو النحلة أو الجراد أو أمثالها تبينوا [أمرين : الأول] أنهم يتقون الخطر الناشىء من الحشرة بسبب دراستها كما يتقون عذاب الله بالايمان فلا يغرقون بالطوفان في الآية ولا تسلط عليهم الحشرات (الثاني) أنهم بسبب هذه الدراسة قد وقفوا على الحقائق وأدركوا عجائب الحكمة فعرفوا ربهم وبهذه المعرفة غرسوا لهم روضات في جنات العلم والحكمة وعاشوا في سعادة علمية لايحظى بهم سواهم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

وهاك مثالا آخر وهو :

(مرض الدنج)

(أعراضه ـ جرثومة المرض ـ أسباب انتشاره ـ وصف الستيجوميا ـ أدوار حياتها ـ مقاومة الدنج
بقلم الدكتور سامى بك كامل)

لم نعثر على وصف لهذا المرض قبل الشيخ الجبرتى) الذى ذكره فى تاريخه المشهور وصفا دقيقا حيث قال بالحرف الواحد ما يأتى :

[فى منتصف شهر رجب سنة ١١٩٣ هجريه الموافق سنة ١٧٧٩ ميلادية ظهر بمصر وضواحيها مرض سموه (بأبى الركب) وفشا فى الناس قاطبة حتى الأطفال ، وهو عبارة عن حمى ، ومقدار شدته ثلاثة أيام ، وقد يزيد على ذلك وينقص بحسب اختلاف الأمزجة ، ويحدث وجعا فى المفاصل والركب والأطراف ويوقف حركة الأصابع وبعض ورم ، ويبقى أثره أكثر من شهر ويأتى الشخص على غفلة فيسخن البدن ويضرب على الإنسان دماغه وركبه ويذهب بالعرق والحمام وهو من الحوادث الغريبة] انتهى .

وكلمة الدنج هذه لا يعرف أصلها وكل ما قيل فيها تخمين . ويغلب على الظن أن وطنه الأصلى (عدن) وما جاورها . وربما سموه الدنج تحريفا واشتقاقا من عدن . ثم انتشر هذا الوباء إلى جميع العالم فى المناطق الحارة والدافئة ولم تخل قارة منه . لذا سمى بأسماء كثيرة وجعلوا له فى كل بلد اسما . أما فى مصر فسموه (بأبى الركب) ومن بعدها (بحمى البلح) حيث يتفشى فى أوانه ، واستوطن ممالك مختلفة ويمكن اعتبار مصر موطنا له . ومن خواص هذا الوباء سرعة انتشاره وتعطيله فى أسابيع قليلة لحركة الناس وأعمال الشركات والجماعات والحكومات ويأتى زمن لا يخلو منه بيت فيه مريض أو ناقه من مرض .

(أعراضه)

آلام بالرأس والمفاصل وارتعاش الجسم ثم حمى مرتفعة مصحوبة بطفح أو باحمرار فى الوجه . ومن خواص تلك الحمى أنها لا تسير على وتيرة واحدة ولذا يمكن اعتبارها متقطعة ، ومدتها أسبوع يظهر على الجسم فى خامس أو سادس يوم منه طفح ثان عبارة عن نقطة رقيقة حمراء على الأيدى والذراعين والساقين ، وقد ينتشر على كل الجسم ، وقد يصحبه تنميل وحكة . وقد تختلف هذه الأعراض من مريض إلى آخر اختلافا جوهريا فلا يرى الطفح مثلا ، وقد لا تظهر الحمى مطلقا أو تكون مدتها بسيطة أو لا تبدأ بارتعاش الجسم وتفقد شهية الطعام وتتضخم العقد اللمفاوية أو يعترى المريض أرق أو نزيف وقد تتورم المفاصل ، إنما الذى لا يختلف فى جميع الحالات هو شدة الآلام فى المفاصل والعضلات ، يعقب كل هذا انحطاط فى القوى فى الأسبوع الثانى للمرض وفقد شهية الطعام يدخل بعدها المريض فى دور النقاهة الصحيحة .

(جرثومة المرض)

لم يعثر للآن على جرثومة هذا الوباء وهى موجودة بالفعل حيث أخذ دم المريض وحقن به الصحيح فأحدث المرض (تجارب كريج) وهذه الجرثومة دقيقة جدا لدرجة أنها تمر بالمرشحات الدقيقة التى تحجز غالب الميكروبات حتى الدقيق منها . وقد اتضح ذلك بإمكان إحداث المرض بعد ترشيح دم المريض وحقنه إلى السليم بواسطة (الدكتور كريج) .

(أسباب

(أسباب انتشاره)

برهن بعض العلماء على أن البعوض هو ناقل المرض وقد أظهر ذلك بوضوح الدكتور (كليلاند) الذى لقح أنواعا مختلفة من البعوض بتغذيتها من دم المرضى ثم إطعامها من أصحاء فنجحت العملية ونقل مرض الدنج بواسطة النوع المسمى (ستيجوميا فاسياتا) وهو كثير الانتشار فى مصر ، والبعوض الملقح يحدث الدنج بعد خمسة إلى تسعة أيام من إطعامه دم المريض به . وتظهر على المصاب علامات الدنج فى مدة تتراوح بين خمسة وثمانية عشر يوما ، ووجد أيضا أن دم المصاب يجرى فيه جراثيم الدنج مدة أسبوعين كاملين من ابتداء المرض يمكن البعوض أثناءها أن ينقل مرض الدنج إلى الأصحاء .

(وصف الستيجوميا وحياتها)

هو بعوض أسود أرجله بيضاء مسكنه البيوت ويعيش من دم الانسان وفى حالة سكونه يوجد فى مواضع الظلام خلف ستار أو باب أو تحت الأسرة . يمضى حياته بقرب من المياه وفى درجة حرارة تزيد على (٢٣) سنتيجراد ولا تقل عن ١٧° وله طيران قوى بدون أزيز ويقع بغتة على فريسته ويحدث ألما أشد من الألم الذى يحدث من البعوض العادى . لا يطارده الريح ، يعيش على الفاكهة وقد ينقل بواسطتها إلى مسافات بعيدة فينتقل معه المرض ، يتغذى هذا البعوض من دم الإنسان فى الصباح وقت شروق الشمس وفى النهار داخل المنازل أو خارجها إذا احتجبت أشعة الشمس وليلا فى النور . والستيجوميا تتعاطى طعامها كل ثلاثة أيام تقريبا من دم الإنسان وإلا فمن دم الحيوان .

(أدوار حياتها)

لا تبيض الستيجوميا بعد تلقيحها إلا إذا تغذت بالدم وتضع بويضاتها فى أى آنية أو حوض فوق سطح الماء بقليل فاذا علا الماء فقس البيض ، ويوجد البيض فى الآبار والبراميل وفى أى شىء ملقى كعلبة صفيح أو غلاف فاكهة وفى دور المياه والمراحيض وفى بقايا الزجاج أو فى أوانى الأزهار وتجويفات الأشجار وبجوار الأنهار وفى تجويفات الأرض بعد الأمطار : وعدد البيض يتراوح من ٧٠ إلى ١٥٠ بيضة لكل بعوضة ويمكنه أن يعيش ثمانية أشهر كاملة أو أزيد ، وقد يقاوم البيض مدة الشتاء فيفقس فى الربيع وربما كان الفقس حاملا جراثيم المرض فينقلها بدوره إلى الإنسان . أما مدة حياة العلق (فقس البعوض) إلى أن يصير بعوضا كاملا فتتراوح بين ١١ إلى ١٨ يوما فى درجة ٢٦ سنتيجراد وهذا العلق يعيش فى الماء ولا يموت إذا نزل إلى قاعه . أما حياة البعوضة فتزيد على خمسة أشهر وربما كانت حاملة جرثومة المرض أثناءها .

(مقاومة الدنج)

ذكرنا حياة البعوض بالتفصيل لتقدير مقاومتها ، فالاحتياطات التى تتخذ لمنع انتشار الدنج هى منع انتشار ذلك البعوض . وحيث إن هذا المرض صار مهددا لمصر فى كل عام فيجب على مصلحة الصحة إصدار تعليمات خاصة بحياة وعادات ذلك البعوض بعد درس عميق ثم استصدار قانون يجب اتباعه فى جميع المنازل لإبادته تماما وتقرير غرامات لمن يخالف تلك القوانين ويوجد البعوض فى منزله بعد التفتيش الدقيق . انتهى .

وقد نشرت مصلحة الصحة العمومية المصرية بلاغا عن حمى الدنج وها هو ذا :

﴿ بلاغ عن حمى الدنج المعروفة للجمهور بأبي الركب ﴾

لكن فى علم الجمهور أن البلاد مهددة بمرض الدنج وأن معاونة الأهالى لمصلحة الصحة هى من أفضل الوسائل فى مقاومة هذا المرض . فعلى كل فرد من أفراد الأمة أن يسترشد بالتعليمات الآتية فى أداء واجبه نحو نفسه ومواطنيه .

(مرض الدنج) إن مرض الدنج هو من الأمراض المعدية وهو ينتشر بسرعة فائقة وربما كان أسرع الأمراض المعدية كلها انتشارا .

[الأعراض] وأعراض هذا المرض تظهر فجأة وهى وجع فى الرأس وقشعريرة وآلام حادة فى المفاصل والعضلات والظهر مع ارتفاع فى الحرارة ووسخ فى اللسان وفقد الشهية للطعام واحتقان فى العينين وآلام شديدة فى جبتهما وفى بعض الأحيان يحصل نزيف من الأنف أو من فتحات الجسم الأخرى ، وتستمر هذه الأعراض مدة تتراوح بين يومين وأربعة أيام ثم تنخفض الحرارة ويبتدىء المريض فى التحسن مدة يومين أو ثلاثة: وبعد ذلك تعتريه نكسة فتعود اليه أعراض المرض ثانيا وتستمر يومين أو ثلاثة ويظهر على الجسم فى بعض الحالات طفح يشبه طفح الحصبة ، ومتوسط مدة الاصابة بهذا المرض هو نحو أسبوع وبعد زوال أعراضه يظل المريض مدة طويلة ضعيف البنية منهوك القوى الجسمية .

[طريقة نقل العدوى] ينقل عدوى المرض نوع خاص من البعوض المنتشر بكثرة فى أنحاء القطر المصرى

[طرق الوقاية] لما كان نقل عدوى المرض لا يحصل إلا بواسطة البعوض فانه من الواجب توجيه جميع الجهود لمقاومته وإزالة أماكن توالده ، وهو يتوالد فى الماء الراكد كماء البرك والمستنقعات وخزانات المراحيض ونحوها ولكى تقى نفسك شر هذا المرض يجب عليك اتباع الارشادات الآتية :

(ا) ابذل كل الجهد فى عدم تمكين الناموس من الدخول فى منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك دقيق أو بشاش رفيع .

(ب) وجه كل عنايتك لاعدام جميع الناموس الذى يدخل منزلك .

(ج) غط سريرك بناموسية كلما أمكنك ذلك وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .

(د) لا تترك مياها راكدة فى البراميل أو الأزيار أو الأوانى الأخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع .

[العلاج] إذا أصبت بالأعراض السابق وصفها فلصالحك أن تستشير أحد الأطباء ، ويجب أن يعزل المريض فى غرفة خاصة متوفرة فيها شروط التهوية والضوء مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع وصول الناموس اليه وذلك بتغطية النوافذ بسلك دقيق أو شاش رفيع كما سبق القول ، ويبقاء المريض على الدوام داخل ناموسية حتى تتيسر وقاية الأشخاص الذين يقيمون معه فى منزل واحد من تسرب عدوى المرض إليهم .

وإنما نقلت لك كلام الأطباء ونصائح الحكومة للوقوف على إبداع الله وحكمته . أفلا تعجب من حيوانات لا نراها تدخل فى أجسامنا لا عدد لها ولا تراها العيون والذى ينقلها هو البعوض (الناموس) فهذا الناموس الخاص هو الذى ينقل تلك الحيوانات من جسم إلى جسم ، ولا منجى من خطر الحامل ومحموله إلا بالدراسة وبارتقاء الطب ، ولا ارتقاء للطب إلا بدراسة كل علم ومنه علم الحشرات الذى لا ارتقاء له إلا بآلات دقيقة والآلات الدقيقة لابد لها من صناع يصنعونها وهكذا . فالعلوم والصناعات دائرة واحدة والأمة التى يجب عليها الدراسة والصناعة أمة واحدة والناس أشبه بجسم واحد على الأرض « وقل اعملوا

فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ م وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية .

﴿ اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى «ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا» ﴾

قد علمت فى تفسير الآيات أن الله ذم الكفار لأنهم اتخذوا من دون الله آلهة لم يخلقوا شيئا بل هم مخلوقون ولايدفعون عن أنفسهم ضرا ولا يجلبون نفعا ولا يحيون ولا يميتون ولايعيدون الأموات للبعث فهذه سبع صفات جردتهم من كل كمال يليق بالألوهية . فالإله يكون خالقا لامخلوقا ولا يضره أحد ويحيى ويميت ، وإذا أمات أحدا أعاده هذا هو الإله وهذه الأصنام لاقوة لها على ذلك ، والذى يهم فى هذا المقام قوله « ولا نشورا » ومثل هذا القول يمر على أكثر الناس وهم نائمون كأنهم لايعلمون . يذم الله الكافرين لأنهم عبدوا أصناما اتصفت بصفات لاتليق بالألوهية ومنها أنهم لايحيون مامات من المخلوقات ، ولعمرى إن هذه هى بيت القصيد .

. انظر وتعجب كيف يذكر ذلك فى هذه الآيات . ذكر الله ذلك ليفتح لنا باب الفكر فى الألوهية . لايثبت إله فى العالم يخلقه مالم يكن حكيما والحكيم لايفعل العبث . ومن العبث العظيم أن يخلق خلقا ثم يعدمه بلا فائدة فهذه قسوة ولاحكمة فيه . وأى حكمة فى عمل لاقيمة له . يخلق مخلوقات ثم يهلكها ويتركها ولافائدة منها إلا أنها تعذب وتهان لغير ذنب جنته ولا ظلم اقترفته ، فان لم يكن لهذا العالم وجود بعد العدم وكان العدم هو النهاية فلا إله للعالم وإنما هو تركيب وتحليل لاغير يأتى بالمصادفات . فالألوهية تستلزم البعث فبين الألوهية وبين البعث تلازم إذا ثبت الإله ثبت البعث لأنه يكون حكيما وإذا لم يثبت فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولانار ولا حكمة فى وجود العالم ولذلك تجد القرآن يقرن فيه الله باليوم الآخر فتسمع فيه «الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » فى آيات متعددة وسور كثيرة من القرآن . فانظر إذن فى عدد (١٩) الذى مر ذكره فى اللطيفة السابقة إذ جعله قدماء المصريين رمزا للبعث . فانظر كيف جعلوا مبدأ العالم والعلة الأخرى مرموزا له بالواحد وجعلوا بقية الأعداد مابين ارتقاء للعالم وموت وفناء ثم رجوع وهذا الرمز بعينه هو ملخص هذه الآيات من قوله «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده» إلى قوله « ولا يملكون موتا ولاحياة ولا نشورا » فالذى له ملك السموات والأرض الخ .

كل هذا قد اتضح فى هذه المقالات و « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » فانظر أيها الذكى كيف جاء عند قدماء المصريين نفس ماجاء فى الفلسفة القديمة والحديثة والديانات جميعها أن الموت يتبعه البعث والقدماء والمحدثون على هذا متحدون . انتهت اللطيفة الثالثة .

﴿ اللطيفة الرابعة «وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» الخ ﴾

اعلم أن النوع الانسانى درج على هذه الطريقة وسار على هذا الناموس فلا يعظم إلا من كثر ماله وحشمه وخدمه ولا يعلم من أمر هذه الحياة أعظم خطرا إلا ماكان نادر الوقوع مخالفا للعادة وذلك لقلة فطنة هذا الإنسان الساكن هذه الكرة . تراه لغفلته وعدم فطنته لا يأبه بالأمور المعتادة ولايعقل إلاماهو خارق للعادة إذ أتاح الله لهم أنبياء فأتوا لهم بالغرائب والعجائب . ولما دار الزمان دورته وأراد الله أن يخلق أمة حديثة العهد عظيمة النفع عالية القدر مفكرة أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم فطلب القوم منه أن لا يكون كالمعهودين من الناس فلا يأكل الطعام ولا يمشى فى الأسواق أو يأتى لهم ملك من السماء فيقول للناس هذا نبى الله ويسدر الناس معه أو يعثر على كنز حتى يكون غنيا غنى غير معتاد حتى يقول الناس إن الله لحبه له

وتعظيمه وتقريبه منه أمده بهذا الكنز فلا يحوجه إلى معالجة التجارة ولا يضطره إلى مزاولة الأعمال مع الناس وهذا من تلك الشنشنة المعروفة فى الانسان ، إذ رأى أن نعم الله على عباده تكون على مقتضى المال والولد والغضب من الله على مقتضى قلة المال والولد والنعم . ومن أتى الناس بحال معروفة لهم ولم يكن معه أمر نادر حقروه وقالوا أنت مثلنا . وذلك لأنهم يتركون مواهبهم وآراءهم وهذا الأمر اليوم هو السارى فى نوع الإنسان . فالناس على وجه هذه الكرة كلهم على هذه الحال لا يستمعون القول إلا ممن يرونه بحال تدهشهم فإن كانوا من العامة صدقوا المجاذيب وأمثالهم وإن كانوا من الخاصة لا ينقادون إلا لرجل أوروبى معه السلاح والحرب والظفر على الأعداء . ولذلك قرر ابن خلدون أن الناس تابعون لدين ملوكهم وهم أبدا مولعون بالغالب لأن الغالب بهر عقولهم بالجيوش الجرارة . فلذلك ترى المصريين أهل بلادى أى المتعلمين منهم لا يبالون بالعبادات ولا الأمور الدينية إلا قليلا منهم لأنهم ينظرون إلى الدين والمتدين نظر كفار قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول الرجل منهم لو كان هذا الدين حقا لم يدخل الفرنج بلادنا وهم لا يعتنقون هذا الدين . فتراهم بهذا البرهان العامى الجاهلى السفسطائى يلوون وجوههم عن الدين ويفرون منه فرارهم من الأسد ويصبح فى نظرهم كما كان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فى نظر كفار قريش . فهم يقولون أليس الشيوخ الذين يقرءون هذا الدين بين ظهرانينا ، ألسنا نحن القائمين بأمر هذه البلاد . فما شأن هؤلاء وما شأن دينهم بمثل هذه القضايا الكاذبة ، يترك المتعلم أعمال دينه جهلا وغباوة لأن أهل دينه لا سلاح بأيديهم ولا قوة عندهم فكأن الدين لما كان أهله أقوياء كان حقا فلما ضعفوا صار باطلا . وهذه هى القضايا التى ضل بها نوع الإنسان وعلى ذلك يسمى [السيف فى يد الجبان عصا وفى يد الشجاع سيفا] وهذا القول لا يعقل ولكنه يعقله الجهلاء الذين لا يعقلون . ولقد أجاب الله على ذلك هنا بإجابة عامة فقال « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » فوصفهم بأنهم ضالون وهذا وصف عام يشمل الحال فى القضية التى احتجوا بها كما قدمناه وإنما لم يذكر خلل هذه الحجة لأن الضلال كما يشملها يشمل غيرها كما سيأتى فى هذه السورة إذ يقول الله للأصنام « أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » .

فانظر كيف قال الله للمعبودين «أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل» فتبرأ المعبودون وأسندوا الضلال لما تمتعوا به هم وآباؤهم من قبلهم « حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » هلكى . فانظر وتعجب كيف جعل المعبودون الضلال ناشئا من التمتع الحاصل لهم ولآبائهم من قبلهم حتى أنساهم ذكر الله وهذا التمتع هو الذى ذمه الله فى قوله « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فالتمتع يورث الفسوق والهلاك فى هذه الآية ويورث الهلاك فى آياتنا التى نحن بصددها مع الضلال ونسيان الذكر فيكون الأمر هكذا نسيان ذكر فضلال وهلاك وفسوق وهلاك وهذا هو قوله تعالى « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا » الخ وقوله تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

فانظر وتعجب من آى القرآن وعجائبها وارجع إلى ما نحن بصدده من الآيات فإن قوله تعالى « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » لم يعين فيه الضلال بفساد الحجة الذى يظهر عند النقد بل ترك الأمر لفطنة القارىء ثم أعاد ذكر الضلال لما سأل الأصنام فقالوا له نحن ما أضللناهم بل هم ضلوا وذلك الضلال لتمتعهم بالخيرات

وغفلتهم ، والغفلة متى استحكمت بكثرة اللذات والشهوات أوقعت الناس فى المهالك . فاتباع الناس لأهوائهم وجهالاتهم ناشىء من الترف والتنعم . فترجع إلى الأنبياء ، فلو أنهم كانوا مترفين منعمين لكانوا ضالين وحينئذ يقال إنه لو أنزل على الأنبياء كنز أو استغنوا عن الأسواق وكانوا أغنى من كثير من البشر لم يكن ذلك دليلا على رفعة قدرهم بل هذه الأمور تورث الغفلة ، فهى إن لم تدنسهم بالذلة فليست برافعة لهم شأنا وليس أكثر الأنبياء بأصحاب ملك كداود وسليمان بل أكثرهم كانوا يزاولون الحرف والصنائع ويرعون الغنم تنشيطا لهم وتقوية لأبدانهم وتدريبا لهم على الأعمال القوية للبدن المنشطة للفكر المبعدة عن الكسل المدربة على الشاق حتى إذا سادوا الناس ألزموهم العمل وساسوهم سياسة تحفظ جامعتهم . انظر وتعجب من بدائع القرآن كيف يقول الله تعالى بعد ذلك بآية واحدة « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » ثم قال « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » .

فانظر كيف أتى الله أولا بالإجابة على قولهم بأنهم ضالون ثم أتبعه بفصول انتهت بالجواب الثانى ، وتلك الفصول أن الله قادر أن يعطيه جنات وقصورا وأنهم كذبوا بالساعة وأن لهم السعير ، وأن جهنم تغيظ وأن لها زفيرا ، وأنهم إذا ألقوا فى مكان ضيق منها دعوا بالهلاك وأنهم من اللائق لهم أن يدعوا هلاكا كثيرا ، ثم وازن بين الجنة والنار وأن الجنة للمتقين ولهم فيها ما يشاءون ، ثم يحشر المعبودين والعابدين ويسألهم ما سبب ضلال العابدين ؟ فهذه أحد عشر فصلا ختمت بفصل هو الإجابة الثانية لقولهم « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وكان ينبغى أن ينزل إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، فقال لهم هنا إن التمتع باللذات ينسى الذكر ويورث الهلاك فليس فى ذلك معجزة ولذلك قال بعد آية كما تقدم « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » وأما قوله تعالى « لولا أنزل إليه ملك » إلخ فهو فى :

(اللطيفة الخامسة)

وذلك أن قوله تعالى « لولا أنزل إليه ملك » أجاب عنه بقوله تعالى « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » الخ ، فانظر كيف كانت الإجابة على المشى فى الأسواق وأكل الطعام وإنزال الكنز وأن يكون له بستان بأنهم ضالون وبأن التنعم ينسى الرب فليس من شأن الأنبياء . وكيف كانت الإجابة على إنزال الملك بقوله « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » الخ وقوله تعالى « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » معناه أنهم ليسوا أهلا لمقابلة الملك ولا لمقابلة الله وعلى قدر الناس وهم فى أجسامهم وفى شهواتهم وفى أهوائهم أن يلاقوا الملائكة فضلا عن الله تعالى . إن الملائكة منزهون عن المادة والناس فى الأجسام فكيف يقدرون أن يقابلوهم والمقابلة بين العالمين اللطيف والكثيف متعذرة ما لم يصبح الكثيف لطيفا فإذا لطف أمكنت المقابلة وذلك لا يكون إلا حيث يصبح الناس منسلخين من البشرية عارين عن أحوال الجسمية . ويقول علماء الأرواح فى كتبهم [إن الأرواح العلوية لا يتسنى لها أن تكلم إلا نفوسا تنزهت عن المادة وتعالت عن أحوال هذه الأرض وصارت علوية النزعة ميالة للأمور العالية الشريفة . شفقتها عامة ورحمتها عامة وشهواتها ممنوعة ولذاتها مفقودة لا مطمع لها ولا مطمح إلا فى الأمور القدسية والمعارف الإلهية ومقابلة رب البرية] فهذه هى التى تشتاق إليها الأرواح العالية وتنزل عليها فى المنام تارة وفى اليقظة أخرى ، وترى علماء الأرواح يحتالون على محادثة الأرواح بطرق منها المائدة بحيث يجلس جماعة واضعين أيديهم عليها فطرق طرقات على حسب المصطلح عليه بين الروح الحاضرة وبين الحاضرين

من الانس . ومنها أن تكتب الحروف الهجائية فى ورقة وتوضع كأنها إطار أودائرة محيطة بالمائدة أى فوق دائرتها ويضعون أيديهم على فنجان وذلك الفنجان يمر على هذه الحروف متحركا بالسيال الذى ينزل من الأيدى وأصحابها لايعلمون من الروح الحاضر ويمتزج السيال الحيوانى الآتى من الأحياء بالسيال الآتى من الروح وبهذا الامتزاج يدور الفنجان ويمر على الحروف وباجتماعها تكون كلمات ذات معنى كما رأيته بعينى رأسى .

ومنها أن يضع الإنسان قلما فى يده ويستمر ربع ساعة كل يوم حتى تحضر روح وتكون سببا فى انتقال يده بالكتابة فيكتب جملا مفيدة وهكذا من الطرق التى تقدم بعضها أو أكثرها فى الذى مضى من هذا التفسير وهى كلها مذكورة فى الكتاب الذى ألفته فى هذا العلم المسمى [كتاب الأرواح] وآخر الطرق طريقة التنويم المغناطيسى بحيث ينوم (بفتح الواو) إنسان وتأتى روح فتتكلم بلسانه وهذه كلها تقدمت فى (سورة الإسراء) .

هذه هى نموذج الطرق التى يكلم بها الناس عالم الأرواح وهذا علم منتشر فى الأرض ولكن كلام الناس معهم ظهر أنه يدخل فيه الصدق والكذب والحق والباطل والصحيح والفاسد فتبين حقا أنه لا فائدة إلا فى علو الأخلاق وكلما علت الأخلاق اقترب الناس من الملائكة ، والملائكة إذن يقتربون من الناس بالإلهام مثلا ، أما أكثر هذه الأرواح التى يخاطبها الناس خطابا صناعيا فانما هى أرواح سفلية قريبة عقولها من عقول البشر فيكذبون كما يكذب البشر ويضحكون كما يضحكون وهكذا . فأما الأرواح العالية فإنها ملتئمة الفكر لاتحب إلا ما كان عاليا شريفا ولاتخاطب إلا نفوسا بعيدة عن الشهوات قدسية النزعة ، ولا سبيل لهذه الصفة إلا بمحاسن الأخلاق والآداب والمقاصد النبيلة وحب العلم وحب الإنسانية . فالنفوس المتصفة بهذه الصفات هى التى تستأهل التكلم مع الملائكة ، ومن سواهم منهم ليسوا أهلا لهؤلاء ، وهذا هو معنى قوله تعالى هنا «لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا» فلقاء الملائكة لهم لإهلاكهم لا لإرشادهم .

﴿ اللطيفة السادسة : فى قوله تعالى « أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟» ﴾

قد تقدم شرحها فى اللطيفة الرابعة .

﴿ اللطيفة السابعة : فى قوله تعالى «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟» الخ ﴾

اعلم أن الله عز وجل خلقنا فى الأرض ليربينا . ولقد جعل التربية [بأمرين] نعمة ونقمة فلا ترى نعمة إلا كان معها نقمة وقد جعل الضدين يتسابقان لخيرنا سواء أعلمنا أم لم نعلم وفهمنا أم لم نفهم ؟ فانظر كيف جعل الضدين فى كل شىء الليل والنهار والصيف والشتاء والشباب والشيب والموت والحياة والإيمان والكفر وترى الزرع يصلحه الإنسان والماء والشمس ويفسده الآفات العارضة ، وترى الإنسان يعتريه المرض والصحة والفقر والغنى والعلم والجهل ، وهكذا ترى له العدو والصديق ويظن أكثر الناس أن العداوة ضرر محض وماعلموا أن الآفات والعوارض مقويات لمن ترد عليه جسما أو عقلا وروحا . فكم من مريض كان المرض سبب توبته أو سبب اتقائه المآكل الضارة فعاش سعيدا قرير العين . وكم من فقير صار الفقر من أهم أسباب ثروته وغناه أو تهذيبه أو تقوية عضلاته أو تقوية ملكاته الفكرية أو ماأشبه ذلك . وترى الأرض تنبت حشائش مهلكة للزرع تكتنفه بالهواء والماء والأرض وتكون وبالا على القمح والقطن والذرة فيسعى الناس فى إزالتها بتعب وشقاء وذلك دلالة على أن كل مافيه نفعنا لايتم كماله إلا بعد الشقاء والتعب فى المحافظة عليه والدأب فى حفظه وإبقائه سالما . ومن عجب أن المزارع التى تحتاج إليها ضعيفة يعوزها قيامنا عليها وحفظها وتسميدها وسقيها . فأما التى هى ضارة فإنها لايعوزها شىء من ذلك بل هى قوية متينة . هكذا ترى أجسامنا فيها حيوانات صغيرة فى الكريات الدموية الحمراء والكريات البيضاء . وهذه الحيوانات التى تعد بآلاف

الألوف

الألوف حافظة لأجسامنا معدة لمقاتلة كل حيوان ، داخل لأجسامنا من حيوان الوباء والجدري والحصباء والتيفوس والتيفود وأنواع الحمى الكثيرة . فإذا دخلت تلك الحيوانات الضارة المحدثة لهذه الأمراض لتسكن أجسامنا وتخربها وتتلفها وتهدمها ، قابلتها تلك الجيوش الجرارة فحاربتها فحصل في أثناء العراك والصدام واشتداد الوطيس ، والتقاء الجيوش واحتدام الوغى أن ترتفع الحرارة في الجسم من ذلك الصراع فقال إن المريض ارتفعت حرارته ، فإذا غلبت الجيوش الهاجمة المهلكة مات المريض وإن غلبت الحيوانات التي في كرات الدم الحمراء والكرات البيضاء شفي المريض ، ولذلك تجد الأطباء يعمدون إلى الأطفال وإلى بعض الرجال والحيوان فيلقحونهم . ومعنى التلقيح أن يؤتوا بمادة تشتمل على حيوانات صغيرة تعد بالألوف فيدخلونها بالإبر في الأجسام كالمادة التي فيها حيوان الجدري . فإذا سرت تلك المادة في جسم الطفل أخذت تلك الحيوانات تحارب ما في الجسم من الحيوانات الذرية في الكرات الدموية فترتفع الحرارة ويموت بعض تلك الحيوانات أو أكثرها فتقوم ذريتها حافظة ما كان لآبائها من قوة على النضال وجرأة على القتال وشدة في الحرب حتى إذا جاء مرض الجدري حقيقة كانت ذرية تلك الحيوانات واقفة له بالمرصاد لأن أجسامها قويت بمحاربة الأعداء وقد ورثت تلك القوة عن الأجداد وأجداد الأجداد .

هذا ما يقوله العلماء في الحيوانات الذرية في أجسامنا وفي حيوان المرض الذي يفتك بنا . فانظر كيف أصبح العدو هو النافع المقوي وكيف كانت الراحة هي السبب الأقوى في الضعف والخمول وانظر كيف يقول الشاعر الحكيم :

عداتي لهم فضل علي ومنة	فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها	وهم نافسوني فاجتنبت المعاليا
فلست بهياب لمن لا يهابني	ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
كلانا غني عن أخيه حياته	ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وقد حسنت هذه الأبيات وذكرتها في سابق التفسير . فانظر في الطير في جو السماء ففيه الصائد والصيد ، فالصقر يصطاد الخطاف والخطاف يصطاد العصفور والعصفور يأكل الدود والدود يأكل الإنسان والإنسان يأكل الأنعام . فالعالم كأنه دائرة يأكل بعضها بعضا والعداوة متواصلة والصداقة كذلك . فانظر كيف خلق الله الضدين وخلق بينهما عداوة وصداقة في كل شيء . فالعداوة كنار محرقة والنار مهيئة لكل شيء فتراها تطبخ اللبنات فتجعلها آجرا ، هكذا العداوات مكملات لنوع الإنسان فهو إن قام جسمه باللبن والغذاء وتربية الوالدين فإنه تقوى عضلاته ويقوى بالمخاصمات والصبر في المشاحنات والمنافسات . فعلى الرحمة إنشاؤه وعلى القوة الغضبية النارية بالتنافس والعداوات تقوية ملكاته . هذا هو السر في قوله تعالى «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون» فانظر كيف أمرنا بالصبر فالصبر هو المطلوب من هذه كلها وهذا هو السر في قوله تعالى «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين» لأن عداوة المجرم للنبي تقوى نفسه وترقى أخلاقه بالاحتمال والصبر ولذلك سمي بعض الأنبياء أولي العزم . وهذا هو الجواب الثالث عن قولهم «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» الخ فقد أجابهم بأنهم ضالون وبأن التمتع بالخيرات يدعو إلى الهلاك كما تقدم وختمها بقوله إن المهتدين فتنة للضالين والضالين فتنة للمهتدين فكلاهما امتحان للآخر . فأنتم أيها الكفار قد فتنتم بمحمد ونبوته وامتحنتم لننظر : هل تصبرون في التفكر والتعقل فتعرفون أن المشي في الأسواق وأكل الطعام لا يخل بالنبوات وفتن محمد وامتحن ليصبر على شدائدكم وكفركم وإيذائكم هذا هو قوله تعالى «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟» فالنبي أمر بالصبر على أذاهم وهم مأمورون بالصبر على التعقل والتفكر وعلى أن يعلمهم من يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . انتهت اللطيفة السابعة .

﴿ اللطيفة الثامنة: فى قوله تعالى « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ﴾

يقول الله إن الكافرين يعمد سبحانه إلى عملهم فلا يقيم له وزنا ويجعله مفرقا لا قيمة له . وسبب ذلك أن كل شيء لا نفع فيه إلا بالعزيمة ولا عزيمة إلا حيث يكون الصبر ، وحفظ القوى النفسية (وبيانه) أن الذى لا عقيدة له فى إله لهذا العالم تكون أعماله موزعة على حسب المرامى التى يرمى إليها فيكون عمله تارة رياء وتارة خوفا، وتارة شهوة، وتارة لغضب، وتارة لأنه جبان وتارة لأنه متبع العادة وهكذا. فأما إذا جعل الإتجاه لأمر واحد فإن جميع أعماله تتجه إلى وجهة واحدة فإن نال خيرا صرفه لله أو قوة صرفها فى عمل نافع أو خاف التجأ إلى الله وهو مجتهد فى عمله وهكذا فى كل أطوار حياته وما هذه القوى النفسية الإنسانية إلا كضوء الشمس فإنه يكون فى الجو متفرقا مشتتا لا ظهور له فى الهواء ولا ضوء له فى الأجواء والطبقات العليا فإذا ما لامس الأرض اجتمعت ذراته وقويت حرارته وأنعش الإنسان والحيوان والماء . ذلك شأن ضوء الشمس . فلولا اجتماع ذراته الضوئية على الكرة الأرضية ما أثمر ولا أزهر زرع ولا در ضرع ولا كانت فيه منافع . هكذا نبات الإنسان إذا تركت وشأنها وهكذا كل ما يعتريه إذا لم توجه رغائب الإنسان ومقاصده فيها إلى وجهة واحدة تطايرت وذهبت كل مذهب ولم يبق لها منفعة ولا خير ولذلك يقول علماء النفس وعلماء الأرواح [إن الإنسان إذا وجه فكره إلى الأمور التى يقصدها بهمة فان همته تستبق إلى المقاصد متى كانت على ثقة بمقاصدها] ولذلك كان أشراف الأنبياء يسمون أولى العزم لأنهم يجدون للغرض الذى يقصدونه ويسمون بأنفسهم إلى ما يقصدون . وهكذا يقولون [إن الإنسان متى وضع صورة ما أمام عينه واتجه بقلبه إليها فان تلك الهمة تحرك من صاحب تلك الصورة همة تتجه إلى من قصدها] وعلى هذه النظرية بنى فن من العلوم السحرية ويقول الله تعالى « يحبهم ويحبونه » ويقول « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » ويقول « فاذكرونى أذكركم » فأصبحت القاعدة واحدة فى نفسها من اتجه بقلبه للمخلوق فنيته صادقة فيما اتجه إليه وهكذا من توجه لله كان الله عونا له . وعليه يكون التوجه لله حافظا للأعمال من التفرق والتشتت . فأما ترك الآراء والأعمال بلا عنان يمسكها فذلك ضياع لها والله هو الولى الحميد .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » ﴾

كنت على شاطىء النيل الشرقى يوم ٦ يناير سنة ١٩٢٩ فرأيت شابا بيده كراسة فيها دروس يقرؤها فسلم على وأخبرنى أنه من مدرسة (دار العلوم) وأخذ يسألنى فى أمور يشك فيها وأهمها (مسألتان . المسألة الأولى) إن الله خالق العالم وكيف نتصور وجوده وعقولنا لا تعقل كيف كان هذا الوجود؟! (الثانية) كيف يعذبنا وهو المقدر لجميع مانفعله . فقلت أما سؤالك الأول ففى الحديث « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » . فقال نعم ولكن أود أن أكون حرا معك فلا تقيدنى بالحديث لأن عقلى لا يقف عند الحديث وهو يطالبنى ، فأنا أطلب منك إيقاف هذه الحركة الفكرية . فقلت له ما ناتج ضرب ٥ فى ٥ قال ٢٥ فقلت و ٢٤ أليس حاصل ضرب ٥ فى ٥ قال . كلا . بل هو مستحيل . قلت إذن هنا (أمران) واجب وهو ٢٥ ومستحيل وهو ٢٤ وغيره من جميع الأعداد فكلها يستحيل أن تكون حاصل ضرب ٥ فى ٥ قال نعم قلت ما الذى تساويه زوايا المثلث الثلاث . فقال زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين . قلت أيقين هذا ؟ قال نعم . قلت ما تقول فى الأمور الهندسية ؟ أبالذهن تقوم أم تقوم بالخارج ؟ قال بالذهن . قلت هل أنت فاهم ما تقول ؟ فقال أفهمه إجمالا . قلت اعلم أن علماء الهندسة يقولون إن الأشكال الهندسية تقوم بجسم معنوى

ينطبق على الجسم المشاهد فهى صور فى النفس تظهر آثارها فى الخارج وهكذا جميع العلوم الرياضية ترجع فى تصورها إلى الذهن ولا تتوقف على الخارج بخلاف العلوم الطبيعية كهذا النبات وهذا الحيوان فهذا لا نتصوره إلا فى مادة خاصة . أما المثلث والمربع والكرة فهى لا تحتاج إلى مادة خاصة فأى مادة تصورناها أدركنا بها تلك الأشكال . إذن العلوم الرياضية تحتاج فى تصورها إلى مادة تقوم بها فى الذهن ، لا فى الخارج لأننا نتصور الأشكال ولا يهمنا من أى نوع تكون صورة الشكل بخلاف نبات القطن أو القمح ، أو هذا المعدن فإنا لا نتصوره إلا بمادة خاصة نحضرها فى أذهاننا : أما المسائل الإلهية فهى لا تتوقف على مادة أصلا لا فى الذهن ولا فى الخارج . فقال هذا كلام الفلاسفة وهو عسر الفهم ، وإن كنت أنت أوضحته فإنى لم أستفد فائدة فى موضوعى . فقلت هذه مقدمة لموضوعك . ألم تر أنى سألتك فى زوايا المثلث ؟ قال بلى . قلت هذا المثلث أنت تصورته فى ذهنك . وأنه يجب أن يكون مساويا لقائمتين . قال نعم . قلت هل هذه النظرية موجودة ؟ قال نعم فإنها إن لم تكن موجودة كيف نتصورها ؟ ثم قلت أواجبة هى أم جائزة أم مستحيلة ؟ فإن قال بل واجبة . قلت إذن هناك أمور واجبة فى ذاتها فقضايا الحساب والهندسة والجبر هى قضايا صادقة فى ذاتها ، ولذلك يقولون حقائق الأشياء ثابتة ، فهذه أشياء ثابتة فى أنفسها . فإذا كانت أمثال القضايا العلمية ثابتة فى أنفسها أفلا تكون هذه مقربة لموضوعنا أى إذا تصورنا نوعا من الوجود للقضايا العلمية ، وقلنا إن هذه القضايا ثابتة فى أنفسها ؟ أفليس هذا يسهل لنا أن نفهم وجود الله بدون موجد . ثم إنى أذكرك (بأمرين : الأول) إن عقولنا بالنسبة لهذا العالم أشبه بالعدم بالنسبة للوجود . ألا ترى رعاك الله أن أرضنا أصبحت اليوم بعد الكشف الحديث ماهى . لا كجوهر فرد إذا نسبت إلى جميع العوالم (وبعبارة أخرى) أن الأرض لو صغرت إلى جوهر فرد ، وصغر العالم كله على نسبتها لوجدنا الكواكب والشموس التى تصور وجودها العلماء تساوى (ألف مليون أرض) إذن أرضنا أشبه بالعدم ، ونحن جزء صغير على هذا العدم ؟ فماذا تصور فى عقول قوم أمثالنا ، هل يعقل أن هذه العقول تقدر أن تحيط علما بهذا الكون فضلا عن خالقه ؟ إن هذا غير معقول فإذا كانت أرضنا ما هى إلا أشبه بالصفر ونحن (جزىء) صغير جدا على هذا الصفر فكيف يقف عقل هذا المخلوق المعدوم على خالق هذه العوالم كلها . قال حقيقة أنا مقتنع بما تقول وحقا إن العقل يقضى أن هذا الضعيف وهو الإنسان لن يقدر أن يعرف حقيقة الله . قلت هذا قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفا » وقوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذات الله فإن التفكر فى ذات الله إشراك » وقوله تعالى « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » فاذا كان هو لم يشهدنا خلق أنفسنا فهل أشهدنا وجود ذاته . إن هذا مستحيل ومستحيل لعدم الاستعداد والضعف المستمر فى الإنسان ، هذا هو الأمر الأول (الأمر الثانى) إن هذه الدنيا التى نسكنها لم نعرف فيها عدما ألبتة فأين هذا العدم ؟ إن هذا العالم كله وجود لا عدم فإن كل نبات وكل حيوان وكل معدن وكل كوكب إذا انحلت أجزاؤها رجعت فى نبات آخر وحيوان آخر وكوكب آخر وهكذا كما هو معلوم فى العلوم التى نقرؤها اليوم . فالنبات والحيوان ترجع أجزاؤها إلى مخلوق آخر منها والشمس والقمر والنجوم . كلها إذا انحلت ترجع إلى كواكب أخرى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » . يموت الميت فيبكون عليه ولم يكن الميت عند الناس وهو حى إلا بالصورة الاسمية المفكرة فإذا مات فجسمه موجود لم يخرج من ملك الله . إذن هو موجود لا معدوم وبكاؤهم عليه لأنهم لا يشاهدونه بعد ذلك والبكاء فى الحقيقة على روحه التى لم يشاهدوا إلا أفعالها وأقوالها بواسطة هذا الجسم والروح أيضا موجودة فأين العدم إذن ؟ فقال لقد نقلت أنت عن العلماء فى هذا التفسير أن المادة تنعدم وأنها ترجع إلى عالم الأثير . فقلت وعالم الأثير موجود فى نفسه وإن لم تره حواسنا إذ

ولادة حواسنا ليست شرطا فى الوجود فليس العدم مالم تشاهده حواسنا ولا الوجود موقوفا على ولادة حواسنا ، ولذا حكمنا بأن عالم الأثير موجود ونحن لم نشاهده بل عرفناه استنتاجا فى زماننا بسبب آثار الضوء والكهرباء والمغناطيس والحرارة القائمة به فلم يصعب علينا فهم القضايا العلمية والنظريات الرياضية موجودة فى أنفسها وكيف يصعب علينا بعد ذلك أن نسلم بأن هناك موجودا قائما بنفسه هو موجد هذه المخلوقات، وإن كنا نحن ضعفاء فى الأرض . فقال حقا إنه قد ثلج صدرى وانشرح لهذا البيان المحكم فى المسألة الأولى . فقلت إذن أجيبك على المسألة الثانية وهى كيف يعذبنا الله وهو يعلم بأفعالنا . أولا تذكر أنه رحيم ولكن هذا التذكر لايفى فيه أن نقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » لأن القراءة شىء والعلم شىء آخر . القراءة مبذولة للعالم والجاهل والغبى والذكى والله قبل أن ينزل القرآن خلق هذه الأرض ومن عليها والسموات العلى فلا تغنى القراءة بل لا يغنى معنى اللفظ وحده بل لا بد من التفكر ولا تفكر فى أمثال هذا إلا بدراسة نفس الأجسام الإنسانية التى هى أقرب إلينا من السموات والأرض . إذا درسنا أجسامنا أدركنا لماذا كرر الله الرحمة فى أول كل سورة ولماذا كررت الرحمة فى ثنايا القرآن ولماذا يقول « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ؟ ففهم الرحمة فى أجسامنا هو الذى به نعقل معنى بسم الله الرحمن الرحيم . وأقرب شىء لما نقوله الآن نظام العين المركبة من (٧) طبقات ومن ثلاث رطوبات موضوعات كلها وضعا منظما . فترى القرنية محدبة الشكل وترى العدسية محدبة الوجهين وكلتاهما مطبوعة على جمع النور . ذلك النور الذى يجرى من الكواكب إلى الأرض وأقربها إلينا الشمس التى يحتاج نورها إلى (٨) دقائق و (١٨) ثانية حتى يصل إلينا وهناك كواكب اطلعنا عليها بالمنظار المعظم وصلت فى تباعدها عنا إلى أن نور بعضها لن يصل إلى أعيننا إلا بعد مضى (١٠٠) ألف ألف سنة يسير النور وهذا الكشف جاء فى سنة ١٩٢٨ م قبيل كتابة هذه المقالة . أقول فاذا وجدنا أن طبقات العين وضعت بهذه الدقة والحكمة والوضع البديع الذى به تمكنا من رؤية الشمس التى تبعد عنا بسير قلة المدفع (١٢) سنة وبسير القطار (٣٦٠) سنة وبسير النور (٨) دقائق وتمكنا من رؤية كواكب متباعدة بحيث يصل بعدها إلى (١٠٠) مليون سنة بواسطة الآلات المعينة على الإبصار . إذا ثبت هذا فقد دل على رحمة لا حد لها . فأى رحمة وأى رأفة من أم وأب وحبيب وصديق توازى هذه الرحمة ؟ هذه رحمة تفوق الوصف . قال أنا الآن موقن بهذه الرحمة ولست أشك فيها بعقلى لا بمجرد السماع ولا بفهم المعنى بل بدراسة جسمى . قلت فالآن أتكلم معك على الجنة والنار والثواب والعقاب فأقول الله خلق فينا اللذة والألم والمحبوب والمكروه ، فالمكروه مهماز يسوقنا إلى فعل المحبوب . وما مثل الناس مع ربهم إلا كمثل المعادن فى أيدى أرباب الصناعة من حداد وصائغ . فهؤلاء يذيبونها فى النار لتكون طوع أيديهم فيما يقصدون منها . انظر رعاك الله إلى ما سيمر عليك فى آخر سورة النمل عند قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فهناك سترى أن الناس من قبل لم يكن عندهم إلا نار الفحم وبنار الفحم تصرفوا فى المعادن إلى حد ما . أما الآن فإن الكهربائية قد مكنتهم من أن يصنعوا فرنا يسمى (الفرن الكهربائى) والفرن الكهربائى تصل درجة الحرارة فيه إلى (١٤٠٠٠) درجة وقد رأى (فرنهيت) أن درجة الصفر تقف عند الدرجة التى وصل لها بممزوج الملح مع الثلج وهى (٣٢) درجة تحت درجة الثلج وهو الذى كشف ذلك . ولكن سترى هناك أن الفرن الكهربائى قد تصرف القوم به فى المواد فنزلت درجة حرارتها متى أرادوا عن الدرجة التى وصل إليها (فرنهيت) نحو (٤٤٩) تحت الصفر الذى عينه هو وبهذه الدرجات الواسعة البالغة (١٤٠٠٠) ونحو نصف ألف أصبحت المادة فى

أيدى

أيدى الناس أشبه بالشمع يفعلون بها ما يشاءون حتى إنهم أمكنهم فصل (الأوزوت) وهو (النيتروجين) من الهواء ثم جعلوه متحدا مع (الهيدروجين) فحصل لهم نشادر فهو كما اتحد الأكسوجين مع الأدروجين فصار ماء .

ههنا بان لنا جمال الله ورحمته . هواء نحن به أصبح جزآه يتصرف الناس فيهما بالحرارة . فجزء نجعله نشادرا باتحاده مع عنصر آخر ، وهذا النشادر يدخل فى السماد فينمو الزرع وتكون المفرقعات والمهلكات الحربية . من أين هذا ؟ من نفس الهواء . إذن الهواء أمكننا أن نفعل فيه ما فعلت البرودة بالماء إذ حولته إلى ثلج . فهكذا هذا الهواء جعلناه جامدا واستعملناه سمادا لزرعنا وإهلاكا للقرى والمدن .

هذه هى الحرارة ، وهذه هى العناصر والمعادن . الحرارة ارتقت والعناصر ذلت وخضعت بسببها وبهذا كانت قدرتنا على ارتقائها أوسع وأعظم . فالله عز وجل خلقنا فى الأرض وخلق فينا (غريزتين) لذة وألما وحبا وكراهة واستعمل الألم واللذة لسوقنا إلى الكمال . فقال إذن كل سائرون إلى الكمال لجميع أهل الأرض سائرون إلى السعادة . فقلت : ماذا تريد بهذه الجملة ؟ فقال إذن الله هو الذى يتصرف كما قلت لك ونحن فى يده كالمعدن فى يد الصانع فى الفرن الكهربائى وهو بهذه الآلام وازديادها يهذبنا ليعدنا إلى أحوال أخرى وعوالم لا ندريها ، إذن فلماذا يعذبنا يوم القيامة ؟ إذن فلنتكل . قلت له هذه المسألة لم تغب عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال لهم صلى الله عليه وسلم (جف القلم بما هو كائن أو كان) قالوا له يا رسول الله إذن نتكل فقال (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) وأيضاً ما دخل الكلام على القضاء والقدر فى أمة إلا كان سببا فى هدمها وخرابها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (إذا ذكر القدر فأمسكوا) الخ فكان يتحاشى ما تقوله أنت الآن . فقال ولكن أنا بدأت حديثى معك بأن أكون حرا والحديث معك مع طوله أرجعنا إلى ما كنا فيه . قلت ستسمع الساعة ما هو أقرب إلى الطمأنينة وسرور النفس . قال نعم . قلت يقول صلى الله عليه وسلم (كل ميسر لما خلق له) قال نعم . قلت (وبيانه) أننا فى هذه الأرض بالبحث عرفنا أن كل مخلوق قد أعطى كل ما هو فى حاجة إليه فالطيور والحشرات والإنسان سواء فى هذه القضية (وقراء هذا التفسير موقنون بهذا) قال نعم . قلت والأمثلة كثيرة على ذلك . قال نعم قرأتها فى تفسيرك وفى غيره . قلت وأنت موقن به . قال نعم . قلت الحمد لله إذن ندخل فى المقصود إن مما يحتاج إليه هذا الإنسان أن يكون معه سوطان سوط من الجنة وسوط من النار (وبعبارة أخرى) أن يكون مع كل إنسان جنة ونار فالجنة والنار العامتان يمتد منهما فرعان لكل امرىء فى هذه الدنيا فبفرع الجنة يهنئون وبفرع النار يعذبون ، فقال وكيف يعقل هذا ، أنا والله لم أر الجنة ولم أحس بالنار . فقلت له لا تخلف ستقر الآن حالا فاصبر ولا تعجل . قال إذا ثبت هذا يكون عجبا . فقلت ألست أنت بمدرسة دار العلوم . قال بلى ولكنى أدرس فى الخارج . قلت أفلست ترى أن لك أصدقاء وإخوانا ؟ . قال بلى . قلت فاذا كسلت وتأخرت فماذا ترى ؟ قال أحزن ويحزن أهلى وأخجل . قلت حسن ، إذن عندك شىء موجود يخزيك ويحزنك على تقصيرك . قال نعم . قلت أرأيت لو أنك لعبت وكسلت طول السنة ثم سقطت فى آخر السنة ثم رأيت ضميرك يزعجك ويوبخك فهل يسكته عنك أن تجيبه بقولك إن الله قضى على بذلك أفلست تسمعه يكلمك بلا حرف ولا صوت بكلام مستمد من كلام الله القديم الذى ليس بحرف ولاصوت فيقول لك : لماذا نمت عن دروسك واتبعت شهواتك وقد سبقك إخوانك ، ولم يحتجوا بالقضاء والقدر كما احتججت

أنت ألبست لك قدرة وذكاء . ألم يرسل لك والدك النقود . قل بلى والله يحصل ذلك كله ولا تنفع الحجج ولا الأقوال ولا الاحتجاج ولا الاتكال على القضاء والقدر . وهذا التأنيب والتوبيخ لن يحصل لمن هو بليد ولا لمن هو لامال عنده يتفرغ به لطلب العلم . قلت إذن عرفت أن العذاب مقدر بقدر الذنب فكل من قدر مكلف بما قدر عليه لايكلف الله نفسا إلا وسعها وهذا هو قوله تعالى جوابا على احتجاج المشركين على القضاء والقدر « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » فهذه المسائل فرغ منها القرآن ولم يتركها مشركو العرب إلينا بل تكلموا فيها فأجيبوا بما سمعت . فقوله صلى الله عليه وسلم (كل ميسر لما خلق له) معناه مانحس به فى نفوسنا فهاهى ذه ضمائرنا توبخنا وتضنى أفئدتنا إذا قصرنا . قال ثم قلت فمن أى البلاد أنت ؟ قال من مديرية أسيوط . قلت قوم أهل شهامة ومروءة وكرم . أفرأيت إن وقعت فى فعل فاحشة وشاعت عنك هذه فى قريتكم وأنت شاب ومن أسرة شريفة ومن أهل العلم فماذا ترى من أمرك إذن ؟ قال أتمنى الموت وأختفى عن أعين الناس إذا قدرت . قلت فاذا عصمك الله من هذا العار جملة ثم رفعك بالعلم وجعلك من عظماء بلادنا ، قال أجد فى نفسى سرورا وغبطة وأسر أهلى بذلك . قلت فهل تحس بذلك الخزى الذى تحس به النفس فى الحال الأولى ؟ قال لا ومن أين يأتى ؟ قلت هذان هما الفرعان المتدان من النار والجنة فى عقول الناس الآن . وهذا التوبيخ وهذه المسرات على الخيبة وعلى النجاح بلا حرف ولا صوت هما المستمدان من كلام الله الذى ليس بحرف ولا صوت . يكلم كل امرىء بكلام خفى « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » .

غرائب تبكيت الضمير

كان خياط اسمه (شيوارد) فى مدينة (نورويتش) بانجلترا قتل زوجته (وكانت تكبره بأعوام كثيرة) باحدى آلات مهنته سنة ١٨٥١ ثم فرق مابين لحمها وعظمها ودفن الرفات الباقى فى مكان بضاحية البلدة وبعد ذلك ببضعة أشهر صادف أن كلبا نبش مكان الرفات واستخرج منه عظمة آدمية ظهرت على أثرها بقية العظام فذاعت الإشاعات فى البلدة عن أن رفات زوجة (شيوارد) قد كشف . ولكن أحد أطباء البلدة وكان على شىء من الشهرة صرح مؤكدا بعد فحصه العظام أنها ليست من رفات المسز (شيوارد) فى شىء بل هى لامرأة فى ميعة الشباب قد لاتتجاوز العشرين من عمرها فذهب هذا الرأى القطعى بكل الشكوك التى حامت حول (شيوارد) وانقضت عشرون سنة كان (شيوارد) قد أثرى فى خلالها وأصبح فى بلهنية من العيش وقد تزوج مرة ثانية بعد تلك الأعوام الطوال فصادف أنه ذهب إلى مدينة لندن لقضاء بضعة أيام وفيما هو يطوف بها فى إحدى الليالى ولا غرض له يرمى إليه إذ تصادف أنه مر بالشارع الذى كان قد تعارف فيه لأول مرة منذ ثلاثين سنة بزوجته التى قتلها ومثل بجثتها أشنع تمثيل فاستولى عليه تأنيب الضمير فجأة ولم يستطع له دفعا ولا عليه تغلبا ، وفى نفس تلك اللحظة أبصرت عيناه أحد رجال البوليس واقفا فى الجانب الآخر من الشارع فهرع إليه واعترف له بجريمته اعترافا مفصلا فقاده الجندى إلى مخفر البوليس ولكن (شيوارد) بعد اعترافه هناك أيضا بساعات قلائل أراد أن يجحد اعترافه بيد أن الوقت قد فات إذ أن الاستعلامات التى قام بها البوليس فى خلال تلك الساعات كانت قد أثبتت لرجاله أن لابد فى الأمر من شىء . وعلى الأثر استخرج رفات زوجته الأولى وفحصه جهابذة الأطباء بكل وسائلهم الطبية المستطاعة وكان تقريرهم يقضى بإدانة (شيوارد) بالجريمة إدانة لاإفلات له منها . وكان لابد من أن يدفع ثمن الجناية فأعدم شنقا يوم ٢٠ ابريل سنة ١٨٧٠ م .

فقال حسن جدا ولكن عندى سؤال واحد ليتم به الموضوع ، قلت : قل ، فقال إن الله جعل العذاب فى الآخرة ولم يجعله فى الدنيا . فقلت كلا . العذاب فى الدارين معا وهذه غفلة دخلت على المسلمين أدخلها الجهل وقلة العلم . قال أفى كتاب الله تعالى . قلت نعم بل كتاب الله هو الذى أوضحها . ألم تر إلى قوله تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » انظر أفليس التعذيب فى الدنيا بعضه هو الذى قررته معك ؟ قال نعم . قلت إن الانسان متى كانت وجهته المال والولد وليس لنفسه سوى المال والولد كانا سبب ذل نفسه فى الدنيا ، وهذا عذاب آخر غير العذاب الذى تكلمنا فيه إن نفس الانسان خلقت فى الأرض لتعلم وتعمل ولكن الجهل يفهم المرء أن الحياة فى الدنيا للتمتع بالشهوات وهذه الشهوات نفسها تؤذيه لأنه سجن نفسه فيها مع أنها من السماء أى من عالم أوسع فانحصارها فى المال والولد ذل لها فيسلطان عليها فتذل بهما كما ذلت بالكسل فى حديثى معك . قال ثم ماذا ، قلت إن جميع قصص القرآن أتت بالعذاب فى الدنيا أولا مثل « أغرقوا فأدخلوا نارا » ومثل «لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون» ومثل « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » وجميع الخسف والغرق وإرسال الحاصب المذكورات فى القرآن عذاب دنيوى وهكذا قال فى الثواب «وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » والقرآن كله طافح بذلك ، وكفى دليلا على ذلك « أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ونادى قائلا : ياأباجهل يافلان يافلان ، لقد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ فقال الصحابة له صلى الله عليه وسلم : كيف تكلمهم وهم قد جيفوا (بتشديد الياء) فقال إنهم لأسمع لما أقول منكم ولكنهم لاينطقون » . فهذا منه صلى الله عليه وسلم ليفتح لنا باب العلم فى هذا الزمان لأن هذه آية فى القرآن «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم» الخ وهذ الآية مسوقة للآخرة لاللدنيا . فوقوفه صلى الله عليه وسلم على قليب بدر ومناداته لقتلى قريش تعلم منه لنا أن الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة والمناداة فى الدارين بدليل أنه صلى الله عليه وسلم ناداهم وهو فى الدنيا وأصحابه معه . ذلك كله دليل على أن الثواب والعقاب يبتدئان من الدنيا بالعقل وبالنقل ، والنبوة هى التى وضحت ذلك . ومن ذلك مسرات المجتهدين باجتهادهم وحزن المقصرين من أجل تقصيرهم ، ومن ذلك بواعث الجد والاجتهاد بما فى الأفئدة من الولوع والخوف من التعيير والذم والخجل أمام الناس فى هذه الدار كما أوضحناه هنا . ولذلك يقولون اليوم كما قدمناه فى (سورة الحج) عند قوله تعالى « ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » إن النابغين فى الأمم تحدث لهم صفة تورثهم الضعة فيجدون فى [illegible]لم والعمل حتى يزيلوا تلك الوصمة فذلك إنما هو خزى وضع لهم فى أفئدتهم امتد لهم فى أنفسهم لحفزهم للرقى والسعادة .

فقال أريد إيضاح مسألة الخزى على شريطة أن تكون من نفس القرآن بما هو أوضح مما تقدم . قلت يقول الله تعالى فى (سورة آل عمران) « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » فذكر عذاب النار بعد بيان أن هذا العالم ليس مخلوقا باطلا بل بحكمة ، وذلك يستدعى أن تقف النفس على عجائبه وبدائعه فأردفه بطلبهم من الله أن يقيهم عذاب النار . وقد قال علماؤنا كما أوضحته هناك فى تفسير هذه الآيات إن عذاب الخزى أشد على النفس من عذاب النار . ولذلك تسمع العامة يقولون فى أمثالهم (النار ولا العار) وتقول مريم « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فالحياة بلا شرف يكون العدم أفضل منها والجهل أقبح شىء عند الناس ، وهذا واضح هناك فاقرأه فانك ستجد أن نفوسنا خلقت لتعرف هذا الوجود وتدرسه وأن الجهل عار عليها ولاتزال مضطربة للجهل به حتى تعرف وإلا فهى فى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولهذا

قال بعدها « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » فكأنه أبان أن عذاب الخزى أشد من عذاب النار ثم أظهر الحقيقة واضحة بعد ذلك فقال « ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد» وهذا كقوله «لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى» كما ذكرنا ، وعذاب الخزى الآن ظاهر فى أمم الإسلام . أحاط بها الخزى لأنها جهلت ماخلق الله فى السموات والأرض فلم تعلم ما أبدع فى الكائنات فمنعها الخيرات المخبوءة فى أرضه لأنه تعالى لا يرضى أن يعطى النعمة إلا لمن يطلبها باستحقاق ويشتاق إليها . فانظر كيف تلازم العذابان: عذاب الخزى وعذاب الأجسام ، فقلوبنا نحن المسلمين تخزى أمام الأوروبى بسبب الجهالة وبسبب أنهم ينظرون إلينا نظرك إلى الحيوان لجهلنا وأجسامنا متعبة معذبة لأنهم أحاطوا بأبناء العرب من كل ناحية يرسلون إليهم طياراتهم ومدافعهم ويقولون لنا فى مصر: إياكم أن تحملوا سلاحا إياكم أن تعملوا ما لا نأمركم به وإلا ضربناكم بالسلاح وقد قتلوا منا قوما وأخذوا منا ألف ألف أيام الحرب العامة فرموهم للنار وقتل منهم كثير ، هذا عذاب جسمى مضاف لعذاب الخزى بجهل ما أبدع الله فى السموات والأرض .

فلما أتممت هذا القول رأيت هذا الشاب ظهرت عليه أمارات السرور والانفعال ، وقال الحمد لله قد ثلج صدرى وأسأل الله أن يطيل حياتك ومن ذا الذى كان يخيل له أن مانسمعه سماعا سنصبح ونحن نحس به فى أنفسنا عملا كأنه مجسم أمامنا . فقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب يوم ١٤ يناير سنة ١٩٢٩ .

جوهرة باهرة فى ذكر ما يناسب هذا المقام من كلام علماء الأرواح

اللهم لك الحمد . قد تجلى نورك فى الآفاق وظهر وبهر فى حسنه وإشراقه وجماله . ضربت لنا الأمثال فى أنفسنا وفى الآفاق وأبدعت عالم الصور وعالم الأرواح على وفاق ونظام ابتهجت به القلوب وأشرقت به النفوس فلاح به فجر الفلاح فى عالم الأشباح ولمحت من ظواهر الأنوار خوافى الأسرار .

البناءون والجوهريون

رأينا يا ألله أن فطرنا تجلت لها مواهب من لدنك فعرفت كيف تضع الأشياء مواضعها . نظرت فى الجبال فرأت فى ظواهرها الأحجار وأنواع الجير والكلس ، وإلى الأرض فوجدت فيها الطين والرمل فألهمتها أن تجمع هذا وذاك وأن تبنى بها المساكن والحصون لحفظها من الحر والبرد والعدو والوحش فى القفار . ثم هى نظرت نظرا أدق فوجهت نظرها إلى ما فى باطن الجبال وأعماق البحار فاستخرجت الأحجار الكريمة والمعادن الظريفة من الماس والياقوت والزبرجد والذهب والفضة والدر والمرجان فرأتها جميلة بهية وعلمت أنها قليلة الوجود لا تنالها إلا بمشقة فأدركت هذه الأنفس التى أنرتها بنورك وأفضت عليها من سنائك وشموس إشراقك لأنك نور السموات والأرض إن هذا الجمال لا يناسبه إلا الجمال وأن مايعوزه العناء والنصب فى الجد والطلب عزيز ثمين فلم تضع تلك الأنفس هذه النفائس إلا فيما يوافقها ولم تهدها إلا لمنافعها . فماذا صنعت ؟ أهدته للغوانى وزينت به الجوارى الحسان . هذه أفعال البنائين وأعمال الجوهريين ، كل اصطفى مايوافق مشربه ويوافق صنعته فوضعه فى موضعه وقرأ «وكل شىء عنده بمقدار » .

رجال السياسة ونظام المدن

ثم رأى رجال السياسة وعلماء الديانات من سائر الأمم والأجناس أن بناء الأمم وحفظ كيانها واستقامة أمرها لا يتم إلا بظواهر التشابه والتشاكل فأمروا الجمهور أن يتباعد عن الزنا والسرقة والذم والقتل والايذاء

والإضرار

والإضرار بالناس وأن يكون الجميع على مشرب واحد ورأى متناسب فكان مثلهم كمثل البنائين الذين يضمون الأحجار مع ما يناسبها والطين والآجر كذلك غير ناظرين إلى ما فى بواطن الجبال من الجواهر ولا إلى ما فى أعماق البحار من الدر والمرجان فيسجنون السارقين ويقتلون القاتلين ويقيمون الحق ويعدلون بالقسط ويعملون مع الشعوب فعل البناء مع الأبنية بحيث إذا اختل حجر من أحجار البناء أو لبنة من لبناته أو مدرة أو آجرة من حائط أسرع فى إصلاحه وضبطه أو رمى به وكسره وأتى بآخر فى محله . هنالك يقوم الحائط وهكذا يقوم نظام الأمة وتبقى إلى حين حتى إذا غفل الحكام ونام الوعاظ وعلماء الدين تداعت الأمم إلى السقوط وهوت إلى الحضيض كما يتداعى البناء إلى الانهيار ويسقط إذا أهمله القائمون بأمره وهم ساهون لاهون .

حكماء الأمم والجوهريون

وههنا جاء دور الحكماء والمفكرين من الأمم الذين نسبتهم إلى علماء ظواهر الديانات ورجال القضاء والفقهاء ورجال السياسة كنسبة الجوهريين إلى البنائين . فكما أن البنائين يكتفون فى بنائهم بوضع أحجارهم وتناسبها وضبطها بالملاط أو بانتظام اللبنات ضبطها بالطين المخلوط بالتبن الحافظ لها من الاختلال والسقوط هكذا رجال الشرائع الدينية ورجال السياسة المدنية يكتفون من أممهم التى هم قوامون عليها بظواهر الأخلاق وبوادر الأحوال وحسن المعاشرات وترك المنازعات والقتل والسرقة وهتك الأعراض وما أشبه ذلك وأن يروهم قد اجتمعوا فى الأعياد والمواسم والمواكب والصلوات والجماعات فيكتفون منهم بذلك ولا يطالبونهم بأكبر منه ولا يفتشون عن قلوبهم ولا يسألونهم عما فى ضمائرهم ويقولون (لنا الظواهر ، والله يتولى السرائر) .

أما الحكماء والمفكرون فإنهم يقولون : أيها الناس نحن لا نكتفى منكم بالظواهر ولكنا نذكركم بأن الجواهر غير الأحجار ، ومن ذا الذى يقيس الصدف بالجواهر أو القشر باللب أو الحجر بالمعدن والأحجار الكريمة ، فكما لا تناسب بين الجواهر التى تتحلى بها الحسان وأحجام الأحجار هكذا لا تناسب بين عالم أرواحكم وظواهر أخلاقكم ، لئن اكتفى البناء بتناسب الأحجار وضبطها ، والرجل السياسى والقاضى بظواهر المدنية والمعاشرة ليطابق الحكم مطلبا أسمى من هذه النفوس الإنسانية ويقولون لكم ما صورته (إن عالم الأرواح بعد مغادرة الأبدان أشبه بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة فهذه لها مقام أجمل وأبهى ولن تكون إلا فيما يناسبها ويماثلها كلها ثم يقولون لهم ستفرزون فرزا ويصطفى كل من كان أجمل وأصفى ويجعل فى أجمل مكان ، وكل من كان منكم غير مصطفى ولا منتقى ولا بهاء فيه ولا جمال يرجع القهقرى إذ لا تناسب بين البهرج والذهب الصرف .

وهل ذهب صرف يساويه بهرج ؟ والجمال هنا والصفاء (بأمرين اثنين) لا ثالث لهما (أحدهما) العلم (وثانيهما) العمل ، فالأرواح التى جملت بالعلم وصفت بالفهم وانتظمت بالحكمة وأشرقت بنور ربها وتجلى لها هذا العالم على قدر طاقتها فهذه تكون شموسا مشرقة تجاور الملائكة والنبيين للمشاكلة والمناسبة وأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين» الخ «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» ويشترط مع ذلك أن تكون أعمالها مطابقة لذلك العلم قائمة بواجبها . فالعمل مطابق العلم والظاهر للباطن فهؤلاء هم الذين يصطفون ليكونوا أبرارا ويعيشون مع الملأ الأعلى «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» . هذا هو الذى تجلى لنفسى وانشرح له صدرى يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ .

ولقد رأيت مقاما يناسبه فى كلام (عمانوئيل) الذى حدثتك عنه أيها الذكى فى سورة التوبة وأسمعتك تاريخ حياته وأن أباه كان أسقفا فى الدين المسيحى وأنه هو كانت له منزلة رفيعة فى الدين وفى الدولة ولكنه

لما اطلع على عالم الأرواح تغيرت عقيدته فى نظام هذا الوجود وأخذ يهدم مابناه الجهل فى أوروبا بأيدى صغار رجال الدين الذين شوهوه فقال ياقوم والله لاتثليث وإنى رأيت المسيحى بعد الموت يبحث عن إله ثان وثالث فلا يجد إليهما سبيلا . ولقد تقدم ذلك فى (سورة التوبة) وفى غيرها فارجع اليه إن شئت . ثم انظر ما يقوله فى كتابه المسمى (السماء وجهنم) مما يناسب هذا المقام فقد جاء فى صفحة ١٩٤ من هذا الكتاب وما بعدها ما ملخصه: إن الانسان يجب أن يعرف العلوم الإلهية والعلوم الدنيوية وعلى مقدار ذلك يعرف ذكاؤه وحكمته وقسم الذكاء [قسمين] قسم كاذب، [وقسم صادق] فالذى أدرك الحقائق إدراكا نفسيا لاتقليديا وأحبه وامتلأت به نفسه وأشرقت بها إشراقا وصارت من جوهرها فهذه أرواح حكيمة تكون مع الأرواح العالية ، أما الأرواح التى قرأت ظواهر العلوم وإن كثرت وروتها أو فهمتها ولكن لم تتأثر بها ولم تعشقها ولم تمتزج بها نفوسها فهؤلاء وإن اشتهروا بالحكمة فهم ليسوا من الفضلاء ويكونون كالعامة ويوضعون فى منازل الجهلاء وهكذا أولئك الذين يعملون الخير لا لنفس الخير بل لأجل الصيت والذكر أو من خوف الفضيحة والعار أو الخوف على المال ونحوه ولو خلوا وأنفسهم لأهلكوا الحرث والنسل . فهؤلاء يوضعون هناك فى المنازل التى تناسب نفوسهم لا ظواهرهم لأن المدار على البواطن لا الظواهر ، فالعلم بهذه الدنيا وجمالها وعمل الخير إن لم يكونا محبوبين حبا حقيقيا ممتزجين بالنفس بحيث يصبحان صفة لها فان صاحبهما لايكون من المقربين .

ولما اطلعت على هذا القول وجدته يناسب مافى « إحياء علوم الدين » للامام الغزالى من حيث فحواه وتذكرت ما قاله فى الإحياء: إن عليين لأولى الألباب وهم الذين هذا وصفهم . أما الجنة المحسوسة فإنها تكون لقوم ظهروا بالصلاح وبواطنهم مشغولة فهؤلاء يدخلون الجنة ولكن أولئك يرقون إلى الملأ الأعلى وقد تقدم فى (سورة البقرة) فى أولها عند ذكر الجنة والنار فقد نقلت النص هناك فارجع إليه إن شئت .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : إن هذا القول وإن كان فى ذاته حسنا وجميلا فقد ذكرت العلم والعمل وأبنتهما ولكن مقام الكلام إنما هو أمر الضمير وذكر الرجل الإنجليزى قاتل زوجته الذى أزعجه ضميره فقلت إن ما كتبته الآن إنما هو مقدمة لما سيأتى . اعلم أن هذا الإنسان حين تضعه أمه من بطنها لا يحب إلا نفسه فهو يطلب كل شىء لنفسه وكلما شب قليلا أدرك أن غيره له حقوق . فكل ما تراه فى نوع الإنسان من حقد وغيظ وطمع فهو راجع إلى حال الطفل الأولى (وبعبارة أخرى) هذا النوع الإنسانى كله فيه أخلاق الأطفال وعلى مقدار الترقى فى العلم الحقيقى لا المزيف يعرف الإنسان هذا العالم ويحب الإنسانية . هذا أول الأمر وآخره . هذا النوع الانسانى لو كشف الغطاء عن عقول أفراده لأدركوا أن الذى غرس الكراهة والطمع إنما هو الجهل، وأن الذى ينقذهم إنما هو العلم الحقيقى إذ لا سعادة لهم إلا بأن تستخرج ثمرات قواهم وعقولهم . فانظر إلى رزق الانسان لماذا لم يكن من الأرض وحدها ولماذا تراه مأخوذا من السماء والأرض معا « قل من يرزقكم من السماء والأرض » ولماذا ترى له عينين بهما يبصر السماء والمطر حتى يعرف أن رزقه اشتركت فيه السماء والأرض « أمن يملك السمع والأبصار » . أقول أيضا لماذا كان رزقه منهما وحواسه ترى ذلك فأذنه تسمع الرعد المؤذن بالمطر وعينه ترى نفس المطر والزرع . نحن علمنا علما لاشك فيه مما ذكر فى هذا التفسير أن صانع هذا العالم حكيم متقن . فانظر إلى شجرة التين المرسومة فى سورة الحجر وتأمل فيها وفيما شرحته هناك . ألم تر أن كل خمس ورقات كونت دائرة وبين كل ورقتين (٧٢) درجة من الدائرة فلماذا لم يحصل خطأ فى هذه الهندسة ولو فى درجة واحدة من درجات تلك الدائرة المشتملة على دائرتين حلزونيتين . هذا هو فعل صانع الكون فى أمر نراه أمامنا فى نبات ؟ فهل يكون حكيما متقنا فى هذا

ثم هو يغفل عن الاتقان فى رزق الانسان . أى لماذا لم يجعل رزق الانسان من الأرض وحدها على قدر طاقة الانسان كما فعل فى (حشرة الأرضة) المرسومة المشروحة فى (سورة النحل) فيما تقدم . ألم تر أنها خلقت عمياء فالملكة والرعايا جميعا عمى العيون وهن مع ذلك يعملن أعمالا تعجز العقول وجعل الله قوتهن من داخل بيوتهن ولهن قدرة أن يستخرجن الماء بحيث يستنبطن من الأكسوجين المندمج فى المواد الغذائية مع الأدروجين الكامن فيها ماء فلا احتياج إلى ماء السماء قالوا بدليل أنها تعيش فى الصحراء والجدباء التى لانبات فيها ولا حيوان ولا ماء ولا مطر وتبنى أماكن تعلو على الأرض نحو (٨) أمتار وتمتد أميالا لا يقطعها إلا الديناميت . فهذه رزقت مما بين يديها فلا تحتاج إلى مطر من السماء ولا إلى أعين بها تبصر المطر . إذن فلماذا رزق الانسان من السماء والأرض معا ، ولماذا أعطى الأعين التى بها يبصر الانسان السماء والأرض . عجبا أليس نفس هذا الخلق وهذا التقدير فى جسم الانسان وحواسه ورزقه دليلا على أن هذا الانسان خلق ليعرف العوالم كلها . وأيضا يرى الانسان أنه كما استفاد رزقه من السماء والأرض لن يتم له ذلك إلا بمساعدة الانسانية كلها لاسيما فى هذا العصر الذى ظهرت فيه الطيارات والطرق الحديدية والكهرباء والتلغراف (البرق) والتلفون وهكذا . إذن خلق الانسان وتركيب العالم الذى خلق فيه يوجب أن يعرف العالم الذى هو فيه وأن يحب الانسانية كلها . والا فهو مذنب ظالم فهذه حكمة قوله تعالى «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار» كما تقدم . ههنا تنظر إلى جزاء هذا الانسان . جزاؤه أن يعطى على الخير خيرا ويعطى على الشر شرا ، وكما أعطى قوة بها يتناول الغذاء وينظر السماء والأرض أعطى قوة كامنة فيه تؤنبه على التقصير وتحثه على العمل الصالح ، وهذه القوة مستمدة من عوالم أخرى يعبر عنها بالجنة والنار . فهذه القوة الكامنة فيه تظهر آثارها فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . أما فى الحياة الدنيا فإننا نحس بوخز الضمير وبالمذلة على جهلنا بما حولنا وعلى تقصيرنا ، وهذا واضح فى مواضع كثيرة من هذا التفسير . وأما فيما بعد الموت فاعجب كيف ترى فى كتاب [السماء وجهنم] الذى حدثتك عنه هنا وفى مواضع أخرى من هذا التفسير فان مؤلفه رجل من علماء الأرواح فتراه يقول (إن الإنسان إما أن يكون متصفا بالعلم وبالعمل المطابق له وإما أن يكون خاليا منهما وإما أن يكون عمله مطابقا لعلمه كثيرا أو قليلا) وهذه الصور جامعة لكل أحوال الانسان فان كان عالما بالخير عاملا بالفضيلة فانه بعد الموت يرفع إلى الجنة ولا يسأل . وإن كان مولعا بالشر ولايعمل سواه أخذته الملائكة إلى جهنم بلا سؤال . فان كان على هيئة الصورتين الأخريين بحيث يعلم ولا يعمل (وبعبارة أخرى) . تكون أقواله وظواهره خلاف باطنه فينطق بالحكمة ويضمر الشر فهذا يمتحن ويبقى فى عالم البرزخ مدة حتى تعرف أخلاقه وهناك تطلق له الحرية فى الكلام فتغلب عليه الحقائق التى فى نفسه فيتكلم أولا قليلا بما فى باطنه ثم يزداد تكلمه بحقائق نفسه قليلا قليلا تدريجا بحيث يكون ذلك كالجنون المنقطع فى الدنيا . فمن الأحوال التى هى أشبه بالجنون يبين كل ما فى نفسه ومتى أفاق ندم وحزن وعجب كيف يفضح نفسه وهكذا تزيد حاله حتى يعرف باطنه تماما وحينئذ يحكم عليه المفتشون من الملائكة الذين يمتحنونه ومتى تم الامتحان جلوه فيما غلب عليه إما فى جنة إن غلبت على قلبه الفضائل ، أو فى نار إن غلبت عليه الشرور والامتحان يكون من دقيقة إلى شهر إلى سنة إلى ثلاث سنين إلى ثلاثين سنة . ويقول إنه لاروح هناك يزيد امتحانها عن ٣٠ سنة ، وطول الامتحان راجع إلى الخبث المستكن فى النفس فعلى مقدار المكابرة والكتمان تبقى الروح بعيدا عن الجنة والنار . هذا مايقوله ذلك العالم الروحانى ، ومدار الكتاب كله على ذلك . ويقول فى صفحة ٢٧٦ مانصه :

(إن أعمال الانسان متى كشفت له بعد موته فان الملائكة التى أعطيت وظيفة التفتيش تنظر إلى وجهه

وتفتقه وتفتش جميع جسده وتجد الأعمال مرسومة على جميع الجسد وأوائلها مرسومة على المخ . قال وهناك يظهر كل شيء في ذاكرة الانسان وليس الرسوم هناك الأمور العامة فقط بل الأمور الخاصة أيضا فكل فكرة وكل حكمة تسطر في دماغ الإنسان وعلى جسده) انتهى ماأردت تلخيصه من هذا الكتاب .

فقال صاحبي وهل كلام هذا الروحاني الافرنجي منطبق على ديننا ؟ . فقلت إنه معجزة القرآن أرسلها الله في آخر الزمان . يقول الله تعالى «خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون» وقال « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» فالله عز وجل يرينا الآيات في كل شيء . قال وما الآيات هنا ؟ قلت : انظر إلى قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار» فانظر كيف عاتب على عدم التبصر في النظر وفي العمل في الدنيا وفي الآخرة . أما في الدنيا فانه يقول « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » وقال في الثواب « وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » فها هو ذا كتاب الله أرانا أن عذاب الناس في الدنيا راجع لجهلهم وتقصيرهم وهذا العذاب الدنيوى يحس به المسلمون ويحس به الفرنجة وأهل الأرض اليوم قاطبة لأن أهل الأرض الغالب والمغلوب كلهم جهلاء بالحقائق وعلى قدر الجهل هم جميعامعذبون عذابادنيويا ثم انظر إلى الإنسان بعد الموت فهذاعلم الأرواح يحدثنا بما جاء به القرآن . ألم تر إلى قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم» إلى قوله « وضل عنكم ما كنتم تزعمون » . فانظر أليس معنى هذا أن العذاب كما يقع في الدنيا يقع بعد الموت مباشرة، والملائكة هم الذين يتولون هذا العذاب الذى قاله ذلك العالم الروحاني الأوروبي . ثم إن هذا الانجليزى الذى قتل زوجته قد وقعت له حال نادرة فأقر بقتلها لما وصل إلى المكان الذى رآها فيه أول مرة وأحبها فانتقل إلى عالم الروح ونسى الجسد كما يحصل بعد الموت، إذ يظهر الانسان خفاياه شيئا فشيئا وإذا فطن بعد الاظهار ينكره ماقاله ويعجب كيف جن بهذه الدرجة . فهكذا هذا الانجليزى القاتل لزوجته بعد ما أقر أمام الشرطة رجع وقال أنا لم أقتل وذلك كما يحصل بعد الموت في أول الأمر ، إذ ينكر الانسان بعد الإقرار ثم يتزايد الأمر وبعد ذلك يتحد الظاهر مع الباطن . إذن ضمائرنا في هذه الحياة مملوءة بالآراء المخزونة فيها وقدختمت بخاتم وطبع على القلوب حتى يأتي يوم تظهر فيه الحقائق وهذا نفسه قوله تعالى « فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا » وقوله تعالى « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره» وقوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » الخ .

الله أكبر . إذن هذه العلوم الروحانية أصبحت في هذا الزمان تفسيرا للقرآن . إذن هذا هو الزمان الذى أخبر به القرآن إذ قال « سنريهم آياتنا » الخ ، وقال « سأوريكم آياتي » الخ . وإذا قال قائل من الفرنجة ومن المسلمين ان هذا القول من هذا الافرنجي خرافة . نقول له : انظر بعقلك هذه الهندسة والنظام فكيف يرزق الانسان من السماء والأرض ، وكيف يعطى العقل والحكمة ؟ فهل هذا الصانع للعالم يتقن الحشرة وحواسها ويجعل كل حاسة محكمة ثم هو يجعل رزق الأرضة على النهج للتقدم وحواسها ورزق الانسان على ماذكرناه من السماء والأرض وهكذا حواسه أقدر وأجدر ولا تكون هناك نتائج لهما على مقدار حالهما . إذن الانسان تحيط به عوامل وفي داخله غرائز كلها متحدات على أنه ملزم أن يرقى رقيا متواصلا وأن تقصيره

يرديه

يرديه ويهلكه فى كل مرحلة من مراحل حياته . هذا مافتح الله به صباح يوم الأربعاء ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩ والحمد لله رب العالمين .

﴿ المقال الذى ألقيته على مسامع ذلك الطالب ﴾

فقال لقد قرت عينى بما سمعت منك فى أمر الجنة والنار عقلا ونقلا ولكنى لا أزال أطلب الإفاضة فى أمر الله سبحانه وتعالى فأنت قلت فى أول الحديث : إن الله عز وجل ثابت وحق واستدللت بأن القضايا ثابتة مثل القضايا الهندسية مثلا . وأيضا قلت لى : إن الانسان والأرض التى هو عليها عالم ضئيل . كل هذا حسن ولكن لماذا يعاودنى الفكر فى كل حين للبحث ؟ ولماذا أجد عقلى لايقف عند حد ولا عند ماسمعته منك ؟ فقلت إن هذا رسول من الله تعالى لقلبك أن يستمر فى البحث حتى يقتنع . قال ولكن ليس عندى اقتناع للآن .فقلت فاسمع إذن . لقدعلمت كما قدمنا فى (سورة النور) عند قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» فى مسألة قطرة الماء التى وجد العلماء أنها تحوى من الذرات عدد (٥) على يمينه (٢٠) صفرا تقريبا وأن هذه الذرات متباعدات جدا ويكون مكان الذرات خاليا فبينها أبعاد كأبعاد مابين الشمس والأرض ، أى بالنسبة لأحجامها ، وقد تقدم هذا هناك وأن هذه الأعداد تقرب من أعداد كواكب السماء التى عدت بقدر (٢) على يمينه (٢٤) صفرا . إن هذا العالم كله يرجع للجواهر الفردة والجواهر الفردة ترجع لأنوار كهربائية فما هى إلا ذرات ضوئية تدور منهن واحدة حول الأخرى كما تدور السيارات حول الشموس والذرة الضوئية الدائرة يسمونها كهربائية سالبة ، وللذرة الضوئية الثابتة يسمونها موجبة وهذه الدائرة تجرى فى الثانية (٦) ملايين مرة حول الثابتة . وباختلاف مقادير هذه الذرات مع اختلاف مقادير الحركات فى الثانية تختلف العناصر المركبات منها وهذه العناصر بينها نسب عجيبة ستراها فى (سورة العنكبوت) قريبا وهذه العناصر منها هذه المركبات من شموس وسيارات وأرضين وأقمار وإنسان وحيوان ونبات ومعادن فكل ما نشاهده حولنا ويحيط بنا يرجع لأنوار تجرى فى أماكن خاليات وكأننا نعيش فى خيال وكأن الوجود الحقيقى ما هو إلا موجود لانراه لأن ما نراه ظهر لنا من كلام علماء المادة أنفسهم أنه لا معنى لوجوده بل هو نقط ضوئية فى أماكن خاوية خالية وما هو الضوء ؟ الضوء ليس شيئا سوى حركات فى شىء سموه (الأثير) وما هو الأثير ؟ هو عالم عرفه الناس بعقولهم لاغير . أما حواسهم فانها لم تقدر على تصوره . إذن إجماع علماء العصر الحاضر أظهرأن كل مانراه ونسمعه ونشمه وتذوقه ونلمسه إن هو إلاحركات لعالم لاندركه وأنأسباب هذه الحركات وراء عقولنا . إذن الموجود الحقيقى غير ما أدركناه بحواسنا . إذن هناك وجود حقيق أورث وجوداً ظاهريا وهو الوجود الحقيقى . وهنا نقول : أيهما هو الأصل، العدم أم الوجود ؟ فقال العدم هوالأصل فقلت : الناس اعتبروا التفريق عدما فاذا رأوا إنسانا مات وتفرقت أجزاؤه أو رأوا حيوانا هلك وأكله غيره سموه معدوما وماهو بمعدوم بلهو مفرق الأجزاء والأجزاء موجودة لامعدومة . وإذا كنا على حسب اصطلاح الناس بمقتضى حواسهم قد حكمنا بخطئهم فى عدم ما تفرقت أجزاؤه معدوما فليكن كذلك حكمنا على حكمهم على الوجود الحقيقى الذى هو السبب فى الوجود الظاهرى المجازى . فاذا أخطئوا فى قولهم إن الميت معدوم ، وجوابه أن يقولوا مفرق الأجزاء ، فقد أخطئوا فى حكمهم على الوجود الحقيقى بأن وجوده من الأزل يحتاج إلى البرهان لأن العدم هو الأصل . فقال نحن إذا حكمنا بخطأ الناس فى قولهم عدم الميت لانحكم بخطئهم فى قولهم وجد الانسان بعدالعدم فانه كان معدوما فاذا حكموا بأن الأصل هوالعدم فقد حكموا بما يشاهدونه فإذا قالوا : إن الوجود الحقيقى الأصل فيه هو العدم والوجود يحوجه دليل فهم على حق . فقلت : هذا الظن أيضا منهم خطأ فان الذى وجد بعد العدم كالانسان وكالحيوان وكالكواكب وكالشموس فهؤلاء جميعا كانوا

موجودين وإنما الأجزاء كانت مفرقة فاجتمعت . فأجزاء الطفل التى تراها كانت موجودة قبل وجوده فهذا اجتماع فقط بعد التفرق . فقضية أن العدم سابق على الوجود ناشئة من اشتباه الناس فى الأمر يظنون اجتماع الأجزاء وجودا وتفرقها عدما . والوجود والعدم راجعان للأوصاف والأوصاف أعراض . فقال إذن أنت تحكم أن العدم لايسبق الوجود . فقلت : نعم . فقال وماذا تقول فى أن العالم حادث . إذن فى رأيك هو قديم . قلت له لقد نسيت ما قلناه فى هذا المقال . ألم أقل لك إن التحقيق فى عصرنا الحاضر أنه لا عالم موجود وإنما هذا العالم عبارة عن صفات لعالم يسمى الأثير إذ هو نور وما النور إلا حركات فى الأثير فالعالم حركات لاغير إذن العالم وجوده تبع لغيره وهو الوجود الذى عرفناه بعقولنا فرجع الأمر إلى مذهب أفلاطون القائل بعالم المثال، أو هو الذى يسمى اليوم (عالم الأثير) وهو يقول إن كل ما هو حاصل الآن فى عالمنا ماهو إلا ضرب أمثال لعالم المثال (اقرأ جمهوريته فان هذا واضح فيها) . فقال إذا لم يكن العالم له وجود فكيف تقول إن النبات أو الحيوان كانت أجزاؤه موجودة قبل وجوده هو . فقلت ذلك باعتبار مرتبة الحواس ومرتبة الحواس مرتبة غير حقيقية فهذا التعبير راجع للوجود المجازى كما قدمته لك . فقال إذن أنت ترى أن العالم اليوم وجوده باعتبار آراء علماء العصر الحاضر راجع لحركات لعالم لانراه . فقلت نعم والوجود الذى لانراه الأصل فيه الوجود لا العدم لأنه لادليل على عدمه فاذا كان موجودا من الأزل فهذا هو الأصل . قال ولكن أنت قلت إن العالم حركات لعالم لا نراه . إذن الله متحرك ، وهذا كفر . فقلت : الله لا يتحرك وإنما هو خالق للحركة فى الأثير . فقال إذن الأثير عالم قديم . قلت هنا يقف عقلى فعقلى لا يدرى ذلك العالم وإذا كان ذلك الأمر موجودا فلا أدرى كيف يوجد وكيف هو؟ وأنا لا أتعدى طورى ولكن أقول الذى ثبت من أقوال علماء عصرنا الحاضر إن عالمنا لا وجود له باستقلال ، والأثير الذى قالوه أنا لا أعرفه ولاهم يعرفونه فلنرجع إلى نفوسنا ولنشهدعليها بالعجز (العجز عن الإدراك إدراك) لا يعرف الله إلا الله ، فالأولى أن نعبر بعجزنا . قال فاضرب لى مثلا إذ عجزت عن الحقيقة . فقلت نعم أضرب لك مثلا لله فى خلقه بنا فلقد ضرب الله مثلا لنوره بالقنديل والمشكاة . اعلم أن الإنسان منا فى كل وقت يتصور صورا بحيث يخيل له السماء والأرض والشموس والأقمار . قال نعم وهذا خيال . قلت نعم هو خيال ولكن أهذا الخيال موجود ؟ قال . كلا . قلت بل هو موجود . ألم يكن للخيال نتيجة فى الظاهر ؟ أليس كل ما نفعله لا نتحرك له إلا بعد الصور التى أبرزتها نفوسنا فى خيالنا ؟ قال بلى . قلت وهذه الصور على مقتضاها نعمل فنبنى بيوتنا ونتقن صناعاتنا . قال نعم . قلت فهل المعدوم ينتج الموجود . قال لا . قلت إذن هذه صور موجودة ولكن وجودها ضعيف لسرعة زوالها . قال إى وربى إنه لحق . قلت إذن ثبت لك بالبرهان أن الخيال صور لها وجود بدليل ظهور آثارها . قال نعم ولكن قد حكمت بأن عالمنا لا وجود له . قلت نحن الآن فى الوجود المجازى فلا تخلط أحدهما بالآخر . إذن فلنجعل نفوسنا مع خيالها ضرب مثل وضرب الأمثال جائز شرعا وعقلا ونقول إن هذا العالم هو نفحة من نفحات الله تعالى وقبسة من نوره ، فنسبتها إليه تعالى « ولله المثل الأعلى » كنسبة خيالنا إلى نفوسنا . فإذا كانت نفوسنا الضئيلة أمكنها أن تحدث صورا ثبت بالبرهان أن لها نوعا من الوجود المجازى وهى انما ضعفت لضعف سببها القريب فى نفوسنا . فهكذا تكون نسبة العالم إلى الله تعالى فإذا قدرت نفوسنا على صور خيالية لاتراها حواسنا فالله لعظمته وحكمته التامة وقدرته العظيمة يخلق صورا عظيمة تراها حواسنا وتعظم عندها فضعف خيالنا نسبته إلى قوة صور السموات والأرض كنسبة ضعف نفوسنا إلى عظمة الله خالقنا وهذا المثال ينتج لنا أن العالم موجود وجودا مجازيا وأنه مستمد من الله كل حين وأنه إذا تركه الله لحظة لم يبق له وجود كما أن صورنا الخياليه إذا غفلنا عنها طرفة عين لم يبق لها وجود . إذن العالم العلوى والسفلى والجنان والنيران

عوالم لا استقلال لها وهى بيد الله فنحن الآن موجودون وجودا كوجود الخيال للمتخيل . وهذا يوضح لنا قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » لأن من تصوّر صورة وأخذته سنة أو نوم ذهبت تلك الصورة ، ويوضح لنا أيضا « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » أى كما أننا نتخيل صورا خيالية لا وجود لها إلا باستحضارنا فإذا تركنا هذه الصور أو غفلنا عنها فلا ممسك لها بعدنا [وهذا التمثيل جائز كما مثل الله لنوره بالمشكاة والمصباح كما سبق] ويفسر لنا هذا أيضا قوله تعالى « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » ويفسر لنا قوله تعالى « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » ويفسر لنا « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » إذن العلم الحديث وفق ما بين المذاهب كلها وأصبحت الفلسفة والتصوف وعلم الطبيعة كلها علما واحدا . فنحن الآن موجودون فى وجود مجازى وهذا الوجود المجازى نحن فيه مأمورون بالجد ولا نصل إلى الوجود الحقيقى إلا إذا تعبنا ونصبنا وحصلنا كل علم وكل فن واتحدنا وسخرنا كل ما أمامنا من الوجود المجازى وأصبحت الأمم إخوانا فاتحدوا ولو اتحادا مجازيا هنالك يرجعون إلى ربهم ويشاهدونه وما داموا ناقصين محبوسون فى هذا الوجود المجازى ويعذبون ويذلون وهم فى جهنم خالدون وجهنم فى قبضته والنار فى قبضته وهو لا ينام ولا يغفل . هذا مافتح الله به يوم السبت ٢٦ يناير سنة ١٩٢٩ م .

هذا وسأتبع هذا المقام إيضاحا فى آخر (سورة النمل) عند قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » فهناك سأذكر (مسألتين : الأولى) تاريخ الفلسفة الذى اعتاد الناس فى زماننا أن يدرسوه . أى إنى أذكر النموذج الذى كتبه الأستاذ (ستلانة التليانى) فى كتاب [تاريخ الفلسفه] وأبين فيه مذهب أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس وكيف كان سقراط يرى أن العلم لا يتم إلا بالتحديد والتعريف وأن السعادة للانسان لا تتم إلا بالعلم وأن الشقاوة لا تكون إلا بالجهل . إذن لابد من العلم الصحيح والعلم الصحيح بشدة العناية بالتعاريف . ثم أذكر أن أفلاطون تلميذه قال [لا يعقل العلم إلا بأمر ثابت والحدود والتعاريف لاثبات لها فى ذواتها] فهناك قال لابد من عالم يسمى عالم المثال فيه جميع صور الموجودات وعالمنا أنشىء على منوال ذلك العالم وحينئذ يمكننا أن نفهم كيف ثبت العلم لأنا وجدنا له شيئا ثبت فيه . ثم نذكر مذهب (أرسطاطاليس) بعد (أفلاطون) واعتراضه على مذهب أستاذه وأن ذلك العالم المثالى لا يصح أن يكون محلا للعلم لأنه لا وجود له ولكن الذى يركن إليه ويستند العلم عليه هى الصورة القائمة بالمادة كصورة الكرسى والمنزل والشجرة والحيوان فهذه الصور هى المحل الثابت للعلم وأبين بعد ذلك كيف كان هذا الرأى أدخل فى الضعف والعسف من سابقه ثم أذكر الحقيقة واضحة إن شاء الله بالعقل ثم أعرض عليها المذاهب بحيث يكون الرأى السائد فى زماننا ثابتا على قرار مكين من العقل فى هذا الزمان .

هذا ماسأذكره فى المسألة الأولى هناك إن شاء الله (المسألة الثانية) تقسيم العلوم المعروفة فى القرون الوسطى بحيث تمت إلى العلوم المستحدثة بسبب وهناك يكون أمام الأذكياء صفحة من العلم تبدو ظاهرة تفسيرا لقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فهذا العلم مما فى أنفسنا وقد أبرزه الله فى زماننا وأدخلناه فى تفسير الآية والله هو الولى الحميد انتهى .

﴿ اللطيفة التاسعة : فى قوله تعالى « ويوم تشقق السماء بالغمام » ﴾

لقد علمت فيما سبق من هذا التفسير أن الكواكب التى تبلغ مئات الملايين لها فيما يظن له البشر ويظهر فى العلوم سيارات حولها والسيارات لها أقمار كما هى حال شمسنا وسياراتها وأقمارها وأن هذه الشموس

الطيبة التي هي أعظم من شمسنا كانت قديما عبارة عن غمام طائر في الجو يعبرون عنه بالسديم جمعه سدم وأن هذه الشموس يوما ماسترجع إلى سيرتها الأولى ، أي أنها تهدم وتحلل وترجع في الجو كما كانت وتخلق بعد الملايين من السنين خلقا جديدا وتتكون بهيئة كواكب جديدة يخلق الله فيها خلقا جديدا . ولقد سبق في بعض السور السابقة دليل العلماء على ذلك أنهم شاهدوا في هذا العصر ستين ألف كوكب تتخلق من جديد فبعضها قارب أن يتم تكوينه وبعضها مبتدأ في تكوينه وبعضها بين بين ، وكلها تجهز لتكون عوالم كما نرى عالم شمسنا وسياراتها وأقمارها . فهذا هو الذي دل العلماء على أن هذه الشمس وما حولها كانت قديما عبارة عن غمام طائر دائر كما يرون ذلك اليوم. ولقد ذكرت ذلك في (سورة إبراهيم) عليه السلام عند قوله تعالى ـ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ـ وكذلك في (سورة الأنبياء) عند قوله ـ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ فهكذا هنا يقول الله ـ ويوم تشقق السماء بالغمام ـ أي أن شمسنا وكواكبها وبعض الشموس الأخرى وسياراتها تصبح أشبه بالغمام لأنها صارت نارا متفرقة في الجو والسماء هي الذي نشاهده من هذه العوالم اللطيفة التي تنتهي باللون الأزرق الذي نشاهده . ومستحيل أن يكون اللون إلا في المتلوّن والمتلون هو هذا العالم المسمى بالأثير الذي شرحناه في (سورة البقرة) وقلنا إن من ينكر السماء فإنما هو جاهل يجهل علوم المتقدمين وعلوم المتأخرين فان المتقدمين والمتأخرين جميعا ينكرون وجود الخلاء ، بل هم جميعا يقولون إن الفضاء مستحيل بل هو مملوء بما يسمى بالأثير وهو الذي يحمل ضوء الكواكب إلينا فارجع إليه هناك تر براهين القدماء والمحدثين عند قوله تعالى ـ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ـ الخ فانظر وتعجب كيف سماها دخانا وغماما وقال أنهما كانتا رتقا ففتقهما وكل ذلك دائر على هذا المعنى ، فتعجب من القرآن وحكمه وعجائبه وانظر كيف يقول هنا ـ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن ـ الخ .

(اللطيفة العاشرة في قوله تعالى ـ ويوم يعض الظالم على يديه ـ الخ)

هذه الآية مقابلة للآية المتقدمة في اللطيفة السابعة إذ جعل هناك سبحانه الناس بعضهم لبعض فتنة وأن العدو فتنة وامتحان لعدوه ، فأما هنا فانه يقول « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا » وهذا القول ينطق به الشاعر العربي إذ يقول :

عدوك من صديقك مستفاد   فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما يكون   تراه من الطعام أو الشراب

وفي المثل (عدو عاقل خير من صديق جاهل) واعلم أن الانسان إذا كانت فتنته بعدوه عظيمة فهي بصديقه أعظم ، وترى الناس مولعين بالأصدقاء جادين في مرضاتهم فيقعون في التهلكة والأصحاب هم الذين بهم يتشبه الإنسان في عاداته وأخلاقه وأحواله وأعماله وطباعه فالأصحاب هم جنة الانسان وناره . ولا ترى لصا ولا زانيا ولا فاسقا إلا وهو متشبه بصاحب له أو صديق قد تخلق بأخلاقه وسار على منواله. وترى الأصحاب إذا وقعت الواقعة وظهرت الحقائق يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا كاللصوص والقتلة وما أشبه ذلك فكل هؤلاء يصبحون أعداء متى وقعوا في الضيق وهذا قوله تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

الصداقة على [أربعة أقسام] صداقة تأتي سريعا وتذهب سريعا وهي التي سببها الشهوات فان الشهوة سريعة الاتقاد فاذا ما انقضى أمرها ذهبت حرارتها وانطفأت فلا صداقة إذن كما تراه في الزناة والسراق وقطاع الطرق . وصداقة تأتي سريعا وتذهب بطيئا وهي الصداقة العقلية فانك تحب العالم أول ما يعجبك قوله ولا تذهب

الصداقة إلا بعد أمد طويل وأسباب كثيرة ، وصداقة تأتى بطيئا وتذهب سريعا كالصداقة مع التجار فان الانسان لايثق إلا بعد معاملة واختبار ولكن متى ظهر الغش حصل التنافر سريعا . وصداقة تأتى بطيئا وتذهب بطيئا كالصداقة المركبة أسبابها من أشياء مختلفة فانها تأتى ببطء وتذهب ببطء فاذا أحب امرأة لأمور كثيرة كالجاه والمال والجمال وكان لكل واحد من ذلك حظ من الحب فلن يذهب الحب إلا بطيئا .

فتبين من ذلك أن صداقة الشهوة تذهب ، وأن الغش متى ظهر بين الأصدقاء فرقهم وذلك كله فى الدنيا وأحوال الآخرة تضارع أحوال الدنيا فى أمور كثيرة . وعلى ذلك ترى الناس يتبع بعضهم بعضا فى الأخلاق والأعمال وإذا ماتوا وعرفوا الحقائق أصبحوا كاللصوص إذا وقفوا أمام القضاة فى الدنيا فان كلا يجعل الذنب على صاحبه فيصبح الأخلاء أعداء . أما المخلصون الصادقون فلا ذنب ولا لوم فيقول الظالم الذى ظلم نفسه بترك التعقل واتباع صاحبه « يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » وهذه الحال كحال الرؤساء والمرءوسين التى مرت فى (سورة البقرة) « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » . فههنا يقول الله تعالى إن الصداقة تنقلب شقاوة وحزنا وأسفا كما تنقلب اللذات آلاما . وترى الانسان إذا مات اتقدت فى قلبه نار الحسرات على فوات الشهوات التى اعتاد عليها فانقلبت الشهوات آلاما هكذا هنا انقلبت المودات والمحبات شقوة وحسرة وندامة لأنها ضلال والضلال يتبعه الخسران والهلاك فلا رؤساء يوم القيامة بنافعين ولا أصدقاء بشافعين بل كل مسئول عن نفسه .

﴿ضعف السياسة فى الأمة الإسلامية اليوم﴾

واعلم أن قوله تعالى «ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا» الخ هى الحاصلة اليوم فان لم يكن بلفظها فبمعناها (وبيانه : أن أمم أوروبا أصبحت عريقة فى اصطناع السلاح والكراع والأعمال الحربية وأضافت إلى ذلك قوة دهائها ومكرها وخداعها فلما رأت أمم الاسلام نائمة جاهلة استعملوا الصداقة خير سلاح لهم فترسل الدولة سفيرها الى الأمير المسلم فيوحى إليه أن قائد جيشك خائن وترسل رجلا آخر إلى القائد فيفهمه أن أميرك خائن ولا يزال الفريقان يجدان ويختالان حتى يفرقا بينهما ثم تتدخل الدولة الأجنبية بالسلاح وتحتل البلاد فاذا تم الأمر ظهر الحق وعلم الأمير والقائد أنهما كانا مخدوعين فيعض الظالم أى الأمير والقائد على يديه يقول يا ليتنى تعقلت ونظرت فى الأمر بدقة يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا الفرنجى خليلا

﴿حكاية﴾

لقد جاء فى الجرائد المصرية أن الأمير عبد الكريم ببلاد المغرب الذى يحارب الأسبان قد سلط الأسبان عليه رجلا من أمته يسمى الرسولى له شوكة وقوة فقام الأمير عبدالكريم على الرسولى وحاربه وغلبه وأسره فوقف وزير الأسبان فى قومه خطيبا ، وقال نحن لايهمنا الرسول ولا هو له قيمة عندنا فسواء خذل أم نصر فلا نبالى . هذا كلام الوزير الأسبانى فكأنه لما كان قويا انتفع به ، فلما سقط فى حومة الوغى خذله ولم يبال به ، وهذا هو تفسير قوله تعالى «وكان الشيطان للانسان خذولا» فهذا نوع الخذلان وهذا المثل يكفيك فقد ساقه الله لنفسر به هذه الآية ، والله هو الولى الحميد .

ولكن بعد ذلك سلم الأمير عبد الكريم نفسه لفرنسا لما عرف أن قومه قد أحيط بهم من كل جانب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

﴿ اللطيفة الحادية عشرة فى قوله تعالى « وقال الرسول : يارب
إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » ﴾

ومعنى هجره تركه والصد عنه ، وجاء فى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به ويقول يارب عبدك هـذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه» هذا ماذكره علماء التفسير رحمهم الله .

ومن معانى الهجر : اللغو فيه إذا سمعوه أو زعموه أنه هجر وأساطير الأولين فيكون أصله مهجورا فيه والمعنى الأول أليق بحال المسلمين اليوم ، وما بعده أليق بحال الكفار . واللهم اليوم أن أحدثك أيها الذكى فى حال المسلمين وكيف هجروا القرآن . واعلم أن المصحف قد شكا فعلا إلى الله وقد تعلق بالمسلم وشكا إلى ربه وقال اقض بينى وبينه وبالفعل قـد قضى الله بين المصحف وبين المسلمين وعجل العذاب لكثير من الأمم الاسلامية ، هذا هو العذاب المعجل . سلط الفرنجة علينا وأخرنا فى مصاف الأمم وسيكون هذا من أسباب عذابنا فى الآخرة وتأخرنا هناك عن دخول الجنة لأن المسلم اليوم محروم من القيام بشعائر دينه على الوجه الأكمل، محروم من التفكير . محروم من العلم ، وذلك لأنه لم يعقل مافى المصحف وزاد الطين بلة دخول أهل أوروبا فى بلاد الاسلام واستيلاؤهم على الأوقاف وعلى الأمور الدينية فضعف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وهذا عقاب معجل قبل المؤجل .

إن الأنبياء إذا شكوا أممهم إلى ربهم عاقبهم وهذه شكوى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا أولا أهل مكة فعوقبوا بغزوة بدر وأسلم أبناؤهم وانتهى الأمر ، وشكانا نحن وإهمالنا التفكر فى معانى المصحف . ولأذكر لك [مسألتين اثنتين] مما أهمله المسلمون قبل ايضاح المقام فأقول :

لماذا لا ينظر المسلمون فى أول سورة نزلت . إن أول سورة نزلت «اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذى ينهى ، عبدا إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى» الخ .

أفلا ينظر المسلمون إلى الابتداء كيف كان . ألم تكن أول كلمة بعد البسملة «اقرأ» فكأن أول مطلوب لنبى هذه الأمة صلى الله عليه وسلم ولأمته القراءة . وماذا يقرأ ؟ . يقرأ باسم الرب والرب فيـه معنى التربية المذكورة فى أول الفاتحة ثم أوضح التربية فابتدأها بقوله «الذى خلق» فالخلق كلهم فى تربية الله تعالى ، والخلق إما بمعنى التقدير واما بمعنى الايجاد وهذا يعم سائر المخلوقين من ملك وإنس وجن وسموات وأرضين ثم خصص فقال «خلق الانسان من علق» وخلق الانسان نتيجة عوالم تقدمته أى نتيجة عوالم الشمس والقمر والأرض والسيارات والنبات والحيوان والماء والأرض والجبال والأنهار . كل ذلك مقدمات لخلق الانسان . والتعبير بعلق إشارة إلى ما ذكرنا فى هذا التفسير من سلسلة الحيوانات الممتدة من أدنى مخلوق حتى إلى الانسان وإلى الكشف الذى أظهر أن أصل الجنين علقة صغيرة جدا . وقد تقدم إيضاحها وإيضاح تكوين الجنين وعلاقته بسلسلة الحيوانات وأن علم الجنين من العلوم الطبيعية العجيبة التى حض الله عليها فقال سبحانه «وفى أنفسكم أفلا تبصرون » والنظر فى النفس يتقدمه النظر فى الجسم والنظر فى جسم الانسان هو العلم العجيب والحكمة البديعة والآية الربانية والحكمة الصمدانية . إن جسم الإنسان هو لوحه المقروء وآياته البينات فاذا عاش المسلمون وماتوا ولقوا ربهم وهم عمى عن أجسامهم جهلاء بربهم فكيف يلقونه وقد أنزل عليهم أول

ما أنزل « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » وذلك يجر إلى علوم الطبيعة كلها . علوم الطبيعة التى يقرؤها أهل أوروبا كلهم فى المدارس التجهيزية ، والمسلمون نائمون . علوم الطبيعة التى أنشأها الله بيده ونظمها بحكمته وألقاها لنا كتابا مقروءا وأنزل كتابه اللفظى مصداقا لكتابه العلمى .

ياعجبا للمسلمين كيف يكون أول ما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم طلب القراءة وفهم التربية والبحث فى الخلائق كلها والبحث فى الانسان ثم يعقب ذلك بقوله «اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم » فالله كريم لأنه خالق الخلق ورباه كما قال تعالى «ياأيها الانسان ماغرّك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك» ولكنه أكرم لأنه «علم بالقلم» فكرم الله عامّ على الانسان والحيوان فنعمة الشمس والقمر والنبات والحيوان وتسوية خلقنا ونظامنا . كل ذلك منه كرم ولكن الكرم الدائم هو نعمة العلم والحكمة لأن نعمة العلم والحكمة غذاء للأرواح وغذاء الأرواح أبقى من غذاء الأجسام والعلوم والمعارف عبارة عن جنات وأعناب وفواكه مما نشتهى وفوق كل لذة فى عالم الأجسام فبقاء العلوم بقاء الأرواح فى هناء، وبكثرتها قربنا من الله وهذا هو مقصود قوله تعالى «اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم» فخلقه للعالم كرم ولكن القراءة والكتابة والعلم من الله زيادة فى الكرم فالمسلمون اليوم رضوا من الله بكرمه ولكنهم أبوا أن يتقبلوا زيادة الكرم وزيادة الكرم بالعلوم ، فقوله « علم بالقلم » إشارة إلى أن القراءة والكتابة ينبغى أن تعم وقوله «علم الإنسان مالم يعلم» إشارة إلى تعميم العلوم فاذا كان أهل أوروبا يعلمون أبناءهم جميعا تعلما إجباريا إلى سن (١٤) سنة فالمسلمون أولى بهذه الكرمة وأحق بهذه النعمة وأولى بهذه المنة . وكيف نام المسلمون آمادا طويلة وكيف نسوا القرآن وهجروه وكيف ظنوا أن القرآن أغفل العلوم .

﴿ القرآن وتقصير المسلمين فيه ﴾

اعلم أن المسلمين فى غابر الأزمان أيام الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم نظروا فى أحوال العصر الذى هم فيه فوجدوا الأرض يعوزها العدل والأخلاق والسيرة الحسنة فنظموا الدول، وأقاموا الممالك وثبتوا العدل وبثوا حسن المعاملة بين الناس بقدر إمكانهم فتحوا باب الحرية فى الديانات ونظموا الأمم وضلوا ما أمكنهم فله فنشط علماؤهم للتأليف وحكامهم للتدوين وقام الأئمة رضوان الله عليهم للتصنيف والتأليف وكان هنالك مذاهب ومذاهب فى الأحكام الشرعية والعلوم الفقهية وساروا شوطا بعيدا فى العدل إلى أن انقرضت الدول العربية وجاءت الحروب الصليبية. فى أثناء ذلك فرّت الحرية من الشرق إلى الغرب واستيقظت أوروبا من مرقدها وهذبت تعاليم المسلمين الدين المسيحى فرجعوا إلى عقولهم ونظموا مدنهم وانتقل العلم من الشرق إلى الغرب وهنا رجعوا إلى الطبيعة وقرءوها والمسلمون فى انحطاط .

كانت فى العصور الأولى [دولتان] فارس والروم وقد دالت الدولتان وانحلتا وحل الاسلام محلهما وأظهر العدل ونام الناس فى عدالته وأمنوا . فالقرآن إذن أقام العدل الذى وجده بعد أن أراد أن ينقض أقام الاسلام جدار العدل الذى أراد أن ينقض فى الدولتين العظيمتين فارس والروم . أقامه وقضى أمدا طويلا وفتح باب الحرية كما قلنا فاستيقظت الأمم الشرقية والغربية فقرأت العلوم . فعلى الاسلام اليوم بعد تأليف هذا التفسير أن يقوم بسطوته ويهذب الأمم ويعلمها العلوم الطبيعية . فكما أقام العدل أيام الصحابة والتابعين فليقم الاسلام العلم اليوم . فاذا قرأ العلوم أهل أوروبا على أنها واجبات فليقرأها المسلم اليوم على أنها قربى إلى الله ولكن عدل المسلمين فى العصور الأولى نبراسا لهم فى العلم اليوم . إن الاسلام مهذب للأمم هذبهم فى اقامة العدل سابقا فليهذبهم اليوم فى نظام العلوم وليقم المسلمون بما عليهم ولتقم أمة العرب قبل الأمم بالحكمة ولتدرس الوجود حبا فى ربها وأنسا بخالقها وقربى إلى الله .

ألا ليقم المسلمون بما عليهم وليسمعوا قول الله « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فقوله « علم الانسان ما لم يعلم » كلام عام يقتضي البحث والتنقيب وترقية العقول بالعلوم ثم أتبعه بقوله « كلا إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى ؟ أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى » .

فانظر كيف ذكر الصلاة بعد أن شرح العلوم . انظروا أيها المسلمون كيف جعل الاسلام مؤخرا عن الايمان ، لم يذكر الصلاة إلا بعد ما استوفى العلوم ، سيقول جاهل وما هذا التقديم والتأخير ؟. أقول انه لم يقل هذا القول إلا الجهالة الكتعاء . وإذا كنا نرى الأئمة رضوان الله عليهم يذكرون في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم » أن ما قدمه الله يقدم وما أخره الله يؤخر ويرجعون في ذلك إلى ما ورد في بعض الأحاديث فأوجب بعض الأئمة كالشافعي رضي الله عنه الترتيب فكيف صح التدقيق في غسل الأعضاء وأنها يقدم ولا يصح التدقيق هنا وأن قراءة علوم الطبيعة مقدمة على غيرها وتعلم القراءة والكتابة له القدح المعلى في الإسلام على غيرها . إن العدول عن مثل هذا جاء من إعراض العلماء في الاسلام عن هذه المباحث . ومن عجب أن تكون هذه السورة أول ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون هذا أول ما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم ولا نفكر فيه .

﴿ سورة الفاتحة ﴾

واعلم أن هذا النظام بعينه هو الذي جاء في (سورة الفاتحة) فانه بدأ بالحمد لله لأنه رب العالمين لأنه خلق العالم ورباه وهو كما قال «خلق ، خلق الانسان من علق» والخلق من علق ثم الترقي شيئا فشيئا هو معنى التربية فكأن هذه السورة تفسر معنى التربية المذكورة في الفاتحة والمذكورة في هذه السورة ولم يذكر العبادة ولا الهداية للصراط المستقيم ولا الاستعانة بالله في ذلك إلا بعد ما ذكر التربية ونظام العالم . فالفاتحة سار القول فيها على نظام يشبه نظام أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأن الله أمر بقراءة الفاتحة في كل صلاة لتذكرنا بأول سورة نزلت إذ أمرنا فيها بالقراءة والقراءة منصبة على أن نعرف ما رباه الله من المخلوقات وكما أخرت أحوال العبادات في الفاتحة أخرت أيضا في (سورة اقرأ) وملخص هذا كله تعميم التعليم.

فياليت شعري كيف نام المسلمون عن قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . لقد علمت أن آباءنا هذبوا الأمم بعلم الفقه وأقاموا العدل وذلك من مائة وخمسين آية من القرآن ، ونحن اليوم رأينا الأمم تقرأ العلوم كلها وتنظم دولها فلنتمم النظام الأرضي ولنقم بتعليم العلوم بنظام أشرف وهو أن يكون ذلك تابعا لأمر الدين أي يكون العلم عندنا أرقى مما عندهم كما قال صلى الله عليه وسلم « اذكر الله عند كل حجر وشجر » فليعمم المسلمون العلوم اليوم وليكن لهم نظام أشرف من نظام أوروبا ولتقم فيهم علماء يهذبون الأمم في علومها كما هذبوها في عدلها ، وأن تأخر المسلمين اليوم عن الأمم في العلوم لحكمة أنهم هم المهذبون للأمم . إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين رحم الله به الناس في العلوم الفقهية وإقامة العدل وسيرحمهم بالنظام العلمي الأعلى الذي سيكون على أيدي المسلمين . سيقرأ المسلمون هذا التفسير وسيعملون بوصايا القرآن في سبعمائة آية وخمسين تصريحا وفي غيرها تلويحا أن يقرءوا علوم العالم كله . سيقرءون ذلك كله وسيقومون بما عليهم من نظام هذه الأرض ويحققون «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

﴿ القرآن كالبحر الملح ﴾

القرآن أشبه بالبحر فيه الماء وفيه السمك وفيه الدر والمرجان وفيه مخلوقات بديعة عجيبة وقد أخذ منه أسلافنا علم الفقه وهو بعض ما فيه وما علم الفقه إلا كالسمك . فأما الدر والمرجان والماء الذي به حياة كل شيء فسيكون في المستقبل . إن في البحر جوهرا وإن في البحر درا . إن في البحر ماء يكون بخارا بحرارة

الشمس فيرتفع للجو فيصير سحابا ممطرا فيحي به الأرض بعد موتها ويكون منه الحيوان والنبات والإنسان . هذا هو البحر وهذا هو القرآن . فليفكر المسلمون بعقولهم وليستخرجن العلوم من مكامنها كما استخرجت الحرارة الشمسية القطارات المائية من البحر المحيط فصارت أنهارا سقت كل حي . أخذ أسلافنا السمك منه وهو علم الفقه فلنأخذ نحن منه العلوم التي بها حياة العقول كما أن ماء المطر به حياة كل حي ولنغص على الدر والمرجان كما غاص أكابر آبائنا ولكن بقي ذلك مدفونا في الكتب بعيدا عن الأمة فلينشر ذلك الملأ ولتقم الأمة بما عليها لنفسها وللأمم وليقرءوا «وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» انتهت اللطيفة الحادية عشرة .

(اللطيفة الثانية عشرة في قوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين »

قد تقدم شرحها في اللطيفة السابعة في قوله تعالى « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟ »

(اللطيفة الثالثة عشرة في قوله تعالى « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » الخ)

اعلم أن الناس أشجار مقلوبة فرءوسنا مرفوعة إلى أعلى نتعاطى بها الطعام والشراب ورءوس النبات إلى أسفل ورءوس الحيوان متجهة إلى الجهات الأربعة وإنما كنا على هذا النمط لأن النبات لاحظ له من الاستقلال إلا كحظه من الانفصال عن الأرض فرأسه ملازم للطين لا حراك له ظاهرا . فأما الحيوان فانه يتحرك إلى سائر الجهات ويختلف في قبول الغرائز اختلافا عظيما وهو في ارتقاء درجاته على أقسام كثيرة يبتدىء من أدناه إلى أعلاه . فانظر إلى خلق الله وعجائب صنعه وتفكر في حكمته سبحانه وتعالى وانظر كيف خلق وكيف صور تعلق النبات لازما للأرض وخلق الحيوان على أنواع كثيرة وكلما ازداد غرائز وقوى كان أبعد عن الاتكال على الأرض وكان أقدر على السعي . وترى السباع والنمور أرقى من الظباء والغزلان فهي تأكلها وترى القرود أرقى من الجميع لما لها من الذكاء والفهم والتقليد للانسان ، وترى الانسان انتصب قائما فكانت رأسه أعلى وبعده ورجلاه لأسفل بعكس كل نبات فصدق قولنا إن الانسان نبات معكوس وهذا معنى قوله تعالى ـ والله أنبتكم من الأرض نباتا ـ فنحن نبات ارتقى ارتقاء تاما ولكن ننظر هنا معنى الآية التي نحن بصدد الكلام عليها ، وهي « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » فالحشر على الوجوه إلى جهنم يراد به ميل النفوس إلى الأمور الأرضية وذلك أن الانسان يعيش في هذه الأرض ، ويصادف فيها لذات وآلاما فاذا عاش ومات وهو لم يفهم منها إلا لذاتها وجهل اللذات العالية وهي حب هذا النظام العام وتكميل النفس الإنسانية فان مثل هذا يوضع بعد الموت في عوالم منحطة على قدر عقله لأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون فمثل هذا يحشر على وجهه فليس من الذين ترتفع رءوسهم إلى أعلى لأن ميلهم حيواني وشهوتهم نباتية فكأنه ما فهم الانسانية ولا عقل لذاتها العالية وعكف على الشهوات المعتادة عند الحيوان والنبات فترى من الحيوان ما يحبو على الأرض حبوا فهؤلاء تكون نفوسهم راجعة منكوسة إلى أسفل . والأخلاق الشهوية النباتية ترجع إلى المأكل والملبس والمسكن والزينة والنساء والمال وجميع ما هو من هذا القبيل والأخلاق السبعية ترجع إلى القوة الغضبية من الحسد والكبر والظلم وما أشبه ذلك . فهذه الصفات كلها التي تبلغ ما يقارب المائة كما في علم الأخلاق تحط قيمة المرء في الآخرة ويرى نفسه متعلقة بتلك الأخلاق فتبقى محجوبة فيها عن ربها كما قال تعالى « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » وكل امرىء يعرف من نفسه إذا فكر هل نفسه متأهلة للقاء الله فان عرف أن هذه الدنيا ولذاتها تبهجه وتنسيه ذكر الله فليعلم أنه بعد الموت يكون معلقا بما كان معلقا به في الدنيا ويبقى محجوبا عن ربه ظالما لنفسه وذلك جزاء الجاهلين وهذا من نتائج قوله تعالى « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم »

أى أنهم يميلون إلى أسفل الأمور فلا ينالون أعلاها ومحجوبون عن ربهم ، وهم الذين خسروا أنفسهم لأن النفوس الانسانية عالية الرأس مرفوعتها لاخسيسة منحطة منخفضة وإنما وجوههم « يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » وأما الآخرون فليست وجوههم ناضرة ولا إلى ربها ناظرة لأنهم يحشرون عليها وتلصق بالأرض كما يلصق النبات لأنهم ميالون إلى العوالم الارضية مجبولون على حبها لم يعشقوا ما أدركته العقول من الجمال .

(جوهرة فى قوله تعالى « وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا »)

اعلم أن الله ضرب الأمثال لهذه الأمة وللأمم السابقة . فأما ضربه الأمثال للأمم السابقة فهو المذكور فى هذه الآية . وأما ضربه الأمثال لهذه الأمة فمثل قوله تعالى «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» إلى أن قال « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

يقول الله فى الأمثال : لايعقلها إلا العلماء ، ويقول فى اختلاف الألسنة والألوان : لايعقلها إلا العلماء كما سيأتى فى (سورة الروم) إذ يقول تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» (بكسر اللام) ويقول فى سورة أخرى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض» إلى قوله « انما يخشى الله من عباده العلماء »إذن الذين يعرفون اختلاف الألوان والألسنة ونحو ذلك هم الذين يعرفون آيات الله وهم الذين يخشون الله فهكذا لايعرف الأمثال إلى العلماء بها . واعلم أن الأمثال كثيرة فى كل لغة وعند كل أمة ولها مقاصد تقال لأجلها ألف لها (الميدانى) كتابه [الأمثال] ولأذكر لك مثلا سهلا لتقيس عليه ، ولنشرح هذا المقام شرحا بقدر الطاقة وبما يفتح الله فأقول :

(١) من الأمثال قولهم «قال الحائط للوتد لم تشقنى؛ قال سل من يدقنى فان من ورائى لم يتركنى ورائى» ومعلوم أن الحائط لم يقل للوتد شيئا ولا الوتد رد عليه شيئا وإنما هذه جملة يراد بها إظهار العجز ممن اقترف ذنبا بإكراه غيره عليه . إذن المثل هو قول منقول من معناه إلى معنى آخر وهو فى علم البيان استعارة تمثيلية ، وهذا معلوم لمن درسوا ذلك العلم ولذلك كان هذا العلم وأمثاله من العلوم التى لابد منها لمن يريد تفسير القرآن .

(٢) وقولهم «الصيف ضيعت اللبن» فهذا قول نطق به رجل كبير السن لامرأة كانت زوجته فأحبت شابا وتزوجته فى زمن الصيف وجاءت لهذا الشيخ تطلب اللبن على عادتها فى زمن الشتاء فأفادها أنك ضيعت اللبن فى زمن الصيف . ولكن هذا القول نطلقه نحن الآن على من ضيع فرصة فاتته فأتى ليطلبها بعد أن فاتت . فاذا طلبنا من رجل أن يشاركنا فى أرض ليزرعها أو فى تجارة ليديرها ثم تنحى عن ذلك وشاركنا غيره ثم جاء وقال أريد ما كنت طلبته فإنا نقول له «الصيف ضيعت اللبن» نخاطبه بهذا وهو لم يطلب لبنا ولم يكن ذلك التضييع فى زمن الصيف بل مرادنا أنك أضعت الفرصة فعليك وحدك يكون اللوم لا علينا . إذا فهمت هذه المقدمة فاسمع لما ألقيه عليك الآن . اعلم أن الأمم السابقة كانت تضرب الأمثال بالقصص والأحاديث المستملحة وتعطى أبناءها الحكم تارة على ألسنة الحيوانات وآونة على ألسنة الأنبياء وأخرى على ألسنة الملائكة وطورا على ألسنة الملوك وهكذا فترى :

(١) كتاب [كليلة ودمنة] بجعلها على لسان الحيوانات .

(٢) وكتاب [ألف ليلة وليلة] على ألسنة الملوك والجن والعفاريت .

(٣) وكتب اليهود على ألسنة الملائكة تارة ، والأنبياء تارة أخرى .

وهكذا أهل بابل ، وأهل الهند وأهل أوروبا يجعلون الأمثال على ألسنة العشاق كما فى كتاب [ألف ليلة وليلة] ومن عجب أن الأمم كلما توغلت فى القدم كانت أمثالها غالبا ترجع إلى الملائكة ، أو الآلهة التى اخترعوها على مقدار تلك العقول وليس عندهم فى ذلك مضض وكلما اقترب زمان الأمم كانت أمثالها أقرب إلى العالم الأرضى كالأنبياء والملوك ، وأهل زماننا لما أصبحوا أقرب إلى (الديموقراطية) جعلوا الأمثال على ألسنة العشاق ، فالمدار فى كل عصر على ماغلب على أهله ، فإن كانوا صابئين أو ما أشبههم كالأمم القديمة ذكروا الملائكة والآلهة المخترعة وإن كانوا شديدى الخضوع للملوك ، أو متعلقين بالأنبياء ضربوا بهم الأمثال وهكذا وسأبين ذلك واضحا الآن . واعلم أن ضرب الأمثال منهج عجيب ومقام عزيز يظنه العامة طريقا معبدا وأمرا سهلا وماهو بعبد ولاسهل ولكنه يحتاج إلى إعمال الروية والفكر والنظر وليس يدركه إلا أهل العلم والدراية والحكمة وسأريك برهان ماأقول الآن ، فهاك أسمعك [ثلاثة أمثال] تجمع أهم أمثال الأمم الشرقية والغربية لتطلع على الأمثال التى ضربت لتلك الأمم حتى تعرف كيف كانت عظاتهم وتفهم بنوع ما قوله تعالى « وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا » ولأقتصر لك من أمثال الهنود على [مثلين] ضربوهما ليفهموا النوع الإنسانى كيف تخدعنا الشهوات وتضلنا اللذات وتغوينا الأهواء ، وتسحر عقولنا فنون الجمال وزينة الحياة الدنيا ثم أقفى على ذلك بمثل ضربه أهل (بابل) ونقله اليهود عنهم . وهذه الأمثال ضربت على نمط القدماء فى توجيه النصح على ألسنة الملائكة كما هو دأب تلك الأمم لأنهم لا يجدون فى هذا ذنبا ولاخروجا عن الأدب بخلاف ديننا القويم فانه فيه لايجوز وإن كان القول مجازا . وإنى أردت بهذا :

(١) أن أبين حقيقة الأمثال .

(٢) وأن يفتح المسلم مجال اتساع دائرة العقل .

(٣) وأن يفهم المقصود من الكتب القديمة إذا اطلع عليها .

(٤) وأن يعرف أن الاسلام يتفق فى المعنى مع العلوم ، ومع كل دين وان اختلفت الظواهر .

(٥) وأن يكون المسلم مستأنسا بكل علم ، فلا يأنف من قراءة العلوم القديمة التى نقلت عن الأمم لأن حصر العقول يضيع مجد الأمم ويذلها .

واعلم أن الله عز وجل طبع هذا الإنسان على خصلة لاتفارقه وخلة تلازمه ، وهى أنه لايتعلق إلا بما بعد عنه ولا يحب إلا ماتمنع عليه ، وهو يحتقر كل مبذول له ولا يرغب فيما عنده ؛ ألا ترى رعاك الله أنه قد بذلت له نجوم السماء كى ينظرها كل ليلة وهى أجمل وأبهى من الجواهر والحلى ولكنك تراه يفضل قطعة (الماس) على هذه النجوم الجميلة ، لماذا هذا ؟ لأن النجوم له مبذولة ، ولو أنها كانت غير مبذولة لدفع ثمن النظر إليها غاليا ولكانت النظرة إليها تشترى بمال وفير . ومن هذا مانشاهده من تهافت التجار على الآثار القديمة المدفونة تحت الثرى فما ذلك إلا لندرتها . ومن ذلك أنى فى هذا اليوم أعنى يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨ زرت (دار الآثار العربية) بمصر فأخبرونى هناك بأنه يؤمها كل يوم من السائحين (٤٠٠) نفس كل واحد يدفع (١٠) قروش . لماذا هذا ؟ لأجل أن يشاهدوا شيئا ممنوعا عنهم ولو كان مبذولا لهم لاحتقروه . من ذلك أنى رأيت (سجادة) تاريخها (٥٠٠) سنة اشتراها أحد أغنياء مصر بثمانية آلاف جنيه . ومنه أيضا قطعة قماش من ثوب ابن هارون الرشيد رأيتها بمبنى رأسى بلغ ثمنها (٣) آلاف جنيه . وهكذا إناء من العقيق رأيته هناك كان يأكل فيه بعض ملوك المماليك فى مصر فدفع فيه الحاكم الإنجليزى (١٦) ألف جنيه فلم ترض الحكومة المصرية . هكذا أخبرنى العمال فى المصلحة . فهذا التعالى فى الأثمان للغرابة لاغير .

إذا عرفت هذا فلننظر فى الأمثال إنها جعلت أداة للتعلم لغرابتها وبدائع تنوعها والتصرف فيها حق أن الإنسان إذا سمعها وفكر فى أصل المعنى وفى المقصود منه كان لهذا أثرا فى نفسه . ففرق بين قول القائل فلان كريم وبين قوله كثير الرماد وجبان الكلب رحب الذراع ، وهكذا فضرب الأمثال أبلغ من الحقائق .

هذا أهم الأسباب فى قوله تعالى «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» بكسر اللام وذلك لأن الجهال من سائر الأمم إذا سمعوا أى قصة صدقوا لفظها ووقفوا عنده ولكن العقلاء هم الذين يفهمون الحقائق ومايقصد من الكلام .

الآن ساغ لى أن أقص عليك قصص الهنود لتعلم كيف كانوا يضربون الأمثال لتعليم شعوبهم وكيف يحترسون من خداع الدنيا . ولأذكر لك قبل ذلك كما تقدم فى هذا التفسير وشرحته فى غير ماموضع أن الأمم القديمة كلها موحدة بالله باطنا وسرا ومشركة أمام الشعب فعندالهنود كما عند قدماء المصريين كان التعدد من طبع العامة وهكذا جميع الأمم السالفة .

فلما وصلت إلى هذا المقام قال لى ذلك الصالح العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى التفسير فيما مضى ؟ لم كل هذه المقدمة . الأمثال جعلتها ولم تريد ضرب ثلاثة أمثال من أمثال الأمم القديمة فى هذه الآية ؟ فقلت: أردت بذلك إزالة تلك الغشاوة التى طمست على عقول كثير من الأمم الاسلامية إذحرموا من العلم الذى طبق آفاق الشرق والغرب ، والناس جميعا انتهلوا منه . فقال ماهذا العلم الذى تزعم أن الناس انتهلوا منه وحرم منه المسلمون؟ فقلت علوم الأمم القديمة والحديثة فى رواياتهم التى أودعوا فيها علومهم . ألا ترى رعاك الله أن بنى إسرائيل ذكروا قصصا أودعوا فيها حكمهم وضمنوها علومهم ، ومواعظهم وهكذا اليونان وأهل الهند أودعوا الحكمة وحشوها فى حكاياتهم ، فلما قرأها العلماء أنكروها وقالوا هذه خرافات . وإنى لأعجب كل العجب من أمة تقرأ علم البيان ولا تطبقه ، قال وكيف ذلك ؟ فهل علم البيان يعلم الناس الخرافات . إن الخرافات ضلال العقول ، فقلت على رسلك إن علم البيان فيه الاستعارة التمثيلية كما تقدم والاستعارة يقصد منها المعنى المنقول إليه اللفظ لاغير فعجبت كل العجب من أمم تفهم قول القائل [الصيف ضيعت اللبن] وتخاطب به جماعة الرجال ولا ترى فيه بأسا ثم تراهم يهلعون ويجزعون إذا سمعوا ماسأقصه من قصة هاروت وماروت التى وضعت بهيئة مثل أو رواية لم يقصد منها إلا مغزاها على طريقة الاستعارة التمثيلية ، والخرافة إنما تكون فيها إذا قصد لفظها ؛ فأما للمعنى المنقول إليه اللفظ فليس خرافة بل هو موعظة حسنة . اللهم إن هذا هو الذى قصده النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» كما فى البخارى وقال الشراح لأن سند أحاديثهم منقطع فتحدث بلا سند ، ولعمرى لم يقصد صلى الله عليه وسلم أن يعلمنا الخرافة بل قصد أن يجعلنا أمة تعرف أحوال الأمم ومواعظها فترتقى .

إن الأمم جميعها لم تقدر أن تصور الفضيلة والرذيلة إلا بهذه الوسيلة وهى تشويق القراء بطريق القصص بهيئة تأخذ بلب القارىء والله يقول « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها » وهذا فى هذه السورة ، ويقول سبحانه فى آية أخرى « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ولاجرم أن علم الآثار الحديث الذى عرفه العالم المتمدين وقرءوا كتب الأمم القديمة أفادهم وعرفهم وساعد فى رقى أممهم والمسلمون بقوا مكتوفى اليد أمام الأمم ، فالأمم يسمعون ويعقلون والمسلمون لايريدون أن يسمعوا أو يعقلوا ويقولون قد استغنينا بالقرآن ويقول الله لهم فى القرآن . كلا . إن قارىء القرآن بلاعلم بالمعنى ولا عمل بالعلم كهيئة الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم ؟ فهل يعجبكم أيها المسلمون أن تعرفوا القرآن

كله

كله وتنكروا قوله «أفلم يسيروا فى الأرض» فهل السير فى الأرض ونظركم عواقب الأمم من كتبها وآثارها والاحتراس مما وقعوا فيه والأخذ بالأحسن من أعمالهم مخالف القرآن وهو الذى حض عليه بنفس هذه الآية ووبخ التاركين له ؟ فهل النظر فى الأرض وتعقل أحوال أهل الأرض والنظر فى السموات . كل ذلك لايعجبكم مع أن القرآن يأمر به ؟ فقال صاحبى هـذا عجب ثم عجب كفى كفى ، إن من البيان لسحرا ، فاذكر لى المثل الأول من أمثال الهنود حتى أعرف كيف كانوا يعظون فقلت عندهم قصة تسمى (قصة العابد المفتون) وملخصها أن عابدا يسمى (كندو) على شاطىء نهر جاماتى اشتهر بالعبادة فى غابة كثيرة الأشجار فخاف أرباب السماء (الملائكة) أن يشاركهم فى العظمة عند الله ويسكن معهم السماء فأوعزوا إلى واحدة من الحور العين وهى (برامنوتشا) أن تظهر جمالها له فنزلت إلى الأرض وفى طاعتها الربيع والنسيم فلما رآها العابد بهره جمالها وبقيت معه ليالى وأياما تعد بالمئات فاستيقظ قبل الفجر ليلة فقال إنى لم أصل الليلة والفجر قرب فسخرت منه وقالت أنت معى منذ مئات الليالى فدهش وقد كان يظنها ليلة واحدة فعرف أن المرأة خدعته وفرح الملائكة الذين حسدوه بذلك .

فلما سمع صاحبى هذه القصة قال كيف يقرأ هذا المسلمون وكله كفر صراح مثل المعبودات الثانوية ومثل الأرباب الهندية . ولا جرم أن ذلك يفيد [أمرين اثنين : الأول] أن الآلهة الصغيرة معبودة [وثانيا] أن اتصافهم بالألوهية فيه تعدد للآلهة والأمر ظاهر البطلان ؛ وأيضا الآلهة كما اتصفت بحسد العابد اتصفت بالاحتيال فى الافساد فهؤلاء شياطين لا آلهة . فقلت له قد قدمت فى هذا التفسير مرارا أن العلماء منهم موحدون واستباحوا التعدد على حسب زمانهم وهذا عندنا كفر ، وأما كونهم آلهة فهذا مجاز يراد به الملائكة وأما كونهم يحسدون ويخادعون ويفتنون العابدين فهذه صفات الشياطين ولعل هذه الشعوب بأنها صفات الشياطين قبلوها على أنها ضرب أمثال وكان هذا مباحا عندهم . ولا جرم أن هذا الحسد موجود بين الناس وما ضربوا الأمثال بالملائكة إلا ليفهم ذلك الناس لا غير فقراءتها ومعرفة مغزاها شىء والاعتقاد والكفر شىء آخر . ولاجرم أن هذه الأمثال ليست الأمثال التى ضربها الله لهم . كلا . بل هى أمثال تبعت أخلاق القوم وأنزلت آلهتهم الصغيرة فجعلتهم فى مصافهم فلذلك صار الحرب والخداع فى عموم النوع البشرى عاما تقليدا للآلهة التى ضربوا بها الأمثال وهذه طرق أبطلها القرآن فهذه أمثالهم لا أمثال الله ، وكل دين نزل من السماء خلطه الناس بأهوائهم كما سأوضحه قريبا فى هذا المقام . ثم قلت وفى هذه القصة مصداق القرآن ، ألا ترى رعاك الله أن القرآن ذكر أن هذا الدين تقدمه أديان . قال بلى . قلت أفلا ترى أن هذا من أقدم الأديان وقد ذكر الزهد فى الدنيا والعبادة بالليل وإضلال الشهوات الناس وخداع الهوى لهم وذلك كله شرحه القرآن شرحا وافيا . إذن كان الناس من قديم يصلون بالليل وتتجافى جنوبهم عن المضاجع وكانوا يقولون إن تارك الدنيا يقرب من الملائكة ويحب فى السماء ، إذن هذه القصة مصداق لدين الاسلام ، فالله يقول «قل ما كنت بدعا من الرسل» ويقول «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم» إذن القصة أفهمتنا أن هذا القرآن لم ينزل فيه ماليس من طبع الديانات التى تناسب أهل الأرض وإن خالفوا فى التعبير . فقد كان قبلنا أمم يصلون ويتركون الشهوات . إذن هذه أمور عامة لا خاصة وهذا من أجلّ البراهين على صدق النبوة .

فلما سمع ذلك صاحبى قال حسن فما القصة الثانية ؟ فقلت كما أن القصة الأولى مثلت فتنة العابدين بالنساء الجميلات . ولاجرم أن الدنيا كلها فتنة تمثل بالمرأة . هكذا القصة الثانية الآتية جعلوها مظهرة مضار لعب النرد (الطاولة) إن طاولة الزهر كانت معروفة منذ القرن العشرين قبل الميلاد فقد ورد ذكرها فى رواية (نال وداميان الهندية) وهى من فصول كتاب (مهابهاراته) الشهير أحد أسفار الهنود المقدسة عند الهنود ، وقد

وضعه قبل الميلاد بعشرين قرنا . وذلك أن الناسك (فياسا) الذى عاش آلاف السنين على الأرض فى زعمهم نظم ديوانه (مهابهارته) وهو ٢٢٠،٠٠٠ بيتا وهو من أندر المؤلفات فى فصاحته وقصصه ونوادره وأنباء الحروب والمعارك اشترك فيها الآلهة مع الناس وهو مثل (الإلياذة) لهوميروس وهذا الكتاب (١٩) فصلا وفى الفصل الثالث منه رواية (نال ودامان) وهى ترمى إلى تقبيح لعب القمار وهى (٥٠٠) بيت وذلك أنه كان وراء نهر الكنج فى بلاد الهند مملكة (نيشاواه) ومملكة (فيدونه) وملك الأولى يدعى (نال) والثانية يدعى (فيم) وابنته جميلة فتانة اسمها (دامان) اشتهرت بالجمال حتى خطبها الآلهة فى السماء وعلم بها ملك (نيشاواه) وعرف جمالها فخالج قلب (نال) حبها ولما مر به سرب من الأوز اصطاد منه واحدة فقالت له إن أطلقتنى أذهب إلى (دامان) الجميلة لتتزوج بها ففرح نال وبات صريع غرامها فذهبت الأوزة إلى فيدرونه ورأتها (دامان) الجميلة فقبضت عليها ، فقالت لها أنا جئت لأعرض عليك زواج (نال) فاطلبيه فباتت (دامان) مولهة ومرضت وأخبرت أباها بذلك فدعا (مال) . (نال) فتزوجها . وكان لنال أخ اسمه (بوسكار) فأوحى إليه أن يلعب مع أخيه الزهر وإله الشر يساعده فلعب مع أخيه فخسر (نال) كل مملكته ثم زوجته فاستولى بوسكار على الملك وطرده هو وزوجته لأنها أبت أن تكون مع (بوسكار) فسارا فى البرية يأكلان العشب ثم لقيا ركبا أوصلهما إلى (مملكة فيدرونه) فعاش مع صهره هناك ثم أعطاه صهره جندا فتوجه به إلى مملكته فسلم أخوه له بلا حرب وتولى الملك ثانيا وأصدر أمره بعدم لعب الزهر (الطاولة) على مال وإنما يكون ذلك للتسلية .

فما سمع صاحبى ذلك قال فاذكر لى القصة الثالثة التى ذكرها أهل (بابل) ونقلها بنو إسرائيل فى رواياتهم فقلت تلك القصة على طراز روايات الهند . وملخصها : أن الملائكة فى زمن إدريس عليه السلام لما رأوا ذنوب بنى آدم عيروهم وقالوا هؤلاء خبثاء ، فقال الله لهم اختاروا منكم ملكين لأنزلهما إلى الأرض فأركب فيهما الشهوة وأنا أقول لكم إنهما لن يصبرا عن الشهوات فاختارا (هاروت وماروت) فنزلا وصارا قاضيين يحكمان بالعدل وعند المساء يصعدان إلى السماء وحضرت لهما امرأة فارسية يقال لها زهرة تشكو زوجها فأعجبا بها وطلبا منها شيئا فقالت لاحتى تشربا الخمر لأنها خيرتهما بين الخمر وعبادة الصنم فرضيا بالخمر لأنه أهون فوقعا فى الزنا ولما رآهما رجل قتلاه خوف الفضيحة فلم يقدرا بعد ذلك على الصعود إلى السماء وعذبهما الله إلى يوم القيامة فى (بابل) .

هذه الرواية مثل سابقتيها لاسيما الأولى . فانظر كيف كانت هذه الروايات كلها ترجع إلى أن الملائكة أو الآلهة فى عرفهم هى التى تفتن بالنساء وتحصل وقائع للملائكة أو للآلهة كوقائع الملوك الأرضية مع الرعية ونسائهم الجميلات .

هذه [ثلاثة أمثال] من أمثال الأمم التى أشار لها الله وهى فى نحواها كالقرآن من حيث تحريم الخمر والانصراف إلى اللعب وإن اختلطت بأهواء القوم من حيث العقائد الزائغة كما سأوضحه قريبا وإنما ذكرتها هنا لمناسبة قوله تعالى «وكلا ضربنا له الأمثال» فالمذكور هنا يدلنا على نوع الأمثال وسرها وكلها راجعات إلى تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس البشرية وإن كانت محرفة فان الإنسان إذا سمع أن العابد فى القصة الاولى فتنته حوراء مرسلة له من الجنة ثم ندم بعد معاشرتها مئات الأيام وهو فى حال الاستغراق فى جمالها ثم ندم بعد ذلك ، وإذا علم أن لعب (النرد) قد أزال ملك ملك من ملوك الهند ولم يرجع له ذلك إلا بعد العناء . وإذا علم أن نفس الملائكة الطاهرين قد فتنتهم الدنيا فانه إذ ذاك يعتبر ويحترس . هذه من نوع الأمثال التى كان يضربها الناس اتباعا لما جاء فى دياناتهم وإن أزاغ عقائدهم وكانوا بها يصلحون أممهم . أما عندنا فهذا ممنوع منعا باتا . ذلك لأن ديننا يسد طريق الفساد . ذلك أن هذه وإن كانت أمثالا قد يظنها الجهلة أنها

حقائق وبتمادي الزمان تصير عقائد للعموم فيقولون إن الملائكة يعصون الله وهو كفر أو أن هناك فى السماء آلهة وهذا كفر فسد الله هذا الباب منعا للشر والجهل فى العقائد . ولما كانت الأمثال لايعقلها جميع الناس قال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (بكسر اللام) إشارة إلى أن أكثر الناس جهال لايعقلون أن هذا ضرب أمثال وحقيقة ممتنعة والذى يعرف المقصود منها إنما هم العلماء ودين الإسلام للعلماء وللجهلاء . فإذا رأيت بعض المفسرين نقل أمثال هذا فى تفسيره فاعلم أنه اتبع فى ذلك الحديث الشريف «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ولما كان الناس يحملون هذا على الحقيقة لاعلى المجاز أخذوا يذمون تلك الروايات ونسبوا للمفسرين التخريف فى القرآن وماهم بمخرفين إلا اذا اعتقدوا صحة هذه الروايات على لفظها ، فأما المغزى فهو للتهذيب . واعجب ثم اعجب لهذه الروايات الثلاث كيف دلتنا على آراء الأمم الهندية والمصرية والبابلية وأن آراءها متشابهة فبهذا تعرف سير تلك الأمم وأمثالها وتفهم معنى قوله تعالى « وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا » وإنما تبرهم لأنهم حرفوا فى نفس الأمثال ومن عجب أن يوبخ الله أهل مكة وأمثالهم فيقول «ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا » يوبخ الله أمة الدعوة ناعيا عليهم عدم اعتبارهم بتلك القرية التى أهلكت وهى بطريقهم هكذا ينعى الله على المسلمين الحاليين مايرون من الأمم التى خربت بذنوب أهلها وتقصيرهم كأهل الأندلس من المسلمين ، وكأهل أمريكا الأصليين ، وكما يرون من الذل فى مصر والشام وبعض بلاد العرب فهؤلاء مكبلون فى الذل أفلا يعتبرون فيحترسوا من التقصير ؟ فاذا قال قائل نحن مؤمنون فنقول له « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

ومما يؤسف له أن الأمم الغربية اتخذت الروايات الأدبية بابا لرقيها كما فعل الألمان إذ ألف أحدهم فى القرن التاسع عشر (رواية وردة) التى تعرف آداب قدماء المصريين وحربهم قبل ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح فكانت هذه الرواية سبب النهوض الأدبى فى (ألمانيا) والمسلمون لايفكرون فى الأمم ولا الدول ولا الممالك ولا يثيرون العزائم والهمم ولا يفكرون فى قوله تعالى «وذكرهم بأيام الله» أليس هذه هى أيام الله تعالى وهى ماصنعه بالأمم أمة بعد أمة . اللهم إن القرآن نزل لرقى الأمم ، وإذا رأينا الله يذكر لقمان عليه السلام ويسمى سورة باسمه ويقول «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » فليس معنى هذا أن الحكمة خاصة بلقمان فلا نقرأ إلا حكمته . كلا . فان الله يقول «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» ولم يخصص القول بقول علماء الاسلام ولا لقمان . وقال فى آية أخرى «يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولوا الألباب» فالحكمة ليست خاصة بلقمان بل هى نور من الله نستضىء به من أى حكيم ، فالمسلم يقرأ كل حكمة وكل علم . هذا تمام المقال فى قوله تعالى «وكلا ضربنا له الأمثال» الخ . انتهى صباح الثلاثاء ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ الإنسان فى هذه الأرض كتاب لايدرسه ويعقله إلا المفكرون ﴾

لقد خيل إلىّ هذا الإنسان وهيكله المنصوب وقد أشرقت النجوم ليلا والشمس نهارا على الأرض وأضاءتها وازدهرت بالمزارع والأنهار والحيوان وانتظمت الأحوال وعمرت الأرض وأشرقت بنور ربها فبرز هذا الكتاب ليقرأه المفكرون ويدرسه المستبصرون . هذا الهيكل أمره عجب . تراه قد جعل منار الحكمة والعلم والفضائل والرذائل فانظر ماذا ترى ؟

(١) ترى طعاما يزدرده فيهضمه فيكون الدم فينتظم الجسم انتظاما .

(٢) وما بقى من هذا الطعام بعد الذى حول إلى دم يصير فضلة غليظة أو رقيقة فينزل على الأرض

فيكون سمادا لزرعنا وتحيا به أرضنا ، فتبارك الله الذي لم يضيع من الوجود شيئا، فالذي بقي ولا منفعة له في أجسامنا بعد الهضم رجع إلى الأرض حتى يحول فيها إلى طعام آخر تهضمه كرة أخرى فما أشبه هذا الطعام الذي لم يصلح دما في أجسامنا ، ونزل سمادا بالتلميذ بقي في فصله سنة أخرى حتى يحقق دروسه ثم يرتقي إلى أعلى في الدراسة العلمية ، ثم إن هذه الفضلة منزلتها أسفل فلذلك خرجت من السبيلين أسفل هذا الهيكل المنصوب .

(٣) أما الدم الذي استخرج من هذا الطعام المهضوم، فانه يدور دورته في الجسم كما تراه مرسوما موضحا في (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » هو يدور في الجسم كما يدور الماء سوء بسواء فهو يخرج من البحر بخارا ثم يكون سحابا ثم مطرا فأنهارا ثم يجري إلى البحر كرة أخرى وذلك ليحدث في البحر على طول الأزمان والآماد وآلاف السنين قارة أخرى ينشئها في قاع البحر سنة فسنة حتى تظهر تلك القارة بعد مئات آلاف السنين . هذه حال الماء فهو يدور ليحدث قارة على أقل تقدير إذا ترك مهملا . وهذه القارة لا تظهر إلا بعد الآماد الطوال لا في الحال ولكن هذه الأنهار في حال دورتها كدورة الدم في الجسم لها آثار أخرى حالا فهي تسقي الزرع وتدر الضرع ويكون الإنسان والحيوان وأنواع النبات ويكون ذلك أتم إذا جعلت للنهر سدود وحبوس فهناك ترى العمران أتم والنظام أكمل كما ترى في نيل مصر وغيره من الأنهار التي نظمها نوع الإنسان .

(٤) فلينظر إذن في دم الإنسان ماذا فعل ؟ رأيناه يدور كما يدور الماء في الجو والأرض وفي أثناء دورانه في الجسم يغذي الأعضاء المختلفة كما يفعل مثل ذلك الماء في الأرض ، ثم نرى الدم من جهة أخرى قد حصلت منه فضلة وتلك الفضلة أعدت لايجاد هيكل آخر كهذا الهيكل الإنساني ومثله أكثر الحيوانات في ذلك . إن الإنسان يكون من دمه تلك الفضلة المنوية ليكون منها إنسان آخر كأكثر الحيوان كما رأينا الأنهار تخلف منها في البحر طبقات ستكون قارة على مدى الزمان تشبه القارة التي يجري فيها الماء، أو تخلفها بعد حين إذا استدار الزمان وتغيرت الأحوال .

(٥) لم تكن الذكورة والأنوثة في الإنسان والحيوان شرطا لبقاء النوع . كلا . إن بقاء النوع قد يكون بالانقسام أو بغيره وقد تكون الولادة بلا أب كما تقدم في (المحار) في البحار ، وذلك مشروح في أول سورة مريم) بمناسبة ذكرها وذكر عيسى . لعمر الله لم يكن الذكران والإناث شرطا في الذرية . كلا ، فما هي مسألة المسيح التي فتحت لنا باب (المحار) فرأينا الأنثى تلد الآلاف بلا ذكر وهكذا تلك الحشرة التي رأيتها جيتي تفقس بالأشجار وقد ذكرتها في أول (سورة الأنفال) موضحة أيما إيضاح فهذه قد تقوم الأنثى فيها مقام الذكر فلا تحتاج إليه وتبيض آلاف البيض الذي لا يرى إلا بالمنظار المعظم فانقسام الإنسان وأكثر الحيوان إلى ذكر وأنثى ليس ضروريا للتناسل ولكن هي الحكمة العظمى ، والآية الكبرى في التكوين قضت الارتقاء فكان الذكران وكانت الإناث .

(٦) هنالك تجلى لنا هذا الإنسان بمنظر بهيج فظهرت الذكورة والأنوثة على مسرح الوجود وهنا تجلى العمل الإلهي والإبداع والجمال فكان العشق والنقش والتصوير والشعر والموسيقى وتغريد الطير وعلوم القضاء في سائر الأمم بين النساء والرجال وأحكام العقد والطلاق والنفقات وقصائد الشعر وروايات الحب والغرام وكثير وعزة وقيس ولبنى وتوبة وليلى . ثم كان هناك الزهاد والرهبان والمجاهدة لكبح جماح هذه الشهوة فخففت فذكت العقول وحفظت العلوم وظهر العباد وهنالك علوم أيضا وعلوم فهذه الشهوة بإرسالها كانت علوم في الفقه والطب ونحوهما وبحبسها كانت علوم التصوف والعبادة وهكذا .

لايكاد الإنسان يشعر بقوة الشباب حتى يشعر كل من الصنفين الذكور والإناث بالحاجة للآخر فاذا بحصل تبتهج النفوس وتشرق الوجوه وتخاط الملابس وتنفق تجارتها وتعمر الأسواق ويكثر الشارون والبائعون وتنصب الزينات ، وحتى الذكران والنساء بأجسامهما وينسقون ملابسهما ويفقهون دروسهما وينظمون الأشعار ويؤلفون الروايات ويتصفون بالفضائل وتقام المراسح وما أصل هذا كله إلا أمر واحد هو الذرية .

أصل هذا الحب وهذا الغرام وهذا الجمال وهذا النقش وهذا التصوير وهذا الغناء وهذه الموسيقى وهذا الشعر . كل ذلك لأصل واحد هو التناسل .

فاعجب لتناسل جاء بغير أب ولا حب فى (الحمار) قد أصبح فى نحو الانسان مبدأ لكل زينة وجمال وشعر وتصوير له ألفت كتب الفقه فى النفقات ونصبت المحاكم وبنيت السجون للمذنبين من الرجال الذين لاينفقون وقام القضاء فى الديانات من مسيحيين ووثنيين ويهود ومسلمين وقد ألفوا كتبا لذلك .

عجب لهذا الإنسان ولهذا الوجود . ترى له نفسا داخلا وخارجا لاصلاح الدم ثم هو نفسه يكون فى أثناء ذلك مبدأ الكلام . النفس إنما جعل لاصلاح الدم ولكن الحكمة عظيمة جدا، فقد جعلت له حكمة أخرى وهى الكلام وفهم العلوم هكذا هنا التناسل أمره سهل لايحتاج لذكور ولكن بخلق الذكور والإناث ظهرت علوم وصناعات وقضاة وحب وغرام وشرائع وديانات . جل الله وجل العلم . أصل تفرعت منه فروع شتى كما تفرعت المادة إلى كواكب وشموس وأقمار وهى عناصر محدودة معلومة .

(٧) بعد ذلك تعالى الانسان وتعالى وأخذ يبحث فى العالم العلوى ونظر فى أمر الملائكة وأخذ يتخيل الملائكة والأرباب وأنزلهم جميعا إلى حظيرة الإنسانية ، فماذا قال ؟ قال إنهم جميعا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويعشقون ويحاربون ويهلكون الأعداء .

الإنسان يقيس كل شىء على نفسه فلما رأى أنه هو أحب وعشق وحارب قال إن الآلهة تحب وتعشق وتحارب هذا هو السبب فى ضرب الأمثال فى الروايات الهندية السابقة والبابلية . إن الإنسان قديما لم يعقل الإله إلا كما يعقل نفسه . إن العشق الذى بين الذكور والإناث الذى خلق لأجل التناسل قد جعل وسيلة لاتساع دائرة الوجدان والعقل ولارتقاء الإنسان عن هذا المستوى الحيوانى ولذلك قال العلماء [الحب ثلاث درجات: دنيا وهو الحب المعتاد ، ووسطى وهو حب العلوم ، وحب أعلى وهو حب الله تعالى] إذن الذكورة والأنوثة فى الحيوان التى ليست ضرورية للتناسل قد جعلت سببا لارتقاء الانسان درجات بعضها فوق بعض فى العلم وفى حب الله .

(٨) قلنا إن الإنسان الأول لم يعقل الله إلا على مقدار عقله وعواطفه حبا وعشقا وحربا واستبدادا ولذلك لاتجد أمة من الأمم السالفة إلا والحرب من طباع دينها . الآلهة عندهم محاربون آكلون شاربون متزوجون عاشقون والدون فيقولون الأب والابن ولكن جاء الإسلام فقال . كلا . ثم كلا .

أيتها الانسانية قفى قفى . يا محمد قل لهم « الله أحد » فلا كثرة فى الألوهية « الله الصمد » فلا جوف له فإذن لادم له وبناء عليه لا يلد كما قال « لم يلد ولم يولد » فلا زوجة ولا حب ولا عشق ولا غرام . إياكم أن تقيسوه عليكم . فأما الحرب فإنه لايحارب « ولم يكن له » أى وليس له « كفوا أحد » فبهذه السورة ضاعت الروايات المتقدمة وغيرها وتجلت الرحمة واستعد الانسان حديثا إلى التعاون تدريجا . وهنالك يظهر إنسان جديد لايعبد ذلك الإله العاشق المحارب الذى يلد ويشارك البشر ، يلد عيسى كما يلد ملوك اليابان ونحوهم ولا يحارب بل هو رحمن رحيم . فإذا لم يكن الإله محاربا فمن الذى يقلده الإنسان . إن الناس قديما أغرموا بالحرب لأن أرباب الديانات القديمة وصفوا أربابهم بالمحاربة والقرآن أمر بالحرب « حتى تضع أوزارها » ومتى وضعت

أوزارها يكف السلم عن الحرب، وهنالك لا يجد ذلك الإله المحارب بل الإله الرحمن الرحيم الموصوف بالقدس والسلام. اختفت تلك الروايات الحربية الغرامية وستحل محلها الروايات التي تحدث عواطف الرحمة وانتشال الضعفاء وارتقاء الشعوب. إن القرآن جاء في مقدمة أمم ستكون أرقى من هذه الأمم يجدون لهم ربا لا يأكل ولا يشرب ولا يتزوج ولا يلد ولا يغالبه أحد بل هو الغالب وإذن يكف الناس عن الحرب والضرب لأنهم سيكونون أمة واحدة وأسرة واحدة يربي بعضهم بعضا ويعطف بعضهم على بعض وهذا قوله تعالى « وكلا ضربنا له الأمثال » على ألسنة الأنبياء فزين للقوم الشيطان أعمالهم فأتوا بأمثال غير أمثال أنبيائهم. وأنزلوا الدين على حسب عقولهم فتبرناهم تتبيرا. والدليل على ذلك تلك القرية التي أمطرت مطر السوء وهم يمرون عليها ولا يعتبرون بها كأنهم لم يروها وإذا رأوك يا محمد استهزءوا بك لأن ما جئت به لا يلائم ما تلقفوه عن آبائهم فاعتبروا الحق ضلالا وتمادوا في غوايتهم وجروا عليها. إن هؤلاء لم يعبدوا إلا أهواءهم. إن أكثر هؤلاء عطلوا أسماعهم وأبطلوا عقولهم بل ما هم إلا كالأنعام بل الأنعام خير منهم. انظر إلى الظلال كيف نمدها وكيف نقبضها وكيف كانت آثار الشمس المشرقة المنظمة السير التي جعلناها دليلا على الظل فإنها أضاءت بنورها تركت آثارا من الظلال تابعة لها مدا وانقباضا وطولا وقصرا بحيث يتبع حساب الظل حساب سير الشمس صباحا ومساء ثم إنا نسلخ النهار من الليل فيكون الظلام وذلك أن أضواء الشمس تكسو الجو ووجه الأرض بنورها فلما مالت إلى الغروب سلخنا ذلك وبقي الظلام على حاله فنام الناس وكان الليل لباسهم ساترا لأجسامهم واستراحوا بنومهم فإذا طلع النهار نشرناهم في الأرض لطلب الرزق الخ.

هذا ملخص المعنى من قوله تعالى هنا « وكلا ضربنا له الأمثال » إلى قوله « وجعل النهار نشورا » ذكرته بمناسبة ضرب أمثال القدماء الذين أنزلوا الديانات على حسب عقولهم وجاء الاسلام مغيرا وجهة نظر الإنسانية إلى سبيل تؤدي إلى المحبة والاخاء واتحاد الأمم والصفاء العام والرحمة التي اتصف بها الخالق وسيتخذها الناس لهم نبراسا فالله واحد ورحيم والناس سيتحدون ويتراحمون و « الحمد لله رب العالمين » الرحمن الرحيم » الذي لا يحارب ولا يعشق « مالك يوم الدين » وحده. إذن فمن ذا يحاربه؟ فله العبادة وبه الاستعانة والهداية.

ومن الأمثال عند القدماء ما جاء من الحكم في نصائح (بتاح حتب) من علماء المصريين القدماء قلنها « لا يحملنك علمك على التكبر واستقم مع الجاهل والعالم لأن الباب لم يغلق دون الفن ولا نال أستاذ ما يدعيه من الكمال لنفسه » ومنها « ما أعظم العدل الثابت الأركان الذي لم يكدر صفوه منذ أمد قديم ».

ومن ذلك ما ظهر من الروايات أيام ارتقاء هؤلاء القدماء منهم في الأسرة الثانية عشرة واتصالهم بالأمم المجاورة لهم مثل لبنان وسوريا والصومال والنوبة وجزيرة كريد. فقد كانت إذ ذاك عندهم هذه القصة (قصة البحري الغريق) ذلك أنه ركب سفينة كبيرة فيها (١٥٠) ملاحا من نخبة المصريين الذين امتازوا بالشجاعة كالأسود فبينما هم جادون في الاقتراب من البر إذ اشتدت الرياح وارتفعت الأمواج من كل جانب فغرقت السفينة وهلك من فيها أما هو فألقته موجة على جزيرة فوجد فيها ما يقتات به وسمع صوتا كصوت الرعد إذا هو ثعبان مبين يقترب منه طوله (٣٠) ذراعا وطول لحيته ذراعان وجسمه كالذهب وبعد محادثة قص عليه البحري قصته فأكرمه الثعبان وبقي معه مدة مكرما ثم حضرت سفينة حملته إلى بلاده ثم إن الجزيرة بعد أن غادرها رجعت لجة بحر. واعجب من أن هذه القصة أشبه بقصة (السندباد البحري) التي لخصتها لك في أول (سورة يوسف) وكذلك تشبه قصة (حي بن يقظان) التي ذكرتها في (سورة البقرة) عند قوله تعالى « وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » وما قبلها من الآيات. وتشبه أيضا رواية

(روبنسون كروزوا) الانجليزية التى نسجت على منوال رواية (حى بن يقظان) وتشبه ما جاء فى كتاب (ألف ليلة وليلة) من أن ابن ملك مصرى قد ادخر له أبوه حلة فيها صورة فتاة جميلة وجعلها فى خزانة وأقفلها ولم يأذن بأن ابنه يراها لصغر سنه ولكن هذا الابن اطلع عليها بواسطة الخازن سرا فوجد صورة الفتاة مرسومة فى حلة من الحرير الأخضر جميلة جمالا فائقا وأنها صورة بنت ملك الجان فأخذ يسعى وسافر مع جند من جند أبيه وساروا فى السفن فى البحار وهلكوا إلا هو ودخل جزائر كثيرة وقاسى أنواع العذاب ثم وجد ابنة ملك الجان ونال مراده ورجع بها إلى أبيه سالما غانما بعد ما قارب الموت .

فهذه الروايات والقصص يتبع بعضها بعضا وقد ألقاها الله على قلوب الأمم . فانظر كيف اتصلت القصص من أيام قدماء المصريين وتشابهت الأمثال عند قدماء المصريين وعند الأمم الاسلامية والإنجليزية . إذن الله مع كل الأمم ومع كل أحد « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » فهو لم يدع أمة إلا ألهمها ووعظها على ألسنة أنبيائها وعلمائها ولم يهلك أمة إلا بعد ما أبان لها سبيل الرشاد .

ومن الأمثال المضروبة للأمم ما جاء عن الملك (حمورابى) عام سنة (٢١٠٠) ق م. فى مدينة (بابل) الذى هزم أهل (عيلام) سنة (٢١٠٠) ق م فى تلك المملكة وملك البلاد وقد عثر المؤرخون فى زماننا على خمس وخمسين رسالة من رسائل عماله وأهم ما عثروا عليه القوانين التى سنها فى زمانه وقد جمعها من قوانين أسلافه وسطرها على لوح من الحجر ورسم صورته فوقها وكأنه يتسلمها من الشمس التى كانوا يتقربون إليها وقد وجد هذا اللوح فى معبد قديم . واعلم أن الكشف الحديث كله مصداق لهذه الآية فالله ضرب الأمثال لكل أمة من الأمم « وما كنا عن الخلق غافلين ـ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » ألا ترى أنه علم أن الفأر مضطهد من الناس فلونه بالسواد ليشابه سواد الليل حتى لا يقع فريسة لأعدائه من الآدميين وغيرهم . وهو الذى لما أعطى الزنابير لونا براقا أعطاها سلاحا تدافع به عن نفسها ما يفاجئها من الطيور فلذلك صارت آمنة . وهو الذى أعطى السمك الذى فى قاع البحار هيئة جميلة عبقرية بهجة أشبه بما فى قاع البحار من الحشائش والأشجار البهجة والأزهار البهية ليختفى عن قاصديه بالأذى . انظر هذه العجائب فى أول (سورة المؤمنون) عند آية « وما كنا عن الخلق غافلين » هذه هى العناية الإلهية بالحيوانات فهكذا عنايته بالإنسان فهو سبحانه عدل وعدله شامل لم يترك أمة بدون مرشدين « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وهذا معنى اسمه الهادى ومعنى « إن ربى على صراط مستقيم » وبهذا تفهم آية « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فإن الإنسان ربما يخطر له أن الهداية خاصة بأمة فيقول فى نفسه إن تلك الأمم لاهداية عندها فيظن سوء للعاملة فبذكر الله ومعرفة نظامه تطمئن النفس وتعلم أن العدل جار مجراه فى كل أمة من الأمم وكل جيل من الأجيال وحيوان ونبات « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

﴿ اللطيفة الرابعة عشرة : فى قوله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » ﴾

لعلك عرفت أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثانى . ولعلك فهمت ما ذكرناه عن الحسن أن الآية واردة فى كل متبع هواه . وقال ابن عباس فى معنى الآية : أرأيت من ترك عبادة الله خالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندى ؟ ويقال أيضا : الهوى إله معبود . أفلا ترى أن أكثر الناس يعبدون هواهم . أفلا ترى أن الناس مغمورون فى هذا العالم الموزون المنظم الذى صنع بحكمة وهم فى أنفسهم إلى الآن لم يصلوا إلى تلك الحكمة فى أنفسهم بل هم للهوى عابدون أما صنع العالم من حكمة فإنهم يرون الأشجار والأوراق والأزهار والكواكب والنجوم والأقمار وأحسام

الإنسان والحيوان كلها مركبات بحكمة . أفلا يرون هذا كله ثم هم عن أنفسهم غافلون . ثم نظم الإنسان ما حوله وما أحاط به اتبع فى أكثره العقل والحكمة وهم عن أنفسهم فى غفلة جاهلون . انظر كيف وزن سير الشمس وحسبه بعلم الفلك والجداول الحسابية واتخذ له من المعادن ما يمثل له سيرها وبعض الناس صنع ساعة تبين سير الكواكب جميعها والساعات والدقائق والثوانى والسنين . كل ذلك حسن . وقد كال الناس الأحجام ووزنوا الأثقال وقاسوا الأطوال وضبطوا حساب ذلك كله بل إنهم فوق ذلك قاسوا علو ماء الأنهار ونقصها وحسبوا الضغط الجوى والرياح وسرعتها والأمطار ومقدارها على وجه الأرض ومقدار مائها بالوزن طول السنة أو الأشهر وقدروا سرعة القطرات الجارية على وجه الأرض وعرفوا مقدار الحرارة فى القطرات والكهرباء والنور والماء ووزنوا ذلك كله بما لا يفلت منه نقير ولا قطمير ولا كثير ولا قليل فالوزن عم كل شيء عند الناس مما قل وجل وعظم وصغر فلم يذر الحرارة والنور للطفهما ولا الفحم والحجر لثقلهما ولا الشمس والقمر لعظمهما بل تراهم ضبطوا أبعاد كل كوكب عرفوه وحجمه ووزنه والعناصر التى تركب منها بما رأوا بالمناظير المعظمة من ضروب أنواره وفنون أشعته التى تماثل الأشعة الناشئة من المعادن التى على الأرض والعناصر المعروفة فبهذه الأشعة الواردة إلى الأرض مع ضوء الشمس والكواكب أمكنهم معرفة العناصر وردوا كل شعاع إلى عنصره وبذلك عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس بل إنهم أدركوا أن عنصرا فى الأرض كشفوه فى عناصر الشمس قبل أن يكشفوه فى الأرض ثم وجدوه . كل ذلك عرفه الإنسان وعلمه وضبطه ولكنه مع هذا كله جهول فى أمر نفسه فهو مضيع لقواها وملكاتها مطير ذلك فى الآفاق ظانا أنه لا وزن لأقواله ولا لآرائه ولا لخطراته ولا لوثباته ولا لنظراته . كلا ومن فالق الحب والنوى « لا يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . فاذا كنت أيها الإنسان قد وزنت الضوء وحسبته ووزنت الحرارة الجوية وحرارة جسمك بدرجات فعرفت الصحة والمرض بها وعرفت كل طائر يطير وحيوان يسير وكوكب يجرى ورسمت ذلك فى جداولك ؟ فهل تظن أن نفسك التى هى أرقى وأعلى من كل ما ترى وما تسمع مهملة الحساب ليس لها كتاب . وإذا كنت ترى أن لكل شيء ميزانا فلنفسك ميزان فى داخل جسمك كما للكهرباء وللضوء وللحرارة وللماء ميزان يزنها وأنت لا تشعر وهذا الميزان بين جوانحك تظهر لك ثمراته ولا تعرف إلا علاماته . فكل كلمة تقولها ونظرة تنظرها وفكرة لك خاطرة ترفع نفسك أو تخفضها والتجاريب تملك والتهذيب يريك . ألم تر أنك إذا أمسكت عن الكلام فيما لا يعنيك أياما وغادرت ما تعتاده من ذلك أمدا طويلا وجدت النفوس إليك مائلة والعقول نحوك متجهة لأن ميزان عقلك ارتقى درجات فأحست نفوسهم بما لديك وشعرت بما ارتقيت وما ذلك إلا أنك أعرضت عن كل مالا فائدة منه ولم تطع هواك وتركت القول الذى فيه الافتخار والحديث عن نفسك فحفظت فى النفس آثارها وأبقيت فيها أنوارها فجذبت النفوس إليها وأزمتها العطف عليها فحنت إليها وهى ساكنة وعطفت عليها وهى ساكنة وأصبحت نفسك أشبه ببرج الحمام حفظت فيه آراء كادت تطير فجذبت سواها من أمثالها وهى تسير كما قدمناه فى هذا التفسير ، ولا يعلمك صدق هذا القول إلا التجاريب . فاحفظ لنفسك آراءها واكتم فيها أخبارها بضعة أيام ولا تتظاهر بما لديك من المفاخر تجد النفوس حنت إليك والقلوب عطفت عليك . فأما إذا مزقت حجابها وهتكت ستارها وأزحت خمارها فان كل امرىء يقول مالها فتصبح ألعوبة فى يد الجماهير .

هذا مثل ضربته لك فى اتباع الهوى وعبادته وكيف يصبح الناس عبيده إذا أطاعوه . وإذا كانوا عبيدا

للهوى

للهوى فانهم إليه يذلون . فأما من ملك هواه فقد علمت ماذا من العز جناه . أفلست ترى أن هذا يجمعنا قوله تعالى فى أول السورة «وخلق كل شىء فقدره تقديرا» وقوله «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم»

أفلست ترى أن الذى أطلق العنان للسانه أو لبصره أو لجنانه فتكلم بلا استبصار ونظر لغير اختبار وتفكر فيما ليس له اختبار قد عبد هواه وأى فرق فى العبادة بين هذا وبين من صنع التمثال فاتخذه معبودا فالأول سلم حواسه وعقله لهواه والثانى أبرز من هواه صورة وسلم لها قيادة فى العبادة فسمينا الأول فاسقا وسمينا الثانى كافرا وهما فى شرعة الجهل سيان صنوان لا يفترقان ، غاية الأمر أن الأول ضل فى الفروع والثانى ضل فى الأصول ولكن الضلال عمهما والجهل لازمهما . كل ذلك لأن أعمال النفس اليوم موزونة كما وزنت الأمور المحيطة بها ونتائج الزنة ترسم على جبينها وتظهر فى أحوالها وأخلاقها وآدابها ومعاشرتها «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» .

﴿ الإنسان اليوم أكثره فى جهالة كما قال الله تعالى «إن الإنسان لظلوم كفار» ﴾

إذا أردت أن تعرف ما عليه الإنسان اليوم فى الكرة الأرضية وتفهم حقيقة الناس فى الأمم الشرقية والغربية فاقرأ كتابى [أين الإنسان] الذى ألفته وأرسلته إلى مؤتمر الأجناس فى انكلترا وجعل فى جملة المقررات الرسمية وهذا الكتاب قدم لها فى سنة ١٩١١ قبل الحرب العامة بنحو ثلاث سنين وأبنت فيه أن الدول كلها يغالب بعضها بعضا وقد ضاعت قواها العقلية كما أضاعت الأنهار ماءها فى البحر الملح لا يلوى ماؤها على المزارع والرياض والبساتين إلا قليلا وأكثرها ينصب فى البحر بلا فائدة هكذا عقول الناس تذهب هباء منثورا فى الهباء مع الهواء وجهل الناس أنهم أعضاء جسم واحد وأنهم لو اتحدوا لاستخرجوا ما فى الطبيعة من علم وما فى الأرض من حكمة وما فى البحار من عجائب ولكنهم خائبون خائنون لبعضهم فهم يدبرون المكايد لبعضهم فتضيع القوى والملكات فيما لا فائدة فيه وهم بذلك ضائعون تائهون صم بكم عمى فهم لا يفقهون .

إنما مثل القوى الإنسانية والعقول البشرية اليوم كمثل البخار وكمثل الكهرباء ، كان الناس قديما يرونهما ولا يلتفتون إليهما فعقلوا اليوم فائدتهما وانتفعوا بهما . فأما العقل الانسانى اليوم فانه مهجور متروك منبوذ مجهول يضيعه الناس فى الحيل السياسية والأخلاق الأسدية والحروب الدولية ولو أنهم اجتمعوا فحاربوا به الطبيعة وكانت تلك الحيل لاستخراج كنوز الأرض لأصبح الناس فى نعمة وهم سعداء . ذلك هو تفسير قوله تعالى «أرأيت من اتخذ إلهه هواه» وأشباهها من الآيات . فهذه هى عبادة الهوى وكيف يكون الهوى إلها معبودا ويظهر أن أهل الأرض مخلوقون ليرتقوا فى العالم الذى بعده لأن أهواءهم اليوم غالبة والعقول سيكون لها السلطان شيئا فشيئا كما نرى الشيوخ أقرب إلى التعقل من الشبان لغلبة الهوى على الآخرين . انتهى .

﴿ اللطيفة الخامسة عشرة : فى قوله تعالى «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» ﴾

هذه اللطيفة مفهومة من سوابقها . انتهى الكلام على المقصد الأول من (سورة الفرقان)

(المقصد الثاني)

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا • ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا • وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا • وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا • لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا • وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا • وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا • فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا • وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا • وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا • وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا • وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا • قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا • وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا • الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا • وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا • تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا • وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

(التفسير اللفظي)

قال تعالى (ألم تر إلى ربك) ألم تنظر إلى صنعه (كيف مد الظل) بسطه فعم الأرض من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس فلا هو ظلمة الليل ولا هو وقت إشراق الشمس (ولو شاء لجعله ساكنا) دائما لا يزول ولا تذهب الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) فان الأشياء تستبين بأضدادها ولولا الشمس ماعرف الظل (ثم قبضناه إلينا) أخذنا ذلك الظل الممدود إلى حيث أردنا (قبضا يسيرا) سهلا غير عسير أو قليلا قليلا جزءا فجزءا بسبب ضوء الشمس الذي ينسخه (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) جعل الظلام كاللباس فان

كلا منهما ساتر لما أحاط به (والنوم سباتا) راحة لأبدانكم وقطعا لأعمالكم وأصل السبت القطع ويطلق على الموت لأنه يشبه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت وقال تعالى «وهو الذى يتوفاكم بالليل» (وجعل النهار نشورا) وهو فى مقابلة الموت المذكور فى أحد المعنيين السابقين فكأنه سبحانه يقول جعلنا سباتكم أى موتكم بالنوم فى الليل وجعلنا نشوركم أى انبعاثكم من النوم الذى يشبه الموت بالنهار ففيه ينشر الخلق للمعاش كما ينشرون بعد الموت للحساب ، قال لقمان لابنه [كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر] فالنوم واليقظة نموذج للموت والنشور (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) البشر جمع مخفف بشر بالضم جمع بشور بمعنى مبشر أى مبشرات باقدام المطر ، وقرىء «نشرا» أى ناشرات للسحاب جمع نشور وهو إما على وزن فعل مخففا وإما على وزن سحب جمع سحاب (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) أى بليغا فى طهارته وهو فى اللغة إما اسم لما يتطهر به كالضوء لما يتوضأ به والوقود لما توقد به النار وإما صفة كما ذكرناه هنا وإما مصدر بمعنى التطهر تقول تطهرت طهورا حسنا، وقال عليه الصلاة والسلام (لا صلاة إلا بطهور) بفتح الطاء أى بطهارة وأما قول ثعلب : انه ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره ، وهو مذهب الشافعى فذلك زيادة بيان للطهارة وليس هذا معنى الطهور لأنه لازم وصيغة المبالغة من اللازم لازمة فطهور لايفيد التطهر لأن اللازم لا يفيد معنى المتعدى (لنحيي به بلدة ميتا) أى لنحيى بالمطر بلدا أو مكانا لانبات فيه فنجعله مزدانا بالشجر والنبات والأزهار والأثمار وذلك للأرض أشبه بالحياة للانسان والحيوان (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) أى ونسق الماء أنعاما وهى البهائم وأناسى مما خلقنا وسقى وأسقى لغتان ، قال الشاعر :

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال

والأناسى جمع إنسى كالكراسى جمع كرسى أو جمع إنسان وأصله أناسين كسرحان وسراحين فأبدلت النون ياء وأدغمت الياء فى الياء ، يقول الله أنزلنا الماء فأحيينا به الأرض للنبات وخلقنا الأنعام لتأكل النبات وتشرب الماء، وخلقناكم لتشربوا الماء وتأكلوا النبات والأنعام وهذا المعنى يفيده ترتيب الذكر فقدم الأرض ثم الأنعام ثم أخر الإنسان لاحتياجه إلى ماتقدمه (ولقد صرفناه بينهم) أى صرفنا المطر بين الناس مرة ببلدة ومرة بأخرى وجعله ثلجا أو بردا ومطرا أو مخزونا فى باطن الجبال ينزل شيئا فشيئا لمد الأنهار على طول السنة وجاريا فى نهر ونازلا فى بحر وبخارا مرتفعا من البحر الملح وغيره وسحابا تصرفه الرياح وإذا صار ثلجا كبر حجمه وإذا كبر الحجم كان سببا لتكسير الأحجار القائمة فوق فيكون من ذلك العيون النابعات ويفتح الماء لنفسه طريقا إلى الخارج ويكون فى مجارى تحت الأرض إما فى غورها البعيد كالنيل الباطن الذى يخرج من جبال القمر وراء خط الاستواء ويمر فى مجارى تحت الأرض المصرية جاريا إلى البحر الأبيض وهذا النيل صالح للشرب لصفاء مائه وإما فى غورها القريب كالماء المعدنى الذى يستخرجه الناس لسقى أرضهم بالنواعير والسواقى والآلات الرافعة فإن ذلك الماء مخلوط بمعادن قد اتصف بأوصافها كالكبريت والملح والفضة والنوشادر وماأشبه ذلك والناس يسقون منه زرعهم ويستشفون به ونحو ذلك . أما الذى فى الغور البعيد فهو بعيد المنال جدا يحتاج إلى عمق يصل إلى (١٠٠) متر أو (١٥٠) أو نحو ذلك وماؤه يرتفع أكثر من القسم الثانى لأنه ينزل من مكان أعلى وراء خط الاستواء فى مكان ينزل منه النيل الظاهر الذى لا يصح شرب مائه إلا بتصفيته وفى بعض الأيام يجب غليه لقتل مافيه من المواد الضارة . فهذا كله داخل فى قوله تعالى «ولقدصرفناه بينهم» فهو جامد يشبه الحجر وسائل يشبه الزيت وسائر المائعات وجسم بخارى يشبه الهواء وهو غاد رائح فى الجو وفى النهر وفى الغدران وفى أجسام الحيوان والنبات والإنسان ومنفصل عنها سائر فى الجو طائر فى السحاب وهكذا دواليك وهو مع ذلك فى البحار صقيل يظهر فيه كل كوكب من شمس وقمر والناس يتطهرون

ويشربون وهم غافلون عن جماله فيتركون قلوبهم حجرية وهم يتطهرون كل يوم من المياه الحسنة الأشكال البهجة الزينة والمنظر المعطية للأجسام حياة وطهارة . يقول الله ولقد صرفنا المطر بين الناس على أنحاء شتى فلا يمر ساعة ولا ليل ولا نهار إلا كان لنا فيه آثار فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين بحيث يتبع أحوال الجو والشمس التي تجرى بحسب ماترى في الحس ويكون هناك صيف وشتاء وربيع وخريف وفي كل ذلك أطوار شتى للمطر والشتاء عند قوم صيف عند آخرين وهكذا الربيع والخريف في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي فنحن صرفنا المطر بينهم كما صرفنا الليل والنهار فالشمس جارية من عند قوم ذاهبة لآخرين . هكذا المطر والسحاب «صنع الله الذي أتقن كل شيء» . فعلنا كل ذلك التصريف (ليذكروا) ليتذكروا ويتفكروا (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أو صرفناه بينهم ليعتبروا أو يعرفوا حق النعمة فيشكروا فأبى أكثرهم إلا كفر النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) نبيا ينذر أهلها فتخف عليك أعباء النبوة ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ماأعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة (فلا تطع الكافرين) فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم (وجاهدهم به) بالقرآن (جهادا كبيرا) شديدا (وهو الذي مرج البحرين) فلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لايمازجان من مرج دابته إذا خلاها (هذا عذب فرات) قاطع للعطش من فرط عذوبته (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة أو من مالح زعاق لايصلح لقطع العطش بالشرب منه (وجعل بينهما برزخا) حاجزا من قدرة الله تعالى (وحجرا محجورا) وتنافرا بليغا أو سترا ممنوعا فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب (وهو الذي خلق من الماء بشرا) جعله جزءا من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويقبل الأشكال والهيئات بسهولة أو من النطفة (فجعله نسبا وصهرا) أي فجعله ذا نسب وصهر، والنسب مالايحل نكاحه والصهر مايحل نكاحه وقد حرم بالنسب سبعا وبالسبب سبعا وجمعهما قوله تعالى «حرمت عليكم أمهاتكم» الآية فارجع إليها في سورة النساء ، أو قسمه قسمين : ذوى نسب وهم الذكور ينسبون إليه وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن كقوله تعالى «فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى» (وكان ربك قديرا) إذ خلق من مادة واحدة بشرا عجيب الصنع بديع الخلقة (ويعبدون من دون ... مالا ينفعهم ولا يضرهم) يعني الأصنام وكل ماعبدوه فليست تنفعهم إن عبدوها ولا تضرهم إن تركوها (وكان الكافر على ربه ظهيرا) مظاهرا ومعينا على معصية ربه فهو يعاون الشيطان على معصية الرحمن (وما أرسلناك إلا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) منذرا للكافرين (قل ماأسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة المأخوذ من قوله «مبشرا ونذيرا» (من أجر إلا من شاء) إلا فعل من شاء (أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أى أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعات وهذا من أحسن الأساليب التي جاءت في علم البديع كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

يصف الشاعر الممدوحين بأنهم لاعيب فيهم إلا عيبا واحدا وهو أن سيوفهم مفلولة من مقارعة الأبطال هكذا يقول لاأسألكم عليه أجرا إلا شيئا واحدا وهو أنكم تتقربون إلى الله فهذا هو أجرى وإذا كان هذا هو أجره فهو دليل على غاية الاخلاص والصدق في الدعوى وذلك دليل على أن السعادة القصوى أن يكون العمل محبوبا لذاته لا لغاية أخرى فكأنه جمال . وإذا كان الجمال مطلوبا لذاته فهو خير مطلوب فالنبوة لتكميل الخلق فأجرها لايكون عرضا دنيويا بل سعادة النبوة في نفس النبوة أى في نتائجها ، والأنبياء بالنسبة للناس كالآباء بالنسبة للأبناء فالأب لايطلب من تعلم ابنه إلا رقي ابنه وسعادته هكذا لايطلب اللائق من الناس ولا الأنبياء من الأمم والحكماء ولا العلماء المخلصون إلا هداية الناس ويرون في نفوسهم لذة لاتضارعها

المدة ولا يفرحون بمال ولا بعقار . ومن هذا الحديث الشريف «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» وهذا كلام إذا سمعه صغار أهل العلم ظنوا أن المقصود ثواب الآخرة وحده وما دروا أن مثل ذلك يستلذ بإيمان رجل أكثر مما يستلذ بحمر النعم فلا تنظر يا محمد إلى ما عندهم من مال ليعطوك أجرا ولا تخف من شرهم فلاهم رازقوك ولاهم مؤذوك مادمت قائما بهدايتهم فنحن نعطيك مايكفيك ونكفيك شر من يؤذيك وتفعل ذلك مع كل من هو على طريقك سائر وهذا معنى قوله (وتوكل على الحى الذى لايموت) فأما الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكلت عليه منهم (وسبح) نزهه عن صفات النقصان (بحمده) مثنيا عليه بأوصاف الكمال طالبا مزيد الإنعام بالشكر على سوابقها ومن صفات النقصان التى ينزه عنها أن يكل إلى غيره من توكل عليه (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى كفى الله خبيرا بذنوب عباده فهو خبير بأحوالهم كاف فى جزاء أعمالهم (الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد تقدم الكلام على هذا فيما سبق موضحا يحرض الله بهذا عباده على التوكل عليه إذا قاموا بما وجب عليهم من الدقة فى العمل والثبات فيه ليقوم على الوجه الأحسن فاذا فعلوا ذلك فليتوكلوا على الله فى نتائجه وليفرحوا بما يجىء به القدر لأنه هو الحسن كما أن خلق السموات والأرض حسن . فخلق السموات والأرض فى ستة أيام والاستواء على العرش عبارة عن النظام البديع وإدارة شئون الملك الموضح فى سورة (يونس وهود) فمن تخلق بأخلاق الله على قدر طاقته البشرية فى الأعمال الأرضية من الأفراد والأمم فهو حرى أن يتوكل على الله والله كافيه لأنه لايضيع أجر من أحسن عملا وأتقن صنعا وقوله (الرحمن) فاعل استوى وقوله (فاسأل به خبيرا) أى فاسأل عما ذكر من خلق السموات والأرض فى ستة أيام واستواء الرحمن على العرش وعن الرحمن عالما يخبرك بحقيقته لأن خلق السموات والأرض فى ستة أيام معناه أمر غير مايفهمه العامة لأن اليوم يطلق على ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر من ذلك . والاستواء على العرش ليس معناه الجلوس عليه فذلك مستحيل بل هو يفهم مما ذكرناه هناك فى سورة (يونس وهود) فليس كل امرىء يعرف ذلك فليبحث الناس فى العلم وليجدوا فى البحث ولا يقفوا عند ظاهر اللفظ فالضلال فى الوقوف فمن كان جاهلا فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث فى معناه ومن كان ذكيا فعليه بالبحث والدراسة بسؤال العلماء فان العلماء إذا قرءوا مثل هذا فهموا غير مايفهمه العامة . وأيضا كان القوم لايعرفون الرحمن فان هذا الإسم المشتق من الرحمة الذى هو أبلغ من الرحيم لم يكونوا يعتادونه بل يعرفون الرحيم والراحم والرحوم . ولما كانت هذه الأمور الثلاثة تحتاج إلى العلماء بالعلوم المختلفة كعلم الارتماطيقى حتى يعرف لم اختص عدد الستة بالذكر مع أن العوالم خلقت فى آلاف آلاف آلاف الآلاف فلم اختار عدد (٦) وكالعلوم جميعها من فلكية وطبيعية حتى يعلم كيف يكون الاستواء بطريق الاجمال وكعلم اللغة العربية والاطلاع الواسع فيها حتى يعرف الرحمن .

ولما كان الأمران الأولان قد تقدم بحثهما فى (يونس وهود) وغيرهما من هذا التفسير ـ وسنزيد الأول منهما بحثا وتنقيبا فى لطائف هذا المقصد إن شاء الله ـ لم يبق إلا الثالث الذى ذكره الله تعالى بقوله (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن) اخضعوا له (قالوا وما الرحمن) أى لانعرف الرحمن فنسجد له بل نعرف الراحم والرحيم وأما الرحمن فليس يطلق عندنا على الله . فهذا سؤال عن المسمى به لأنهم ماكانوا يعرفونه بهذا الاسم أو سؤال عن معناه لأنه لم يكن مستعملا فى كلامهم (أنسجد لما تأمرنا) أى أنسجد للذى تأمرنا بالسجود له أو لأمرك بالسجود يامحمد من غير علم منا به (وزادهم) قوله « اسجدوا للرحمن » (نفورا) تباعدا عن الإيمان ولما كان الرحمن مشتقا من الرحمة وهو أبلغ من الرحيم أردف ماتقدم ببهجة رحمته ونور جماله وسعة ملكه ليعرف معنى الرحمن ، فقال (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) البروج فى اللغة القصور العالية أو القصور

فيها الحرس . وهى هنا بما البروج الاثناعشر وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وإما النجوم الكبار التى عدها المتقدمون نحو ألف وعدها المتأخرون أكثر من مائتى ألف ألف . وإنما سميت البروج المتقدمة بهذا الاسم لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها. واشتقاق البروج من التبرج لظهورها (وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) أى شمسا متوقدة وقمرا مضيئا (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه عند مضيه والخلفة فعلة من خلف كالركبة من ركب وهى الحالة التى يخلف فيها كل واحد منهما الآخر : أى جعلهما ذوى خلفة وقوله (لمن أراد أن يذكر) متعلق بقوله «جعل» أى لمن أراد أن يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه (أو أراد شكورا) أى شكر نعمة ربه عليه فيهما . انتهى التفسير اللفظى لمقصد الثانى وهنا [أربع لطائف] :

(١) فى قوله «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» .

(٢) وفى قوله «وأنزلنا من السماء ماء طهورا» إلى قوله «وكان ربك قديرا» .

(٣) وفى قوله «الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام» .

(٤) وفى قوله «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا» الخ .

﴿ اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » ﴾

تقدم مبحث الظلال مطولا مستوفى فى السور المتقدمة قبل سورة الكهف فلننظرها نظرا آخر فنقول :

انظر أيها الذكى نظرة أوسع مما كتبناه وتأمل فى هذه الدنيا . إنك لا تجد فيها إلا نورا على نور كما تقدم فى (سورة النور) إذ جاء فيها « الله نور السموات والأرض » ثم ضرب المثل هناك فأنت إذا تأملت لا تجد فى هذه الدنيا ظلالا وظلاما إلا قليلا جدا . ألا ترى أن الكواكب العظيمة المشرقة التى بلغت مئات الملايين كلها مضيئة بأنفسها لاظل لها بل هى مشرقة ليلا ونهارا لا انتهاء لنورها ، وإذا أردت أن تعرف جميع الشموس فانظر شمسنا هل تظلم ليلا أو نهارا . لاظلام لاظلام . فاذا كانت شمسنا على صغر حجمها بالنسبة للشموس الأخرى لا تطفأ فما بالك بالشموس الكبيرات التى شمسنا بالنسبة لها صغيرة فثبت أن الكون نور فى نور ولا ظلمة فيه اللهم إلا ظلا قليلا وما هو ؟ هو ظل الأرض التى نسكنها . واعلم أن الأجرام على [ثلاثة أقسام] أجرام مضيئة وأجرام معتمة وأجرام شفافة . فالأجرام المضيئة هى هذه الشموس فالعالم كله نور كما قلنا والأجرام المظلمة المعتمة هى الأرض التى نحن عليها والقمر الذى يجرى حولها وما شابه هذين الجرمين من كل سيار يجرى حول الشمس وقد أصبح متجمدا كتجمد الأرض سواء أكان فيه سكان كما فى أرضنا أم خلا من السكان كما فى قمرنا الذى يقال إنه قد خرب بعد أن كان يصلح للسكنى ، ويقال بطريق القياس إن حول الشموس الأخرى سيارات كأرضنا وأقمارها وكلها فى الحكم كما فى سياراتنا فلنرجع إلى أرضنا وقمرنا فانا نجد أن الشمس متى أشرقت على وجه الأرض أضاءت وكان هذا نهارا ويكون الجانب الآخر ليلا ولامعنى لليل إلا أن الشمس حجبت عن وجه من الأرض فأصبح مظلما . هذا معنى الليل . ومعنى النهار أن تتجه الأرض إلى الشمس بالوجه الآخر فالليل ماهو إلا ظل الأرض والنهار ماهو إلا ضوء الشمس وهكذا للقمر ليل ونهار كذلك ومن ظله يكون كسوف الشمس لأنه يحجب ضوءها عنا فيقال كسفت الشمس . ولا معنى لخسوف القمر إلا وقوعه فى ظل الأرض المخروطى ويكون ذلك فى أنصاف الشهور لوقوع الأرض وقت الاستقبال بينهما ، فأما الكسوف فانه يكون فى أواخر الشهور لوقوع القمر بين الأرض والشمس . إذا فهمت هذا عرفت قوله تعالى « ألم تر إلى ربك » أى إلى صنعه وعجائبه وإتقان فعله « كيف مد الظل »

وراء الأرض من الناحية الأخرى المخالفة للناحية المقابلة للشمس . ومعلوم أن الدنيا كلها نور فى نور لأن هذه الكواكب كلها نور مشرقات . وإذا كانت هناك سيارات لشموس الأخرى فهى فى جانب الشموس منسية لاتذكر ولا تؤثر ظلالها، فالدنيا كلها نور لأن « الله نور السموات والأرض » .

يقول الله تعجب أيها العبد من صنع ربك كيف ابتدع أجراما قليلة جدا كالأرض وجعلها معتمة بسبب برودة ظواهرها وبهذه العتمة صار لها ظل من ورائها ولولا ذلك ما كان فى هذا العالم ظلال يستريح الناس فيها ولا لهم وقت مناسب للنوم فيه . ولو كانت الأرض شفافة كالهواء، وكالزجاج وكالماس وأشباهها لم يكن لها ظل ، فالله هو الذى اخترع الأجسام المظلمة رحمة منه ليكون لها ظل فيكون الليل والنهار وفى النهار تختلف الظلال اختلافا كثيرا بسير الشمس ، فالله لما خلق الشمس مثلا جعل الهواء، وجعل الجسم الأثيرى الذى فوق الهواء شفافين وجعل الأرض معتمة، فالشفاف واسطة لوصول الضوء، والمعتم يمنعه فيكون ظلام الليل والظلال الأخرى النهارية . ثم إن الأرض لو كانت ساكنة وكان وجهها المحاذى للشمس ثابتا لايتحرك لم يكن ليل ونهار ولم تكن هناك رحمة بالناس والحيوان تامة لذلك أعقبه بقوله «ثم جعلنا الشمس عليه دليلا» فان ضوء الشمس بحسب الظاهر ينتقل فيكون نور الشمس ناسخا لظلمة الأرض بحيث يكور الله كل واحد على الآخر فقوله «ثم جعلنا الشمس عليه دليلا» حكمة أخرى غير حكمة الظل فالظل نعمة وتغيره نعمة أخرى، والمراد بالظل على هذا المعنى مايعم الظلام الدامس وقوله «ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا» متمم لما قبله لأنه بنسخ الشمس الظل يكون التدريج فيه وهو معنى «قبضناه إلينا قبضا يسيرا» انتهت اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى «وأنزلنا من السماء ماء طهورا» ﴾

اعلم أن هذه الآية وتركيبها من أعجب العجب فان لفظ «طهورا» هنا كقوله تعالى فى (سورة الحجر) «وأرسلنا الرياح لواقح» كلاهما وضع رمزا لعلوم واسعة ولكن أكثر الناس عنها معرضون . وبيانه أن قوله «وأرسلنا الرياح» إنما نزلت فى مقام الامتنان بإرسال الرياح وإنزال الماء من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها فقوله «لواقح» جاءت كمفتاح لعلم لقاح النبات . وإذا كنت اطلعت على ما كتبناه فى كتبنا أو ماجاء فى (سورة الحجر) فى التفسير هناك . أقول إذا اطلعت عليه هناك رأيت عجبا عجابا فى بدائع صنع الله تعالى من الإلقاح ولولا هذه الكلمة لم يكن لذكر ذلك فى التفسير معنى، وعلم اللقاح أهم مافى علم النبات لأن عدد الأوراق فى الزهرات التى فيها أعضاء الذكور وأعضاء الإناث عليها مدار تقسيم هذا العلم . هكذا هنا فان الله امتن على العباد بانزال الماء من السماء، وذكر هذه اللفظة وهى «طهورا» مع أن المقام مقام النعمة بسقى الأرض به وإخراج النبات وسقى الحيوان والانسان . فأما الطهار فليس المقام لها فإذن يقال إن الماء أنزله الله لحياة الأرض والنبات والحيوان والإنسان ولنظافة الانسان وثوبه ومكانه ، فالماء لحياتنا ولنظافتنا . هذا ملخص مايفهم من الآية . فالله عز وجل له علينا المنة ، إذ جعل الماء حياة لنا ولزرعنا ولحيواننا وطهارة لنا ، ولا جرم أن طهارة الظاهر تتبع طهارة الباطن فلا خير فى ظاهر لايتبعه الباطن . إن الله عز وجل جعل الماء شفافا تسطع فيه الكواكب والشمس والقمر فلو رأيته فى الليالى المظلمة لألفيت الكواكب فيه مرسومة فالماء يحيينا وينظفنا وإذا نظرنا اليه وجدنا جوهره يسع العالم الذى تقابله فهو مرآة للعوالم المقابلة له . الماء يكون بخارا ويكون سحابا ويكون ضبابا وثلجا وبردا كما تقدم . يقول الله «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » بم كفر الناس ؟ كفروا النعمة لأن الماء لو أنهم فهموه وفقهوه لكان فيه للناس غنية ولكان كافيا لهم ولكنهم كفروا النعمة . نظروا إلى الماء من حيث إنه حياتهم وإن كانوا متدينين نظرو اليه من حيث به نظافة أجسامهم ولكن أكثر الناس كافرون بحقائقه فانحطت نفوسهم إلى الدرك الأسفل . ألم ير الناس

إلى إشراق الكواكب فيه وأنها مرسومة . أليس هذا نبراسا لهم عسى أن يتذكروا أن أنفس الناس يجب أن تكون مشرقة ترسم فيها العلوم كما ارتسمت الكواكب فى الماء . الروح ألطف من الماء والماء وسع الكواكب ؟ فلماذا لا يفهم الناس من هذا أن تشرق نفوسهم بالعلوم وبالحكمة وبالأخلاق وبالفقه كما أشرق هذا الماء بالكواكب وظهرت فيه ورسمت فى خلاله . هذا كتاب كتبه الله بيده فى الطبيعة وقال « ولقد صرفناه بينهم » وقال فى القرآن « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » ولكنه شدد هنا فقال «فأبى أكثر الناس إلا كفورا » . هنا يقول الله « صرفناه » وفى القرآن يقول الله « صرفنا » وفى الماء يقول « فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » فكأن الماء كتاب وكأن الذى لا يفهمه ولا يعمل بما فيه « كفور » . فهذا الماء صاف شفاف كما قدمنا بحسب طبعه وهو يسع الكواكب المقابلة له كما قدمنا . هكذا فلتكن قلوب الناس خالية من المعاصى والمطامع فتشرق عليها العلوم . ومن أظلمت نفسه بالظلم والذنوب لم يشرق فيها العلم كما لا تظهر صور النجوم فى الماء الكدر . وأيضاً إن النظر فى أمر الماء يدل على بقاء الأرواح فاذا كان الصفاء والكدر فى الماء يختلفان من حيث قبول انطباع الصور وعدم قبولها كما يحصل فى أرواحنا هكذا يكون تصريف الماء حرارة وبرودة إذ يكون سائلا وبخارا وثلجا ، فاذا كان داخلا فى أجسام الناس والحيوان والنبات فإنه يكون سببا فى الحياة كما أن الأرواح فى الأجسام كذلك وإذا خرج من الأجسام بالبخر صار بخارا كما تخرج الأرواح بالموت إلى عالم آخر وكما أن البخار يرجع فيصير سحابا فينزل مطرا على اليابسة فيدخل الأجسام ثانيا هكذا أرواحنا خروجها من أجسامنا لا يمنع بقاءها ورجوعها ثانياً إلى عالم الحياة . فاذا كان خروج الماء من أجسامنا بصفة بخار لم يدل على أن الماء فنى ، بل إنما هو صار بخارا والبخار لم يفن بل هو موجود فعلا ويرجع ماء وهكذا فالله تعالى بهذا التصريف يفهمنا أن الماء لم يفن بل الماء من آدم إلى اليوم وإلى أن تفنى الدنيا هو هو لم يتغير ، فالماء الآن هو الماء إلى يوم تفنى الأرض هو الماء الذى كان منذ مئات الألوف من السنين وهو المطر وهو البخار وهو الأنهر وهو الذى يرجع إلى البحر الملح وهو الذى يكون بخارا وفناؤه سيكون يوم تفنى الأرض فليس تحت الشمس من جديد ، فالماء الذى شربه أجدادنا هو الماء الذى نشربه أو نظيره ولكن ذلك لم يفن ، فإما أن يكون هذا منه وإما أن يكون ذلك قد رجع إلى البحر وهو فيه إلى الآن وسيرجع بخارا يوما ما ، هذا ملخص المعنى . فإذا كانت هذه حال الماء الذى هو مركب من أكسوجين وأدروجين ، فما بالك بأرواحنا التى لا تركيب فيها . إن الحكماء قرروا أن الجسم كلما كان أكثر تركيبا كان أسرع انحلالا وكلما قل تركيبه عسر انحلاله وطال أمد وجوده . ألا ترى الأشجار فإنها أسرع انحلالا من الأحجار لأن الأحجار أقل تركيبا من الأشجار فالماء أولى لأنه أقل تركيبا إذ هو مركب من الأكسوجين والأدروجين ولا انحلال لهما إلا فى أيام خراب الأرض وتبديلها أو بتحليله فى المعامل الكيمائية وهذا لأن الماء قليل التركيب بخلاف النبات والحيوان والإنسان فالروح التى لا تركيب فيها لا فناء لها .

فإذن يكون فى تصريف الماء عبرة لنا وهى بقاء أرواحنا بعد الموت والصفاء فى نفوسنا المرموز له بصفاء الماء وهذا من أهم أغراض الرسالة ، فالرسالة إنما جعلها الله لتهذيب الأرواح وتذكيرها بمعادها ورجوعها إلى عالم الأجسام كرة أخرى وهو يوم القيامة ولذلك ذكر بعد ذلك قوله تعالى « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا » وذلك لتذكير الناس بما يصرف الله فى القرآن وما يصرف فى الماء وفى غيرها لتصفو نفوسهم ويعلو كعبهم فى الحكمة والعلم . هذه هى المناسبة الداعية لذكر الرسالة مع الماء ، وأيضا الرسالة والعلم حياة النفوس والماء حياة للأجسام .

(زيادة كشف وإيضاح)

﴿ إتقان الصنعة من موجبات دوامها : إما بأن تبقى هى أو بأن يتجدد أمثالها ﴾

اعلم أن اقتران ذكر الماء والتصرف فيه بقوله تعالى « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا » داع للبحث والتفكر والموازنة بين القرآن وبين الماء وكذلك الإنسان . فهاهو ذا بعد أن ذكر ذلك بين كيف يتصرف فى الماء بقوله « مرج البحرين » الخ وكيف يتصرف فى الإنسان فقال « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا » الخ . فههنا قرآن وماء وإنسان تصرف فيها كلها . ولقد رأيت كيف تصرف فى الماء فيما كتبناه ههنا وأزيد عليه بأن أشير إلى ما تقدم فى (سورة الأنعام) من التصرف فيه بالإشراق والنور . ذلك أن هذا الماء المذكور فى هذه الآية يكون مشرقا مضيئا جميلا سواء أكان فى الأقطار الاستوائية أم فى القطبية . ألا تعجب معى كيف ذوب الله فيه مادة الفوسفور كما تقدم فى الأنعام . ذوبها من الحيوانات التى تموت فى البحر من حيواناته . فلما أذاب الفوسفور اتقد نورا وظهر على هيئة شهب وذوات أذناب وقوس قزح وظهر وبهر وجمل وكانت له أشكال باهرة مختلطة مزدوجة يراها المسافرون فى البحر . ألا تعجب معى كيف كان ذلك أيضا فى القطبين ماذا فعل الله هناك . الجو هناك بارد والبرد جعل الماء ثلجا . فانظر ماذا ترى . ترى الثلج إذا أشرق عليه نور الشمس أو ضوء الصباح هناك يلمع ويكون من لمعانه أنوار وبهجة لا تقل فى تقلباتها عما فى بحار خط الاستواء . هذه هى الصنعة المتقنة . تفنن وتفنن وإتقان وإتقان وأنوار وأنوار . لم يحجب ذلك حر مفرط ولا برد شديد . ففى كليهما لم يعدم وسيلة يبهر بها العقول ويحسن بها الأشكال فى الماء فضلا عما تقدم من أنواع الصور والأحوال . هذا هو الماء وهذه تصرفاته المذكورة فى الآية فانظر فى أمر القرآن تره قد اشتمل على حكم ومواعظ وأخبار وأحكام وأمثال ووعد ووعيد وأنواع من البديع وتفنن فى القول وحسن التعبير فدام على مدى الزمان ، دام هذا الوجود لحسن إتقانه . ودام هذا القرآن لحسن إتقانه فهذه الدنيا وهذا الوجود كان دوامهما لحسن الإتقان فى الصنعة كما ترى فى الماء وهكذا القرآن . واعلم أن الكتب يكون دوامها على حسب حسن التفنن والاتقان فيها فعلى مقدار تفننها وإتقانها تدوم كما دام الماء ونظام الوجود لحسن التفنن :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

بقى علينا أن ننظر فى أمر الإنسان فنرى نظامه فيه ذلك التفنن كما رأيت فى نظام الماء . الماء يكون ممزوجا بالنبات مختلطا بجسم الحيوان يدور فى دورة كل منهما وهو بخار وماء وثلج إلى آخر ما تقدم وهو شىء واحد هكذا هذا الإنسان ترى له روحا واحدة ومن عجب أنها هكذا :

مخيلة	فى مقدم الدماغ	متكلمة	باللسان أيضا
مفكرة	فى أوسطه	ماضغة	بالأسنان
ذاكرة	فى مؤخره	هاضمة	بالمعدة
حافظة	فى مؤخره	مجرية الدم	بالشرايين
كاتبة	باليد	مصفية الدم	بالرئة
ناظرة	بالعين	موزعة الدم	بالقلب

سامعة	بالأذن	طابخة الجسم	بالكبد ونحوه
باطشة	باليد أيضا	حافظة القلب وما حوله	بالضلوع
ماشية	بالرجل	حافظة الماء	بالكلية
ذائقة	باللسان	مخرجة الفضلات	بالسبيلين وهكذا

فالنفس واحدة وهى الفاعلة الأفعال المختلفة فى كل عضو بحسبه ، فهى تنزل على حسب الآلات ، فهى فى الدماغ عقل وفكر وخيال وذكر وحفظ وهى فى الحواس سمع ونظر الخ . وفى الدائرة الغذائية هاضمة وفى الدوائر التنفسية مصفية ومدخلة الأكسوجين ومخرجة الكربون فمن هذا عرفنا حسن النظام فى الماء وفى الإنسان وفى القرآن : هـذا قوله تعالى « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » وقوله « مرج البحرين » وقوله « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا » الخ .

إن دوام الأشياء على مقتضى حسن إتقانها . فأمثال الهرم بالبلاد المصرية بقاؤه لحسن الصنعة وكذا الماء والكواكب وأمثال القرآن كذلك . أما مثل الحيوان والنبات لحسن إتقانهما كان سببا فى تجدد الأشخاص ، لحسن الإتقان فى النظام كان سببا فى تجدد هذه الأشخاص وقتا بعد وقت والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » ﴾

اعلم أنى لما وصلت إلى هذه اللطيفة قال لى أحد الفضلاء ، وقد اطلع على ما سبق ذكره فى سور مختلفة كسورة يونس وهود وغيرها وقرأ ما كتبته على قوله « استوى على العرش » وعلى ما ذكرته فى قوله تعالى « فى ستة أيام » فقال إن ما ذكرته هناك لاغبار عليه ولكن لا يزال فى النفس شىء مما قلته فى ذكر « ستة أيام » ومعلوم أن السموات والأرض لم يصنعها الله إلا فى ملايين اللايين من السنين وإذا كانت الأرض لم يتم صنعها إلا فى مئات اللايين فما بالك ببقية العوالم كالشمس وتوابعها . وإذا كانت الطبقة الصوانية التى هى فوق الكرة النارية التى هى عبارة عن باطن الأرض لم تكون على رأى بعض العلماء إلا فى نحو ثلثمائة مليون سنة فما بالك ببقية الطبقات . فإذن مسألة الأيام الستة لاجرم أنها مدد عظيمة . هذا هو الذى يؤخذ مما تذكره فى هذا التفسير . إنما الذى يهمنى الآن أن أعرف لم اختار عدد (٦) ولم لم يقل عدد آخر مع أنه لو قال أى عدد لصح لأنها أزمان طويلة فتتقدر بأى عدد . فقلت اعلم أن الجواب على هذا لايعرف إلا بعلم الارثماطيقى وهذا العلم هو أصل جميع العلوم الرياضية وهذا الفن قد كتبت مجمله فى كتابى [الفلسفة] التى جمعت فيه سبعة عشر علما هى مجموع العلوم التى كان يقرؤها القدماء فى الحكمة والمقام لايسع التفصيل ولكن أذكره هنا مجملا لتعرف لم اختير عدد (٦) فى التوراة والقرآن ومتى عرفت ماسأذكره لك استفدت سبب اختيار الستة فاعلم أن العدد كله مركب من الواحد لأن إضافة واحد إلى واحد يكون اثنين والاثنان أول العدد لأن العدد يشعر بالتعدد ولا تعدد فى الواحد ، فالواحد خاص بالمبدإ الأول الذى منه كل الوجود والاثنان أول العدد والثلاثة أول العدد الفرد وجميع الأعداد لا تخلو من الزوج والفرد . إذن هى قسمان : أزواج وأفراد . فإذا أضفت إلى واحد ٢ و ٢ و ٢ و ٢ وهكذا تكونت عندك الأعداد الفردية كلها إلى مالانهاية لها . وإذا أضفت إلى اثنين ٢ و ٢ و ٢ تكونت الأزواج كلها . وإذا نظرت فى هذين النوعين رأيت عجبا . رأيت جميع الأفراد وهى ٣ و ٥ و ٧ و ٩ و ١١ وهكذا إلى مالا يتناهى لا تخلو من ﴿ أمرين ﴾ إما أن تكون أعدادا أولية أى صماء لا تنقسم لأنها ليست من ضرب عدد فى عدد آخر مثل عدد ٥ و ٧ و ١١ وإما مركبة من ضرب أعداد كلها فردية ولا دخل لعدد زوجى فيها ألبتة مثل ٩ و ١٥ و ٢١ و ٢٥ و ٢٧ وهكذا فإن هذه كلها مركبة من أعداد فردية ، فهذه هى الأعداد الفردية من أولية وغير أولية . أما الأعداد الزوجية فإنها جميعا يمكن تحصيلها

من عدد ٢ وضربه فى كل عدد بعده، فإن ٢ إذا ضربت فى ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ الخ أحدثت الأعداد الزوجية ٦ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ و ١٦ وهكذا إلى ما لايتناهى . هذه هى الأعداد كلها وهكذا حكمها زوجية وفردية والفردية إما أولية وإما غير أولية وغير الأولية لا تكون إلا من الفردية وضربها فى بعضها . أما الزوجية فإنها كلها مركبة من ضرب (٢) فى كل عدد بعدها إلى مالا نهاية له .

إذا فهمت ذلك فاعلم أن العدد الزوجى والعدد الفردى جميعا ينقسم إلى (ثلاثة أقسام) : إما زائد وإما ناقص وإما كامل، فالزائد مثل عدد ١٢ وهو عدد يزيد مجموع مضاريبه عنه . فمضاريب ١٢ هى ١ – ٢ – ٣ – ٤ – ٦ والمجموع ١٦ وهى أكثر من (١٢) والعدد الناقص هو ما نقصت مجموع مضاريبه عنه وذلك مثل عدد (٨) لأن مضاريبه (١ – ٢ – ٤) وهذه عددها (٧) وهى أنقص من (٨) والعدد الكامل هو ما يساوى جميع مضاريبه وذلك مثل العدد (٦) فإن مضاريبه هى ١ و ٢ و ٣ التى مجموعها (٦) وكذلك عدد (٢٨) فهو عدد كامل لأن مجموع مضاريبه وهى (١ و ٢ و ٤ و ٧ و ١٤) هو عدد (٢٨) .

وهكذا قد توصل العلماء بقاعدة المتوالية الزوجية وهى المتوالية الهندسية التى أسها (٢) وحدها الأول ٢ مع تكرار حدها الثانى وهو (٤) أن يستخرجوا الأعداد الكاملة التى هى قليلة العدد بحيث تكون فى الأحاد العشرة عددا واحدا وفى العشرات كلها عددا واحدا وفى المئات كلها عددا واحدا وفى عشرة الآلاف الأولى عددا واحدا ومن عشرة الآلاف إلى مائة الألف لاشىء منه فيها . وهكذا رأى العلماء أن العدد الكامل نادر جدا، وهاك جدوله :

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦
٥٣٦٨٥٤٥٢٨
٨٥٨٩٨٦٩٠٥٦
١٣٧٤٣٨٦٩١٣٢٨
٢١٩٩٠٢٢٢٠٦٩٧٦
٣٥١٨٤٣٦٧٨٩٤٥٢٨
٥٦٢٩٤٩٩٣٦٦٤٤٠٩٦
٩٠٠٧١٩٩١٨٧٦٣٢١٢٨
١٤٤١١١٥١٨٧٨٠٧٤٢٠٤٨٦
٢٣٠٥٨٤٣٠٠٨١٣٩٩٥٢١٢٨
٣٦٨٩٣٤٨٨١٤٣١٢٤١٣٥٩٣٦

فترى فى هذا الجدول أنه من (١) إلى (١٠) لا يوجد إلا عدد كامل واحد وكذلك من (١٠) إلى (١٠٠) ومن (١٠٠) إلى (١٠٠٠) ومن (١٠٠٠) إلى (١٠٠٠٠) ومع هذه القلة لايصح اطراد القاعدة فلا نقول إنه من (١٠٠٠٠) إلى (١٠٠ر٠٠٠) تقريبا أو من هذا إلى واحد مليون يوجد عدد كامل لما ظهر من هذا الجدول أنه من (١٠٠٠٠) إلى (٨٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠) ونحوها لا يوجد إلا عدد كامل واحد ولذلك قال أحد علماء الرياضة كما قال أستاذنا المرحوم على باشا مبارك وهو صادق فى المقال [إن فى ندرة الأعداد الكاملة إيماء لندرة وجود الكمال] انتهى المقصود من العدد الكامل فى علم الارثماطيق .

أفلا ترى أيها الذكى أن عدد (٦) فى القرآن وفى التوراة فى خلق السموات والأرض يراد به التنبيه على أول عدد كامل والعدد الكامل كما علمت عزيز الوجود . كيف لا وها أنت ذا لم تر فى الأعداد من (١) إلى مليونين عددا كاملا إلا خمسة أعداد وليس فى الأعداد من (١) إلى (٣٣) مليونا ونصف مليون إلا هذا العدد وستة أعداد معه كما رأيت . ولا شك أن سبعة فى ٣٣ مليونا ونصف مليون تعتبر نادرة جدا جدا . فنبه الله به على أنه لما خلقه فى ستة أيام راعى

أكمل الوجود وأتمه بحيث إنه اختار من أنواع الوجود ماهو أكمل ولا ريب أن صور الوجودات لا نهاية لها فاذا خلقها الله على هذا النمط فهو أحسن وأجمل الأنماط والإشارة لذلك بلفظة (٦) التي هي عدد كامل فهو يشير إلى الكمال المطلق في الوجود المعبر عنه بقول الحكماء [ليس في الإمكان أبدع مما كان] فإذا اختار في التعبير أكمل الأعداد وأولها في الكمال فلابد أن يكون اختار في خلقه أكمل الأوضاع وأولها وأحسنها في الكمال وهذا هو معنى قوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » .

فقال صاحبي حسن ما تقول ولكن خبرني رعاك الله أليس يكتفى فيه بالآيات الواردة في حسن الخلق وجماله ومالنا ولهذا الرمز . قلت له على رسلك أيها الأستاذ اعلم أن هذا حسن في العدد وحسن العدد مطلوب كحسن المحسوسات ، قال فهل جاء هذا في القرآن ، قلت قال الله تعالى «والشفع والوتر» فأقسم الله بالشفع والوتر وهما جميع علم الارثماطيقي الذي هو أساس العلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وفلك وموسيقى فهي كلها مبنية على علم الارثماطيقي وهذا العلم راجع للزوج والفرد وهما المذكوران في الآية والله أقسم بهما ولا معنى للقسم إلا شرف المقسم به والمقسم به هو العدد وشرفه يقتضي البحث عنه من حيث دلالته على الإبداع والإتقان كالكواكب التي أقسم بها والشفق والشمس والقمر والنجوم ، فهكذا أقسم بالأعداد جميعها ، فاذا ظن المسلم أن الله لا يعتبر العدد فقد أخطأ من زعم ذلك وعليه يكون اختيار ستة أيام لهذه الحكمة العجيبة ولو لم يكن فيه سوى الحض على مزاولة هذا العلم الذي هو أس العلوم الرياضية لكفى . وإذا رأينا علماءنا رضي الله عنهم ألفوا الكتب الضخمة والأبواب الواسعة في تكفين الميت وغسله والصلاة عليه وفي الحيض والاستحاضة وفي الطلاق ، أمثالها ولذلك آيات في القرآن محدودات ؟ أفلا ينبغي أن يؤلف في علم الأعداد الذي أقسم الله به ما يضارع تلك الكتب . عجبا وألف عجب لأمة الاسلام ، أيجوز أيتها الأمة العريقة المجد الشريفة المنزع أن ينزل الكتاب علينا فتحفظون البعض وتنسون البعض .

أيجوز يا أمة محمد الذي هو خاتم الأنبياء أن تقفوا بالنوع الإنساني وقفة تزري بشرفكم . خبروني في أي آية أقسم الله بالحيض والنفاس . خبروني في أي سورة من القرآن أقسم الله بالدين وبالطلاق . خبروني في أي آية أقسم الله بالبيع وبالهبة وبالميراث وأنتم قد قمتم بما يطلبه الدين في هذه العلوم وأرضيتم الله وخلقه فما بالكم تعرضون عما أقسم به الله فقال «والفجر ، وليال عشر والشفع والوتر » وقال «والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها» وقال «والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى» وهكذا . هذه هي الأشياء العظيمة التي أقسم الله بها هل أقسم بها لتصدقوه . كلا . والله إنما أقسم بها ليحثكم على فهمها وإدراكها والتأليف فيها أكثر من التأليف في الأحكام الشرعية . علم الله أن أمة الإسلام ستكون عالة على الأمم فأنزل في القرآن هذه الأقسام وحرض أهل العلم على استخراجها وإظهارها للأمة ليقرأها اللاحقون كما قرأ الأحكام الشرعية السابقون وسيكون في هذه الأمة من يدرس العلوم كلها كما درست الشريعة سابقا ، سيكون في هذه الأمة من يقرأ «والشفع والوتر» ويقرأ علم العدد الزوجي والفردي ويعرف نظام الله في الأعداد التي هي سر الوجود

عجبا وألف عجب يقول (فيثاغورس) الفيلسوف [إن العدد أول الموجودات] ويقول الفلاسفة بعده [إن الحساب في الطبيعة دال على حاسب والحاسب هو الله] فكأن الفلاسفة عرفوا الله من طريق علم العدد ولذلك جعلوا الواحد دلالة على الله عز وجل .

﴿ حكاية ﴾

لما وفد الشعبي على ملك الروم من قبل عبد الملك بن مروان سأله سائل: منها كيف يتصور الانسان نعيا فى الآخرة لاينفد ؟ وكيف يكون نعيم يؤخذ منه ولا ينقص ؟ فهل لهذا مثال فى الدنيا . فقال نعم السراج يوقد منه ألف سراج فلا ينقص . فقال ملك الروم أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون هل لهذا نظير فى الدنيا ؟ فقال نعم الجنين فى بطن أمه لو أنه بال أو تغوط لقتلها . قال : الله واحد ليس قبله شيء فهل هذا معقول ؟ فقال نعم العدد أوله واحد وليس قبل الواحد شيء اه .

﴿ رؤيا منامية ﴾

اعلم أنى أيام أن تخرجت من مدرسة (دار العلوم) ووظفت مدرسا بالمدارس الأميرية كان اتجاه نفسى لما أنا فيه الآن وكان ذلك غالبا على فأخذت أفكر فى هذا الوجود وبينا أنا نائم ليلة إذا جماعة أشبه بقوم من بلاد الغرب يقرءون فى قصة أبى زيد الهلالى فوقفت بجانبهم ، فقال أحدهم : هل أنت تعرف هذه القصة فقلت نعم أعرفها ونظرت إليه نظر الذى لا يهتم . فقال عدد (١) إذا زدنا عليه ٢ و ٢ و ٢ و ٢ إلى مالانهاية له والجميع نسميه واحدا ؟ فهل هذا معقول . فقلت العدد الذى لا نهاية له ليس له اسم خاص فان مائة وألفا لها أسماء خاصة وأما الذى لا نهاية له فاسمه عدد لا غير فنسميه واحدا إذ لا تعدد يظهر فيه ، فالتفت إلى من حوله وقال (هو يفهم) فعجبت فى المنام كيف يعبر بهذا التعبير مع أنى أجبت إجابة تامة ، ولما استيقظت قابلت أستاذى المرحوم الشيخ حسنا الطويل وأخبرته بها ولم يكن لى إلمام بهذه المسألة ولا أمثالها ، فقال لى رحمه الله إن هذا الجواب تقريبى لأن الجواب على هذه المسألة مذكور فى الكتب وهو أن الأعداد كلها مركبة من الواحد فلولا الواحد لم تكن ، ومضت عشرات السنين ودخلت فى تأليف هذا التفسير فرجع الخاطر لى ثانيا وكان رجوعه قبل تفسير «فى ستة أيام» المذكورة فى الآية وكنت أعجب لماذا جاءنى هذا الخاطر ولماذا أرانى مفكرا فى الزوج والفرد ، ولماذا أفكر فى أن الأعداد الفردية إما أن تكون أولية مثل ٣ و٥ و٧ و١١ و١٣ و١٧ وإما أن تكون من أعداد فردية تضرب فى بعضها مثل عدد (٩) من (٣ فى ٣) وليس لعدد (٢) دخل فيها وهكذا (٢١) من (٧ فى ٣) وكذلك (٢٥) من (٥ فى ٥) و (٢٧) من (٣ فى ٩) وعدد (٣٥) من ضرب (٥ فى ٧) ونجد أن عدد (٥) إذا ضرب فى (٣) وفى ٥ و ٧ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٥ وهكذا أى أن عدد (٥) إذا ضرب فى عدد فردى بالتتابع مثل السؤال الذى ألقى على فانه ينتج ١٥ و ٢٥ و٣٥ و ٤٥ وهكذا ، فكل عدد فردى يضرب فى ٥ ينتج ٥ متبوعه بعدد العشرات وهكذا ، ولماذا أرى أنه يحدث فى نفسى أن عدد (٢) بضربه فى كل عدد بعده زوجى أو فردى ينتج عددا زوجيا أى أن الأعداد الزوجية كلها تنتج من ضرب (٢ فى ٢) و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ الذى هو عبارة عن ٤ و ٦ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ الخ .

فلما وصلت إلى قوله تعالى «فى ستة أيام» عرفت أن هذا الخاطر يقصد منه البحث فى علم الارتماطيقى واستخراج الأعداد الكاملة لإفادة الكمال الإلهى والتنبيه على أن علم العدد له مزية شريفة ، كيف لا والله يقول بعدها « هل فى ذلك قسم لذى حجر » . أقسم الله بالفجر والليالى العشر وبالشفع وبالوتر ثم قال « هل فى ذلك قسم لذى حجر » . فلماذا ذكر هذا الاستفهام التقريرى فى هذا المقام . يقول الله أترى أيها المخاطب أن هذا فيه قسم لصاحب العقل . لم يذكر الله هذا القول إلا فى هذا المقام . لم يقل الله ذلك إلا هنا مؤكدا ومبينا فضل المقسم به ولا فضل فيه إلا مافيه من جلال وجمال وحكمة وعلم فليس العدد والله معدودا وإنما هو

بما يهم ويعقل ، وانظر كيف يقول « هل فى ذلك قسم لذى حجر » أى عقل ليوقظ العقول الإسلامية لترقية العقول بعلم الحساب وأصوله . إن أفلاطون أبان فى جمهوريته أن رؤساء الجيش ورؤساء الأمة يجب أن يكونوا بارعين فى العلوم الرياضية لأنها علوم ترقى العقول البشرية وتجعل العقل علويا لأن الأعداد عارية عن العالم المادى فهى إلى عالم الأرواح أقرب ولذلك كرر الكلام على الأعداد والرياضيات بحيث تدرس سنين وسنين لرجال الجيش ورجال الحكومة، وإلى هذا نبه الله هنا فقال «لذى حجر» . ينبهنا إلى التعقل والفهم بدرس هذه العلوم . ثم أتى هنا بلفظ « ستة أيام » ليحير العقول وإنما يحيرها لتبحث وإذا بحثت علمت ذكر الأيام الستة ليقول الناس لم خص الستة ، ولم جعل العدد ستة . فاذا عرف الناس أن الستة هى أول الأعداد الكاملة ووجدوا الجدول كله تحت الستة أدركوا أن الأعداد منها ما هو كامل وهو نادر ومنها ماهو ناقص أو زائد وهما كثير ، عرفوا أن هناك علوما خفية ووجدوا فى العلوم أسرارا لانهاية لعددها وهناك يعرفون العددين المتحابين اللذين تألف كل منهما من مضاريب الآخر مثل عدد (٢٢٠) و (٢٨٤) فإن (٢٨٤) يساوى جميع مضاريب الآخر وهى (١ و٢ و٤ و٧١ و١٤٢) وكذلك (٢٢٠) يساوى مضاريب (٢٨٤) وهى (١و٢ و٤ و٥ و١٠ و١١ و٢٠ و٢٢ و٤٤ و٥٥ و١١٠) ولإيجاد الأعداد المتحابة رسموا قواعد بها استخرجوها كما استخرجوا الأعداد الكاملة بقواعد . واعلم أن قول القائل إن عدد (١) إذا زيد عليه ٢و٣ إلى ما لانهاية له ، ثم يقال له عدد واحد الخ والإجابة عليه بأنه واحد كما أجبت هذا الجواب حق فى علم ماوراء الطبيعة لأنهم قالوا إن الواحد مساو للموجود ، فكل ماصح أن يقال عليه موجود يصح أن يقال له واحد حتى أن الكثرة مع بعدها عن طباع الواحد يقال لها كثرة واحدة ، فعلم الإلهى ينظر فى الواحد وأقسامه والكثرة ولواحقها كما ينظر فى الوجود وأقسامه ولواحقه . وقد قسموا الموجود إلى المقولات العشرة ، وأيضا إلى القوة والفعل والقديم والمحدث والتام والناقص والعلة والمعلول ، وقسموا الواحد إلى واحد بالجنس وواحد بالنوع ووحد بالعرض وواحد بالمشاركة فى النسبة وواحد بالعدد إلى آخره . وعلى ذلك تكون الإجابة التى أجبت بها أن العدد الذى لانهاية له يقال له واحد صحيحة فى علم ماوراء الطبيعة لأن كل موجود كثيرا أو قليلا يطلق عليه اسم الواحد فالواحد مع الوجود أينما كان . وأيضا أن إضافة (٢) مكررة إلى واحد تنتج أعدادا كلها فردية إلى مالايتناهى فمهما كان العدد فهو واحد وأيضا هو فردى انتهى ما أردته فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

وأما اللطيفة الرابعة فهى مفهومة مما تقدم من سابق التفسير . وههنا جوهرتان : [الأولى] فى قوله تعالى « وهو الذى مرج البحرين » الخ [والثانية] فى قوله تعالى «وهو الذى خلق من الماء بشرا» الخ .

﴿ الجوهرة الأولى: فى قوله تعالى «وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » ﴾

اعلم أن الله عز وجل قد ذكر البحر فى مواضع كثيرة فى القرآن ، فتراه فى (سورة الرحمن) يقول : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان» وتراه يقول فى (سورة النحل) «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ويقول فى سورة أخرى «هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم » الخ . فياليت شعرى ماهذا الوصف والتذكير وكثرة التكرار . يقول الله « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام» ويقول إن البحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان، ويقول بأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان .

«البحار آيات واللؤلؤ والمرجان آيات وسير السفن فيه آيات ، ولما علم الله عزوجل قبل أن يخلق الناس على الأرض أن النوع الإنسانى لاسيا المسلمين منهم سيشملهم الغرور ويعمهم داء الجهالة والبلاهة البتراء أنزل القرآن وقال فيه فى (سورة يس) « ياحسرة على العباد » . يقول الله على طريقة الأسلوب العربى «ياحسرة على العباد» كما يقول الانسان ياحسرة على فلان قد فاتته الفرصة واعترته النكبة وحاق به الويل والثبور ، فهو هنا يقول إن هذا النوع الانسانى حرى أن يتحسر عليه لما أصابه من الجهل فهم إذا سمعوا المذكرين لهم بالعلم من الرسل استهزءوا بهم ، ثم أتبع ذلك بذكر : (١) هلاك الأمم (٢) وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات (٣) وإخراج الحب منها (٤) وظهور الجنات من النخيل والأعناب فيها (٥) وتفجير العيون فيها (٦) وانسلاخ الليل من النهار (٧) وجرى الشمس (٨) والقمر (٩) وأنه خلق لهم السفن فى البحار ثم ختم ذلك كله بقوله « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » وإنما ذكرت لك هذا مع أنه فى (سورة يس) لأذكرك بأن هذا الانسان جدير بالحسرة عليه حقيق بالشفقة لأنه جهول وكيف لايكون جهولا وهو لايسمع النصح إذا أتى له من رسول ولا يعقل مايراه من عجائب الدنيا حتى قال الله عز وجل فى هــذا الانسان إنه مهما عرضت عليه آيات النعم عليه بالتربية فانه يعرض عنها ولاجرم أن المسلم يصدق عليه ذلك فانه يغتر بأنه مؤمن بالله ويقول كفانى ذلك وهو يقرأ صباحا ومساء فى القرآن والقرآن نعى عليه الإعراض عن نفس الآيات .
إن المسلم تسنح له سوانح البر وسوانح البحر فيعرض عنها ويقول أنا مؤمن بالله فمالى وللبحار ومالى وللجبال ومالى وللأنهار وهذا دأب كثير من الفقهاء فى الاسلام وكثير من الصوفية وكل هذا غرور وهؤلاء جميعا قد شملهم الغرور لأنهم أعرضوا عن الآيات التى أتتهم ؟ فهل بقى للمسلمين بعد مابيناه فى هذا التفسير وغيره عذر فى الجهالة . كلا . ثم كلا . هذا جمال الله وهذه عجائبه تجلت فى هذا التفسير وفى أمثاله من كتب يؤلفها العلماء فى عصرنا . فانظروا واعجبوا . هذا (الورد أفرى) مؤلف كتاب [جمال الطبيعة] يصف عجائب البحر فيه من صفحة ٢٣٢ إلى صفحة ٢٤٨ باحثا عن جماله وعجائب الله فيه . فيا عجبا كل العجب ! قوم من أوروبا يعرفون بعقولهم وحدها جمال البحار ويفرحون بجمال ربهم ويهيمون بآياته ونحن لنا عقول ولنا دين يذمنا الله بالإعراض عن آياته فيه ثم هم يسبقوننا لمعرفة ربنا . أفليس هذا مما تجزع له القلوب وتشق له المرائر وترتعد الفرائص ولا أقول إلا ما أمر الله به فى المصائب « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم أرجع فأقول لقد آن زمان ارتقاء المسلمين وانتشالهم من الجهالة وارتقائهم إلى العلياء . اللهم إليك المشتكى ، اللهم أنت البر الرحيم فأخرج هذه الأمة المسكينة من الذل إلى العز ومن الجهل إلى العلم وأنا واثق ومؤمل إجابة الدعاء فقد أجيب دعاء زكريا إذ طلب ولدا يخلفه فى بنى إسرائيل ليقوم بأمرهم لأن الدعاء إذا كان لأجل للنفعة العامة استجيب . وهاهم أولاء المصلحون فى بلاد الإسلام يدعونك أن ترفع الإصر عن الأمة الاسلامية وأن تشوقهم للعلوم ، فهؤلاء يوقنون باستجابة دعائهم وأنا من هؤلاء الموقنين لاسيما أن أمتنا أكبر جدا من أمة بنى إسرائيل . إذن فلأذكر البحار وعجائبها من كلام (الورد أفرى) وأبدأ بقول الشاعر الذى خاطب البحر :

إن فى صدرك الرحيب رجالا	جمعوا البأس والنهى فى الصدور
أخرستهم مدافع مرعدات	فأصموا عن داعيات النفير
وهم اليوم بعد طعن وضرب	فى قرار غير المقام القرير
لك ماشئت من نضار ودر	لم يك البحر بالعديم الفقير

الحيوانات فى البحار

(١) منها (الأخطبوط) وهو يعيش فى ماء (نيوفونلاند) ويبلغ على صغر بدنه (٦٠) قدما من طرف إلى طرف .

(٢) وهناك نوع من الحيتان المسالمة يبلغ طول الواحد منها (٧٠) قدما .

(٣) ومن آياته وعجائبه (الكاشولات) فهذا حوت يطوف فى أنحاء المحيط طولا وعرضا قد اتصف بشدة الرحمة على من سالمه وبالغضب والبطش بمن عاداه وشاكسه وقاومه وأنيابه محدودات يسطو بها على الحيوانات البحرية فيلتقمها، ومتى مس بخدش صغير من ركاب سفينة اندفع إليها وعاونه على ذلك أهله وعشيرته وما أكثرهم وما أقواهم حتى أن هؤلاء يوما ما هاجموا مركبا أمريكية فحطموها وأغرقوها فى البحر جزاء ما كانوا يفعلون .

(٤) وأقوى من هذا وذاك وأضخم جثة وأعظم بطشا (الروركال) ويبلغ طوله (١٢٠) قدما ، يقول وربما كان هذا مبالغة ، ولقد علم باليقين أن أكبر فصائل الحيتان جثة وأطولها فصيلة (سيالد) والحوت منها لايبلغ إلا (٨٠) قدما أو (٩٠) قدما .

(٥) ذكر (سكورسبى) أن قريص البحر يغطى من سطحه أميالا والميل المكعب من البحر لايحوى أقل من (٢٣،٨٨٨،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) أى (٢٣،٨٨٨) ألف ألف مليون . ويقول إن هذه المخلوقات لاتغوص فى البحر كثيرا ولكنها تغطى مسافات من السطح لا يحصيها الحصر ولا يحيط بها الحساب وهذه الحيوانات الصغيرة تجعل ماء البحر ملونا بألوان عجيبة يشاهدها النوتية والسالكون فى طرق البحار.

(٦) الحشرات وبعض ذوات الثدى التى تعيش فى الماء لاتبعد عن البر إلا قليلا . ومن هذه (عجول البحر) .

(٧) الحيتان العظيمة المكافحة للأمواج تسكن الأعماق بطبعها . ومن أعجب العجب أن طائرا بحريا يسمى (الصخاب) قوى الجثة عظيم الصوت كأنه صوت الحمار يبلغ طول جناحيه الممدودين معا (١٥) قدما وقد يبقى ساعات متواليات طائرا لايقع وقد ينام محلقا فى الهواء . فهذا الطائر فى ضخامته يشبه الحيتان فى قاع البحار من حيث الضخامة كأن هناك مناسبة بينهما .

(٨) ماأعجب منظر البحر لركاب السفن، إذ يرصدون فى ظلمات الليالى مناظر النجوم فيرون عجبا وجمالا باهرا يأخذ بالألباب فاذا رجعوا إلى النظر فيما حولهم رأوا حول المركب عجائب وبدائع الأشكال والألوان فى الحيوانات البديعة البهجة المتفننة الأشكال البديعة المناظر .

(٩) إن جمال البر قاصر على سطح الأرض فان العجائب النباتية والحيوانية ليست تكون إلا على سطح الأرض . أما عجائب البحر فهى [ثلاثة أقسام] : قسم منها فى ظواهر الماء وقسم منها فى قرار البحر وقسم ثالث بينهما . إذن جميع أقسام المياه فى البحر مملوءة بالعجائب . أما الطبقة العليا من البحار فأمرها معلوم فيما تقدم هنا وفى مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذى تقدم فى (سورة آل عمران) وغيرها . فأما الطبقة الوسطى فان فيها السمك المعروف بالسمك الهلامى (المدوزا) باللغة الانجليزية (والحسكل) وهى دويبات صغيرة كالدر . أما الطبقة السفلى فقد كشف العلماء كثيرا من أنواع المخلوقات فيها فقد وجدوا سمكا يعيش

على عمق (٢٧٥٠) قامة (القامة مقياس طوله ستة أقدام) وهذه يسمونها القرارية أو الدركية وهذه لا يصلها النور لأن ضوء الشمس معدوم على عمق ٢٠٠ قامة وبعد ذلك يكون الظلام الحالك وهناك لا يكون للحيوان عيون ألبتة . ومن عجب ماذكره (سر ولم تومسون) عن نوع من السرطان له عيون إذا عاش قرب سطح الماء فاذا عمق مسكنه وصار مابين (١٠٠) و (٤٠٠) قامة من السطح فقد عينيه . وهكذا ما يعيش منه على بعد (٥٠٠) إلى (٧٠٠) قامة .

(١٠) إن بعض الحيوانات البحرية لا لون له بل هى شفافة وبعضها براق لماع فى غاية العجب فسفورى الجسم وقد يكون له أعضاء ساطعة ذات شعاع يكاد يذهب بالأبصار . وترى السمك الذى يعيش فى الأعماق فقى اللون جميلا بهيا غالبا . وبعضها أحمر وبعضها أسود ومتى حركت أعضاءها اللماعة صارت بهية اللون جدا وهذا السمك قد جعل الله له هذه الأعضاء النورية تحت سلطانه فان شاء أضاء بها ماحوله من الماء وإن شاء أطفأ النور ، فكما أن الله خلق شمسا وكواكب يهما استضاءأهل الأرض هكذا خلق سبحانه لهذه الحيوانات الساكنات فى الظلمات هذه الأعضاء المشرقة تتصرف بها على حسب مطالبها فى المعاش ، فان رأى الحيوان فريسته استعمل النور المعدّ لكشفها ، وإذا أحس بعدوّ مفاجىء أطفأ ذلك المصباح . ومن عجب أن هذا النور كما يستعمله السمك لاقتناص فريسته يستعمله أيضا لإكراه عدوه المفاجىء له على البعد عنه ، إذ هذا النور متى سطع وظهر لأعين الحيوان المهاجم بهر بصره فيكاد سنا نوره يذهب بتلك الأبصار فيفر المهاجم حالا . أقول فهذا النور عند هذا السمك فعل مافعلته رائحة الظربان فى حيوان البر ، إذ يحمل الرائحة التى يطلقها على عدوه سببا فى إزعاجه وكبعض الحشرات التى لاتنجو من صائدها الذى أمسكها إلا إذا أنزلت عليه سائلا فى جسمها كريه الرائحة فبذلك تعيش ولا تخاف من عدو يفاجئها فسبحان الخلاق العليم .

(١١) وهل أتاك نبأ السمك المعروف بعفريت البحر ، ذلك الذى له زعانف شائكات ورؤوس ضخمة يسكن قرب شواطىء البحار وله ثلاثة خيوط ألوانها تضرب إلى الحمرة يطلقها فى الأمواج ويجعلها كأنها حبائل للصيد تقوم له مقام نسيج العنكبوت وشبكات الصياد فان العنكبوت نسيجها يصطاد الذباب وأنواع الحشرات وقد جعلت بيوتها مناسبة لذلك . أما هذا فليس له سبيل إلى صيد السمك الصغير إلا بأن يطلق تلك الخيوط الحمر فتحسبها تلك السمكات عشبا بحريا وماهى فى الحقيقة إلا حبائل قد أرسلها ذلك الشيطان العفريت وقد اختبأ هو فى الرمال أو فى وسط حشيشة البحر فتأتى تلك السمكات المسكينات لتأكلها فينقض عليها فيفترسها هذا إذا كانت قريبة من سطح الماء ، فأما إذا كانت فى قاع البحار حيث الظلام حالك فلا ضوء هناك ولاشعاع فمن أعجب العجب أن تصير هذه الحبائل براقة لماعة لتظهر فى الظلام وتفترس تلك السمكات الصغار .

أقول أيها المسلمون . أليس هذا قول ربنا فى القرآن «وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» وقوله «إنا كل شىء خلقناه بقدر» وقوله «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «وكفى بنا حاسبين» وقوله «وما كنا عن الخلق غافلين» وهكذا آيات كثيرة . أيها المسلمون كفى كفى ، ظهر فى هذا التفسير أن أمم الإسلام المتأخرة لم يدرس أكثر علمائهم هذا القرآن ولو درسوه لكانوا أعلم الأمم بهذه العلوم . أيها المسلمون أنا فى عجب من أن يكون هذا القرآن ديننا وهذا الجهل صفتنا ، إن هذا لإثم كبير وعار عظيم اللهم إنى أديت ما أقدرتنى عليه وأنت اللهم المعلم . اللهم أنت المنتقم ممن عرف من المسلمين وسكت ولم يذع هذه الآراء فى أقطار الإسلام ويعلم المسلمين بما يراه ملائما لأهل زمانه والله هو الولى الحميد .

(١٢) إن النباتات البحرية لاتعيش على أعمق من (١٠٠) قامة كما هو آخر مايعلم الناس اليوم ، وقعر المحيط الاطلانطيقى وهو بحر الظلمات مابين (٤٠٠) إلى (٢٠٠٠) قامة ماهو إلا طبقات مؤلفة من مادة بيضاء

طباشيرية وأعظمها أصداف مهشمة مكسرة وتحت هذه الأعماق تكون المواد صلصالية أو طينية صافية تميل إلى لون الحمرة وقد تكون فيها مواد بركانية ، وقد قالوا إن كرتنا يسقط عليها فى العام الواحد مائة ألف ألف شهاب .

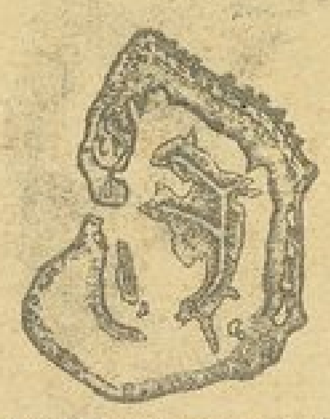
(١٣) إن أقصى أعماق البحار يشبه أعلى الجبال وقد سبروا البحر فبلغوا (٣٩٠٠٠) تسعا وثلاثين ألف قدم ولم يصلوا لعمقه وأعمق مكان فى الإطلانطيق (٣٨٧٥) قامة وذلك فى شمالى جزائر (فرجينيا) وبلغ عمقه (٥٢٧٠) قامة فى مكان آخر ، وليس هذا هو منتهى ما يمكن الوصول اليه . فهذا ما وصل إليه الناس وسيعلم الناس بعدنا ما لم نعلم من عمق البحار .

﴿ الجزائر المرجانية ﴾

الجزائر [ثلاثة أنواع] جزائر هى قطع من البر ويفصلها مقدار من الماء قليل العمق كجزيرة سيلان وجزائر بركانية وجزائر مرجانية وهذه الأخيرة عددها كثير جدا وأكثرها فى المحيط الهندى والهادى الباسفيكى فهناك ترى جزائر كثيرة مستديرة الشكل وقد تكون بشكل الخاتم أو الحلقة ، وكثيرا ما يكون فى وسط الجزيرة حوض شكل ضارب ماؤه إلى الصفرة والخضرة معا وهذا مخالف لماء المياه المحيطة به فانها سوداء لفرط عمقها . ولهذه الجزائر سواحل رملية بيضاء غالبا وغالبا ما ترى مكسوة بنخيل الكوكو (الشكولاتة) والجزائر المرجانية المعروفة باسم (بلكاديف) و (ملاديف) أى بحيرة الجزائر أى (١٠٠,٠٠٠) جزيرة و(١٠٠٠) جزيرة انظر أشكال المرجان وهى [قسمان] قسم شجرى وهى (شكل ٣٣) و(شكل ٣٤) و (شكل ٣٥) .



(شكل ٣٣ - رسم المرجان بهيئة شجر .)



(شكل ٣٤ - رسم جزيرة حلقية من المرجان داخلها بحيرة عمقها قليل جدا)

وإما جزء من جزيرة بركانية مثل (شكل ٣٥).



(شكل ٣٥)

وإما جزيرة تامة بركانية مثل (شكل ٣٦)



(شكل ٣٦ رسم جزيرة المرجان المسماة جزيرة الرمل الأبيض وترى فوقها شجر الشكلاته
وهذه فى غرب أمريكا الجنوبية فى غرب كالو)

هذه الصور الثلاث من كتاب [علوم للجميع] تأليف العلامة (روبرت براون) وهو باللغة الانجليزية

﴿ تذكرة ﴾

يزعم بنو آدم أنهم أكثر آثارا وأعظم أعمالا ؟ فهل صنعوا جزيرة واحدة عاش فيها الحيوان والنبات وانتفع بها الناس . فهذا المرجان بنى جزائر تعد بالآلاف ومئات الآلاف عاش فيها الحيوان والنبات والأشجار واستكن فى بحيراتها أنواع الحيوانات فعاشت قريرة العين سعيدة بعيدة عن مهالك البحر المحيط فأى عمل للانسان يضارع عمل هذا الحيوان الصغير «قتل الإنسان ما أكفره ـ إنه كان ظلوما جهولا» فكم للمفضول من عمل أعظم من عمل الفاضلين ، فكيف يفتخر هذا الإنسان بترعة يحفرها أونفق فى الأرض أوهرم فوقها أو قصر مشيد «إن ربك هو الخلاق العليم» انتهى يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ .

البحر الملح

اعلم أن الحكمة فى كون ماء البحر ملحا إنه بهذه الملوحة يحفظ مافيه من جثث الحيوانات المائتة من ظهور الفساد، فلولا الملح لأنتن الماء وفسد الجو ولم تصلح الأرض للسكنى : فالملوحة فى البحر حكمها حكم الملوحة فى ماء العين ، فلولا ملوحة ماء العين لأنتنت الحدقة ، فهذا الملح يحفظ العين ويمنع نتن ماء البحر ، وعسى أن أوفى الكلام حقه فى (سورة النحل) عند قوله تعالى «وجعل بين البحرين حاجزا» ولكن أقول هنا من لطف الله عز وجل ورحمته أنه جعل البحر ملحا للحكمة التى ذكرناها ، ثم هو تلطف فأرسل شعاع الشمس إلى ماء البحر فخرج البخار تاركا الملح فى البحر صاعدا فى الجو متراكما سحابا فيه ماء صالح للشرب ، فتبارك الله الحى القيوم ، جعل الماء ملحا عند الحاجة إلى الملح ، ولما احتاج الإنسان والحيوان والنبات إلى ماء عذب خلصه بحرارة الشمس لحصل الانتفاع به . فهذا هو البحر الملح وهذا هو العذب ، ومن عجب أنك ترى

المطر ينزل على الأرض ويجرى ينابيع تحتها منها العذب ومنها الماء المعدنى ولا يختلط أحدها بالآخر . وإذا جلست بجانب البحر الملح وحفرت قليلا فى بعض المواضع ألفيت هناك ماء حلوا أليس هذا عجبا ؟ حلو تحت سطح البحر مر فوقه حلو فى البخار الطائر منه فى الجو والسحاب والأنهار ، فالحلو محيط بالملح من سائر الجهات فلا ماء البحر الملح يختلط بما تحت القاع للمائع الطبيعى ولا بما فوقه فى الجو لأنه هرب منه وترك له ملحه وترى الأنهار كالنيل والفرات ودجلة تصب فى البحار كالبحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى ونحوها ومع ذلك لا يطغى البحر الملح عليها فيجعل ماءها ملحا ولا الأنهار الصابة فى البحر تجعله حلوا . فهذه مجامع الحواجز التى دبرها الله لحفظ البحرين المتجاورين فلا يبغى أحدهما على الآخر بتلك الحركة الدائمة المحكمة تبارك الله رب العالمين .

ومن هذا القبيل أن المجارى المعدنية تحت الأرض لا يختلط أحدها بالآخر ، وقد تقدم هذا فى (سورة الأنعام) مشروحا وأعجب من هذا أيضا أن الهواء يجتمع فيه أصوات الإنسان والحيوان والموسيقى والرياح الهابة فلا يختلط أحدها بالآخر ، وكذلك يحمل الهواء أنواع الروائح كلها وأيضا ، نجد ذرات اللقاح التى تخرج من الأزهار وتسير فى الجو من أعضاء الذكور إلى الإناث تتخذ مجارى لا يختلط أحدها بالآخر إلى أن تقع على الأزهار التى هى من جنسها وقد تشاهد تلك الذرات طائرات كالسحاب من عشرات الأنواع وهى متميزة لا تختلط أحدها بالأخرى . وهذا قوله تعالى «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان» .

وأعجب من هذا كله أن الشمس تحمل صور جميع المخلوقات وترسلها فى كل مكان ونحن لانراها وإنما الذى يحس بها هى آلة التصوير (الفوتوغرافية) فمتى سلطت عدستها على قوم جالسين التقطت تلك الصور وسلمتها إلى لوحة التصوير وراءها فى الخزانة المظلمة فهذا دليل على أن صور جميع المخلوقات على الأرض سائحة فى الجو الهوائى لايختلط أحدها بالآخر ، فصور بنى آدم والحيوان والنبات والجبال والبلاد كلها طائرات طول النهار لا اختلاط فيها كل ذلك يذكرنا به قوله تعالى هنا «وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا» انتهى .

﴿ الجوهرة الثانية : فى قوله تعالى «وهو الذى خلق من الماء بشرا» الخ مع قوله قبلها فى الماء أيضا «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا» وقوله بعد ذلك «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا» ﴾

فى يوم الخميس الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٨ أى فى مساء ذلك اليوم خرجت للرياضة كما قال توبة فى محبوبته ليلى :

وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

فتوجهت إلى شاطىء النيل الشرقى كعادتى ووقفت قبيل غروب الشمس فوق قنطرة عند النيل أمام مصر القديمة إذا الجو فى حال لم أعهدها ومنظر لم أشاهده من قبل نور أحمر برتقالى يكاد يقترب من الأرض وأمر عجب فرفعت طرفى إذا السماء مغشاة بسحاب يمتد من الغرب الى الشرق أشبه بسلاسل الجبال المتوازيات فعددتها نحو عشرين جبلا سحابيا والشمس قد آذنت بالغروب وتلك الجبال مشروقة اللون حمر بهية وقد امتدت فى أقطار السماء كلها وكلما كانت أقرب إلى الشمس كانت أبهج لونا وأزهى حمرة مشوبة بصفرة برتقالية وكلما تباعدت إلى الجنوب أو الشمال رأيتها مسودة كأنها تندب حظها لبعدها عن الشمس . أما تلك المقتربة منها فما أجمل طلتها وما أبهرها وأحسنها جمال وأى جمال وبهجة وأى بهجة . تراها فتخال بينها أودية زرقاء

اللون كرياض كستها الطبيعة أزهار البنفسج . وما أشبه ذلك المنظر البهيج الذى يكاد يضىء إلا بمنظر الجنود مصطفات لملك عظيم الشأن وقد أخذ يودعهم ليتفقد مملكته وهم صفوف وراءها صفوف يهتفون له بالإجلال والإعظام أو كحسناء ازدهت بالجمال وأشرقت بالحسن وقد هرع لجمالها المعجبون بها «من كل حدب ينسلون» وهم بمنظرها فرحون .

الله أكبر . منظر هذا العالم جميل غفل عنه صغار العقول جهل الناس هذا الجمال فى الأرض وفى السماء ذلك أن كل حيوان قد حيل بينه وبين هذا الجمال بما أودع فيه من عمل لحياته وسعى لذريته ثم هم عن الأرض راحلون ؛ فأنى لهؤلاء أن يتبهجوا بالجمال الذى يغشاهم وهم لا يعلمون منظر السماء فى ذلك التاريخ كان بهجا وجميلا والناس غادون ورائحون وهم لا ينظرن فكأن الجمهور عمى أمام أجمل الفاتنات صم عند سماع أجمل الأصوات . ذلك أن الناس أكثرهم عن الجمال محجوبون وعن العجائب معرضون تحدثنا الشمس والقمر والنجم والفلك والماء فى السحاب والبحار يقلن كلهن بلغة فصيحة ويعقلها أولوا الألباب إن فى تقلب الليل والنهار والصباح والمساء روايات تمثل لكم وأنتم لا تنظرون . شمس تشرق فتكسو الأرض جلبابا ذهبيا وتبرقع المزارع والهواء والجبل والماء والسحاب ببراقع مختلفات الألوان فهى على الهواء زرقاء وعلى الزرع خضراء وعلى الزهر صفراء أو حمراء وهكذا .

أما البحار فى (خط الاستواء) وماقرب منه فحدث ولاحرج ترى الأمواج ترمى بالدرر اللامعات والماس الجميل والزبرجد الأخضر واللازورد وقوس قزح وهيئات متنوعات من لجين ونضار ومن هيئات المصابيح المشرقة فى أكناف السماء . كل ذلك لما فيها من الفوسفور البديع المنبث فى تلك الأرجاء (انظره فى سورة الأنعام وهكذا ترى ماهو أعجب عند القطبين من جبال جاريات من الثلج بديعات عائمات فوق سطح الماء تمثل القصص الخيالية والأعمال السحرية وتصطدم تلك الجبال وتتدخل أجزاؤها وهناك تكون أنواع من أفانين الصور وبدائع الألوان مما لا يكاد يتصوره الخيال (انظره فى أول سورة الكهف عند قوله تعالى «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها») وهذه كلها صور للماء فى حاليه سائلا وجامدا ثلجيا . الماء خلق لسقى النبات والإنسان حتى يعيشا ولكن الحكمة الواسعة لاحد لإبداعها ولا نهاية لصنعها . ماء ينزل للسقى والحياة يستعمل هو نفسه زينة ونورا . فهو فى ليلة ١٥ نوفمبر جنود تحيى ملكة النهار الذاهبة إلى مملكة الليل ، فكما أن الجيوش معدة لطرد الأعداء وقتلهم هى أيضا تحيى الملوك اذا قدموا أوو دعوا . ذلك لسعة هذا الوجود والتفنن فى التصوير والإبداع والجمال . الليل والنهار يشرقان معا هذا بالماس المرصع فى القبة الزرقاء . وهذا بالنضار الكاسى وجه الغبراء . نجوم مشرقات بهجات جميلات متلألئات ليلا تقول للنفوس المستعدة فى الأرض هلموا إلى وتعالوا أتل عليكم نبأ الحكمة والعلم والجمال . تقول «هاؤم اقرءوا كتابيه» فيرونها صفوفا تتلوها صفوف وصنوفا تتلوها صنوف قد زينت للناظرين وحيرت المفكرين حتى إذا أفل الظلام وأقبل موكب الصباح أخذت تغير المعالم وتبدل المشارق والمغارب وتهزم جيوش البيض سود الجيوش وكلما ازداد موكب النهار إقبالا ازدادت جحافل الليل إدبارا وأخذت تلك الفاتنات البهيات المطايع الناعسات الطرف المشرقات فى الدياجى تتوارى بالحجاب تودع العاشقين وتعدهم أن سنعود لتروا جمالى ، ولا تزال مواكب الصباح ترد تباعا حتى إذا أقبل الجمع وتكامل أشرقت الغزالة إشراقا يبهر الجميع . هناك يتم سلطان النهار ويدبر تمام الإدبار سلطان الليل وتتجه الأنظار إلى مناظر الجبال والبحار والأنهار والحقول والرياض ويستبدلونها بالنجوم الزاهرات فى الدجنات

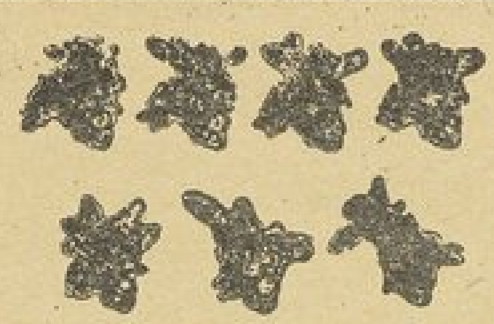
وههنا يتجلى النهار فى ثوب قشيب وينمو نمو الطفل صار شابا ضحى كهلا ظهرا شيخا عصرا ثم يودع الحياة عند الغروب . وهناك تسفر غانيات الليل ويرفعن القناع ويبدون سافرات ضاحكات بهجات مشرقات ويقلن لعاشقهن بالأمس عوجوا إلينا وأقبلوا علينا .

هذه هى الروايه التى يمثلها الليل والنهار وهما لايفتآن يمثلان رواية وراء رواية وللناظر مختلفات وليس يعقل اختلافها من الناس إلا قليل . ولما غفل الناس عن ذلك الجمال ألهموا أن يصنعوا هم لأنفسهم أعراسا وولائم وأعيادا فيها يفرحون وفى أيامها يبتهجون فهم كصناع فى قصر ملك معه وزراؤه وخواص دولته وهم يشاهدونه كل حين مبتهجون بمنظره فرحون بقربه وفى القصر عبيد منكودون لايرون الملك إلا فى عربته سائرا أو فى موكبه متجليا وفيه حيوانات ودواجن لاتعقل هذه الكرامة ولا تأبه لهذا الجمال . هذه نظرات النفوس الحكيمة فى بدائع السموات والأرض فاذا رجعت إلى أنفسها وتأملت أجسامها رأت فى هذا الجسم المركب من أمشاج وأخلاط مظلمة أرضية مايفوق مافى الكواكب من جمال وما فى الشموس من جلال ومافى البحار من لآلىء ومافى الجبال من نضار ماذا يرون؟ يرون جنودا يحاربون وجيوشا من أعدائها مجندلات وممالك عظيمة كلها فى داخل هذا الهيكل الجثمانى . فكما أن العقول الضعيفة غفلت عن التجلى الذى تمثله الشرقات والشمس فى العوالم الأرضية والسماوية هكذا نراها غبية جامدة أمام البهجة والعلم والجمال المودع فى أجسامها . وكما يرى الحكيم منظر السماء فيعقل البهجة والجمال هكذا ينظر فى أمر جسمه فيرى عجبا عجابا يذهله بل ينسيه منظر الشرقات فى الدياجى البهجات للناظر فياليت شعرى من ذا الذى كاد يعتقد أو يظن أو يتوهم أن فى جسمى أنا آلافا فى آلاف من الجيوش البيضاء شاكية السلاح الحاد القوى تصطف صفوفا وتحارب جيوشا تعد جنودها بآلاف الآلاف وتجندلها فى ساحات الوغى من الحيوانات الذرية وهى المكروبات وهى أنواع مختلفة وتلبس جنودى أنا لكل حال لبوسها فياليت شعرى من ذا الذى يقول هذا ولاينسبه الناس الى الجهالة والجنون . وهل كان أحد فى الأرض يعتقد أن الورم فى الجرح ما هو إلا هذه الجيوش المتكاثرة اجتمعت لتهلك الجيوش الداخلة فى جسمى لتحدث فى مرضا . أليس هذا من العجب أن جسمى يكون فيه هذه الجيوش المسلحة الواقفة بالمرصاد لكل فاتك به ثم هى تهلكه وتنتصر عليه بل إنها تأكل الأعداء أكلا وتصلح ماأفسدوا من جسمى ؟ هل كان للعقل فى هذا مجال اللهم لا مجال لعقولنا فى هذا لولا تعليمك لنا فى هذه السنين ثم ماهذه الدول والممالك والجنود المجندة أهذه كلها لجسمى وحده أجسمى هذا تخلق هذه الجيوش والممالك ؟ ألحيائى أنا تكون تلك الدول والممالك والجيل والحروب والجموع والجيوش . اللهم حارت عقولنا فى وصفك وأصبحنا لاندرى أمفردنا جمع أم جمعنا مفرد ثم كيف يكون جسمى مع أن علمى به قليل جدا يكاد يبلغ سعة السموات والأرض فى التدبير والكثرة ممالك جسمى لا حصر لها وممالك الوجود لاحصر لها فتساوى الكبير والصغير فى العظمة والجراءة ثم أقول يامن تجلببت بجلابيب الكبرياء وترديت بأردية الجمال ونثرت أرواحنا فى هذه التربة ودفنت نفوسنا فى هذه الأجسام الترابية وأحطتها بكل لطف ورحمة قد حنت أرواحنا إليك وشاقتها بواسم الإصباح وبواهر الإمساء فمتى تكشف لنا عن جمالك لقد لمحنا من خلال الحجب المسدلة علينا لوامع من نورك فعلمنا أنك رحمتنا بالحجاب وأنعمت علينا ببصيص من نورك ولوأننا كوشفنا به تمام الكشف لطاحت أرواحنا وصرنا إلى العدم مادمنا لم تكمل فينا المواهب العالية التى بها نستطيع إدراك ذلك الجمال ولكنا تشرق فى نفوسنا الذكرى بعد الذكرى والشوق يتبعه الشوق ثم بعد هذا كله ما أنا إذن ؟ أنا أقول بأعلى صوتى أنا أجهل نفسى جهلا تاما وأنتظر من الذى أبدعنى أن يرتقى فى عوالم تكشف القناع لى عن نفسى وعن هذا العالم ثم من ذا الذى كان يخطر له أو يهجس فى نفسه أن كل حيوان وكل نبات ترجع إلى مايسمونه خلية فالخلية منها منشأ جميع الأحياء إذن الوحدة ظاهرة فى هذا الوجود منها تركب كله كما أن الأعداد تركبت من الواحد . إذن هذا توحيد عملى والديانات توحيد قولى واعتقادى . وإن أبيت ياصاح إلا الإفصاح فهاك مقالا لدكتور مصرى فى (طبيب العائلة) تحت العنوان الآتى وها هوذا :

سر من أسرار نظام الحياة

إنك لتجد يد الله وقدرته البليغة رامقة كل شيء فى الوجود جل أو دق وتراها متجليتين على الأخص فى الحياة ونظامها وتطوراتها منذ الخليقة هذا النظام وما به من غريب ومدهش هو ما أقصد إلى تبيان جانب منه بهذه الكلمات القليلة لأن المقام لايسع التوسع على الرغم من خطر الموضوع خطرا هو فوق ماتتصوره العقول. إن ظهور الحياة على الأرض كان لغزا من الألغاز الغامضة التى تعبت فى حلها الأجيال وعظماء البشر من حكماء وعلماء ولكن شغف الإنسان بالتطلع والاستقراء لخفايا الوجود وأسرار الطبيعة جعله لايمل ولا يكل من السعى حتى ظفر بكثير مما تصبو له نفسه وخصوصا فيما كان له مساس بكيفية ظهور الحياة على الأرض فقد ظل يفكر ويستعين بعقله ومداركه ثم تدرج فى بحثه واستقصائه إلى أن ظفر بنتائج باهرة سارة قربته كثيرا من الحقيقة التى نشهدها منذ القدم وإذ تقرب منها اتخذها عماده فى تقرير العلم الراهن وتوسع فيها إلى الدرجات الباهرة التى وقف عند حدها فى أيامنا الأخيرة وتتلخص هذه الحقيقة فيما يلى :

ظهرت الحياة على الأرض لدى الخليقة بالبسيط وانتهت بالمركب ابتدأت بخلية واحدة وانتهت بملايين الخلايا مندمجة فى شبح واحد . ابتدأت بالشيء الذى لايقوى على الإدراك والعقل وانتهت بالإنسان الذى هو أكمل مخلوق وأعتقد أن الله الذى جلت قدرته وتعالت حكمته عندما شاءت مشيئته إبداع هذا الوجود أراد لكمال هذا الوجود أن يظهر فيه من يدركه ويدرك صنعه ويدرك قوته فأبدع الفكر وأودعه الإنسان الذى إنما كانت الغاية من إظهاره أن يكون أقوى أداة مفكرة فى العالم . فالحياة ابتدأت بصنع الله للخلية وانتهت بصنع الله للفكر وبه اتصل المخلوق بالخالق . نظم الله الخلية ودبرها على نسق تدريجى وبسط لهما بقوته أسباب التدرج والرقى والتوارث والتسلسل والتفرع والتنوع والتجنس وأعدها صورا مختلفة وأشكالا وأوضاعا ووظائف وغايات متعددة مختلفة فمنها النبات وعليه قوام حياة الكائنات الأخرى ومنها الميكروبات والأسماك والطيور والحشرات والحيوان والإنسان، وكان من المدهش أنها كلها ترجع فى أصل الخليقة إلى وحدة متحدة دالة على وحدة اليد القوية القادرة التى أبدعتها ألا وهى الخلية تلك الخلية التى ظهرت بمؤثرات وتفاعلات كيميائية وطبيعية جعلتها تتحرك وتعيش وتتضاعف وتتفرع وتتوارث وترقى على مرور الأجيال والأزمان وتتجنس وتتنوع وتستقر فى النهاية على ماهى عليه الآن جاهلين على كل حال ماذا تدخره لها المقادير فى مستقبل الدهور والحدثان هنا نرى من المفيد أن يعلم الناس أن كل كائن حى يبتدئ عند خلقته بأن يكون خلية إشارة من الطبيعة إلى أن ذلك الكائن الحى مهما تضاعف فى تراكيبه وأعضائه يرجع فى نشأته إلى تلك الخلية الواحدة (أو بعبارة أخرى) إشارة إلى الوحدة التى نشاهدها مسيطرة على هذا الوجود . كذلك من المفيد أن يعلموا أن كل بيضة تتطور فى نموها تطورا غريبا مدهشا حيث تظهر فيها لدى نموها كل التطورات والتغيرات التى طرأت على نوعها منذ الخليقة إلى الآن ويحق تعتبر هذه البيضة أنها خلاصة تاريخية للتطورات التى تطورها نوع وليدها بمرور كل هذه العصور التى قضاها متنقلا فى تطوراته من حالات إلى حالات ، وعلى كل حال فإن الإنسان لم يك فى الواقع فى مجموعه إلا خلايا لاتعد ولا تحصى مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا متينا متضامنة تضامنا قويا فى الصحة والمرض على السواء وهى كلها وليدة الخلية الأولى فكل حى فى الوجود نباتا أو حيوانا أو ميكروبا يتركب من خلية أو أكثر . ومن الأسرار المثيرة للاعجاب أن من المخلوقات المشاهدة حتى الآن كائنات حية لاتتركب إلا من خلية واحدة (انظر شكل ٣٧) .



(شكل ٣٧ ـ صورة للاميبا مأخوذة عن فلم سينماتوغرافى للاميبا وهى تتحرك أخذت بسرعة ٣٠ صورة فى الثانية ، والصور السبع التى ترى هنامنتخبة من حركة الاميبا فى ثانية واحدة)

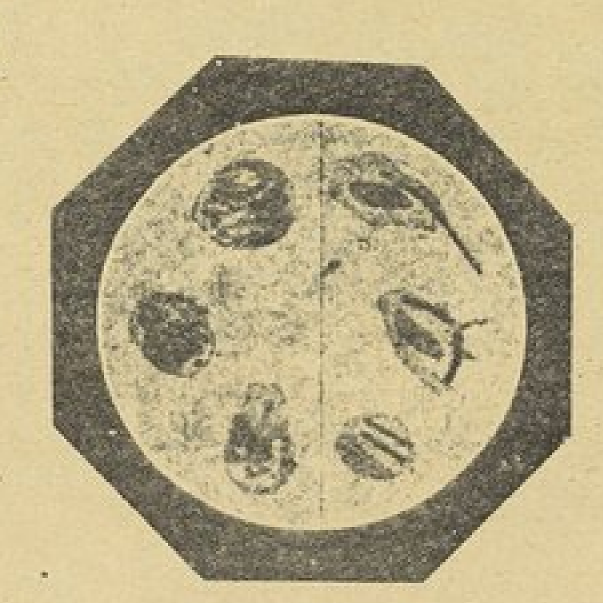
وقد تنقسم إلى قسمين وصيران خليتين ولكنهما لايتصلان بل يعيشان كـكائنين حين منفردين ، وتوصل العلم إلى معرفة مئات من هذه الأجناس (بروتوزووا) ذات الخلية الواحدة تعيش فى المستنقعات والبرك والبحار وهى أبسط كائن حى عرف حتى الآن ، وإذا دققت النظر فى محتوياتها لاتجدها أكثر من غلاف داخله مادة مخاطية لزجة تسمى (بالبروتوپلاسم) فاذا صادفت هذه الخلية ذرة من نبات تراها تندفع إليها وتحيط بها بمهارة فلا تشعر الذرة إلا وترى نفسها داخلة فى ذلك الغلاف ومحاطة بأكلها بهذه المادة اللزجة مع قليل من الماء فتهضم بواسطة كيميائية قسرية وتصبح جزءا من ذلك البروتوپلاسم وهذا كل مافيها من وظيفة الهضم وغريب أنك تجد خلايا لاتعيش إلا فى سوائل الجسم (الدم واللنف) تعيش عيشة مستقلة كما تعيش الكائنات ذات الخلية الواحدة المسماة (بروتوزوا) فى قاع المستنقعات والبحار كما قدمنا ، وإنك لو أخرجتها من تلك السوائل ونظرت إليها (بالمكروسكوب) ومزجت معها قليلا من الذرات الملونة لرأيتها بعينيك تصنع ما صنعته الكائنات المذكورة فى أساليب غذائها وهضمها على السواء . هذه الكائنات ذات الخلية الواحدة التى تعيش فى سوائل الجسم هى التى نطلق عليها اسم الكرات البيضاء وهى كانت معروفة قبل عصر باستور ، أما فى عصر باستور فقد ظهر بفضل فكره الواسع وعبقريته الممتازة مادهش له العالم طرا ، ذلك أن قد ظهر لنا عالم خفى كنا نجهله هو عالم الميكروبات وبرهن لنا على أن هذا العالم الخفى علة جميع الحميات المعدية وأن عوارض هذه الحميات لم تك إلا نتيجة تسمم الجسم متى تسلطت هذه الميكروبات من الخارج إلى داخل الجسم ثم أتى لنا بعده ليستر وبرهن على أن تقيح الجروح نتيجة تسلط هذه الميكروبات على الجروح وأن هذا التقيح هو انحلال الخليات الناتج عن فتك هذه الميكروبات بها (انظر شكل ٣٨ فى الصفحة التالية).

ثم أتى بعدهما (كوين هايم) وبرهن على أن فى كل موضع ملتهب من الجسم سواء كان نتيجة ميكروبات أو صدمة فإن الورم الذى يطرأ عليه يكون عبارة عن تراكم الكرات البيضاء بكميات كثيرة تخترق الأوعية الشعرية وتتصل إلى ذلك الموضع الملتهب ومنه ينشأ الورم ، ثم أتى بعدهم (ميتشنيكوف) وأرانا بأعيننا أن الغاية من تراكم الكرات البيضاء وخروجها من الأوعية الشعرية وذهابها إلى المواضع الملتهبة هو الدفاع عن الخلايا ومقاتلة الميكروبات الطارئة الضارة بها والتغلب عليها بأكلها وهضمها وأكل سمومها وأكل الخلايا التى فسدت بسبب فتك الميكروبات بها كل ذلك رأيناه بأعيننا وتأكدنا من عمل هذه الكرات البيضاء الضرورية للحياة ولذلك سميت بالخلايا الأكالة أى (الفاجوسيت) .

هذه المدهشات علت واكتشفت أسرارها وأسرار وظائفها وهى مع ذلك خلية واحدة للجسم الإنسانى ، فكم لله فى باقى صنعه من أسرار لازال أمرها غائبا مجهولا من الإنسان .

شكل ٣٨

(أخذت هذه الكرات البيضاء وهي تزدرد الميكروبات)



تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الانتراكس

(شكل ٣٨)

(ا) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الدفتريا .
(ب) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الستربتوكوك
(ج) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الحمى الراجعة
(د) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الكولياسيل

﴿ بهجة الجوهرة : في هذه الآية « وهو الذي خلق من الماء بشرا » الخ وأن المصلي رجع في الركوع والسجود من الحق إلى الخلق ، والفيلسوف رجع من الخلق إلى الحق ﴾

تباركت يا ألله ، جعلت الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا كما في آية (الحجرات) وجعلتهم « نسبا وصهرا » كما هنا فنرى قبائل ودولا في القارات الأرضية شرقا وغربا ، ونرى أسرات وجماعات بينهم علاقات واشتراك يسكنون قرية واحدة ، ثم نرى جسم الإنسان وحده فيه أنواع الحواس وهي خمس قد قسمت عليها العوالم التي تدركها، فللعين المناظر وهي عشر وللأذن المسموعات وهكذا . وفيه أيضا أعضاء مختلفة لكل عضو منفعة خاصة كاختلاف منافع الحواس . كل هذا يذكره المصلون في صلواتهم وأكثرهم ساهون، فيقول الراكع « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ويقول الساجد « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » .

فها هو ذا الراكع يذكر جماعات الحواس المتضامنات مع السمع والبصر ومثله الساجد ثم كل منهما يذكر جماعات الأعضاء المتضامنات من العظم والعصب والمخ . فياسبحان الله . جماعات فى الأمم كجماعات المدن كجماعات الحواس فى الجسم كجماعات أعضاء الجسم داخلا وخارجا وكلها راجعات لنظام وحدة كلية . فالأمم تكون أهل الأرض جميعا والأسرات تكون البلدة الواحدة والحواس والأعضاء تكون الجسم الواحد ، ومم تكون هؤلاء كلهم ؟ تكونوا من الماء المذكور فى هذه الآية والقاعدة فى الجميع واحدة . فهل لك أن أسمعك الآن ماهو أبعد مدى وأقرب هدى . انظر كيف كانت نفس أجسامنا مركبات من خلايا وهذه الخلايا جماعات بينها اشتراك كاشتراك الدول وأهل القرية والأسرة والحواس والأعضاء فى الجسم الواحد . فهاك ماجاء فى بعض المجلات العلمية .

﴿ حياة الخلية ﴾

كان الفضل فى اكتشاف الخلية أو وحدة تركيب الأنسجة فى جسم كل كائن حى لاختراع النظارات المكبرة وأذهان العلماء المشتغلين بها مثل (شوان) و (شليدن) و (فيرشو) وقد أوجد هذا الاكتشاف مايسمى بنظرية الخلية وهى تتلخص فى أن كل كائن حى يبدأ حياته كخلية مفردة لأن قسما من الخلايا المفردة لم يقنع بحالته الوضيعة وصارت كل خلية تبنى لنفسها جسما كبيرا بانقسام الخلايا التى تتناسل منها واستمرت هذه الكائنات الكثيرة الخلايا فى تقدمها حتى استطاعت لكثرة مافيها من الخلايا أن تقسمها أقساما وتجعل لكل قسم عمله الخاص ومن هنا نشأت الأعضاء والأجهزة المختلفة التى نراها فى جسم الحيوان أو فى تركيب النبات .

﴿ الوجود التضامنى ﴾

ولما اجتمعت الخلايا وكونت جسما واحدا ووزعت الأعمال المختلفة على كل طائفة منها صارت حياة الكائن المشتمل هى عبارة عن مجموع قواها الحيوية ومع ذلك فلكل خلية حياتها الخاصة . ويقول العالم السر لانكستر : (يمكن أن نعتبر الحيوانات والنباتات العديدة التى بنيت أجسامها من خلايا كثيرة كائنات حية مركبة وأن خلايا كل جسم حى مثل السكان فى مدينة لكل جماعة عملها ولكل فرد كفايته . وأن الغاية من أعمال هذه الجماعات وتضامنها هو تحقيق غرضها المشترك وهو الحياة للحيوان أو النبات التى توجد فيه) .

﴿ أساس الحياة ﴾

ويعد الهيولى أو المادة الأولى (البروتوبلازم) أساس الحياة الطبيعية وهى المادة التى تحيا بها أجسامنا والتى ترتكز عليها حياة الخلية ، فان أول شىء يتكون فى أى حيوان هو الهيولى ثم الخلية والخلية تتولد منها خلايا وهكذا إلى أن تتكون جميع أعضاء الجسم ويتم بناء هذا الكائن الحى .

﴿ من أين تولد الخلية ﴾

لاتولد الخلايا الحية إلا من خلايا حية سبقتها فى الوجود وباتصال الذكور بالإناث . وقد حاول كثير من العلماء إثبات التولد الذاتى أو تكون الكائن الحى بنفسه فأخفقوا فى إيجاد أقل الكائنات فى التركيب انتهى هذا ، ثم انظر ماذكره (السير أوليفر لودج) وهاك ماورد فى نفس المجلة بنصه :

﴿ الجسم والروح ﴾

يقول (السر أوليفر لودج) رئيس المجمع العلمى البريطانى (إنه لمن أغرب الأمور أن تكون أجسامنا قادرة على تكوين أناس مما نأكله من مواد الغذاء فان نفس هذه المواد الغذائية كان من الممكن أن تصير

دجاجا أو كلابا ولم يفعل ماقامت به من المعجزات المدهشة إلا مافيها من العوامل الحيوية ذات المزايا الخاصة التى حتمت أن يصير هذا إنسانا ولم تجعله قردا مثلا بل جعلته إنسانا بشكل خاص يتقيد فيه بعدة عوامل وراثية أو خلافها ترجع إلى أبيه أو أمه أو أسلافه . أما الأجسام فتبلى وترجع التراب إلى التراب كما قالت الكتب المقدسة . أما تلك العوامل التى قامت بالمعجزة فإنها تبقى فى كائن لطيف لم يدرك العلم حقيقته ولكنه لايستطيع أن ينكر وجوده وأثره وهو الروح) اهـ .

هذا كلام (السر أوليفرلودج) ولعمرى ماهذا إلا معنى تسبيح المصلى فى سجوده وركوعه وثنائه على ربه يسبح المصلى فى الركوع والسجود أى ينزه ربه عن الحوادث والأجسام ثم يذكر نعمة السمع والبصر وأعضاء الجسم وهذا معنى « سبحان الله وبحمده » فهنا تنزيه عن الحوادث مع خلقها منه والحمد عليها منا نحن ، فالسر أوليفر لودج يقول إن هذه الروح هى التى دبرت هذا الجسم وخصصته بكونه إنسانا مثلا فارجع الأجسام والحواس إلى الروح والروح ليس يقدر العلم على معرفتها ولا على إنكارها فهى إذن «من أمر ربى» فالعالم [قسمان] عالم الخلق وعالم الأمر والأول هو المذكور من أعضاء الجسم والثانى هو الروح والله خالقه وهو منزه عن الحوادث وعن ملابسة الأجسام . فالسر (أوليفرلودج) سار بكلامه من الخلق إلى الحق بعقله هو لابدينه : أى أن الفلاسفة ينتهون بعد مشاهدة المادة إلى خالقها . إن هذا هو الذى جرى عند أعاظم حكماء هذه الكرة الأرضية . واعلم رعاك الله أن فلاسفة اليونان ابتدءوا نظرهم على هذا النمط فقام (تاليس) قبل الميلاد بخمسمائة سنة فقال : (إن هذا العالم أصله الماء ومنه اشتق ماهو أثقل منه وهو الأرض وما هو أخف منه وهو الهواء) ثم قام (أنكسمانيس) بعده فقال (كلا بل الأصل هو الهواء) وفعل به مافعل (تاليس) بالماء ثم قام بعدهما (ديموقراطيس) فقال (ويحكما كيف حصرتما العالم فى عنصر واحد . كلا . بل الأصل هو الجزء الذى لايتجزأ فاذا قام من قبلى واستغنى عن صانع للعالم بعنصر فأنا أستغنى عنه بهذه الأجزاء التى لاتتجزأ إذن العالم هوهكذا من الأزل إلى الأبد) .

هنالك حار اليونانيون وظهر فيهم (السوفسطائية) الذين ينكرون الحقائق وقام بعدهم (فيثاغورس) وهو يونانى فنظر فرأى هذا العالم فيه نظام وإبداع وحساب وحكمة فقال (كلا إن أصل العالم أرقى من المادة فليكن هو العدد لأن كل شىء له نظام معدود) ثم قام الفيلسوف (أنبذوقليس) فقال (إن هناك محبة وعداوة فالأولى تجمع والثانية تفرق وما العالم إلا جمع وتفريق) فقام بعده فى القرن الرابع قبل الميلاد (أنكساغورس) وقال : (كلا هذا لا يكفينى إن هذا العالم له عقل صنعه فهذا العقل فعل مع المادة ما صنعه الذى يدير الساعة فهو أولا نظمها فدارت ثم تركها فهى تجرى أبدا وأمدا لأن هذا النظام لا يكون بلا عقل) ثم قام بعده سقراط فقال (هذا رأى أبتر . إن الآلة لاتصنع من نفسها فلابد لها من مدبر يديرها ويلاحظها أبدا . إذن الذى صنع هذا العالم هو الذى يعلمه وهو معه دائما يدبره ويحكم صنعه ولا يتركه وإلا لفسد ثم جاء أفلاطون وقرر هذه النظرية بشكل أتم وأبهى وأبهر . ثم قام (أرسطاطاليس) فأيد الذين قبله ، وإلى هنا انتهى علم جميع الأمم شرقا وغربا .

إذا عرفت هذا أيها الذكى فاعلم أنك قد ظفرت بكنز لم يحرزه سواك . ومتى عرفت هذا وحفظته وعقلته فاعرض على هذا الجدول عقول أبناء أمتك الذين تعيش معهم فستسمع أحدهم يقول إنى لاأصدق إلا بالمحسوسات فاعلم أن هذا المسكين لم يزل طفلا أشبه بما قاله (تاليس) أو (ديموقراطيس) وإذا سمعته يقول لمن أصلى وهل الله محتاج إلى صلاتى فاعلم أن هذا لايصدق بأن الله محيط بالكائنات فهو أشبه أنكساغورس فقل لأبناء الشرق إن العلامة (اسبنسر) الفيلسوف الإنجليزى ومثله (ستلانة التليانى) يقولان بأعلى صوتهما وعلى مسمع

من أوروبا قاطبة اننا لم نصل فى هذا العالم (أى فيما هو المقصود من الفلسفة وهى هذه المباحث) إلى (سقراط) و (أفلاطون) . كلا . ويقولان إن جميع فلاسفة أوروبا لم يزيدوا على ماذكر فيما كتبناه هنا وغاية الأمر أن أحدهم يختار قول (تاليس) مثلا أو قول (ديموقراطيس) والفلسفة فى طفوليتها فيعلنه ثم يقوم آخر ويختار مذهب (سقراط) فيعلنه . إذن من درس هذه الفرائد التى ذكرناها هنا فقد حفظ أمهات المذاهب التى إليها ترجع جميع أقوال علماء أوروبا فى العصر الحاضر وأقوال المقلدين لهم من المتمدين نصف تعلم فى بلاد الشرق . فهؤلاء وهؤلاء مقلدون ولكن المسلم فى صلاته قد جمع خلاصة المذاهب واتبع أعلاها فقال : « سبحان ربى العظيم » وذكر الأعضاء والحواس وما تحتها من الخلايا التى دخلت ضمنها فهى كلها مجموعات مشتركات فى حياة الفرد كله الذى جمعته الروح التى صارت أقرب إلى ربها المنزه عن المادة . وهذا آخر ما انتهت اليه الفلسفة وذلك بسقراط وأفلاطون إلى آخره . فالفلاسفة ساروا من الخلق إلى الحق والمصلى للمسلم سار من الحق إلى الخلق فى الركوع والسجود وهذا فى الفاتحة والتشهد إذ يحمد الله ويقول إن التحيات له ثم هو بعد ذلك يطلب منه الهداية والاستعانة الخ ، ويطلب منه الصلاة والسلام على النفوس العالية والصالحين . وإذا قال المصلى فى سجوده « تبارك الله أحسن الخالقين » بعد ذكر أعضاء جسمه وحواسه فذلك مقابل لما فى الآية هنا «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا» فهذا القول وتلك البركة كما اجتمعت فيها الشموس التى لايعرف عددها فصارت عالما منتظما هكذا بها انتظمت أعضاء الإنسان والخلايا التى لايعرف عددها وهن مشتركات فى نظام الجسم الإنسانى وحياته ، فكما أن الإنسان حيوان صغير هكذا العالم كله حيوان كبير وهذا كله يشير له قول المصلى فى سجوده « سجد وجهى الخ » وهذا العالم الصغير يجد حتى يرجع إلى ربه فيصير روحا طاهرة وهذا سر قوله تعالى «واسجد واقترب» .

هذا معنى كون الإسلام دين الفطرة ، ومعنى قوله تعالى «وأن إلى ربك المنتهى» فإليه انتهى مباحث الفلاسفة وهناك وقف نظرهم وصار جميع الباحثين يأخذ كل منهم من سلسلة المباحث مايوافق عقله قدر طاقته وسيأتى إيضاح هذا المقام فى (سورة النحل) فى آخرها إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس (٧) فبراير سنة ١٩٢٩ .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا» إلى قوله «أو أراد شكورا» ﴾

تباركت بالله وتعاليت أبدعت نجوما وشموسا وتلألأت فى سمائك وانتشرت فى أقطارها جميلات منيرات مشرقات . أبدعتها بالحكمة وزينتها بالجمال وقلت لها املئى أقطار السموات وأفيضى نورا على المخلوقات لتبتهج بك القلوب ولتشتاق العقول ولتفرح بك النفوس . أيتها النجوم وأيتها الشموس أنتن بهجة عبادى مقسمات الزمن معطيات الضياء منميات الزرع مكثرات الضرع أنتن بأمرى مجريات الرياح الحاملات السحاب بضوئكن وحرارتكن نما النبات وانتعش الحيوان وبكن غنت القمارى على أعوادها والفواخت فى دوحاتها وراحت الحشرات المغنيات وغدت تجمع العسل وتلقح النبات كل صباح وكل مساء . وبنظام سيركن انتظم لعبادى علم الحساب بأنواعه فعرفوا السنين والشهور والدهور وببهجتكن انطلقت ألسنة الشعراء فتفننوا فى وصفكن بأفانين القول وبدائع الحكم وروائع الفنون . ففيكن يقول الشاعر :

كأن سهيلا فى مطالع أفقه | مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بنى نعش ونعشا مطافل | بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا
كأن سهاها عاشق بين عود | فآونة يبدو وآونة يخفى

كأن قدامى النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسمُ الخوافى له ضعفا

سقتها الذراع الضيغمية جهدها ... فما أغفلت من بطنها قيد أصبع
بها ركز الرمح السماك وقطعت ... عرى الفرغ فبكى الثريا بأدمع
ويستبطأ المريخ وهو كأنه ... إلى الغور نار القابس المتسرع
وتبسم الأشراط جزءاً كأنها ... ثلاث حمامات سدكن بموضع
وتعرض ذات العرش باسطة لها ... إلى الغرب فى تغويرها يد أقطع

(من سقط الزند للمعرى)

وكم تغزل فيك عبادى الشعراء ؛ فأنت نبراس الخيال لشعراء عبادى كما أنك نبراس العقول والحكم المستودعات فى قوى الحكماء والفلاسفة الفكرية إذ يحسبون سيرك ويعقلون بعض سرك وهم بك فرحون إذن أنت مسرح القوتين الخيالية والفكرية ومناط العالمين عالم شعر الشعراء وعالم حكمة الحكماء . ولقد جعلتك زينة للناظرين وأغنيت بمرآك الصادرين والواردين . ومنحتك الجمال بهجة للعالمين . زينتك أعلى زينة وأبهج حلية وأعلى منار ، ولم يقتصر التفنن فى محاسنك على شعر الشعراء وحساب الحكماء بل تعدى ذلك إلى غيرهم من سائر الخلق فقد أنزلوك منازل حيواناتهم التى ألفوها ودواجنهم التى ربوها ليقربوك من متناولهم حتى كأنك بين ظهرانيهم مألوفة لهم :

(١) فهاهم أولاء عبادى الآريون سكان الهند صوروا مجاميعك بصور حيوانات يعرفونها وذلك فى كرتهم المصورة قبل المسيح بتسعة قرون فجعلوك بجعة ووزتين وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجى ضخم الجثة وامرأة منطقة بوشاح .

(٢) وهاهم أولاء عبادى العرب سموا بعضك باسم بنات نعش الصغرى والفرقدين والجدى وبنات نعش الكبرى والقائد والعناق والجون والسها والهلبة والحوض والظباء الخ .

(٣) وهاهم أولاء الصينيون قد سموا أكثر من ثلثمائة اسم ذكروا فيها أسماء كثير من عظمائهم .

(٤) ولقد تمادى العرب عبادى فى الخيال وأخذوا يقولون إنك الراعى وكلب الراعى والشاة أو الأغنام والضباع والكف الخضيب وسنام الناقة والحباء والعنز والجديان وممسك الأعنة والحية والدلو والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وسموا هذه الاثنى عشر بروجا .

(٥) وهاهم أولاء عبادى أهل (سكنديناڤيا) قد سموك بالكلب وبالمركبة وبالمغزل .

(٦) وكذلك عبادى فى الأقطار الشمالية (الاسكيمو) سموك (صائد القط) والقط حيوان بحرى عندهم ، فهاهم أولاء عبادى اتفقوا فى مشارق الأرض ومغاربها على تسميتك أيتها النجوم بما لديهم من الصور المألوفة الحية وغير الحية ليستنزلوك من سمائك إلى المعانى القريبة من متناولهم استئناسا بك وفرحا بمرآك وأنسا بمشاهدتك . أيتها النجوم ويا أيتها الشموس أنتن جمال وأى جمال . أنتن أنس وأى أنس . أنتن مثيرات العشق والغرام . أنتن المنعشات لحب العلوم . أنتن المضرمات نار الشوق للقائى ومثيرات نيران الحب لجمالى أنتن عنوان جمالى وكمالى . أنتن حلية عوالمى . أنتن العرائس المصطفيات لأحبابى من عبادى ، وما العرائس الزينات المجلوات فى الأرض إلا نموذج لزينتكن وجمالكن حتى إذا فرحوا بأقل الجمالين طمحوا فى أكملهما بهاء وأبهاهما حسنا ولألاء .

(٧) ولقد تعلم عبادى الذين يطربون الناس بالنغمات دواوين الغناء والألحان من نظام مسيرك وهكذا الشعراء فهؤلاء وهؤلاء استمدوا الحساب ونظامه من حسابك فأصبحوا لا يفرقون بين حساب الأبيات الشعرية والأوزان الغنائية والحركات الفلكية (انظر هذا فى سورة يوسف عند قوله تعالى « وقطعن أيديهن » وفى مواضع أخرى من هذا التفسير مثل ماتقدم فى سورة الرعد عند قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار ») .

أيتها النجوم . أيتها الشموس . أيتها الأقمار . أنت اللاتى هام بك القدماء والمحدثون من مخلوقاتى حتى دخلت فى العبادات وصورت على صناديق بعض الأموات وأنزلتك فى القرآن فقلت « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » انتهى صباح يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨ .

هذه المقالة جاشت فى صدرى فى هذا التاريخ . ولقد تقدم فى هذا التفسير أن قدماء المصريين أغرموا بجمال الكواكب وهاموا بها هياما شديدا وأولعوا بها وأحبوا الله حبا جما وجعلوها رمزا لكماله وصلة بينهم وبينه ونحن معاشر المسلمين أمرنا بالنظر فيها لتدعونا الشوق إلى مبدعها الحكيم وخالقها العظيم ولكن قدماؤنا المصريون جعلوها معبودهم وهذا المعبود يوصلهم إلى ربهم لأن الرب أجل من أن يذكر على اللسان بل الذى يذكر إنما هم مخلوقاته ولذلك تنوعت الآلهة وكثرت الأصنام احتراما لمقام الألوهية . أما الاسلام فقد قوض هذه الأركان وهدم الأوثان وقال أيها الناس اعبدوا ربكم فليس تعظيمه بالإشراك ولا تقديسه واحترامه بعبادة الأوثان بل هو المعبود قولا وفعلا والمذكور سرا وعلنا . ولقد ترى فى تفسير (سورة يونس) صورة منطقة البروج وحولها الكواكب المعروفة عند قدماء المصريين قد كشفوها مرسومة على صندوق أحد العظماء فالكواكب معظمات عندهم فى حياتهم وبعد موتهم . ومن ذلك ماذكرته لك هناك من أن الهرم الذى تراه مرسوما هناك مشروحا مذكورا سببه قد بنى بحذاء كوكب الشعرى المعبود المعظم عند القوم وقد كانوا يجعلون صورة الهرم مع الميت تيمنا بكوكب الشعرى الذى بنى الهرم بحذائه . وإذا مات الميت وجهوا وجهه إلى جهة الهرم المرموق بنظر ذلك الكوكب . هذا ماعثر الباحثون والكاشفون عليه فى خبايا الأرض وأحافيرها وطواميرها ونواويسها بالبلاد المصرية فى داخل الأجداث . ولقد عثروا على غرام الأحياء بالكواكب فى البلاد المصرية فوجدوا حبها متمكنا فى القلوب بحيث امتزج بالدم وبالعمل وبالدين (انظر ماتقدم فى سورة يونس) فانك ترى فى أولها هناك حساب الهرم وأنه بنى على سير الشمس وعلى مقتضى دائرتها السنوية وأن محيط الهرم منسوب لمحيط مدار الأرض حول الشمس وارتفاع الهرم منسوب لبعد الأرض عن الشمس حتى إذا هدم الهرم أمكن أن تعرف مقاييس من نفس مدار الشمس . وترى هناك مقاييس مصر كالذراع البلدى ومكاييلها كالأردب وموازينها كالرطل كلها مستخرجات من مساحة الهرم المبنية على مدار الشمس وعلى بعدها عن الأرض فارجع إليه إن شئت تجد العجب العجاب ، وهنا أزيدك تبيانا جميلا مما قرأته فى كتاب مترجم حديثا ترجمه أحد القائمين بالمتحف المصرى فآثرت نقل مايناسب المقام منه لتعجب من جمال الله الذى أشرق على الكواكب الراقصات فى جو السماء فأرقصت أهل الأرض وهاموا بالجمال والبهاء وجعلوه عبادة لله وإن كان هذا لا يوافق ديننا لأنه أشرف الأديان ولأن الله يقول لنبينا « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » فهاك مانقلته من ذلك الكتاب تحت عنوان : (الرقص وأنواعه وأوصافه) ترويحا للنفوس وتنويعا للدروس وتشويقا للعلوم والحكمة وفهما لقوله تعالى « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » وقوله تعالى « وزيناها للناظرين » وها هو ذا .

الرقص وأنواعه وأوصافه

(عند قدماء المصريين)

قال مونستريه : (كان قدماء المصريين يرقصون حول الهياكل والمعابد على شكل دائرة ويتخيلون الهيكل كالشمس فى كبد السماء فيدورون حوله تمثيلا لمنطقة البروج : أى كما تدور الكواكب والنجوم والسيارات حول الشمس دورتها اليومية والسنوية) وقال لوسيان : (كانت حركات الرقص عند قدماء المصريين تشبه فى السرعة انحدار الماء وتماوج لهيب النار فى الهواء وخيلاء الأسود وغضب الفهود وترنح الغصون ، فهو أبدع مايكون) .

قد دلت الآثار المصرية التى يرجع تاريخها إلى (٥٠٠٠) سنة على أن المصريين هم أقدم الشعوب مدنية وأوسعهم حضارة وقد توسعوا فى المدنية وفنونها حتى أتقنوا فن الرقص وأحكموا قواعده . ومما هو جدير بالذكر أنهم لم يتخذوا الرقص للخلاعة واللاهى كما نراه الآن بل كان عندهم خدمة للشعائر الدينية ونموذجا للحركات الفلكية وتمثيلا للأنغام الموسيقية ، وكانوا يقصدون من الرقص جملة فوائد دينية ودنيوية . أما الدينية فهو ما كانوا يتقربون به حول الهياكل والمعابد فقد قال كستيل بلاذ (إن تمجيد الخالق عند قدماء المصريين أداهم إلى إنشاء الأناشيد المقدسة وإحداث الرقص إظهارا لسرورهم وأفراحهم وقياما بشكر النعم وتمثيلا للعبودية والخضوع لمقام الربوبية حتى اعتبر قدماء الشعوب أن الرقص جزء جوهرى من دياناتهم ولم يكن ذلك قاصرا على المؤمنين منهم بل الطبيعيون أنفسهم وهم الذين يعتقدون أن الألوهية منحصرة فى نظام الطبيعة كانوا يرون أن مجموعة الأناشيد وأنواع الرقص ممثلة لاتحاد الكمالات فى ذلك النظام وكفيلة باحترام الطبيعة ومجدها) .

ومن العجيب أن قدماء المصريين بلغ احترامهم الرقص عندهم لدرجة أن اعتقدوا أنه من ضمن التعاليم المنزلة فقد قال ديودور الصقلى المؤرخ اليونانى المولود فى القرن الأول ق . م أن أوزوريس (وهو المعبود العظيم) كان يحترم توت (هرمس) ويجله نظير ماشرعه وبثه فى الهيئة الاجتماعية من علوم الفلك والموسيقى والرقص والألعاب الرياضية وغيرها من الفنون التى بلغت عندهم درجة الكمال وسبقوا بها الأمم فى مدارج الرفعة وسعادة الحياة ، قال مونستريه فى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٨٣ وسماه (الرقص القديم والحديث) ما نصه :

إن الرقص عند قدماء المصريين كان يعبر الحركات السماوية على نموذج الألحان الموسيقية وكانوا يرقصون حول الهياكل والمعابد على شكل دائرة ويتخيلون الهيكل كالشمس فى كبد السماء فيدورون حوله تمثيلا لمنطقة البروج أى كما تدور الكواكب والنجوم والسيارات حول الشمس دورتها اليومية والسنوية .

ولم نعثر فى النصوص المصرية القديمة على تفصيلات هذا الرقص الدينى القديم حول الهياكل وغاية ماقاله لوسيان المولود فى القرن الثانى للمسيح فى بلدة ساموزات التابعة لسوريا القديمة : إن مجموعة الكواكب ودائرة النجوم والسيارات هى محور لهذا الرقص الفلكى والرسوم المنقوشة فى المعابد والهياكل لم تدل على أى بيان لهذا الرقص الفلكى وقد كان له قوانين محترمة كغيره من الفنون . أما أفلاطون فقد وصفه وصفا مبهما حيث نقل عن قدماء المصريين أنه كان من واجب الشبيبة المصرية أن لاتتمرن إلا على الرسوم والألحان البالغة حد الكمال لذلك كانوا يختارون نماذج مخصوصة للرقص ويحددونها ويضعونها فى الهياكل والمعابد وكان محذورا على النقاشين والرسامين الذين يحضرون هذه المشاهد أن ينقلوا شيئا عنها أو يمثلوها فى الخارج حذرا باتا بمقتضى نصوص قوانين البلاد وقد قدسوا كل أنواع الرقص والأغانى .

قال (سبار) فى كتابه الذى سماه (تاريخ الشعوب الشرقية) إن المصريين القدماء كانوا أكثر الأمم تدينا وكانت أكبر اجتماعاتهم الدينية محافل طرب لميلاد إلههم وعودته أو مجامع حزن وبكاء لموته وكانت هذه الاحتفالات تشتمل على أنواع من الأناشيد المقدسة وأشكال من الرقص الدينى .

ونقل أيضا لوسيان أن الرقص والغناء كانا مقدسين عند قدماء المصريين ومن لوازم الاحتفالات الدينية وذكر (هيردوت) أن المصريين هم أول الشعوب الذين وضعوا الاحتفالات الدينية ومنهم أخذ اليونان جميع عاداتهم وتقاليدهم . وكان عند المصريين أعياد كثيرة فى كل سنة لأنهم كانوا يجعلون لكل معبود عيدا خاصا به وكانوا عندما يذهبون إلى مدينة (بوبسط) للاحتفال بعيد المعبودة (ديان) يركبون السفن فى النيل والنساء يلعبن فيها بالساجات والرجال يضربون بالناى مدة السفر ويغنون ويصفقون وكلما رست السفينة على شاطىء يجددون حفلة راقصة . وقد وصف (ابليه) الروائى الرومانى المولود فى القرن الثانى للميلاد حفلة عيد من أعياد المعبودة (اسيس) فقال (كان النساء فى ذلك اليوم يلبسن الثياب البيضاء ويضعن على رؤوسهن أكاليل الزهور تلوح على وجوههن علامات البهجة والسرور ويفرشن الطرق التى يمر منها المحفل المقدس بأنواع الورد والرياحين وينشدن نغمات لذيذة ويضربن بالناى ويليهن كوكبة من أعاظم المصريين لابسين الملابس البيضاء القيمة ويترنمون بالأناشيد المقدسة ثم يأتى بعدهم جماعات من الرجال والنساء من كل الطبقات المتأهلة للأسرار الإلهية لابسين حللا باهرة من الكتان الأبيض وكان النساء يضعن على رؤوسهن المعطرة المنسوجات الشفافة وكانت رؤوس الرجال محلوقة ويضربون على الأعواد التى يتخذونها من النحاس والفضة والذهب بتوقيعات مطربة مدهشة) وكانت الأمة كلها تشترك فى عيد العجل (أبيس) لإحياء مراسمه وتعظيما له وإجلالا لمقامه . ومن عجيب ما اتفق أن (كمبيز) ملك العجم رجع منهزما مع حربه مع إحدى الممالك فدخل مصر فى عودته فصادف دخوله يوم احتفال المصريين بعيد ظهور العجل (أبيس) وهم لابسون أفخر الحلل وقائمون بمظاهر الأفراح لهذا العيد وكان كمبيز قد دخل مصر قبل هذه المرة فلم ير من المصريين مثل هذا الاحتفال فظن أنهم يشمتون فيه وأن هذه الولائم والمحافل أقاموها فرحا بخذلانه وتشفيا فى انهزامه فى الحرب فاستحضر رؤساء مدينة (منفيس) وسألهم : لماذا يقيم المصريون الآن معالم الأفراح والزينات عندما فقدت جنودى فى ساحة القتال ورجعت بالفشل ولم أر ذلك منهم يوم دخلت (منفيس) أول مرة منتصرا ؟ فأجابوه : إن هذا اليوم صادف ظهور العجل (أبيس) معبودهم فأقاموا له الأفراح ومظاهر الأعياد فلم يصدقهم وأصر على اعتقاد أن ذلك شماتة به وأعلن غضبه على المصريين وأذاقهم أنواع النكال والعذاب .

قال (دى كاهو ذاك) فى كتابه الذى وضعه سنة ١٧٥٤ وسماه [الرقص القديم والحديث] ما نصه :

إن الرقص عند قدماء المصريين كان أمرا جوهريا فى الدين وقد تفننوا فيه حتى اخترعوا رقصا خاصا لعبد معبودهم العجل (أبيس) وذلك أنهم كانوا إذا مات العجل أخذوا يبحثون عن عجل غيره مستوف للشروط والعلامات الخاصة له حتى إذا وجدوه فرح به الكهنة وخصصوا لخدمته جمهورا من السيدات مدة أربعين يوما ثم يضعونه فى قارب ويذهبون به إلى الهيكل بمدينة (منفيس) مصحوبا بالكهنة وسراة القوم وجماهير عظيمة من طبقات الشعب ويستعملون لهذا الاحتفال ألف آلة موسيقية يوقعون عليها بمختلفات الأنغام وبدائع الألحان ثم يختمون الاحتفال بأنواع الرقص المدهشة . وكان إذا مات (العجل) أبيس هذا ألقاه الكهنة فى النيل ثم أخرجوه منه وحنطوه ودفنوه بكل الإجلال والإكرام ورقصوا الرقص الجنازى على شواطىء النيل وفى القفار والطرق وعم الأسف والحزن الشعب أجمعه ومتى ظهر لهم عجل آخر تبدلت الأتراح أفراحا وانقلبت المآتم مواسم وأقاموا الأعياد والولائم وأنواع الرقص مدة سبعة أيام . ثم توسعوا فى حفلات الرقص حتى

اتخذوها

اتخذوها شعارا لجنائزهم فقد عثر فى آثارهم على رسم راقصات لابسات ثيابا صفراء ومنهن ثلاث واقفات يضربن الطبول وثلاث أخر يرثين الميت . ويوجد فى مقابر (طيبة) منظر جميل ، يمثل حفلة مأتم الأمير (حور محب) وفيها امرأتان تقدمان للميت أوانى معدنية مملوءة زهورا وعطرا وثلاث نسوة أخر يرقصن ويضربن آلات موسيقية .

ويوجد أيضا رسم لرمنيو يمثل النساء راقصات ضاربات على الطبول حدادا على الميت بينما الرجال بأيديهم عصى من الخيزران يضربونها فى الهواء جهة اليمين واليسار ليطردوا الأرواح النجسة فى زعمهم . واشتهر الرقص عندهم أيضا فى الحروب ونقله الأثيوبيون وقد وصفه (لوسيان) فقال (كان الأثيوبيون إذا أرادوا الحرب يرقصون أولا فى ميدان القتال ولا يصوبون رماحهم إلى الأعداء قبل أن يرقصوا ويظهروا حركات حماسية يهددون بها الأعداء . ثم ازدادوا توسعا فى الموضوع فاخترعوا الرقص الحديث الذى عرف بالرقص العائلى الذى أخذه عنهم جميع الشعوب القديمة والحديثة) وقال ديودور الصقلى : (إنه لما ذهب أوزريس إلى أثيوبيا كان يصحبه تسع بنات يعرفن كل الفنون وأنواع الغناء والرقص وهن اللاتى نشرن هناك هـذه الفنون الجميلة)

﴿ صفة الرقص ﴾

قال (بارون) فى كتاب الرقص : إن الآثار المصرية القديمة تمثل أنواع الرقص العائلى . ولاحظ أخيرا روسيلينى سنة ١٨٣٤ أن حركات الراقصات المصريات فى الزمن القديم أكثر شبها بحركات الرقص فى عصره وكان الرقص عندهم على (نوعين : النوع الأول) يكون بحركات القدمين والذراعين (والنوع الثانى) بحركات كل أعضاء الجسم ؛ قال لوسيان (إن الرقص عند قدماء المصريين كانت حركاته تشبه فى السرعة انحدار الماء وتعاوج لهيب النار فى الهواء وخيلاء الأسود وغضب الفهود [1] وترنح الغصون فهو أبدع مايكون) .

ويوجد بالمتحف المصرى تحت نمرة ٣٣٣ بالدور الأسفل حجر اكتشف فى أحد قبور الأسرة الخامسة يمثل حفلة راقصة وفى أسفله ترى امرأتين تصفقان وأمامهما الراقصات يتمايلن على إيقاع التصفيق وفى أعلاه ترى رجلا يضرب آلة شبيهة بالعود وآخرين ينفخان فى اليراع المثقب (الناى) وبجانبهم الفنون المطربون وقد وضع أحدهم يده على وجنته ليتمكن من ضبط صوته ورفع آخرون أيديهم ليحسنوا الإيقاع ويرشدوا الموقعين كما هى العادة المتبعة اليوم . وكانت الموسيقى تتبع دائما الرقص وأهم آلات الطرب عندهم الطبلة والقيثارة والربابة والعـود والصنج والناى والأجرسة وغيرها ، ومحفوظ منها نموذج بغرفة من الدور الأعلى بالمتحف المصرى .

وكانت أثواب الراقصات تصل إلى أقدامهن مع اتساع الأبدان وهى من الشفاف الذى تظهر منه هيئة الأعضاء وحركاتها . قال (لافاج) فى كتابه الذى وضعه سنة ١٨٤٤ وسماه (الرقص القديم والحديث) إن الرقص عند قدماء المصريين كان على (نوعين : النوع الأول) مجرد حركات بسيطة (والنوع الثانى) تمارين رياضية يتمايل الجسم فيها إلى كل جانب بينما تخطو القدمان بسرعة بعض خطوات قليلة مع مد اليدين وتحريكهما يمنة ويسرة ومن هذا أخذ المتأخرون الرقص الحديث وتفننوا فيه فى كل زمان ومكان .

قد رأينا فى قبر (ن) رسما يمثل امرأة ترقص على الطراز الحديث وتخذها الأيمن معتمد على أطراف قدميها وذراعاها فوق رأسها وكانت حفلات الرقص تجعل عادة ختاما للولائم والأفراح والرسوم الموجودة

(١) الفهد من السباع وهو ضيق الخلق شديد الغضب ذو وثبات غريبة .

فى المتحف المصرى ومقابر (سقارة) و (بنى حسن) و (طيبة) تبرهن على أن الرقص قديم جدا وأنه باق على حاله لم يتغير منه شىء منذ (٥٠٠٠) سنة وأنه كان معتبرا عندهم علما وفنا له قواعد أساسية لاتتغير ولا تزال معالمه محفوظة إلى اليوم عند جميع الشعوب الشرقية والغربية اهـ .

وإنما نقلت لك هذا أيها الذكى لتنظر فى أمر هذه النجوم وكيف هام بجمالها النوع الإنسانى كله وكيف هام الناس بربهم وتشوقوا اليه بما رأوا فى مصنوعاته من الجمال ؟ ولا تظن أن أمم الإسلام غفلت عن هذه المباحث الدقيقة فانظر كتاب السماع فى الإحياء للغزالى وكيف أباح السماع إذا لم يثر الشهوة البهيمية بشروط خمسة فاقرأها هناك وانظر فى كتاب الإشارات لابن سينا ، فقد قال إن العبادة مع الفكر موصلة لله وقال أيضا إن الصوت اللطيف بشروط خاصة موصل إلى الله عز وجل . وأنا لست الآن فى مقام الأخذ بقول من هذه الأقوال ولكنى أريد بذلك أن الأمم كلها إسلامية وغير إسلامية نظرت فى الجمال المنظور والجمال المسموع فالمنظور من الجمال والمسموع من النغمات كلاهما هياج النفوس إلى معالى الأمور ، وتجد الإمام الغزالى فى الإحياء يفصل المقال عند القوم ويبين مايوصل إلى الحكمة وما يكون قاطعا للنفوس عن الوصول . فانظر كيف شغف قدماء المصريين بالكواكب فى الموازين ونحوها وفى لهوهم وفرحهم ومآتمهم . وهكذا الأمم جميعها قديمها وحديثها تلعب (النرد) وما النرد إلا مثال للنظام السماوى فالحجران اللذان يرميهما اللاعبون كل واحد منهما له ستة أوجه عدد الجهات الست وفى كل وجهين متقابلين (٧) نقط فان كان فى أحدهما (١) كان مقابله (٦) وإن كان (٢) كان مقابله (٥) وإن كان (٣) كان مقابله (٤) وهكذا فهذان الحجران يمثلان عالم الأفلاك الدائرة فى مداره والنقط السبع تمثل الكواكب السبعة المعروفة عندهم التى تأتى بالسعد والنحس فى عرفهم وما يصيب اللاعب من خير وشر كالذى يصيب الحى من خير وشر بسبب استعمال ماتأتى به هذه الكواكب من سعد ونحس فالحى واللاعب كلاهما يأتيه ما كان مجهولا عنده وذلك بطريق المصادفة والمدار على حسن استثمار ما جاء له وبضدها تتميز الأشياء . فهذه دلائل على أن هذا الإنسان كان مغرما بالكواكب فرحابها متجها للعالم العلوى ومن عجب أنى رأيت اليوم رأيا للعالم المخترع الكبير الأمريكى المسمى (اديسون) فى أصل الحياة يقول إنها أتت لنا من عوالم أخرى مجهولة لنا فرجع بهذا إلى ما كان عليه القدماء إذ كانوا مغرمين بالكواكب والعوالم العلوية وأن منها السعد ومنها النحس ولكن اديسون لايعين ذلك العالم الذى أتت منه الحياة وإنما يقول هو عالم غير العالم الأرضى مستدلا بأن الأرض كانت كرة غازية فلما ظهرت فيها الحويصلات الحيوية فى البذر والبيض والحيوان والإنسان احتلتها تلك الحياة ونظمت شؤونها وهى وإن كانت طارئة على الأرض تميز بين بيضة الدجاجة واستعدادها وبيضة المرأة وتعطى كلا منهما حياة تناسبه وزاد على ذلك أن الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان تحتوى على ملايين الذرات التى أعطيت قوة التعقل والتفكر والتدبر والعمل وهى طوائف كطوائف الناس فكل له عمل وهذا هو السبب فى أننا نرى الجرح إذا سال دمه يلتئم وهذا الالتئام ناشىء بأعمال متقنة مبنية على علم بل يقول إنها تعقل أكثر من الإنسان ويقول أيضا هو لحدثه كما جاء فى جرائد الدنا المصرية يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٢٨ إنه لما أغلق أحد العمال عليه باب السيارة انطبق على أصبعه فطار منها الظفر فها هو ذا أخذ يندمل ومن أين هذا الاندمال ؟ إنما تصنعه تلك الخلايا التى تعد بالملايين فى أصبعى وهى تعقل ماتفعل ومنها المدبرات أمرا والعاملات والصانعات . أقول وكأنه نطق بقوله تعالى «إن كل نفس لما عليها حافظ» وبقوله تعالى «فالمدبرات أمرا» وبقوله تعالى «بأيدى سفرة ، كرام بررة » وبقوله تعالى « وما منا إلا له مقام معلوم » وبقوله تعالى «وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون» وهكذا من آيات أخرى . ويقول (إديسون) المخترع المشهور المذكور أيضا إن هذه

الخلايا

الخلايا المتحدة ما هى إلا ممالك متحدة منظمة فما دام العمل بينها قائما على السداد بقيت وإذا حصل اضطراب غادرتها تلك الحياة التى جاءت لها من عوالم أخرى وكأنه نطق بقوله تعالى «وفى السماء رزقكم وما توعدون»

ومما قاله لمحدثه أيضا إن أباه أخذ منه نقودا وسافر إلى أوروبا وشاهد ما أراد من البلاد ورجع مسرورا وكانت سنه فوق الثمانين ولما بلغت سنه فوق (٩٣) سنة قال يابنى إنى أريد أن أموت فقال له ولماذا قال لأن كل ما كنت أريد الاطلاع عليه وعمله فى هذه الأرض قد تم فلا معنى لبقائى ، وأنا متوجه الى أختك لأموت عندها فحاولت منعه فلم أقدر فتوجه لها وهو صحيح الجسم قوى متين ومات بعد ثلاثة أيام . قال وإنما مات لأنه أحس بأن تلك الخلاية فى الجسم رأت أنه لا ملاءمة بينها فسئمت البقاء على الاجتماع فأنذرته بلا حرف ولا صوت ففارق الحياة . أقول ومما قرأته فى كتاب (الأسفار) للشيرازى أن سبب الموت الطبيعى أن الروح لاتزال تزداد حرارة والجسم يزداد برودة بتقدم السن حتى لا يقدر الجسم على حفظ الروح لشدة حرارة حبها للعالم العلوى فتنطلق منه وهذا الرأى أيضا خاص بصاحبه كما أن رأى (أديسن) المذكور (مخترع الفنوغراف وغيره) خاص به «وفوق كل ذى علم عليم» .

وأنت خبير أيها الذكى أنه لم يقل هذا على أنه يقين عنده بل يقوله من باب الفرض لاغير ونحن نعتبره كذلك؛ ومن عجب أن يكون هذا الفرض هو الذى ألقاه بطريق اليقين عنده وفى نظرة الشيخ الدباغ الذى نقلت عنه كثيرا فى (سورة الكهف) وغيرها إذ يقول هو ويقول الشيخ الخواص (إن الجمادات جميعها تعقل) وهذا الفرض الذى فرضه (أديسن) والقول الذى قاله الشيخ الخواص والدباغ ذكرته هنا ترويحا لاتعليا ودعا إلى ذكرها مسألة الكواكب وأن القدماء فرحوا بها وعشقوا ربهم بالتفكر فيها وخلطوها بجدهم وهزلهم بل قالوا إنها سبب سعدهم ونحسهم فقلنا إن بعض أهل عصرنا يرجع الحياة فى الأرض إلى تلك العوالم .

هذا والقرآن لم يدع فرصة تمر إلا ذكر السموات والأرض وأمر بالتفكير فيها وهذا معناه أن المسلم عليه أن يكون أحرص على جمال هذه العوالم من الأمم السابقة لأننا خير أمة أخرجت للناس وهل خير الأمم يجهلون ماعلمه من هم أقل منهم من جمال الله وكماله ، أما أنا فأقول سيكون بعدنا أمم إسلامية يكونون أرقى من الأمم السابقة واللاحقة وهذا التفسير بحمد الله من مقدمات تلك النهضة العجيبة والحمد لله رب العالمين . انتهى مساء يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ بهجة السموات ﴾

(كيف تعرف صور النجوم السماوية)

اعلم أن علم الفلك قد خطا فيه الأولون خطوات واسعة . ولقد كنا نتعلمه فى (دار العلوم) فى أواخر القرن التاسع عشر وهذا صورة ماتلقينا نقلته من كتاب المرحوم أستاذنا حسن حسنى بك فلأذكر مافيه هنا من صور النجوم ومن الآراء المعروفة إذ ذاك ولكن الذى عرف بعد ذلك أكثر مما يدلك أن العلم اليوم سريع الخطو حتى إن الأجرام السماوية التى عرفت للآن أبعدها يصل نوره لنا فى مائة مليون سنة وهذا القدر عظيم جدا فهو فوق العقل البشرى . وقد عدوا نجوم المجرة (٢٠) مليونا وهى الآن تعدت ثات الملايين فهاك مافى الكتاب المذكور .

﴿ وصف السماء ، الصور السماوية ، النجوم المشهورة ﴾

(٢٥) الاحصائيات . الكرات والخرط السماوية .

الفلكيون بمعرفتهم الطرق التى بها تعين الأوضاع المضبوطة للنجوم على الكرة السماوية أمكنهم أن ينشئوا إحصائيات فيها النجوم مرتبة على حسب كبر مطالعها المستقيمة وأمام كل نجمة مطلعها المستقيم وميلها

واستعملوا هذه الاحصائيات لوضع النجوم بأوضاعها النسبية على كرة صناعية ، وذلك بأن يرسم على سطح هذه الكرة الصناعية دائرة عظيمة من نقطة ما مثل (ق) نعتبرها القطب الشمالي مثلا وتكون هذه الدائرة العظيمة هي دائرة المعدل ثم ترسم جملة دوائر أخرى موازية لها وتكون هي الموازيات التي ترسمها النجوم تبعا للحركة اليومية ثم ترسم جملة دوائر عظيمة تدل على دوائر الميل ثم تعلم على سطح هذه الكرة جملة نقط تبين كل واحدة منها بالمطلع المستقيم والميل لنجمة مطابقة ويتحصل حينئذ على كرة سماوية كالكرات الصناعية المبينة لسطح الأرض ، وكذلك تنشأ خرط سماوية بطرق المساقط .

(٢٦) الصور السماوية . النجوم الأصلية ـ لأجل مساعدة الذاكرة في دراسة النجوم قسموها من القدم إلى مجموعات متميزة تسمى (الصور السماوية) وهي صور كائنات حية وغير حية تصوروا رسمها على الكرة السماوية وليس كل هذه الصور مشابهة لمسمياتها بل البعض فقط وذلك كالنجوم الأصلية من صورة الثور فان لها وضعا مثلثيا يشابه نوعا الجزء العظمى من رأس هذا الحيوان وكذا العقرب والإكليل والحية والتنين ولبيان نجوم كل صورة تستعمل الحروف الهجائية ، فالحروف (ا) و (ب) و (ج) و (د) تدل على أربعة نجوم أصلية من كل صورة بحيث أنه بالمرور من صورة إلى أخرى تكون هذه الحروف مبينة لنجوم تختلف عن بعضها في الضوء .

(٢٧) عدد الصور . قدعد (بطليموس) ٤٨ صورة منها ٢١ في الشمال و ١٥ في الجنوب و ١٢ في الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعدل في المنطقة التي يظهر أن الشمس تقطعها في سيرها السنوي ويشتمل مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على (١٠٢٩) نجمة ، منها (٣٦١) للصور الشمالية و (٣١٨) للصور الجنوبية و (٣٥٠) للصور المنطقية ، والاثنتا عشرة صورة المنطقية اعتبرت المنازل المتتالية للشمس في مدة سنة . وأسماؤها هي : (حمل . ثور . جوزاء . سرطان . أسد . سنبلة . ميزان . عقرب . قوس أورامي . جدى . دلو . حوت) وهي مجموعة في قول بعضهم :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

والإحدى والعشرون صورة الشمالية هي (الدب الأصغر أو بنات نعش الصغرى . الدب الأكبر أو بنات نعش الكبرى . التنين أو الثعبان . الملتهب . العوا . الإكليل الشمالي . هركول أو الجاثي على ركبتيه . النسر الواقع أو السلحفاة . الدجاجة . ذات الكرسي . برشاوش . ماسك العنان . الحواء . الحية . السهم النسر الطائر . الدلفين . الفرس الأعظم . الفرس الأصغر . المرأة المسلسلة . المثلث الشمالي أو الدلتا) .

والخمس عشرة صورة الجنوبية هي (قيطس . الج . . نهر الأردن . الأرنب . الكلب الأصغر . الكلب الأكبر . السفينة . الشجاع . الكاس أو الباطية . . . راب . المجراب أو المجمرة . سنطورس . الذئب . الاكليل الجنوبي . الحوت الجنوبي) .

(٢٨) والنجوم التي تتكون منها الصور المعروفة عند الأقدمين تنقسم إلى أقدار فأضوؤها تسمى من القدر الأول ثم مايليها في الضوء يسمى من القدر الثاني وهكذا والقدر الثالث يشتمل على النجوم التي هي آخر ما يمكن رؤيته بالعين وهذا الترتيب اعتباري لأ. . آخر نجمة من القدر الثالث مثلا يمكن أن تكون هي أول نجوم القدر الرابع ولذا يوجد اختلاف بين . . لكيين في هذا الاعتبار ، ولكن المتأخرين حافظوا على هذا التقسيم وعلى رأى الموسيو (أرجيلاندر) يحتـ . . نصف الكرة الشمالي على ٩ نجوم من القدر الأول و ٣٤ من القدر الثاني و ٩٦ من الثالث و ٢١٤ من . . رابع و ٥٥٠ من الخامس و ١٤٣٩ من السادس .

والمجموع

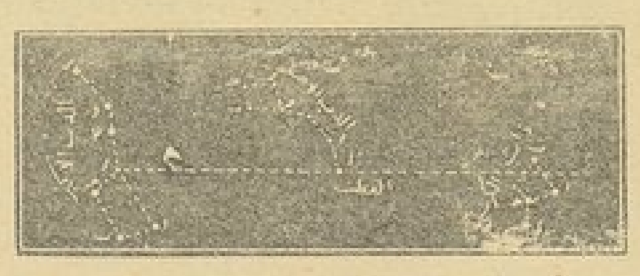
والمجموع هو ٢٣٤٢ وأما نصف الكرة الجنوبي فيحتوى على ٤٦٨٤ نجمة منها ١٨ من القدر الأول و ٦٨ من الثاني و ١٩٢ من الثالث و ٤٢٨ من الرابع و ١١٠٠ من الخامس و ٢٨٧٨ من السادس ، وأشهر الخرط لا تعطى اليوم سوى ٢٠ نجمة من القدر الأول وهى مرتبة على حسب ضوئها :

أسماء	أسماء	أسماء
(١) الشعرى اليمانية	(٨) الشعرى الشامية	(١٥) الطائر
(٢) سهيل اليمن	(٩) كتف الجبار	(١٦) السماك الأعزل (نير السنبلة)
(٣) (ا) من سنطورس	(١٠) آخر النهر	(١٧) فم الحوت
(٤) السماك الرامح	(١١) الدبران	(١٨) (ب) من الدجاجة
(٥) رجل الجبار	(١٢) (ب) من سنتورس	(١٩) رأس التوأم المؤخر
(٦) العيوق	(١٣) (ا) من الدجاجة	(٢٠) قلب الأسد
(٧) الواقع	(١٤) قلب العقرب	

(٢٩) عدد النجوم المنظورة ـ يظهر أن عدد النجوم التي ترى بالعين عظيم جدا . ولقد حصر المسيو (أرجيلاندر) ٣٢٥٦ نجمة ترى بالعين وتمتد على القبة السماوية بين القطب الشمالى ٣٦ درجة من الميل الجنوبي وهذه المنطقة تشتمل تقريبا على ٨ من ١٠ السطح الكلى للكرة وبهذه النسبة يكون للعشرين الأخر (٨٤٤) نجمة ويكون العدد الكلى للنجوم التي ترى بالعين (٤١٠٠) نجمة . وبعض الراصدين ذوى البصر الحاد أمكنهم رؤية بعض نجوم من القدر السابع حتى أن العدد السابق وصل إلى (٦٠٠٠) نجمة تقريبا أو أزيد من ذلك . وإذا استعملت النظارات يزيد هذا العدد كثيرا ويصل إلى (٢٠٫٤٠٠٫٠٠٠) نجمة تقريبا فى جميع السماء من ابتداء القدر الأول لغاية القدر الخامس عشر .

(٣٠) وصف السماء ـ أسهل طريقة لمعرفة الصور السماوية هى مقارنة السماء بالخرط السماوية المنشأة على حسب القواعد . وإذا لم توجد خرط وأريد ذلك فبمساعدة بعض نقط تعتبر مبدأ يمكن إيجاد المجموعات النجمية الأصلية وفى قطرنا (مصر) نجعل المبدأ صورة الدب الأكبر .

الدب الأكبر (شكل ٤١) ـ إذا وجه الإنسان نظره جهة الشمال فإنه يرى صورة الدب الأكبر وتحتوى على سبع نجوم أصلية وجميعها من القدر الثاني ماعدا النجمة (د) فهى من القدر الثالث والنجوم (هـ) و (و) و (ر) تكون ذنب الدب الأكبر (انظر شكل ٣٩) .



(شكل ٣٩ ـ الدب الأكبر)

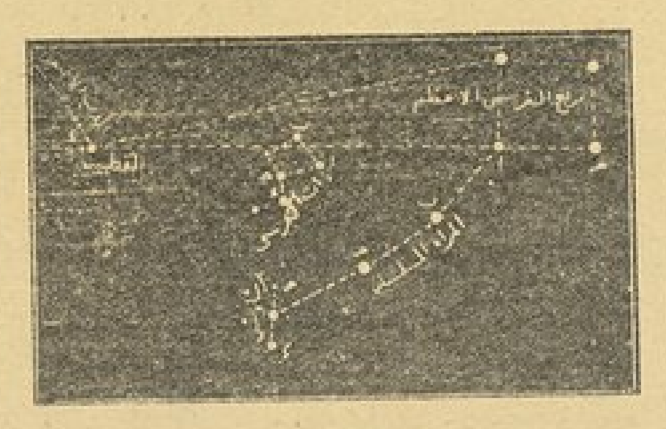
(النجمة القطبية) - إذا مد الخط (ب ا) من جهة (ا) بعد يساوى (ا ر) فانه يمر بالقرب من نجمة من القدر الثانى أو الثالث وهى النجمة القطبية التى تستعمل فى إيجاد جميع الصور المهمة المنظورة فى سماء مصر وهذه النجمة لاتبعد عن القطب إلا بقدر درجة ونصف وبواسطة النجمة القطبية يسهل معرفة الأربع نقط الأصلية فانه بالنظر إليها يكون الشمال أمام الناظر والجنوب خلفه والشرق عن يمينه والغرب عن يساره ، والنجمة القطبية هى ثالث نجمة من ذنب صورة مشابهة للدب الأكبر إلا أنها أصغر منها وموضوعة بعكسها وتسمى الدب الأصغر .

(ذات الكرسى) - إذا وصل بين نقطة (د) من الدب الأكبر والنجمة القطبية بمستقيم ومد من جهة النجمة القطبية بكمية تساويه توجد ذات الكرسى وهى تشتمل على جملة نجوم من القدر الثالث وهذه الصورة هى فى مقابلة الدب الأكبر دائما بالنسبة للنجمة القطبية .

(الفرس الأعظم) - المرآة المسلسلة - (شكل ٤٠) - إذا مد الخط الذى عين النجمة القطبية من جهتها فانه يقابل صورة الفرس الأعظم وبإضافة النجمة (ا) من المرآة المسلسلة إليه يتكون مايسمى مربع الفرس الأعظم وزوايا هذا المربع تشغلها نجوم من القدر الأول فاذا وصل بين (ا) من الفرس الأعظم و (ا) من المرآة المسلسلة توجد النجمتان (ب) و (ج) من المرآة المسلسلة اللتان تأخذان فى الاقتراب من النجمة القطبية .

(برشاوش) - إذا مد الخط (ب ج) من المرآة المسلسلة يمر بالنجمة (ا) من برشاوش ومربع الفرس الأعظم والخط (ب ج) من المرآة المسلسلة والنجمة (ا) من برشاوش تكون جملة شكلها يشابه الدب الأكبر إلا أنه ذو امتداد أعظم منه .

(الغول) - النجمة (ا) من برشاوش - توجد أيضا على امتداد الخط (ا ج) من مستطيل الدب الأكبر وإذا مد هذا الاتجاه الأخير قليلا من جهة (ا) يقابل (ب) من برشاوش وتسمى الغول وهى نجمة شهيرة جدا يتغير ضوؤها تغيرا عظيما ، والغول هى أضوأ نجمة من رأس الغول موضوعة فى يد برشاوش (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠)

(السنبلة) - (السماك الأعزل) - (شكل ٤١) نحو الجهة المقابلة لنصف الكرة وتقريبا على امتداد قطر مستطيل الدب الأكبر توجد صورة السنبلة وتحتوى على نجمة من القدر الأول تسمى السماك الأعزل (انظر شكل ٤١) .

شكل ٤١



(شكل ٤١)

(الأسد ـ قلب الأسد) ـ إذا مد الخط (ا ب) من الدب الأكبر في الجهة المضادة للنجمة القطبية فانه يمر بصورة الأسد ، والنجمة (ا) من هذه الصورة هي من القدر الأول وتسمى قلب الأسد .

(الجوزاء) رأس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر (شكل ٤٢) . القطر الثاني (ب د) من مستطيل الدب الأكبر ممتدا من جهة (ب) يقابل جملة نجوم شهيرة منها (ا) و (ب) أو رأس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر من صورة الجوزاء (انظر شكل ٤٢) .

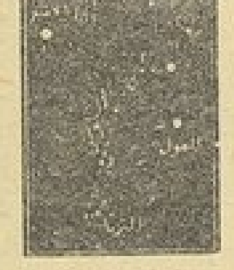


(شكل ٤٢)

(الكلب الأصغر) (الشعرى الشامية) النجمة (ا) وهي الشعرى الشامية من الكلب الأصغر توجد على امتداد الخط الواصل بين النجمة القطبية ورأس التوأم المقدم من جهة هذه الأخيرة ، وإذا مد الخط (د ب) من جهة الشعرى الشامية فانه يقابل النجمة (ا) أو الشعرى اليمانية من الكلب الأعظم وهي أضوأ نجوم السماء .

(ذو العنان) (العيوق) (شكل ٤٢) إذا مد الخط (ب ج) من المرأة المسلسلة من جهة (ا) من برشاوش توجد نجمة من القدر الأول وهى (ا) من ذى العنان أو العيوق .

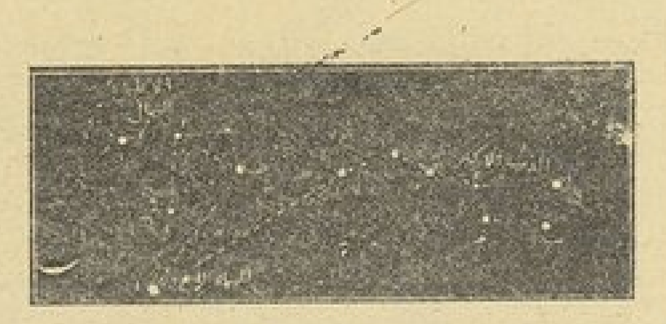
(الثور) (الدبران) (شكل ٤٣) إذا مد الاتجاه (د ا) من الدب الأكبر من جهة ذى العنان فانه يمر بصورة الثور ويمر بالقرب من الدبران أو عين الثور وهى نجمة من القدر الأول وفى صورة الثور توجد الثريا وأرجل التوأمين (انظر شكل ٤٣) .



(شكل ٤٣)

(الجبار) (الكلب الأعظم) (الشعرى اليمانية) إذا مد الخط الواصل بين النجمة القطبية والعيوق من جهة العيوق فانه يقابل الجبار وهو أجمل صورة فى السماء (شكل ٤٢) ويحتوى على سبع نجوم أصلية أربع منها موضوعة على شكل شبه منحرف وفى مركزه توجد الثلاث الأخر التى هى أقل ضوء من الأربع وتوجد هذه النجوم الثلاث على خط مستقيم وتكون مايسمى منطقة الجبار أو العصا ورأسان من رؤوس شبه المنحرف هما نجمتان من القدر الأول (ا) أو كتف الجبار و (ب) أو رجل ، وإذا مد الخط العصا يقابل الشعرى اليمانية من الكلب الأعظم التى علمت بتخطيط آخر .

(العواء) (السماك الرامح) (شكل ٤٤) إذا مد ذنب الدب الأكبر فانه يمر بالقرب من نجمة من القدر الأول منسوبة إلى صورة العواء هى السماك الرامح وهى أضوأ نجوم السماء بعد الشعرى اليمانية (انظر شكل ٤٤) .



(شكل ٤٤)

(النسر الواقع) ـ (الواقع) الخط الواصل بين السماك الأعزل من السنبلة والسماك الرامح من العواء يمر بصورة النسر الواقع بالقرب من نجمة من القدر الأول هى (ا) من النسر الواقع وتسمى الواقع .

(الدجاجة) ـ بجانب النسر الواقع توجد صورة الدجاجة المركبة من خمس نجوم مكونة صليبا والنجمة (ا) من هذه الصورة من القدر الأول .

(الاعتدال الربيعى) على امتداد المستقيم المار بنقطة (د) من الدب الأكبر و (ا) من الدب الأصغر و (ا) من المرأة المسلسلة توجد نقطة الاعتدال الربيعى على دائرة المعدل والدبران وقلب العقرب وقلب الأسد وفم الحوت من الحوت الشمالى تقسم السماء إلى أربعة أجزاء متساوية وهذه النجوم الأربع الملقبة بالنجوم

للوكية كانت هى أربع حراس سماء العجم بنحو (٣٠٠٠) سنة قبل الميلاد وكان الدبران فى الاعتدال الربيعى هو حارس الشرق وقلب العقرب فى الاعتدال الخريفى وهو حارس الغرب ، وقلب الأسد قريب من المنقلب الصيفى وفم الحوت على بعد صغير من المنقلب الشتوى ولكن هذه النقط تغيرت اليوم انتهى .

هذا هو الذى كنا قرأناه منذ نحو أربعين سنة وكان هذا نهاية العلم فى ذلك العصر فلأذكر لك هنا أيها الذكى نهاية ما وصل إليه علم الفلك فى زماننا هذا حتى إذا فارقنا هذه الدنيا كان مجمل ماعند الناس فى زماننا من علم الفلك حاصلا أمام المسلمين كى يجدوا باعثا من نفوسهم وداعيا من عقولهم يدعوهم إلى مشاركة الأمم فى بحثها والمسارعة إلى تحصيل علومها ثم الزيادة بما يؤتيهم الله من فضله ؛ لأن كتابنا يأمر بالبحث والنظر ولأن المحروم من هذه المباحث وأمثالها محروم من السعادة ومن الحكمة ومن النعيم السرمدى الذى يحس به المفكرون العالمون فى هذا العالم قبل انصرام آجالهم وفوات أعمارهم فهم مع الناس فى أحوال هذه الحياة وقلوبهم فى نفس تلك الحال فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمفكرين فى الدنيا والآخرة والناس حولهم يجهلون وهم بما فى نفوسهم فرحون . هذا. وإن مدة الأربعين سنة التى مرت بين أيام تعلمنا وبين تأليف هذا التفسير اليوم قد خطا فيها العلم بالفلك خطوات تعد بالقرون بل بآلاف السنين ، فكيف إذا مرت أربعون أخرى ؟ كيف يكون علم الفلك إذ ذاك ؟ وكيف يكون المسلمون وكيف تكون حالهم ؟ أيكونون عالة على الأمم ؟ أم يكون فيهم حكماء وعلماء بكل علم ومنها الفلك وتكون المراصد فى نفس بلادهم . سيقرأ هذا من بعدنا وسيقرؤه أناس بعد مرور أربعين سنة وسيقولون ليطرب المؤلف وليفرح فى برزخه، فها نحن أولاء قد علمنا أكثر مما علمت الأمم حولنا وها نحن أولاء شاركنا الأمم فى علومها وضربنا فى علومها بسهم وأخذنا قسطا من الحكمة والعلم ولم نعد مغرورين كأولئك الذين كانوا عن العلم معرضين وبالحكمة جاهلين ، والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩ .

وهاك ما جاء فى (مجلة المقتطف) فى شهر يوليو سنة ١٩٢٨ .

ما وراء المجرة

(العوالم الجزرية وعظمة الكون ـ أحدث المباحث الفلكية)

علم الفلك أو علم الهيئة من أسمى العلوم وأعلقها بالنفس ، وإذا أريد التدقيق فيه فهو من أعوص العلوم لأنه مبنى على أدق القوانين الرياضية والطبيعية ، وهو كذلك أول علم استقرى الانسان شيئا من قواعده وأدق علم وصلت إليه معارف البشر وأسمى علم يتفرغ له كبار العلماء . وفيما يلى نبذة من أحدث المباحث الفلكية فى موضوع يفتن كل لب وهو سعة هذا الكون وعظمة مبدعه ، فقد أثبت علماء الفلك حديثا أن فى الفضاء أكوانا عديدة كل كون منها مثل المجرة التى منها نظامنا الشمسى سعة وعظمة حتى إذا صغرت أرضنا وصار حجمها حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذى يرى بالتلسكوب حجم الأرض ، وبلغ حجم الكون كله على مايقضى به مذهب (اينشتين) ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، فما أصغر أرضنا إزاء هذا الكون العظيم ، وما أحقر أمورنا ومنازعاتنا إزاء القوى التى تديره وتحركه .

أدرك القدماء أن فى القبة الفلكية أجراما غير الشمس والقمر والنجوم لأن الذين راقبوا السماء منهم فى ليال صافية شاهدوا قرب كوكبة الجبار وكوكبة المرأة المسلسلة تلك الغيوم المنيرة التى ندعوها بالسدم الآن . وقد أشار إليها أبو الحسن الصوفى أكبر علماء الفلك عند العرب فقال إنه رأى سديم المرأة المسلسلة وسماه (لطخة سحابية) وأشار إليه وإلى غيره مما عاثله بكلمة اللطخة أو السحابى ، على أن هذه الأجرام بقيت أسرارا مغلقة على الفهم البشرى حتى كشف التلسكوب فأزاح اللثام عن حقيقتها ، فلما استنبط (غليليو) تلسكوبه الكاسر وجهه إلى أنحاء المجرة التى تظهر فيها السدم أو اللطخ السحابية فثبت له أنها فى الحقيقة مجاميع من النجوم تظهر قريبة بعضها من بعض لبعدها فتعتذر رؤيتها نجما نجما . وفى آخر القرن السابع عشر استنبط (السر إسحاق نيوتن) التلسكوب العاكس وعكف العلماء على إتقانه ، فلما انقضت مائة وخمسون سنة على استنباطه صنعت تلسكوبات كبيرة واستعمل اللورد (رس) أحدها فى البحث عن حقيقة السدم فوجد أن السديم الذى فى كوكبة السلاقين يظهر لدى رؤيته بتلسكوب قوى مجموعة من الكواكب منتظمة فى شكل حلزونى ومن ثم صار البحث عن السدم الجديدة والانقطاع لدرس أشكالها وبنائها من أكبر أعمال الفلكيين شأنا وأغلقها بألبابهم وقد كشفت حتى الآن مئات من السدم اللولبية وغيرها ، وما كاد العلماء يكشفون هذا القدر منها حتى أخذوا يتكهنون فى حقيقتها وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، هل هى مجاميع من النجوم تظهر لطخا سحابية لبعدها وأنها إذا نظر اليها بتلسكوب قوى حللها إلى أجزائها ؟ أم هى غيوم منيرة بنور النجوم القريبة منها ، أم هى غاز ملتهب منتشر فى الفضاء ؟

فى الجواب عن هذه الأسئلة أثبت (السر وليم هجنس) إن من السدم ماهو مجموع نجوم ترى نجوما لبعدها الشاسع ، ومنها ما هو فى الحقيقة لطخ سحابية من الغاز الملتهب لأن خطوطها الطيفية تماثل خطوط غاز بلغ من الحر درجة أخذ يبعث عندها بمقادير القوة التى يتميز بها عن غيره من الغازات ، ومن هذا القبيل سديم الجبار الكبير وغيره من السدم المنتشرة فى الفضاء ، فاذا بلغت الغازات التى تتألف منها هذه السدم درجة كبيرة من الحر أطلقت تلك الأشعة التى لاتشعها الجواهر إلا حين انحلالها ، وقد أثبت علماء الحل الطيفى أن فى هذه السدم عناصر الهيدروجين والهليوم وأحيانا النتروجين والكربون وأن فيها عنصرا لم يجدوا له مثيلا فى عناصر الأرض فأطلقوا عليه اسم (نبوليوم) أى السديمى ، وليست كل السدم على درجة من الحرارة تحملها على إرسال أشعتها إلى الفضاء فبعضها مضىء بالنور المنعكس عنه الصادر من الكواكب المجاورة له فى الفضاء ، وبعضها بارد يمتص نور الكواكب الذى يصل إليه فتراه لطخا مظلمة فى صدر الكون ومن هذ النوع سديم مظلم فى جهة الصليب الجنوبى يدعى باللغة الانكليزية غير العلمية (كيس الفحم) وقد وقف الأستاذ (برنار) الأميركى حياته على درس هذا النوع من السدم فذكر (١٨٠) سديما منها تتباين من اللطخ الصغيرة الواضحة الحدود إلى الغيوم السديمية التى تشاهد قرب كوكبة الحواء . فالأجرام السماوية التى تعرف بالسدم تقسم إلى [قسمين : أولهما] غيوم من الغاز الملتهب [والثانى] السدم اللولبية وما إليها وهى فى الغالب مجاميع من النجوم تظهر لطخا لبعدها ، وكان الرأى أولا أن هذه السدم اللولبية مجاميع صغيرة من النجوم تحيط بشمسنا من كل الجهات ولكن لما أتقنت آلات الرصد والتصوير والحل الطيفى ثبت للعلماء أنها لاتقاس بنظامنا الشمسى لسعتها بل كل منها كون مستقل كالمجرة التى تحيط بنا ، وثبت أيضا أن فى الفضاء ألوفا من السدم اللولبية كل منها سعته سعة مجرتنا ، ولا يعقل أن تكون ضمنها لذلك قيل إن كلا منها كون مستقل بنفسه خارج مجرتنا وأطلق عليها علماء الفلك من الأميركيين اسم (الأكوان الجزرية) ولما كانت لفظة (كون) تطلق عادة على كل ما أبدعه مبدع السموات والأرض فاستعمالها فى الانكليزية والعربية مخرج

يذهن القراء عن منطوقها الأصلي ولكن اصطلح عليها علماء الافرنج بجارينامهم في ذلك ، فالسدم من هذه الجهة تقسم إلى [قسمين] أيضا (الأول) السدم التي داخل مجرتنا (والثاني) السدم التي خارجها .

لايخفى أن مجرتنا مجموعة عظيمة من النجوم والسدم الغازية وهي تشتمل على كل الكواكب التي ترى بالعين المجردة وألوف من الكواكب التي ترى بالتلسكوب وملايين أخرى لاترى إلا بالآلة الفوتغرافية فانها لبعدها لاتترك أثرا في اللوح الفوتغرافي الحساس إلا بعد مايتعرض لنورها الضئيل القادم من أطراف الفضاء ساعات متوالية . والثابت من رصد المجرة بكل وسائل الرصد المعروفة أنها قرص عدسي الشكل طول قطره نحو مائة ألف سنة نورية وسمكه (٢٠) ألف سنه نورية وأن نظامنا الشمسي في وسطها تقريبا ، وفي هذا القرص نحو ٣٠ ألف مليون نجمة منتشرة في فضائه على أبعاد كبيرة . ولما كانت هذه النجوم لايبعد أحدها عن الآخر بعدا واحدا فان بعضها يرى مجتمعا كتلا كتلا في أنحاء مختلفة وهذه لبعدها تظهر كاللطخ السحابية كما ترى في كوكبي الرامي وهرقل ، وفي المجرة أيضا سدم غازية بعضها منير وبعضها مظلم على ماس .

نعود الآن إلى السدم التي خارج المجرة وهي تلك الغيوم الغازية المنتشرة في الفضاء خارج المجرة كانتشار الجزائر في بحر مترامي الأطراف ، وأشهر العلماء الذين عنوا بدرس هذه السدم هو الأستاذ (هبل) من علماء مرصد (جبل ولسن) الأميركي فقد أشار له في رسالة حديثة له نشرها في (مجلة الاستروفزكس) [علم الفلك الطبيعي] إلى نتيجة بحثه في أربعمائة سديم منها ، فقال إن منها سدما غير منتظمة الشكل أي ليس لها شكل قياسي خاص وأشهرها مايعرف بغيوم مجلان ترى من نصف الكرة الجنوبي ويحسبها رائيها جزءا من درب التبان ولكنها في الواقع بعيدة عنه بعدا شاسعا ولكن السدم التي لها شكل خاص أكثر من السدم غير المنتظمة الشكل وأكثرها إما إهليلجي الشكل أو لولبيه . ونور السدم الإهليلجية الذي حلل بالسبكترسكوب يثبت أنها تماثل مجرتنا إلى حد بعيد مما لايترك مجالا للشك في أنها مجموعة نجوم كمجرتنا ويتعذر تصور هذه النجوم واحدة واحدة لبعدها الشاسع ، والمحتمل أن نجومها في طور التكون من الغاز الحامي إلى حد الاضاءة وأن الغاز الذي لايدخل في تكوينها يغشاها كبرقع الحسناء ، وبعض السدم في دور الانتقال من الشكل الاهليلجي إلى الشكل اللولبي والبعض الآخر لولبي لاغش فيه تظهر فيه الأذرع الملكوفة التي تظهر عادة في السدم اللولبية كما ترى في الصفحة المقابلة في سديم السلاق . وقد قيست أبعاد هذه السدم فثبت أن السديم الكبير في كوكبة المرأة المسلسلة يبعد عنا نحو ٩٠٠ ألف سنة نورية وأن السديم اللولبي الذي في كوكبة المثلث يبعد البعد نفسه تقريبا ، ويظن أن ألوفا من السدم اللولبية الضئيلة تبعدعنا أضعاف ذلك ، وقد وجد الأستاذان (هبل) و (شيلي) أن في جهة كوكبتي شعر برنيكي والسنبلة سدما لايقل بعدها عن مائة مليون من سني النور وقد استعمل السبكترسكوب لمعرفة سرعة حركة هذه السدم في الفضاء فظهر أن سديم المرأة المسلسلة سائر نحو مجرتنا بسرعة (٣٠٠) كيلو متر في الثانية ولكن أكثر السدم اللولبية تبتعد عنا بسرعة (٦٠٠) كيلو متر في الساعة . والطرق التي ابتكرها الباحثون لمعرفة جرم سديم من هذه السدم يتعذر بسطها هنا لصعوبتها ولكن يؤخذ من تطبيقها أن جرم السديم في كوكبة المرأة المسلسلة يساوي جرم شمسنا ألفي مليون ضعف وأن هذا السديم يستغرق (١٧) مليون سنة للدوران على نفسه مرة مع أن أرضنا تدور على نفسها مرة كل ٢٤ ساعة . مهما أمعنا بصرنا وآلاتنا في الفضاء فإننا لا نؤمل أن نصل إلى نهايته لافي الزمان ولا في المكان وهذه الملايين التي تشع في الفضاء تدهش العقل وتحير اللب على أننا نشعر بطمأنينة حين ننظر إلى ما كشفه العلماء عنها فنقول مع بسكال (إننا صغار ، بل من أصغر الكائنات وأضعفها ولكننا نعرف أننا صغار وفي ذلك سر عظمتنا) انتهى يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩ .

﴿ تذكرة ﴾

قد اطلع بعض العلماء على الصور السماوية الست المتقدمة وهى الدب الأكبر والدب الأصغر وذات الكرسى وأمثالها فقال إنك قد كتبت هذه المقالة من كتاب أستاذك بدار العلوم منذ (٤٠) سنة ، فقلت نعم فقال إذن أنت تكتب لنفسك وكأنك نسيت أنك تكتب فى تفسير القرآن والتفسير لمجموع الأمة لا للعلماء . فقلت كيف ذلك ؟ فقال إنى لم أفهم حرفا واحدا من هذه المقالة المنقولة وخير لك أن تسير على طريقتك فتكتب بهيئة تلخيص ، فهذا وحده يفهم أكثر الناس . أما هذا فلن يفهمه إلا قليل فقلت له إنى قد لاحظت فى هذا أنه مسائل علمية والعلوم لابد من المحافظة على أوضاعها ، ثم إن الأمر سهل جدا فقال وكيف ذلك ؟ قلت له ألم تطلع فى (سورة النور) على رسم القارات مع حيواناتها ؟ قال بلى ، قلت فهل فهمته ؟ قال نعم وهو جميل قلت فههنا كذلك ، فهذه الصور الست التى رأيتها ماهى إلا أماكن من السماء فيها صور النجوم قد رسمت ليطلع عليها الناس (وبعبارة أخرى) يقف الإنسان ليلا فى الخلاء وفى الصحارى القفار أو الحقول فيرى نفس هذه الصور بعينها بل هى أسهل من القارات الأرضية المتقدمة فى (سورة النور) لأن القارة لايراها الإنسان كلها مرة واحدة بعينه فى الطبيعة بخلاف هذه الصور فانك تراها جميلة واضحة . فقال زدنى زدنى . فقلت أنا ولدت فى بلاد الشرقية من البلاد المصرية وعشت فى أول حياتى مع الفلاحين وكنت أسمعهم يقولون يافلان انظر (وتد النجم) أى النجمة القطبية . إن وتد النجم لايتحرك والنجوم كلها تتحرك حوله وكنت أسمعهم يقولون (بنات نعش) يريدون بذلك الدب الأكبر المرسوم فى الصور الست المتقدمة يريدون بذلك أن النجوم المرموز لها بحرف (ا ب ج د) هى هيئة النعش والنجوم المرموز لها بحروف (هـ و ر) هى هيئة بناته يبكين وراء النعش . فالمجموعة المسماة بنات نعش هى نفسها الدب الأكبر فالنجوم الأربعة هى الدب والثلاث التى سميناها بنات هى ذنبه ، فتأمل الشكل وقل لى هل فهمت ؟ قال نعم فهمت ولكنى لا أعرفه فى نفس الطبيعة فقلت : قف ليلا فى العراء كما قلت لك فى ليلة حالكة السواد وارفع بصرك إلى الجهة الشمالية وتأمل فانك تجد الدب الأكبر المرسوم هنا أمامك فى السماء مرتفعا فوق الأفق نحو ٣٠ درجة سماوية فقال وما معنى هذا . قلت معناه أنه يبعد عن الأفق ثلث المسافة التى بينه وبين كبد السماء ، ذلك لأن المسافة مابين القطب الشمالى والقطب الجنوبى بجملتها (١٨٠) جزء كل جزء درجة ، ومن الأفق إلى كبد السماء فى سمت الرأس (٩٠) درجة . فإذن هذه الصورة فى (٣٠) درجة أى ثلث المسافة بين الأفق وسمت الرأس قال فهمت الآن ثم ماذا ؟ فقلت فهذا الدب ذو النجوم السبعة لا يغيب أبدا فهو يدور كل أربع وعشرين ساعة دورة حول نجمة القطب التى تراها عندك فى الدب الأصغر أى الذى هو بعكس الدب الأكبر فى نفس الصورة المتقدمة . قال أنا الآن فهمت وسأنظرها الليلة فى السماء ، ثم جاء فى اليوم الثانى وقال لقد نظرت فى السماء فوقع نظرى على هذه الصورة ففهمتها حالا بدون نصب بل وجدت الفلاحين يقولون لى هذا وتد النجم وأشاروا إليه إذا هو نفس النجمة القطبية التى فى الدب الأصغر ورأيت الدب الأكبر يدور حولها وهى لا تتحرك . فقلت هذا هو السبب الذى جعلنى أرسم هذه النجوم هنا ، ذلك لعلمى أن مبادىء هذه الصور معروفة عند الفلاحين وأهل القرى ، ومتى كان القطب معروفا سهلت معرفة بقية الصور لمن أراد . ألا ترى أن ذات الكرسى تبعد عن النجمة القطبية بمسافة تساوى المسافة التى بين النجمة القطبية وبين الدب الأكبر . فقال بلى وربى وأنا شاهدتها فى السماء كذلك فكما أن الدب الأكبر على شمال نجمة القطب هكذا ذات الكرسى على يمينه فى هذا الوضع والمسافة متساوية والناظر للسماء ليلا يعرف هذا بنظره بدون آلة ولا معلم . ثم قال أما أنا الآن فقد فهمت

هـ

هذه الثلاثة فى نفسى وفى التفسير وفى نفس السماء . فقلت له إن بعض العلماء فى عصرنا يقولون إن هذه النجمة القطبية تبعد عنا (٥٠) ألف سنة نورية وذلك أيام تعلمنا فلا أدرى أهذه المسافة عظمت وزادت بزيادة الكشف فى عصرنا أم لا ؟ فالنظر فى هذه الصور نظر فى عظمة الله عز وجل وهذا هو المقصود من هذا كله لأنه إذا كان القرآن لا يفهم سره إلا بعد فهم لفظه فهكذا هذه النجوم لا تعرف عجائبها إلا بعد معرفة مواقعها وأسمائها فقال صدقت والله . فقلت له إذن أنت عرفت ثلاث صور من الصور السماوية فى السماء ، قال نعم عرفتها . فقلت الأمر فى البقية سهل لأن هذه جعلت مبدأ منه يمكن معرفة الباقى ، ألا ترى أن الشكل الذى بعد الشكل الأول من الأشكال الست وهو (شكل ٤٠) قد عرفنا فيه الفرس الأعظم وهو أربع نجوم كهيئة الأربع التى فى الدب الأكبر ووراءها ثلاث متصلات بها تشبه الثلاث التى فى الدب الأكبر ، إذن هذه السبع كالدب الأكبر وقد عرفناه بأمر سهل بسيط وهو أن الخط الذى امتد من الدب الأكبر إلى ذات الكرسى زدناه مدا فوصل إلى الفرس الأعظم والذى معه هو المرأة المسلسلة وبرشاوش ، فههنا تبينت لنا صور الدب الأكبر والأصغر والنجمة القطبية وذات الكرسى والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة ونجمة الغول ، فهذه صور عرفناها الآن واضحة فى نفس السماء وفى (شكل ٣٩ و ٤٠) أفلا يكفيك هذا الايضاح ؟ قال كفانى ولكن لا يفهمه غيرى إلا إذا نظر نفس السماء وصبر على الفهم . فقلت وهل الفهم إلا بالصبر ، وهل السماء ليس لها حراس ؟ إن الله متكبر ومتعال وهو الذى جعل السماء سقفا محفوظا ومن حفظ هذا السقف أن لا يعقله إلا الذى تأهل له ، هذه سعادة وملك عظيم وهل الملك العظيم يعطى مجانا والله يقول «وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون» فالإعراض عن الآيات السماوية يمنع فهمها والإقبال عليها مفتاح فهمها والله عز وجل رحيم بخلقه ولكنه حكيم والحكيم لا يعطى إلا المستحق ، فقال الحمد لله قد فهمت هذا المقال حق فهمه . فقلت الحمد لله رب العالمين .

ثم جاء صاحبى بعدها بأيام ؛ فقال لقد شغلتنى هذه الصور وقد فهمتها جيدا وأريد اليوم أن تبين كيف نعرف الجوزاء والأسد والسنبلة المشروحات فى الرسم . أريد منك بيانا مختصرا بحيث أحفظه نهارا وأطبقه ليلا ومتى عرفت ذلك هان على معرفة البقية ، فقلت احفظ هذه الحروف الأربعة من مربع الدب الأكبر الذى أمامك قال حفظتها . قلت الأمر سهل فابتدىء بالقطر (د ب) من جهة (ب) وسر فى خط مستقيم فانك تقابل الجوزاء ، فقال نعم . قلت والجوزاء واضحة فى الرسم أمامك فانظرها ففيها نجوم واضحة رسمت شكلا وهى (٦) منها رأس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر . قال نعم . قلت ثم مد الخط (ا ب) من جهة (ب) أى من جهة تقابل جهة القطب وسر فى السماء ببصرك فانك تقابل صورة الأسد وهى أمامك فى الرسم وفيها كوكب قلب الأسد وترى فيها ما يشبه المثلث وما يشبه خطا مستقيما أسفله منحنيا أعلاه وبينهما خط وهمى . قال نعم قد فهمت ذلك . قلت فلم يبق إلا أن تتوهم امتداد القطر (ا ج) من جهة (ج) أى من الجهة المقابلة لنصف الكرة تقريبا فانك تقابل السنبلة فانظرها هنا فى الشكل ثم انظرها ليلا فى السماء ، ففيها مستطيل من أعلاها يقرب الأسد وتحته مثلث بجانبه شكل شبه منحرف يحيط به ست نجمات . فهذه الأشكال الثلاثة هى السنبلة . إذن الجوزاء والأسد والسنبلة التى هى ثلاث بروج من اثنى عشر برجا قد عرفناها بامتداد القطر (د ب) وبامتداد الخط (ا ب) وبامتداد القطر (ا ج) وهى كلها أمامك فى هذا الشكل وبهذا عرفت إحدى عشرة صورة من الصور السماوية وهى الدب الأكبر والدب الأصغر والنجمة القطبية فيه وذات الكرسى والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة وبرشاوش والغول والجوزاء والأسد والسنبلة ومن الجوزاء نجمان أيضا فنكون عرفنا (١٣) صورة . وإذا

ج	د
.	.
ب	ا

لاحظنا أن الحمل والثور المرسومين فى الصور الأخرى هما يتقدمان الجوزاء ظهر لنا أننا عرفنا مواضع الحمل والثور والجوزاء والأسد والسنبلة . ولاشك أن السرطان بعد الجوزاء إذن نكون عرفنا (٦) بروج اه .

﴿ بهجة العلم ﴾

سيأتى إن شاء الله تعالى فى (سورة ياسين) عند قوله تعالى «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون» عجائب تدهش العقول فوق ماذكرناه فان بعض العلماء يتوقع أنهم سيرون نجوما تبعد عنا (١٠٠) ألف مليون سنة . ويقولون إنهم شاهدوا نورا وصل إلى الأرض دلهم على أن هناك شموسا أضواؤها لاحرارة فيها بخلاف شمسنا ونارنا لحرارتها متحدة بضوئها كما أن قوانا الغضبية متحدة بأنوار عقولنا تشغلها عن كمال صفاتها كما أن الحرارة المصاحبة لأضواء الكواكب لولاها لكانت أضواء تلك الكواكب أضعافا مضاعفة وقالوا أيضا إن هناك شموسا لو وضع منها مقدار حجم الحمصة على بعد ألف ميل من جسم إنسان شوته وأحرقته فهذه العجائب المدهشة فى زماننا سيرتقى بها أناس ويسعدون بإدراكها ويعجبون والعجب أول منازل المعرفة والحمد لله رب العالمين .

﴿ إيضاح مسألة النور والحرارة ﴾

عجبت لأمر هذه العوالم التى نعيش فيها . أرى الموت والحياة معا فى الماء وفى الهواء وفى الحرارة . أقف على شاطىء البحر فأشرب منه فأحيا ولكنى أرى الموت قاب قوسين منى إذا أنا دنوت منه فغرقت فالماء موت وحياة هكذا الهواء فهو حياة وموت ، حياة باستنشاقه صافيا ، وموت باستنشاقه بما خالطه من الذرات الحيوية القاتلة ، والحرارة بها حياة كل مخلوق وبها إذا اشتدت الموت . ومن العجب أن الإنسان يعيش ويموت وهو فى أضواء من الكواكب السماوية والنيران الأرضية وهو لايكاد يفرق بين الحرارة والضوء لأنهما متلازمان نوقد الفحم فنحس بحرارة ولكن لانرى الضوء إلا بعد اشتدادها . ونرى ضوء الشمس يأتى إلينا مصحوبا بحرارة فلا ندرى أهما أمران متلازمان إلى الأبد ؟ أم هما يفترقان . ولكن انظر إلى العقول الإنسانية اليوم واعجب من هذا العقل الإنسانى الذى يريد أن يعرج بالإنسان إلى عالم أرقى من عالمنا وذلك العروج لايكون إلا بنوره ، ذلك النور الذى هو أرقى من الأنوار الحسية وهو الذى سنخلص بمساعدته من هذه العوالم التى جمعت بين الموت والحياة معا فى موادها ، لم يفرق الماء ولا الهواء ولا الحرارة بين الموت والحياة بل تراها جميعها مجهزة للأمرين معدة للحالين ولكن العقل بنوره يهدينا الله للخروج من مأزق هذه العوالم المنحطة إلى عالم يكون أرقى منها فيه الدوام والخلود وهو العالم الذى يتعالى عن المادة . فهذا العقل العام هو الذى أملى على عالم أمريكى أمورا ينتظر تحقيقها فى المستقبل فقال (ومن المستنبطات المنتظر تحقيقها قريبا النور البارد) وأبان أن السلك المعدنى إذا أحمى بالكهرباء فى المصباح الكهربائى حتى أضاء فان الضوء لايبلغ فوق (٤) فى المائة من القوة الكهربائية التى ينفقها الناس فى هذا المصباح ، وأما الباقى وهو (٩٦) فى المائة من تلك القوة الكهربائية فانه يصير حرارة . ويقول أنه إذا تمكن أحد من تحويل الحرارة إلى نور أى (نور بارد) فان النور إذ ذاك يكون أرقى من هذا النور المستعمل الآن عشرين ضعفا وذلك بالاكتفاء بأربعة فى المائة من الحرارة والباقى وهو (٩٦) فى المائة يصير نورا (وعبارة ٢٠ من المقتطف ولعلها ٢٤) . هذا مايقوله ذلك العالم الأمريكى . أقول وبينما هذا العالم يقول ذلك إذا بعلماء الفلك يقولون (ياأيها الطبيعى إن مافكرت فيه قد فعله الله قبل خلق الأرض فانه خلق الشموس الباردة فضوؤها لاحرارة معه وخلق الشموس الجهنمية) اللهم إن العلم أرقى مافى هذا الوجود والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الاثنين ١٨ فبراير سنة ١٩٢٩ .

﴿ لطيفة

﴿ لطيفة : فى قوله تعالى أيضا «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا» ﴾

(عجائب التقويم)

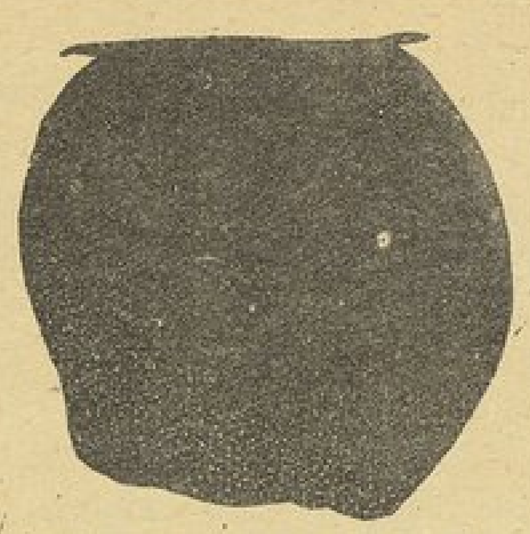
اعلم أن الله كرر ذكر الكواكب والبروج والشمس والقمر فى القرآن لأمر عظيم جدا . إن الله خلقنا من طين لازب: أى لاصق ،ومن كان من الطين إن لم يعجن بما يرفعه إلى العلا فانه لايفارق الطين . جعل الله أضواء الشمس والكواكب سببا لحياتنا ، فلولا الحرارة ماسار سحاب ولا ارتفع بخار من البحار ، فالحرارة رافعة له والرياح الجاريات بالسحاب ما أثارها إلا الحرارة . إذن الحرارة أصل حياتنا وهكذا الضوء فلولا الضوء لم نعرف الطرق ولا الأعمال ولا الأيام والشهور والسنين ، وبالضوء ظهرت خضرة النبات ونما ، ولولا ضوء الشمس والكواكب لم تكن حياة على الأرض ولم يكن نظام لها ، فالحياة والهداية فى المعاش كسير السفن فى البحار والقطرات فى اليابسة . كل ذلك مبنى على سير الكواكب فى السماء ، فالحرارة بها الحياة والضوء به الهداية ، وانتظام الحركات به الحساب الذى به تمام النظام . أليس هذا عجيبا ؟ نعيش فى الأرض وأصول الحياة من السماء والناس غافلون . ولقد شاهدنا هذه العوالم المنبثة فوق الأرض منتظمة ولم تر اليد التى نظمت ، أحسسنا بالحرارة وشاهدنا الأضواء ولكن جهلنا تلك النظم التى شاهدناها فى الحيوان والنبات ، فاذا رأينا الحرارة والضوء من عالم السموات فهكذا لكن تلك المنظمات غيوبا ليست من عالم الأرض ، فالضوء والحرارة اللذان بهما الحياة من هناك وهما محسوسان فبالأولى ، والأولى أن تكون النفوس التى صورت تلك الصور اللازمة للنمو سماوية وهذا قوله تعالى «وفى السماء رزقكم وما توعدون» .

يالله ، أنت حكمت علينا بالحبس فى هذه الأرض مدة فنحن هنا يارب مسجونون ومن عادة المسجون أن يؤتى له بالرزق داخل السجن ويوعد بأنه عند تمام مدته يخرج إلى أهله هكذا نحن الآن فى الأرض سجنتنا وحكمت علينا أن لاننال مطعمنا وملبسنا إلا بالعمل داخل سجننا ، ولكنك أرسلت لنا ضوءا من المشرقات وجعلت نظامنا متوقفا عليها . تقلبنا فى الأرض لطلب المعاش وهذا الطلب لاتمام له ولا نظام إلا بحساب سير الكواكب والشمس فللمشرقات فضل الحياة وفضل النظام . ولقد سخرت منا جماعة يحسبون سير تلك الكواكب لأجل النظام عندنا فالأفراد يهتدون فى الطرقات بالأضواء والأمم تعين جماعة لحساب سير تلك الكواكب . كل ذلك فعلته لتضطرنا إلى البحث والنظر فنولى وجهنا جهة السماء ونسمع الأنبياء والحكماء يقولون لنا إن هناك عالما آخر نتوجه إليه إذا متنا وما هذا العالم إلا ماهو فوق أرضنا ، فعل الله ذلك ليشوقنا إلى عوالم الجنات فى السموات ، وإذا كانت العوالم العلوية قد سببت حياتنا ونحن مسجونون من التراب لاصقون بالأرض فكيف تكون حالنا إذا توجهنا بأرواحنا من الأرض إلى السموات ولم يبق هناك مانع يمنعنا من الرحمة مباشرة ، فهناك يكون مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

هذا ، ولقد ذكرت حساب السنين القمرية والشمسية فى (سورة الكهف) وآخر (آل عمران) وأزيد على ذلك بيانا يشرح الصدر فأقول :

إن المصريين كانوا أمة زراعية فكان تقويمها تابعا الشمس . أما اليهود والأمة العربية الذين لم يكن جل اعتمادهم على الزراعة فانهم قد اكتفوا بالأشهر القمرية . ولما جاء (يوليوس قيصر) إلى مصر ووجد تقويمها مرتبكا أمر الفلكى المصرى (سوسيجنس) فوضع تقويما قدر فيه السنة (٣٦٥) يوما وربع يوم وجعل الأشهر ١٢ مختلفات بين ثلاثين و ٣١ يوما إلا فبراير فانه (٢٨) ثلاث سنوات و ٢٩ فى السنة الرابعة وسارت أوروبا وبلاد الشرق الأدنى على ذلك حتى سنة ١٥٨٢ ذلك أن البابا (غريغورس) الثالث عشر

رأى أن حساب (سوسيجنس) جعل السنة أطول من حقيقتها (١١) دقيقة و (١٤) ثانية وعلى ذلك أمر بأن ينقص من كل (٤٠٠) سنة ثلاثة أيام وجرى على هذا التقويم الغريغوري ، أما القبط فى مصر الذين يتبعون الكنيسة الشرقية فانهم لايزالون يجعلون عيد الميلاد (٧) يناير والكنائس الغربية تجعله (٢٥) ديسمبر ذلك لأن الغربيين عرفوا الخطأ فأصلحوه . أو ليس من العجب أن المكسيكيين القدماء كانوا يحمدون على الزراعة وتقويمهم يشبه التقويم الحديث وهذا صورته (شكل ٤٥) .



(شكل ٤٥ ـ تقويم أمريكى وجد فى مكسيكا)

وإنما ذكرت لك هذا هنا لأريك جمال الله الذى ظهر فى هذه الأرض ، فانظر هذا الرسم من مكسيكا وانظر ماتقدم فى (سورة يونس) من صور البروج المرسومة فى (دندره) والأخرى المرسومة على صندوق (حتر) ذلك (أولا) لأروى ظمئى للعلم وظمأك ، لأنى كنت أحب أن أطلع على آثار الأمم القديمة فى هذه العلوم (وثانيا) لتعلم معى عناية الله بالأمم واتصالهم جميعا إلى عالم السموات كأنه يقول لهم رضوا وجوهكم إلى السماء فاقرءوها الآن لأنكم ستسافرون إليها بعد الموت « وما كنا عن الخلق غافلين » « وفى السماء رزقكم وما توعدون » (وثالثا) ليكون هذا التفسير معرضا علميا تعرض فيه بهجة علوم الشرق والغرب فيشوق الناس للعلم والحكمة أو كسوق النور الذى يلبس كل من الناس ماشاء من الصور العلمية فيه فيرقى عقله وترقى أمته فهذا قوله تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » فهذا تذكر ومبدأ شكر لأنه لاشكر ، إلا إذا علم الشاكر بالمشكور عليه فأول الشكر العلم بنعمة المشكور وقد علمت معى أيها الذكى كيف قوم الله السنين وعلمها لأهل الأرض قاطبة وشوقهم إلى الرقى إلى عالم أعلى والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . انتهى الكلام على المقصد الثانى من السورة .

(المَقصِدُ الثالثُ)

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الذين يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا *

بعد ماذكر الله عز وجل حسن صنعه وجمال إبداعه بالماء المبارك النازل من السماء وإبداعه فى البحر الملح والنهر الحلو ، وكيف يكونان متجاورين ولا يطغى أحدهما على الآخر ، وكيف تكوّن منه الماء والنبات والانسان والحيوان وكان منه البنات والبنون ، وكيف أبدع فى نظام كواكبه وشمسه وقمره ، وكيف نظم طرقها وأبدع منازلها ، بعد ماذكر ذلك كله أخذ سبحانه يصف عباده الذين هم أهل القرب من مبدع هذه العجائب ليبين العباد بعد العلماء وليظهر مقام العبادة بعد مقام الحكمة وأن الأولى تابعة الثانية والثانية مقدمة على الأولى ، وليفيد المسلمين أن العلم مقدم على العمل فذكر صفات عباد الرحمن أنهم فى النهار يتصفون بوصفين وهما :

(١) أنهم يمشون بسكينة ووقار على الأرض .

(٢) ويغضون عن السفهاء فلا يقابلونهم بقبيح الكلام ويتاركونهم ، وهم فى الليل يحيونه بالعبادة ساجدين قائمين فى الصلاة .

(٣) ويدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم .

(٤) ويكونون كرماء لا مقترين ولا مسرفين .
(٥) ويوحدون الله .
(٦) ولا يقتلون النفس إلا بالحق .
(٧) ولا يزنون .
(٨) وينفون من مجالس الكذابين ومحاضر الخطائين تنزها عن مخالطة الأشرار .
(٩) وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به كرموا أنفسهم عن التلوث به : أى إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه .
(١٠) وإذا وعظوا بالقرآن أو ذكروا بعجائب الله كانوا مقبلين عليها وخروا سجدا وبكيا لا أنهم يكونون صما وعميانا لإعراضهم .
(١١) وهم يدعون الله أن يريهم زوجاتهم وأبناءهم مطيعين لله ليكونوا معهم فى الجنة .
(١٢) ويكون من دعائهم أن يقولوا ربنا اجعلنا متبوعين فى الدين أئمة يقتدى المتقون بنا فى الخير .
فهؤلاء المؤمنون المتصفون بهذه الصفات الاثنتى عشرة .
(١) يجزون الغرفات وهى العلالى فى الجنة بسبب صبرهم .
(٢) ويدعى لهم بالتعمير وهى التحية (٣) ويدعى لهم بالسلامة ، فالتحية البقاء والسلام السلامة .
(٤) ويخلدون فيها . هذا هو جزاؤهم غرفات عالية وتعمير وأمان ودوام والبشارة بذلك من الملائكة .
ولما بين العلم والعمل ختم السورة بأن الله لا يعتد بهذا الانسان ولا يعبأ به لولا عبادته إذ لا شرف له ولا كرامة إلا بالمعرفة والعبادة والأخلاق وإلا فلا فارق بينه وبين الحيوان ، وإذ أنزلت عليكم القرآن فكذبتم وخالفتم وقصرتم فى العبادة والعلم فسوف يكون جزاء التكذيب لازما وقد تم ذلك بخذلان كفار مكة فى يوم بدر وفى غيره ، هذا هو ملخص المقصد الثالث من السورة .

﴿ إيضاح لبعض الكلمات ﴾

قوله (هونا) هينين أومشيا هينا وهو مصدر وصف به ، أى إنهم يمشون فى سكينة وتواضع (قالوا سلاما) أى تسلما منكم ومتاركة لكم لاخير بيننا وبينكم ولاشر ، أوقالوا سلاما من القول يسلمون فيه من الايذاء والاثم (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) لأن العبادة بالليل أجمع للفكر وأبعد من الرياء أى يبيتون فى الليل بالصلاة سجدا على وجوههم وقياما على أقدامهم ، وقوله (إن عذابها كان غراما) لازما ومنه الغريم لملازمته ، فهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم فى العبادة وجلون من العذاب مبتهلون إلى الله فى صرفه عنهم (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى بئست وفاعلها ضمير مبهم يفسره المميز (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) هذا هو حد الكرم عند الحكماء (قواما) وسطا وعدلا (حرم الله) أى حرم قتلها (يلق أثاما) أى جزاء الإثم ، وقوله (يضاعف له العذاب) بدل من يلق (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم وهكذا يبدل ملكة المعصية بملكة الطاعة (ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب إلى الله متابا) أى ومن تاب عن المعاصى بالترك والندم ودخل فى الطاعة فانه يرجع إلى الله متابا مرضيا عند الله يمحو العقاب محصلا للثواب أومرجعا حسنا ، وقوله (والذين لايشهدون الزور) لايقيمون الشهادة الباطلة ، أولا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل شركة فيه (وإذا مروا باللغو) أى مايجب أن يلغى ويطرح (مروا كراما) معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه (لم يخروا عليها صما وعميانا) لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها (الغرفة) أعلى موضع الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع أى الغرفات (بما صبروا) أى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها تحية وسلاما) أى تحييهم الملائكة ويسلمون عليهم ، أويلقون تبقية دائمة

وسلامة من كل آفة (ما يعبؤا بكم ربى) مايصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته، أولا يعتد بكم (لولا دعاؤكم) لولاعبادتكم والعبادة يتقدمها العلم . انتهى تفسير ألفاظ المقصد الثالث من السورة .

﴿ جوهرة: فى جمال القرآن فى قوله تعالى «والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا» ﴾

الحمد لله على نعمة الحكمة والعلم والشكر له على جمال النور والفهم ، سبحانك اللهم أعنت على هذا التفسير، وأحسنت بالالهام والتيسير، وجعلت أسلوبه سهلا يتناولها كثره للمتوسطون وبعضه لايعقله إلا العالمون جعلته شارحا لآياتك مسهلا لفهم كتابك مذكرا لأنعمك ناظما جواهرها فى عقده ، فذكر به اللهم قلوبا واشرح به صدورا ويسر به أمورا واستخرج به رجالا يعقلون آياتك . اللهم إنك أنت فسرت هذه الآية فى نفس القرآن وذكرت معانيها فى حكمك البهجات . أنت قلت «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» وعطفت على ذلك ذكرخلق الأزواج لتسكن إليها الخ . وخلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان ومنامنا بالليل والنهار وابتغاءنا الرزق وهكذا كون السموات والأرض قائمات بأمرك وقيامنا بعد موتنا وهكذا وذلك فى (سورة الروم) وأنت الذى جعلت الليل والنهار آيتين فى (سورة الإسراء) والقائل أيضا «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر» الخ . وقد أوضحت سبحانك فى سورة البقرة هذا فجعلت من الآيات خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والسفن فى البحر والتجارة والنبات والمطر وخلق النبات والحيوان وهكذا فى آخر (آل عمران) .

فيا ألله إنك لم تدع فى كتابك أسلوبا إلا أنزلته حتى جعلت الآيات تشمل جميع العلوم العلوية والسفلية ولم تقصر ذلك على أنها آيات بل أقسمت بها فأقسمت بالشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون والطور والخيل، فكما جعلت كل خلقك آيات،أقسمت بجميع خلقك حتى قلت «فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون» ولا جرم أن مانبصر ومالا نبصر يشمل كل علم وكل صناعة . هذه هى آياتك التى ذكرت بها عبادك وجعلت هذا التفسير إيضاحا لها وشارحا لها ومبينا . وإنى يا ألله أكتب هنا وأمضى إلى عالم أردته لى بعدهذه الحياة وأترك هذا التفسير بين يدى للسلمين حجة على من قرأه، فهو مسؤل بين يديك مسئول عن نشر كل مايعلم من هذا الكتاب ومن كل علم من علوم أوروبا وأمريكاواليابان . اللهم إن ذلك كله آياتك التى أقسمت بها إعظاما لها وإجلالا حتى إذا قرأناها عرفنا أنها هى التى شرفها الله بالقسم ، فهى آيات وهى ذات الشرف العظيم بأن الله أقسم بها . اللهم إن للسلمين فى القرون الأخيرة قد عموا وصموا عن آياتك، وإذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صما وعميانا فيقول الغافل من المتعلمين هذه العلوم كفر أو يقول هو كلام النصارى أو يقولهو لامنفعة فيه (انظر ماجاء فى سورة الأنعام عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ») لتعلم ماذا حل بالاسلام بعد القرون الأولى من الجهل الواضح والذل الفاضح وانتكاس العقول ومخالفة المعقول والمنقول . فالحمد لله قد ظهر فى هذا التفسير أن ما كان يسمى كفرا هو نفس الشكر ، وهو نفس القرب إلى الله ، وهو السعادة فى الدنيا ، وهو باب الجنة ، وهو الروح والريحان ، وهو مقدمات النظر لوجه الله الكريم ، وهو مفتاح السعادة ومنهاج السيادة فأصبح الكفر شكرا والذى زعموا أنه كلام النصارى وغيرهم هو كلام الله تعالى وهو الشرف بقسمه وهو الذى به النظر لجمال وجهه وهو النافع فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى قد أديت ماعلى للسلمين . اللهم أخرجهم من ظلمة الجهالة واجعل هذا التفسير سببا فى اتحاد جميع العقول من المذاهب المتشاكسة والطوائف المختلفة من شيعة وسنية وزيدية وإمامية وشافعية وحنفية وحنبلية.اللهم يامقلب القلوب والأبصار كما قلبت أفئدة المتأخرين من الأمم الإسلامية فرأت العلوم التى أمرت بها فى كتابك كفرا

لا نمع فيها غروا صما وعميانا إذا سمعوها فاشرح الصدور لفهمهما وأزل الغشاوة عن الأعين والحجاب عن القلوب وارفع الوقر عن الآذان وأنر البصائر . اللهم إن المسلمين متغافلون متباعدون لحصر عقولهم فى الفقه وفى الجدل المسمى علم التوحيد . اللهم إن سر دينك هى نظافة الباطن وجمال النفوس بالأخلاق الفاضلة وهكذا استكمال النفوس بالعلوم التى ترى فى السموات وفى الأرض فاجعل هذا التفسير من مشارق الأنوار وسواطع البرهان . انتهى يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٥ هـ .

﴿ فصوص الحكم فى هذه الآيات ﴾

ما أجل العلم والحكمة ، وما أبهى الفهم وأبهجه والنظر فى هذه الآيات وتأملها . هذه الآيات كأنها ملخص السورة كلها ، والسورة سميت فرقانا وهو الفرق بين الحق والباطل ونتيجة هذه كلها النظر فى آيات الله تعالى فى السموات والأرض فى قوله تعالى «لم يخروا عليها صما وعميانا» .

فى الآية آداب النفس مع الخلق ومع الخالق كالسكينة فى المشى وحسن المخاطبة مع الجاهلين وقيام الليل والدعاء والاقتصاد والتبرى من الشرك ومن الزنا واللغو والكذب . هذه عشر خصال فمن كان متصفا بها استعد لفيض العلم والحكمة . ملخص هذه الأوصاف سكون النفس وتوجيهها لله . فسرعة المشى تهوش على العقل وتذهب الهيبة وهكذا الهجاج مع السفهاء ، فترك هذين وترك الاسراف والشره الخ كل ذلك يجعل فى النفس اطمئنانا وسكونا والدعاء وقيام الليل تذكير بالله تعالى . فهنا (ثمان خصال) ترجع لسكون النفس وهدوئها ، فلا اضطراب فى الحركات ولا الخطاب ولا الإنفاق وهكذا وخصلتان ترجمان للتذكير بالله القيام بالليل والدعاء وهذه المقدمات العشر للفتح والعلم والعرفان . إن النفس لايتم لها توجه فى الصلاة والدعاء إذا تقسمت الأمور عليها . فأما إذا اطمأنت اعتقادا وعملا بالخصال الثمانية فانها يصدق توجهها لله تعالى ، والصلاة والدعاء معراجان للعلم . ومعنى هذا أن النفس بتعود التوجه لله يفتح لها باب العلم والعلم هو المقصود من هذه الدنيا ومن وجودنا ومن هذه الخصال المذكورة . فلأجل العلم خلقنا وبه سعادتنا فى دنيانا ويوم القيامة بل هو اللذة القصوى التى تتضاءل دونها الجنات الحسية بحورها وقصورها وولدانها . إذن نتيجة الصفات العشر المذكورة مابعدها وهو أن لا يكون الانسان أعمى أصم عن آيات الله أى أن يفكر فى هذا الوجود . وبعبارة أصرح أن يكون حكيما عالما أو محبا أو متعلما : أى أن تكون له درجة من درجات العلم حبا واستماعا أو كلا فيه . إذن نتيجة هذه السورة حوز العلوم والحكمة وارتقاء النفس بذلك وهذا غاية الدين والدنيا . وهناك (خصلتان) بعدها وهما أن هذا العبد يجد فى إكمال أهل منزله من زوجة وولد إكمال المتقين فيكون قدوة لأهله ولأمته أى يكون نورا للناس وفارقا بين الحق والباطل الذى هو معنى الفرقان ، إذن هذه السورة لتخريج قواد يكونون أنوارا مشرقة للناس يمنعونهم من الضلال ، هذا هو نتيجة سورة الفرقان .

وههنا عجب عجاب . ذلك أن الناس عادة يقرءون هذه الآيات ويمرون على الخصلة السادسة وهى عدم الإشراك بالله ، وعلى الخصلة الحادية عشرة وهى أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليهم صما وعميانا فيخيل للقارئ أنهما يرجعان لمعنى واحد وهذا يكون كالمكرر ولكن هذا التكرار فيه سر قد كشفه الزمان وأظهره ما أحاط بنا من الحدثان ، بل إن سر هذا المقام قد ظهر فى انحطاط أكثر أمم الاسلام واستبان أيما تبيان . ولما وصلت إلى هذا المقام حضر العلامة الذى اعتاد أن يحاورنى فى الأمور العلمية فى هذا التفسير واطلع على هذا الموضوع فقال مالى أراك تكثر ذكر السر فى القرآن كأن مثل هذا لم يعرفه الناس قبلك ، يا عجبا لك أين السر هنا (جملتان) جاءتا فى هذه الآيات جملة تفيد عدم الاشراك بالله وجملة تفيد عدم الغفلة عن آياته عند التذكير بها وبينهما فرق فى المعنى . قلت له ولكن لم قدم عدم الإشراك بالله الذى لايتم إلا إذا

لم يعرض الانسان عن آيات ربه وكيف تقدم النتيجة على المقدمة ؟ هنا نظر فى آيات وتوحيد لله ، وثانيهما نتيجة لأولهما فلم قدم عليه ؟ فقال إذن ماتقول فى الجواب ؟ قلت إذن أجيبك . اعلم أن الأمم الاسلامية بعد القرون الأولى فى أكثر الأحوال وأعمها اكتفوا من دين الاسلام بأمثال الخصال العشر المتقدمة على قوله « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم » ومنها عدم الاشراك بالله . فاذا رأى المسلم أنه آمن بالله ولم يشرك فانه قد يتسلى بذلك ويقول كفى كفى . فاذا ضم إلى الإيمان الأخلاق الفاضلة كالسكينة والتباعد عن الكذب وشهادة الزور والقتل الخ فإنه يعد صالحا . هذا هو الذى سار عليه المسلمون فى أقطار الاسلام ، فأم أمور الدين التوحيد والأعمال الصالحة ووقف أكثرهم عند هذا الحد وأخذوا يرددون كلمتى الايمان والصلاح « وفرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فقال وما الذى به يستهزئون ؟ قلت هى الخصلة الحادية عشرة وهى « إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » فقال والله إن هذا لعجب ، أنا لم أسمع من مؤمن بالله يعرض عن آياته أو يكون كالأصم أو كالأعمى وإنما ذلك فى الكفار . فقلت إذا كان كذلك فتكون هذه الجملة ملغاة لا عمل لها . قال فأين الصمم والعمى عن آيات الله ؟ قلت جل فى أقطار الإسلام وخاطب كثيرا من العلماء والجهلاء وقل لهم ماذا تقولون فى علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والانسان والتشريح وجميع العلوم الكونية فانك لا تسمع منهم إلا أن هذه العلوم فروض كفايات ويسكتون عن ذلك وعند الوعظ والارشاد والخطب على المنابر والتعليم لايقرءون هذه العجائب ولايشوقون الناس لربهم ولايفرحونهم به ، وليس من المعقول أن يحب الانسان صانعا ويعرف حكمته إلا بفهم صنعته ، قال إنك تقول هذا القول فى قوم ماتوا قبل هذا العصر ، أما أهل هذا العصر فقد عرفوا كل شىء . قلت له أكثر أهل الدين لايزالون غافلين ، فهم إذا سمعوا عجائب التشريح والفلك صموا آذانهم وأغمضوا أعينهم لابخسا فى آيات الله ولكن إعراضا عن الآيات لذاتها ظنا منهم أنها لاتفيد قربا لله إما لأنها كفر وإما لأنها لا فائدة منها وسبب ذلك الاقتداء بمن علومهم من علماء الدين الذين قبلهم ، فهذه الجملة جاءت لترفع الغشاوة عن أعيننا فى هذا الزمان وقد ظهر أثرها فى هذا التفسير الآن . فلتوجه أيها الذكى نظر أهل زمانك إلى أن هذه الجملة مذكرة لنا بجميع العلوم وأن الإيمان والتوحيد لايكفيان لرقى المؤمن وسعادة أمته .

تقدم أن هذه الآيات كأنها ملخص المقصود من السورة والسورة مبتدأة بأن الله تعالى تكاثر خيره وتزايد على كل شىء وتعالى عنه فى الصفات ، وأنه له ملك السموات والأرض ، وأنه خلق كل شىء وقدره تقديرا بحساب متقن منظم . ولا جرم أن كل شىء أعم من السموات والأرض ، والعالم المخلوق هو الخير الكثير الذى يفيده معنى « تبارك » ثم إنه أعاد هذه الجملة هنا قبيل هذه الآيات فقال « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا » والبروج هى الاثنا عشر المعلومة أو هى نفس الكواكب العظام وهى بعض ماخلق الله وقدره تقديرا . ولما شرح بعض خلق الله الذى من خيره الكثير أردفه بذكر عباد الرحمن وصفاتهم وجعل نتيجة الصفات كلها العلم والحكمة ، والعلم والحكمة يرجعان إلى هذا العالم الذى نعيش فيه الذى ذكر فى قوله تعالى « الذى جعل فى السماء بروجا » الخ فانظر كيف أعاد الجملة التى فى أول السورة هنا ليعقبها بصفات المؤمن الذى يفهم هذا الخير الكثير الذى تضمنه « تبارك الذى نزل الفرقان » . فلخص السورة إخراج علماء فى الاسلام يقرءون نظام السموات والأرض ويكونون حكماء هادين لذرياتهم وزوجاتهم وأمتهم فلولا ذكر التوحيد قبل التذكير بآيات الله وعدم الاعراض عنها ماتيسر لنا فهم هذه المعانى . إن هذه المعانى استخرجت من تأخير وتقديم وكأن هذا كهرباء ومغناطيس بهما أشرق النور وبهر الفرقان ، فالله يذكر فى أول السورة ملكه وخلقه وتقديره للعوالم كلها ثم بعد ذلك بهيئة جميلة فى ذكر البروج والكواكب وذلك كله داخل فى آيات الله التى إذا أعرض

عنها المسلمون أعرضت عنهم الدنيا والآخرة كما هو حاصل الآن فى أكثر بلاد الاسلام ، فياطوبى لمن ذكر بآيات ربه، وياطوبى لمن تذكر وتدبر وقرأ .

يا الله إنى أحمدك ، ها أنا ذا قد ذكرت بآياتك بارشادك وإلهامك مع أنى أقر وأعترف بالضعف والعجز حقا وصدقا . فاجعل اللهم هذا التفسير ذكرى وألهم الأمم الإسلامية أن ينسجوا على منواله ولا يخروا عن الآيات صما وعميانا .

فقال صاحبى هذا حسن ولكن يظهر لى أن المقام مقام تصيد للمعانى بحيث تأخذ مايلائم وتذر الذى لا يلائم قصدك ويكون هناك ترجيح بلا مرجح وهذا معيب يجعل القارىء فى حيرة ويتشكك فى قولك ويقول إن القرآن لم تقصد منه هذه المعانى ولو أنها كانت مقصودة لكانت على وتيرة واحدة . فقلت ماذا تقصد ؟ قال إن قوله تعالى « تبارك الذى » قد ذكر (ثلاث مرات) فذكرت أنت اثنتين منها . أما الثالثة فقوله تعالى خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم «تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » وهى واقعة فى غضون السورة بين الآيتين فهل لهذه حكمة ؟ قلت نعم وأى حكمة أجل منها . فقال وماهى ؟ قلت إن النظر للسموات والأرض الذى جاء ذكره فى المقامين الأول والثالث هو هو عينه المذكور فى الخصلة الحادية عشر من خصال عباد الرحمن وهو عينه الذى فى قوله تعالى « ويجعل لك قصورا » .

ألا ترى رعاك الله أن الجنة على [قسمين] جنة حسية وجنة معنوية وهى العلم والمعرفة والعلم والمعرفة مقدمتان للنظر إلى وجه الله ، فانكشاف الحقائق غذاء النفس وسعادتها للحكماء فى الدنيا والآخرة . وإذا كان الحكماء بهذه المثابة فما بالك بالأنبياء والصديقين فهل تظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الآخرة يقنعه الحور والولدان ويستغنى عن النظر لوجه الله الذى لا يكون إلا بعد تمام العلم والحكمة كما لايجالس الملوك والأمراء إلا أهل الحجا والعقول . فاذا كان الله وعده بجنات تجرى من تحتها الأنهار ووعده بقصور فليس معنى ذلك أنه قاصر على ذلك بل هو رمز إلى انكشاف الحقائق ومعرفة العلوم . ومن عكف فى قصره على المحسوسات فهو قاصر جهول (اقرأ هذا المقام فى سورة البقرة عند قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات » الخ) فستجد هناك العبارة المنقولة من كلام السلف الصالح (إن الجنة الحسية للجهلاء وجنة العلم للحكماء ، أفلا ترى سيد الرسل فى أعلى جنة العلماء. فرجعت هذه الآية إلى أختيها وظهر أن الدنيا لايرقى فيها الناس إلا بالعلم والآخرة لايسعدون فيها إلا بالعلم وأن قوله « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا» هى نهاية العلم والحكمة وفيها ملخص علوم هذه الدنيا ومقاصدهذه السورة، وأنها الخصلة التى بها تكون الجنة والحكمة ويكون صاحبها قطبا تدور عليه رحى الأمة وبه يقتدون وعليه يعولون .

﴿ بلاغة القرآن ﴾

فانظر إلى أمر التقديم والتأخير فى جملتين كيف أثارا موضوعا يتعلق بحياة أمتنا الاسلامية ويبين عيوبها ومخازيها ويفضح سر تأخرها وينير السبل لتقدمها وارتقائها . إن هذا المقام هو الذى ألف له الامام الغزالى كتاب الإحياء فقد قال فيه (إن هذا الكتاب قد صنفته لإحياء ما اندرس من علوم الإسلام) وبين ذلك بأنه إيضاح صفات القلوب والعلوم الأخلاقية والاخلاص ثم المعارف العامة فى السموات والأرض، ثم إن هذا التفسير قد جاء لمثل ماجاء له الأحياء . كل ذلك أثاره فى هذا المقام تقديم وتأخير . بمثل هذا تعرف بلاغة القرآن لا البلاغة اللفظية التى يفرح بها صغار العلماء . ويقولون نحن نقرأ المفتاح للسكاكى وكتاب سعد الدين

التفتازانى

التفتازانى وكتاب عبد القاهر الجرجانى وغيرها لنعرف بلاغة القرآن فنقول لهم وهل عند هذا تقفون أو تنكصون على الأعقاب ؟ .

إن الذى تبحثون عنه إنما هو أن القرآن معجز ونتيجة ذلك أن يكون المرء به مؤمنا، وقدمنا أن خصلة الإيمان وحدها لاترق المسلم بل رقيه إنما يكون بمعرفة هذه الكائنات فى مخرج البلغاء فى أمة الاسلام عن كونهم أشبه بالبدوى القح فى البادية ، وعن أنهم إذا وقفوا على ذلك قد دخلوا فى حوز الموحدين المذكورين فى الخصلة السادسة فى هذه الآيات وهم عن آيات ربهم خروا صما وعميانا . اللهم إن أمة الاسلام طال عليها الأمد وقست القلوب وكثير منهم فاسقون . لقد اعترى العمى والصمم كثيرا من أهل العلم فى أقطار الاسلام جهالة وغرورا ، وقد آن انقشاع هذه الغشاوة والحمد لله رب العالمين .

كتب هذا القول بعد عصر يوم الجمعة أول يوم من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية

﴿ ياقوتة: فى معنى قوله تعالى فى هذه الآيات «والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا» الخ ﴾

بعد أن كتبت ماتقدم أردت أن أبين بعض أنواع التذكير التى ذكرنا الله بها معاشر المسلمين ليكون ذلك تكملة الجوهرة السابقة وتبصيرا للأذكياء . التذكير إما بالقول أو بالفعل . أما بالقول :

(١) فهناك هذا القرآن يدرس صباحا ومساء وصيفا وشتاء ليلا ونهارا، يدرسه المسلمون ويقرؤه قراؤهم وفيه سور كثيرة ليس فيها حكم شرعى وإنما هى ذكرى الأمم السالفة وذكرى آيات الله فى السموات والأرض وهذه الأخيرة كما تقدم مرارا (٧٥٠) آية كما أن نظيرها فى العدد أيضا تقريبا جاء فى إصلاح الأخلاق .

(٢) وهناك العبادات كما تقدم فى (سورة البقرة) فى تفسير آية الكرسى فقد ذكرت هناك أن هناك آيات قد جعلها العباد والصالحون بذورا بذروها للمسلمين ليربوهم تربية يكونون بها صالحين، فهؤلاء تراهم اختاروا الآيات الدالة على أفعال الله العجيبة كآية الكرسى ونحو « الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم » الخ، ونحو «شهد الله أنه لاإله إلاهو» الخ وأول سورة الحديد وهكذا. فهذه الآيات هى روضات الجنات ، تمتع الصالحون بألفاظها فست قلوبهم فذكروا ربهم وهى مسعدة للمفكرين والحكماء والصديقين ليدرسوا نظام ربهم ويتمتعوا بكواكبه وبشجره وبحاره وبنظمه العجيبة التى ذكر منها فى هذه السورة أى سورة الفرقان التى نحن بصدد الكلام عليها :

(١) نظام الظلال .

(٢) ونظام الليل والنهار . فأول لباس يستر الناس وفيه النوم للراحة ، والثانى ينتشر الناس فيه لطلب المعاش .

(٣) ونظام السحب والأمطار والماء الطهور .

(٤) ونظام سقى الناس والأنعام وحياة كل حى فوق الأرض .

(٥) ونظام البحرين العذب والملح .

(٦) ونظام الكواكب والبروج وعجائبهما .

(٧) ونظام الشمس .

(٨) ونظام القمر ، وأن كلا من الليل والنهار يخلف الآخر .

هذه مجاميع ماذكر الله به فى هذه السورة فضلا عن بقية سور القرآن وختم ذلك بقوله « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا» فهذه العجائب جميعها وأمثالها تكون ذكرى للذاكرين وشكرا للشاكرين .

فانظر كيف يقول « إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا» بعد أن ذكر هذه الآيات في نفس السورة وجعلها ذكرى وشكرا للفريقين المذكورين ، فاذا ذكر الله بالقرآن كله وذكرنا بالآيات التي اختارها العباد وبالآيات التي في هذه السورة فان الاعراض عن التفكر في معناها ودراسة علومها لكل قادر من المسلمين يعتبر كفرا بالنعمة وكأن الإنسان أصم أعمى . لقد تكرر الذكر والتذكير في القرآن . ناهيك ماتري في سورة «اقتربت الساعة وانشق القمر» فهناك «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» وقد كررها مرارا بعد كل حادثة وقصة ، هكذا في آيات كثيرة كقوله «وذكرهم بأيام الله» الخ ، وقوله «إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون» وقوله « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقوله « أفلم يدبروا القول » الخ وآيات كثيرة .

هذا هو التذكير القولي . أما التذكير الفعلي فهو ما أحاط بالأمم الاسلامية اليوم من القوى القاتلة والأمم القوية الظالمة وتحكمهم بهم فهذا تذكير للنوع الإنساني فعلي ، فاذا نام المسلمون عن هذا التذكير بنوعيه فلا يلومون إلا أنفسهم والعقاب الأكبر على كل مفكر عرف أمثال ماكتبناه في هذا التفسير ثم ترك النشر والتعليم .

انتهى تفسير (سورة الفرقان) يوم الاثنين التاسع من شهر فبراير سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

﴿ تذكرة ﴾

قد يستعين الناظر للصور السماوية السابقة المذكورة قريبا بمسطرة طولها ثلاثة أمتار يضعها على النجوم المعلومة لتوصل إلى النجوم المجهولة على مقتضى التعليمات المتقدمة اهـ .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني عشر من كتاب (الجواهر)
في تفسير القرآن الكريم
ويليـــه
الجزء الثالث عشر ، وأوله : تفسير سورة الشعراء

فهرس

الجزء الثانى عشر

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

